موسوعة

الموصل الحضارية

المجلد الرابع

٤





جامعة الموصل
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



المجلد الرابع

٤

دار الكتب للطباعة والنشر- جامعة الموصل

الطبعة الاولى ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م
٩١٠٢٥ / ٤٠٠٠ / ٤



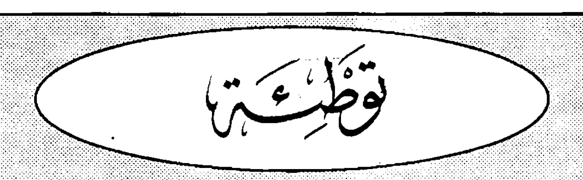


نشر وطبع وتوزيع :
دار الكتب للطباعة والنشر- جامعة الموصل
شارع ابن الاثير- الموصل- جمهورية العراق
هاتف ٧٦٣٢٣١
تلكس ٨٠٩٢



بسم الله الرحمن الرحيم





عُرفت الموصل بأصالتها وعراقتها الحضارية منذ العصور القديمة. وفي الحقبة العربية الاسلامية، اتسم تاريخ الموصل بالحيوية والازدهار والاشراق.. مما ترك الأثر الكبير في حياة هذه المدينة العظيمة.

اما في الحقبة الحديثة التي تمتد من مطلع القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) حتى مطلع القرن العشرين (الخامس عشر الهجري) فقد واجهت الموصل احداثاً خطيرة وتحديات جسام؛ منها السيطرة الأجنبية والحروب والكوارث الطبيعية كالمجاعات والأمراض والأوبئة. ومع ذلك فقد صمدت الموصل بوجه تلك التحديات والعوارض، وتفاعلت مع المتغيرات السياسية والاقتصادية التي مرّ بها العالم في مطلع العصر الحديث بكل حيوية واندفاع. وكان لموقعها الجغرافي ولأهميتها الاقتصادية، ولجدية ابنائها وحيويتهم أثر كبير في ذلك.

لقد وقعت الموصل تحت السيطرة العثمانية سنة ١٥١٦، وأبدى العثمانيون اهتماماً بها، فاتخذوا منها قاعدة رئيسة على الطريق الأوسع والأقرب بين بغداد حاضرة العراق، واستانبول عاصمة الدولة العثمانية آنذاك. كما انهم اتخذوا منها مركزاً متقدماً لضرب النفوذ الايراني وإبعاده عن المشرق العربي كله.

وعلى الرغم من المحن والتحديات التي واجهتها الموصل إبّان السيطرة العثمانية التي امتدت حتى سنة ١٩١٨م، فإن الموصل حافظت على عروبتها وشخصيتها الحضارية. وظهر ذلك واضحاً من خلال نجاح الموصليين في انتزاع الحكم من أيدي العثمانيين، طوال حقبة تزيد على المائة عام امتدت من ١٧٢٦ وحتى ١٨٣٤.

وخلال هذه الحقبة قام في الموصل حكم محلي عرف بالحكم الجليلي، نالت الموصل خلاله شرف الانتصار على جيوش الغزاة الفرس بقيادة نادرشاه، التي حاصرت المدينة لأكثر من اربعين يوماً ابتداً في ١٤ أيلول ١٧٤٣. وفشل هذا الحصار فشلاً ذريعاً.. على الرغم من ان نادرشاه قد حشد جيشاً قوامه ربع مليون مقاتل. وأكسبها صمودها هذا فخر النيابة عن العرب في حراسة البوابة الشرقية، وإبعاد الخطر الذي كان يتهدد الوطن العربي طوال قرون ثلاثة.

احتفظت الموصل خلال العهد الجليلي بشخصية محلية واضحة المعالم– ثقافياً واجتماعياً وعمرانياً وسياسياً واقتصادياً– فأصبحت اللغة العربية لغة الدوائر الرسمية والمؤسسات التعليمية. واحتضن الولاة الجليليون الشعراء والأدباء والأطباء والمؤرخين، واتسعت حركة التأليف باللغة العربية، وظهرت مجاميع من الدراسات القرآنية واللغوية والفقهية وعلوم الحديث والتاريخ والطب والموسيقى.

ونتيجة لذلك تأكد عمق إحساس المواطن العربي في الموصل بشخصيته العربية، وبدأ يسعى لتطوير بلدته وتخليص مؤسساتها شيئاً فشيئاً من السيطرة المركزية العثمانية، وكان لذلك كله اثر كبير في ظهور نهضة ثقافية علمية كبيرة مهدت فيما بعد، لبروز نزوع عربي قومي مستقل.



لقد وئدت هذه التجربة ، في عهد السلطان محمود الثاني ١٨٠٨ - ١٨٣٩ ، وأعيد الحكم المباشر الى الولايات العثمانية وطالت هذه السياسة المركزية ، الأسرة الجليلية ، ومرت الموصل باضطراب في اوضاعها العامة حتى اواسط القرن التاسع عشر ، حين اتخذت الدولة العثمانية سلسلة من التدابير الاصلاحية ضمن خطة التنظيمات التي شهدتها الدولة .. فتأثرت الموصل بهذه التدابير وشهدت مؤسساتها شيئاً من التحديث في الادارة والمحاكم والقضاء والبلدية والجيش والتعليم والطباعة والصحافة .

وسرعان ماتغلغلت رؤوس الاموال الاجنبية وخاصة الاوربية الى الموصل ، فاتسعت حركة التبادل التجاري ، وتفاعل اقتصاد الموصل مع الاقتصاد الاوربي ، بعد ان كان اقتصاداً تقليدياً يعتمد على إشباع الحاجة والاكتفاء الذاتي . كما تأسست في الموصل غرفة للتجارة والزراعة والصناعة . وظهرت البنوك فيها لتسهيل التعامل المصرفي ، وكان لتلك المتغيرات انعكاسات كثيرة في طريقة تفكير الناس والمجتمع .

ووجدت الاتجاهات الفكرية المختلفة التي ظهرت في الوطن العربي اواخر القرن التاسع عشر ، صدًى لها في الموصل ، فتنامت الحركة العربية القومية ، وانتهجت الصحف الموصلية المنهج القومي الذي كان سائداً في الصحف العربية آنذاك ، من حيث الاهتمام باللغة العربية والتاريخ العربي والدعوة الى احياء كيان العرب السياسي .

وتأسست في الموصل جمعيات وأحزاب سياسية ضمت عدداً من الشباب الموصليين المتحمسين الذين لعبوا دوراً كبيراً في بث الروح القومية ، وتنبيه الأذهان الى مساوىء الحكم العثماني . ولم تتخلف الموصل عن ارسال نوابها الى مجلس المبعوثان (النواب) ضمن دوراته الانتخابية الممتدة من ١٩٠٨ وحتى ١٩١٤ . وقام نواب الموصل بنقل مطامح ورغبات اهل وطنهم وسكان بلدتهم.

وبعد نشوب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ ، وإعلان الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦ ، وضعت امام العراقيين والموصليين منهم مهام جديدة تمثلت في النضال ضد الاحتلال البريطاني الذي جثم على ارض العراق خلال الحرب . وعندئذ بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الموصل ، الذي سيكون احد محاور الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

وفي ضوء ما تقدم ، فقد وجدت هيئة تحرير الموسوعة ، أن من الواجب عليها إعطاء الحقبة الحديثة من تاريخ الموصل ، ما تستحقه من اهتمام .فخصّصت هذا الجزء لدراسة التطورات السياسية في الموصل للحقب الواقعة بين السيطرة العثمانية سنة ١٥١٦ والاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨ .

وكان من الأسس التي استند عليها هذا الجزء ، هو تأكيد فكرة الديمومة والتواصل بين احداث الموصل عبر عصورها القديمة والوسيطة والحديثة ، وعدم الاقتصار على الجوانب السياسية من العملية التاريخية ، وإنما الاهتمام بالجوانب الحضارية .. لذلك اخذت الجوانب الادارية والقضائية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والتعليمية حيزاً واسعاً في هذا الجزء .

وهيئة تحرير الموسوعة ، على ثقة بأن يحظى هذا العمل بالكثير من القبول من محبي تاريخ الموصل وتراثها الثر ، وحسبها انها حاولت إعطاء صورة واضحة عن حياة هذه المدينة المعطاء ، بما يتناسب مع مكانتها ودورها الانساني والحضاري .

رئيس لجنة التاريخ الحديث والمعاصر



المحتويات

الموصل في التاريخ الحديث

تاريخ الموصل بين السيطرة العثمانية والاحتلال البريطاني

(٩٢٢- ١٣٣٦هـ ١٥١٦- ١٩١٨)

التطورات السياسية




مكتبة
الفكر الجديد

ولاية الموصل في أواخر العهد العثماني

« الحدود الإدارية »

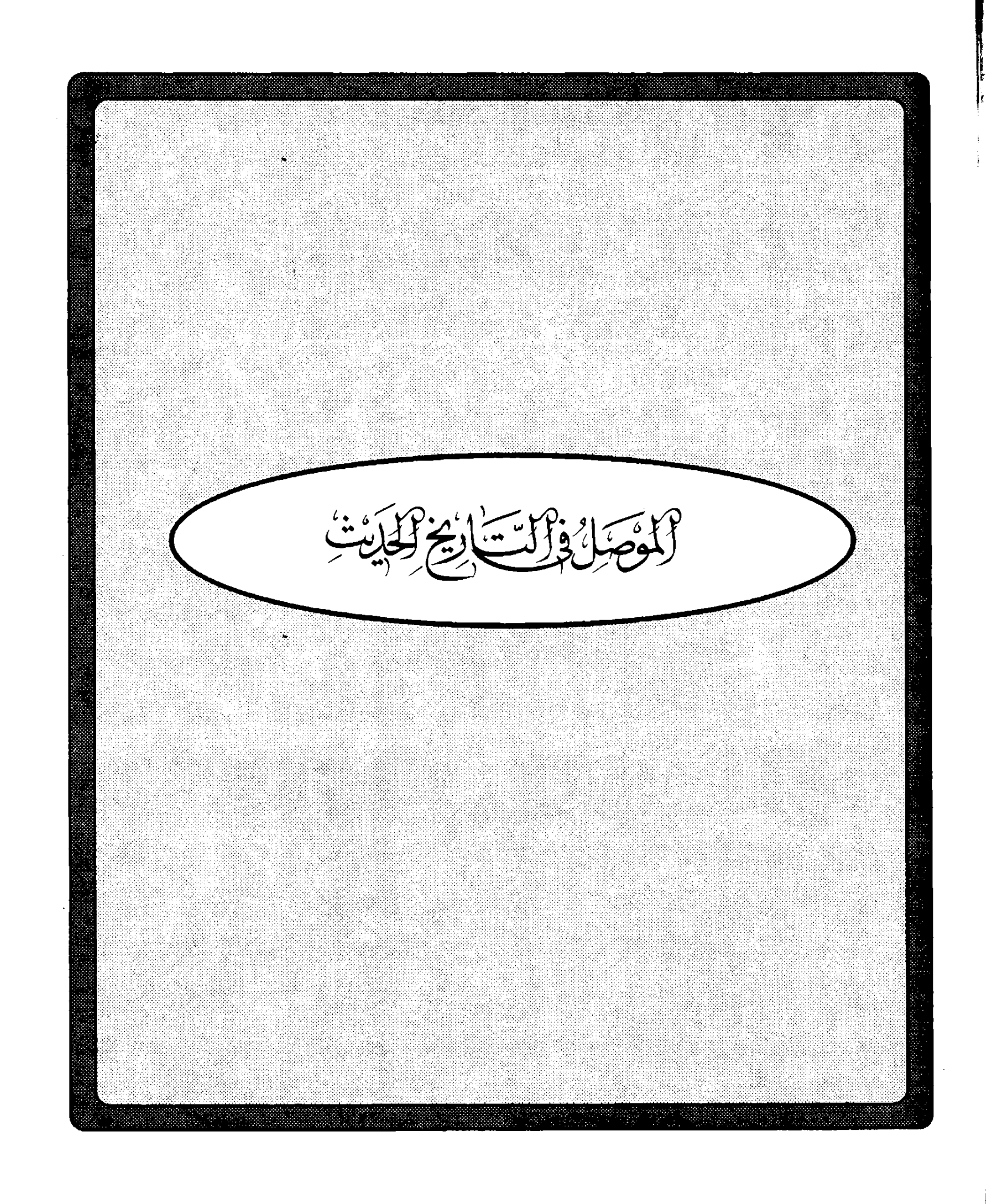
حدود الولايات
الحدود الدولية
حدود السناجق

ولاية ديار بكر
ولاية وان
ولاية الرقة
سنجق دير الزور
ولاية بغداد
بلاد فارس (عجمستان)

سنجق الموصل
سنجق كركوك
سنجق السليمانية

زاخو
عمادية
دهوك
القوش
شيخان
عقرة
زيبار
عشائر مسيعة
راوندوز
جبل سنجار
سنجار
تل عفر
الموصل
صيرمون
حمام علي
خرائب نمرود
قره قوش
نهر دجلة
الزاب الأعلى
الزاب الأسفل
اربيل
شماملك
التون كوبري
قره تبه
كركوك
تازه خورماتو
طاووق
طوزخورماتو
بكيجة
كفري - صلاحية
الفتحة
جبل حمرين
الحضر
بشدر
معمورة الحميد
شهربازار
بازيان
السليمانية
شهرزور
نهر ديالى




الموصل في التاريخ الحديث



التطورات السياسية

الموصل بين السيطرة العثمانية وقيام الحكم الجليلي

(٩٢٢ - ١١٣٩هـ) (١٥١٦ - ١٧٢٦م)

أ.د. خليل علي مراد

كانت الموصل في مطلع القرن السادس عشر بلدة صغيرة خاضعة لحكم دولة الآق قوينلو التركمانية،[١] التي شملت ممتلكاتها معظم بلاد فارس والعراق والاجزاء الجنوبية الشرقية من الأناضول (آسيا الصغرى)، لاسيما ديار بكر (آمد) والمناطق المجاورة لها.[٢] وكانت تلك الدولة تمر حينئذ بمرحلة ضعف وتفكك نتيجة للصراع المستمر على السلطة فيها، منذ أواخر القرن الخامس عشر، بين أفراد الأسرة الحاكمة. غير أن التحدي الأخطر لدولة الآق قوينلو، الذي حدد مصيرها في غضون سنوات قلائل، تمثل في قيام الدولة الصفوية في بلاد فارس سنة ١٥٠١. فقد تمكن مؤسس تلك الدولة الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠١ - ١٥٢٤) من الحاق جميع ممتلكات الآق قوينلو بدولته. فقد استولى على شمال وغرب ووسط بلاد فارس بين سنتي ١٥٠١ - ١٥٠٣م، ثم استولى على المناطق الجنوبية الشرقية من الأناضول بين سنتي ١٥٠٥ - ١٥٠٧م بما في ذلك ديار بكر التي احتلها في السنة الاخيرة.[٣] وقد ضمن له ذلك السيطرة على المناطق الكردية المجاورة، اذ انحاز الى جانبه، بعد الاستيلاء على ديار بكر، عدد من الامراء والزعماء الاكراد ومنهم حكام امارة بهدينان في العمادية. كما اعتقل الشاه اسماعيل عدداً آخر منهم بضمنهم امراء جزيرة ابن عمر (بوتان) وحصنكيف وبدليس.[٤] ومالبث الشاه أن استولى على بغداد والمناطق الوسطى من العراق وجنوب غرب بلاد فارس سنة ١٥٠٨م.[٥] اما بالنسبة للموصل فان الآراء تختلف بشأن تاريخ احتلالها من لدن الشاه اسماعيل، فقد أرخ بعضهم ذلك بسنة ١٥٠٨م،[٦] ويؤرخها بعض آخر بسنة ١٥١٠م.[٧]

ويبدو من سياق الأحداث السابقة أن الأحتلال الصفوي للموصل قد حدث في سنة ١٥٠٨م. وقد عيّن الشاه اسماعيل أحد الأمراء

الصفويين، وهو احمد بك أفشار حاكماً على الموصل. وقد بقي أحمد بك افشار حاكماً على الموصل لحين استيلاء العثمانيين عليها في أواخر سنة ١٥١٦م.[٨]

لقد كان سيطرة العثمانيين على الموصل في سنة ١٥١٦م وبغداد في سنة ١٥٣٤م والبصرة في سنة ١٥٤٦م نتيجة غير مباشرة للصراع العثماني – الصفوي من جهة، والصراع العثماني – البرتغالي في الخليج العربي من جهة اخرى[٩] وبقدر تعلق الأمر بالموصل فان احتلالها كان نتيجة غير مباشرة للصراع الاول، اي الصراع العثماني – الصفوي.

ان قيام الدولة الصفوية في بلاد فارس وتوسعها على حساب المناطق المجاورة لها في العراق والأناضول جعل الصراع بينها وبين الدولة العثمانية امراً لايمكن تجنبه، لاسيما أن قضاء الشاه اسماعيل الصفوي على بقايا دولة الآق قوينلو في الاناضول أزال حاجزاً كان قائماً بين الدولتين العثمانية والصفوية وزاد من فرص الاحتكاك بينهما. وقد اتسم هذا الاحتكاك بالعداء والسلبية نتيجة عوامل عدة. ففضلاً عن الاختلاف المذهبي بين الدولتين نظرت الدولة العثمانية بقلق الى التوسع الصفوي في جنوب شرق الاناضول، والى نشاط الدعاة الصفويين بين المجموعات التركمانية في الأناضول. وكان هذا النشاط من بين العوامل التي أدت الى حدوث تمرد مسلح ضد العثمانيين في منطقة الأناضول الوسطى سنة ١٥١١م كلف العثمانيين جهداً كبيراً لاخماده.[١٠] وكان للصراع بين الدولتين دافع اقتصادي ايضاً، اذ تطلع العثمانيون الى السيطرة على طرق التجارة المهمة في المنطقة مثل طريق تجارة الحرير الذي يبدأ من العاصمة الصفوية تبريز متجهاً غرباً الى مدن ارضروم وطوقات وبورصة في الأناضول، وطريق تجارة التوابل من البصرة الى حلب عبر طريق الصحراء غرب نهر الفرات وامتداده الآخر من البصرة الى بغداد والموصل ومن ثم الاناضول.[١١]

وقع اول صدام مسلح مباشر بين الدولتين العثمانية والصفوية عندما قاد السلطان العثماني سليم الاول (١٥١٢– ١٥٢٠م) حملة عسكرية كبيرة باتجاه بلاد فارس في سنة ١٥١٤م. وكانت المعركة الحاسمة بين الطرفين في ٢٣ آب ١٥١٤م بوادي چالديران شمال شرق بحيرة وان في اذربيجان. وانتهت المعركة لصالح العثمانيين الذين تفوقوا في استخدام سلاح المدفعية، أما الشاه اسماعيل فقد فرّ من ميدان المعركة مخلفاً وراءه عدداً كبيراً من القتلى والجرحى بضمنهم عدد من كبار قادة جيشه. ثم دخل السلطان سليم الاول العاصمة الصفوية تبريز في ٥ أيلول ١٥١٤م وانسحب منها بعد وقت قصير الى مدينة أماسيه في الاناضول حيث امضى فصل شتاء ١٥١٤– ١٥١٥م.

كانت معركة چالديران نقطة تحول قلبت موازين القوى في مناطق شرق وجنوب شرق الاناضول وشمال العراق. فقد ادى الانتصار العثماني الى زعزعة مركز الصفويين في تلك المناطق، لاسيما ان سكانها كانوا ينفرون من الصفويين وسياستهم.[١٢] وقد هيأ هذا الوضع فرصة مناسبة للسلطان سليم الأول من اجل بسط السيطرة العثمانية عليها مستخدماً الدبلوماسية حيناً والقوة العسكرية حيناً آخر.

لقد لجأ السلطان سليم الأول الى الدبلوماسية لكسب الأمراء والزعماء الاكراد في تلك المناطق. فقد أدرك السلطان العثماني صعوبة استخدام القوة العسكرية لاخضاع المناطق الكردية ذات الطبيعة الجبلية الوعرة، فضلاً عن افتقاره الى قوات كافية للقيام بتلك المهمة.[١٣] وقد اعتمد في هذا المجال على جهود المؤرخ والعلاّمة الكردي ادريس البدليسي (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م).[١٤] فقد



أرسله السلطان سليم الاول من أماسية الى تلك المناطق ليقوم بالدعاية والترتيبات اللازمة لضمان اعتراف الأمراء والزعماء الاكراد هناك بالحكم العثماني.[١٥] وقد صادف ادريس البدليسي نجاحاً استحق عليه الثناء والتكريم من السلطان سليم الاول.[١٦] وكان من بين من اعترف بالحكم العثماني حكام الامارات الكردية المهمة مثل امارة بدليس، اكبر الامارات في كردستان الغربية، وامارات بهدينان وأردلان وجزيرة ابن عمر (بوتان) وغيرها. وصارت هذه الامارات تحت الحماية العثمانية، لكنها احتفظت بنظمها الداخلية وقوانينها وعاداتها.[١٧] وحسبما ذكر ستيفن همسلي لونكريك[١٨] S.H. Longrigg فان «امتلاك الاكراد لكردستان الوسطى وشمالي العراق... لم يتضمن أكثر من توزيع البرّات والفرمانات [اي المراسيم السلطانية العثمانية] وقبول الطاعة والهدايا...».

اما في بقية مناطق جنوب شرق الاناضول وشمال العراق فقد استخدم العثمانيون اسلوب القوة العسكرية لالحاقها بالدولة العثمانية. فبعد انقضاء فصل الشتاء غادر السلطان سليم الاول مدينة اماسية في ربيع سنة ١٥١٥م واستولى على قلعة كماخ وامارة ذو القدر[١٩] الواقعة بين الدولة العثمانية ودولة المماليك في بلاد الشام ومصر والتي كان كل منها تدعى وقوعها تحت نفوذها، ثم عاد السلطان العثماني الى العاصمة اسطنبول في ١١ تموز١٥١٥.[٢٠] وقد ترك مهمة اكمال احتلال بقية تلك المناطق والقضاء على مؤيدي الصفويين فيها الى احد قادة جيشه وهو بيقلي محمد باشا.[٢١] وقد نجح هذا الأخير، تدعمه قوتان يقود احداها ادريس البدليسي ويقود الثانية والي سيواس شادي باشا،[٢٢] في احتلال مدن ديار بكر (آمد) وخربوط وصار أول والي عثماني على ديار بكر.[٢٣] وتمكن بيقلي محمد باشا من الحاق هزيمة كبيرة بالقوة الصفوية الرئيسة في المنطقة التي كان يقودها القائد الصفوي قره خان في معركة «قَرغَن ده ده» قرب موقع كوجك حصار على بعد ١٧ كم جنوب غرب مدينة ماردين في ٤ أيار ١٥١٦م.[٢٤] وقد حددت هذه المعركة مصير الوجود الصفوي في المدن والمواقع الأخرى في منطقة جنوب شرق الأناضول وشمال العراق والتي سقط معظمها بيد العثمانيين. ومن هذه المدن والمواقع: الموصل واربيل وكركوك وماجاورها.[٢٥] ولاتتوافر معلومات كافية عن تفاصيل الاحتلال العثماني لمدينة الموصل باستثناء اشارة المؤرخ العثماني خوجه سعد الدين افندي (١٥٣٦ – ١٥٩٩م) الى أن بيقلي محمد باشا انتزع المدينة من حاكمها الصفوي احمد بك أفشار بمعونة احد أمراء الأكراد يدعى بدربك، وان هذا الامر تم بعد احتلال السلطان سليم الاول مدينة حلب (٢٨ آب ١٥١٦م)،[٢٦] ويؤكد مؤرخ معاصر[٢٧] ان بيقلي محمد باشا استولى على الموصل بعد معركة عنيفة، وان ذلك تم بعد انتصار السلطان سليم الاول على المماليك في معركة مرج دابق في ٢٤ آب ١٥١٦م. وان ذلك السلطان ارسل بعد تلك المعركة تعزيزات عسكرية الى بيقلي محمد باشا، وقد استفاد منها في احتلال مدينتي ماردين والموصل. وهذا يعني ان الاحتلال العثماني للموصل كان في اواخر سنة ١٥١٦م.

وتقتضي الضرورة الاشارة هنا الى أن بعض المصادر والمراجع التاريخية الموصلية تذكر معلومات غير دقيقة بهذا الصدد مؤداها ان السيطرة العثماني للموصل تم على يد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠–١٥٦٦م) في سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م وهي السنة التي احتل فيها السلطان المذكور مدينة بغداد.[٢٨] علماً بأن المصادر التاريخية التي تطرقت الى حملة السلطان سليمان القانوني ضد الدولة الصفوية سنة ١٥٣٤، والتي قادته الى احتلال بغداد، تؤكد عدم مرور السلطان سليمان القانوني



بمدينة الموصل في حملته ذهاباً واياباً.[٢٩]

ومهما يكن من أمر، فان الغموض يكتنف جوانب عدة من تاريخ الموصل في اوائل العهد العثماني بسبب قلة المعلومات. ولكن مايتوفر لدينا يشير الى ان الموصل صارت بعد الاحتلال العثماني مباشرة لواءً (سنجق) عثمانياً تابعاً لولاية ديار بكر،[٣٠] ثم صارت الموصل في سنة ١٥٣٩م مركزاً لولاية عثمانية قائمة بذاتها.[٣١] ويبدو أنها عادت لواءً في بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر، إذ تشير السجلات الرسمية العثمانية الى الموصل بوصفها لواءً تابعاً لولاية بغداد.[٣٢] ثم تشير اليها في الربع الأخير من ذلك القرن بوصفها مركز ولاية عثمانية قائمة بذاتها.[٣٣] ويؤكد ذلك المؤرخ العثماني فريدون بك (ت ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م) ايضاً.[٣٤] والى شيء من هذا القبيل ايضاً يشير المؤرخ المعاصر دونالد بتشر D.E Pitcher عندما يذكر ان الموصل لم تكن ولاية دائمية حتى أواخر القرن السادس عشر.[٣٥] اما بعد ذلك فقد استقر وضع الموصل ادارياً بوصفها مركز ولاية عثمانية ترتبط بها ادارياً ستة الوية هي باجوانلو واسكي موصل وكشاف وتكريت وهارون وزاخو.[٣٦]

ولاشك ان جعل الموصل مركزاً لولاية عثمانية قائمة بذاتها يرتبط ايضاً باستعادة هذه المدينة مكانتها التاريخية والاقتصادية في القسم الشمالي من العراق، ناهيك عن الأهمية الاستراتيجية التي تمتعت بها من وجهة النظر العثمانية، خاصة فيما يتعلق بالصراع مع الدولة الصفوية. فقد اتخذ العثمانيون الموصل احياناً قاعدة لحملاتهم العسكرية باتجاه اذربيجان في شمال غرب بلاد فارس، او باتجاه سوريا احياناً اخرى.[٣٧] فضلاً عن دور الموصل التقليدي في المساهمة في الحملات العثمانية باتجاه المناطق الوسطى والجنوبية من العراق حيثما تطلبت الحاجة ذلك كما سيأتي ذكره لاحقاً.

ان تأخر ظهور الموصل مركزاً لولاية عثمانية دائمية في القرن السادس عشر ربما يُفسر لنا قلة المعلومات عن ادارة المدينة حتى نهاية ذلك القرن. فالمصادر التاريخية المحلية الموصلية والسالنامات العثمانية (الكتب السنوية) الخاصة بولاية الموصل تبدأ بذكر ولاتها اعتباراً من سنة ١٠٠٠هـ / ١٥٩١-١٥٩٢م.[٣٨] ويُستفاد من هذه المصادر أن الموصل شهدت حكم ١٠٢ والٍ بين ١٠٠٠هـ-١١٣٩هـ / ١٥٩١- ١٧٢٦ تولى بعضهم هذا المنصب اكثر من مرة.[٣٩] وكان منهم بعض الاشخاص من اهل الموصل والمناطق المجاورة لها. ففي سنة ١٠٠٩هـ / ١٦٠٠- ١٦٠١م عُهدت ولاية الموصل الى حاكم العمادية حسن باشا الذي وليها مدة ثلاث سنوات وسبعة اشهر[٤٠] كما عُهدت الولاية في سنة ١٠٣٠هـ / ١٦٢٠-١٦٢١م الى احد ابناء الموصل وهو بكر باشا بن يونس الموصلي، الذي تولى المنصب مرة أخرى لبعض الوقت في سنة ١٠٣٥هـ / ١٦٢٦م. ويقول فيه المؤرخ الموصلي محمد أمين بن خير الله العمري (١٧٣٨- ١٧٨٨م) أنه «كان رجلاً شهماً، له رياسة من اهالي الموصل. وساعدته الاقدار، وعُرف عند رجال الدولة فوجهت له ولاية الموصل سنة واحدة. ثم صُرف عنها وتنقل في المناصب والولايات ثم اعيد اليها سنة خمس وثلاثين [وألف]. فطالت يده وامتدت الى المظالم، وتملك عقارات الناس واراضيهم. وعمر سور الموصل ثم ضم اليه مدينة خرت برت [خربوط] ولم تطل ايامه فمات...»[٤١]

والى جانب تنظيم الادارة اهتمت الدولة العثمانية، بعد احتلال الموصل مباشرة، بتهدئة الاوضاع في المدينة والقضاء على ما تركه غيرهم فيها من آثار ثقافية واجتماعية[٤٢]. سيما وان سكانها اتخذوا موقفاً سلبياً من العثمانيين آنذاك.[٤٣] وقد سعت الدولة العثمانية الى تحقيق تلك الأهداف من خلال العمل على كسب تأييد السكان لها، ونشر



المذهب الحنفي في الموصل وهو المذهب الرسمي للدولة العثمانية. وكان لاستقدام بعض الشخصيات من الحجاز الى الموصل علاقة بهذا المسعى كما يبدو. فقد اصدر السلطان سليمان القانوني أمراً باستقدام كل من الحاج قاسم العمري (ت ١٥٩١م) من مكة المكرمة والسيد عبيدالله الاعرجي الحسيني من المدينة المنورة الى الموصل. وقد سكن الاول في المحلة المعروفة باسم باب العراق في القسم الجنوبي من الموصل حينئذٍ، وبنى له جامعاً كبيراً في سنة ٩٧١ هـ/ ١٥٦٣ م وغدا اماماً وخطيباً فيه. وسكن الثاني في المحلة المعروفة باسم محلة السادة في القسم الشمالي من مدينة الموصل، ولاتزال تعرف بحظيرة السادة. وكان وصول هاتين الشخصيتين الى الموصل في اواسط القرن السادس عشر.(٤٤) وقد انحدرت من الاول الأسرة العمرية التي كان لها دور سياسي وثقافي في تاريخ الموصل فيما بعد.(٤٥) اما المنحدرون من الثاني فقد انحصرت فيهم نقابة الاشراف في الموصل.(٤٦)

وفضلاً عن الأجراء السابق فان السلطات العثمانية في الموصل قامت بمراقبة واعتقال ونفي من يُشك في ولائه للدولة العثمانية أو وجود ميول مؤيدة للصفويين لديه. ومع أننا لانمتلك معلومات عن مدى تطبيق هذه الاجراءات في اوائل العهد العثماني، فان الوثائق العثمانية تشير الى تطبيقها في الموصل والمناطق المجاورة لها ابان النصف الثاني من القرن السادس عشر.(٤٧)

ويبدو ان مركز العثمانيين في الموصل لم يواجه تحدياً مهماً يذكر طيلة القرن السادس عشر والربع الاول من القرن السابع عشر. غير ان الظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية وتطورات الاحداث في مناطق اخرى من العراق ادت الى وقوع الموصل مجدداً تحت الاحتلال الصفوي منذ اواخر سنة ١٦٢٣م. ففي بداية القرن السابع عشر كانت الدولة العثمانية تعاني من مشكلات عدة من بينها كثرة تمردات الجيش الانكشاري العثماني، وتعاقب سلاطين ضعاف اهملوا شؤون الدولة على الحكم، وتدخل الحريم في شؤون الدولة. والازمة الاقتصادية التي تمثلت في انخفاض قيمة العملة والعجز في ميزانية الدولة.(٤٨) وقد انعكست هذه الحالة سلباً على هيبة السلطة المركزية العثمانية في الولايات، لاسيما البعيدة منها حيث كثرت حوادث الخروج على تلك السلطة، وكانت ولاية بغداد من ضمن تلك الولايات. ففي سنة ١٦٢٣م قام احد ضباط الجيش الانكشاري في بغداد هو بكر الصوباشي بحركة تمرد ضد الوالي واعلن نفسه حاكماً على المدينة.(٤٩) وقد رفضت السلطات العثمانية في اسطنبول قبول هذا الوضع وارسلت حملة عسكرية بقيادة والي ديار بكر حافظ احمد باشا ضد بكر الصوباشي، وقد انضمت الى هذه الحملة قوات عسكرية من ولاية الموصل.(٥٠)

وعند وصولها الى بغداد فرضت قوات الحملة العثمانية حصاراً عليها، فبادر بكر الصوباشي الى طلب المساعدة من الدولة الصفوية، وكان على عرشها يومئذٍ الشاه عباس الأول (١٥٨٨-١٦٢٩م). وأرسل الصوباشي مفاتيح بغداد الى الشاه الصفوي ثمناً لقيام الأخير بفك الحصار العثماني عن بغداد والاعتراف بالصوباشي حاكماً عليها. وقد رحب الشاه عباس الأول بهذا العرض على الفور على أمل استغلال الفرصة لاعادة اخضاع بغداد للحكم الصفوي، وأصدر أوامره الى بعض قادته بالتوجه مع قوات صفوية الى بغداد ثم اعقبهم الشاه بنفسه على رأس حملة كبيرة. وحال سماع حافظ احمد باشا بهذه الأنباء قرر التفاهم مع بكر الصوباشي خشية من وقوع بغداد بيد الصفويين، فاعترف بالصوباشي والياً على بغداد وأسند اليه مهمة الدفاع عنها.(٥١) وحينئذ حاول الصوباشي اقناع القوات الصفوية المتجهة نحو بغداد بانتفاء الحاجة اليها وطلب منها، بطريقة



ودية ، العودة الى بلادها . لكن القوات الصفوية التي كان هدفها احتلال بغداد لا لنجدة بكر الصوباشي ، واصلت تقدمها باتجاه بغداد وفرضت عليها الحصار. ثم وصل الشاه عباس نفسه في صيف ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م للاشتراك في الحصار الذي دام حوالي ثلاثة اشهر، [٥٢] سقطت المدينة بعدها بيد الصفويين. ومن هناك وسع الشاه عباس نطاق الاحتلال الصفوي ليشمل الحلة وكربلاء والنجف، وأرسل حملة عسكرية ضد الموصل بقيادة قرجغاي خان. وقد حاصرت هذه القوة مدينة الموصل التي تحصن سكانها داخل اسوارها وباشروا الدفاع عنها ببسالة. وعندما طال امد الحصار أرسل الشاه عباس الاول تعزيزات عسكرية بقيادة قاسم سلطان أفشار لدعم قوات قرجغاي خان. ونتيجة لتشديد الحصار وتدهور الأوضاع داخل المدينة بسبب انقطاع وصول المؤن والامدادات اليها اضطر سكان الموصل الى طلب الأمان وفتحوا أبواب المدينة بوجه الغزاة ، الذين قتلوا كثيراً من سكانها وسلبوا أموالهم وعندما هدأت الحالة ونجح الصفويون في تأمين سيطرتهم على المدينة عاد قرجغاي خان الى بغداد تاركاً أمرها الى قاسم سلطان افشار الذي منحه الشاه لقب «خان» وأناط به حكمها وخصص له حامية عسكرية صفوية لمساعدته في الاستحواذ على اطرافها والدفاع عنها أمام هجمات العثمانيين المتوقعة . [٥٣]

استمر الاحتلال الصفوي للموصل حوالي ثلاث سنوات رفض الموصليون خلالها اقامة أي شكل من اشكال التعاون مع المحتلين. [٥٤] وازاء قسوة قاسم خان وسوء معاملته مع سكان المدينة اضطر كثير منهم الى مغادرتها ، ومن بينهم بعض أفراد الاسرة العمرية الذين هاجروا الى العمادية والى جزيرة ابن عمر. [٥٥] وفي سنة ١٦٢٦م استرد العثمانيون الموصل بعد ان نجحت قوة عثمانية يقودها جركس حسن باشا في طرد قاسم خان من الموصل وتعقب فلول قواته حتى جنوب كركوك . [٥٦]

استأنفت الموصل ، بعد استعادتها من الصفويين ، دورها في الاستراتيجية العسكرية العثمانية اذ عادت قاعدةً عسكرية مهمة للحملات العثمانية التي كان هدفها استرداد بغداد والمناطق الاخرى من الصفويين. [٥٧] لاسيما حملة السلطان مراد الرابع (١٦٢٣- ١٦٤٠م) التي مرت بالموصل سنة ١٦٣٨م وأمضت فيها عشرة أيام للراحة واكمال الاستعدادات النهائية للتوجه نحو بغداد. [٥٨] واستقبل فيها السلطان العثماني سفيراً من امبراطور المغول في الهند. [٥٩] وقد اشتركت قوات من ولاية الموصل في حملة السلطان تلك . [٦٠]

وخلافاً للنزر اليسير من المعلومات التي بين أيدينا عن تاريخ الموصل في القرن السادس عشر فان لدينا قدراً افضل من المعلومات عن الفترة اللاحقة . وتساعدنا هذه المعلومات على تكوين فكرة واضحة ، الى حدما ، عن تاريخ الموصل السياسي إبّان القرن الذي يبدأ باستعادة الموصل من الصفويين سنة ١٦٢٦م وينتهي بتولي الأسرة الجليلية حكم المدينة سنة ١٧٢٦م.

لقد تعاقب على ولاية الموصل في ذلك القرن عدد كبير من الولاة امضى قسم منهم سنة او أكثر في المنصب وامضى القسم الآخر أشهراً قليلة فيه. وكان معظم هؤلاء غرباء عن الموصل باستثناء بعضهم ، فمثلاً عُين ميرزا بك الداسني ، من عشيرة الداسني اليزيدية المعروفة والياً على الموصل بين سنتي ١٦٤٩- ١٦٥٠م. وكان هذا قد شارك في حملة السلطان مراد الرابع ضد بغداد سنة ١٦٣٨م ، كما كان على علاقة طيبة مع الصدر الاعظم العثماني قره مراد باشا الذي رشحه والياً على الموصل برتبة باشا . وعندما عزل الصدر الاعظم قره مراد باشا في سنة ١٦٥٠م فقد ميرزا بك دعمه وعزل بدوره عن ولاية الموصل. [٦١] وفي ثمانينات



القرن السابع عشر عُين عربي من أهل الموصل والياً عليها هو عرب علي باشا الشهير بعلي قدوم اوكدوم. وقد تولى هذا منصبه مرتين كانت الاولى سنة ١٦٨٣م والثانية سنة ١٦٨٦ – ١٦٨٧. (٦٢) وقد عُرف بعدله وحزمه، وصلحت أحوال ولاية الموصل في عهده وقطع دابر اللصوص فيها. (٦٣) وقد أنشأ لنفسه قصراً منيفاً على تل صغير جنوب الموصل قريباً من مزار الشيخ محمد الغزلاني، استمرت آثاره قائمة حتى عهد قريب وعرف باسم «الايوان». (٦٤) اما بقية ولاة الموصل فلم تسجل عهودهم مايستحق الذكر باستثناء مدد ولايتهم، وقد عُرف عن بعضهم الظلم والسيرة الذميمة مثل ابراهيم باشا الذي كان والياً عليها سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م، التي تصادف فيها حدوث مجاعة وموجة غلاء في الموصل دفعت قسماً من اهاليها الى تركها بحثاً عن الرزق في مناطق اخرى. (٦٥) وكانت حوادث المجاعة والغلاء نتيجة انحباس المطر او موجات الجراد، وكذلك انتشار الاوبئة والامراض الفتاكة لاسيما وباء الطاعون من الامور التي تكررت مرات عدة في تاريخ الموصل ابان القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر. (٦٦)

ومما تسجله المصادر التاريخية بوضوح. مساهمة الموصل في جميع الحملات العسكرية العثمانية التي استهدفت تأكيد السيطرة العثمانية على جنوب العراق ومواجهة الحركات المسلحة التي حدثت ضدهم هناك وخاصة في البصرة ومنطقتها. ومن ذلك مساهمة ولاية الموصل في الحملات التي قادها والي بغداد في سنتي ١٦٦٥م و١٦٦٧م ضد اسرة أفراسياب التي كانت تحكم البصرة منذ سنة ١٥٩٦. وفي حملة والي بغداد ضد قبيلة المنتفق في البصرة سنة ١٦٩٢م، وفي الحملة التي قادها والي بغداد ايضاً سنة ١٧٠٠م لاستعادة البصرة والقرنة من ايدي امراء الحويزة، وفي حملة سنة ١٧٠٢م لضرب عشيرة الخزاعل، وحملة سنة ١٧٠٧م ضد قبيلة المنتفق في اطراف البصرة. (٦٧)

وفضلاً عن ذلك أسهم والي الموصل، الى جانب ولاة بغداد وشهرزور وديار بكر، في الحملة العسكرية التي ارسلتها الدولة العثمانية الى حلب في سنة ١٧١٩م لقمع التمرد الذي قام به العرب المعروفين بالعباسيين هناك. (٦٨)

ومن الاحداث المهمة في تاريخ الموصل، قبيل تولي آل الجليلي السلطة فيها، النزاع بين الولاة الاتراك والارستقراطية المحلية من الأسرة العمرية حول السلطة والنفوذ فيها. وقد تطور ذلك النزاع الى مصادمات مسلحة الحقت اضراراً باقتصاد الموصل وهددت أمنها واستقرارها. (٦٩) وتفسر بعض المراجع التاريخية بواعث ذلك النزاع بنظرة الحسد التي كان ينظرها الولاة الاتراك الى نفوذ وثراء بعض أفراد الأسرة العمرية. (٧٠) ويضيف بعضهم بُعداً قومياً للنزاع بالقول «ان عروبة الموصل بفئاتها الاجتماعية وطبقاتها المتباينة كانت دائمة الرفض لكل والٍ تركي غريب». (٧١) غير ان من الصعب قبول هذا الرأي تماماً، ذلك ان مواقف سكان الموصل اختلفت في ذلك النزاع مابين مؤيد للعمريين ومؤيد للولاة الاتراك.

كان اول نزاع بين الأسرة العمرية ووالي الموصل العثماني ابراهيم باشا في سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م. وقد اتخذ النزاع شكل فتنة اهلية انقسم فيها سكان الموصل بين مؤيد لهذا الطرف أو ذاك، وامتدت تلك الفتنة اياماً تعرضت فيها مصالح سكان الموصل لضرر كبير. (٧٢) وتكرر النزاع مرة أخرى في سنة ١١٣٨هـ / ١٧٢٥م بين الوالي العثماني والمفتي علي افندي العمري وعُرف هذا النزاع بـ «فتنة علي افندي العمري». (٧٣) وقد تطور النزاع الى مصادمات مسلحة استمرت ستة اشهر نهبت خلالها الحوانيت وقتل كثير من أهالي الموصل. (٧٤) وبعد أشهر قليلة من انتهاء تلك المصادمات اسندت الدولة العثمانية ولاية الموصل في سنة ١١٣٩هـ /

١٧٢٦ م الى اسماعيل الجليلي ، وهو من أسرة تجارية محلية ذات ثروة ونفوذ في الموصل . وكان هذا التعيين فاتحة عهد جديد من تاريخ الموصل وهو عهد الأسرة الجليلية الذي استمر حتى سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٤ م .

الهوامش

(١) الآق قوينلو (الخروف الابيض) يُعرفون بالبايندرية ايضاً نسبة الىٰ بايندر جدهم الاعلىٰ . وهم مجموعة قبائل تركمانية مواطنها الاصلية في تركستان ، وقد تحركت في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي صوب خراسان وانتهىٰ بها المطاف بالاستقرار في المنطقة الواقعة بين اذربيجان وخربوط وديار بكر في اواخر القرن الرابع عشر الميلادي . وأقامت فيا بعد امارة مركزها ديار بكر ، وتوسعت هذه الامارة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الى دولة واسعة شملت بلاد فارس والعراق ايضاً ، لمزيد من التفاصيل راجع ؛
Ismail H. Uzuncarsili; Anadolu Beylikleri ve AK Koyunlu, Kara Koyunlu devletleri (Ankara-1969) pp.180–187 وكذلك ، عماد الجواهري ؛ صراع القوى السياسية في المشرق العربي ؛ من الغزو المغولي حتى الحكم العثماني (الموصل ١٩٩٠)،ص ص ٣١– ٤٥ .

(٢) عبدالله بن فتح الله البغدادي ؛ التاريخ الغياثي ، الفصل الخامس ٦٥٦ – ٨٩١ هـ / ١٢٥٨ – ١٤٨٦ م (بغداد – ١٩٧٥ – دراسة وتحقيق طارق نافع الحمداني) ، ص ص ٣٧٢ ، ٣٨٣ .

(٣) Roger M. Savory; "the consolidation of Safawid power in Persia", Der Islam, No. 41, 1965, pp. 75-76.

(٤) John S. Guest; The Yezidis, A study in Survival (London- 1987) P. 44.

(٥) Savory; op. cit, pp. 76-77.

(٦) راجع مثلاً ؛ سالنامة ولاية الموصل لسنة ١٣٣٠ هـ ، ص ٦٦ وكذلك ؛ Guest; op. cit, p44.

(٧) راجع مثلاً ؛ ستيفن همسلي لونكريك ؛ اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (بغداد – ط ٣ – ١٩٦٢ – ترجمة جعفر خياط) ص ١٨ ؛ الجواهري ؛ المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٨) سالنامة ولاية الموصل لسنة ١٣٣٠ هـ ، ص ٦٦ .

(٩) نيقولاي ايفانوف ؛ الفتح العثماني للاقطار العربية (بيروت – ١٩٨٨ – ترجمة يوسف عطاالله) ص ٨٣ .

(١٠) راجع تفاصيل ذلك في ؛ روبرت اولسن ؛ حصار الموصل والعلاقات العثمانية – الفارسية ١٧١٨ – ١٧٤٣ (الرياض – ١٩٨٣ – ترجمة عبدالرحمن الجليلي) ص ص ٥٧ – ٥٨ .

P.Jackson & the Late L. Lockhart (eds.); The Cambridge history of Iran, vol. 6, (Cambridge-1986) pp. 220-222.

(١١) صالح اوزبران ؛ الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ – ١٥٨١ (بغداد – ١٩٧٩ – ترجمة عبد الجبار ناجي) ص ، ٢٧ ؛ سيار كوكب الجميل ؛ «دراسات في السيطرة العثمانية على الموصل واقليم الجزيرة سنة ١٥١٦» القسم الأول ، مجلة بين النهرين – السنة ٨ – العدد ٣٠ – ١٩٨٠ ، ص ص ١٩٧ – ١٩٨ .

(١٢) Donald E. Pitcher; An historical geography of the Ottoman empire [Leiden)-1972) P. 103.

(١٣) Stanford J, Shaw; History of the Ottoman empire and modern Turkey (Cambridge-1977) vol, l, p.82.

(١٤) ادريس البدليسي علامة ومؤرخ كردي عمل لدىٰ بلاط الآق قوينلو في تبريز ، وبعد قيام الدولة الصفوية ذهب الى اسطنبول ودخل في خدمة العثمانيين حيث عمل لدىٰ السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ – ١٥١٢ م) وألف بناء علىٰ طلب الاخير كتابا في التاريخ العثماني بعنوان «هشت بهشت» اي الجنان الثماني : وبعد ذلك عمل البدليسي لدىٰ السلطان سليم الاول . وله مؤلفات عدة في العلوم الدينية . وتوفي سنة ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م . انظر عنه ؛ بروسه لي محمد طاهر ؛ عثمانلي مؤلفلري (اسطنبول – ١٣٤٢ هـ) جلد ٣ ، ص ص ٦ – ٧ ؛ شرفخان البدليسي ؛ شرفنامة (القاهرة – ١٩٦٢ – ترجمة محمد علي عوني) جـ١ ، ص ص ٣٥١ – ٣٥٢ .

(١٥) H.Uzunçarşili; Osmanli Tarihi (Ankara-1949) 2 cilt, p. 261.

(١٦) راجع نص المرسوم «الفرمان» الذي اصدره السلطان سليم الاول في شهر شوال ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م بشأن تكريم ادريس البدليسي في ؛ خوجة سعد الدين ؛ تاج التواريخ (اسطنبول – ١٢٧٩ هـ) جـ٢ ، ص ص ، ٣٢٢ – ٣٢٣ .

(١٧) ايفانوف ؛ المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(١٨) لونكريك ؛ المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(١٩) محمد فريد بك ؛ تاريخ الدولة العلية العثمانية (بيروت – ١٩٧٧) ص ، ٧٤ .

(٢٠) Yilmaz öztuna; Büyuk Türkiye tarihi (Istanbul-1983) 3. cilt, P. 223.

(٢١) Shaw; op. cit, vol.l, p. 82.

(٢٢) Öztüna; op. cit, 3. cilt, P. 224.

(٢٣) Pitcher; op. cit, P. 103.

(٢٤) ايفانوف ؛ المصدر السابق ، ص ٨٥ ؛
Öztüna; op. cit, 3. cilt, p. 225.

(٢٥) Pitcher; op. cit, p.103. ؛ سيار الجميل ؛ «دراسات في السيطرة العثمانية ...» القسم الثاني ، مجلة بين النهرين ، العدد ٣١ ، ١٩٨٠ ، ص ٣٣٤ .

(٢٦) سعدالدين ؛ المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ص ٣١٩ ، ٣٢١ ؛ سالنامة الموصل لسنة ١٣٣٠ هـ ، ص ٥٨ .



(٢٧) ايفانوف، المصدر السابق، ص ٨٥.

(٢٨) راجع مثلاً، ياسين بن خيرالله الخطيب العمري، منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء (الموصل- ١٩٥٥- تحقيق سعيد الديوه‌جي) ص ٧١، محمد امين بن خيرالله العمري، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء (الموصل- ١٩٦٧- تحقيق سعيد الديوه‌جي) ج١، ص ١٣٤، القس سليمان صائغ، تاريخ الموصل (مصر- ١٩٢٣) ج١، ص ٢٦٢.

(٢٩) راجع خط سير حملة السلطان سليمان القانوني المذكورة، في، حسين محمد القهواتي، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٣٤- ١٦٣٨ (رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الاداب- جامعة بغداد- ١٩٧٥) ص ص ٩٢- ١٠٧، ١٢٣- ١٢٤.

(٣٠) Metin Kunt; Sancakten Eyalete, 1550-1650 arasinda Osmanli umerasi ve il idaresi (Boğaziçi universitisi yayinlarl, No. 154) p. 130., Encyc. of Islam, New Edition, Art. "Diyar Bakr" vol, 2, p. 345.

(٣١) Baş Vekalet Arşivi; Tapu defteri, No. 195 (Mosul) ويرجع تاريخ هذا الدفتر الى سنة ٩٤٦ هـ/ ١٥٣٩- ١٥٤٠ م ويذكر الموصل بوصفها مركز ولاية عثمانية ترتبط بها عدة الوية.

(٣٢) Kunt; op.cit, P. 144.

(٣٣) Baş Vekalet Arsivi; Tapu defteri, No. 660 (Mosul) ويرجع هذا الدفتر الى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤- ١٥٩٥ م).

(٣٤) فريدون بك، منشآت السلاطين (اسطنبول- ١٢٧٥ هـ/ ١٨٥٨ م) ج٢، ص ٤٠٧.

(٣٥) Pitcher; op. cit, p. 128.

(٣٦) Kunt; Op. cit, P. 196. وهناك اختلافات نسبية بين تحديد المؤرخين والجغرافيين العثمانيين لحدود ولاية الموصل والألوية التابعة لها في القرن السابع عشر. ويُعزىٰ ذلك الى حقيقة ان حدود الولاية وتقسيماتها الادارية لم تكن ثابتة، بل عرضة للتغيير من وقت لآخر، راجع التفاصيل في، خليل علي مراد، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٦٣٨- ١٧٥٠ (رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الاداب- جامعة بغداد- ١٩٧٥) ص ص ٥١- ٥٣.

(٣٧) Shaw; op. cit, vol, I, P. 129.

(٣٨) محمد امين العمري، المصدر السابق، ج١، ص ١٣٥، ياسين العمري، المصدر السابق، ص ٧١، سالنامة ولاية الموصل لسنة ١٣١٠ هـ/ ١٣٠٨ رومي، ص ٦٠.

(٣٩) سالنامة ولاية الموصل لسنة ١٣١٠ هـ/ ١٣٠٨ رومي، ص ص ٦٠- ٦٤.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٦٠.

(٤١) محمد امين العمري، المصدر السابق، ج١، ص ص ١٣٥- ١٣٦.

(٤٢) عماد عبدالسلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي ١٧٢٦- ١٨٣٤ م (النجف الاشرف- ١٩٧٥) ص ٤٩.

(٤٣) ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦- ١٩١٦، (الموصل- ١٩٨٣) ص ٤٢.

(٤٤) صائغ، المصدر السابق، ج١، ص ص ٢٦٦- ٢٦٧، سيار الجميل، «الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي ١٧٢٦- ١٨٣٤» في، الحياة الاجتماعية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني (زغوان- ١٩٨٨) ص ٢٤٩.

(٤٥) عن دور الأسرة العمرية، لاسيما الثقافي، راجع، ذنون يونس حسين الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في اواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني (رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الاداب- جامعة الموصل- ١٩٩٠) ص ٢٥ ومابعدها.

(٤٦) رؤوف، المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٤٧) C.H. Imber; "The persecution of the Ottoman Shiites according to the mühimme defterleri 1565-1585" Der Islam, Band 56, Juli-1979, PP. 246-248.

(٤٨) Edward Creasy; History of the Ottoman Turks (London-1878) P. 246.

(٤٩) راجع تفاصيل تمرد بكر الصوباشي في، لونكريك، المصدر السابق، ص ص ٥٢- ٥٤، علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨- ١٧٥٠ (الموصل- ١٩٧٥) ص ص ٢٩- ٣٢.

(٥٠) علي، المصدر السابق، ص ٣٢.

(٥١) المصدر نفسه، ص ٣٤، مرتضىٰ افندي نظمي زادة، كلشن خلفا (النجف- ١٩٧١- ترجمة موسىٰ كاظم نورس) ص ٢١٨.

(٥٢) فريدبك، المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٥٣) القهواتي، المصدر السابق، ص ص ٣١٧- ٣١٨.

(٥٤) علي، المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٥٥) ياسين العمري، المصدر السابق، ص ١٧٣، صائغ، المصدر السابق، ج١، ص ص ٢٦٩- ٢٧٠.

(٥٦) فون هامه ر، دولت عثمانية تاريخي (استانبول- ١٣٣٥ هـ- مترجمي محمد عطا) ج ٩، ص ص ٢٥- ٢٦.

(٥٧) رؤوف، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٥٨) هامه ر، المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٤٨.

(٥٩) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد- ١٩٤٩) ج ٤، ص ص ٢١١- ٢١٢.

(٦٠) Guest; op.cit, p. 47.

(٦١) Ibid, p. 47.

(٦٢) ياسين العمري، المصدر السابق، ص ص ٧٧- ٧٨، رؤوف، المصدر السابق، ص ٣١.

(٦٣) صائغ، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧١.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٠، محمد أمين العمري، المصدر السابق، ج١، ص ١٣٩.

(٦٥) صائغ، المصدر السابق، ج١ ص ٢٧١.



(٦٦) ياسين العمري ؛ المصدر السابق ، ص ص ١٧٥ – ١٧٧ ؛ علي ؛ المصدر السابق ، ص ١٥٦ .
(٦٧) ياسين بن خيرالله الخطيب البغدادي العمري ؛ غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام (بغداد – ١٩٦٨) ص ص ، ١٧٤ – ١٧٦ ، رؤوف ؛ المصدر السابق ، ص ص ٣٢ – ٣٣ .
(٦٨) سليمان فائق بك ؛ حروب الايرانيين في العراق – مخطوط رقم ١٩٥٣ – المتحف العراقي ، ورقة ١ ؛ كامل حسين الغزي ؛ نهر الذهب في تاريخ حلب (بيروت – ١٩٢٣ – ١٩٢٦) جـ٣ ، ص ٥٢٩ .
(٦٩) رؤوف ؛ المصدر السابق ص ٤٩ .
(٧٠) صائغ ؛ المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧١ ؛ لونكريك ؛ المصدر السابق ، ص ١٥٥ .
(٧١) الجميل ؛ الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٢٥١ .
(٧٢) ياسين العمري ؛ منية الادباء ، ص ٧٩ ؛ رؤوف ؛ المصدر السابق ، ص ٥٠ .
(٧٣) صائغ ؛ المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧٢ .
(٧٤) محمد امين العمري ؛ المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٤٢ ؛ علي ؛ المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

علاقة الموصل بالولايات العراقية الأخرى
(٩٢٢ – ١٣٣٦هـ) ١٥١٦–١٩١٨م

علي شاكر علي

توطئة :

في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي ، دانَ العراق للنفوذ العثماني ، واذا ماتتبعنا مراحل السيطرة العثمانية على العراق ، نجد أن الموصل هي من أُولى المناطق التي دخلت في الأطار العثماني ، وتحديداً منذ ٤ مايس ١٥١٦ ، [١] وبعد مايقرب من عقدين من الزمن ، أمتد النفوذ العثماني الى بغداد ، في أعقاب الحملة العسكرية التي قادها السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠–١٥٦٦) بنفسه سنة ١٥٣٤ . وكان ألهم الأول للسلطان العثماني هو أزالة الآثار التي تركتها السيطرة الفارسية الصفوية في العراق ، خاصة فيما يتعلق بالتنظيمات الأدارية والأقتصادية التي عُدت من البدع التي يجب أزالتها[٢] . كما كان على السلطان العثماني ، أن لايُسقط من حسابه أمر البصرة ذات الأهمية الجغرافية والأقتصادية ، لأية سلطة قائمة في بغداد . هذا فضلاً عن أن التطورات السياسية السريعة في شمال الخليج العربي ، كانت تستوجب وجوداً عثمانياً فعلياً فيها ، لهذا دخلت البصرة في النفوذ العثماني المباشر سنة ١٥٤٦ م . [٣] وبقدر تعلق الأمر بعلاقة ولاية الموصل بالولايات العراقية الأخرى خلال ١٥١٦–١٩١٨م ، أي منذ أمتداد النفوذ العثماني الى منطقة الموصل حتى أنسحاب القوات العثمانية منها ، نشير الى ثلاثة أمور :

أولها أن من الصعوبة تتبع علاقة ولاية الموصل بالولايات العراقية الأخرى : «بغداد[٤] ، البصرة[٥] ، شهرزور»[٦] منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن السابع عشر الميلادي ، وذلك لعدم أستقرار الأوضاع السياسية في العراق بسبب تفاقم الصراع العثماني – الفارسي من العراق ، [٧] وما كان يتبع ذلك من أنعكاسات على الحدود الأدارية للولايات العراقية من حيث قضم منطقة من ولاية والحاقها بولاية الأخرى أو بالعكس[٨] .

أما الأمر الثاني فهو أن الولاية ، وهي أكبر وحدة أدارية كانت تحكم نفسها بنفسها الى حد كبير في الشؤون الأدارية . ولكن علاقتها مع الولايات الأخرى ظلت تخضع لتوجيهات السلطة المركزية في الباب العالي ، وهذه مسألة مهمة في تحديد المقصود بعلاقة ولاية الموصل بالولايات العراقية الأخرى ، وهي لاتتعدى إطار الألتزامات الرسمية للهيئة الحاكمة[٩] في مقر الولاية تجاه السلطان العثماني ، هذا في المجال السياسي



والعسكري، أما في المجال الأقتصادي فأن علاقة الولاية بأخواتها كانت تتسم بنوع من المرونة في التعامل التجاري في إطاره التأريخي، ونقصد بذلك العلاقة الاقتصادية القديمة بين المدن العراقية الرئيسة التي نهضت مراكز للولايات العراقية الأربع (بغداد، البصرة، شهرزور، الموصل»[10]

ويبقى الأمر الثالث وهو حرص العثمانيون عند تقسيم العراق الى ولايات في القرن السادس عشر الميلادي المحافظة على التوازن بين ولايتي بغداد والموصل، لأعتبارات سياسية، وهذا ساعد على تنشيط عملية تأريخية قديمة، كانت قد توقفت منذ سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، ونعني بذلك محاولة بغداد، ربط منطقة الموصل بها[11]، وتقليص أرتباطاتها السياسية بمحور الجزيرة وبلاد الشام، هذا الأرتباط الذي تعمق خلال القرون الثلاثة التالية لزوال الخلافة العباسية[12]، غير أن محاولة بغداد، لم يكتب لها النجاح الا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي،عندما نشط ولاة بغداد المماليك في توسيع دائرة نفوذهم السياسي، ليشمل العراق بأكمله[13].

أثر حوادث الولايات العراقية في ولاية الموصل حتى النصف الثاني من القرن ١٨ :

قبل الحديث عن أثر حوادث الولايات العراقية في الموصل علينا أن نشير الى مسألتين جوهريتين وهما : أولاً، أن أمتداد النفوذ العثماني الى العراق بحدوده المعروفة في تلك الحقبة ربط ولاية الموصل بواحد من أهم الطرق التجارية التي تربط الشرق الأقصى بأوربا بوساطة الخليج العربي أو بغداد – حلب – دمشق – صيدا[14]. ثانياً: أن ولاية الموصل بأعتبارها أقرب الولايات العراقية الى الأناضول تحملت أعباء عسكرية وأقتصادية، اذ تحولت عملياً الى قاعدة عسكرية، ففي أثناء حملة السلطان سليمان القانوني على العراق أتخذت الموصل نقطة أتصال (منزل) في الحملة الموجهة الى الجنوب لفترة قصيرة. كما ظلت الموصل منزل ونقطة توقف في الطريق الى أذربيجان[15]، ومن جانب أخر، فأن دخول الموصل تحت السيطرة العثمانية منذ سنة ١٥١٦م، وتطبيق النظام الأقطاعي العثماني فيها، قد أنعش الحياة الأقتصادية في المنطقة، ومن بعد أصبحت هذه المدينة مهيأة تماماً لمعالجة كل الأوضاع الأقتصادية الأستثنائية في كل من ولايتي بغداد والبصرة. وقد أشار الى هذا الأمر الرحالة الهولندي الدكتور (ليونهارت راوولف) أثناء وجوده في بغداد سنة ١٥٧٤م حين قال: «أثناء وجودنا في بغداد وتجوالنا فيها لمست أن الفاقة مازالت جداً ظاهرة فيها، وأنها قد تتعاظم وتزداد اذا لم تسارع المدن القائمة على دجلة والفرات– ولاسيما مدينة الموصل– الى إرسال كميات كبيرة من المؤن»[16]. كما كانت المناطق المجاورة لولاية الموصل، مثل ديار بكر وحلب وغيرها تسهم هي الأخرى في تنشيط الحياة الأقتصادية في المدينة. ولعل الملاحظة التي أوردها أحد المؤرخين المحليين[17]، عندما أشار الى ان (العقر) تعرف عند الناس بـ گچك (كوجوك) اسلامبول (أي اسطنبول الصغيرة» لعلاقاتها التجارية النشطة مع الموصل، كدليل أكيد على أهمية المدينة من الناحية التجارية وعمق أرتباطاتها مع المراكز التجارية في أطرافها.

وفي ضوء ماسبق، فأن حوادث الولايات العراقية كانت تؤثر في الموصل إما بنحو مباشر أو غير مباشر، والأمثلة في هذا المجال كثيرة، ففي سنة ٩٧٤م ١٥٦٦م أسهمت قوات من الموصل[18] في الحملة التي قادها أسكندر باشا والي بغداد، لمواجهة حركة ابن عليان في البصرة، وفي سنة ٩٩٠ هـ «ولي بغداد الوزير حسن باشا بن الوزير محمد باشا (فلما دخلها أجرى شعبة من دجيل الى أراضي



(كذا)، فكان محصول تلك الشعبة تلك السنة عشرين الف دينار، ثم حصلت له فتنة مع عسكر العراق (الأنكشارية) فرحل الى الموصل وجمع العسكر، وعاد الى بغداد وحاربهم»[19]، أن هذا النص التأريخي يكشف عن دور الموصل في توطيد الأمن في بغداد، وتوجيه مسار أحداثها.

ومن أخطر الأحداث التي وقعت في بغداد سنة ١٦٢٣م. تمرد أحد ضباط الأنكشارية وهو بكر صوباشي ضد سيده، فتطورت الأمور الى محاصرة بغداد من قبل الصفويين مرة أخرى، وقد توقعت الموصل الزحف الصفوي اليها، فبادرت منذ الأيام الأولى الى الدفاع عن نفسها ومسالكها التجارية، وذلك بأرسال حملة عسكرية لأخراج الصفويين من بغداد، قادها والي الموصل كور حسن باشا، وبمعيته خمسمائة من الفرسان وعدد من المشاة، غير أن زمان بك أحد القواد الصفويين المكلفين بحماية الجهات الشمالية من بغداد، أعترض سبيل الحملة الموصلية بالقرب من رباط قديم، ووقع بين الطرفين، قتال ضار تراجع فيه كور حسن باشا الى الخلف، ليستنفر العشائر، ولما عاود الكرة وقع قتيلاً في المعركة، وانسحب جيشه الى جهات الموصل، لاسيما عند سماعهم أنباء سقوط بغداد بيد الصفويين.[20]

بعد دخول القوات الصفوية بغداد جهز الشاه عباس حملة عسكرية بقيادة قره جغاى، لأرسالها الى الموصل، بهدف أحتلالها، فقد فرض قائد الحملة حصاراً قاسياً على المدينة، غير أن السكان تحصنوا في القلعة وباشروا بالدفاع عن مدينتهم ببسالة نادرة، متحدين القوات الغازية حتى أضطر قائد الحملة الصفوية الى طلب مساعدات عسكرية من الشاه عباس، فأرسلت حملة عسكرية جديدة بقيادة قاسم خان سلطان، فضّيق هذا الخناق على السكان الصامدين، غير أنهم أضطروا الى طلب الأمان في الأخير، فأندفعت القوات الغازية من أبواب القلعة، فقتلوا كثيراً من سكانها.[21] كما نهبوا أموال الناس نهباً ينم عن حقد دفين، وأضطرت أسر كثيرة الى النزوح الى الجزيرة والعمادية، ومن جملة الأسر التي نزحت هي الأسرة العمرية، فقد خرج موسى الخطيب العمري ابن الحاج قاسم العمري، الى الجزيرة واقام فيها ثلاثة أعوام، وممن رحل عن الموصل أخو الشيخ المذكور مراد العمري ابن علي العمري، وأخوه محمد العمري بن علي العمري، اذ توجها الى العمادية.[22]

لقد عاد قائد الحملة الصفوية قره جغاى الى بغداد، تاركاً قاسم سلطان حاكماً على الموصل، غير أن عامه الأول لم ينته حتى داهمته حملة عثمانية قوامها ٣٠٠٠ مقاتل ضم خليطاً من العرب والأكراد والأتراك أرسلهم حافظ أحمد باشا بقيادة حسن باشا لطرد الفرس من المدينة غير أن قاسم سلطان نجح في صد الهجوم العثماني خارج مدينة الموصل، وبعد عودته الى الموصل، تفشى مرض الطاعون في جيشه.

لقد أسهم الطاعون، ومعه المقاومة الصامدة للسكان في التعجيل برحيل القوات الغازية التي تركت المدينة سنة ١٦٢٦م بمجرد أقتراب الحملة العسكرية التي قادها كوجوك أحمد باشا حاكم ماردين،[23] في حين أستمرت بغداد تحت السيطرة الصفوية حتى سنة ١٦٣٨ م حيث قاد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م) آخر السلاطين العثمانيين الغزاة، حملة عسكرية ناجحة، أنتهت بطرد الفرس من بغداد «انبل مدن اسيا». ويعلق (روبرت أولسن) على النتائج التي ترتبت على السيطرة العثمانية الثانية ١٦٣٨م، فيقول: أعتبرت الموصل منذ الأن مركز الدفاع عن الطرق المؤدية الى قلب الأناضول والى البحر المتوسط، كما أتخذت نقطة وثوب في المستقبل في جميع الحملات على العراق، وترتب على ذلك أن



تجاوزت حركة تنقلات القوات والقوافل المرور بديار بكر وغدت تأتي رأساً من حلب الى الموصل » . [٢٤] والمصادر التأريخية المحلية والحوليات العثمانية تفيض في الأشارة الى الخدمات التي قدمتها الموصل لأختها الكبرى بغداد لمواجهة المشكلات التي عصفت بها ، «من غزوات فارسية أو مشاكل أدارية ، أو أنقسامات داخلية أو أخطار قبلية . وقد جاء كل ذلك نتيجة للتركيبة المتباينة التي حكمت طبيعة المجتمع العراقي التي ترافقت مع خط حكم السيطرة الأجنبية على العراق منذ الغزو المغولي ، وتضاعيف العصور الوسيطة ثم القرون الحديثة » [٢٥] وبأمكاننا أن نحددّ المشاركة الموصلية في مواجهة أحداث الولايات العراقية ، أستناداً الى المصادر والمراجع التي أهتمت بهذه الحقبة التأريخية : -

١ - حملة ابراهيم باشا ١٦٦٥ والي بغداد الموجهة ضد حكومة أفراسياب في البصرة . [٢٦]

٢ - حملة قره مصطفى باشا ١٦٦٧ م ضد حكومة أفراسياب في البصرة أيضاً. فقد شارك حاكم الموصل أمير الأمراء موسى باشا فيها ، وأنيطت به مهمة حماية الجيش العثماني عند عبوره شط العرب . [٢٧]

٣ - حملة مصطفى باشا دلتبان سنة ١٦٦٩ م لطرد الفرس من البصرة وأطرافها ، وكان على رأس القوات المرسلة من الموصل ، واليها محمد باشا جاوش زادة وبمعيته حاكم شهرزور حسن باشا أضافة الى قوات أقطاعية كردية . [٢٨]

٤ - خلال الفترة الممتدة بين ١٦٩٢ حتى سنة

خارطة ولاية الموصل وما جاورها من الولايات العراقية الأخرى إبان السيطرة العثمانية



١٧٠١ م التي شهدت فيها البصرة موجة من الاضطرابات والفوضى، بحيث هددت الوجود العثماني في هذه المنطقة. فقد وقع الثقل الأكبر في أستتباب الأمن والنظام على عاتق القوات التي ارسلت من الموصل وكركوك وديار بكر وشهرزور فضلاً عن القوات التي كانت ترافق قائد الحملة العسكرية، الذي كان عادة هو والي بغداد.(٢٩)

هكذا نجد تعاظم الدور الذي أُنيط بالموصل خلال الفترة التالية لحملة السلطان مراد الرابع على بغداد ١٦٣٨ م، غير أن الأمور لم تستمر على هذه الصورة فالتطورات السياسية الخطيرة في ايران، والمتمثلة بالغزو الأفغاني لها، وخشية الباب العالي من أمتداد هذا الغزو الى العراق، جعلت الباب العالي يمنح صلاحيات غير أعتيادية لوالي بغداد حسن باشا(٣٠) (١٧٠٤–١٧٢٣ م) وبعده لأبنه أحمد باشا (١٧٢٣–١٧٤٧ م)، ولعل ابرز مثل لهذه الصلاحيات السماح لها بالأعتماد على عنصر جديد غير متأثر بمفاسد الأنكشارية أو القوات المحلية، هذا العنصر هم المماليك، الذين أثبتوا جدارة وكفاءة عالية في حملات الأب والأبن (واليا بغداد) في الأراضي الأيرانية خلال العقد الثالث من القرن الثامن عشر الميلادي، ومثلما كانت المواجهة العثمانية–الأيرانية مسؤولة عن تعاظم نفوذ ولاة بغداد، فأنها كانت في الوقت ذاته مسؤولة عن قيام الأسرة الجليلية في الموصل بأستلام مقاليد الحكم فيها، عندما أنبرت هذه الاسرة بتحمل نفقات الجيش الموصلي بما يحتاج اليه من الذخائر وأمداده بالسيف والمال في أثناء مشاركته في الحملات العثمانية الموجهة ضد ايران سنة ١٧٢٣ م،(٣١) وقد كانت هذه المبادرة الذاتية من أسرة محلية خير مشجع للسلطان العثماني، في مكافأة أحد أفرادها وهو «أسماعيل الجليلي» سنة ١٧٢٦ م بمنحه حكم ولاية الموصل مع رتبة البكلربكي وشارة التشريف «الطوغ»(٣٢)

وبقدر تعلق الأمر بهذه التطورات السياسية في بغداد ومعها أحتدام الصراع العثماني–الايراني في العقدين الثالث والرابع من القرن الثامن عشر الميلادي–وأمتداده في الأراضي العراقية على نحو لم يسبق له مثيل– والدور الكبير الذي لعبته الموصل في أفشال خطط نادر شاه التوسعية سنة ١٧٤٣ م،(٣٣) فأن أحداث بغداد بدأت تؤثر في الموصل، فأمتد نفوذ ولاية بغداد الى ماوراء ولاية الموصل، اذ ضمت اليها مدينتي ماردين ونصيبين(٣٤)، وهما مفتاح طريق الموصل–حلب التأريخي.

ومما لاشك فيه أن الأمتداد الجغرافي لولاية بغداد قد ساعد حاكم بغداد أحمد باشا (١٧٢٣–١٧٤٧ م) في تنفيذ السياسة المرسومة له من الباب العالي في أخضاع العراق لدائرة نفوذه، غير أن الغزو الأيراني، كان يفرض عليه تأجيل مشاريع هذا الأخضاع بعض الوقت، ومما يؤيد هذا الرأي هو قيام أحمد باشا والي بغداد سنة ١٧٣٣ م أي بعد زوال الخطر النادري الأول بأرسال عساكره بقيادة أحمد أغا كتخدا للتحرش بأراضي ولاية الموصل «فعبروا الزاب ونهبوا قرايا اليزيدية من أعمال الموصل فتبعهم والي الموصل الوزير حسين باشا الجليلي وأستولى على مانهبوه وأعاده الى الرعية»(٣٥)، وفي سنة ١٧٣٥ م، نفى أحمد باشا الفرقة السابعة والعشرين الأنكشارية «أورطة الأكرمي يدى» الى الموصل «فقدموا الى الموصل وعملوا صفّة»(٣٦)، ولايستبعد أنه قصد من وراء عمله هذا أحداث الفوضى في الموصل، وأتخاذها ذريعةً للتدخل في أمورها الداخلية ثم كرر تحرشه بالموصل سنة ١٧٣٨ م، أرسل سرية مع كنج محمد أغا فأغار صباحاً على نساء الموصل اللواتي كن يغسلن الثياب على شاطئ النهر، ونهبوا الثياب وعادوا.(٣٧) ومع سذاجة هذا العمل فأنه

كان أشعار للأسرة الجليلية بنوايا حكومة بغداد، وجاء الغزو الفارسي الثاني ليدفع بغداد والموصل الى ساحة المصالحة، للتفرغ لمواجهة الخطر القادم من الشرق.

ولكن بعد أندحار نادر شاه في الموصل، عادت العلاقات بين ولايتي الموصل وبغداد مرة أخرى الى مجاريها السابقة، ويفهم هذا التدهور في العلاقات من نص أورده ياسين بن خيرالله العمري عند ترجمته لمراد باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي حيث يقول: كان فيه شجاعة وحدة ولم يلِ حكماً بل كان له رتبة باشا وكان كتخدا والده وكان جريئاً جسوراً، ولما حصلت وحشة بين ابيه وبين والي بغداد أحمد باشا أدت للمشاحنة والمخاصمة، ثم أرسله ابوه الى بغداد ليعقد الصلح مع أبيه فأكرمه أحمد باشا، وكان مدة اقامته في بغداد كل يوم يهب له شيئاً»[٣٨]، هكذا نجد تأثير أحداث ولاية بغداد في الموصل، والذي كان الهدف منه الحد من تعاظم نفوذ الأسرة الجليلية.

أثر أحداث ولايتي بغداد والبصرة في الموصل حتى مطلع القرن العشرين

كانت وفاة أحمد باشا والي بغداد سنة ١٧٤٧م في اثناء عودته من قتال البابانيين بداية لأضطراب الأوضاع في بغداد، ومرد هذا الأضطراب محاولة الباب العالي القضاء على النفوذ المملوكي المتنامي في بغداد، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل، فاضطر السلطان العثماني الى الأعتراف بسليمان باشا (١٧٥٠-١٧٦٢م) حاكماً على بغداد،[٣٩] وبه ابتدأ الحكم الرسمي للمماليك في العراق. ولم يشذ حكام بغداد الجدد في سياستهم تجاه الولايات العراقية الأخرى، عن سياسة أسلافهم، في التمسك بشعار أخضاع كل المناطق العراقية لدائرة نفوذهم، بل أن الظروف أصبحت ملائمة لتطبيق هذه السياسة، والتي يمكن أيجازها بما يأتي من الأمور:

أولاً: أن أعتراف السلطان العثماني بالوجود السياسي المملوكي في بغداد كان يعني أضفاء طابع شرعي على حكمهم ثم الموافقة الضمنية لسياستهم التي لاتعدم الفائدة للدولة العثمانية.

ثانياً: أن أمتداد الحدود السياسية لولاية بغداد الى ماوراء ولاية الموصل خاصة في الجهات الشمالية حيث العمادية[٤٠] وماردين ونصيبين في الجهات الشمالية الغربية كان يكبل بالضرورة نشاط الجليليين في التخلص من هذا الطوق، ويعتقد أن الجليليين كانوا على علم تام بما يخطط لهم من مشاريع لأحتواء استقلالهم الذاتي، لذا كانوا على أستعداد كامل للتعاون مع اية جهة عراقية لأحباط محاولات حكام بغداد كما سنوضح ذلك في الصفحات اللاحقة.

لقد دأب والي بغداد المملوكي سليمان باشا الملقب بـ «أبو ليله» كسلفه التحرش بأراضي ولاية الموصل، ففي سنة ١٧٥٢م جرد حملة عسكرية على اليزيدية في سنجار من أعمال الموصل، وقتل عدداً كبيراً منهم، وقيل أنه أمر بأجلاء ٣ آلاف يزيدي الى ماردين في محاولة لكسر شوكتهم[٤١].

على أية حال، فقد وجد سليمان باشا في الفتنة التي أنشبت أظفارها في الموصل سنة ١٧٥٧م بسبب تأييد عبد الفتاح بك (باشا فيما بعد) وجماعته للوالي الدخيل رجب باشا نكاية بأسرة أمين باشا الجليلي، فأعلن سليمان باشا تأييده للوالي الجديد، بل أنه أرسل رسوله يحمل أمر سرياً بحز رؤوس أتباع أمين باشا الجليلي من الأنكشارية، ألا أن هذه المحاولة قد باءت بالفشل بسبب تمسك الأنكشارية بسيدهم الجليلي[٤٢].

والمتتبع للمصادر والمراجع الخاصة بهذه الحقبة التاريخية يتلمس محاولة الباب العالي، ضرب

القوتين الرئيستين بعضهما ببعض، ففي سنة ١٧٧٥-١٧٧٦م وفي اثناء تأزم الموقف العسكري في العراق بسبب تعرضه الى عدوان ايراني في الجنوب حيث حاصر كريم خان الزندي البصرة[٤٣]، وتقدمت قوات ايرانية أخرى بأتجاه شمال العراق حيث **(قلا جولان)** مقر الأمارة البابانية أصبح موقف والي بغداد عمر باشا حرجاً بسبب عجزه عن معالجة هذه الأوضاع غير الأعتيادية، فبدأت اصابع الأتهام تتجه اليه، وقد انبرى الجليليون في الموصل بتأكيد صحة هذه الأتهامات ومسؤولية عمر باشا في إخفاء أنباء التحركات الأيرانية فأصدر الباب العالي أمراً بعزل عمر باشا عن ولاية بغداد، وأناط مسؤولية الحكم في ولايتي البصرة وبغداد بأمين باشا الجليلي، في حين أصبح ولده سليمان باشا بن أمين باشا الجليلي حاكماً على ولايتي الموصل وشهرزور، ولولا مرض أمين باشا الجليلي ووفاته في نفس السنة، تمكن الجليليون من تصفية المماليك في العراق[٤٤] خاصة وأن الأب والابن كانا يمسكان بمقاليد الأمور في العراق بأكمله. هكذا أنقذ القدر المماليك من المصير المحتوم..

ونستطيع القول إن كل الحكام المماليك في بغداد كانت عيونهم ترنو نحو الموصل وتختلج في صدورهم آمال عريضة، بتوحيد الموصل مع بغداد، بعد القضاء على الحكم الجليلي فيها.

لقد أتسعت دائرة المنافسة بين ولايتي الموصل وبغداد في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، في فترة حكم سليمان باشا الصغير[٤٥] الذي كان يدرك اهمية الموصل العسكرية والاقتصادية بالنسبة لبغداد، فأستيلاؤه عليها يعني نجاحه في ضرب البابانيين في السليمانية، واليزيديين في سنجار بدلاً من الأعتماد على باشوات الموصل من آل عبد الجليل بتقديم المساعدات لحملات بغداد ضد البابانيين وهي وعود لم تتحقق في معظم الأحيان، فضلاً عن أن ولاية الموصل في هذه الفترة كانت كبيرة نسبياً، ويمكن أن تقدم (٦٠٠) فارس و (٢٠٠) من السباهية، وكان تعداد الأنكشارية من (٦٠٠-٧٠٠) مقاتل، عدا حرس الباشا، كما كانت تضم عدداً ليس بالقليل من السكان كان يقدر بحوالي خمسين ألف نسمة. وفضلاً عن هذا كانت تجارتها زاهرة، والعامل الأساس في هذا الأزدهار أرتباطها ببغداد، وعندما تولى داوْد باشا (١٨١٧-١٨٣١م) حكم بغداد، كان أول طلب له من الباب العالي، هو عزل والي الموصل أحمد باشا الجليلي الذي كان يسعى للتخلص من نفوذ والي بغداد، فأستجاب الباب العالي لطلبه، بل خوله صلاحية تعيين من يراه أهلاً لحكم المدينة، عندما أرسل اليه فرماناً خالياً من الاسم ليملأه داوْد حسب مايراه، فأسند الباشوية الى حسن باشا، غير أن هذا لم يتمتع بمنصبه إلا أياماً معدودة لقي ربه في نهايتها، فأسرع والي الموصل السابق أحمد باشا الى التوجه الى بغداد للأعتذار من داوْد طالباً عفوه والوساطة لدى السلطان ليستعيد منصبه[٤٦]، وهذا ماتحقق، وبذلك يكون داود باشا قد حقق حلم المماليك في أدخال الموصل في المجال المملوكي، وقد كانت الموصل خير عون لداوْد باشا في حربه مع أيران سنة ١٨٢٠م. غير أن نفوذ داوْد باشا في الموصل لم يلبث أن تعرض الى هزة حقيقية سنة ١٨٢٦م خلال فترة حكم يحيى باشا الجليلي، الذي واجه ثورة شعبية أحد اسبابها الضيق الاقتصادي في البلد، وتحريض العمريين الناس على الثورة على الوالي الجليلي الذي لم يجد أزاء الحالة بداً من الهرب الى داوْد باشا في بغداد.

لقد أدرك داوْد باشا أن وقوفه متفرجاً على أحداث الموصل يعني التخلي عن سياسة توحيد العراق، فطلب من الباب العالي أعادة يحيى باشا الجليلي الى حكم الموصل، فوافق الباب العالي على



طلبه ، فأعيد الباشا الهارب الى الموصل تحت أسنة حراب جنود داؤد باشا ، غير أن الباشا التابع لداؤد لم يهنأ بعودته فقد نجح الثوار في الموصل في طرده سنة ١٨٢٨ م ، بعد أن نجح قاسم العمري من كسب تأييد عدد كبير من وجهاء المدينة . (٤٧) ويعتقد أحد الباحثين أن قاسم العمري كان يهدف من وراء طرد الجليليين الى أن يحل هو في محلهم ، ومهما يكن من أمر فقد أضطر الباب العالي الى الموافقة على تعيين قاسم العمري حاكماً على الموصل ١٨٣٠ م ، دون أن يحرك داؤد ساكناً ، وفي السنة التالية اشترك قاسم العمري في حملة علي رضا اللاز لتصفية المماليك في بغداد ، فلقي مصرعه اثناء أقتحام المدينة . (٤٨)

لقد انطوت صفحة المماليك في بغداد ١٨٣١ ، وبعدها بثلاث سنوات ١٨٣٤ م سقطت حكومة الجليليين في الموصل ، والعباسيين في بهدنان سنة ١٨٤١ م ، والبابانيين في شهرزور ١٨٥٠ م ، وأعيد تنظيم الولايات على أسس مركزية جديدة . (٤٩) والملاحظة الجديرة بالذكر هنا أن فرمان تولية علي رضا اللاز نص على حكم « بغداد وحلب وديار بكر والموصل » وهي مجموعة ولايات لم يسبق أن أسندت حكومتها الى والٍ واحد ، غير أن هذا التنظيم الأداري لم يستمر طويلاً ؛ ففي سنة ١٨٥٠ م (٥٠) اصبحت الموصل سنجقاً تابعاً لبغداد ، وظل الأمر هكذا حتى سنة ١٨٧٩ م حين نهضت كولاية قائمة بذاتها . (٥١)

والمتتبع لأحداث ولايتي البصرة وبغداد خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي لايجد أي تأثير لها في الموصل بسبب سماتها المحلية ومحدودية تأثيرها ، وخضوع الولايات العراقية كلها لسلطة مركزية واحدة . وظل الأمر هكذا حتى سنة ١٩٠٨ م حيث قامت ثورة الأتحاد والترقي ، وماتبعها من أعلان لدستور ٢٣ تموز ١٩٠٨ م ، الذي استقبل من قبل المثقفين العراقيين بفرح غامر ، غير أن أحداث سنة ١٩٠٩ التي أدت الى خلع السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩ م) وتبني سياسية عنصرية من قبل الاتحاديين . كل هذه الأحداث جعلت النخبة المثقفة في الولايات العراقية (البصرة وبغداد والموصل) تعمل على مواجهة هذا المد العنصري دفاعاً عن الذات والأنتماء القومي ، واصبح التواصل والعمل المشترك أمراً وارداً ، ففي سنة ١٩١٣ قدم الى الموصل سليمان فيضي ، مندوباً عن السيد طالب النقيب في محاولة لفتح فرع لجمعية البصرة الاصلاحية في الموصل ولتوحيد الكفاح القومي في العراق ، وكان داؤد الملاح وهو من العناصر القومية أحد المتعاونين معه ، (٥٢) ولولا قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨ م) لكان النشاط السياسي للعراقيين في هذه الحقبة المضطربة أتخذ أتجاهاً آخر أكثر صلابة في الدفاع عن الذات ، وأعمق أستيعاباً لمجريات الأحداث والتطورات السياسية القومية والعالمية .

الهوامش

(١) Yilmaz öztuna. Buyuk Turkiye. TARIH 3. cilt istanbul 1983. O. 225.

(٢) تفاصيل ذلك في واقدم وثيقة عثمانية مؤرخة في ١٤ شباط ١٥٣٧/٤ رمضان ٩٤٣هـ ، تعريب وتعليق وتحشية عطا تزري باشي» ، مجلة المورد ، بغداد ، المجلد الثامن . العدد الرابع . سنة ١٩٧٠ ص ٥٢٢- ٥٢٤ .

(٣) د . صالح أوزيران . الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي . ١٥٣٤ - ١٥٨١م . ترجمة د . عبدالجبار ناجي . مركز دراسات الخليج العربي . البصرة ١٩٧٩ ص ٢٨ وما بعدها .

(٤) على رأي الباحث السوفيتي نيقولاي ايفانوف . الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤م . نقله الى العربية . يوسف عطاالله . دار الفارابي . (بيروت ١٩٨٨) . ص٨٩ أن بغداد نهضت كولاية سنة ١٥٣٤ م .

(٥) أصبحت البصرة ولاية عثمانية سنة ١٥٥٢ م أنظر : على شاكر علي « التنظيمات الأدارية العثمانية في البصرة » . مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٣٥ لسنة ١٩٨٣ ص ١٢٧ .



(٦) أصبحت شهرزور ولاية سنة ١٥٥٤م أنظر: ايفانوف، المرجع السابق ص٨٩.

(٧) س. هـ. لونكريك، أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث. ترجمة جعفر خياط الطبعة الرابعة بغداد ١٩٦٨. ص ص ٣٦-٤٨.

(٨) كانت تكريت سنجقاً تابعاً لولاية الموصل، غير أنها الحقت بولاية بغداد فيما بعد. أنظر: علي شاكر علي. تكريت في العهد العثماني ١٥١٦-١٧٣٣م. بحث مقدم الى ندوة تكريت لسنة ١٩٩٠ ص١٢.

(٩) عبد الكريم رافق. العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦. الطبعة الأولى. دمشق ١٩٧٤، الفصل الأداري.

(١٠) عن حدود الولايات العراقية أنظر: خليل علي مراد. تأريخ العراق الأداري والأقتصادي ١٦٣٨-١٧٥٠م. رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الأداب. جامعة بغداد ١٩٧٥ ص ص ٤٥-٦٠.

(١١) عماد عبد السلام رؤوف. الموصل في العهد العثماني. فترة الحكم المحلي ١٧٢٦-١٨٣٤م. مطبعة الأداب. النجف الأشرف ١٩٧٥ ص١٢٣.

(١٢) لقد تعمق هذا الأرتباط خلال القرون التي سيطر فيها الحكام الأجانب على العراق من مغول وتيموريين وتركمان وفرس، فكانت العيون ترنو الى المماليك في مصر وبلاد الشام لتحرير البلاد. أنظر دراسة: سالم يونس المولى. العراق في السياسة المملوكية رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الأداب-جامعة الموصل ١٩٨٩. الفصل الرابع.

(١٣) للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع أنظر: علاء نورس وعماد عبد السلام رؤوف، عهد المماليك والاسر الحاكمة. في كتاب. العراق في التأريخ. بغداد ١٩٨٣ ص ص ٦١٠-٦١١.

(١٤) عبد الكريم رافق، المرجع السابق. ص ٦٨.

(١٥) روبرت دبليو اولسن. حصار الموصل والعلاقات العثمانية الفارسية (١٧١٨-١٧٤٣). ترجمة: عبد الرحمن بن الحاج امين بك الجليلي دار العلوم (الرياض ١٩٨٣). ص ٨١.

(١٦) رحلة المشرق (الى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين) ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي. دار الحرية للطباعة-بغداد ١٩٧٨. ص١٧٦.

(١٧) ياسين خير الله العمري. غاية المرام في تأريخ محاسن بغداد دار السلام. مطبعة دار البصري-بغداد ١٩٦٨ ص٩٦.

(١٨) غاية المرام. ص١٧٠.

(١٩) المصدر نفسه. ص١٧٠.

(٢٠) حسين محمد القهواتي: العراق بين الاحتلالين الأول والثاني (١٥٣٤-١٦٣٨م) أطروحة ماجستير في التأريخ الحديث، كلية الأداب. جامعة بغداد ١٩٧٥، غير منشورة، ص ٣١٧.

(٢١) المرجع نفسه. ص٣١٧.

(٢٢) ياسين بن خيرالله العمري. زبدة الأثار الجلية في الحوادث الأرضية. أنتخب زبدته داوُد الجلبي. حققه وعلق عليه عماد عبد السلام رؤوف. مطبعة الأداب-النجف الأشرف ١٩٧٤. ص ٦٦.

(٢٣) نظمي زادة مرتض أفندي. كلشن خلفا. ترجمة. موسى كاظم نورس. مطبعة الأداب. النجف الاشرف. ١٩٧١ ص٢٢١ ومابعدها.

(٢٤) حصار الموصل والعلاقات العثمانية الفارسية ص ٨١.

(٢٥) سيار الجميل، حصار الموصل، الصراع الأقليمي وأندحار نادرشاه، مطبعة الجمهورية، (الموصل ١٩٩٠)، ص٩٥.

(٢٦) علي شاكر علي، المرجع السابق. ١٤٣.

(٢٧) كلشن خلفا. ص ٣٠٤.

(٢٨) غاية المرام. ص١٧٦؛ كلشن خلفا ص٢٦٩.

(٢٩) كلشن خلفا. ص ص٢٦٤-٢٨٠ أنظر كذلك عباس العزاوي. تأريخ العراق بين أحتلالين. بغداد ١٩٥٣. ج ٥. ص ص١٣٥-١٥٩.

(٣٠) عن حكم حسن باشا وولده احمد باشا في بغداد أنظر: علي شاكر علي، المرجع السابق ص ص ١٠١-١١٩.

(٣١) منهل الأولياء ج ١. ص ١٤٦.

(٣٢) الطوغ: - Tugh شعار تركي قديم يتكون من علم ابيض يعلوه ذيل حصان يحمل في أوقات الحرب، فكان لبكوات السناجق الحق في رفع طوغ واحد، في حين لبكلريكي أن يحمل طوغين. الوزراء سواء كانوا وزراء القبة أو الولايات ثلاث أطواغ. أنظر: گب. المرجع السابق. ج ١. ص١٩٧.

(٣٣) أنظر أحدث دراسة عن دور الموصل في مواجهة التوسع النادري في سيار الجميل المرجع السابق. الفصلان الرابع والخامس.

(٣٤) عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني ص ١٨٠.

(٣٥) غاية المرام. ص١٨٠.

(٣٦) هكذا ورد في غاية المرام ص ص١٨٠-١٨١، أعتقد أن المؤلف أراد بذلك الاشارة الى قيامهم بالفوضى بعد ترحيلهم الى الموصل.

(٣٧) المرجع نفسه ص ١٨١.

(٣٨) غاية المرام. ص ٣٢٤.

(٣٩) للوقوف على تفاصيل أوضاع بغداد في هذه الفترة أنظر: الشيخ رسول الكركوكلي. دوحة الوزراء في تأريخ بغداد الزوراء. نقله عن التركية موسى كاظم نورس. مكتبة النهضة-بغداد. لا. ت. ص١٠٥ ومابعدها.

(٤٠) كان أمراء العمادية البهدينانيون العباسيون يدفعون ضريبة سنوية لحكام بغداد مقابل أصدار أوامر تعيينهم في منصب الأمارة، أنظر: غاية المرام ص ٩٣ وقارن مع مايذكره: عبد ربه سكران ابراهيم الوائلي. تأريخ الأمارة البابانية الكردية (١٧٨٤-١٨٥١م) رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الاداب. جامعة القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٢.

(٤١) أحمد واصف أفندي. محاسن الاثار وحقائق الأخبار. مطبعة بولاق. القاهرة ١٨٣٠م. ص ص ١٤-١٥.

(٤٢) عماد عبد السلام رؤوف. الموصل في العهد العثماني. ص ١٢٨.

(٤٣) دوحة الوزراء. ص ١٥٠.

(٤٤) عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني ص ١٣٣.

(٤٥) سليمان باشا الصغير (١٨٠٨-١٨١٠م) كان أكثر حكام المماليك أندفاعاً في ضم الموصل الى محور بغداد غير أن هجمات



الوهابين على العراق ، حالت دون نجاحه في مسعاه ومع ذلك فقد طالت غاراتها الجزيرة بقراها وقصباتها ، وكذلك أورفه والرقة وسنجار. أنظر: دوحة الوزراء ص ص ٢٤٢-٢٤٧ وقارن مع مايذكره : سليمان فائق بك. تاريخ بغداد. نقله عن التركية موسى كاظم نورس مطبعة المعارف. بغداد ١٩٦٢ ص ٣٧ ومابعدها.

(٤٦) لمزيد من التفاصيل أنظر: عبد العزيز سليمان نوار. داؤد باشا والي بغداد دار الكاتب العربي. القاهرة ١٩٦٨ ص ص٤٤-١٤٩ وقارن مع مايذكره عماد عبد السلام رؤوف. الموصل في العهد العثماني ص ١٥١ ومابعدها.

(٤٧) أنظر: ابراهيم خليل أحمد. تأريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦م الموصل ١٩٨٦ ص ٩٦ ومابعدها.

(٤٨) من المفيد مراجعة المصادر والمراجع التالية للوقوف على أحداث بغداد في نهاية حكم داؤد باشا : س. هـ. لونكريك ، المرجع السابق. ص ص٣٢٧-٣٣٠ ؛ علاء موسى كاظم نورس. حكم المماليك في العراق. دار الحرية للطباعة-بغداد ١٩٧٥ الفصل الخامس. جيمس ريموند ولستيد. رحلتي الى بغداد في عهد داؤد باشا بغداد ١٩٨٤.

(٤٩) أنظر: عماد عبد السلام رؤوف العطار: الحياة الأجتماعية في العراق ابان عهد المماليك (١٧٤٩-١٨٣١). رسالة دكتوراة غير منشورة قدمت الى كلية الأداب-جامعة القاهرة ١٩٧٦. ص١٤.

(٥٠) لونكريك ، المرجع السابق. ص ٣٣٦.

(٥١) المرجع نفسه. ص٣٧٦.

(٥٢) أنظر دراسة ابراهيم خليل أحمد ، «داؤد الملاح ودوره في اثارة الوعي القومي العربي في الموصل» ، مجلة بين النهرين. العددان (١٨-١٩) لسنة ١٩٧٧ ص ص٢٧٧-٢٨٣.

الموصل خلال الحكم الجليلي

(١١٣٩ - ١٢٤٩هـ) ١٧٢٦- ١٨٣٤م

د. سيار كوكب علي الجميل

مقدمة :

تعد فترة الحكم العثماني- المحلي (الجليلي) للموصل ١٧٢٦- ١٨٣٤م/ ١١٣٩- ١٢٤٩هـ من الفترات التاريخية الخصبة في التاريخ السياسي الحديث لولاية الموصل إبان عهد السيطرة العثمانية إذ تميّزت تلك الفترة بحكم الاسرة الجليلية المرتبط بالسلطة العثمانية ارتباطاً لامركزياً ، أي حكم شبه ذاتي دام اكثر من قرن كامل. غدت الموصل خلاله متميّزة بشخصيتها وخصوصياتها في مختلف الجوانب ، وذلك لطبيعة المكوّنات التاريخية التي بلورتّها.

إن من أبرز تلك المكوّنات : المكانة الجغرافية ، والتطورات السّياسية ، والأدوار الفّعالة في الحروب الاقليمية والدفاعات الوطنية ، والقيادات الشجاعة.. ثم الأدوار الاقتصادية والسياسات الضريبية وعوامل اخرى معقّدة قادت الى صراعات داخلية واسعة النطاق اثر تفاعل قوي لانقسامات السلطة التي قادت الى انقسامات الجيش ، وهذه قادت الى انقسامات اجتماعية كبيرة.. ولكن بقي دور الموصل خلال القرن الثامن عشر فعّالاً ومؤثراً ليس في تاريخ العراق فحسب ، بل في تاريخ المشرق العربي قاطبة. ولم يكن بغريب ظهور اسرة حاكمة كالجليليين في الموصل ، فقد حكم آل العظم دمشق ، وحكم الشهابيون جبل لبنان ، وحكم المماليك الكَولة مند بغداد... الخ وقد أضفى العامل الجغرافي للموصل اهمية استراتيجية بالغة خلال القرون المتأخرة[1] ، وكمركز اقتصادي فعّال أثّر تأثيراً كبيراً في تكوين اطار ذلك العهد المحلي المتميّز بإدارته القوية ، واقتصادياته المتنوعة ، وسطوته الدفاعية- العسكرية ، وثقله الاجتماعي ، وميراثه الثقافي والفني والحضاري[2].

الموصل والصراع الاقليمي : الاسبقيات التاريخية :

دخلت الموصل تحت حكم السيطرة العثمانية بعد شهر مايس ١٥١٦م ، اثر سقوط الممتلكات



الصفوية امام التقدم العثماني. وكان سقوط الموصل قد جرى أسوة بمدن شمال العراق قاطبة، بعد المواجهة الحاسمة والاقليمية في (قَرغَن ده ده) قرب ماردين، فكان سقوط الموصل بمثابة انتصار للارادة العثمانية التوسعيّة، كون الموصل هي قاعدة بلاد الجزيرة، فاستخدمت مركزاً لضرب الاطماع والوجود الايراني في كل من ارمينيا والعراق(٣).

وقد حكم العثمانيون الموصل على مدى قرنين من الزمن حكماً مركزياً مباشراً، بتنصيبهم عليها ولاة بلقب «باشا» وبدرجة «بكلربكي» وكان أغلبهم من الأتراك.

وتأسّس في القرن السادس عشر النظام الاقطاعي / العسكري العثماني في الموصل، إذ قسّمت ولاية الموصل بموجبه الى وحدات اقطاعية متعددة وبدرجات ثلاث هي: (خاص / زعامت / تيمار)، فضلاً عن تقسيمها اداريا وعسكرياً جديداً، والى عدد من السناجق. وقد صنّفت الوحدات الاقطاعية سكانياً واقتصادياً لغرض جمع الضرائب وترتيب الرسوم عن الواردات والمنتوجات الزراعية والثروات التجارية. ناهيك عن تطبيق كافة مايتعلق بالنظام الاداري الذي اقرّه السلطان سليمان القانوني أثناء وجودهِ في العراق ١٥٣٤ - ١٥٣٥ م(٤).

وفي القرن السابع عشر سقطت الموصل بيد الصفويين الايرانيين عام ١٦٢٣ م / ١٠٣٣ هـ، اثر سقوط بغداد على يد الشاه عباس في العام نفسه، فأثار ذلك قلقاً سياسياً واجتماعياً كبيراً عبّر عنهُ هروب بعض الأسر الموصلية الى جبال العمادية وجزيرة ابن عمر؛ ونصّب الايرانيون أحد «خاناتهم» لحكم الموصل التي قاوم سكانها الاحتلال الصفوي وبفعل تآزرهم وتلاحمهم اجليت القوات الصفوية عنها، فعاد العثمانيون الى حكمها من جديد، لتغدو مركزاً استراتيجياً قوياً في تموين الحملات العثمانية، ولكن المدينة شهدت حالة من عدم الاستقرار.. وعلى مدى حقبة تاريخية طويلة من الحكم العثماني: مارس الولاة الاتراك خلالها ضروباً من القسوة الادارية والجور الاقتصادي على الرغم من فترات حكمهم القصيرة، وازدادت حالة الموصل سوءاً بتفاقم النكبات والكوارث وخاصة المجاعات والطواعين.. وبرغم ذلك كله بقيت الموصل مركز تموين اقتصادي، وقاعدة انطلاق عسكرية باتجاه الاضطرابات التي حفلت بها اوضاع العراق الاقليمية عصر ذاك(٥).

ولادة الحكم المحلي:

أما بالنسبة لتركيب البنية الداخلية / السكانية للموصل فقد تنازعتها مصالح القوى الاجتماعية المتمثلة ببعض الاسر القديمة ضد السلطات الرسمية لكل من الولاة في الادارة والاغوات في الجيش. وقد نتج عن ذلك، صدامات مسلّحة، وأوضاع متدهورة تلاقت جميعها رفقة عوامل خارجية كان من ابرزها ضعف السلطة المركزية للدولة على اقاليمها.. وبخاصة ابرز الأقاليم العربية ومنها: العراق وبلاد الشام(٦).

وكان البلاط العثماني مجبراً على ان يعترف بالجهود العسكرية والمالية المخلّصة التي تبذلها القوى المحلية من الأسر الناشئة والعوائل الجديدة وتلك المتوطّنة القديمة في تلك الأقاليم.. فضلاً عن اعتماده على اقواها اقتصادياً لغرض هيمنتها البيروقراطية كبديل لسياسته المركزية التي اتّبعها طويلاً، ونتيجة لضعف امكاناته وقدراته المباشرة المؤثرة في تسيير شؤون الدولة ومرافقها كافة وفي جميع قسماتها الاقليمية.. لقد توالد ذلك الضعف في الدولة نتيجة هزيمتها التاريخية امام جيوش التحالف الاوربية، ابان الحصار العثماني الثاني لڤينا عاصمة الهابسبورك النمساوية عام ١٦٨٣ م(٧).

هكذا، كانت الأوضاع إذن مهيأة لاستقبال





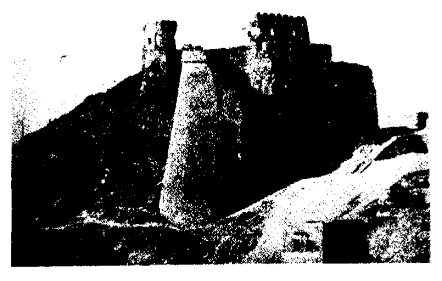
• جامع الحاج حسين باشا الجليلي (جامع الباشا).

عهد محلي جديد في الموصل؛ وستبدأ السلطة الجليلية ترسّخ نفسها يوماً بعد آخر.. وستشهد الموصل خلاله ابرز الأحداث التاريخية خلال القرن الثامن عشر. وهكذا ايضاً، اذ لم يمض على وفاة الوزير حسن باشا والي بغداد اقل من سنتين، حتى نصّبت اسماعيل باشا بن عبدالجليل والياً على الموصل سنة ١٧٢٦م/ ١١٣٩هـ، وقضى في منصبه قرابة سنة واحدة ليخلفه ولاة اتراك.. وبعد وفاته بثلاث سنوات خلفه ولده الحاج حسين باشا الجليلي، الذي نصّب والياً على الموصل لأول مرة سنة ١٧٣٠م/ ١١٤٣هـ.. ويعّد الحاج حسين باشا الزعيم المؤسّس لحكم الولاة من الجليليين في الموصل[٨].

مجتمع الموصل وبروز الاسرة الجليلية :

تجمع اغلب المصادر التاريخية على ان أصل هذه الاسرة قد تعددت فيه الأراء حتىٰ بالنسبة للطبقة الارستقراطية العليا في المجتمع الموصلي ابان القرن الثامن عشر، وهي طبقة تركبت من مجموعة من الاسر القديمة المتنفّذة بسلطاتها الاقتصادية والدينية، ونافست الولاة الاتراك مقاليد الادارة والحكم، بل وكانت موضع اهتمام الباب العالي في معالجة الشؤون الداخلية.

ان المصادر التاريخية والرسمية لاترقى الى اكثر من عبدالجليل بن عبدالملك الذي لم يكن عريقاً في الموصل، إذ كان عبدالملك قد نزح اليها من الاناضول بعد ان ولد له ولد اسمه عبدالجليل في ديار بكر سنة ١٦٢٠م/ ١١٣٠هـ[٩]؛ وانه امتهن التجارة الاقليمية بينها وبين الموصل.. فاستطاع ان ينمو بتجارته وثروتهِ من خلال عملياته النهرية. وبعد استقراره في الموصل نجحَ في انخراطه في نظام «المالكانة» العثماني للاراضي الاقطاعية الكبرى، ونظام الالتزام فتأهلَّ الى وضع او مكانة قادة التيمارات العسكرية اوزعماء الزعامات الشاسعة بعد تملكِه لأرض المالكانة في قرةقوش الواقعة قريباً من الموصل، أي للشمال- الشرقي منها[١٠].



• قلعة الموصل الرئيسة (باش طابيه) التي اهتم بتجديدها وتقوية استحكاماتها الحاج حسين باشا الجليلي قبيل الغزو الفارسي سنة ١٧٤٣.

ودارت كتابات متناقضة متعددة حول عقيدة عبدالجليل في مصادر كثيرة، ولا تزال المعلومات مبهمة حول مسائل تخص اصل هذه الاسرة، وكيفية وصولها الى حكم الموصل.. وكيف كان باستطاعتها ان تكسب ولاء الفئات الاجتماعية، وذلك بالارتكاز على قاعدة اقتصادية متينة أهلّتها- فيا بعد- للوصول الى مركز السلطة، ناهيك عن الأساليب والوسائل الحسنة التي مارسوها في التعامل الاجتماعي ـ الاقتصادي فبدأ نفوذ الأبناء السبعة الذين انجبهم عبدالجليل بالتزايد في السوق، وحق الجباية لبعض المقاطعات.. ودخولهم معترك عمليات مالية واسعة كضمان رسوم الاحتساب للضرائب ضمن استمرار آلية عمل

نظام الالتزام العثماني[١١] .

وبفعل تدهور نظام السپاهية (الفرسان) الاقطاعي ، وما رافقه من قلة في الضبط العسكري تمكن الجليليون من امتلاك وحدات التيمار الاقطاعية واضحوا فرساناً من مماليك السلطان العثماني ، ومن ذوي الاقطاعات بدرجة «زعامات» في اقليم خصب جداً بأراضيه الزراعية كالموصل[١٢] .

كل من اغنياء الجليليين والعمريين وأسر اخرى لها مكانتها في المجتمع الموصلي (دون الفقراء منهم) ليكونوا من المناصرين الأشداء لحكم العثمانيين.. كما وانهم عاشوا لفترات تاريخية طويلة في صراعات محلية ضد عوائل «السادة» كالنقيب والمفتي والفخري .. بفعل الاختلافات المذهبية بين الطرفين[١٣] .

• برج دفاعي في سور الموصل.

ويبدو ان امكانات محلّية واسعة قد توافرت لاسماعيل آغا بن عبدالجليل لكي يتولى مقاليد الولاية بعد منحهِ رتبة «الباشوية» ، لاسيما مقدرتهُ في الوصول الى كسب ثقة السلطة العثمانية المركزية بعيداً عن أبرز الشخصيات والأسر الموصلية الاخرى. وكان العمريون من ابرزهم ؛ أي الأغنياء منهم.. وقد تآلفت الارستقراطية المحلية التي يمثلها

طبيعة الادارة الجليلية– اللامركزية للموصل :

تشير المصادر التاريخية الى ان ثمّة مساعدات مالية قد قدّمت من الموصل بغرض تجهيز فصائل من الجيش العثماني ، والتي اشتركت في الحملة العسكرية التي قادها والي بغداد الوزير احمد باشا ضد ايران الصفوية[١٤] . ويبدو ان الدور الذي قام به اسماعيل اغا الجليلي كان كافياً لمنحهِ رتبة «امير»





• باب لكش : (أحد ابواب مدينة الموصل الرئيسة).

وتنصيبه والياً على الموصل مع منحهِ لقب «بكلربكي» (رتبة الباشوية بطوغين) سنة ١٧٢٦م[١٥]، فبدأت فترة الحكم المحلي في الموصل، وهو الحكم الذي تميّز بسيادة القوى المحلية في الادارة، وكان الجليليون على رأس تلك القوى، مع تحالفات لأسر محلية اخرى.. اذ كان العمريون - مثلاً - يسيطرون على الاجهزة الدينية (الافتاء/ القضاء/ التدريس..)[١٦].. كما تموصلت قطاعات اخرى في الولاية وعلى رأسها اورطات (فرق) الجيش وجهاز الادارة في الحكومة المحلية.

على هذا الأساس، فقد انفضّ الصراع بين القوى المحلّية والقوى التركية، وليتحوّل الى صدامات وانشقاقات بين القوى المحلية ذاتها، الاّ في حالة تنصيب والٍ غريب عن المدينة. وعليه فقد احتكر الجليليون حكم الموصل لأكثر من قرن كامل (١٠٨ سنوات) تخلّلها حكم متقطع لولاة من غيرهم، الا انهم امتلكوا سيادة الموصل الاقتصادية والاجتماعية، وامتدّ نفوذهم الى أماكن اخرى، وقد بلغ حكمهم الحقيقي زهاء (٩٠) سنة، تولى خلالها (١٦) والٍ من الجليليين حكم الموصل أما الـ (١٨) سنة الباقية، فقد تولّى فيها (٢٥) والياً غريباً حكم الموصل[١٧].

ويبدو للمؤرخ بأنّ الجليليين قد نجحوا في استمرار حكمهم للموصل مركزاً وولاية، وكسبوا ثقة الناس بتآلفهم معهم ضد الحكام الغرباء، ومنحهم الناس حرية في التحرك والعمل وكسب العلوم والتجارة والرحلات (وخاصة بعد فشل حصار نادرشاه للموصل سنة ١٧٤٣م) فكسبوا ولاءات متعدّدة لمختلف الطبقات والفئات والتنظيمات الحرفية واورطات الانكشارية.. وقد ساعدتهم كثرة رجالهم، إذ بلغ عدد بيوتاتهم (١٥) بيتاً جليلياً في منتصف القرن الثامن عشر[١٨].

استطاع الجليليون ايضاً استغلال الروح الموصلية العربية ضد الغرباء من الولاة الاتراك خاصة، فضلاً عن اثارة المتاعب والشقاقات بين اورطات الانكشارية من اجل اسقاط اولئك الولاة الغرباء، واثارة الفوضى والعصيان والشارع السياسي ضدهم، وقد استمرّت هذه السياسة بمناوراتها واحداثها الصاخبة ردحاً طويلاً من الزمن[١٩]. وقد تبلورت خلال مائة سنة من الحكم المحلي انقسامات سياسية عديدة قادت الى صراعات حامية نتج عنها مشكلات وتناقضات واسعة،

سواء تلك التي كانت على مستوى الولاء بين الاسرة الجليلية من طرف، والاسر الموصلية الاخرى من طرف آخر.. او مادار من صراعات بين زعماء الاسرة الجليلية انفسهم على تولّي المناصب القيادية واستقطاب المصالح العليا. وقد برز ولاة منهم ذوو قدرة سياسية وادارية فعالة، ونالوا شهرتهم في الاحداث التاريخية ليس المحلية فحسب، بل الاقليمية والعثمانية.. في حين ظهر منهم ولاة ضعاف لم يستطيعوا مقاومة التحدّيات الاقليمية المحيطة بهم، بل وحتى المشكلات المحلية التي برزت معهم..

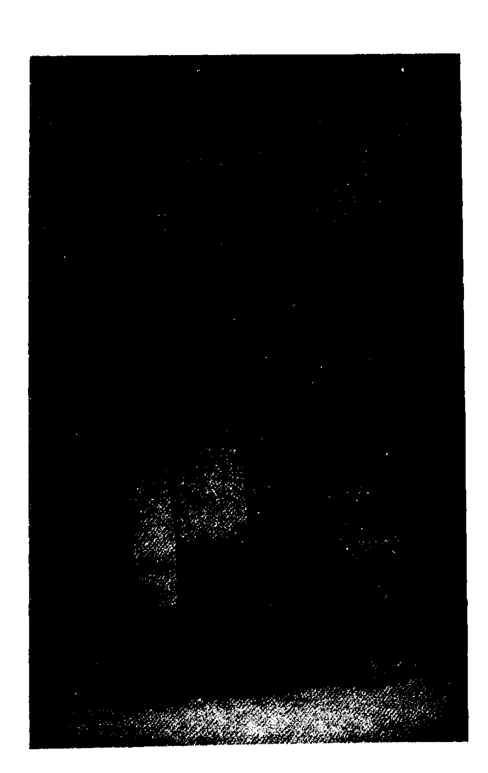
لنتوقّف قليلاً عند ابرز تلك الأسماء اللامعة من القادة الجليليين:

زعماء بارزون:

الحاج حسين باشا الجليلي:

قضى اسماعيل باشا بن عبدالجليل في منصبه سنة واحدة، ليخلفه بعد وفاته بثلاث سنوات ولده الحاج حسين باشا الذي نصّب سنة ١٧٣٠م/ ١١٤٣هـ والياً على الموصل.. ويعتبر هذا الرجل هو المؤسس الحقيقي لسلالة حكم الولاة من الجليليين، والتي رسّخها من خلال جهوده العسكرية والادارية محلياً واقليمياً في حكم الموصل اولاً، وفي ادارته وولايته للعديد من ولايات الاقاليم الشرقية للدولة العثمانية.

لقد نجحَ الحاج حسين باشا الجليلي في ادارته للموصل منذ تنصيبه عليها، وكان برتبة «بكلر بكى» أي: (رئيس بيكات: باشا ذو طوغين). وكان حكمه للموصل متقطعاً غير متواصل خلال (٢٨) سنة من حياته الحافلة، منها (١٣) سنة حكم خلالها ولاية الموصل، وما تبق منها من سنوات، فقد تولّى حكم ولايات مهمة في الادارة العثمانية؛ هي: اماسية ووان وارضروم وقارص وادنه وسيواس وكوتاهيه اضافة الى البصرة وحلب

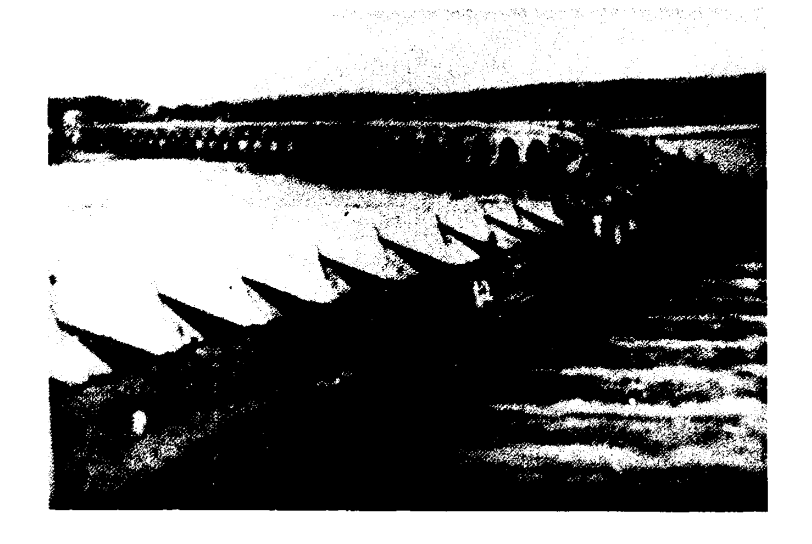


• باب الجديد الذي أمر بتجديده احمد باشا الجليلي سنة ١٢٣٧هـ (١٨٢١م).

وادارة بغداد[٢٠].

ويمكننا ان نجمل ابرز انجازاته العسكرية التي قدّمها للدولة ضد الامتدادات الايرانية، فقد صدّ على رأس جيشه، قوات ايرانية ارسلها نادرقولي (نادرشاه فيما بعد) سنة ١٧٣٢م/ ١١٤٥هـ الى الموصل والمؤلفة من (٨٠٠٠) مقاتل ايراني بقيادة نركزخان الذي قتل في المعركة وتبعثرت قواته، وقد ساهم في ذلك الحدث أبرز الزعماء الجليليين منهم: أخوه عبدالفتاح بيك وولدا حسين باشا: مراد بيك ومحمد امين بيك واولاد عمه. كما شارك الحاج حسين باشا بتقديم المساعدات «اللوجستية» لحملة الصدر الاعظم طوبال عثمان باشا في حربه وانتصاره على نادرشاه سنة ١٧٣٣م/ ١١٤٦هـ، إذ جعلت الموصل مركز مراقبة وتجمع واسعاف طبي





• الجسر القديم والقناطر الحجرية التي جدد عمارتها الحاج حسين باشا الجليلي والي الموصل.

ضد الفرس. واشتركت قوات الموصل في معركة كركوك الدامية ضد جيش نادرشاه، إذ شارك الحاج حسين باشا في قيادة الحملة العثمانية تحت زعامة طوبال عثمان باشا الذي وقع صريعاً في المعركة اثر ارتداد العثمانيين وهزيمتهم، واستطاع حسين باشا على رأس قواته أن ينسحب نحو مدينته الموصل باعجوبة بالغة.

أما أبرز الأعمال التاريخية الخالدة التي يجب ان تذكر للزعيم الحاج حسين باشا، فهي قيادته الكبرى لقوات الدفاع المشتركة في الموصل، وتخطيطه دون أية مساعدات عثمانية لسياسة حربه الشريفة ضد نادرشاه الذي فرضَ حصاره الشديد على الموصل سنة ١٧٤٣م/ ١١٥٦هـ، وانتصار الموصل العظيم على الجيوش الايرانية التي بلغت اكثر من ثلاثمائة الف مقاتل.. اضافة الى اعمال وانجازات عسكرية اخرى ساهم بها على تخوم الامبراطورية العثمانية[٢١].

وفضلاً عن ذلك، فقد اعتمد البلاط العثماني على الوزير الحاج حسين باشا في الادارة، وانهاء الازمات الداخلية في الأقاليم الصعبة، واخماد الفتن في المدن[٢٢].. وكان الرجل يعد من اكفأ وأقدر الوَلاة الجليليين الذين حكموا الموصل خلال العهد العثماني على وجه الاطلاق لما تحلّى بهِ من صفات قيادية وقدرات ادارية.. وقد توفي سنة ١٧٥٨م/ ١١٧١هـ بعد حياة قيادية حافلة على الرغم من حالة الانقسام الأسري والسلطوي والاجتماعي التي ستولد في عهده بالموصل والتي حالت وفاته دون معالجتها.. وقد مدحه الشعراء، وكتب عنه المؤرخون كثيراً، ولا تزال انجازاته واعماله بحاجة الى بحث ودراسة من الأجيال الحديثة.

الغازي محمد امين باشا الجليلي وآخرون:

هو الوزير محمد أمين باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي الذي حكم الموصل حكماً متقطعاً لست مرات منذ عام ١٧٥٢م/ ١١٦٦هـ وعلى مدى زمني يقترب من (١٥) سنة اطولها الفترة الخامسة بين ١٧٦١- ١٧٦٨م/ ١١٧٥- ١١٨٢هـ[٢٣]، وعلى الرغم من الصراعات



الداخلية التي حفل بها عهده في الموصل ، فإن الرجل برز قائداً عسكرياً عثمانياً لامعاً في الجيش العثماني ابان الحرب العثمانية- الروسية عام ١٧٦٩م ومن خلال ادارتهِ لأقاليم عثمانية في الأناضول ، إذ قاد جيشه وشارك في فتح مدينة خوتن Khotin في بسارابيا ، ودافعَ في ظروف سيئة جداً عن مدينة بندر Bender في مولدافيا .. وقد تقهقرت الجيوش العثمانية ، فأُسرَ محمد أمين باشا وارسل الى العاصمة الروسية بطرسبورغ[٢٤] ، وبقي في الأسر حتى عام ١٧٧٤ م ، إذ اخليَ سبيله بعد توقيع معاهدة كوچك كينارچه بين روسيا والدولة العثمانية[٢٥] ، فاستقبله السلطان عبدالحميد الأول ومنحه لقب «الغازي» وولاه الموصل ، واصدر اليه اوامره بتنفيذ خطة اصلاحية تعمل على تعديل نظام بلاد الشرق والعراق[٢٦] ، لكنه بعد ان عاد الى بلده الموصل ، عاش ظروفاً صعبة منها مرضه الذي حال دون انجاز مهامهِ الرسمية .

اما عبدالفتاح باشا الجليلي ، اخو الحاج حسين باشا ، فقد كان له دوره في تاريخ الساحل السوري الذي كان يهدّده حاكم مصر علي بيك الكبير بتقدّم هذا الأخير نحو سوريا عام ١٧٧٠ م . وكان بمثابة خطر داهم يهدّد منطقة الهلال الخصيب العثماني ، فأصدر السلطان مصطفى الثالث اوامره عام ١٧٧١م الى عبدالفتاح باشا ومنحهُ رتبة الوزارة واطواغها ، وتولي ولاية طرابلس الشام اضافة الى ولاية الموصل ، ولكنه لم يلق ترحيباً سورياً ، إذ دخل ابناء طرابلس ضدّه في صراع سلطوي واخرجوه منها ، بسبب فرضه عليهم مبالغ كبيرة من المال ، وقد توفي ودفن هناك . وكان الرجل قد سبّب مشكلات كبيرة في البيت الجليلي الحاكم في الموصل بسبب خلافاته الجذرية مع محمد أمين باشا حول السلطة ، وقد قادت تلك المشكلات السلطوية الى انقسامات حادة في الادارة والمجتمع الموصليين ، كان من نتائجها نشوب حرب اهلية قاسية ذهب ضحيتها عشرات الضحايا[٢٧] .

رجال آخرون

وهناك سليمان باشا بن الغازي محمد امين باشا الذي ولي الموصل اربع مرات ومجموع سنوات حكمه قرابة (١٤) سنة ، استطاع خلالها ان يفرض هيبة الامن والنظام في المدينة ، كما وكلفّته الدولة العثمانية بضبط بعض القبائل المناوئة واخماد الاضطرابات في الاقاليم المجاورة ، وقد جدّد خلال حكمه اسوار الموصل[٢٨] .

اما اخوه محمد باشا بن الغازي محمد امين باشا فقد حكم الموصل طويلاً إذ استمر عهده (١٨) سنة ، استطاعت الموصل ان تكون في وضع سياسي ، سلمي ومستقر نتيجة للسياسة الدوبلوماسية الهادئة التي اتبعها الرجل ، ونجح محمد باشا في أن يحول دون اشتراك جيشه في الحرب ضد الوهابيين[٢٩] .

ومن غير الجليليين كان هناك عصام الدين عثمان افندي الدفتري العمري صاحب كتاب «الروض النضر...» ، شارك فعلياً في الدفاع عن الموصل عام ١٧٤٣ م ، ولازم الحاج حسين باشا ، وكان سياسياً بارعاً وادارياً قديراً في دفتردارية ولاية بغداد ، ثم قائمقاميتها .. وقد جرّت الادارة عليه الاتعاب والاوجاع بين سجن ونشرد ونفي وبقي ثابت العزيمة راسخ الاعتزاز بالنفس بعد ملاحقات كل من علي باشا وعمر باشا والي بغداد[٣٠] .

ومن الزعماء القديرين الآخرين : يحيي باشا الجليلي آخر وال جليلي حكم الموصل لمرتين ، وعلى الرغم من محاولاته في الاحتفاظ بالسلطة له ولاسرته من بعده فان الظروف والخطط العثمانية من طرف وافكار ابراهيم باشا بن محمد علي باشا وتكتيكاته من طرف آخر حالت دون بقاء يحيي باشا زعيماً . وتشير الوثائق الى ان هذا الرجل قد تحالف مع ابراهيم باشا حاكم الشام واتفق مع صفوك شيخ



شمر الجربا من اجل فض العلاقة مع العثمانيين.. ولكنه لم يوفّق في عملياته فانتهى الحكم الجليلي عام ١٨٣٤ م(٣١) .

الموصل : الصراعات الداخلية من خلال انقسام السلطة والجيش :

كان لانتصار الموصل على حصار نادرشاه لها عام ١٧٤٣ م/١١٥٦ هـ اثر بالغ في تحولات كبيرة اصابت البنية الاجتماعية ، والهياكل الاقتصادية ؛ اذ توسعت الاعمال والخدمات اثر ترسخ الاسرة الجليلية الحاكمة والتي انقسمت على نفسها سياسياً . وقاد الصراع بين زعمائها الى تبلور صراعات الولاء بين سكان الاحياء من طرف ، وتآلف اورطات الانكشارية العسكرية بين هذا الحي او ذاك من طرف آخر. وكان لابد للنزاعات القديمة ان تظهر من جديد بعد تحول البنية الاجتماعية من حالة تآلفية دفاعية ضد الاعداء الغرباء الى حالة وحدات انتاجية تقودها المصالح الاقتصادية ومراكز النفوذ السياسي(٣٢) .

انقسمت اورطات الانكشارية الى حزبين متنافسين : اولها اورطة الاوتوزبير (الفرقة ٣١) المقيمة في باب العراق جنوبي المدنية ، وثانيها اورطة اليكرمي يدي (الفرقة ٢٧) المقيمة في باب الميدان. اماالاورطات الثلاث الاخرى : اللي ايكي ، (الفرقة ٥٢) واللي سكز (الفرقة ٥٨) ، واوننجي (الفرقة ١٠) فقد تمفصلت مواقفها وفقاً للتوازن الجغرافي بين قطبي الصراع الداخلي الذي اثر فيه تاثيراً بالغاً : انقسام الاسرة الجليلية الحاكمة الذي يعود في اسبابه الى مصالح اقتصادية منشؤها الميراث والملكيات والأراضي والوقفيات... فضلاً عن مصالح سياسية متنافرة وتبلورت اثر غياب الوزير الحاج حسين باشا عن الساحة... بين اخيه عبدالفتاح بيك من طرف وبين ولده محمد امين باشا الذي تولى حكم الموصل لاول مرة سنة ١٧٥٢م / ١١٦٦ هـ ومصطفى اغا ابن ابراهيم اغا ابن عبدالجليل من طرف آخر(٣٣) .

لقد كلف هذا الانقسام شراء رضا والي بغداد الذي منحوه ثروة طائلة ، كما منحوه فرصة ثمينة للتدخل في شؤون الموصل الداخلية.. كما وخلق في المدينة جبهتين اجتماعيتين متصارعتين بين السكان ، فانفجر الموقف بعد تأزم شديد ، ولوحق عبدالفتاح بيك حتى اجبر على الرحيل مع اتباعه. وعاد ابن اخيه الوالي فعفا عنه... ولكن؟ لم تنفع التجربة عبدالفتاح بيك الذي استغل تعيين والٍ غريب على الموصل ، فتقرب اليه ، واوغر صدره ، فكسب تأييده.. وسرعان ماثارت الانكشارية على الوالي الجديد الذي بدأ بجمع الاموال وفرض الضرائب ، فعزل وجردته الدولة من رتبته الوزارية وغادر الموصل(٣٤) .

تولى الموصل اسعد اغا الجليلي بصفة وكيل الوالي ، فاخضع البلد.. ولكن ما ان تولى رجب باشا الحلبي ولاية الموصل عام ١٧٥٧ م/١١٧١ هـ حتى نشب الصراع بين الحزبين اعلاه من جديد : حزب الميدان الموالي لمحمد امين باشا ، وحزب باب العراق الموالي لعبدالفتاح بيك ؛ فلم يستطع رجب باشا التحرك باتجاه رأب الصدع خاصة ، وانه قد استمالته قوى عبدالفتاح بيك في حين كان المواصلة يتعاطفون مع محمد امين باشا.. اما والي بغداد فقد عجز عن فض الازمة بالصلح كونه طلب مبالغ كبيرة من الاموال(٣٥) .

وانفجرت حرب اهلية قاسية بين الطرفين على مدى (٤٢) يوماً في شوارع الموصل ذهب ضحيتها ثلاثون قتيلاً وعشرات الجرحى ، وكادت تخرب المدينة لولا تنصيب الحاج حسين باشا الجليلي عليها بسرعة ، فارسل الى اخيه عبدالفتاح ينصبه متسلماً الى حين وصوله لكي يحول دون فراره ، فتوقف اطلاق النار، وخف الجميع لاستقباله بطل



الدفاع ، والجميع يتذرع باولوية التقرب اليه .. ودخل حسين باشا بلده والشوق لاعجهُ وهو في اجواء احتفالات الموصل التي سأم اهلها التشتت والحرب والصراع فاستمع على مدى ثلاثة ايام الى مبررات كل من الطرفين ، ثم اصدر اوامره بالقبض على اخيه عبدالفتاح بيك واتباعه[٣٦] .. ولم تنفع هدايا هذا الاخير النفيسة لاخيه ، إذ صادر امواله وسجن امراء اورطة الاوتوزبير وصادر اموالهم واعدم اثنين من الاشرار[٣٧] .

كانت وفاة الوزير الحاج حسين باشا بعد مرض مفاجئ سبباً في انقاذ الجميع من العقاب ، فتولى الموصل ولده محمد امين باشا سنة ١٧٥٨م/ ١١٧٢هـ فاصدر عفواً عن جميع المشتركين في الحرب الاهلية وبضمنهم عمه عبدالفتاح بيك الذي بدأ يعمل من جديد لحرق الصفحة البيضاء الجديدة والقضاء على ابن اخيه الذي نقل والياً على شهرزور ضمن فترة انتقالية ، حاول الوالي نعمان باشا الحلبي في الموصل ان يشن حرباً اهلية طويلة ، لكنه عزل وجرد من رتبته الوزارية وغادر الموصل ، فعاد اليها محمد امين باشا سنة ١٧٦٠م/ ١١٧٣هـ[٣٨] .

لم تمض الا اشهر حتى عزل محمد امين باشا نتيجة مؤمرات والي بغداد ، فيغادر الموصل الى اورفه لاجئاً ، فساءت احوال الموصل كثيراً على الرغم من تصالح بعض القوى الانكشارية ، وتحالف بعضها ضد الاخر .. فضلاً عما اصاب الحياة الاقتصادية من توقف[٣٩] ، فلم يكن امام السلطة العثمانية العليا الاّ اعادة محمد امين باشا من جديد .. ومرةً اخرى يتساهل الرجل ايضا في مسألة تجريم مراكز القوى ومعاقبة المسيئين وعناصر الشغب . واقتصر على تغريمهم بعض الاموال ، فعاد الصراع بين الاورطات من جديد حالما رحل محمد امين باشا من الموصل ، وقدم اليها الوالي الجديد مصطفى باشا الشاه سوار اوغلو[٤٠] . وعلى الرغم من محاولة هذا الاخير تثبيت مركزه في بيئة صعبة مليئة بالمشكلات تقرب اليه عبدالفتاح بيك الذي وجد الفرصة سانحة للنيل من خصومه الالداء وعلى رأسهم محمد امين باشا ..فعادت الحرب الداخلية من جديد اثر تغير العلاقات بين الاورطات ، فقد انقلبت المعادلة لصالح عبدالفتاح بيك اثر تحالف اهل الميدان معه . وتشتت اهل باب العراق !

هكذا ، نجد ان الحرب تندلع حالما يتولى الموصل والٍ غريب .. لقد تدهور الموقف وتقطعت الطرقات ، وانهمر الرصاص على مدى ايام... وتعطلت صلاة الجمعة وقتل صباح يوم عيد الاضحى (شوال ١١٧٥هـ) سبعة عشر رجلاً من الطرفين ، وامر الوالي باطلاق المدفعية ، فانطلقت (١٢٥) قذيفة (= گلة) ، واستمر القتال عنيفاً حتى بدأ يتحول شيئاً فشيئاً لصالح محمد امين باشا ، بدعوة كل من الوالي وعبدالفتاح بيك سكان بعض الاطراف للتدخل[٤١] ، وانتهت الاحداث لصالح اعلان محمد امين باشا والياً على الموصل ، فهرب الخصمان واستتبت الامور بعد استمرار الاحداث الدامية اكثر من ستة اشهر كاملة (أي للفترة ١٢ كانون الثاني ١٧٦٢م حتى ٢٢ تموز ١٧٦٢م) واستقرت الاوضاع في المدينة والولاية ، وامتد حكم محمد امين باشا بين ١٧٦١-١٧٦٨م/١١٧٥-١١٨٢هـ ، وهو عهد طويل زاهر تحسنت خلاله الظروف والاحوال السياسية فانعكس ذلك على تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية للموصل[٤٢] .

تفاقم الصراعات والتغيرات السياسية : جيل ثان من الحكام المحليين- الجليليين :

كان للتحالفات العسكرية- الانكشارية الجديدة اثرها في التغيرات السياسية بالموصل التي بدأت صفحة جديدة ، فقد بدأت تشترك في حكمها عناصر قيادية جديدة ، إذ انقسمت



الولاءات السياسية فيها مرة أخرى تجاه الانشقاق الحاد في البيت السلطوي الجليلي، فبرز الى السطح من جديد حزبان كبيران[43]. اولهما كان منشؤه انضمام «اليكرمي يدي» (المستقرة في الميدان) الى عبد الفتاح بيك بتحالفهِ مع اورطتي «اوننچي» و «اللي سكز». وثانيهما حزب جديد يقوده كل من سليمان بك بن محمد امين پاشا واسعد اغا الجليلي ويضم اورطتي «الاوتوزبير» و «اللي ايكي».

كانت الدسائس تعمل في الخفاء، ولكن سرعان ما انفجر الصراع وبعنف بين الحزبين السياسيين، وقد تبلورت الاوضاع عن اتحاد الفرقاء ضد انحسار «اليكرمي يدي» التي بقيت لوحدها في الميدان، فكان من السهل تطويقها والقضاء عليها، وإحداث المزيد من التدمير لولا سياسة الروع التي اتبّعها القادة الجليليون.. ولما كان عبد الفتاح بيك لاجئاً سياسياً في بغداد منذ احداث عام ١٧٦١ م الدامية يراقب الامور[44].. وقد لجأ اليه (٧٠) من اغوات «اليكرمي يدي» وقد وجدَ في غيضهم «وسيلة ذهبية تمكنّه من العودة الى مسرح الاحداث»[45]

بدأ عبد الفتاح بيك يخطط من جديد للوصول الى السلطة، وقد غدت القيادة بيد سليمان بك ابن محمد امين پاشا والذي لم يستطع ان يرسّخ مجموعة التحالفات وقيادة الوفاق السياسي، فانفجر القتال مرة اخرى بين القوى المتحالفة والاوتوزبير التي طمحت في الحصول على الاموال، فدام النزاع (٨) ايام، ولكنه انتهى لصالح بيت محمد امين پاشا مرة اخرى[46].

صعقت الموصل اثر انتشار خبر تعيين عبد الفتاح بيك (پاشا) والياً على الموصل سريعاً، فقضّ الخبر مضاجع خصومهِ من زعماء وقادة وضباط وتجار كبار.. وذلك في كانون الثاني ١٧٧٠ م/ رمضان ١١٨٣ هـ، وبينما نال عبد الفتاح مأربهُ الذي ناضل من اجله طويلاً فقد ارتبكت الاوضاع الداخلية، وفرّ بعض الخصوم الى ولايات اخرى، في حين اعلن بعض آخر ندمه، وعاشت الموصل حالة سياسية ونفسية عصيبة[47].

تدرع سليمان بيك بقصره، ولم يكن موقف الجاهير ايجابياً تجاه تنصيب الخصم القديم ما عدا بعضاً من حلفائه بالامس[48]، ودخل المنشق العنيد مدينتهُ باحتفال كبير في ١٤ نيسان ١٧٧٠ م[49]، وما ان دخل قصره حتى اصدرَ اوامره بمصادرة اموال اسعد اغا ولكن بوساطة حاكم قره جولان تصالح الاثنان على عشرة الاف دينار تضاف الى اموالهم المصادرة. ثم بدأت سياسة المصادرة والاستدانة والاستئصال إذ يذكر صاحب «الدر المكنون» انه «استدان من تجار الموصل ثمانين الف قرش (القرش يعادل ٨ دراهم وعيار ٦٠٪) مقابل ارتهان املاكه..» ولكنه لم يمكث في الموصل طويلاً، إذ تولى بعد أشهر قليلة ولاية طرابلس الشام، فاوكل مهامه الى احد بني عمه وولده[50].

كان كابوساً ثقيلاً انزاح بمغادرة عبد الفتاح الموصل، فعاد خصومه الناقمون عليه من الساسة والزعماء العسكريين لفرض ارادتهم مرة اخرى، وعاد التحالف بين الاورطات ضد المتسلّم وابن الوالي واورطة واحدة منشقة، واندلع القتال على مدى (١٥) يوماً، ثم عقد الصلح بجهود حاكم ماردين ليوم واحد[51]، ولكن القتال سرعان ماعاد من جديد عنيفاً على مدى (٤٠) يوماً، ثم عقد صلح ثان فكان صلحاً ناجحاً وذلك لتدخلّ سليمان بك، وسار الى عبدالرحمن بك ابن عبد الفتاح باشا وفد يمثل زعماء الانكشارية، فغدر بهم وقتلهم جميعهم، واستقرّ الامر له على مدى ثمانية ايام ولكنه فوجئ بخبر نعي والده والي الموصل عبد الفتاح باشا وتنصيب الدولة مكانه سليمان بك (= باشا)، ففر من الموصل متخفيّاً نحو بغداد كلاجئ سياسي بحماية واليها عمر باشا[52].

هكذا اذاً، تولّى سليمان باشا بن محمد امين باشا ولاية الموصل لمدة طويلة تقدر بـ (٧) سنوات لم ينقطع خلالها الا لمرتين امدهما قرابة السنة، استقرّت الاوضاع في الموصل في اثناء وجوده، إذ تمتّع بمقدرة عالية في ضبط مقاليد السلطة، وكان غيابه سبباً في حدوث قلاقل واضطرابات بين صفوف اورطات الانكشارية وخصوصاً في عهد من خلّفه من الولاة الغرباء مثل: مصطفى باشا يازه‌چي زاده وتيمور باشا الوانلي الذي حدثَ في عهده انقسام بين اهل الموصل الى فريقين: ازرشيه وكرمليسية (٥٣).

اما عبد الباقي باشا الجليلي ١٧٨٥–١٧٨٦م/ ١١٩٩– ١٢٠٠هـ فلم يكن عهده مستقراً، إذ جرت فيه تصفية للخصوم، وتجاوز هو نفسه حدوده في نظام الحكم المحلي (٥٤)، وقد قتل صريعاً على ايدي الدنادية اليزيدية في اثناء خروجه لقتالهم، ثم عاد سليمان باشا الجليلي مرة اخرى الى الموصل سنة ١٧٨٦م/ ١٢٠٠هـ، فحكمها اربعة اعوام متواصلة حكماً هادئاً ميسوراً، وقد ارتاحت الموصل كثيراً بعد ان عاشت حياتها التاريخية المضطربة والصعبة على مدى نصف قرن كامل من القرن الثامن عشر. ولابد ان نذكر ان سليمان باشا اعتذر عن تنفيذ مهمّة حربية عليا دعاه السلطان لها وهي مقاتلة الوهابيين، إذ تذرّع بحجة المرض ثم استقال سنة ١٧٨٩م/ ١٢٠٤هـ (٥٥)، وبقي في الموصل حتى توفي سنة ١٧٩٦م/ ١٢١١هـ، وكانت للرجل سماته القيادية وشخصيته الادارية (٥٦)..

تولى حكم الموصل بعد سليمان اخوه محمد باشا ابن محمد امين باشا، وقد استغرق عهده طويلاً ومتواصلاً للفترة ١٧٨٩– ١٨٠٦م/ ١٢٠٤– ١٢٢١هـ أي على مدى (١٨) سنة، وبالضبط خلال عهد السلطان سليم الثالث. وكان عهداً محلياً سلمياً هادئاً. ويعد فترة نقاهة عند مطلع القرن التاسع عشر، تخلصّت الموصل خلالها من اوضارٍ ومشكلات وتعقيدات عدة سبّبتها فوضى الصراع الداخلي بين الاورطات... والمحاولات الخارجية لاقصاء الاسرة الجليلية عن الحكم، وانشقاق الاسرة على نفسها، وغدا الناس يخشون الفتن والاضطرابات التي كانت تثيرها اورطات الانكشارية (٥٧).

وقد ازداد النفوذ السياسي للموصل خلال عهد محمد باشا نتيجة لعلاقاته الخارجية الجيدة، واسلوبه الدوبلوماسي الهادئ في معالجة قضايا ساخنة عاشها الاقليم كله في مطلع القرن التاسع عشر، ونجح كما فعل اخوه من قبله في ابعاد الموصل عن شبح الحرب العثمانية الوهابية في نجد وذلك من خلال شراء مواقفه بالمال والغلال (٥٨).. كما اكتسبت الموصل خلال عهدهِ مكانة سياسية في المنطقة الاقليمية، فاستقرّت اوضاعها السياسية والامنية كما نجح في ادارته النزيهة.. واعتنى بالتجارة فتوافرت المواد الغذائية اثر انعاشه للسوق المحلية في الموصل، فازدهرت الحياة الاقتصادية فيها، وغدت مركزاً مهماً للقوافل.. كما وتوسّعت الصناعات وازداد عدد السكان الذين احبوا حاكمهم «الباشا» حبا جّماً، واحترموه كثيراً (٥٩)، وقد مات الرجل مشلولاً عام ١٨٠٦م، فتسلّم السلطة في الموصل ولده محمود بيك الذي لم تكن له شخصية والده القوية.

عودة الصراع والبنية السياسية: من الانقسام نحو التفكك.

لم يمض على تسلّم محمود بيك حكم الموصل خمسة اشهر، حتّى تفجّر صراع جديد على السلطة بقيادة اسعد بيك ابن الحاج حسين باشا الجليلي الذي كان يرى بأنه احق بالولاية من حفيد اخيه محمد امين باشا، لاسيما وان اسعد قد سجّل صفحة تاريخية في النضال ضد عبد الفتاح باشا...



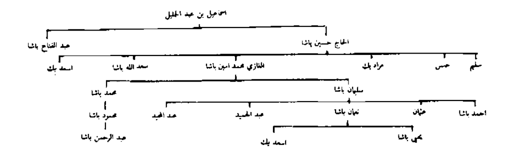
هكذا اضطربت الامور من جديد ، واندلعت شرارة معارضة داخلية قوية اشتركت فيها ايضاً اورطات الجيش مرة اخرى ، وطالَ الصراع سوق الموصل الذي اصابته خسائر فادحة نهباً[٦٠] ، ووقع عدد من القتلى ، وما ان سكنت العاصفة لايام معدودة بفعل مساعي رجالات البلد ، حتى عادت المعركة من جديد بين قطبي الصراع على السلطة المحلية ، حتى بقي اسعد بيك يحارب لوحدهِ اثر انفضاض اعوانه عنه فحوصر سبعة ايام[٦١] . وعلى الرغم من تنازل محمود بيك امام اصرار عمه الاكبر اسعد بيك فان السلطة العثمانية حسمت الامر لصالح نعمان بك بن سليمان باشا الجليلي اثر تدّخل والي بغداد علي باشا.

هكذا ، عاد النزاع يتشكّل أخرى بين اسعد بيك ونعمان بيك الذي حسم الفتنة بمحاصرة دار اسعد بيك وقصفها بالمدافع .. وجرت مفاوضات مع المحاصرين انتهت بنفي اسعد بيك الى اربيل ، فهدأت حالة الموصل السياسية ، واستتب الامن الداخلي ، واقرّت السلطنة ولاية نعمان ، ومنحته الباشوية برتبة «وزير» وقد فرض هيمنته باسلوبه الخاص على الموصل ، وبمساعدة اولاده واخوته في تدبير الامور ، اذ كان يعاني من المرض والذي قضى عليه بعد اشهر[٦٢] ، فانتهى حكمه بعد اكثر من عام واحد استطاع خلاله ان ينتصر لبيت محمد امين باشا ، وقد بقي حكم الموصل بايدي هذا البيت سنوات طويلة .

ويبدو للمؤرخ أن الاسرة الجليلية قد عانت حتى سنة ١٨٠٧ م (أي حتى مطلع عهد السلطان محمود الثاني) من انقسامين شديدين داخل بنيتها السياسية :

١ – انقسام بين عبد الفتاح بيك وبين محمد امين باشا بتحالف جميع اعيان الاسرة ضد عبد الفتاح بيك (أي : انقسام بيت اسماعيل باشا : عم ضد ابن اخيه) .

٢ – انقسام بين اسعد بيك ابن حسين باشا وبين محمود بيك ابن محمد باشا ابن محمد امين باشا بتحالف جميع اعيان الاسرة ضد اسعد بيك (أي : انقسام بيت الحاج حسين باشا : عم ضد حفيد اخيه) .



الحكم المحلي والحركة الانقلابية في عام ١٨٠٩م :

مع مجيْ السلطان محمود الثاني الى حكم الامبراطورية سنة ١٨٠٨ م ، شهدت الموصل حركة انقلابية في عام ١٨٠٩م/١٢٢٤هـ ضد حكم الأسرة الجليلية ، وقاد الحركة أحمد باشا ابن بكر افندي كتخدا الولاية ورئيس ديوان الانشاء فيها ، وقد صمّم على تولّي الحكم متعاوناً مع والي بغداد سليمان باشا الصغير، ولكنه لم يكن يمتلك قاعدة شعبية عند الموصليين الذين رغم كل المشكلات فأنهم وجدوا حالة شبه استقلالية على أيدي الجليليين .. ونجح قائد الانقلاب في حركته في بادئ الأمر ومارس سلطة حازمة بالاستيلاء على أملاكهم ، ونكّل بأتباعهم ، ثم التفت الى السوق ، فصادرَ أصنافه .. ولم يقف الجيش معه إذ تمسّكت أورطاته الانكشارية بالشرعية السياسية للجليليين .. فأحبطت الموصل تلك المحاولة الفاشلة[٦٣] .

وتعاقب الولاة الجليليون على حكم الموصل حتى عام ١٨٣٤ م ، أي خلال عهد السلطان

محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩ م ، (وتكاد تغيب جملة واسعة من المعلومات التاريخية عن الموصل خلال العقدين الاخيرين من الحكم الجليلي لها ، وذلك بفعل النقص الكبير في الأدبيات والكتب التأريخية)[٦٤] .. ناهيكم عن ضمور دور الموصل الأقليمي على الساحة العثمانية سواء باتجاه أسطنبول أم بغداد ، بل غدت الموصل واقعة تحت تأثير سياسة المماليك الكوله منذ في بغداد وهيمنتهم ، وعلى الأخص ابان عهد الوالي داوُد باشا ١٨١٧-١٨٣١ م[٦٥] . ويمكننا ذكر ولاة الموصل من الجليليين الذين جاءوا الى الحكم بعد حركة انقلاب أحمد باشا ابن بكر افندي ، وهم :

١- محمود باشا ابن محمد باشا ابن محمد امين باشا الجليلي حكم للفترة ١٨٠٩-١٨١٠ م .

٢- سعدالله باشا ابن الحاج حسين باشا الجليلي حكم للفترة ١٨١٠-١٨١٢ م .

٣- أحمد باشا ابن سليمان باشا بن محمد امين باشا الجليلي حكم للفترة ١٨١٢-١٨١٧ م .

٤- حسن باشا ابن الحاج حسين باشا الجليلي حكم للفترة ١٨١٧-١٨١٨ م .

٥- أحمد باشا ابن سليمان باشا ابن محمد امين باشا الجليلي (للمرة الثانية) حكم للفترة ١٨١٨-١٨٢١ م .

٦- عبد الرحمن باشا ابن عبدالله باشا ابن مراد باشا الجليلي حكم للفترة ١٨٢١-١٨٢٢ م .

٧- يحيىٰ باشا ابن نعمان باشا ابن سليمان باشا الجليلي حكم للفترة ١٨٢٢-١٨٢٧ م .

٨- عبد الرحمن باشا ابن محمود باشا ابن محمد باشا ابن محمد أمين باشا حكم للفترة ١٨٢٧-١٨٢٨ م .

٩- محمد امين باشا ابن عثمان بك ابن سليمان باشا الجليلي حكم للفترة ١٨٢٨-١٨٢٩ م .

تقلّد بعد ذلك اثنان من غير الجليليين حكم الموصل على اثر ثورة مناوئة ، فجاء الى السلطة قاسم باشا بن حسن افندي العمري ، فبقي في الحكم للفترة ١٨٣٠- ١٨٣١ م ، ثم أعقبه محمد سعيد آل ياسين المفتي ، فحكم للفترة ١٨٣١- ١٨٣٣ م[٦٦] .. ثم اقتحم الموصل يحيي باشا الجليلي ، فحكم الموصل ثانية ، وكان آخر والٍ من الاسرة الجليلية ، إذ حكم الموصل للفترة ١٨٣٢- ١٨٣٤ م[٦٧] وينتهي به الحكم المحلي لولاية الموصل ، لتبدأ بعده صفحة جديدة في تاريخها الحديث ، وفي حكم الادارة المركزية العثمانية .

الموصل والعلاقات الاقليمية :

١ . مماليك بغداد الگوله منذ :

تشكل ولاية الموصل جزءاً حيوياً ومركزياً من «بلاد الجزيرة الفراتية» الفسيحة وقاعدتها الموصل على امتداد عصور طويلة ، فتميّزت الولاية بخصوصيتها الاقليمية وعروبتها . وامكانياتها الاقتصادية العالية ، ونموها الديمغرافي الكبير.. ووحداتها الاجتماعية- الحضرية العملية ، فضلاً عن بيئتها الجغرافية المتنوّعة . وقد كانت السيطرة العثمانية وانظمتها الادارية المركزية واللامركزية في كل من بغداد والموصل سبباً في مدّ نفوذ بغداد نحو الموصل او جزره عنها نسبة الى قوة النظام السياسي الذي تحظى به ولاية بغداد.. وقد تجسّد ذلك كثيراً ابان حكم المماليك الگوله منذ لها ونظامهم السياسي اللامركزي- العثماني الذي تأسّس في بيت حسن باشا وولده احمد باشا ، وهو النظام الذي انبثقت عنه اول حكومة اقليمية قوّية اعتمدت «المماليك» كقوة عسكرية وادارية في فرض الهيمنة على مناطق شاسعة من الاراضي



العراقية، وبقي ذلك النفوذ المملوكي يحافظ على أمن العراق الاقليمي لأكثر من ثمانين سنة حتى سقوط المماليك بانتهاء عهد الوالي القدير داود باشا ١٨١٧ - ١٨٣١ م [٦٨].

وبالقدر الذي كان طموح ولاة بغداد يسعى لفرض الارادة على حكام الموصل فان قوة الولاة الاوائل من الجليليين ونفوذهم كانا يحدّان من تحقيق طموحات المماليك، ولكن ضعف الحكام المتأخرين من الجليليين، كان سبباً وراء قيام مشكلات اقليمية عدة. وعلى الرغم من التحالف الاقليمي بين الموصل وبغداد ضد الفرس على ايام كل من الواليين القديرين الحاج حسين باشا (عن الموصل)، واحمد باشا ابن حسن باشا (عن بغداد) الاّ ان ذلك لم يمنع من قيام توترات وتحرشات وملاحقات.. تعقبها مصالحات وتحالفات ضد العدو المشترك المتربّص في ايران [٦٩].

ولكن كثيراً ما كان الولاة المماليك في بغداد وراء حدوث الازمات والصراعات الداخلية في الموصل، إذ كان المماليك يخامرهم الشك والخوف من تآلف الاسرة الحاكمة في الموصل في حكم ولاية غنية بالموارد الاقتصادية ومتماسكة في بيئتها الاجتماعية، علماً بأن الجليليين كانوا في اعين الزعماء المماليك بمثابة الرقباء عليهم من قبل السلطة المركزية.. لقد حدثت تدخلات عدة من قبلهم في شؤون الموصل الداخلية، وخصوصاً من قبل سليمان باشا وعمر باشا [٧٠].

وكان لكل من الجليليين والمماليك مراكز قوى مؤيدة لكل جانب منها في العاصمة اسطنبول إذ لم يكن للحكام الجليليين من اهداف سياسية الا ضرب زعامة عمر باشا الذي كان سبباً مباشراً في اساءة العلاقات مع ايران التي كان يحكمها الزنديون (كريم خان الزند) كما جاء في التقرير الذي رفعهُ سليمان باشا ابن محمد امين باشا الى الباب العالي [٧١].. فكان ان حظي الجليليون بثقة السلطان العثماني بالاعتماد عليهم في ادارة الشؤون العراقية [٧٢].

ولكن على الرغم من التخلص من عمر باشا فان النفوذ المملوكي بدأ يستعيد مكانتهُ من جديد. وقد سجلت حكومة سليمان باشا الكبير ١٧٨٠ - ١٨٠٢ م تحسناً في العلاقات بين بغداد والموصل سياسياً واقتصادياً، ثم استمرت العلاقات الطيبة بين الطرفين على عهد علي باشا والي بغداد ١٨٠٢ - ١٨٠٧ م، الا ان مصرع الاخير انهى حالة الود والهدوء على عهد سليمان باشا الصغير ١٨٠٨ - ١٨١٠ م الذي سعى لاسناد ولاية الموصل لغير الجليليين ومنهم: احمد باشا ابن بكر افندي، وصولاً لمد النفوذ المملوكي الى الموصل [٧٣].

وكانت الموصل وراء عزل سليمان باشا الصغير والى بغداد ومصادرة أموالهِ رسمياً، نتيجة للسياسة التعسفية التي اتبعها. وعبثاً حاولت الدولة السيطرة على الموقف، اذ تحالفت القوى الاقليمية بقيادة الموصل، وانطلقت منها في آب ١٨١٠ م نحو بغداد، فدارت معركة بينها وبين قوات سليمان باشا.. وكان الوضع في بغداد مضطرباً ضده، وكان محمود باشا الجليلي والياً على الموصل، واشتعلت المعارك، وغدت الكفة لصالح الموصل في حين انفض عن سليمان باشا اعوانه وجنده، وبقي في الميدان وحده، فاضطر الى الهرب مع بعض اتباعه الى اطراف نهر ديالى حيث قتل هناك [٧٤].

اما بالنسبة للسليمانية فكان هناك ثمة تحالف بين الجليليين والبابانيين من اجل الحفاظ على الرقعة الشمالية كيلا تذوب في كيان المماليك. وعلى الرغم من احتفاظ الموصل بكيانها الاقليمي، وتمتعها بحكومتها القوية، فان محاولات تدخل بغداد في شؤون الموصل قد رجعت من جديد، وعلى أشدها بعد وصول داود باشا الى حكم بغداد سنة ١٨١٧ م، إذ كان يطمح الى تأسيس حكومة

عراقية تحت ادارته المركزية[٧٥] . فاصطدم داود باشا بوالي الموصل ايامئذٍ احمد باشا الجليلي ١٨١٢ - ١٨١٧ م الذي لم يهتم به ولم يكترث بمقامه.. فاستخدم داود باشا نفوذه لعزل والي الموصل ، فعزل وعين مكانه حسن باشا ابن حسين باشا الجليلي الذي توفي بعد حين ، وقد توطدت خلال ذلك اواصر العلاقة بين داود باشا والوالي المعزول احمد بك ، فتدخل من جديد لاعادته ، فعاد ليحكم الموصل قرابة اربع سنوات[٧٦] .. فتوثقت اواصر العلاقات بين بغداد والموصل سياسياً بعد ذلك.

وتولى يحيي باشا الجليلي حكم الموصل عام ١٨٢٢ م/ ١٢٣٨ هـ ، واستمرت العلاقات طبيعية بين الرجلين حتى في ثورة زعماء الانكشارية في الموصل ضد يحيي باشا عام ١٨٢٦ م إذ لم يعمل داود باشا على تغيير الاوضاع في الموصل ، بل ساند حكومة الموصل الشرعية ومن المحتمل ان الرجلين قد تحسسا بوادر التغيير في سياسة البلاط العثماني نحو اللامركزية ، وان السلطان محمود الثاني يسعى الى القضاء على النظام القديم ، ومنها مثلاً قضائه على الانكشارية قضاءً مبرماً في حزيران ١٨٢٦ م[٧٧] .. فكانت شراكة الرجلين في السياسة والنوايا شراكة سوية.

الاقاليم والامارات المجاورة :

اما بشأن علاقة ولاية الموصل بالاقاليم والامارات المجاورة فقد كانت ساخنة تشغلها الاضطرابات والروابط السياسية السلبية ، وخاصة بين حكومة الموصل وامارة بهدينان في العمادية التي حاصرها الحاج حسين باشا الجليلي لمدة شهرين ، ثم تصالح مع اميرها لقاء دفع مبلغ من المال.. وكانت العلاقة بين الطرفين فيما بعد تأخذ طابع التنافر اذ ساءت بين الموصل وبغداد ، او تأخذ حالة التلاقي اذا تحسنت.. اضافة الى عوامل متنوعة اخرى[٧٨] . ووقعت « امارة الشيخان » بين سطوة كل من القوتين المتصارعتين.. وقد قامت حملات عديدة من قبل حكومة الموصل على هذه « الامارة » التي يشكلها « اليزيديون » التابعين لسيادة الموصل الاقليمية. وقد تعرضت امارة الشيخان الى حملتين عسكريتين جليليتين فقط ، في حين توالت الحملات العسكرية ، واستمرت ضد يزيدية جبل سنجار الذين قام الجليليون ضدهم بالمزيد من الحملات لأسباب متنوعة ابرزها اسباب اقتصادية وتأمين المسالك التجارية امام القوافل.. والحصول على اكبر قدر من الموارد الزراعية والمنتوجات الحيوانية[٧٩] .

اما بالنسبة للوقائع المريرة التي عاشتها كل من الموصل (واغتيال واليها عبد الرحمن باشا الجليلي) وبغداد (ومصرع متسلمها قاسم باشا العمري فيها).. فقد قاد ذلك الى حدوث فراغ سياسي كبير في الموصل بفقدان استقلاليتها ، وغدت تحت سيادة رسمية لبغداد مع ضعف اداري- حكومي مارسه المتسلم محمد سعيد آل ياسين المفتي منذ تموز ١٨٣١ م/ صفر ١٢٤٧ هـ بفقدان الزعامة الجليلية. وتعرضت الموصل ، مدينة وولاية ، الى اخطر توسع اقليمي ضدها في عام ١٨٣٢ م ، قاده امير راوندوز الشهير محمد باشا ميركور الذي استغل انحسار السلطة المركزية العثمانية ، وضعف حكومتي بغداد والموصل ، فبدأ يوسع من امارته على حساب اراضي ولاية الموصل[٨٠] ..

سيطر محمد باشا ميركور على اربيل التابعة للامارة البابانية ، وانطلق ليسيطر على عدد وافر من المدن والقصبات ، ولم يستطع علي رضا باشا اللاز فعل أي شيء.. امام تقدم قوات ميركور على طريق اربيل - كركوك ، او نحو اراضي امارة بهدينان واستيلائه على العمادية وعقرة[٨١] . هكذا ، انفتح المجال امامه للتقدم نحو الموصل التي تحصنت بقلاعها وحصونها وابراجها واسوارها ، وازيل



جسرها على نهر دجلة .. وقد استولى ميركور على قرى الموصل ، ثم حاصر الموصل ، وعقد الصلح مع محمد سعيد آل ياسين الذي استسلم خانعاً خاضعاً لميركور الذي امتدت فعالياته العسكرية نحو دهوك وزاخو ، وهاجمت قواته نصيبين وماردين .. ناهيكم عن عبثه في القرى المحيطة بمدينة الموصل وقد وصل تفوقه انه بدأ يهدد القوات العثمانية بدليل رواية المكرياني القائلة بعقد اتفاق جرى بين ميركور ومحمد علي باشا والي مصر ضد العثمانيين[٨٢] .

يحيى باشا ونهاية حكم الجليليين للموصل : الانشقاق والثورة

يعد يحيى باشا الجليلي آخر الولاة المبرزين في تاريخ الموصل الحديث ، وقد حكم الموصل لمرتين (للفترة ١٨٢٢ – ١٨٢٧ م) و (للفترة ١٨٣٢ – ١٨٣٤ م) . وكان قد واجه ازمات اقتصادية وسياسية متصاعدة ، منها غائلة المجاعة التي اكتسحت اقليم الموصل عام ١٨٢٥ . وعلى الرغم من اجراءاته الاقتصادية للتخفيف من حدة النكبة فان العناصر المناوئة للجليليين اتهموه وحكومته بالوقوف وراء غلاء الاسعار. وتفاعلت الاسباب لاندلاع ثورة علنية ضده ، فانتقل الى بغداد ، فنهب سراي الحكومة ومرافقه ، وسرقت الاموال ، وفقد الامن ..

وقد دلت هذه الاحداث في سنة ١٨٢٧ م بما لا يدع مجالا للشك على ان نهاية الجليليين في حكم الموصل قد ازفت .. وقد نقل يحيى باشا الى ولاية دياربكر[٨٣] فتولى الموصل عبد الرحمن باشا ابن محمود بن محمد باشا بن الغازي محمد امين باشا فحكمها لاقل من سنة (أي : للفترة ٢٠ تموز ١٨٢٧ – ١٥ نيسان ١٨٢٨ م) ، وهي اخطر مرحلة في الحكم الجليلي للموصل ابان العهد العثماني[٨٤] .

يعزو د. عماد عبد السلام رؤوف اسباب ذلك الى ان « تحولاً جذرياً كانت تمر به الموصل من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، وهو تحول حدد – منذ مستهل القرن التاسع عشر – مصير السلطة السياسية في الولاية . فقد ادى التوسع الحرفي الكبير ، ونمو الصناعات المحلية ، وما جر اليه من تعاظم القوة العاملة في المدينة ، الى خلق فئات جديدة من العامة لم تكن معروفة من قبل ... فقد ادى ذلك الى كثرة الأيدي العاطلة ، وانخفاض مستوى الحياة المعاشية للقوة العاملة ، وهو امر من شأنه أن يهز أسس النظام الاقتصادي في الولاية هزاً خطيراً »[٨٥] .

ويمكننا اضافة عامل اساسي آخر ، هو توجه البلاط العثماني نحو سياسة العثمنة المركزية في الادارة المباشرة التي اخذت تطوق الخناق على حكومات الاسر المحلية ليس في الموصل فحسب ، بل في ولايات عربية واناضولية أخرى .. ان انعزال ولاية كالموصل مثلاً انعزالاً اقتصادياً وهي تعاني من كوارث طبيعية متلاحقة كالقحط والجراد والجفاف والطاعون .. كلها كانت عوامل مساعدة لبعض العناصر التي استغلتها لزيادة ثرواتها[٨٦] .. فكان ان بدأ المجتمع بالتبرم من الاحوال الاقتصادية .. كما وغدت القوى الانكشارية القديمة منخرطة مع فئات المجتمع الاخرى لتحمل همومها وآلامها .

في يوم ١٥ نيسان ١٨٢٨ م ، اغتيل الوالي عبد الرحمن باشا وقتل شقيقه (كتخدا الولاية) محمد بك ابن محمود باشا[٨٧] ، فتكتل الجليليون في مواجهة سياسية ضد الثوار الذين استولوا على السلطة دون بروز قيادة منهم ، وكان التكتل الجليلي يضم ايضاً الاعيان والعلماء وامراء الجيش ، ورشحوا محمد امين باشا ابن الحاج عثمان بيك الحياني الجليلي لمنصب الولاية ، وقد صادق والي بغداد داود باشا على ذلك ، ثم وافقت السلطات العثمانية عليه ايضا بفرمان تموز ١٨٢٩ . ولم يعاقب الوالي الجديد الجناة من الثوار الا عقاباً خفيفاً بنفيهم الى تلعفر ،

فكانت لهم فرصة ذهبية لتنظيم قواتهم على مدى شهر واحد، جردوا بعد ذلك حملتهم من قبل سكان تلعفر ضد حكومة الموصل.

وصلت الحملة ابواب الموصل في تشرين الثاني ١٨٢٩م، فانشقت اورطات الانكشارية على نفسها، فمنها من ذهب مؤيداً الحملة، ومنها من بقي يدافع عن الجليليين.. فاندلع قتال عنيف في شوارع الموصل على مدى (٢١) يوماً، قتل خلاله ابو الوالي عثمان بيك الجليلي، وصالح افندي السعدي رئيس ديوان الانشاء، واحمد بيك الآي بكي وبعض القواد من الانكشارية وعدد كبير من الناس.. اما الوالي فقد اختفى في مخبأه، ثم هرب نهائياً الى بغداد[٨٨].

نجح الثوار في حركتهم، وقاموا بتصفية رجالات الحكومة الجليلية، وفرضوا سيطرتهم على الموصل، وكان من ابرز قادة الثورة:

١- قاسم افندي (باشا) ابن حسن افندي العمري (على رأس الجناح المدني).
٢- محمد سعيد افندي آل ياسين المفتي (على رأس الجناح العسكري)
٣- خالد اغا ابن صالح اغا آل شويخ (اغا اورطة اللي ايكي).
٤- محمد اغا ابن ملا عبدالله السعرتي (قائد جيش).
٥- سعيد اغا ابن ملا عبدالله السعرتي (قائد جيش).

تولى السلطة قاسم افندي العمري بمنصب متسلم للبلد (ريثما يصل قرار أو فرمان الولاية) ونصب محمد سعيد افندي كتخداه له اي نائباً له[٨٩]. وسرعان مادب الخلاف بين زعماء الانقلاب، إذ بقي قاسم العمري لوحده في الميدان، ولم يخف داود باشا والي بغداد استياءه منه. فامتنع عن الاعتراف به لدى السلطات العليا في اسطنبول.. فسرعان مادب الخلاف بين قاسم العمري اللعبة والمؤامرة[٩١]، علماً بأن الباب العالي لم يصدر عنه أي فرمان يؤكد الروايات المضطربة!

لما كانت بلاد الشام مهددة من قبل جيوش محمد علي باشا والي مصر؛ ولما كانت الاوضاع في الموصل ضعيفة مهزوزة، فقد خشيت الدولة العثمانية ان يسيطر داود باشا على جميع الولايات العراقية ويؤسس له كياناً سياسياً منفصلاً عنها.. فبدأ السلطان محمود الثاني اتباع سياسته المركزية، بتصفية القوى الاقليمية المؤثرة في العراق، وعلى رأسها داود باشا، كونه وبقية الحكومات اللامركزية غدوا يشكلون خطراً اكيداً على كيان الامبراطورية، وتحسباً مما سيؤول اليه امر قوة داود باشا، مقارنة بما حدث مع كل من محمد علي باشا في مصر والحسينيين في تونس. فكلف السلطان والي حلب علي رضا باشا اللاز بقيادة جيشه والقضاء على داود باشا، بالاعتماد على قوى اقليمية منشقة في الموصل ودياربكر وحلب.. وعند وصوله الموصل، اعلن اللاز اعترافه بحكم قاسم العمري الخصم اللدود لداود باشا[٩٢].

وبدأت قوات قاسم باشا العمري تعمل للتوجه نحو بغداد على رأس حملة تعززها قوات من قبائل شمر وعقيل، وكانت اوضاع بغداد مزرية إذ كان الفيضان والطاعون قد فتكا بها فتكاً ذريعاً، وقد انتهت الاعمال العنيفة التي قادها العمري واتباعه، وولدت هواجس الرعب الذي سببه تحفز العشائر لاغتيال قاسم العمري وطرد قواته من بغداد[٩٣].

اما الموصل فقد تسلمها محمد سعيد آل ياسين المفتي بأمر اللاز الذي غادرها نحو بغداد، ويبدو للمؤرخ أن العثمانيين قد سعوا في حملتهم الى اعتماد العناصر الانقلابية الموصلية للقضاء على قوتين اقليميتين قديمتين هما: جليليو الموصل ومماليك بغداد. ودخل اللاز بغداد بعد مقاومة عنيفة واسر داود باشا ثم روعها بمذبحة قضى فيها على المماليك الكوله مند



الرجلين بصورة علنية [٩٠] .. ولما كان داود باشا يمتلك زمام السلطة الشرعية ، فقد تناقلت الروايات المحلية خبر صدور الاوامر بقتل قاسم واعوانه ، وارجاع محمد امين الجليلي الى منصبه ، فاكتشف قضاء تاماً بعد حكمهم الطويل لبغداد [٩٤] .. وبدأ العراق عام ١٨٣١ م عهداً عثمانياً جديداً تحت ظل احكام الادارة المركزية المباشرة .

يحيي باشا : محاولة اعادة الحكم : الصحوة المتأخرة الفاشلة :

اقام يحيي باشا الجليلي في حلب بعد عزله عن ولاية ديار بكر يرقب الاحداث المصيرية في العراق ، وغادرها قبيل وصول قوات ابراهيم باشا المصرية في منتصف شهر تموز عام ١٨٣٢ م [٩٥] ، متوجهاً نحو الموصل التي وصلت اليه اخبار اغتيال واليها عبدالرحمن باشا الجليلي . فعقد اتفاقاً مع شيخ شمر صفوك الفارس الذي كان يجمع قواته التي بلغت (٤) آلاف رجل من العرب ، وتوجّه بهم نحو الموصل ، واستطاع يحيي باشا من دخول الموصل ، وفرض سيطرته على معظم احيائها الا حي واحد فقط اقترب من السقوط بقي فيه محمد سعيد آل ياسين المفتي واعوانه المناصرين لعلي رضا باشا اللاز [٩٦].

واستمر تحالف يحيي - صفوك بعد اعادة شرعية الحكم للجليليين في الموصل ، وتشير الكتابات الحديثة الى ان ذلك التحالف قد استند اساساً على اتفاق مع ابراهيم باشا الحاكم المصري الجديد لسوريا ، وان مراسلات جرت بين اعيان الموصل وعلمائها وبين القيادة المصرية في الشام . وتشير الروايات التاريخية الى ان حكم يحيىٰ باشا الجديد كان يسعى للقضاء على الوجود العثماني برمته ، وسحق سلطات علي رضا باشا اللاز الذي تخوّف كثيراً من التحالفات العربية المتجمّعة في الموصل ضد العثمانيين ، وقد تحكموا في الطريق الاستراتيجي بين الموصل وحلب باتجاه اسطنبول ، علماً بان يحيي باشا قد لاقى تأييداً جماهيرياً واسع النطاق في الموصل [٩٧] ... ولاندري ان كان اللاز قد اضطر الى الاعتراف بحكومة يحيي باشا في الموصل ، وتوجيه الولاية اليه رسمياً ام ان ذلك لم يحدث ؟

وبينما كان اللاز يراقب ماستؤول اليه الامور في شمالي العراق وسوريا حاصرته ببغداد قوات شمر بقيادة صفوك والتي وقفت ضدّها قوات عنزة فاشتبكت فيما بينها على نحو عنيف : فاشغلها ، ووجه بعض قواته العثمانية ضد يحيىٰ باشا في الموصل ولم تنفع مناشدة الاخير لصفوك الذي بدأ يواجه سيلاً من القوات اثر فكّه الحصار عن بغداد ، وجرى عزل اللاز لصفوك عن مشيخة شمر بتحالفه مع أحد المرشحين الطامحين الى المشيخة [٩٨].

لقد انهار كل شيء بعد نجاح خطط اللاز ، وعزل يحيىٰ باشا عن ولاية الموصل في كانون الثاني ١٨٣٤ م / رمضان ١٢٤٩ هـ [٩٩] ، فانتهى حكم الاسرة الجليلية نهائياً في الموصل ، واستدعي يحيىٰ باشا الى اسطنبول ليغدو فيما بعد عضواً في مجلس شورىٰ الدولة . ومنحه لقب «كبير الوزراء» بغرض ابعاده عن تحقيق طموحاته ، وبقي في اسطنبول حتى وفاته عام ١٨٦٧ م .

منجزات العهد الجليلي : تطور تاريخ الموصل

لقد اكتسب الجليليون وجودهم من خلال الملكيات الاقطاعية والعقارية التي استحوذوا عليها في الموصل ابان مطلع القرن الثامن عشر ، فاهلّتهم امكانياتهم الى تبوأ ابرز مركز اجتماعي في الولاية . أما سياسياً ، فقد كان لدورهم القيادي في الدفاع عن الموصل ابان حصار نادرشاه لها عام ١٧٤٣ م قد اكسبهم شرعية تاريخية في استحواذهم على السلطة السياسية لعقود طويلة من الزمن . ويعّد حدث «الحصار» من ابرز الاحداث التاريخية ليس في حياة العراق الحديث ، بل في تاريخ المشرق العربي والدولة العثمانية .

هكذا ، نجحت سلالتهم ذات البيوتات

المتعددة (= الپاشوات / البيكات / الاغوات) في تمثيل الروح الموصلية المحلية على الرغم من الانتقادات اللاذعة التي وجهت الى ابرز زعمائهم وخصوصاً خلال الازمات الاقتصادية والكوارث المدمّرة... ولكن تلك «الروح» قد آلت الى صراعات اهلية خلال عهودهم .. ومع كل الانقسامات في داخل الهيئة الحاكمة (= السلطة) والجيش (= الاورطات) والمجتمع (= الاحياء والاسواق)، الا ان الموصل قد حفلت بكثرة السكان، وتطور الصناعات والحرف والتنظيمات والاصناف الى جانب زخارة الحياة الادبية والثقافية وازدياد المجالس والمنتديات والمدارس وكثرة التأليف والتصانيف.. ونمو في طبقة «العلماء والادباء».. فضلاً عن ان عهدهم قد شهد تطورات في العلاقات العامة والترانسيت والسياح الاجانب.. وبروز نزعات متعدّدة كالنزعة السلفية - الاصلاحية، وانتشار الكثلكة - المسيحية، وتوطن الغرباء في الموصل، وتأسيس المرافق العامة والمنشآت وتجديدات في الاسواق والجوامع والكنائس والاسوار والقلاع والمدارس والخانات[100].

إذن، فان البداية الحقيقية للتاريخ المحلي الحافل للموصل يبدأ بانتصارها على نادرشاه عام ١٧٤٣م، وينتهي مع انهيار حكم يحيي باشا الجليلي عام ١٨٣٤م. فالحصار يعد حدثاً تاريخياً ومنطلق فترة تاريخية - تراكمية في حياة المنطقة والموصل بالذات، وان تاريخها السياسي خلال الحكم المحلي ينبؤنا عن دورها الخارجي الذي لعبته من خلال اكفأ رجالاتها باتجاه بغداد والعراق، او باتجاه عروبة المشرق العربي، او باتجاه الامبراطورية العثمانية ازاء خصومها القدماء.. ويمكننا ان نتوقف لذكر ابرزهم وهم على التوالي:

١. الحاج حسين باشا الجليلي ←── ودوره القيادي في الدفاع عن الموصل سنة ١٧٤٣م.

٢. الغازي محمد امين باشا الجليلي ←── ودوره القيادي في الحرب العثمانية - الروسية سنة ١٧٦٩ - ١٧٧٤م.

٣. عبد الفتاح باشا الجليلي ←── ودوره في بلاد الشام ضد امتداد علي بيك الكبير سنة ١٧٧٠م.

٤. سليمان باشا الجليلي ←── ودوره في الحرب العثمانية - الوهابية.

٥. محمد باشا ابن محمد امين باشا الجليلي ←── ودوره في استقرار الاوضاع الاجتماعية بالموصل.

٦. يحيى باشا الجليلي ←── ودوره في العلاقات العربية مع ابراهيم باشا ١٨٣٢ - ١٨٣٤م.

٧. عصام الدين عثمان الدفتري العمري ←── ودوره دفتردارا لبغداد ودوره النضالي ضد والي بغداد.

٨. قاسم باشا العمري ←── ودوره في محاولة القضاء على علي رضا باشا اللاز ببغداد.

اما كيف تطورت الموصل اقتصادياً وحضارياً كأبرز مدينة عربية منتجة خلال العهد المحلي؟

لقد تطورت علاقات الموصل الانتاجية مقارنة بغيرها من الاقاليم والسناجق والدساكر والتخوم المجاورة لها او البعيدة عنها.. اذ غدت مدينة منتجة وذات مؤسّسات بيروقراطية مسيطرة في حركتها الاقتصادية على جميع تلك المسالك التي تربط الشرق بالغرب، مستثمرة حركة التجارة العالمية من خلال تطور التجارة الاقليمية والمحلية.

وتطورت صناعات الموصل التي راجت في اسواق اوربا كالسروج والأحزمة والسجاد الحريري المطرز بالازهار، ومصانع الحديد والنحاس، اضافة الى مصنوعات المنسوجات المختلفة، وخصوصاً صناعة «الموصلين» الحريري الذي كان يصدّر الى اوربا، وقد كانت شهادات الرحالة الاجانب كافية لتوضيح تلك التطورات الاقتصادية، والتي ادّت بدورها الى تطور في التنظيمات الحرفية، والعلاقات الانتاجية بين الاصناف المختلفة، وتطور القيم



النقابية والعمل من خلالها [١٠١].

وازدادت الفصائل في الوحدات الاجتماعية المتنوعة في المدينة والتي شكّل الحرفيون والصناع فيها اساساً في طبيعة العلاقات المحلية منذ ازمان بعيدة، وقد زاد التضامن في التطور الحرفي بين مختلف العناصر، وزاد من روح العمل النقابي وتطور تكويناته وحقوله وميادينه.. وبرز ذلك بشكل منظم ودقيق له اعرافه في الحياة الموصلية، وحتى مباهجه في المناسبات الدينية والرسمية، باقامة المهرجانات، وتسيير الكرنفالات التي كان الوالي الجليلي يرعاها بنفسه، ويوّزع جوائزه على المشاركين فيها [١٠٢].

من طرف آخر، فان هذه التطورات، رافقها سريان العمل في النظام الضرائبي ناهيكم عن ثمة كوارث اقتصادية المّت بالموصل.. ويظهر للمؤرخ أن المدينة قد تحولت من مركز دفاعي عسكري/ اقطاعي الى مركز مدني ثقافي/ تجاري بازدياد السكان والمصالح والمؤسسات والتقاليد الحضرية.. وفي حين ازدهرت صناعاتها فانها قد بقيت اسيرة جموح الظروف الطبيعية نسبة الى ازدهار او دمار المنتوجات والمحاصيل الزراعية والآفات المناخية، فتحوّلت بعد ان كانت الموصل تحكمها العلاقات الاقطاعية الى مركز يتصرف في شؤونه الاقتصادية اصحاب رؤوس الاموال والتجار الكبار والصغار من الاقليميين والمحليين.. مما زاد من تعقد الاحوال المعاشية والاجتماعية عما كان عليه الوضع في السابق.

وعليه، فان الموصل خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر كانت هي السباقة بين الولايات العثمانية والعربية في تطبيق مشاريع الاصلاحات العثمانية - الرسمية على اثر تكليف محمد باشا اينجه البيرقدار بولاية الموصل، والاضطلاع بمهام الاصلاحات وبخاصة في المؤسسات والاجهزة العسكرية والعمرانية والاقتصادية.

اما بالنسبة للصفحات الاخرى من حياة العهد المحلي - الجليلي فقد حفلت الموصل بارتقاء مدوناتها الادبية وازدهار حركتها الثقافية، وتنوع حقول الاداب والمعارف والعلوم فيها، بازدياد مدارسها العلمية التي تخرّج فيها العشرات من الادباء والعلماء الذين نتحسّس اليوم «عروبتهم» في مضامين كتاباتهم واشعارهم ومخطوطاتهم ومساجلاتهم.

ان ابرز ما يمكننا ذكره ايضا أن الحكم المحلي - الجليلي قد شهد في الموصل حدثان اساسيان في تاريخها الاجتماعي الحديث اولها وصول الارساليات التبشيرية الى الموصل كالاغسطينيين والكرمليين والكبوشيين الذين حققوا قدراً كبيراً من النجاح في نشر المذهب الكاثوليكي. وثانيها: ولادة الحركة الاصلاحية السلفية الاسلامية على ايدي بعض العلماء الموصليين خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

الهوامش

(١) من أجل تفاصيل موسّعة عن مكانة الموصل الاستراتيجية، انظر الفصل الأول من كتاب:
Robert W.Olson, *The Siege of Mosul and Ottoman – Persion Relations 1718 – 1743*, Indiana Univ., 1975.

(٢) لقد كتب العديد من الرحالة والمبشرين والقناصل معلومات ثرة عن الموصل في العهد المحلي، أمثال: كريستيان نيبور وج اوتيه و ج جاكسون ووليم جونز واوليفيه وجون أشر وكلودبوس ريج وج كينير ولايارد وغيرهم.

(٣) انظر: د. سيار الجميل، «دراسات في السيطرة العثمانية على الموصل واقليم الجزيرة سنة ١٥١٦م»، مجلة بين النهرين، القسم الأول/ العدد (٣٠)، القسم الثاني العدد (٣١)، الموصل ١٩٨٠.

(٤) For details; see, R.A.ABou EL – Haj, "Taxation, Trade, Production and Society in 16th C. Mosul (According to the Liva Kanunameler); in *La vie sociale dans les provinces arabes a Le¯p¯oque ottomane*, Tome 3, Ed. A. Temimi, – Zaghouan, 1988, pp.17 – 39.

(٥) انظر التفاصيل في: د. سيار الجميل، **حصار الموصل: الصراع الاقليمي واندحار نادرشاه**، ط ١، الموصل، ١٩٩٠،



ص ٩٣- ٩٥.

(٦) Details in, Sayyar K.AL.Jamil, *A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al- Umari (920-1226 A.H.= 1514/1515 A.D.-1811/1812 A.D.); ph.D* Thesis, vol.I: Introduction and Notes, St.Andrews Univ., Scotland, p.129.

(٧) راجع تفاصيل هذا الحدث في : د. سيار الجميل ، «الحصار العثماني الثاني لـ ڤينا عاصمة الهابسبورك النمساوية سنة ١٦٨٣م» ، **المجلة العربية للعلوم الانسانية** ، جامعة الكويت ، العدد (١٦) ، المجلد (٤) ، خريف ، ١٩٨٤ .

(٨) انظر: د. عماد عبدالسلام رؤوف ، **الموصل في العهد العثماني : فترة الحكم المحلي ١٧٢٦ - ١٨٣٤م** ، النجف ، ١٩٧٥ ، ص ٥١- ٦٤ .

(٩) ان اقرب مصدر تاريخي في معلوماته الوثيقة هو: علي اميري ، **تذكرة شعراء آمد** ، اسطنبول ، ١٣٢٨ ، المجلد الأول ، ص ٢٥٨ .

(١٠) د. عماد عبدالسلام رؤوف ، **المرجع السابق** ، ص ٤١- ٤٢ .

(١١) د. سيار الجميل ، «**الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي ١٧٢٦ - ١٨٣٤**» ، في **الحياة الاجتماعية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني** ، جمع وتقديم : د. عبدالجليل التميمي ، الجزءان الأول والثاني ، (سيرمدي) زغوان ، ١٩٨٨ ، ص ٢٤٥ .

(١٢) عن استراتيجية الموصل الاقتصادية ، انظر: **المصدر نفسه** ، ص ٢٣٢- ٢٣٥ .

(١٣) Historical details in, Sayyar K.AL-Jamil, *op.cit.*, vol.I, pp.15-29; vol.2 (=Text), pp.389-390; vol.3 (=Apparatus Criticus) pp.948-949.

(١٤) محمد أمين الخطيب العمري ، **منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء** ، تحقيق ونشر: سعيد الديوه جي ، ج ١ ، الموصل ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٦ .

(١٥) **تاريخ عاصم جلبي زاده** ، اسطنبول ، ١٢٥٣ هـ ، ص ١٢٨ (وهو مطبوع على ذيل كتاب راشد). وقارن : محمد ثريا ، **سجلي عثماني ياخود تذكرة مشاهير عثمانية** ، ج ١ ، اسطنبول ، ١٣٠٨ ، ص ٣٦١ .

(١٦) عن قراءة معمقة لمخطوط ياسين الخطيب العمري ، **منهج الثقات في تراجم القضاة** (عن النسخة التي يحترز عليها د. محمود الجليلي في مكتبته الخاصة).

(١٧) قارن : **سالنامه در موصل ولايتي** ، سنة ١٣٢٥ هـ ، ص ٨٥- ٨٧ ، وانظر: د. عماد عبدالسلام رؤوف ، **المرجع السابق** ، ص ٥٧ .

(١٨) مقارنة بين المعلومات التي اوردها مخطوط «الطومار الجليلي» مع شجرة الاسرة الجليلية في :

Sayyar K. AL-Jamil, *op. cit.*, vol. I, pp.147-150.

(١٩) انظر مذكرات الأب دومنيكو لانزا ، **ملخص تاريخ رحلات الاب لانزا من الاخوة الواعظين بين روما والشرق من سنة ١٧٥٣ الى ١٧٧١** ، ترجمه عن الايطالية القس روفائيل بيداويد (اعتمدت على النسخة المخطوطة ذات المعلومات الواسعة في مكتبة الأوقاف العامة بالموصل ، جلبي رقم ١٦٣).

(٢٠) انظر ملحق د. صديق الجليلي لتحقيقه **ديوان حسن عبد الباقي** ، الموصل ، ١٩٦٦ ، ص ١٠٣ / ١٢٠ وانظر: محمد بن مصطفى الغلامي ، **شمامة العنبر والزهر المعنبر** ، تحقيق : د. سليم النعيمي ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص ٨٨ ، ملاحظة رقم (٢). اضافة الى مخطوطة ياسين الخطيب العمري ، **قرة العينين في تراجم الحسن والحسين** ، ورقة ٣٧ أ (نسخة مصورة بحوزة الباحث)

(٢١) Details in, S.H. Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford, 1925. p. 157.

وانظر ايضاً : د. سيار الجميل ، **حصار الموصل : الصراع الاقليمي واندحار نادرشاه** (سبق ذكره) ، ص ١٩٦- ١٩٩ . وانظر: Percy Kemp, *Mosul and Mosuli Historians of the Jalili era 1726-1834, (Unpublished ph.D. Thesis). Oxferd Univ.*, 1980.

(٢٢) **تاريخ صبحي** لمحمد افندي صبحي ، اسطنبول ١٧٨٣- ١٧٨٤م ، ص ١٢٥ .

(٢٣) **الشمامة** ، ص ١٤٥م رقم (١).

(٢٤) ياسين الخطيب العمري ، (**زبدة) الآثار الجلية في الحوادث الارضية** ، انتخب زبدته : د. داود الجلبي ، حققه : د. عماد عبد السلام رؤوف ، النجف ، ١٩٧٤

(٢٥) انظر التفاصيل في : احمد راسم ، **عثمانلي تاريخي** ، اسطنبول ، ١٣٢٨ هـ . جـ ٦ ، ص ٩٣٨ .

(٢٦) Cf. Sayyar K. AL-Jamil, *op.cit.*, vol.2 p.422.

(٢٧) انظر: *Ibid.*, vol. 2, P. 409.

(٢٨) **الزبدة** ، ص ١٣٦- ١٣٧ .

(٢٩) اخباره في ياسين الخطيب العمري ، **غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر** ، نشره : د. صديق الجليلي ، الموصل ، ١٩٤٠ ، صفحات متعددة .

(٣٠) انظر مقدمة د. سليم النعيمي لتحقيقة كتاب عصام الدين عثمان افندي الدفتري العمري ، **الروض النضر في ترجمة ادباء العصر** ، جـ ١ ، بغداد ، ١٩٧٤ .

(٣١) راجع ما كتبه عن كل من : د. عبد العزيز نوار ود. عماد عبدالسلام رؤوف وپرسي كيمب . .

(٣٢) للتوسع في اسباب حصار الموصل التاريخية انظر الفصل الاخير من كتاب :

Robert W. Olson, *The Siege of Mosul and Ottoman - Persian Relations 1718-1743*, Indiana Univ. Press, 1975.

وللتوسع في نتائج حصار الموصل التاريخية ، انظر: د. سيار الجميل ، **حصار الموصل : الصراع الاقليمي واندحار نادرشاه** (سبق ذكره) ، ص ١٩٥- ٢١٨ .

(٣٣) قراءات متنوعة في الكتاب الحولي الكبير «الدر المكنون في المآثر



الماضية من القرون » لياسين الخطيب العمري (تحقيق : د. سيار الجميل، الجزءان الثاني والثالث، اسكتلندا، ١٩٨٣).

(٣٤) انظر ما كتبه دومينكو لانزا في مذكراته المترجمة والمنشورة تحت عنوان: **الموصل في الجيل الثامن عشر** ترجمة: د. روفائيل بيداويد، الموصل، ١٩٥٣، ص ٤٠ – ٤٢.

(٣٥) راجع تحليلات د. عماد عبد السلام رؤوف، **المرجع السابق**، ص ٦٩–٧٠.

(٣٦) انظر ما كتبه دومينيكو لانزا، **المرجع اعلاه**، وراجع ما كتبه ياسين الخطيب العمري في كتابه **منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء**، تحقيق: سعيد الديوه جي، الموصل، ١٩٥٣، ص ٨٥.

(٣٧) الزبدة

(٣٨) Details in Sayyar K. AL – Jamil, *Op. cit.*, vol, 2, p. 384 – 5

(٣٩) دومينكيو لانزا، **المصدر السابق**، ص ٥٨.

(٤٠) **المنية** ص ١٨٤.

(٤١) الزبدة، ص ١٨.

(٤٢) **المنية**، ص ١٨٥.

(٤٣) د. سيار الجميل، «**الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل**»... (سبق ذكره)، ص ٢٦١. وانظر تحليلات د. عماد عبد السلام رؤوف، **المرجع السابق**، ص ٧٠–٧٥.

(٤٤) Sayyar K. AL – Jamil, *Op. cit.*, vol. 3, p. 948.

(٤٥) د. عماد عبد السلام رؤوف. **المرجع السابق**، ص ٧٨.

(٤٦) دومينيكو لانزا، **المصدرالسابق**، ص ٧٢.

(٤٧) Sayyar K.AL – Jamil, *Op. cit.*, Vol. 2, p. 404.

(٤٨) دومينيكو لانزا، **المصدر السابق**، ص ٧٥.

(٤٩) **المنهل**، جـ ١، ص ١٨٤.

(٥٠) Sayyar K. AL – Jamil, *Op. cit.*, vol. 2, p. 406.

(٥١) *Ibid*, vol. 2, P. 409.

(٥٢) **المنية**، ص ١٨٧.

(٥٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، **المرجع السابق**، ص ٨٥.

(٥٤) **المنهل**، جـ ١، ص ١٩٦.

(٥٥) ياسين الخطيب العمري، **غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام**، نشر: دار البصري، بغداد، ١٩٦٧، ص ٣٢٧.

(٥٦) Sayyar K. Al – Jamil. *op. cit.*, vol. 2, P. 473.

(٥٧) **غاية المرام**، ص ٣٢٩.

(٥٨) **غرائب الأثر**..، ص ٦٥.

(٥٩) د. عماد عبد السلام رؤوف، **المرجع السابق**، ص ٨٩ (نقلا عن **رحلة ابي طالب خان الى العراق واوربا سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٩م**، تعريب د. مصطفى جواد، بغداد، ١٩٦٩، ص ٣٧٥)؛ علماً بأن الادبيات المحلية للموصل لاتقدم الصورة التاريخية ذاتها التي رآها ابو طالب خان!

(٦٠) **غرائب الأثر**، ص ٧٢، وقارن المعلومات بـ (Sayyar K. Al – Jamil, *op. cit.*, vol. 3, P. 1211).

(٦١) المصدر نفسه، ص ٧٣، وراجع التفاصيل التاريخية ايضاً في:

Sayyar K. Al – Jamil, *op. cit.*, vol. 3, P. 1212.

(٦٢) ... details ; see, *Andrien Dupre, Voyage en Perse ...dans les ann'ees 1807 – 1809 en traver sant la ...atolie et la Mesopotamie* Paris, 1819, PP. 102–...

وانظرعن نعمان پاشا: مخطوط (مجهول المؤلف) بعنوان **مجموع التواريخ في مدح وزراء بني عبد الجليل**، مكتبة الاوقاف العامة في الموصل (خزانة د. داؤد الجلبي رقم ٤٤)، ورقة ١٩١...

(٦٣) يجد القارئ تفاصيل تأريخية موسّعة عن هذه الحقبة الأ... في:

...ayyar K. AL – Jamil. *Op. cit*. Vol. 3, pp. ...224 – 1227.

أضافة الى ما كتبه المؤرخ ياسين الخطيب العمري في ... مخطوطه **"السيف المهند"** وكتابه **"غرائب الأثر"**.

(٦٤) يعود السبب في ذلك الى وفاة ابرز المؤرخين الموصليين ... يقف على رأسهم المؤرخ ياسين الخطيب العمري ... أشهر مؤرخ عراقي حفظ ودوّن تفاصيل واسعة في تاريخ العراق...

(٦٥) أنظر ما كتبه د. عماد عبد السلام رؤوف، **المرجع السابق**، ص ١٢٢–١٤٨.

(٦٦) احمد الصوفي، **المماليك في العراق: صحائف مطمورة من تاريخ العراق القريب ١٧٤٩ – ١٨٣١**، الموصل، ١٩٥٢، ص ١٨٨ – ١٩٠.

(٦٧) راجع ماكتبه كل من د. عبدالعزيز نوار، **تاريخ العراق الحديث**، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٩٤، و د. عماد عبد السلام رؤوف، **المرجع السابق**، ص ٢٠٢ – ٢٠٩

(٦٨) انظر: د. علاء نورس، **حكم المماليك في العراق ١٧٥٠ – ١٨٣١م**، بغداد، ١٩٧٥، ص ٢٥ – ١١٣

(٦٩) استنتاجات عن قراءات تاريخية مقارنة عديدة.

(٧٠) انظر ماكتبه دومينيكو لانزا، **المصدر السابق**، ص ٥٠ – ٥٩

(٧١) التفاصيل التاريخية في: احمد جودت، **تاريخ جودت** ... ترتيب جديد، جـ ٢، اسطنبول، ١٣٠٢هـ، ص ١٣ – ...

(٧٢) د. عماد عبد السلام رؤوف، **المرجع السابق**، ص ١٣٣

(٧٣) د. علاء نورس، **المرجع السابق**، ص ١٧٦ – ١٧٧

(٧٤) التفاصيل التاريخية ومعلومات جديدة عن علاقة الموصل ... سياسيا واقليميا واقتصاديا في: ...ayyar K. AL – Jamil, *op. cit.*, vol.3, pp. 1232 – 1237. وانظر ايضاً: غرائب الأثر، ص ١١٦

(٧٥) د. عبد العزيز نوار، **داؤد باشا والي بغداد**، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٤٥.

(٧٦) محمد ثريا، **سجلّي عثماني**.. (سبق ذكره)، ... ص ٢٨٧.

(٧٧) لقد سجل في مخطوطتيها: خورشيد باشا، سياحتنامه حدود... وعبد السلام الماردينى، **تاريخ ماردين** معلومات ... بهذا الصدد.

(٧٨) صديق الدملوجي، **امارة بهدينان او امارة العمادية**، الموصل، ١٩٥٢، ص ٤١.

(٧٩) ان ابرز مصدر تاريخي يتضمن تفاصيل تلك العلاقات الاقليمية ...



الساخنة هو كتاب حوليات الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون لياسين الخطيب العمري.

(٨٠) راجع التفاصيل في: محمد امين زكي، **تاريخ الدول والامارات الكردية**، ترجمه عن الكردية: محمد علي عوني، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٠٠ – ٤٠٢، وقارن: د. عبد العزيز نوار، **تاريخ العراق الحديث**، (سبق ذكره)، ص ١٠١ – ١١٠.

(٨١) انظر: صديق الدملوجي، **المصدر السابق**، ص ٤٠. وللتوسع عن ميركور وسياسته، انظر: د. سيار الجميل، «رحلة چوستن پيركنس عبر شمال العراق: الارض الكلاسيكية ١٨٤٨» مجلد **المورد**، العدد (٤)، المجلد (١٨)، بغداد، ١٩٨٩، ص ١٧٦ – ١٧٨.

(٨٢) راجع التفاصيل في: حسين حسني المكرياني، **أمراء سوران**، ترجمه عن الكردية، محمد الملا عبدالكريم، بغداد، د. ت. ص ٥٤، وقارن اخباره في: محمد امين زكي، **المصدر السابق**، ص ٥٠١ – ٥١٥.

(٨٣) انظر: علي اميري، **تذكرة شعراء آمد** (بالتركية) سبق ذكره، ج ١، ص ٢٦٠. وقد قارن الباحث ذلك مع اوراق تاريخية مخطوطة مصورة عن مكتبة المرحوم د. صديق الجليلي عام ١٩٧٦.

(٨٤) د. عماد عبدالسلام رؤوف، **المرجع السابق**، ص ١٨٢.

(٨٥) **المرجع نفسه**، ص ١٨٣.

(٨٦) د. سيار الجميل، «**الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل**..» (سبق ذكره)، ص ٢٦٣. وقارن ايضاً تحليلات المؤرخ پرسي كيمب:
Percy Kemp, *op. cit.*, PP. 111 – 160.

(٨٧) عباس العزاوي المحامي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، ج ٦، بغداد، ١٩٥٤، ص ٣٠٠ – ٣٠١.

(٨٨) انظر: سليمان صائغ، **تاريخ الموصل**، ج ١، القاهرة، ١٩٢٣، ص ٣٠٤.

(٨٩) د. عماد عبد السلام رؤوف، **المرجع السابق**، ص ١٨٦ – ١٨٧ (نقلا عن اوراق مخطوطة).

(٩٠) احمد الصوفي، **المصدر السابق**، ص ١٩٠، وانظر ايضاً مقارناً: سليمان صائغ، **المصدر السابق**، ج ١، ص ٣٠٥.

(٩١) سليمان صائغ، **المصدر نفسه**، ج ١، ص ٣٠٥.

(٩٢) S. H. Longrigg, *op. cit.*, P. 282.

(٩٣) سليمان فائق، **تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد**، ترجمه عن التركية: محمد نجيب اومنازي، بغداد، ١٩٦١، ص ٦١.

(٩٤) عباس العزاوي، **المصدر السابق**، ج ٧، ص ٢٠ – ٢١.

(٩٥) د. عماد عبد السلام رؤوف، **المرجع السابق**، ص ٢٠٢ (معتمدا على الوثائق القومية المصرية).

(٩٦) **المرجع نفسه**، ص ٢٠٣ (معتمدا على الوثائق القومية المصرية).

(٩٧) **المرجع نفسه**، ص ٢٠٤، وقارن: عبد العزيز نوار، **تاريخ العراق الحديث** (سبق ذكره)، ص ١٩٤.

(٩٨) **المرجع نفسه**، ص ٢٠٥ (معتمدا على الوثائق القومية المصرية).

(٩٩) محمد ثريا، **المصدر السابق**، ج ٤، ص ٦٤٤.

(١٠٠) من المحبذ اجراء قراءات مقارنة لكتابات اربعة من المؤرخين في تاريخ الموصل الحديث ابان عهد السيطرة العثمانية وهم: روبرت اولسن وعماد عبد السلام رؤوف وپرسي كيمب وسيار الجميل.

(١٠١) Dina Rizk Khoury. "People and Taxes in the Iraqi Cities during thw Early Ottoman Modern Period" in *Le IVe Symposium International d'etudes oHomanes"* (CEROMDI and A. C. O. S) 20 – 26 Janvier 1990, Zaghouan – Tunis.

(١٠٢) د. سيار الجميل، «**الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل**»، **المرجع السابق**، ص ٢٦١.
Sayyar K. Al – Jamil, *op. cit.*, vol, P. 141.

صمود الموصل بوجه الغزو الفارسي

(١١٤٥ – ١١٥٦هـ ١٧٣٢ – ١٧٤٣م)

أ. د. طارق نافع الحمداني

مقدمة:

وصلت العلاقات العثمانية – الفارسية الى حالة كبيرة من التوتر في الربع الثاني من القرن الثامن عشر، وانعكست حالة التوتر هذه على الحواضر العراقية باعتبارها كانت خاضعة للحكم العثماني، مما جعلها مسرحاً لكثير من الحروب الدامية التي دارت بين تلك الدولتين. وتعود حالة التدهور في العلاقات العثمانية – الفارسية الى إنحلال الأسرة الصفوية وسقوطها عام ١٧٢٢ على يد الافغان، واستغلال العثمانيين لتلك الظروف في دفع نفوذهم الى أقصى مداه باتجاه الشرق على حساب الأراضي الفارسية.

غير أن هذا التوسع لم يستمر طويلاً، فقد استطاع قائد مغمور يدعى نادر قلي، عرف فيما بعد بـ «نادر شاه»، ان يعيد الحياة للدولة الصفوية،



وان يطرد الافغان من فارس ، ومن ثم اتجهت انظاره نحو العثمانيين ، حيث طالب الشاه طهماسب الثاني (١٧٢٢ - ١٧٣٠) ، السلطان العثماني احمد الثالث باعادة جميع المقاطعات التي تقع تحت السيطرة العثمانية ، وهدده بالحرب في حالة رفضه ذلك . وقد توصل الطرفان الى عقد صلح بينهما عام ١٧٣٠ ، وتم الاتفاق على اعادة جميع المقاطعات الفارسية [١] .

اثار هذا الاتفاق السخط لدى الرأي العام العثماني ، واتهم السلطان بالضعف والعجز ، فتم طرده وعين محمود الاول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) بدلاً عنه . وعند ذلك كرر العثمانيون استيلاءهم على مناطق واسعة من غربي فارس ، وقد اضطر الشاه طهماسب ان يطلب الصلح من العثمانيين ، فاستغرقت المفاوضات الاشهر الاخيرة من عام ١٧٣١ والايام الاولى من عام ١٧٣٢ ، حيث امضيت المعاهدة في العاشر من كانون الثاني ، وكانت شروطها - على حد قول لونكريك - « معتدلة » [٢] .

لقد رفض نادر شاه الاعتراف بالمعاهدة الموقعة بين الطرفين الصفوي والعثماني ، واتخذها حجة لخلع طهماسب الثاني وتنصيب ابنه الطفل عباس الثالث ، على ان يكون هو وصياً عليه ، فامتلك عندئذ مقاليد السلطة الفعلية في البلاد ، وبعث برسالة الى السلطان العثماني يخبره فيها بعدم اعترافه بالمعاهدة ، كما بعث في الوقت نفسه برسالة تهديد ووعيد الى احمد باشا ، والي بغداد ، يخبره فيها : « نحن سائرون حالاً على رأس جيشنا المظفر لتتنسم هواء سهول بغداد العليل ولنستريح في ظل أسوارها » [٣] .

وفي خضم تلك الظروف غزت قوات نادر شاه المدن العراقية الرئيسة مرتين عام ١٧٣٢ - ١٧٣٣ ، ولقيت فيها الهزيمة ، وكانت نتيجة ذلك أن عقدت معاهدة صلح بين نادرشاه وأحمد باشا ، في ١٩ كانون الاول عام ١٧٣٣ ، عادت فيها الحدود وفقاً لمعاهدة زهاب عام ١٦٣٩ . غير ان العثمانيين لم يوقعوا على هذه المعاهدة ، مستغلين في ذلك إضطراب الأمور في فارس ، لكن نادر شاه الذي تمكن من اخماد الاضطرابات في بلاده سرعان ماتوجه بجيوشه نحو المناطق التي كانت لاتزال بحوزة العثمانيين فانزل بهم الهزيمة عام ١٧٣٥ . لقد دفعت انتصارات نادر شاه هذه ، العثمانيين الى مائدة المفاوضات ، فأسفرت عن عقد معاهدة صلح جديدة عام ١٧٣٦ ، عادت فيها الحدود الى خطوطها التقليدية . بيد أن العثمانيين والفرس قد اخفقوا في التوصل الى اتفاق حول الخلافات المذهبية التي اثارها نادرشاه ، وكان هذا الامر فضلاً عن اطماعه التوسعية ، ذريعة لاستئناف العدوان ، كما سنرى .

لم تتحسن العلاقات العثمانية - الفارسية في السنوات التالية ، على الرغم من انشغال نادرشاه بغزواته في الهند ، ويعود السبب في ذلك لاصراره على فرض شروط كان من المتعذر على الدولة العثمانية ان تقبلها .

وهذه الشروط - كما يقول لونكريك - « تجعل الفرد يرتاب بوجود خلل في التوازن العقلي الذي كان منشؤه الطمع المفرط الذي صحبته القسوة الجنونية والجشع اللذان عرف بهما الشاه في سني حياته الاخيرة » [٤] . اذ بعث الى السلطان من قندهار في عام ١٧٣٨ ، يطلب ديار بكر وارمينية ، وان يتخلى عن حلفه مع المغول في الهند ، وان يهدم مااصلح من سور بغداد ، فلم يجبه السلطان [٥] .

في آذار عام ١٧٤١ وصل الى استانبول مبعوث فارس ، لمناقشة الخلافات المذهبية مع أولي الأمر هناك . ومع أن العثمانيين لم يغيروا رأيهم حول هذه المسألة الحساسة ، لكنهم لم يعطوا الرد المباشر للمبعوث الفارسي ، وشكلوا وفداً رسمياً لمقابلة نادرشاه ، وتسليمه رسالة السلطان المعبرة عن اعتذاره لقبول مطالب نادرشاه المذهبية . وقد هدد الشاه الفارسي في رسائل حملها الوفد العثماني عام ١٧٤٢ ، السلطان والصدر الاعظم والعلماء ، بأنه سوف ينفذ مايريد بقوة السلاح ، فأخذت الدولة



العثمانية تستعد للحرب، وجرت استعدادات عسكرية في بغداد وأرضروم، غير أن نادراً لم يستطع أن ينفذ تهديداته لمدة ثلاثة عشر شهراً لانشغاله التام بمحاربة اللزك وحلفائهم في داغستان[٦].

وفي بداية عام ١٧٤٣، وقبيل رحيل نادرشاه عن داغستان، وصل وفد عثماني آخر الى معسكره وسلمه رسالة من السلطان يكرر فيها اعتذاره شخصياً عن عدم امكان تلبية طلب نادرشاه بصدد المسألة المذهبية، فأجاب نادر مهدداً السلطان بتقدمه الوشيك، وكانت المدن العراقية، ومن بينها الموصل، ضحية التهديد والعدوان الفارسي.

الأوضاع السياسية في الموصل وعلاقتها ببغداد:

حدثت تغيرات كثيرة في الدولة العثمانية في النصف الاول من القرن الثامن عشر، بخاصة في الولايات العربية التي كانت خاضعة لها. ويعود السبب في ذلك لقيام ثورات كثيرة في الدولة العثمانية، خلال عهد السلطان احمد الثالث، وقد أدت تلك الثورات الى زيادة قوة الحكام المحليين، وكان حسين باشا الجليلي، والي الموصل، واحداً منهم. وعلى هذا الأساس سنقوم بدراسة الجليليين الذين تسنموا السلطة في الموصل من جهة، وعلاقتهم بالدولة العثمانية وولاة بغداد من جهة اخرى.

الجليليون في الموصل:

اتسمت حالة الموصل بعدم الاستقرار السياسي بسبب تعاقب الولاة العثمانيين على حكمها منذ الاحتلال العثماني لها في القرن السادس عشر وحتى تسنم الأسرة الجليلية السلطة في العقد الثالث من القرن الثامن عشر، بحيث أن تغير ولاتها كان يجري بمعدل والٍ واحد في كل عام تقريباً. ومما زاد في حالة عدم الاستقرار استفحال حدة الصراع بين الولاة العثمانيين في الموصل والقوى المحلية، بخاصة الاسرة العمرية التي كانت تمتهن الافتاء في المدينة، مما عرض الموصل لكثير من حالات الاضطراب السياسي[٧]. وفضلاً عن ذلك، فان ظاهرة أخرى تسترعي انتباه الباحث في تاريخ الموصل هي كثرة حدوث الكوارث الطبيعية في النصف الاول من القرن الثامن عشر، ومن بينها الطاعون الذي تعرضت له المدينة عام ١٧٣٧، وفيه مات عدد كثير من الناس، بحيث بلغ عددهم – كما يقول العمري – اكثر من الف نفس في اليوم الواحد[٨].

عمد الجليليون الى الاستفادة من محصلة تلك الظروف مجتمعة، الى اقصى حدود الاستفادة، من اجل التخطي نحو تسلم السلطة في الموصل. ففي العقد الثالث من القرن الثامن عشر، وعندما كانت خزينة ولاية الموصل تعاني من نقص خطير، ساهم اسماعيل الجليلي في عدد من المشاريع الاصلاحية والخيرية، وقد كانت هذه الاعمال مدعاة الى رفع منزلة الأسرة الجليلية في نظر الموصليين[٩]. والى جانب ذلك، فقد ساهم الجليليون في الحملة العسكرية التي قامت بها الدولة العثمانية للتوغل في الاقسام الغربية من فارس عام ١٧٢٣، حيث تحملوا نفقات الجيوش في الموصل، وأمدوها بالسلاح والمال. ولاشك أن مثل هذه المبادرة الطيبة من آل الجليلي، كانت موضع تقدير السلطان العثماني الذي كافأ اسماعيل الجليلي بتعيينه والياً على الموصل عام ١٧٢٦، وبذلك ابتدأ حكم الجليليين في الموصل[١٠].

كانت ولاية الموصل، كما قلنا، تستقبل كل سنة والياً وتودع آخر، وكان الولاة الجليليون من بين من شملتهم عملية التبديل، بحيث ان حسين باشا الجليلي ولي الموصل خمس مرات حتى حصار نادرشاه للمدينة عام ١٧٤٣. وعلى أية حال فان كثرة عدد الولاة وسرعة تبديلهم لايمكن ربطه الا بسياسة الدولة العثمانية القائمة على الحذر من طول بقاء الوالي الواحد في الولاية، بخاصة اولئك الذين يمثلون الأسر المحلية، وهذا مافعلته ازاء افراد الاسرة الجليلية، لاعتقادها بانهم قد يمارسون سياسة مستقلة تؤدي الى صعوبة قيادتهم.



لم تكن سياسة الحذر العثمانية نابعة من فراغ وانما كان لها أساس في الواقع ، ذلك ان الحكام الغرباء في الموصل كانوا يلاقون معارضة من اهل المدينة ومواطنيها ، وكان من الصعوبة عليهم ممارسة سلطتهم دون الحصول على رضاهم ، وهو مالم يحدث في الغالب . ولقد انتبه الى هذه الظاهرة كثير من الرحالة الاوربيين ، وتساءلوا عن سرّ بقاء الاسرة الجليلية في الحكم مدة طويلة . دون غيرهم من الحكام العثمانيين حيث يقول الاب دومينيكو لانزا في مذكراته :

«لقد دلت التجارب مراراً على عدم وجود من يستطيع ضبط امر الموصل غير آل عبد الجليل . فهل هذه الحقيقة ناجمة عن كون أهالي الموصل متمردين (كذا) لايريدون حكم الترك المطلق بل يبغون حريتهم العربية ، ام انها سياسة هذه الاسرة التي تحرك الاهالي سراً على القيام لاجل ازعاج الحكام الغرباء؟ ان في هذا نظراً ، فان لكل من الاحتمالين وجوهاً»(١١) .

ويمكن القول ان كلا هذين السببين هما العامل الحقيقي لقبول أهل الموصل للولاة الجليليين ، باعتبارهم أصبحوا يمثلون كل اهدافهم وتطلعاتهم القومية ، وهي أموركان يفتقر اليها الحكام الغرباء .

لقد أثبتت التجارب الكثيرة أن كل الولاة الغرباء الذين يأتون الى الموصل كانوا لايستطيعون ممارسة سلطتهم دون صعوبات كبيرة . وعلى هذا الاساس فان الوالي كان بحاجة لأن يحتفظ دائماً بقوة كبيرة من الجنود التي تكلف خزينة الولاية نفقات كثيرة ، وكان عليه ان يختار احد امرين : اما الامتناع عن دفع الأموال المقررة ارسالها الى السلطان او التخلي عن رواتبه والأموال المقررة لمعيشته . ولذا فقد كان من السهل على أسرة عبد الجليل ان تتبوأ منصب الولاية في الموصل ، بخاصة وانها كانت تنال ثقة سكان الموصل على اختلاف فئاتهم من جهة ، كما أن الوالي الذي يعين منها لايحتاج الى قوة كبيرة من الجيش ، وبهذا يستطيع تأمين متطلبات الولاية اكثر من غيره من جهة اخرى . والى جانب هذا كله ، كما انتبه الى ذلك نيبور: «فإن من مصلحة أهالي الموصل أن يكون واحد منهم هو الوالي . وان الوالي الذي يريد ان يبقى في الحكم دائماً يسعى لكسب رضا الناس وثقتهم بخلاف الوالي الاجنبي الذي لايعرف مدى بقائه في الحكم ولأجل ذلك فانه لايحصر اهتمامه بجمع الاموال والحصول على نفقات سفره فقط وانما كان عليه ان يقدم للسلطان المال ويرسل الهدايا الى القسطنطينية لكي يضمن ولاية اخرى إذا مااستدعي من ولايته هذه»(١٢) .

وكان من الطبيعي ان يصبح الجليليون هم اصحاب القوة الحقيقية في الموصل ، وذلك بحكم سيطرتهم على القوات العسكرية فيها ، وامتلاكهم ثقة الاهالي ، وقد حملت هذه الحالة السلطان على ان يعين والياً من بين افرادها ، كلما تعرضت الولاية للخطر . وهذا ماحدث عندما بدأ خطر نادرشاه يلوح في الافق مهدداً الموصل ، حيث رأت الدولة العثمانية انها بحاجة كبيرة الى والٍ ذي قدرة عسكرية فذة ، يكون باستطاعته درء الخطر ، فلم تجد غير حسين باشا الجليلي . وهكذا اصبح حكم الاسرة الجليلية في الموصل ، الذي استمر حتى عام ١٨٣٤ ، تتويجاً لسيادة القوى المحلية في هذه المدينة .

الغزو الفارسي للموصل ودوافعه ١٧٣٢ – ١٧٤٣

لم تكن احداث الغزو الفارسي للموصل ، في الفترة ما بين ١٧٣٢ – ١٧٤٣ بمعزل عن غزو المدن العراقية الاخرى ، التي وقعت جميعها ضمن المخططات الفارسية التوسعية ، غير ان فشل غزوات نادرشاه على الموصل ، والمقاومة البطولية التي ابدتها هذه المدينة ، تدعونا لدراستها دراسة عميقة ومعرفة كل ظروفها وملابساتها .

غزوات نادر شاه على الموصل عامي ١٧٣٢ و ١٧٤٣ .

دخلت القوات الفارسية الاراضي العراقية عام



١٧٣٢ ، وقد توزعت تلك القوات التي كانت تقدر بمائة الف جندي ، ضمن عدة محاور فتقدم قسم منها باتجاه كركوك- اربيل وقسم اخر باتجاه الموصل ، في حين كانت القوة الرئيسية تواصل زحفها نحو بغداد. ويبدو ان مسألة أرسال قسم من القوات الفارسية باتجاه الموصل كان يقع ضمن خطة استراتيجية تهدف الى قطع الصلة بين القيادة العثمانية وبغداد ، واحكام السيطرة الفارسية على الاقسام الشمالية من العراق ، ولكن هذه الخطة اثبتت فشلها عام ١٧٣٢ ، فكررها نادر شاه مرة اخرى في حصاره الثاني للموصل عام ١٧٤٣ كما سنرى.

يعود فشل حملة نادرشاه ضد الموصل ، والتي كانت بقيادة نركز خان - كما يبدو - الى صغر حجم القوة الفارسية الموجهة ، والى المقاومة الموصلية الباسلة. اذ تؤكد المصادر المعاصرة أو القريبة من اكثر احداثها ، الى ان عددها كان بحدود ثمانية الاف مقاتل (١٣).

والظاهر ان الثقل الرئيس في حملة نادر شاه عام ١٧٣٢ كان منصباً على مدينة بغداد ، أما مدينة الموصل فقد اعتقد ان أمرها سيكون سهلاً ، اذا ما تم له احتلال بغداد. يقول في ذلك محمد امين العمري ، الذي كان قريب عهد بتلك الاحداث: « وارسله (اي نركز خان) بالعساكر المذكورة لتخريب قراها (الموصل) ، وتضعيفها ومضايقة اهلها ، حتى إذا اخذ بغداد يتوجه اليها ليكون أخذها عليه هيناً » (١٤).

بيد أن الامر لم يكن سهلاً كما ظن نادر شاه ، ذلك لان القوة الفارسية المهاجمة قد واجهها الموصليون ببسالة متناهية ، وعلى رأسهم حسين باشا الجليلي واتباعه فردت على اعقابها ، وقتل نركز خان قائد الحملة نفسه ، يقول في ذلك سليمان الصائغ : «تقدّمت - الجيوش النادرية - الى الموصل وظهرت صباح يوم الخامس والعشرين من شوال (١١٤٥ هـ) سنة ١٧٣٢ على أرض الغزلاني (جنوبي الموصل). فقام الحاج حسين باشا بهمته المفطور عليها وغيرته الشديدة واستحث همم الاهالي مستنهضاً غيرتهم وحميتهم الوطنية باقوال حماسية حتى أثار جميعهم وهبوا بسلاحهم الى حومة القتال ، فالتحمت الحرب بين الفريقين ودامت من الصباح حتى العصر فأبلى الموصليون في تلك الحرب بلاء حسنا واظهروا فيها من الحماسة وضروب الشجاعة وفنون الحرب ما يتيه له العقل ويدل على شديد وطنيتهم وغيرتهم ... ومن ثم اندحرت جيوش نادر شاه ولاذت بالهزيمة منكصة على الاعقاب» . (١٥)

وقد مدح الشعراء حسين باشا الجليلي لدوره الفعال في هذه المعركة ، ومن بينهم حسن عبد الباقي الموصلي ، الذي انشد يقول واصفاً المعركة :

ورهط من الاعجام بين مدرّع
على لاحق وافي وبين مزرد
فجاءوا صفوفاً والقنا يقرع القنا
كغيم كثيف او بناءٍ مشيّد
ونادت بنات الحي اين رعاتنا
واين الفتى المنعوت في كل مشهد
ابا حسن ضاق الخناق ولم نجد
سواك ملاذاً خبير ذخر ومنجد
سرى في مثار النقع بدراً تحفه
نجوم وفي يمناه شعلة فرقد
فاضحت نحور العجم غمد صوارم
وكل عنيف كالعمود الممدد
فلم ينج منهم غير أمرد ناعم
يقاد أسيراً كالغزال المقيد. (١٦)

وفي عام ١٧٤٣ شن نادر شاه هجومه الواسع على العراق ، وذلك على رأس قوة كبيرة. وبعد اجتيازه الحدود العراقية اتجه بقواته نحو مدينتي كركوك واربيل ، بقصد التقدم منها صوب الموصل واحتلالها. وكانت خطته في هذه السنة مماثلة لخطة



عام ١٧٣٢ ، ترمي الى احتلال الموصل وقطع صلاتها بالدولة العثمانية ، الا أنها كانت بشكل أوسع مما هي عليه الخطة السابقة ، حيث وجه نحو الموصل قوةً تقدرها المصادر بـ (١٧٠,٠٠٠ جندي[١٧] ، هذا ولما كانت اهمية الموصل السوقية غير خافية على العثمانيين أيضاً ، اذ انها لم تكن مجرد مدينة من المدن ، بل كانت البوابة لآسيا الصغرى فان احتلالها يعني افساح المجال أمام نادر شاه للتوغل الى قلب الدولة العثمانية[١٨] ، لذلك أمر الباب العالي والي الموصل ، حسين باشا الجليلي ، بأن يضع المدينة في حالة دفاع[١٩] . والى جانب ذلك ، لما كان نادر شاه قد شعر بخيبة امل كبيرة لفشل حملته ضد الموصل عام ١٧٣٢ ، فقد جعل الموصل محور هجومه هذه المرة ، وذلك عندما عاود عدوانه على العراق عام ١٧٤٣ .[٢٠]

ومهما يكن من أمر ، فان المعروف أن نادر شاه توجه الى مدينتي كركوك وأربيل ، قبل تقدمه نحو الموصل ، حيث فرض حصاراً شديداً على مدينة كركوك ، وقد دافع عنها الاهاون – كما يقول الكركوكلي – دفاعاً مستميتاً ، وبعدها رماها بعشرين الفاً من القذائف المدفعية وعشرين الفاً بالمنجنيق [اي المدافع التي كانت موجودة أنذاك] اضطر أهلها الى التسليم »[٢١] . غير ان مقاومة الأهلين هذه لم تكن مجدية ، ذلك لان حاكمها حسين باشا حمال اوغلي ومحافظها أحمد باشا قد هربا الى الموصل ، ومنها الى بلاد الروم .[٢٢] ولقد كان يؤمل ، على غرار ماقام به حسين باشا الجليلي في الموصل ، أن يعمد حاكم كركوك ومحافظها ، ويشجعوا الاهلين على الثبات ، الا أن الظاهر أن امر البلاد لم يكن يعنيها شيئاً ، لانها مجرد موظفين اجنبيين فيها ، ولم يشعروا بشعور المواطنة والانتماء للارض . وزحف نادر شاه نحو أربيل أيضاً وفرض حصاراً عليها الى أن تمكن من احتلالها ، وعمل بها وبأهلها ما عمله بأهالي كركوك ، « حيث قتل من قتل ، وأسر اكابرها ، وضبط أموالها ، واخذ رجالها وجعلهم جنوداً معه »[٢٣] .

وعندئذ اقتربت جيوش نادر شاه من الموصل ، وانتشر الجنود في أطراف المدينة واستولوا على قراها وأقضيتها المجاورة من ذلك كرمليس وبرطلّة وقره قوش وتلكيف وباطنايا وتللّسقف والقوش ، حيث قتل خلقاً كثيراً ، ثم قفلوا راجعين الى أربيل بحثاً عن وسيلة تمكنهم من الهجوم على مدينة الموصل[٢٤] . ومن المعروف ان نادر شاه استخدم الرسل في نقل تحذيراته الى المسؤولين في الموصل ، ممهداً بذلك عملية الغزو وحصار المدينة .

ب. العلاقة بين نادر شاه واحمد باشا وصلتها بحصار الموصل عام ١٧٤٣ :

تكشف المصادر العراقية المحلية عن وجود مراسلات بين نادر شاه واحمد باشا ، والي بغداد ، قبل أن يتقدم الاول لحصار الموصل . وتضيف تلك المصادر ان احمد باشا قد عرض على الشاه الفارسي بأن يستولي على الموصل اولاً ، فاذا ما تم له ذلك سيكون والي بغداد من المطيعين له .[٢٥] يقول ياسين العمري في هذا الصدد « فأحتال عليه والي بغداد الوزير أحمد باشا وأرسل اليه : ارحل الى الموصل فان ملكتها فنحن لك مطيعون »[٢٦] . ويؤيد الصائغ ما ذهب اليه العمري ، ويؤكد أن عمل احمد باشا هو من قبيل الحيلة والخدعة – « والحرب خدعة » ، كما يقول .[٢٧] وعلى اية حال ، وقبل ان نحكم على فحوى تلك الروايات يجب ان نلقي الضوء على موقف أحمد باشا في بغداد ، وسياسته ازاء السلطان العثماني من جهة ونادر شاه من جهة اخرى .

شغل احمد باشا عدة مناصب في الدولة العثمانية ، ومن بينها منصب ولاية بغداد منذ عام ١٧٢٣ وبقي فيها حتى وفاته عام ١٧٤٧ ، ماعدا نقله منها عام ١٧٣٤ الى اورفه ثم عودته اليها عام



١٧٣٦. [٢٨] وبمرور الوقت اظهر احمد باشا تعلقه الشديد بولاية بغداد، مما أثار شكوك الباب العالي تجاهه. ومما عزز تلك الشكوك تزايد قوة أحمد باشا وفشل الخزينة المركزية في تسلم الموارد السنوية المقررة على ولاية بغداد، فزاد ذلك من سخط الباب العالي، الذي اتبع مختلف الوسائل المتاحة لازاحة احمد باشا عن منصبه [٢٩].

ساورت الباب العالي الشكوك حول ولاء أحمد باشا في اثناء تقدم نادر شاه لغزو المدن العراقية، وبلغ الامر بالباب العالي أنه أخذ يرسل الفتاوى التي كانت تتعلق بالخلافات المذهبية التي ترد من نادر شاه او تصدر من الدولة العثمانية، لا الى احمد باشا، بل الى غريمه حسين باشا الجليلي، والي الموصل [٣٠].

اما بالنسبة لسياسة احمد باشا تجاه نادر شاه فيبدو انها كانت قائمة على أساس استخدام الوسائل الدبلوماسية، اكثر من وسائل المجابهة. ويعتقد لوكهارت ان سبب ذلك يعود لاعتقاد احمد باشا بانه اذا ما استطاع ان يهادن نادر شاه، «ستصبح السلطة في بغداد حقيقة ملموسة لا مجرد خيال» [٣١].

لقد مال احمد باشا الى استخدام الوسائل الدبلوماسية كثيراً، من ذلك انه استقبل رسل الشاه عام ١٧٤١، وتقبل الهدايا الثمينة التي بعثت اليه، ورد عليها بالمثل [٣٢]. وفي عام ١٧٤٣، وعندما وجه نادر شاه جيوشه نحو المدن العراقية، فقد تم تبادل الرسل بينه وبين احمد باشا، وهذا ما دعى أوتر otter، الى القول: «بان هناك اجماعاً بان «حرب ١٧٤٣»، قد نتجت بسبب المكائد والدسائس بين احمد باشا ونادر شاه.» [٣٣] ومع ان اوتر قد يميل الى المبالغة، ويغفل الدوافع التوسعية لنادر شاه تجاه العراق، لكن الذي اراد تأكيده هو مسألة قيام عدد من السفارات بين نادر شاه واحمد باشا، وهذا ما جعل الشكوك تدور حول العلاقات بينهما.

وفي هذا الوقت وصل المبعوث الفارسي، محمد أغا أفندي، الى احمد باشا يطالبه بتسليم بغداد، وجاء في رسالة الشاه الاتي: «باني قد قصدت الروم، وكان القصد بغداد، ولكن لكونك فيها لم اكدّر خاطرك، ولم اقدم عليها، ولكني ذاهب الى تسخير ممالك الروم». [٣٤] وقد أجاب احمد باشا على مطالب الشاه هذه، برسالة تضمنت رغبته في ادامة علاقات الصداقة مع نادر، ونيته في وضع حل للمشاكل القائمة بينهما لاسيما المذهبية منها وقد ختم احمد باشا ردّه بأنه ناشد نادر شاه تأجيل بحث تلك المشاكل. لقد حمل محمد اغا رسالة احمد باشا الى نادرشاه، ويبدو أن الاخير، كما يقول لوكهارت، «قد تقبلها قبولاً حسناً» [٣٥]، ولكنه مع ذلك أرسل مجموعات من جيشه لاحتلال مناطق متعددة من العراق.

واذا امعنا النظر في هذه الرسالة نجد أنها تهدف الى تهدئة المشاعر وكسب الوقت، بخاصة وان احمد باشا قد لمح الى مسألة حل الخلافات المذهبية، وهي المسألة التي سبق لنادر شاه ان بعث بشأنها مبعوثاً الى الباب العالي بواسطة احمد باشا وكهيته. ويعتقد فون هامر أن احمد باشا قد اقترح التدخل في هذه المسألة، لعلمه بأن الباب العالي سوف لن يوافق على هذه المسألة ابداً، وبذلك سيتاح له المجال لتموين بغداد، وترميم اسوارها وحصونها. [٣٦]

ومن جانب أخر، تشير كثير من الدلائل الى أن نادر شاه كان يشيد بقدرات احمد باشا على المناورة، من ذلك ما نقله اوتر، «بان احد الايرانيين أخبره بان نادراً سأل مرة أحد افراد حاشيته من هو، في رايه، اعظم من نادر؟ أجاب المسؤول بانه لا يعلم بوجود حتى من يماثله فكيف بمن هو اعظم منه! قال نادر: انت مخطئ... ان احمد باشا والي بغداد بلا ريب هو اعظم مني ،



فهو يحافظ على كيانه لمدة طويلة بين عدوين قويين، أنا والسلطان محمود، وهو يفعل معنا ما يريد.»[٣٧] ومهما تكن مصداقية هذه الرواية، فانها تشير الى اعتراف الشاه بدهاء احمد باشا، واعتقاده بامكانية استخدام الوسائل الدبلوماسية معه بدلاً من تهديده مباشرة.

أن هذه الامثلة وغيرها من الدلائل تشير الى حنكة احمد باشا السياسية، وقدرته على مراوغة كلا من نادر شاه والباب العالي للمحافظة على استقلال ولاية بغداد، ولا دليل قطعاً على أن أحمد باشا كان ينوي ان يفرط بتلك الولاية لصالح الشاه الفارسي. أن هذه النزعة التي اتبعها احمد باشا جعلت نادر شاه يخاطب رئيس الوفد العثماني في مفاوضات الصلح التي تمخضت عن عقد معاهدة ١٧٤٦ قائلاً: «أن هذا الباشا (اي احمد باشا) من الوزراء المخلصين والصادقين في خدمة بلادهم»[٣٨].

فذلك هو ما جرى سراً وعلانية بين نادر شاه واحمد باشا قبل عام ١٧٤٣ وبعده، وهذا ما جعل الموصليين في صيف تلك السنة، على ثقة بان مكر احمد باشا وخداعه سيؤديان الى أن يوجه نادر شاه هجومه نحو الموصل، لاسيما وان أحمد باشا كان يشعر بامتعاض لحصول حسين باشا الجليلي على مكانة في الموصل توازي مكانته في بغداد. وكما يقول اوتر: «فان احمد باشا إذا لم يكن قد ساعد بصورة مباشرة في مواصلة نادر شاه هجومه، فانه بكل تأكيد لم يقف في طريقه عندما تقدم نحو كركوك واربيل ومن ثم الموصل قلعة الجليليين الحصينة»[٣٩].

وعلى أية حال، في الوقت الذي كان يتم فيه تبادل الوفود بين الشاه ووالي بغداد احمد باشا عام ١٧٤٣، وسط مظاهر الضيافة والحفاوة الكاذبة، كانت الموصل تستعد للدفاع عن كيانها بحماسة رسمية وشعبية منقطعة النظير، وقد استخدمت في ذلك عدة وسائل: دبلوماسية وعسكرية وشعبية واقتصاديتة.

المقاومة السياسية: الطرق والمراسلات الدبلوماسية:

مما لاشك فيه ان الحرب النفسية تشكل ركناً أساسياً في الحرب الحديثة، ولما لم تكن الجيوش المتحاربة في القرن الثامن عشر تمتلك من الوسائل الاعلامية للتأثير على العدو الا القليل فقد كانت الرسائل المتبادلة بمثابة الوسيلة المباشرة في التأثير على الطرف الاخر والتقليل من معنوياته: وهذا ما سنجده في الرسائل التي تبادلها نادر شاه وحسين باشا الجليلي احدهما مع الآخر في اثناء حصار الموصل عام ١٧٤٣. وقد اطلقنا على الرسائل المتبادلة بينها، وما حملته من معاني نفسية وسياسية بعيدة المدى، بالمقاومة السياسية، لكونها اتخذت الطابع الدبلوماسي.

ارسل نادر شاه من مقره في أربيل رسالة الى حسين باشا الجليلي، مليئة بالوعد والوعيد والثبور وعظائم الامور ان لم ترضخ الموصل وتستسلم لنادر شاه. وبعد ان يُعدّد غزواته للهند والسند والترك واحتلاله لها يقول: «أوليس لكم في اثار الماضين تبصرة ومعتبر، الا فتذكروا اخبار الهند والسند والترك فيما وصل اليكم من وقائعهم وملاحمهم ووقائع جيرانكم من أهل كركوك وما والاها، كيف تعنتوا فتندموا ثم اطاعوا فنجوا منهم ذو الحظ في جلباب أمن وأمان وشفقة ودعة وامتنان، ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة»[٤٠].

ويستدل من مضمون هذه الرسالة أن نادر شاه أظهر فيها ثقة كبيرة بنفسه وبقدرة جيوشه، وذلك بقصد التأثير على أهل الموصل واضعاف معنوياتهم، إذ كان يميل فيها الى اشاعة روح اليأس حيث يقول ايضاً: «فان كنتم لا تقدرون الدفاع فلا تعرضوا اعماركم للانقطاع»[٤١].



وعندما وصلت رسالته هذه الى الموصل أمر حسين باشا الجليلي سكان المدينة على اختلاف فئاتهم ان يجتمعوا خارج المدينة، في «مقام الخضر» المعروف بالجامع الاحمر، وقرأ عليهم الرسالة، ثم طلب من الحاضرين ان يبدوا رأيهم فيها، فاجتمع أمرهم على المقاومة وعدم الاستسلام بحال من الاحوال وفوضوا الوالي بما أجمعوا عليه، وقد لاقى ذلك قبولاً كبيراً في نفسه فقرر البدء بالدفاع عن المدينة مهما كلف الامر.[٤٢] وعندئذ أوعز حسين باشا الجليلي الى المفتي يحيى الفخري كتابة جواب مناسب جاء فيه: «وصل كتابكم المرسول الى العامة المشتمل بزعمكم على الطاعة، فلا تغرنكم الحياة الدنيا... فما وعيدكم عندنا الا كصرير باب، او كما طن في لوح الهجير ذباب، تذكرونا بما فعلتم بالسند والهند مع اولئك العلوج، وتدهشونا بما فتحتم من قلعتي كركوك واربيل وترعبونا بامثال تلك الاباطيل» واستهزأ حسين باشا الجليلي من غرور نادر شاه ببيتين من الشعر:

قام الحمام على البازي يهدده
واستصرخت باسود البر أضبعه
يا من يسد فم الافعى باصبعه
يكفيه ما قد يلاقي منه أصبعه[٤٣]

وعلى اية حال، فقد كان جواب حسين باشا الجليلي يعبر عن الروح المعنوية العالية التي جُبل عليها أهل الموصل، والهمة العالية في الدفاع عن المدينة والاستبسال في سبيلها، اذ جاء فيه: «ونحن الاسود الضارية، والسباع الكواسر العادية، اسيافنا صقيلة، وسطوتنا ثقيلة، وحلومنا رزينة، وقلوبنا كالحديد متينة، وبلدتنا - بحمد الله - حصينة...»[٤٤].

لقد اشتد غيض نادر شاه من جواب حسين باشا الجليلي المفحم، ولذلك تقدم نحو الموصل واتخذ من يارمجة - على بعد ثلاثة أميال من جنوب المدينة - مقراً لقيادته. ومن هناك أرسل رسولاً اخر الى الموصل يدعو أهلها الى التسليم له بالطاعة والاذعان والابتعاد عن المكابرة والعناد، لانهم بهذا يوردون بأنفسهم واموالهم موارد التهلكة والتلف وينذرهم العذاب الشديد ان هم لم يستجيبوا لرغبته هذه حيث يقول: «فان سلكتم جادة الطاعة والتذلل، واسرعتم الى الاستقبال مستعطفين، فلم تروا إلاّ خيراً، اما إذا خالفتم فسيكون وبال سفك الدماء في اعناقكم».[٤٥]

ومع شدة هذا التهديد، فان حسين باشا الجليلي، الذي عرف بقوة قلبه واصالة رأيه وحماسته وغيرته ووطنيته، قد اعلم الرسول انه لن ينثني عن رأيه حتى يسفك اخر قطرة من دمه، ويقتل آخر فرد في بلدته، وعلى هذا ردّ الرسول بجواب خيب فيه امال سيده، قال فيه: «اننا لواثقون بالله ان يمدنا بالنصر المبين، فما بيننا وبينكم الا السيف والسنان فلا تعاودنا بالرسل والتهديدات وان أتانا منكم رسول آخر لأعيدنه اليكم جثة بلا رأس فتقدموا ولا تبطئوا»[٤٦]. وعاد الرسول، كما يقول الصائغ، متعجباً من بسالة الاهالي وثباتهم ومعنوياتهم العالية، فابلغ نادر شاه بذلك[٤٧].

وبينما كان الموصليون يتفجرون طاقة ومعنوية، مرّ بالموصل محمد اغا، كتخدا (نائب الوالي) والي بغداد احمد باشا، في طريقه الى استانبول لمواجهة السلطان العثماني، وعرض مسألة التوفيق بين المذاهب، التي وعد أحمد باشا نادرشاه بحلها. وقد اجتمع بوالي الموصل حسين باشا الجليلي وقادة الجيش، واعلمهم انه سائر الى السلطان يعلمه بما عليه جيش نادر شاه من قوة وعدد، وعرض لهم بالاستسلام اليه، وحذرهم من مقاومته ولما انتشر هذا الخبر في المدينة، تجمهر الاف الناس حول السراي، يريدون قتل الكيتخدا الذي عدوه خائناً ارسل لبث التخاذل بين صفوفهم[٤٨].

وعلى اية حال، ومع أن اهل الموصل قد أعدوا العدّة لمواجهة العدو ومقاومته، فان دعوة محمد اغا الاستسلامية هذه جعلتهم يشكون بمواقف أحمد



باشا ، والي بغداد ، وهذا مادعا المصادر الموصلية المحلية – كما اسلفنا ، لان تعده مسؤولا عن توجيه نادر شاه نحو الموصل .

وبعد فشل عمليات الحصار التي فرضها نادر شاه على الموصل نهائيا بادر الى طلب الصلح ، فأبى حسين باشا الجليلي مصالحته ، الا أذا قرر ترك المدينة . ويبدو ان نادرشاه قد ارسل مبعوثيه بقصد التعرف على حالة المدينة وأهلها ، ومقدار التاثير الذي احدثه القصف الفارسي . فلم يجد هؤلاء – كما نقلوا لنادرشاه – اي اثر لمدفعيتهم الكثيرة في المدينة ، ولم يشعروا بأي ملل على السكان ومعنوياتهم ، وعلى ذلك كرر ارسال مبعوثيه الى الموصل[٤٩] .

يتضح من رسائل نادرشاه السابقة ، ومن الظروف التي اصبحت تحيط به ، انه اصبح مضطراً لعقد الصلح مع حسين باشا الجليلي . وعلى هذا الاساس ، فقد اختلفت لهجة الرسائل التي بدأ نادرشاه يبعثها الى خصمه ، اذ تحولت من رسائل تهديد ووعيد الى رسائل التماس وتواضع . فقد كتب نادرشاه الى حسين باشا الجليلي يلتمسه ارسال اثنين من قبله لعقد الصلح بينهما . فأرسل القاضي والمفتي وقرة مصطفى من أعيان البلد ، فعندما وصلوا الى قرية القاضية ، حيث كان نادرشاه مخيماً ، استقبلوا بحفاوة بالغة ، مما يدل على موقفه الضعيف ، ورغبته في عقد الصلح مضطراً . وبعد تردد الرسل تقررت قواعد الصلح بين الطرفين[٥٠] . ولم يلبث نادرشاه الا قليلاً حتى بدا يشد رحاله عن مدينة الموصل وهو يرمق المدينة الابية بحسرة وكمد ، غير أن اهل الموصل لم يطمئنوا الى مواثيقه ولم يأمنوا معاودته فبقوا متربصين حتى قطعوا الشك باليقين[٥١] .

المقاومة العسكرية :

يعدّ نجاح الموصليين في ردّ هجوم نادرشاه الواسع على مدينتهم من الامور التي تلفت نظر الباحثين باستمرار ، وذلك للتباين الواضح بين قواتهم وقوات العدو ، والتباين في مستوى التسليح ايضا . فمن الامور المتواترة ان قوة الرتل الشمالي الذي قاده نادرشاه نحو الموصل يقدر بـ (١٧٥,٠٠٠) مقاتل . وقد التحق به رتل الاسناد الثقيل الذي يقدر بـ (٤٠,٠٠٠) مقاتل ، فصار مجموع القسم الاكبر (٢١٥,٠٠٠) مقاتل على ابواب كركوك . وبطرح خسائر المعارك المتعاقبة وما أفرزته من حاميات على طريق المواصلات ، وما خصص من ارتال ثانوية لواجبات المشاغلة والتثبيت ، فضلاً عن الرتل الثانوي الذي افرز للتقدم على طريق زاخو – جزيرة ابن عمر والمقدر بـ (٣٠,٠٠٠) مقاتل ، يكون قد تبقى قبالة الموصل مايقرب من (١٧٥,٠٠٠) مقاتل نظامي وغير نظامي . وهذا هو الرقم الذي صرح به مفتي الجيش الفارسي ، ولتصريح المناوئ دلالة غير خافية .

أخبرنا مفتيهم أنّ الفئة
خمس وسبعون تليها مئة
وانما تمييز ذي الاعداد
الف بلا نقص ولا أزدياد[٥٢]

ولم تكن قوات الموصل ، ازاء ذلك كله ، الا نحو (٣٠,٠٠٠) اي بنسبة (١ الى كل ٦) ، موزعين كالاتي :

٥٠٠٠ حامية الموصل النظامية المؤلفة من خمسة افواج معززة بالمدفعية .
٢٠٠٠ النجدة الحلبية مع المحافظ حسين باشا القازوقجي .
١٥٠٠ متطوعون اكراد
٥٠٠ خيالة الارياف
٥,٠٠٠ قوات محلية شبه نظامية
١٦,٠٠٠ ابناء الموصل من القادرين على حمل السلاح وبعض ابناء العشائر العربية
٣٠,٠٠٠ المجموع الكلي

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات نادرشاه مجهزة باحدث الاسلحة آنذاك ، فان قوات الموصل النظامية ، التي انقطعت صلتها الحقيقية بالقيادة

العامة للقوات المسلحة العثمانية منذ اواخر القرن السابع عشر، لم تمتلك من المعدات والاسلحة الا قليلاً. كما انها لم تكن قد شاركت في معارك دفاعية بمثل هذا المستوى من قبل، ولم يسبق للسكان انفسهم ان ساهموا في حرب منذ ان احتل العثمانيون المدينة قبل قرنين من تاريخ الحصار[٥٣].

ومهما يكن من امر، فان أخبار دخول القوات الفارسية الاراضي العراقية كانت قد تسربت الى الموصل قبل وصول نادرشاه الى كركوك، وقد يكون ذلك التسرب عن طريق القوافل التجارية التي تسلك طريق بغداد- الموصل. وعلى اثر وصول نادرشاه الى كركوك وأربيل واحتلاله هاتين المدينتين، فقد استنفرت الجهود قاطبة للدفاع عن الموصل.

والى جانب الخطر الوشيك الذي كان يحيط بالمدينة فقد كان هناك شعور عام بأن اسوار الموصل قد لاتصمد طويلاً امام هجوم قوي، بخاصة وان تلك الاسوار- كما يقول لانزا- ليست على درجة كبيرة من الحصانة[٥٤]. وفضلاً عن ذلك، فان وجود نقص في التجهيزات الحربية قد أثار شكوكاً مماثلة حول الفترة التي يمكن للموصل ان تصمد في حالة الحصار، اذ يقول نيبور في ذلك: «ولم تكن لدى حسين باشا الجليلي الاستعدادات الكافية للقتال والمؤن والذخائر الحربية اللازمة»[٥٥]. ومع ذلك، فان اوتر Otter، الذي ترك المدينة في حزيران عام ١٧٤٣، شاهد بأن اعمال تجديد اسوار الموصل قد بدأت بالفعل.[٥٦]

وعلى اية حال، عندما تأكد حسين باشا الجليلي ان الموصل ستصبح هدف نادرشاه، فقد بدأ اولى اعماله الرئيسية وذلك بالعمل على اعادة تحصين اسوار المدينة، وهو مشروع حقق فيه هذا القائد نجاحاً كبيراً، في شهري تموز وآب.[٥٧]

بدأت اعمال التحصين بحفر الخنادق حول المدينة، وهي مهمة لم يكن انجازها سهلاً لولا تفاني الموصليين التام في ذلك. فقد استجاب الناس على اختلاف شرائحهم الاجتماعية لنداء الوالي، وكان للجميع دور فعال في عمليات الحفر، حتى ان حسين باشا الجليلي واولاده قد ساهموا في هذا المشروع الضخم[٥٨]. ثم تناول العمل الاجزاء المتصدعة من سور الموصل القديم، واظهر الجميع همة عالية في تعمير ماتهدم منه، حيث بنوا بالحجارة الجديدة كل الثلم والثغرات الموجودة فيه. واسرع الاهالي لتلبية امر حسين باشا الجليلي لتسوية كل العوارض الطبيعية من روابي وتلال حول المدينة لئلا يستفيد منها الغزاة في التسلط على المدينة.[٥٩] ثم اعدت اخر الاستعدادات حيث حصنت القلاع بالمدافع وجهزت بالذخيرة اللازمة، وبفضل هذه التعزيزات الحسنة التوقيت رفض حسين باشا الجليلي بكل اباء وشمم طلبات الوفد الفارسي القاضية بالاذعان للشاه، وارسل اخاه عبدالفتاح بك، مع قسم من قواته ليقاوم طليعة الجيش الفارسي.

لقد أزدادت القوات العاملة والمحاربة في الموصل عن طريق وصول عدد كبير من اهالي القرى المجاورة الى الموصل، الذين تركوا قراهم بوجه اعمال نادرشاه التخريبية. وقد وجد هؤلاء ملاذهم في هذه المدينة الصامدة، اذ رحب بهم حسين باشا الجليلي، وشجعهم بأن يستعيدوا معنوياتهم بوجه هجوم نادر شاه المتوقع، وعمل على توفير السلاح للقادرين منهم على حمله[٦٠] ولعل الاهم من ذلك، كما يقول القس حبش بن جمعة، الذي كان شاهد عيان للاحداث، ان حسين باشا الجليلي نفسه قد امر سكان القُرى المحيطة بالموصل، ومن بينهم سكان مدينة قرة قوش (مركز قضاء الحمدانية اليوم)، بالقدوم الى مدينة الموصل قبل ان يلحقهم اذى القوات الفارسية الغازية، وقد استجاب هؤلاء لنداء الوالي الغيور[٦١].

وفي تلك الظروف اثبت حسين باشا الجليلي انه



بطل من طراز غير اعتيادي، وذلك لما امتاز به من دور كبير كقائد في المعركة. فمنذ اللحظات الاولى بدأ هو واولاده وافراد اسرته الأخرون في مشاركة الناس بأعمال التحصين، وحينما بدأت المعارك برهن على كفاءته النادرة، لكونه من اولئك الرجال الذين تلمع قدرتهم عند اشتداد الازمات. وتحدثنا المصادر التاريخية الكثير عن مشاركة حسين باشا الجليلي الفعالة في سير المعارك، اذ عندما استطاعت المدفعية الفارسية ان تحدث صدعاً في بعض ابراج باشطابيا، كان هو نفسه اول العاملين على اصلاح الصدع، على الرغم من ان احجار السور - كما يقول العمري - كانت تهوي عليه كالمطر.[٦٢]

كان الجليلي يراقب الاسوار ليلاً ونهاراً، وفي الوقت نفسه كان يطوف على المقاتلين ويقوي عزائمهم ويحثهم على الثبات. يحدثنا في ذلك حسين باشا القازوقجي الذي كان مرافقاً لحسين باشا الجليلي قائلاً: «كنا نتفقد الطابيات دائماً ونقيم فيها ليلاً ونهاراً... كما كنا نقف وراء ابطالنا، ونقوي ونشوق رؤوساء العساكر واحاد الجند...»[٦٣]

كشف لنا اشتداد المعارك، بخاصة «معركة الالغام والسلالم»، طبيعة العلاقة القوية بين القائد وجنوده. فبينما كان حسين باشا يقاتل مع الجنود الذين اظهروا التفافهم حوله، كان نادرشاه يقف مسافة بعيدة عن جنوده، وكان قد وضع ثلة من الخيالة - وهو معهم - خلف المهاجمين، وامرهم بأن يفتكوا بالمنهزمين من جيشه عند اشتعال اوار المعركة. والى هذا اشار التقرير الرسمي لحسين باشا القازوقجي بقوله: «وكان الشاه بين الخيالة في منخفض هناك، حيث اراد منع الفارين وارجاعهم، وكان يسير بجواده يساراً ويميناً وينادي باعادة الرجال، فلم يصغوا ولم يلتفتوا»[٦٤].

وفي سير العمليات العسكرية استخدم الطرفان خططاً مختلفة وفقاً لتغير مجرى الحرب. فبعد ان فشلت خطة نادرشاه في اجبار الموصليين على الاستسلام عن طريق المراسلات الدبلوماسية، لجأ الى فرض الحصار على مدينتهم ومهاجمتها. وكانت اولى مناوراته في هذا المجال ان حاول جرّ قوات الموصل الى معركة خارج اسوار المدينة، حيث ارسل قوة فارسية تقدر بعشرة آلاف فارس، فخرجت للقائها مفرزة من الخيالة الموصلية تقدر بـ ٧٠٠ او ٨٠٠ فارس، بقيادة أخي والي الموصل الشاب عبدالفتاح الجليلي. وقد حاولت قوة فارسية اخرى اسر هذه المفرزة وقطع خط الرجعة عليها، ولكن قائد المفرزة فطن للمكيدة فاستطاع العودة بجنوده الى داخل المدينة، حيث سدت الابواب وبدأت مرحلة جديدة في سير القتال.[٦٥]

وعند ذلك اتخذ نادرشاه من يارجه، التي تبعد ثلاثة اميال عن الموصل، مقراً لقيادته، وكانت خطته في هذه المرة تقضي بقصف المدينة قصفاً شديداً ومركزاً، لاحداث اكبر خسائر ممكنة بها، واجبارها على الاستسلام غير المشروط له. وعلى ذلك امر بنصب المعابر عبر دجلة، اعلى الموصل واسفلها وارسل قسماً من قواته الى الجانب الغربي من النهر، كي يكملوا الاحاطة بالمدينة وأمر في الوقت نفسه بتشييد اثني عشر برجاً كل منها يقابل برجاً من ابراج الموصل، ونصب عليها مدافعه الضخمة التي تتكون من ١٦٠ مدفعاً ثقيلاً، و ٢٣٠ مدفعاً خفيفاً.[٦٦]

في ٢٨ ايلول ١٧٤٣ فتحت المدفعية الفارسية نيرانها دفعة واحدة، واستمر القصف على هذه الشاكلة ثلاثة ايام بلياليها دون اي توقف. ومن جهة اخرى فقد اقام حسين باشا الجليلي مدفعيته مقابل ابراج العدو، حيث بدأت ترد على نيران المدفعية المعادية بالمثل[٦٧].

عندما لم يجد القصف الفارسي نفعاً عمد نادرشاه الى تغيير خطته، فأمر بقصف المدينة من جانب واحد، بقصد احداث ثغرة في السور للنفاذ منه عنوة، فركزت مدفعيته نيرانها على برج باشطابيا



الشمالي، وهو مقر قيادة الوالي حسين باشا الجليلي، الذي اضطر الى تركه، والتوجه الى السراي. ومع ان هذا القصف قد ادى الى احداث ثغرة في السور، غير ان صمود المدافعين ومثابرتهم الباسلة قد مكنتهم من سد تلك الثغرة، دون ان يستفيد العدو منها. ويعلق نيبور على هجوم نادرشاه هذا بقوله: «وكان «نادرشاه» لايعرف شيئاً من فنون حصار القلاع، اضافة الى ان الفرس كانوا لايحسنون فن المدفعية. فلقد هاجم نادرشاه المدينة من الجهة الشمالية الغربية عند الباب العمادي حيث كان من اشد جهات سور المدينة حصانة، كما كانت هذه الجهة خالية من السكان تقريباً»(٦٨).

لقد قدر ما ألقي على المدينة من قنابل بأربعين الف او خمسين الف قنبلة ومائة الف قذيفة مدفع (٦٩) الا ان تأثير هذه القنابل كان قليلاً، لان مفعولها كان يبطل بفعل آبار الخنادق القائمة خلف السور، او انها تنفجر في الهواء او تسقط بين البيوت المبنية من الجص والحجر دون ان تنفجر، فيلجأ الموصليون– كما يقول نيبور– الى جمعها واستعمالها مرة اخرى ضد الجيش الفارسي(٧٠).

وبعد ان يئس نادرشاه من احتلال الموصل عهد الى خطط عسكرية ومعنوية اخرى، اكثر تأثيراً على السكان، حيث قام بتحويل احدى شعبتي دجلة، وبالذات تلك التي تجري تحت الموقع المعروف بقره سراي (السراي الاسود) والتي كان الناس يشربون ويأخذون حاجتهم منها، حوّلها الى شعبة اخرى بعيدة بقصد تعطيش الناس وايذائهم، مما اضطرهم الى شرب مياه الابار(٧١) واستعمل في الوقت نفسه عنصر المباغتة في مهاجمة السكان، اذ تظاهر بالمسير عنهم اياماً حتى يركنوا ويأووا الى بيوتهم مطمئنين ثم يباغتهم على حين غرة. وقام خلال ذلك بمهاجمة القرى المحيطة بالموصل ونهب كل مافيها من مواد ومؤن غذائية، ووصل بجيوشه الى جزيرة ابن عمر، ولم يسلم احد من فتكه(٧٢) الا ان عزائم أهل الموصل لم تفتر البتة، على الرغم من اتباع الفرس شتى أساليب الحيل والخداع خلال فترة الحصار، اذ كان اهلها– حسبما يقول الصائغ– قد زادوا في تحصينها مدة غيابه، وحكموا اسوارها واستحضروا المؤون والعدة(٧٣).

لم تكن جعبة نادرشاه قد خلت بعد، فلما عاد الى الموصل بدأ يجرب خطة عسكرية اخرى، هذه الخطة تقوم على وضع الغام تحت سور المدينة لنسفه بالبارود وتهديمه، على ان يقوم بعض الجنود الفرس باعتلاء اسوار المدينة بواسطة السلالم، ومن ثم يلقي هؤلاء بأنفسهم الى داخل المدينة ساعة النسف. غير ان هذه الخطة لم تكن بأحسن من سابقاتها، اذ لم ينفجر من الالغام الا اثنان، وقد ألحق هذان اللغمان اضراراً بالقوات الفارسية اكثر مما ألحقاه بالموصليين انفسهم، في حين تعطلت الاخرى بسبب الرطوبة المتسربة من الابار.(٧٤)

لقد وقع الجنود الذين تسلقوا سور المدينة فريسة سهلة بيد المقاتلين الموصليين، الذين لم يتركوا احداً منهم الا أردوه قتيلاً بوابل من نيران بنادقهم، وكان هذا هو شأن من كان منهم في الخنادق ايضاً، بحيث كان عدد القتلى الفرس في ميدان المعركة لذلك اليوم وحده زهاء ٤٥٠٠ بينما لم يستشهد من جنود الموصل الا نحو مائة نفر(٧٥) وبهذه المعركة الفاصلة حسمت نتيجة الحصار، بعد ان دام اكثر من اربعين يوماً، فقد الفرس فيه كثيراً من الرجال والمعدات ورجعوا يجرون اذيال الخيبة دون ان ينالوا من المحاصرين– كما يقول لانزا– قلامة ظفر بعد ان كانوا قد اعتزموا سلبهم.(٧٦)

وخلاصة القول، فقد اظهرت الموصل التفافاً حول قيادة الوالي حسين باشا الجليلي الذي تمكن من الوقوف بوجه الحصار ومقاومته ببطولة وبسالة، فأثبت من خلال حنكته السياسية وكفايته العسكرية انه جدير بالقيادة. اذ تحدثنا المصادر



التأريخية بانه كان يراقب تحركات الجيش الفارسي باستمرار، ويخطط لما يتوقعه منهم ، فيعد العدة لمقابلتهم ، وهو في ذلك لم يكن يقطع في قرار الا بمشورة قواده العسكريين واعيان البلد[٧٧]

المقاومة الشعبية :

قبل التحدث عن المقاومة الباسلة التي أبداها المجتمع الموصلي لرد الفرس الغزاة ، لابد من دراسة هذا المجتمع ومعرفة عناصره المختلفة التي وقفت صفاً واحداً في المعركة. فلقد تميزت الموصل ، عبر حقب التاريخ ، بتعدد العناصر البشرية التي سكنتها من العرب والاكراد والتركمان ، فضلاً عن الاقليات الدينية الاخرى. وقد عاشت هذه العناصر ازماناً طويلة متجاورة ، تجمعها روابط تاريخية وحضارية وسياسية مشتركة ، ادت بالتالي الى صهر تلك العناصر في بوتقة واحدة ، بخاصة وان مدينة الموصل كانت سوقاً تجارية كبيرة ، فاختلطت فيها العناصر المختلفة. وفضلاً عن ذلك ، فقد كان لتولي آل الجليلي مقاليد السلطة السياسية في الموصل ، اثر كبير في توحيد تلك العناصر حتى حازوا على ثقة وولاء المدينة بأسرها[٧٨] وهذا ماحصل ايضاً اثناء حصار الموصل حيث شارك الجميع -كما سنرى- في الذود عن المدينة.[٧٩]

والحقيقة ان حسين باشا الجليلي استطاع تعبئة قواته المحلية على نحو يثير الاعجاب ، كما نجح في اثارة حماس مواطنيه وفي تجسيد المخاطر التي ستحيق بهم لو تمكن نادرشاه من احتلال مدينتهم. لقد وحّد الجليلي مختلف ابناء الموصل وبهذا قادهم الى النصر. والى هذا المعنى اشار القس حبش بن جمعة بقوله : فاجتمع اهالي المدينة ، ودعاهم الجليلي الى نبذ الخلافات وان يكونوا قلباً واحداً ويدا واحدة... كما اوصاهم قائلاً : «ايها الاخ[illegible] الاعزاء يجب علينا ان نقاتل سوية حتى المو[illegible] [illegible] ينتصر علينا هذا الطاغية (نادرشاه) فيسبي فتياتنا المحصنات وامهاتهن ويهتكهن ، واذا ماوقع هذا الامر الشنيع ماذا تنفعنا الحياة بعد». وعلى ذلك- كما يقول ابن حبش- قاموا قومة رجل واحد وهيأوا اسلحتهم واعدوا ونصبوا المنجنيقات (المدافع) على اسوار المدينة واقاموا عليها رجالاً اشداء يحافظونها ليلاً ونهاراً ويقفون بوجه العدو الفارسي الذي لايعرف معنى الرحمة.[٨٠]

لقد عبأ حسين باشا اهل الموصل واعدهم اعداداً معنوياً ومادياً. فمن الناحية المعنوية ، حاول ان يستثير هممهم الى اقصى الحدود منذ الساعات الاولى التي تعرضت فيه المدينة لخطر الحصار. فعندما ارسل نادرشاه رسوله الاول الى مدينة الموصل ، طالباً استسلامها ، جمع الجليلي اهل المدينة وخطب فيهم ، وطلب منهم ان يبدوا رأيهم في الامر فما كان منهم الا ان اجابوه بصوت واحد قائلين : «انكم قد عينتم والياً علينا واودع اليكم أمور بلدتنا وتدبير شؤوننا ومحافظتها فانت الامين المطاع من كبيرنا وصغيرنا ولك الامر فيما تراه وتريده ، وليس بيننا من يخالف من تأمر به ، فنحن كلنا مستعدون لتنفيذ كل ماتأمر به».[٨١] ومن الناحية المادية ، عمد الجليلي الى توفير كل المستلزمات التي يتطلبها المدافعون من مؤونة وسلاح ، وفي هذا يقول فتح الله القادري في ارجوزته المشهورة :

ورتب الرايات والبنودا
وحرض الرجال والجنودا
اعطى من السلاح والسيوف
وصرنا لانخشى من الحتوف

وفي سياق التعبئة المعنوية والمادية ايضا ، دعا حسين باشا الناس الموجودين خارج الموصل ، بخاصة سكان القرى المحيطة بها ، بأن يدخلوها خوفاً من تسلط العدو عليهم. وقد دخل المدينة بالفعل اعداد كبيرة ، وقد استقبل حسين باشا هؤلاء



بترحاب كبير، واعاد الثقة الى نفوسهم، فتحولوا الى قوة كبيرة عاملة، اذ ساهموا مع اهل الموصل في تدعيم الاسوار والحصون وحفر الخنادق واجراء الماء فيها، وجلبوا للمدينة التموينات التي قيل بان المدينة كانت بأمس الحاجة اليها انذاك. يقول لانزا في ذلك: «لما قدم نادرشاه هذا القطر بجيش جرار للاستيلاء على الموصل لجأ اليها عدد كبير من العرب والاكراد ومن نصارى القرى المجاورة وتحالفوا على الدفاع عنها وصاروا جميعاً يحفرون الخنادق المحيطة بسور المدينة ويبنون بالجص والحجارة الاجزاء المتصدعة منه»[٨٢].

لقد اشترك المجتمع الموصلي بكافة فئاته المختلفة في الدفاع عن المدينة، الجنود والعمال والبناؤن، وكان حسين باشا الجليلي يدور حول الاسوار والبلد، يقوي المقاتلين والعاملين على الصمود والثبات، ويصور العدو بعيونهم، كما كان المشجعون يطوفون على السور والابراج يحثون الجيش على الثبات.

اما سكان المدينة الاخرون من النساء والاطفال والشيوخ، الذين تعرضوا لقصف مدفعي شديد، فقد انزلوا الى السراديب الموجودة تحت الارض، وذلك حفاظاً على أرواحهم، ولم يبق خارج السراديب الا الذين يقاتلون من فوق الاسوار[٨٣].

وهكذا تضافرت جهود جميع الموصليين في الدفاع عن المدينة وحمايتها، وكان لحسين باشا الجليلي الدور الاكبر في تنظيم المقاومة الشعبية لابناء المدينة بشرائحهم المختلفة، حيث اقبلوا على العدو بحماسة وايمان.

المقاومة والصمود الاقتصادي:

لايقل الصمود الاقتصادي اهمية عن العوامل الاخرى في الدفاع عن المدينة وثباتها، وذلك لما يعنيه توافر المؤونة والطعام من طمأنينة في المواطنين، بخاصة وان العدو كان يطبق سياسة التجويع والتعطيش على مدينة الموصل. فمن المعروف ان نادرشاه ومنذ ان احتل مدينتي كركوك واربيل امر قواته بتدمير القرى المجاورة للموصل وتخريبها ليحول دون استفادة المدينة من مصادر تموينها بأي طريقة من الطرق. وقد كرر هذه العملية حتى في اثناء حصار الموصل، اذ وجه قسماً من جيشه لتخريب قرى الموصل وحرقها، وذلك بقصد قطع التموينات عن هذه المدينة، واثارة الخوف والبلبلة بين أهاليها. وعلاوة على ذلك، فقد سبقت الاشارة الى ان نادرشاه حاول تحويل احدى شعبتي دجلة عن المدينة مستهدفاً منع وصول الماء الى السكان، بحيث اضطروا الى شرب مياه الابار. وقد اشار القازوقجي الى ذلك بقوله: «حصل ضيق وحيرة من جراء ذلك عند المحافظين المحصورين، لكن بفضل انفجار الينابيع، لم يقم في قلوبهم الملأى بالغيرة، ولا في خواطرهم اضطراب وتشويش»[٨٤].

كما سجلت لنا الاراجيز التي تناولت حصار الموصل، كثيرا من الحقائق التاريخية، ومن بين ذلك مسألة تحويل احدى فروع نهر دجلة القريبة من المدينة، حيث جاء في ارجوزة فتح الله القادري الآتي:

وقبلها بخمسة ايام
قد قطعوا الماء عن الانامِ
قد جاءه الملعون كي يقطعه
وعن عباد الله ان يمنعهُ
عارضه المولىٰ الوزير الاكرم
السيد الحبر الجليل الافخمُ
قد جاء بالاخشاب والدلاء
واستحضر الاحواض للسقاءِ
قابل ذا الملعون بالرصاص
ماكان للساقين من خلاصِ
فامتنع الناس عن الماء
بل تركوا السقي بلا استثناءِ
ثم ابتدأنا شرب ماء البير
كل كبير كان او صغيرِ[٨٥]

وعلى الرغم من ان اثار الحصار الفارسي للموصل كانت مريرة وقاسية، فان هنالك حقائق



اساسية مهمة بالنسبة لاوضاع الموصل الاقتصادية وصمودها تبعث على الاطمئنان ، اشار اليها كثير من الرحالة الاوربيين. فمن الملاحظ ان سكان الموصل اهتموا كثيراً بتشييد مخازن خاصة تحت الارض لحفظ الحنطة بكميات كبيرة ، قد تصل مدة حفظها – كما يقول لانزا – الى عشرين سنة او اكثر. ويضيف في وصف تلك المخازن قائلاً :

«وهناك نوع آخر من البنايات تحت الارض ، الكبيرة منها والصغيرة ، ويسع الصغير منها ١٠٠ او ٢٠٠ كيس من الحنطة ، والكبير الى ٤٠٠ وهي عميقة تحيط بها جدران قوية مطلية بالزفت لحفظ الحنطة التي يحتاج اليها الاهلون وتسد باهتمام. واحيانا يسد فم الحفرة الى عمق ذراع تحت الارض بحيث لايشك أحد بوجود شيء في ذلك المحل» [٨٦] .

ومما يؤكد ذلك ماذكره نيبور عند زيارته للموصل عام ١٧٦٦ ، حيث شاهد بعض المخازن المملوءة بالخبز اليابس (الرقاق) ، التي مضى على خزنها خمس عشرة سنة او اكثر [٨٧] .

ومهما يكن من امر، فمن المعروف أن قرى الموصل المتعددة ، كانت ولا تزال ، تنتج كميات كبيرة من الحنطة والعدس والحمص والسمسم ، وقد استطاعت هذه المدينة ان تدخر كميات وافرة منها ، حتى قبل أن يفرض نادرشاه حصاره عليها . وقد عبر عن ذلك الشاعر فتح الله القادري بقوله :

هذا وقد صار حصاد الغله
وكان بالموصل منها قله
فأخرج الناس الى الحصادِ
أجابوا بالسمع بلا عناد
وقالوا دوسوا ثم ذروا وانقلوا
غلتكم ، واحذروا نصحي تهملوا
هذا وقد أوى لكل قريه
مباشر لحفظ تلك الغله
فكل من كان قريب الموصل
فاز بتبن وبقوت وحلي
واشتغلت أهل القرى بالنقل
من غلة وخشب وبقلِ [٨٨]

وعلى ذلك استطاعت مدينة الموصل ان تصمد اقتصاديا ، كما صمدت سياسياً وعسكرياً وشعبياً ، فشقت طريقها نحو النصر.

ان حصار نادرشاه للموصل كان واحداً من اضخم الحصارات التي شهدها القرن الثامن عشر، الا ان فشله في احتلالها قد أدهش المؤرخين ، المعاصرين منهم والمحدثين ، وذلك لعدم وجود توازن في العدة والعدد بين المهاجمين والمدافعين. فبينما جمع نادرشاه جيشه من مناطق عديدة من امبرطوريته الواسعة ، ومن المناطق التي احتلها ، فقد اقتصرت قوة الموصل على قواتها الذاتية ، تلك القوات التي أهم ماكانت تمتاز به انها التفت حول قيادة الوالي حسين باشا الجليلي ، وصمدت بالتعاون مع أهل المدينة ، فتوج ذلك الصمود بنصرها ، واندحار نادرشاه وتركه العراق مذعوراً خائباً.

ان دراسة حصار الموصل وفشله ، تجعل المؤرخ امام عدد من الحقائق المهمة :

١ – ان تمسك أهل الموصل بأرضهم وايمانهم بعدالة قضيتهم وخشيتهم على حريمهم واموالهم من بربرية الجيش الفارسي منحهم القوة والجلد وشدة البأس ودفعهم ذلك كله الى الاخلاص في البذل والتضحية لصد عادية ذلك الغازي المتعطش للدماء.

٢ – ان فشل نادرشاه في احتلال الموصل ، ونجاح أهل الموصل في الدفاع عن مدينتهم ، لم يكن ليعود الى جهود السلطة المركزية العثمانية ، بل الى جهود حكومة الموصل واهاليها انفسهم ، الذين وقفوا جنباً الى جنب خلف الوالي الكفوء حسين باشا الجليلي.

٣ – ان صمود الموصل بوجه الغزاة قد أدى الى عدول نادرشاه عن حصار بغداد نهائياً ،

وسحب قواته من المدن العراقية الاخرى ، وتراجعه عن مطاليبه التي اتخذها ذريعة للهجوم على العراق . وفي معاهدة ١٧٤٧ الموقعة بينه وبين الباب العالي وافق على التنازل عن الاراضي العراقية التي كان قد احتلها[(٨٩)] .

٤ - ويرى (اولسن)[(٩٠)] : ان فشل نادرشاه في احتلال الموصل انقذ الامبراطورية العثمانية من الانهيار العاجل ، ووفر لها فرصة الحياة لمدة قرنين آخرين . ومع ان هذا القول لايخلو من المبالغة ، الا انه فيما يخص العراق قد قضى على طموحات نادرشاه التوسعية تجاه هذا القطر ، فضلا عن حرمانه من الاندفاع في آسيا الصغرى ، واجهاض الامبراطورية الواسعة التي كان يحلم بها في منطقة الشرق الاوسط .

الهوامش

(١) علي شاكر علي ، تاريخ العراق في العهد العثماني : ١٦٣٨-١٧٥٠ دراسة في احواله السياسية (منشورات مكتبة ٣٠ تموز ، نينوى ، ١٩٨٥) ص ١٨٢ .

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، نقله الى العربية جعفر خياط (دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، ١٩٤٩) ص ١٣٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

(٦) ل . لوكهارت ، حملة مابين النهرين ، ترجمة عبد القادر التحافي ، **مجلة الرسالة الاسلامية** ، العدد ١٠٢ (اذار- نيسان ، ١٩٧٧) ص ٨٨ ، انظر ايضا الدكتور علاء نورس ، العراق في العهد العثماني : دراسة في العلاقات السياسية ١٧٠٠ - ١٨٠٠ (دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٩) ص ١٨٦ .

(٧) علي ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٨) ياسين بن خير الله العمري ، زبدة الاثار الجلية في الحوادث الارضية ، حققه وعلق عليه عماد عبد السلام رؤوف . (مطبعة الاداب ، النجف الاشرف ، ١٩٧٤) ، ص ٩١ .

(٩) ياسين العمري ، منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق ونشر سعيد الديوه جي (مطبعة الهدف ، الموصل ، ١٩٥٥) ، ص ٨٠ .

(١٠) عماد عبد السلام رؤوف ، الموصل في العهد العثماني : فترة الحكم المحلي ١٧٢٦ - ١٨٣٤ (مطبعة الاداب في النجف الاشرف ، ١٩٧٥) ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(١١) الموصل في القرن الثامن عشر ، عربها عن النص الايطالي القس روفائيل بيدوايد (المطبعة الشرقية في الموصل ، ط٢ ، ١٩٥٣) ص ٤٦ .

(١٢) كارستن نيبور ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه عن الالمانية الدكتور محمود حسين الأمين (شركة الجمهورية للنشر والطبع ، بغداد ، ١٩٦٥) ، ص ١١٢ .

(١٣) محمد أمين بن خير الله العمري ، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء ، حققه ونشره سعيد الديوه جي (مطبعة الجمهورية ، الموصل ، ١٩٦٧) ، ج١ ص ١٤٧ ، القس سليمان صائغ الموصلي ، تاريخ الموصل (المطبعة السلفية بمصر ، ١٩٢٣) ج ١ ص ٢٧٥ .

(١٤) العمري ، منهل الاولياء ، ج ١ ص ١٤٧ .

(١٥) الصائغ ، تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٧٧ .

(١٦) ديوان حسن عبد الباقي (١١٠٠ - ١١٥٧ هـ) ، حققه ونشره محمد صديق الجليلي (مطابع الجمهورية ، الموصل ، ١٩٦٦) ص ص ٤١ - ٤٢ ، انظر القصيدة ايضا في العمري ، منهل الاولياء ، ص ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(١٧) العمري ، منية الادباء ، ص ١٨ .

(١٨) د . عبد الامير محمد امين ، عرض لكتاب السيد روبرت و . أولسن ، حصار الموصل والعلاقات الفارسية العثمانية ١٧١٨ - ١٧٤٣ ، **دراسات** (الاردن) ، المجلد الرابع عشر ، العدد الرابع (١٩٨٧) ص ٢٣٤ .

(١٩) ل . لوكهارت ، حملة مابين النهرين ، ترجمة عبد القادر التحافي ، **مجلة الرسالة الاسلامية** ، العدد (١٠٣) ، السنة العاشرة (نيسان ، مايس ، ١٩٧٧) ، ص ٨٤ .

(٢٠) الصائغ - المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢١) رسول حاوي الكركوكلي ، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، نقله من التركية موسى كاظم نورس (بيروت ، د . ت) ص ٥٠ .

(٢٢) العمري ، منهل الاولياء ، ج ١ ص ١٥٠ ، العمري ، منية الادباء ، ص ١٨٠ .

(٢٣) المصدر نفسه ص ٨ .

(٢٤) القس حبش بن جمعة ، غزو طهماسب للعراق في وثيقة سريانية (مدونة عام ١٧٤٦) ، نشرها بهنام دانيال ، **مجلة بين النهرين** ، السنة العاشرة ، العدد ٣٧ - ٣٨ (١٩٨٢) ، ص ١٣٢ .

(٢٥) العمري ، منية الادباء ، ص ١٨٠ .

(٢٦) ياسين العمري ، زبدة الاثار الجلية ، ص ١٠٠ ، وتؤكد سالنامه ولاية الموصل لسنة ١٣٢٥ هذا الخبر ايضا بالصيغة نفسها . انظر : ملحق منية الادباء رقم (١١) ، ص ٢٧٣ .

(٢٧) الصائغ ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢٨) محمد ثريا ، سجل عثماني ، او تذكرة مشاهير العثمانيين (استنبول ، ١٣٠٨) ، ج ١ ص ٢٥٠ نقلا عن علاء موسى كاظم نورس ، حكم المماليك في العراق ١٧٥٠ - ١٨٣١ (دار



الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٥) ص ٢٢.

(٢٩) Robert W. olson. The siege of Mosul and ottoman– Persian relations 1718– 1743, (Indiana university) Blooming, 1975), p. 169, 180.

(٣٠) .Ibid, pp. 16,— 70.

(٣١) حملة مابين النهرين، **مجلة الرسالة الاسلامية**، العدد (١٠٢)، ص ٨٩.

(٣٢) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ٤٦.

(٣٣) نقلا عن

.Olson, Op. cit, p. 188

(٣٤) عبد الرحمن السويدي، حديقة الزوراء (مخطوط)، نشرها محمد بهجت الأثري في كتاب، ذرائع العصبيات المنصرية في أثارة الحروب وحملات نادرشاه على العراق في رواية شاهد عيان، (مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨١)، ص ٨١. ومما يذكر ان لونكريك يورد لنا معنى هذه الرسالة ايضا دون ان يشير الى مصدرها، حيث جاء فيها: «انا لاارغب في ضررك ولا في الاضرار ببغداد، انما انا منازع للسلطان، فسلم الي ولايتك، وسوف لاتندم على ذلك»، المصدر السابق، ص ١٤١.

(٣٥) حملة مابين النهرين، **مجلة الرسالة الاسلامية**، العدد (١٠٣) ص ٨٢.

(٣٦) نقلاً عن لوكهارت، المصدر السابق، ص ٨٢.

(٣٧) نقلاً عن لوكهارت، المصدر نفسه، **مجلة الرسالة الاسلامية**، العدد (١٠٢)، ص ٨٩.

(٣٨) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣٩) Quoted by olson, op. cit, p. 170.

(٤٠) انظر صورة من الرسالة في مخطوط محفوظ في مكتبة الدراسات العليا بكلية الاداب، جامعة بغداد تحت رقم (٤٤)، ونشرها مع رسالة الجواب سليمان صائغ في كتابه تاريخ الموصل، ج ١ ص ٢٨٠-٢٨٣،ونشر النص الاصلي الذي كتبه مفتي كركوك نفسه، عماد عبد السلام رؤوف ضمن ملاحق كتابه الموصل في العهد العثماني، ص ص ٥١١- ٥١٧.

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) سالنامه ولاية الموصل لسنة ١٣٢٥، ملحق منية الادباء رقم (١١)، ص ٢٧٤، العمري، منهل الاولياء، ج ١ ص ١٥١.

(٤٣) انظر نص الرسالة في رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٥١٥- ٥١٦، الصائغ، المصدر السابق، ص ٢٨٣.

(٤٤) المصدر السابق.

(٤٥) حسين باشا القازوقجي، التقرير الرسمي الذي رفعه المحافظ حسين باشا القازوقجي الى السلطان محمود الاول، ملحق منية الادباء،رقم (١٢)، ص ٢٧٩.

(٤٦) العمري، منهل الاولياء، ج ١ ص ١٥١: انظر نص الجواب ايضا في الصائغ، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٣.

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) سعيد الديوه جي، صمود الموصل امام غزو نادرشاه سنة ١١٥٦هـ، **المورد**، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث (١٩٨٦)، ص ٤٨.

(٤٩) العمري، منهل الاولياء، ج ١ ص ١٦٠، الصائغ، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٦.

(٥٠) العمري، منهل الاولياء، ج ١ ص ص ١٦٠- ١٦١، الصائغ، المصدر السابق، ج ١ ص ص ٢٨٦- ٢٨٧.

(٥١) عبد الجبار العمر، صفحات من الحروب العراقية – الايرانية: ملحمة الموصل، **آفاق عربية**، العدد ٦- ٨ (نيسان، ١٩٨١) ص ٣٧.

(٥٢) عبد القادر زينل التحافي، صمود الموصل والبصرة تجاه الغزو النادري ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣، مركز البحوث والمعلومات، ندوة الفكر العسكري العربي (بغداد، ١٩٨٦)، ص ١٦.

(٥٣) الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، معارك العراق ضد الغزاة، في كتاب الجيش والسلاح (بغداد، ١٩٨٨) ج ٥ ص ٣٥٧.

(٥٤) الموصل في القرن الثامن عشر، ص ١١.

(٥٥) نيبور، المصدر السابق ص ١١٦.

(٥٦) Quoted by: Olson, op. cit, p. 170.

(٥٧) .Olson, op. cit, p. 170.

(٥٨) العمري، منهل الاولياء، ج ١ ص ١٥١.

(٥٩) المصدر نفسه.

(٦٠) Olson, op. cit, p. 170.

(٦١) جمعة، المصدر السابق، ص ص ١٣٠- ١٣١.

(٦٢) العمري، منهل الاولياء، ج ١ ص ١٥٦.

(٦٣) التقرير الرسمي لحسين باشا القازوقجي، ص ص ٢٨٦- ٢٨٧.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

(٦٥) سالنامه ولاية الموصل سنة ١٣٢٥، ملحق منية الادباء رقم ١١، ص ٢٧٥.

(٦٦) الصائغ، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٨.

(٦٧) المصدر نفسه، ج ١ ص ٢٨٤.

(٦٨) نيبور، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٦٩) انظر تلك التقديرات في العمري، منهل الاولياء، ج ١ ص ١٥٥- ويقدرها فتح الله القادري بخمس واربعين الف قنبلة حيث يقول:

خمس واربعون الف قنبرة
من بعدها خمسون الف حجرة
بل مائتا الف من الطوف نعم
قد عده الحاسب هكذا رقم

(٧٠) رحلة نيبور، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٧١) القازوقجي، المصدر السابق، ص ٢٨٣، ومما يذكر ان نهر دجلة ينقسم الى شعبتين بعد قرية بعويزة، احدهما يشرب منها اهل الموصل وهي تجري من تحت قره سراي، وتستمر في واديها الحالي الذي تجري فيه، والثانية تجري تحت قرية القاضية ولم تزل اثار مجراها واضحاً.

(٧٢) المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٧٣) الصائغ، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٥.

(٧٤) للتفاصيل انظر جمعة، المصدر السابق، ص ١٣٦، العمري، منهل الاولياء، ج ١ ص ١٥٧- ١٥٨.

(٧٥) القازوقجي، المصدر السابق، ص ٢٨٨، الصائغ، المصدر السابق، ص ٢٨٦.

(٧٦) الموصل في القرن الثامن عشر، ص ٢٨٣.

(٧٧) القازوقجي، المصدر السابق، ص ٢٨٣.

(٧٨) رؤوف، المصدر السابق، ص ٣٢٤.



(٧٩) جمعة، المصدر السابق، ص ١٣٣.
(٨٠) المصدر نفسه.
(٨١) سالنامه ولاية الموصل لسنة ١٣٢٥، ملحق منية الادباء رقم (١١)، ص ٢٧٤؛ واورد العمري في كتابه، منهل الاولياء، ج ١ ص ١٥١، القول نفسه ايضا.
(٨٢) الموصل في القرن الثامن عشر، ص ٣٧.
(٨٣) نيبور، المصدر السابق، ص ١١٦.
(٨٤) المصدر السابق، ص ٢٨٣.
(٨٥) نقلا عن نبيل محمد سلمان، الشعر العراقي في النصف الاول من القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة بغداد، ١٩٨٤، ص ٢٦٦.
(٨٦) الموصل في القرن الثامن عشر، ص ص ١٠ – ١١.
(٨٧) نيبور، المصدر السابق، ص ١٠٨.
(٨٨) ارجوزة القادري، نقلاً عن سلمان، المصدر السابق، ص ص ٢٥٦ – ٢٥٧.
(٨٩) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ٥٠.
(٩٠) المصدر السابق، ص ٢٣٥.

الموصل وولاة بغداد من المماليك

(١١٣٩ – ١٢٤٩هـ ١٧٢٦ – ١٨٣٤م)

أ. د. علاء موسى كاظم نورس

إن ارتقاء المماليك السلطة في بغداد (١٧٥٠ – ١٨٣١)، يشكل أحدى الظواهر الرئيسة التي اتسمت بها الحقبة العثمانية في القرون المتأخرة، حيث إن الضعف الذي باتت عليه الدولة العثمانية وسلطتها في الولايات قد أحدث متغيرات سياسية عدة؛ كان أبرزها قيام حكومات محلية حققت الى حد كبير استقلالاً ادارياً وعسكرياً وأحياناً نفوذا سياسيا بمعزل عن السلطة المركزية.

وأن خصوصية الاحداث التي كان العراق يشهدها آنذاك قد أعطت لظاهرة المماليك أبعادا سياسية كانت الدولة العثمانية ترى فيها مايهدد ليس سلطتها الفعلية حسب، وانما احتمالات انحسار نفوذها تماما عن البلاد، وبخاصة وان قوى محلية أخرى كالجليليين والبابانيين كانت تمارس دورها بهذا الاتجاه.

ويمكن القول بأن قيام حكم المماليك في بغداد، وهي مركز الثقل السياسي والحضاري في العراق منذ العصور الوسطى الاسلامية، قد أعطى لنفوذهم السياسي اتساعاً في أجزاء متعددة من البلاد، وفي الوقت نفسه التطلع لتحقيق المزيد من الدور القيادي للولايات الاخرى[1] باتجاه شدها الى سلطتهم في بغداد. وهو شدّ كان المماليك يجهدون في سبيل تحقيقه بشكل أو آخر، لان فيه مايعينهم على مواجهة المعضلات التي حَفِل بها عهدهم. وهي في مجملها كانت تمثل أزمة حكم المماليك في العراق.

ولعل من أكثر المُعضلات خطورة وتعقيداً ذلك الصراع داخل السلطة نفسها، وتفاقم الحركات العشائرية، وتدخل ايران في الشؤون الداخلية وبخاصة في المنطقة الشمالية واستخدامها القوة المسلحة لانتزاع أجزاء من أرض العراق[2].

لقد مارست الموصل دوراً فاعلاً في معالجة ومجابهة تلك المعضلات، سواء بالاسهام في الفعل العسكري أم السياسي، وكانت آنذاك تحت سلطة الاسرة الجليلية العربية التي ابتدأ حكمها سنة ١٧٢٦م. والواقع أن ظهور هذه الأسرة على المسرح السياسي، يعد أحد أبرز التطورات المهمة التي شهدها العراق في العصر الحديث، لما تميز به عهد الجليليين الذي دام أكثر من قرن وامتد من ١٧٢٦ حتى ١٨٣٤ من تأكيد للشخصية العربية وتبريزاً لها، الى جانب التأثير الكبير ليس في مجرى الاحداث السياسية حسب، وانما في خلق أنشطة حضارية عدة أُسهمت في ارتقاء الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعمرانية.[3]



إن تطلع المماليك للموصل يمثل في جانب منه إدراكاً للأهمية السوقية التي تتميز بها هذه المنطقة، كما يعد استمراراً لذات المسار الذي دأبت جميع القوى التي تسلمت السلطة في بغداد على السعي لتحقيقه، اذ ترى فيه مايوفر لها وضعاً سوقياً دفاعياً مهماً سواء في ما يتصل بأخطار خارجية أم حركات تقوم بها قوى محلية. ذلك ان موقع الموصل يشكل مفتاح العراق الشمالي باعتباره عقدة المواصلات التجارية والعسكرية في المنطقة. هذا فضلاً عن تحكمه بحوض نهر دجلة واقليم الجزيرة.

ومن هنا فقد اتخذ العثمانيون من الموصل قاعدة لتخليص العراق بأكمله من الوجود الصفوي الايراني، ثم استخدامها خط دفاع ثانياً (بعد بغداد)، في مواجهة أي توسع ايراني صوب العراق، من المنفذ الشرقي الرئيسي عند بغداد، وللتحكم في طريق بغداد - أربيل الحيوي، وهو الطريق الذي سلكته جيوش الصفويين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ومن بعدهم جيوش نادرشاه خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر.[٤]

وفي الوقت نفسه، فأن الموقع السوقي المهمّ للموصل قد وضعها أزاء أعباء ومسؤوليات كبيرة، كانت في جانب منها تتعلق بالحفاظ على كيانها الذاتي، وهذا ماحفل به عهد المماليك في العراق بخاصة. كما أن تميز الأسرة الجليلية بقدرات عالية من الكفاءة في الحكم، وبروز عدد من رجالها قادة عسكريين لامعين، قد جعل الدولة المركزية نفسها فضلاً عن المماليك يحرصون على اشراكهم في معالجة مايواجهونه من معضلات، واناطة ولايات مهمة اليهم.

وكانت الموصل قد مارست دوراً كبيراً في مواجهة الاخطار الايرانية، حيث شاركت مشاركة فاعلة في الحرب العثمانية - الايرانية سنة ١٧٢٣م.[٥] كما أسهمت في التصدي للغزوات الايرانية التي شهدها العراق خلال الفترة (١٧٣٢ - ١٧٤٣)، والتي اتخذت ابعاداً خطيرة بسبب محاولات نادر شاه المتكررة لاحتلال أجزاء مهمة من الأرض العراقية. ولقد واجهت الموصل تحت زعامة واليها حسين باشا الجليلي، بشجاعة منقطعة النظير، عدواناً ايرانياً واسع النطاق سنة ١٧٤٣م، وكان لصمودها الرائع الاثر الكبير في دحر العدوان وافشال مخططات ايران التوسعية.[٦] مما أدى الى تعزيز مكانة آل الجليلي وازدياد أهميتهم لدى الدولة العثمانية، باعتبارهم أبطال الصمود، فأسندت اليهم حكم ولايات مهمة عدة، كانت تعاني من ضغط ايراني توسعي، أو من إضطرابات داخلية، هي البصرة وأدنة وقارص وكوتاهيه وسيواس وحلب.[٧]

أن الموصل التي شاطرت بغداد مجد الدفاع عن العراق ضد الاطماع الايرانية، وحفظت لنفسها مكانةً وتأريخاً تميزت به بين مدن العراق الاخرى قد ازداد دورها اتساعاً في عهد المماليك، اذ أملت الأوضاع غير المستقرة التي كانت تسود البلاد في تلك الحقبة، على الولاة المماليك، أن يستعينوا بالامكانات الكبيرة الموجودة لدى الموصل في أي مجهود عسكري يقومون به، وبخاصة وأنهم كانوا في الاساس يمارسون ضغطاً ملحوظاً على الموصل لتنضوي تحت جناحهم مثلما انضوت شهرزور والبصرة من قبل.[٨]

لقد أسهمت قوات الموصل في معظم العمليات العسكرية التي كان المماليك يلجأون اليها لمواجهة التمردات التي تشهدها المنطقة الشمالية بين حين وآخر، حيث كانت ايران تتدخل تدخلاً مباشراً وبالقوة المسلحة في جعل المنطقة ميدان صراع لايهدأ لفرض نوع من الهيمنة السياسية عليها. ففي سنة ١٧٥٠م، جرد والي بغداد سليمان باشا أبي ليله حملة عسكرية على المنطقة، ساعدته فيها قوات الموصل وعاضدته في القيام بأعبائها وبعد



سنين ثلاث استعان أبو ليله بقوات الموصل أيضاً عندما قاد حملة عسكرية واسعة النطاق على بعض المتمردين في جبل سنجار، وأعانه أمين باشا الجليلي بخبرته واخلاصه.[٩]

كما أن الدولة العثمانية، وقد اختبرت كفاءة الولاة الجليليين، دأبت على تكليفهم بالمشاركة في حروبها الاوربية[١٠]، بل وعهدت اليهم، حين قررت معالجة ماتواجهه من مشكلات في الشرق وبخاصة في العراق، تنفيذ ماسمي «بالخطة الاصلاحية الشاملة لنظام الشرق والعراق».[١١]

وكانت الدولة العثمانية تواجه تطورات سياسية وحربية خطيرة في الساحة الاوربية وفي أجزاء من الوطن العربي، فقد خرجت من حرب خاسرة مع روسيا وتم التوقيع على معاهدة كوجك كينارجي المذلة (١٧٧٤)، وفي الشام كانت انتصارات علي بك الكبير حاكم مصر، وظاهر العمر في فلسطين، والعراق يواجه عدواناً ايرانياً يستهدف غزو البصرة (١٧٧٥).[١٢] يقول لونكريك: ان سنة ١٧٧٤ قد حلت على حاكم بغداد المملوكي عمر باشا وهو مصادف «أملاً» خائباً كان يعلقه بمساعدة السلطان له، وجاراً «ايرانياً» يلح في أحداث الاشتباك الحربي. وكان كل يوم يأتي بالتضرعات من البصرة المهددة، وبأنواع الاحاديث عن تعديات الايرانيين في شهرزور وتدخلهم بخلع هذا الحاكم البابائي أو ذاك.[١٣]

وحين اشتد الموقف في العراق على أثر تحقق الغزو الايراني للبصرة سنة ١٧٧٦[١٤] حاولت الدولة العثمانية ان تواجه ماحدث باتخاذ قرار يقضي بالتخلص من حكم المماليك واعادة العراق الى حكمها المباشر، وهو قرار يعبر في حقيقة الأمر عن عجزها في تلك الفترة من الدخول في حرب مع ايران حيث كانت لاتزال تجاهد في الوقوف على قدميها أمام جيوش قيصرة روسيا (كاترين الثانية). ولذا وجدت خيارها في معالجة الموقف في العراق بالقاء تبعة ماحدث على عاتق الحاكم المملوكي، وبخاصة وأنها كانت تسعى جدياً لاعادة سيطرتها المباشرة على العراق، وتعمد كلما سنحت الفرصة الى محاولة تحقيق هدفها هذا.[١٥]

ومرة أخرى، يبرز دور الموصل في مواجهة معضلة خطيرة، حيث كلف الباب العالي حاكمها أمين باشا الجليلي مع القادة العثمانيين الآخرين (والي الرقة ووالي ديار بكر)، لقيادة حملة عسكرية الى بغداد.[١٦]

وكانت بغداد تترقب عوناً «من الدولة العثمانية لمواجهة العدوان الايراني الذي تتعرض له البصرة. ولذا أعلن والي بغداد عمر باشا بأن وصول قوات لردع العدوان بات وشيكاً».[١٧] ولم يكن يتوقع أن قدومها سيؤدي الى الاطاحة به.

وحين بدأت القوات بالوصول الى بغداد، وكانت تقدر بثمانية آلاف جندي، قوي الامل بانقاذ البصرة من الغزو الايراني[١٨]، وبخاصة وأن الهدف الذي أعلنه قادتها هو القيام بتلك المهمة.[١٩]

بيد أن الاحداث سرعان ماتطورت باتجاه آخر، حيث عزل عمر باشا استنادا الى فرمان سلطاني أمتثل اليه الوالي المملوكي بعد أن أدرك أن الهدف الذي قدمت من أجله القوات العثمانية لايخرج عن تنفيذ مانص عليه الفرمان بالقوة المسلحة. ونص فرمان سلطاني آخر على تعيين والي الموصل أمين باشا الجليلي، والياً على بغداد والبصرة، وولده سليمان باشا والياً على الموصل وشهرزور،[٢٠] وتلك مهمتهم عند الازمات.

وتزاحمت الاقدار على بغداد، حيث توفي الباشا الجليلي قبل مباشرته مهام منصبه، وتعاقب على حكمها ولاة غير مقتدرين جعلها تنوء بخمس سنين من الفوضى وعدم الاستقرار.[٢١]

وفي سنة ١٧٨٠ بدت الاوضاع السياسية في العراق بعامة، تشهد شيئاً من الاستقرار، فالعدوان



الايراني انحسر عن البصرة (١٧٧٩)، والباب العالي أدرك قصور سياسته في معالجة تلك الاوضاع، فتخلى عن فكرة القضاء على الحكم المملوكي [٢٢]، وأعلن العزم على اعادة توحيد الولايات العراقية الثلاث، بغداد والبصرة وشهرزور، تحت حكم قوي موثوق ليكون مقبولاً ومؤثراً[٢٣]. ولذا كان اختياره لوالي البصرة وبطل صمودها عند الغزو الايراني، سليمان باشا [٢٤]، للمنصب المذكور، وصدر الفرمان بتعيينه في ربيع ١٧٨٠ [٢٥]. وطلب السلطان من والي الموصل سليمان الجليلي تدبير شؤون الحكم في بغداد لحين وصول الوالي الجديد، حيث كان قد أعيد لتولي ولاية البصرة سنة ١٧٧٩ [٢٦].

وفي عهد سليمان باشا الكبير (١٧٨٠-١٨٠٢)، وحيث عادت بغداد الى تأكيد نفوذها على أجزاء واسعة من البلاد يبرز دور الموصل مرة أخرى في تحقيق هذا الاتجاه. فلقد أسهمت اسهاماً رئيساً في فرض سلطة بغداد على مناطق من اقليم الجزيرة كماردين ونصيبين[٢٧]. وشاركت قواتها في عمليات عسكرية كانت تشهدها المنطقة الشمالية[٢٨]. كما أن سليمان باشا كان يجد في امكانات الموصل مايعينه على مواجهة الازمات التي حفل به عهده[٢٩].

ولقد استمرت الموصل تقوم بدورها المهم هذا في شؤون العراق عامة، خلال فترات حكم الولاة المماليك الذين تعاقبوا على السلطة من بعده، وبخاصة في عهدي علي باشا [٣٠] وسليمان باشا الصغير [٣١]. ثم شاءت الاقدار أن تكون نهاية حكم المماليك في بغداد [٣٢] سنة ١٨٣١، ونهاية حكم الجليليين في الموصل سنة ١٨٣٤.

الهوامش

(١) امتد حكم المماليك المباشر الى ولاية شهرزور وولاية البصرة ومنطقة ماردين، فضلا عن بغداد نفسها، وبذلك فقد كانت سلطتهم تشمل معظم انحاء العراق الحالي، وجزءا من الجزيرة. كما أنهم مارسوا إشرافا غير مباشر على مناطق أخرى، أهمها امارة بهدينان التي يشمل حكمها العمادية وزاخو وعقرة، وكانت هذه الامارة تحكمها أسرة عباسية وراثية تنتمي نسبا الى أحد أحفاد الخليفة المستعصم العباسي، يدعى بهاء الدين فنسبت اليه، وعرفت بالبهدينانية وبعد أن كان الاشراف على شؤون الامارة يأتي مباشرة من الدولة العثمانية المركزية، تولى ولاة بغداد هذه المهمة منذ مفتتح القرن الثامن عشر، فأصبحت ولاية بغداد هي المسؤولة عن اقرار تولي أمراء هذه الاسرة الحكم. وشبيه بهذا الوضع ماكانت عليه الامارة البابانية في مناطق كوي وحرير وقلاجولان، فقد تولى ولاة المماليك مهمة الاشراف على شؤون هذه الامارة الوراثية، وتدخلوا في تعيين أمرائها وعزلهم. أما ولاية الموصل فقد كانت تحتفظ بحكم خاص بتولاه ولاة ينتمون الى الأسرة الجليلية العربية منذ أن تولى أول ولاتهم اسماعيل باشا الجليلي الحكم سنة ١٧٢٦م واستمر حكم هذه الاسرة لغاية سنة ١٨٣٤م؛ أنظر: علاء نورس وعماد عبد السلام رؤوف، عهد المماليك والأسر الحاكمة بحث ضمن كتاب "العراق في التأريخ"، بغداد ١٩٨٣، ص ٦١٠-٦١١.

(٢) للتفاصيل، أنظر: علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق ١٧٥٠ - ١٨٣١، بغداد ١٩٧٥.

(٣) أنظر: عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني، النجف الاشرف ١٩٧٥.

(٤) رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٩٤ و ١٢٣.

(٥) سليمان فائق، حروب الايرانيين، مخطوط، ورقة ٩؛ لونكريك، أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث، نقله الى العربية جعفر الخياط، ط ٤، بغداد ١٩٦٨، ص ١٦٢.

(٦) أنظر: علاء موسى كاظم نورس، العراق في العهد العثماني (دراسة في العلاقات السياسية)، بغداد ١٩٧٩، ص ١٨٩-١٩٤

(٧) رؤوف، المصدر السابق، ص ١١٤.

(٨) نورس، حكم المماليك في العراق، ١٧٦؛ عبد العزيز نوار، داود باشا والي بغداد، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٤٣.

(٩) محمد أمين العمري، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، حققه ونشره سعيد الديوه جي، الموصل ١٩٦٧، ص ١٦٧؛ لونكريك، المصدر السابق، ص ٢١١.

(١٠) لعل من أبرز العمليات العسكرية الكبرى التي شارك فيها الوالي الجليلي تلك التي دارت في أوربا الشرقية سنة ١٧٦٩، حيث كانت الحرب قد أعلنت بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية.

(١١) رؤوف، المصدر السابق، ص ١١٥، ١١٧.

(١٢) نوار، المصدر السابق، ص ٣٠، ٣٢؛ نورس، حكم المماليك في العراق، ص ٣٦.

(١٣) أنظر: أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث، ص ٢١٧.

(١٤) للتفاصيل، أنظر: علاء موسى كاظم نورس، السياسة الايرانية في الخليج العربي أبان عهد كريم خان ١٧٥٧ - ١٧٧٩ وهو من اصدارات معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، بغداد ١٩٨٣.



(١٥) أنظر: نورس، حكم المماليك في العراق، ص ٣٦- ٣٧، ٢٤٩؛ نوار، المصدر السابق، ص ٣١- ٣٢؛ لونكريك، ص ٢١٨.

(١٦) رؤوف، المصدر السابق، ص ١١٧- ١١٨.

(١٧) رسول حاوي الكركوكلي، دوحة الوزراء في تأريخ وقائع بغداد الزوراء، ترجمة موسى كاظم نورس، بيروت ١٩٦٣، ص ١٥٢.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(١٩) رؤوف، المصدر السابق، ص ١٣٣؛ عباس العزاوي، العراق بين احتلالين، جـ ٦، ص ٥٤.

(٢٠) دوحة الوزراء، ص ١٥٣.

(٢١) للتفاصيل، أنظر: علاء نورس، حكم المماليك في العراق، ص ص ٣٧- ٤٥؛ دوحة الوزراء، ص ص ١٥٣- ١٧١؛ لونكريك، ص ٢١٧، ٢١٩- ٢٢٤.

(٢٢) نوار، المصدر السابق، ص ٣٢.

(٢٣) لونكريك، المصدر السابق، ص ٢٢٣- ٢٢٤ وأنظر النص الانكليزي، ص ١٨٦.

(٢٤) شغل سليمان باشا وهو من المماليك ولاية البصرة لاول مرة سنة ١٧٦٥، وعزل بعد ثلاث سنوات من حكمه لها، ثم أعيد في نهاية سنة ١٧٦٨، وبقي يشغل هذا المنصب لمدة عام تقريبا، حيث عزل مرة أخرى، وأعيد سنة ١٧٧١ ولغاية الغزو الايراني (١٧٧٦)، أنظر: علاء نورس، العراق في العهد العثماني، هامش ص ٢٥٠

(٢٥) نورس، حكم المماليك في العراق، ص ٤٥.

(٢٦) دوحة الوزراء، ص ١٧٠- ١٧١؛ لونكريك، ص ٢٢٤؛ رؤوف المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٢٧) ياسين العمري، غرائب الاثر في حوادث القرن الثالث عشر، الموصل ١٩٤٠، ص ٢٣- ٢٤؛ رؤوف، المصدر السابق، ص ١٣٨، ويقول لونكريك (ص ٢٥٢)، كان ادخال ماردين ضمن باشوية بغداد منذ قرون ثلاثة قد جاء معه اليها بمشاكل الجزيرة الشمالية.

(٢٨) لونكريك، ص ٢٤٩.

(٢٩) للتفاصيل، أنظر: المصدر نفسه، ص ص ٢٣٩- ٢٥٤.

(٣٠) تولى الحكم سنة ١٨٠٢ ولغاية اغتياله في آب سنة ١٨٠٧.

(٣١) تولى الحكم سنة ١٨٠٨ ولغاية الاطاحة به ثم اغتياله في تشرين الاول سنة ١٨١٠.

(٣٢) للتفاصيل عن العوامل التي أدت الى انتهاء حكم المماليك وعودة الحكم العثماني المباشر، أنظر: علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق، الفصل الخامس ص ص ٢٤٩- ٢٧٠

الموصل من نهاية الحكم الجليلي الى الادارة المباشرة

(١٢٤٩- ١٢٨٦هـ ١٨٣٤- ١٨٦٩م)

د. سيّار كوكب علي الجميل

مقدمة:

تكتسب هذه الفترة التاريخية الحرجة من تاريخ الموصل الحديث خلال القرن التاسع عشر ١٨٣٤- ١٨٦٩م أهمية بارزة من نواح متعددة، ذلك انها اعقبت الحكم الجليلي للموصل الذي استمر اكثر من قرن كامل ١٧٢٦- ١٨٣٤م تمتعت الموصل خلاله بشخصيتها المحلية والاقليمية وباسلوب حكم الادارة اللامركزية. وقد رافقت المرحلة التالية من حكم الادارة العثمانية- المركزية جملة من الاصلاحات وتأثير التنظيمات العثمانية ابّان عهد السلطان محمود الثاني ١٨٠٨- ١٨٣٩م، وعهد عبدالمجيد الاول ١٨٣٩- ١٨٦١م، وعهد عبدالعزيز الاول ١٨٦١- ١٨٧٦م، فحدثت تغيرات واضحة في طبيعة الحكم العثماني، وتبدل كبير في شخصية الولاة انفسهم وأدوات الحكم وأساليبه.

لقد اتخذ تاريخ العراق خلال القرن التاسع عشر مساراً جديداً بعد ان تألبّ عليه علي رضا باشا اللاز الذي اعقب داود باشا في حكم بغداد عام ١٨٣١م، إذ كان العراق معرضاً لتنفيذ خطط جديدة لعلاقات سياسية جديدة على ايدي البعض من زعمائه امثال: يحيى باشا الجليلي والي الموصل، ومحمد باشا ميركور حاكم راوندوز، والشيخ صفوك شيخ مشايخ شمّر الذين كانوا على اتصال مع ابراهيم باشا حاكم بلاد الشام وقائد الجيش المصري فيها[1] ... وكانت تحركاتهم الواسعة النطاق والتي حدثت بين اطراف عديدة على حساب



السلطة العثمانية، مدعاة اساسية لأن تستعجل الدولة فرض هيمنتها على بغداد، ثم القضاء على ما تبقّى من حكومات اقليمية وما رافقها من الفوضى السياسية. وتبدأ بتنصيب الولاة الأتراك الأشدّاء، فكان اللاز من نصيب بغداد، وكان البيرقدار من نصيب الموصل.. وقد اشترك كلاهما في فرض هيبة الدولة العثمانية في ارجاء العراق[2].

ولعل ما يلفت النظر، صعوبة البحث في هذا الموضوع الشائك بسبب قلّة المصادر التاريخية، بل وندرة المعلومات حتى الأساسية منها في تاريخ الموصل خلال المرحلة المعنية ١٨٣٤ - ١٨٦٩م. وقد كان هذا «الموضوع» ولم يزل بحاجة الى المزيد من الدراسات والتقصّي للكشف عن معلومات جديدة سواء كانت وثائقية رسمية ام تاريخية مخطوطة... وخاصة عن عهود الولاة الاتراك الذين حكموا الموصل خلال القرن التاسع عشر.. اذ ان المعلومات التي كتبها المؤرخ سليمان صايغ في **تأريخه للموصل** (في جزئيه الاول والثاني)[3] لا تفي بالغرض العلمي أبداً، على الرغم من اعتمادنا عليها اعتماداً كبيراً... ناهيك عمّا يحتاجه المؤرخ من ترجمات لكتب ومذكرات وتقارير كتبها رحّالة وآثاريون وسفراء وقناصل ومبشرون وعلماء.. لم تزل أعمالهم غير معروفة بالعربية حتى يومنا هذا[4].. وخاصة عندما نعلم بأن اول قنصل بريطاني تم تعيينه في الموصل هو كريستيان رسام في ٣١ كانون الأول سنة ١٨٣٩ والذي توفي سنة ١٨٧٢م[5]، وأعقبه عدد من القناصل الآخرين[6]. وفي سنة ١٨٤٢م وبعد افتتاح القنصلية الفرنسية في الموصل، ارسلت فرنسا لها العالم الاثاري الشهير پول بوتا[7] الذي ساهم مساهمة بارزة في استكشاف مدينة نينوى القديمة. وبعد اربعين سنة وجدت روسيا ان من الأهمية تعيين قنصلاً لها في العراق، فبادرت سنة ١٨٨٣ بتعيين قنصلٍ لها في الموصل، واستمر توافد القناصل الروس الى الموصل حتى سنة ١٩٠٨[8]. وكانت تلك القنصليات الثلاث: الانكليزية والفرنسية والروسية في الموصل، تقيم في احياء تقع في قلب المدينة، وفيها تعقد المجالس، وعنها تنتشر الأخبار والاشاعات والآراء السياسية في المدينة. وفي مطلع القرن العشرين تم تأسيس القنصلية الألمانية في الموصل سنة ١٩٠٥م.. كما وتسابقت كل من ايطاليا والنمسا وامريكا في ارسال وكلاء وقناصل لهم الى الموصل[9].

ولابد لنا ان نتساءل عن هذا التسابق الدولي نحو الموصل خلال القرن التاسع عشر.. كما وعلينا بفحص مختلف الوثائق الدولية وخصوصاً الانكليزية والفرنسية عن اوضاع الموصل التاريخية ابّان تلك المرحلة الخطيرة من حياة العراق سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

الاصلاحات العثمانية: المراحل والتحولات

لقد اختلفت أوضاع الدولة العثمانية كثيراً بين الذي كانت عليه خلال القرن الثامن عشر، والذي آلت إليه خلال القرن التاسع عشر، وخصوصاً بعد مجيْ السلطان محمود الثاني الى السلطة عام ١٨٠٨م، فكان لابد أن تتأثر الولايات العثمانية بما كان يجري في العاصمة اسطنبول من تحولات سياسية واقتصادية، وبخاصة محاولات أرجاع السيطرة الادارية المركزية، والقضاء على الحكومات الاقليمية اللامركزية، والابنية القبلية/ العشائرية التي انتشرت في تلك الولايات على امتداد القرن الثامن عشر... ولاسيما في الولايات الاستراتيجية المهمة المتوزعة في مناطق جد حساسّة في الجغرافية - السياسية العثمانية. ويبدو ان للسياسة التي اتبعها والي مصر محمد علي باشا تأثير بالغ في احداث تلك التحولات العثمانية، وخاصة من الناحية الادارية[10].

لقد ارتبطت تلك «التحولات» بالاصلاحات العثمانية التي شهدت الدولة اولى



تطبيقاتها الفعلية على عهد السلطان سليم الثالث ١٧٨٩ - ١٨٠٧م ، والذي يعّد الاب الحقيقي للتحديث العثماني. وهو الذي نجح في إنشاء مؤسسات عسكرية ومدارس ومعاهد فنية ، ولكن دفع اخيراً حياته ثمناً لتطبيق مبادئه الاصلاحية في مواجهة الفئات الرجعية ، وعلى رأسها القوى الانكشارية. ويعّد عهد محمود الثاني ١٨٠٨ - ١٨٣٩م ، امتداداً حقيقياً لتطبيق المبادئ الاساسية في الاصلاحية العثمانية التي ارتكزت على اسس جديدة... فقد نجح محمود الثاني في القضاء على الانكشارية عام ١٨٢٦م ، وألغى الاقطاعات العسكرية ؛ وشكّل جيشاً جديداً انتشرت وحداته وفيالقه على الولايات الاساسية في الدولة. ليساعد في اخضاعها للادارة المركزية ، وقد نجح فعلاً في القضاء بصورة مباشرة او غير مباشرة على الاسر والحكومات الاقليمية في العراق وغيره(١١).

هكذا عدت تلك الاجراءات بمثابة مرتكزات اساسية للتطبيقات الاصلاحية التي سيشهدها عهد السلطان عبدالمجيد الاول ١٨٣٩ - ١٨٦١م ، والتي دعيت بـ «التنظيمات الخيرية» والتي شملت اصلاحات متعددة من النظم الادارية وأساليب العلاقة السياسية ، ومعالجات للاوضاع الاجتماعية والقومية والعرقية ، وتنظيم قانون الضريبة وشؤون الخدمة العسكرية.. ثم إعتنت مراسيم اخرى بحقوق الرعايا الدينية والعرقية ، والتي تجّسدت فيما بعد على عهد السلطان عبدالحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٩ الذي أعلن «الدستور العثماني» لتوفير المبادئ الحرة والعمل على فصل السلطات ، ولكن على الرغم من إلغاء السلطان العمل بالدستور، الا أننا يمكننا تقسيم عهد الاصلاحات العثمانية الذي استغرق قرناً كاملاً ١٨٠٨ - ١٩٠٨ الى مرحلتين :

١ - مرحلة الاصلاحات والتنظيمات.

٢ - مرحلة الدستور (المشروطية)(١٢).

الموصل والتحولات من الاقليمية اللامركزية نحو حكم الادارة المركزية :

يعد جميع ماوقع في ولاية الموصل خلال القرن التاسع عشر جزءاً اساسياً من حالة تطبيق ماسبق ذكره من تحولات في الدولة وما طرأ فيها من تغييرات. وعلى الرغم من حدة التطورات التي شهدتها العاصمة اسطنبول ، الاّ ان العراق بقي بعيداً عنها وعن مؤثراتها. الا ماسيشهده من بطء في التطبيق والممارسة ماعدا التجربة المتأخرة التي سيثيرها الوالي مدحت باشا ١٨٦٩ - ١٨٧٢م في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخاصة من ولاية بغداد.

لقد اختلف الوضع بالنسبة لولاية الموصل التي عايشت بضعة بوادر اصلاحية عثمانية رسمية ، وعلى يد أشهر والٍ تركي حكم الموصل خلال القرن المذكور، الا وهو محمد باشا اينجة البيرقدار الذي حكم الموصل للفترة ١٨٣٣ - ١٨٤٣م بعد القضاء على الحكم المحلي ، وبالضبط بعد العهد المضطرب لمحمد سعيد باشا آل ياسين المفتي الذي عزل سنة ١٨٣٥ ، فبدأت صفحة تاريخية جديدة تمثّلها الادارة العثمانية المركزية ، وذلك قبل صدور « خطي شريف كولخانه » سنة ١٨٣٩م. ويبدو ان ذلك كله قد جاء اثر قرار سلطاني اتخذه السلطان محمود الثاني ليس بالنسبة لولاية الموصل حسب ، بل لولايات أخرى كبغداد وطرابلس الغرب وحلب ودمشق وغيرها من ولايات الدولة العثمانية.

كان تنصيب محمد باشا اينجة البيرقدار امراً محتماً بالنسبة لولاية الموصل التي عاشت اضطرابات سياسية واجتماعية داخلية واسعة في داخل مدينة الموصل ، فضلاً عما كان يسود عموم اراضي الولاية من اضطرابات اقليمية خلال عهد محمود الثاني ، فهناك في بلاد الشام غرب الموصل تحركات ابراهيم باشا المصرية الخطيرة.. وهناك في امارة راوندوز شرق الموصل تتفاعل توسعات



حاكمها محمد باشا ميركور، اما في شمالها، فكانت تهديدات البهدينانيين لاتتوقف سياسياً او اقتصادياً منذ عهد الحاج حسين باشا الجليلي. نستنتج أن الفوضى السياسية التي عاشها العهد المحلي الاخير للموصل قد لحقها المزيد من المخاطر التي كان محمد سعيد باشا آل ياسين عاجزاً في :

١ - السيطرة الادارية على اوضاع المدينة الداخلية التي عاشت انقسامات اسرية وصراعات اجتماعية على السلطة.

٢ - القضاء على الاضطرابات الاقليمية، ودرء المخاطر في الحفاظ على الجوانب الامنية العثمانية للولاية قاطبة.

وهكذا فأن المرحلة الجديدة شهدت بعد نهاية العهد المحلي عام ١٨٣٤م :

١ - نهاية حكم الامارة السورانية في راوندوز عام ١٨٣٦م.

٢ - سقوط الامارة البهدينانية في العمادية عام ١٨٤٢م.

٣ - سقوط الامارة البابانية في السليمانية عام ١٨٥٠م[١٣].

حكم محمد باشا اينجه البيرقدار للموصل ١٨٣٣ - ١٨٤٣م : -

يعدّ محمد باشا اينجه البيرقدار رجلاً ادارياً (بيروقراطياً) تركياً قوياً، وكانت له تجاربه العسكرية العثمانية في كل من مصر وبلاد الشام وكركوك اخيراً قبل ان ينصّب والياً على الموصل. يقول المؤرخ سليمان صائغ : «كان محمد باشا (اينجة البيرقدار) تركي الاصل من مدينة بارطين في ولاية قسطموني. وكان قد خدم في السلك العسكري في مصر وغيرها.. ثم رحل الى الشام حيث مكث مدة طويلة حتى جمع له عدداً من التابعين والمناصرين فشخص بهم الى ديار بكر ثم الى الموصل. ونزل بظاهرها قريباً من باب سنجار، فخرج عليه الاهالي وطردوه عن الحدود. ولما أنتهى خبره الى والي بغداد أرسل فاستقدمه اليه سنة ١٨٣٣م/ ١٢٤٩هـ، وولاه متصرفية كركوك حيث بقي زهاء سنتين وشيّد فيها قصراً منيفاً لدار الحكومة على نهر شاطرلي»[١٤].

معنى هذا أن للبيرقدار سابق معرفة - من خلال ادارة كركوك - بالموصل، وان ردّ فعله كان قوياً ضد أبناء الموصل عندما تسنّىٰ له ان يحكمها بعد ان اعلنت عن عدم ترحيبها له، فضلاً عن الصلاحيات التي زوّدته أياها الدولة لفرض النظام الاداري المركزي الجديد.. كما ان له قدرة في فهم الاوضاع السياسية وقد اثبت ذلك في فرض مقدرته الادارية على مدى السنوات التي حكم خلالها الموصل إبّان السنوات الاخيرة من عهد محمود الثاني ومطلع عهد عبدالمجيد الاول، وهي فترة خطيرة جداً في حياة الدولة العثمانية. ويعود الفضل في تنصيبه لوالي بغداد علي رضا باشا اللاز، فدخل البيرقدار مدينة الموصل ليتسلّم ادارته الجديدة وهو يقود ثلاث كتائب من القوات النظامية وحوالي ثلاثمائة من قوات الخيالة.[١٥] وهكذا استندت مهمته المركزية في فرض الأمن والسيطرة على الاوضاع الداخلية في الموصل، وجعلها قاعدة انطلاق لضرب القوات المصرية غرباً، واخضاع الامارات الكردية شمالاً وشرقاً.

١ - طبيعة العلاقات الاقليمية :

١/١ امارة بهدينان: وهي امارة اتخذت العمادية عاصمة لها. وكانت في حالة صراع مع الجليليين لأسباب اقليمية واقتصادية من أبرزها النفوذ على منطقة الشيخان التي ينتشر فيها اليزيدية[١٦]. وقد ازدادت حدة الصراع الاقليمي بين مركز الموصل وتابع العمادية إبّان ضعف الدولة العثمانية فازدادت الفوضى كثيراً، وعمّ الاضطراب الاقتصادي بسبب تقطّع المواصلات[١٧] .. ناهيك عما كان



لولاة بغداد من تأثير سياسي واضح في تأجيج حدة المواقف آنذاك في المنطقة.

ويبدو للمؤرخ أن الدولة العثمانية كانت تراقب عن كثب الاوضاع الخطيرة في شمال العراق، وتركت الصراع الاهلي والتطاحن القبلي بين الامراء الاكراد يصل الى أعلى درجاته باستيلاء بعضهم على ممتلكات البعض الآخر، وتأليب قبائل ضد اخرى. فكان ان اعدّت خطة عسكرية للقضاء عليهم لاسيما وانهم يمثلون خطراً ليس على ولاية الموصل وأقاليم العراق، بل على مصالح الدولة العليا وخاصة ازاء ايران في الشرق. فكان ان نصّبت في قيادة الحملة محمد رشيد باشا الصدر الاعظم السابق والي سيواس (قائداً اعلى) سر عسكر جيوش الشرق برفقة المشير عثمان باشا والقائد حافظ محمد باشا، وكلاهما يمتلك تجارب حربية في المنطقة، فاندفعت القوات العثمانية لكي تحسم استفحال شأن محمد باشا ميركور الراوندوزي اساساً الذي لم يكن يمثل في امتداداته العسكرية غزواً عادياً عرفه الامراء الاقطاعيون كالبهدينانيين مثلاً[١٨].

٢/١. امارة سوران: وهي امارة اتخذت من راوندوز قلعة كبرى لتوسعها الاقليمي أثر تشكلها نتيجة للضعف السياسي الذي لحق بمقدرات الدولة العثمانية، فقد غدت راوندوز، وهي قلعة استراتيجية في شمال العراق[١٩]، امتلكت قوة فعالة شبه سياسية أثر تمتعها بالسيطرة الاقطاعية/القبلية في عام ١٨١٠، واستطاعت ان تنمو يوماً بعد آخر على يد محمد بك الاعور الذي اشتهر باسم «محمد ميركور» مذ بدأ حكمه عام ١٨١٣م[٢٠]، وتمكن أن يخضع القبائل العديدة كالشيروان والبرادوست ويحد من نفوذ السورجيين ويسيطر على دشت حرير بطرده لحاكمه البابانى[٢١]، ثم سيطر على أربيل والتون كوبري، واقتطع رانيه من البابانيين، ثم سيطر على انحاء العمادية من البهدينانيين[٢٢].. وبدت دهوك وزاخو من توابعه، واحتلت قواته جزيرة ابن عمر، ثم بدأ يهدّد ماردين ونصيبين.. وتعرض سهل الموصل وقراه شرقي نهر دجلة الى العديد من عملياته الهجومية القاسية. ولم يجد والي بغداد علي رضا باشا اللاز بدّاً من الاعتراف بسلطته، ومنحه درجة «الباشوية»[٢٣]. لقد استطاع هذا القائد الراوندوزي ان يفاجئ الدولة العثمانية بنمو قوته السياسية، وتوسعاته الاقليمية في اراضي ولاية مهمة كالموصل والتي اصبح يهدّدها يوما بعد آخر.

٢- تساؤلات وتحليلات ومقارنات:

كيف كانت اذاً مهمّة محمد باشا اينجة البيرقدار ازاء امارتي البهدينان والسوران؟ باديء ذي بدء، فان الوالي الجديد بدأ حكمه للموصل بشن عمليات حربية على امارة بهدينان سنة ١٨٣٣، فحاصر جيشه العمادية، واستطاع السيطرة عليها، وأدّى ذلك الى هرب اميرها اسماعيل باشا، فأخضعها، ثم سار نحو امارة سوران فهرب أميرها محمد باشا ميركور من امام جيشه، وتحصّن في اعماق الجبال. فدعا ذلك الدولة العثمانية الى ارسال جيش كبير بقيادة الصدر الاعظم السابق رشيد محمد باشا... فتجحفلت ضمن قواته ارتال والي بغداد علي رضا باشا اللاز ووالي الموصل محمد باشا اينجة البيرقدار فتقدّمت نحو سوران[٢٤]، فصادفت صعوبات جغرفية وعسكرية في دشت حرير.. فكيف جرد ذلك كله؟

انطلق الجيش العثماني من ديار بكر بقيادة محمد رشيد باشا وكان قائداً حربياً لامعاً ووزيراً عثمانياً بارزاً، وكان جيشه يتكون من اثني عشر فوجاً من النظاميين، فتوجه نحو جبل سنجار، ضارباً اليزيدية، وأوقع فيهم خسائر جسيمة، ثم انتقل نحو تلعفر، فأخمد التمردات القائمة فيها، ثم عبر نهر



دجلة عند نقطة اسكي موصل - كما هو مرجح - منتقلاً الى نقطة الافتراق لعّدة طرق ومسالك جغرافية، منها حافة جبل دهوك - عقرة... ومن هناك انطلق في سهل اربيل، واتخذ من سهل (دشت) حرير قاعدة للعمليات بعد أن اجتمع به علي رضا باشا اللاز على رأس جيشه القادم من الموصل، وبدأوا يخططون لبدء العمليات ضد راوندوز[٢٥].

يذكر محمد أمين زكي أن الجيش العثماني بقيادة محمد رشيد باشا وصل الى الموصل اولاً عن طريق جزيرة ابن عمر - زاخو، وانضم اليه جيش الموصل بقيادة اينجة بيرقدار اوغلي، ثم توجّها معاً نحو راوندوز[٢٦]. وهذا مايذكره لونكريك ايضاً، ولكن يقول بانطلاق الجيش من ماردين[٢٧]. ان مجمل العمليات العسكرية قد حالت دون نجاحها عوامل جغرافية تميزت بها البيئة الجبلية الصعبة.. فلم يستطع العثمانيون احراز اي تقدم، او احراز اية نتائج تعمل في القضاء عسكرياً على محمد باشا ميركور، فلجأ رشيد محمد باشا الى الحيلة، فأمّنه، ولكن ما ان التقى الاثنان حتى القيَ القبض عليه، وأرسله الى العاصمة اسطنبول، فحكم عليه بالاعدام، فوضع موته حدّاً لحياة امارة سوران التي زالت من الوجود سنة ١٨٣٦م[٢٨].

فكيف حدث ذلك؟

كان القائد الاعلى محمد رشيد باشا يرى أن الاسلوب الدبلوماسي المسالم هو الاسلم والاوفق لمصلحة الدولة العليا، فاذا ماهزم جيشه فسوف تتعاظم خطورة الامير الراوندوزي، وقد تواجه الدولة معضلة معقدة تهدد سلامتها وأمنها كاملاً، في حين كان كل من الواليين اللاز والبيرقدار يريان العكس. فهما يرجحان استئصال محمد باشا ميركور باسلوب القوة والحرب... فتصلّب محمد رشيد باشا في رأيه ولاسيما عندما علم بأن قوات ميركور قد احتلت مضيق گلي علي بيك الاستراتيجي، فأرسل لميركور كتاباً يؤمنه على حياته ومستقبله السياسي، ويمنحه تطمينات قوية بالعفو عنهُ واعادته الى مكانه.. وما ان حضر الراوندوزي ميركور حتى قبض عليه وارسله مخفوراً الى العاصمة اسطنبول. وارسل محمد رشيد باشا شفاعته بحق ميركور، فكان لها اثرها في نفس السلطان العثماني، فأمر بالعفو عنه، وامر بارجاعه الى محله، ولكن صادف ان توفي محمد رشيد باشا فجأة، فانتهز علي رضا باشا اللاز المناسبة لكي يرسل سراً الى اسطنبول، يتخوف من رجوع الراوندوزي وان ثمّة مشكلات اقليمية سيحدثها الرجل فبدل العفو بالاعدام في فرمان سلطاني.. ولما كان ميركور قد غادر اسطنبول، فقد ادركه الفرمان وهو في مدينة سيواس بضيافة واليها، فنفّذ فيه حكم السلطان إذ اعدم في سنة ١٨٣٩م[٢٩].. وانتهت اسطورة رجل صعب المرأس، وانهارت امارته الراوندوزية التي عاشت اكثر من ربع قرن.

هكذا، انفتح الطريق واسعاً فواصلت الحملة سيرها نحو امارة بهدينان فسيطرت عليها، وقبض على اسماعيل باشا الذي ارسل مكبّلاً نحو بغداد، فألحقت المناطق الشمالية بالموصل من جديد وهي العمادية وعقرة. وزالت امارة بهدينان هي الاخرى[٣٠]. وهكذا وفي النتيجة ايضاً، تمكن العثمانيون ان يخضعوا شمالي العراق، وأن يعيدوا للموصل مكانتها الاستراتيجية ونفوذها السياسي، كما كانت عليه اوضاعها على العهد الجليلي إبّان القرن الثامن عشر. ولم يكن عمل محمد باشا اينجه البيرقدار كاملاً في عملياته في شمال العراق، فلولا قوات محمد رشيد باشا وحافظ باشا لما استطاع ان يفرض بقواته المحلية سيطرته الاقليمية على شمال العراق كما ويفرض الأمن والاستقرار في داخل المدينة.

٣- المعضلة اليزيدية: الموصل وجبل سنجار

تخبرنا «سالنامة الموصل لسنة ١٣١٣هـ»



(١٨٩٥ - ١٨٩٦م) انّ محمد باشا اينجة البيرقدار قد قبض على علي بيك أمير اليزيدية وقتله في موقع يدعى بـ «كر محمد عرب» مع جماعة من الاغوات الانكشارية واغوات الاكراد وجاء قرار البيرقدار باعدام هذا الرجل الذي كان قد فقد مسؤولياته وسلطاته وعزه ومكانته ليس خوفاً منه بل تنفيذاً لسياسة الدولة القاضية بتصفية الزعامات الكردية[٣١]. وبناء على ذلك فقد همّ البيرقدار بقطع رؤوس شيوخ الطرق الصوفية الاكراد، ومنهم: الشيخ طاهر النقشبندي شيخ تكية بامرني والشيخ نور الدين البريفكاني شيخ تكية بريفكان، ولكن البيرقدار استمع الى نصيحة رئيس ديوانه[٣٢]، كون ذلك سيفجّر دون شك ثورة عارمة ضده وذلك للمكانة الدينية الجليلة التي كان يتمتع بها كل من الشيخين في الاوساط الاجتماعية الكردية قاطبة.

كانت المعضلة اليزيدية حالة تاريخية معقدة تفاقمت كثيراً في القرن الثامن عشر. ويكتب العالم الاثاري السير هنري لايارد معلومات موسّعة عن علاقة باشوات الموصل باليزيدية في جبل سنجار، وكان الرجل شاهد عيان للاحداث الدموية. ولم تكن الاحقاد كامنة بين الدولة وبينهم منذ عهد طويل وهذا هو الصحيح، بل كانت قوية وحادة بين اليزيدية وبين البوتان الاكراد: وكثيراً ماخلّفت الصراعات الدموية آلاماً وجروحاً غائرة لم تندمل بسرعة[٣٣]. كما وإن الحكومة العثمانية لم تترك الموصل في حالة سلم دائم مع الاطراف وخاصة جبل سنجار، ومنذ زمن طويل نتيجة اسباب معقدة ومزمنة شكلت طبيعة العلاقة بين الطرفين صفحة دموية قانية.

وفي عهد محمد باشا اينجة البيرقدار، انطلقت حملة حافظ باشا العثمانية ضد اليزيدية في عام ١٨٣٤م، فكانت تتضمن احداثاً قاسية غاية في الهول اكثر بكثير مما فعلته حملة محمد رشيد باشا ضدهم في عام ١٨٣٥م والذي استطاع ان يفصل ماردين عن الموصل بعد سلسلة الاضطرابات والمشاغبات في ماردين[٣٤]. ويفصّل المؤرخ صديق الدملوجي في كتابه «اليزيدية» في طبيعة الصراع العثماني ضد اليزيدية، ويكشف عن أخبار الحملات العثمانية والعمليات اليزيدية المضادة اضافة الى شروحاته بخصوص العلاقات بين اليزيدية وبين السكان من العرب والاكراد[٣٥].

وعلى الرغم من بقاء الموصل قاعدة انطلاق حربية نحو التوابع والاقاليم المجاورة، فانها لم تكن في حقيقة الامر وراء الاحداث الدموية التي بقيت مستمرة. بين حكوماتها المتعددة وبين جبل سنجار إبّان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقد كانت السياسة العثمانية وراء المحاولات القاسية والعمليات المريعة لقطع جذور بعض السكان والاقليات والعشائر عن معتقداتهم. وقد دلّت الاحداث التاريخية مدى الشدة والبأس والقسوة المستخدمة في حلقات تلك الاحداث وعملياتها.. ولم يتورع العثمانيون عن استخدام المدفعية ضد المتمردين من اليزيدية - ولاسباب واهية كما نراها اليوم - تتعلق بالمعتقدات اليزيدية.. وبقاء ذلك الصراع المحتدم بين الطرفين حتى سقوط الدولة العثمانية في مطلع القرن العشرين.

لقد كانت هناك حملات عثمانية اساسية ضد اليزيدية في جبل سنجار، وهي:

١. حملة حافظ باشا سنة ١٨٣٤م.
٢. حملة محمد رشيد باشا سنة ١٨٣٥م.
٣. حملة محمد باشا اينجة البيرقدار على سنجار بعد قمعه التمرد في تلعفر.
٤. حملة محمد شريف باشا والي الموصل سنة ١٨٤٤م.
٥. حملة محمد باشا كريدي سنة ١٨٤٥م.
٦. حملة طيار باشا سنة ١٨٤٧م[٣٦].



٤ – اصلاحات محمد باشا اينجة البيرقدار وانجازاته :

لم يحظَ تاريخ الموصل خلال القرن التاسع عشر بعهد سياسي طويل كالذي شهده في عهد محمد باشا اينجة البيرقدار الذي دام حوالي عشر سنوات ١٨٣٣ – ١٨٤٣م. واشتهر خلال ذلك العهد كونه زعيماً قوياً مارس ادارة صلبة وشرسة في الموصل، وكأحد الولاة العثمانيين القلائل الذين فرضوا مكانتهم البيروقراطية المتطرفة في تاريخ العراق الحديث، ولكنه نجح في تنفيذ عدة خطط اصلاحية وتطبيقاً للسياسة العثمانية المركزية وخصوصاً بعد صدور قوانين التنظيمات العثمانية.

لقد نجح البيرقدار في تأسيس حكومة قوية ومتنفّذة في ولاية الموصل مركزاً ولواحق واستطاع ان يعتمد عليها في تنفيذ برنامجه الاصلاحي الذي تضمّن عدة منجزات. وذلك من خلال تعيينه الموظفين الاداريين الاكفاء الذين كانوا تحت مراقبته المباشرة. كما واستطاع ان يعتمد في بناء مالية حكومته على مافرضه من ضرائب متعددة: كالمكس والاعشار والمسقفات وعلى الانعام كالمواشي والابقار، وعشر المحاصيل الزراعية، فتكونت في خزينته «مالية» اعتمدت عليها في دفع الرواتب لجنده وموظفيه ولخطباء الجوامع.. الخ[٣٧].

نجح البيرقدار ايضاً في فرض ارادته على اعيان المدينة من اغنيائها وتجارها الكبار للمشاركة في الصرف والاعمار، واصلاحات متعددة للمدينة التي كان الاهمال قد اصابها كثيراً في جميع هياكلها الادارية، فضلاً عما حلّ بشوارعها واسواقها ومرافقها العامة من تأخر وأوضار[٣٨]. فقد وصفها الرحالة الانكليزي (بكنگهام) في ذكرياته عندما زار الموصل في سنة ١٨١٦م بقوله: «منظر المدينة العام يدّل على تأخرها ولم يكن فيها مايسترعي الانتباه .. الشوارع ضيقة متعرّجة غير مبلطة، وكثيرة المنعطفات.. البيوت قائمة من احجار غير مصفوفة.. والابواب منافذها على الشوارع، في حين ان شبابيكها تطّل على دواخلها فقط.. اذ ليس من نافذة تطل على من جدرانها الخارجية. اما الاسواق، فطابعها متأخر، وتتصف بقذارتها الشديدة، على الرغم مما تحتويه من السلع الموفية لضروريات الحياة والتي تجلب من كردستان.. الشوارع ملأى بالمقاهي الكبيرة الممتدة على طول الشارع لمسافة تقدر بمائة ياردة .. وقد صفت التخوت على جانبي الطريق.. وكان عدد الحمامات كثيرة اذ يقترب من الثلاثين حماماً، الاّ انها متأخرة جداً مقارنة بما هي عليه حمامات القاهرة والشام وحلب ...»[٣٩].

ونجح البيرقدار في تعمير دور الحكومة في الموصل، وخاصة انشاء بنايتي «القشلة» الاولى: «القشلة الملكية» اي المدنية والثانية «القشلة العسكرية» وقد صممتا كلا البنايتين على جانب من الجمال والعناية[٤٠]. وقد استفاد البيرقدار من القائد الالماني الشهير ڤون مولتكه الذي كان ماراً بمدينة الموصل، فاستقبله وطلب منه ان يضع له مخططاً لاجهزة الحكومة ومنشآتها الخاصة، فتمّ له ما اراد، فتقبّل ڤون مولتكه هدايا البيرقدار، وحمل معه اجمل الذكريات عن مدينة الموصل.

كما جدد البيرقدار شوارع المدينة، وفتح شوارع اخرى جديدة، وقام بتأسيس مستشفى.. كما واهتمّ بأحوال الاسواق وقام بتسقيف بعضها ورصف اخرى[٤١].

وفضلاً عن جميع هذه الاهتمامات والانجازات لحياة الموصل المدنية، فان اهتماماته وانجازاته العسكرية كانت اكبر من ذلك بكثير، فقد اهتم بأحوال المراكز العسكرية لجنده، فقام بتأسيس بعض الثكنات المهمة، كل حسب اختصاصاته كالمدفعية والمشاة والخيالة (تلك الثكنات التي لم تزل بقاياها موجودة حتى يومنا هذا وقد اندثر اغلبها). وقام بانشاء عدة أفران خاصة بالجيش

واهتم بالمبرة العسكرية ، فضلاً عن انشائه مصنعاً للاسلحة الذي بدأ بصناعة مدافع وقنابل ، انتج حوالي ثمانين مدفعاً ، واستطاع ان يعتمد على جيش قوي في الموصل ، قاتل به في العديد من الاطراف[٤٢].

أما من الناحية الاجتماعية فقد جدّد البيرقدار بعض الاضرحة الموجودة في الموصل[٤٣] ، كما واقتصّ من المجرمين والشقاة بالغائه نظام الهايتة[٤٤] وعناصره من المرتزقة لغرض فرض الأمن وسيادته ، مؤسساً بدل ذلك « النظام» البوليسي الشقي ، اجهزة الشرطة والدرك العسكري كقوات نظامية كانت لهم ثكنتهم[٤٥]. وقد أصدر في عام ١٨٣٥م قانون « القرعة » اي : التجنيد الاجباري ، فكان ذلك مثار هياج الاهالي ومعارضتهم له ، ونشوب انتفاضتهم الثورية ، وقتلهم لرئيس ديوانه ، فما كان منه الاّ أن يصوب عشرين مدفعاً نحو المدينة ، وقبض على الثائرين من اعيان المدينة ونفاهم الى البصرة.. وبذلك تكون الموصل هي السباقة في تطبيق قانون التجنيد الالزامي (الذي دعي بالقرعة) ، والذي تأخر تطبيقه في العراق حتى عام ١٨٧٠م. ومارس البيرقدار سياسة جائرة في تجنيد ابناء الموصل بصورة اجبارية مما أثار عليه الرأي العام[٤٦].

وكان البيرقدار رجلاً بيروقراطياً : قاسياً في احكامه ، وشرساً في ادارته ، وفظاً في حملاته ، ودكتاتوراً في عقوباته.. وخاصة في حملاته العسكرية لقمع ثورة سنجار وتلعفر وضد عشائر شمر.. وقد انصبّت اصلاحاته جميعاً في الجوانب العسكرية اكثر من اهتماماته بالمرافق العلمية والاصلاحات المدنية ، فهو لم يؤسس المدارس ودور العلم ، ولم يكن يهتم هو نفسه بالعلم والعلماء كما فعل والي بغداد داود باشا مثلاً إبّان حكمه لبغداد للفترة ١٨١٧ - ١٨٣١م.. ولعل من أبرز الاسباب في ذلك كله : ما كانت تحتاجه الموصل من إمكانات عسكرية خلال تلك الظروف الصعبة التي كانت تعيشها. اضافة الى ما كان يحيطها من تهديدات اقليمية.. ناهيكم عن الشخصية العسكرية التي تمتع بها البيرقدار.

لقد أسس محمد باشا اينجة البيرقدار حكومة محلية كفئاً كما ألغىٰ الفوضى الضريبية التي كانت ضاربة اطنابها في الموصل ، وكانت الضريبة تعرف في اغلب مناطقها بـ « الاتاوة » لعدم وجود نسب محددة لها ، وعمل على تنظيم جباية الضرائب ، فاتزنت ايرادات الولاية المالية واضحت كافية لدفع مرتبات الجند والموظفين وبقية العاملين في الادارة داخل الولاية[٤٧].

أوضاع الموصل بين نهاية البيرقدار ومجيء مدحت باشا :

توفي محمد باشا اينجة البيرقدار سنة ١٨٤٣م بعد ان حكم الموصل قرابة عشر سنوات ، وقد دفن في جامع النبي شيت[٤٨]. فتعاقب على حكم ولاية الموصل للفترة ١٨٤٣ - ١٩٠٨م اكثر من خمسين والياً (وقد وصل عددهم الى ٥٩ والياً حتى الاحتلال البريطاني للموصل عام ١٩١٨م) ، ولكن لم يصل اي واحد منهم الى درجة الكفاءة والمقدرة التي تمتع بها البيرقدار، وربما كانت الموصل ستحظى باصلاحات عثمانية واسعة النطاق لاحدهم لو بقي فترة طويلة في الحكم ، اذ كانت عهود جميعهم قصيرة جداً لم تساعدهم ابداً في فهم احتياجات المدينة ، وادراك ظروفها وخصوصيتها. وقد أمعن اولئك الولاة في تطبيق المركزية العثمانية ، والتعصب للتركية التي فرضوها لغة رسمية في الدوائر الرسمية. وكان للمدارس الدينية الموصلية ذلك الدور المؤثر في الحفاظ على العربية ، وعلى مجموعة من التقاليد والخصوصيات الموصلية. وقد أدى ذلك الى ضعف في الثقافة وانحطاط في العلوم ، وضعف في التدريسات ، وركاكة في



اساليب الشعر والادب. ان الذي تبق من آثار ونصوص ومخطوطات ورسائل متداولة.. ماخلفه رواد الثقافة والعلوم الدينية والآداب العربية في الموصل إبّان العهد الجليلي[٤٩].

وقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر جهود بعض المهتمين في الحقول الادبية والعلمية اثر انتشار الوسائل والاساليب الجديدة، والتي كانت ثمرة جهود بعثات وعلاقات رجال النهضة العربية، مما ادّى الى توسع العلاقات الثقافية، ناهيك عن مساهمة الارساليات الاجنبية في تحديث بعض المرافق العلمية والثقافية.

إذن، فلنوضح الاوضاع السياسية والادارية للموصل إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر:

لقد ازدادت قوة السلطة المركزية العثمانية على الولايات العربية في الفترة التأريخية المبينة اعلاه، مع ازدياد التسلط الاقتصادي على الموارد بازدياد الضرائب والاتاوات والمكوس، اذ تفاقمت اساليب الجباية من قبل الولاة على نحو كبير، وذلك من اجل ان يحافظوا على مناصبهم. كما وازدادت الرشوة واشكال الفساد الاداري. ونصّب الولاة الاتراك الجهلاء وتولوا مقاليد الامور في الموصل، فكثرت المفاسد، وتردّت الاحوال العامة، وازداد الفقر والعوز والفاقة. وعاشت المدينة في خضم مشاكل اقتصادية وادارية لاتحصى[٥٠]. ويرسم الشاعر الموصلي الشهير بشعر الهجاء: عبدالله راقم افندي لنا صورة نقدية عن اولئك الولاة الذين مارسوا ادوارهم القصيرة في ادارة الموصل اذ يخاطبهم في احد قصائده قائلاً:

رئستم بلا علم ولا حلم ولا
وسدتم بلا أصل ولا فضل ولا
سأقسم يميناً بالذي خلقَ الملا
يميناً لقد نجستموا رتب العلا
وألبستموها بعد عزّتها ذلا
فتباً لدهر أنتمو عظماؤه
وأنتم أراضيه وأنتم سماؤه
فلو كنت ممن لايرّد قضاؤه
صفعتُ زماناً أنتمو رؤساؤه
بنعل ولكن صفعه بكم اولى! [٥١]

لقد أضّر حكم الولاة الاتراك بالموصل كثيراً على مدى القرن التاسع عشر بعد أن تهيأت للمدينة فرص ممتازة لتفاعل عوامل النهضة العربية فيها، أسوة ببعض المدن العربية الاستراتيجية المهمة في بلاد الشام، ولكن سوء الادارة العثمانية فيها قد أضّر بتأريخهاوبتطور مجتمعها وبيئتها السكانية التي تهيأت فيها امكانيات ووسائل وأساليب متعددة. خصوصاً عندما نعلم بأن آثاماً جسيمة قد إقترفها أولئك الولاة الاتراك بحق مجتمع الموصل واقتصادياته، كما وصف ذلك دي فوصيل القنصل الفرنسي في بغداد[٥٢].

ويمكننا ان نتوقف عند احد اولئك الولاة الاتراك، واسمه «كريدي محمد پاشا» الذي حكم الموصل للفترة ١٨٤٥ - ١٨٤٦. ويعّد هذا الوالي من اقسى الولاة الاتراك على اهالي الموصل، وكان فظاً في تعامله، ولم يتوّرع ان يقبض على بعضهم، لكي يزجهم في السجون البائسة، وكان قد شدّد في جمع الاموال الاميرية. وقد أراد أن يكتشف موقعه في قلوب الناس، فتمارض في احد الايام، واعلن عن احتضاره، ففرح الناس بهذا النبأ، وكان جواسيسه يلتقطون الاخبار والمواقف الحقيقية والآراء السياسية المعارضة.. فاستطاع ان يعتقل بعض وجوه البلد، لكي يفرض عليهم غرامات وهدايا واموالاً طائلة، ولم تكتف عناصره البوليسية والسرية من التحرك داخل المدينة، بل بدأت السلب والنهب من قبل عناصر جيشه.. وعاشت الموصل خلال شهور سنة ١٨٤٥ حالة يرثى لها[٥٣].



ويحدثنا دي فوصيل نقلاً عن القنصل الفرنسي في الموصل سنة ١٨٤٥، محللاً شخصية والي الموصل كريدي محمد باشا، قائلاً بأن «هذا الاقليم (= الموصل) قد سُلِّم يداً بيد الى لص شقي قاطع طريق حقيقي متمثلاً بشخص هذا الوالي (= كريدي محمد باشا) الذي لايتّورع عن اقتراف كل الآثام، إذ لاقدسية لشيء في نظره. ولا حرمة لديه لحياة او أموال وشرف العوائل والاسر»[٥٤].

ولم تكن أدوار بقية الولاة الذين حكموا الموصل بعد كريدي محمد باشا، بأحسن حالاً إذ بقيت الاضطرابات مستمرة، وازدادت عمليات السلب والنهب من قبل قطاع الطرق وبعض القبائل التي قامت بدورها في الغزو والاغارة على المدن[٥٥]. وهذا أمر طبيعي بالنسبة لابناء مدينة الموصل منذ عصور خلت، وهي تتعرض لمثل تلك العمليات.. كما وتعرّضت بعض المناطق التابعة للموصل الى عمليات عسكرية تأديبية قام بها بعض الولاة الاتراك، وخاصة ضد اليزيدية[٥٦].

ويمكننا أن نجمل أدناه أسماء الولاة الاتراك الذين حكموا الموصل وعهودهم منذ سقوط الحكم المحلي سنة ١٨٣٤م وحتى بداية عهد الادارة العراقية المباشرة سنة ١٨٦٩م وهم كالآتي:

١. محمد باشا اينجة البيرقدار ١٢٤٩ – ١٢٥٩هـ / ١٨٣٣ – ١٨٤٣م
٢. محمد شريف باشا ١٢٦٠ – ١٢٦١ هـ / ١٨٤٤ – ١٨٤٥م
٣. كريدي محمد باشا ١٢٦١ – ١٢٦٢هـ / ١٨٤٥ – ١٨٤٦م
٤. طيار باشا ١٢٦٢ – ١٢٦٣هـ / ١٨٤٦ – ١٨٤٧م
٥. أسعد باشا ١٢٦٣ – ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٧ – ١٨٤٨م
٦. وجيهي باشا ١٢٦٤ – ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨ – ١٨٤٩م
٧. علي أشقر باشا ١٢٦٥ – ١٢٦٦هـ / ١٨٤٩ – ١٨٥٠م
٨. محمد كامل باشا ١٢٦٦–١٢٦٧هـ / ١٨٥٠ – ١٨٥١م
٩. مصطفى مظهر باشا ١٢٦٧ – ١٢٦٧هـ / ١٨٥١ – ١٨٥١م
١٠. متصرف حلمي باشا ١٢٦٧ – ١٢٧٤هـ / ١٥١ – ١٨٥٧م.
١١. مصطفى باشا ١٢٧٤ – ١٢٧٥هـ / ١٨٥٧ – ١٨٥٨م
١٢. ويسي باشا ١٢٧٥ – ١٢٧٦هـ / ١٨٥٨ – ١٨٥٩م
١٣. عبدالله باشا ١٢٧٦ – ١٢٧٧هـ / ١٨٥٩ – ١٨٦٠م
١٤. حاجي يوسف باشا ١٢٧٧ – ١٢٧٨ هـ / ١٨٦٠ – ١٨٦١م
١٥. عطا الله بك ١٢٧٨ – ١٢٧٨هـ / ١٨٦١ – ١٨٦١م
١٦. كنعان باشا ١٢٧٨ – ١٢٨٤هـ / ١٨٦١ – ١٨٦٧م
١٧. متصرف آصف أفندي ١٢٨٤ – ١٢٨٥هـ / ١٨٦٧ – ١٨٦٨م
١٨. شبلي باشا ١٢٨٨ – ١٢٨٩هـ / ١٨٧١ – ١٨٧٢م[٥٧]

الوالي مدحت باشا والموصل:

يبدو أن انعطافاً ملحوظاً طرأ على الحالة الادارية في الموصل أثر تسنّم مدحت باشا منصبه كوالٍ لبغداد عام ١٨٦٩م إبان عهد السلطان عبدالعزيز ١٨٦١ – ١٨٧٦م بعد منح مدحت باشا صلاحيات استثنائية في ادارة الاقاليم العراقية. فقد ادخلت تحديثات تنظيمية في ادارة الحكومة العثمانية على يد مدحت باشا الذي يعدّ رائداً في اصلاح الادارة العثمانية ليس على مستوى الاقاليم العراقية



فحسب، بل على مستوى الدولة العثمانية إبان عهد عبدالعزيز. فقد احلّ مدحت باشا محل الپاشوات المستبدين بآرائهم وأساليبهم وسياساتهم: فئة عريضة من الموظفين النظاميين الذين يدعون بـ «الافندية»[٥٨].

لقد بدأت صفحة تاريخية أخرى في حياة الموصل الادارية إبان القرن التاسع عشر، اذ تأثّرت بالمنجزات الواسعة التي أدّاها مدحت باشا للعراق، وخاصة تنظيم التشكيلات الادارية العراقية على نحو جديد من الناحية الاصلاحية. أما من الناحية الاقتصادية، فان سنة ١٨٦٩م، ترتبط بحدث تأريخي كبير ومؤثر في استراتيجية المنطقة، هو فتح قناة السويس.. ذلك الانجاز الذي استقطب من خلاله الجزء الاوفى من الاقتصاديات الدولية، فتحوّلت عن الموصل كقاعدة تجارية دولية إبان المرحلة التاريخية التجارية الدولية: الطرق والمسالك التجارية البرية بين الشرق والغرب، فلحقها ضرر كبير جراء ذلك الانجاز الواسع، وغدت المكوس التي كانت تفرض على ترانسيت القوافل التجارية ضعيفة بل ومنعدمة في كثير من الاحيان.. وساءت الاوضاع الاقتصادية في الموصل كثيراً، حتى يزداد تفاقم النوائب في الحياة الاجتماعية[٥٩] بعد ان عمّ الغلاء الشديد في الموصل عام ١٨٧٨، وهو الغلاء المعروف بـ «غلاء الليرة».

ولكن كيف كانت وضعية التشكيل الاداري ومساحته في الموصل مقارنة بكل من بغداد والبصرة؟ تعد وضعية التشكيل الاداري والحدود الادارية للموصل على امتداد عهود السيطرة العثمانية غير مستقرة ابداً، وازدادت قلقاً وعدم استقرار خلال القرن التاسع عشر، فمنذ عودة حكم المركزية الادارية على يد محمد پاشا اينجة البيرقدار عام ١٨٣٤ والذي أوقف حالة التداعي التي كانت تعيشها الموصل أثر تفاقم خطر حكم الامارات الكردية في شمالي العراق، ضعف شأن الموصل كولاية إدارية بضمور بعض الجوانب فيها.

وعلى الرغم من حالة الاستقرار النسبي، فإن العراق بقي مقسماً الى ولايتين كبيرتين:

الاولى: ولاية بغداد شاسعة الاطراف، والتي اتسعت اتساعاً كبيراً في القرن التاسع عشر

والثانية: ولاية الموصل التي بدأت مساحتها الادارية تتقلّص تدريجياً، حتى الغي تشكيلها كولاية، واصبحت سنجقاً تابعاً لولاية بغداد عام ١٨٥٠، ولم تستعد تشكيلها الكامل كولاية مهمة لها استراتيجيتها الا في عام ١٨٧٩. وقد عاشت البصرة في الجنوب أزمة الانتقال ايضاً من متسلّمية الى ولاية عام ١٨٥٠، ثم الى متصرفية لواء عام ١٨٦٢ لتعود ولاية عام ١٨٧٥، ثم تغدو متصرفية في عام ١٨٨٠، ثم عادت ولاية في عام ١٨٨٤[٦٠].

يعلمنا اكثر من مصدر تاريخي أن فترة الثلاثين سنة الممتدة بين ١٨٣٩ – ١٨٦٩م أي بين سقوط الحكومات الاقليمية وبين تأسيس الادارة العراقية المباشرة، هي فترة لم تشهد الا تطبيقات جزئية لمجمل الاصلاحات عاماً، ومنها الاصلاح المالي خصوصاً. وذلك بفعل عوامل نضوج الصراعات الداخلية المحتدمة بين الحكومات العصبية/ الاثنية، وبين السلطة وخصوصاً في شمالي العراق، فطبعت تلك العقود الثلاثة بطابع عدم الاستقرار. ولكن هيكل الادارة المالية الجديد بدأ يكتمل تدريجياً على الرغم من عجزه في ممارسة صلاحياته بشكل كامل .. اذ لم تأخذ المارسات الاصلاحية طريقها الى التطبيق العملي على نحو جاد الا في عهد مدحت باشا ١٨٦٩ – ١٨٧٢م، والذي يعتبر عهده نهاية تأريخية لمرحلة الانتقال والتحول من حكم اللامركزية المحلية الادارية الى حكم المركزية التركية.

ويعد حكم محمد پاشا اينجة البيرقدار للموصل

وعلى مدى عشر سنوات بداية حقيقية لخطوات الاصلاح الذي لم يتخذ منه طابعاً مظهرياً على الرغم من انه يبتعد كلياً عن جوهر التحولات والاصلاح الحقيقي. ومن خلال مقارنته مع حكم علي رضا باشا اللاز لبغداد ١٨٣١-١٨٤٢م، يكاد يكون الفرق كبيراً بين الاثنين.. علماً بأن المشكلات المحلية والاقليمية التي كانت تواجه الموصل هي اكبر بكثير مما كانت تعانيه بغداد. ولكن الظاهرة الاصلاحية تنطبق على البيرقدار وحده، إذ لم يتمتع بها أي وال تركي حكم الموصل من بعده على الرغم من اهتمام الدولة العثمانية وحرصها الكبير من خلال ماأصدرته من قوانين ومراسيم باصلاح المرافق الادارية والمالية.. وشعورها بالمعالجة للخلل الاداري والفساد البيروقراطي الذي أصاب هياكل تلك المرافق، وخصوصاً المالية منها[٦١].. واستمرت الدولة في معالجتها تلك للاوضاع على امتداد القرن التاسع عشر دون فائدة تذكر، ولاسيما تفشي الرشوة والاختلاس على نحو كبير.

ان المؤسسات الادارية والمالية الجديدة لم تظهر في العراق ظهوراً حقيقياً وملموساً الاّ في عهد مدحت باشا ١٨٦٩- ١٨٧٢م، فالضرائب والرسوم- مثلاً- كمصدرين رئيسيين متداخلين: امتدت المرحلة الاولى منها والمحصورة مابين عودة الحكم العثماني المباشر في ١٨٣١ ومجيئ مدحت باشا في ١٨٦٩. وقد تميزت هذه المرحلة بطغيان الحدث السياسي المقترن بالفعل العسكري الهادف الى تطبيق سياسة تمركز السلطة وفرض هيمنتها على جميع المناطق في العراق[٦٢]. فظهرت فيها أولى البوادر للهيكل الشكلي للادارة الحكومية الحديثة في مؤسساتها وموظفيها وفق مفاهيم الاصلاح، ولكن على حساب تدهور الوضع الاقتصادي في العراق الى درجة خطيرة.

استنتاجات تاريخية: المؤثرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية

على الرغم من مجمل الاصلاحات المدنية والعسكرية التي أدّاها محمد باشا اينجة البيرقدار للموصل. الاّ أن أوضاعها بقيت مهملة على امتداد العقود الثلاثة التالية، إذ لم يطرأ عليها أية تغييرات حتى ولو كانت شكلية ظاهرية، وذلك نتيجة لكثرة الولاة الذين تعاقبوا على حكمها[٦٣]. وكانوا يُهيمنون على مقاليد الولاية المختلفة بصورة مطلقة، إذ كانوا يتمتعون بسلطة نافذة في الابتزاز من خلال الاجهزة التي تعمل جميعها على تحقيق مصالحهم الشخصية، ومآربهم في السلطة والنفوذ.. وكان جميع ذلك يجري ضمن آلية التوجيه العثماني المركزي الذي عمل طويلاً على فرض الهيمنة الادارية المركزية في عصر إنهيار الاجهزة الاقتصادية القديمة، وبداية عصر تكوين المؤسسات الجديدة في خضم عمليات الاصلاحية والتنظيمات العثمانية.

ويبدو أن موقف الرأي العام في الموصل كان واضحاً أزاء أساليب التسلط المختلفة التي مارسها جميع الولاة الاتراك، وخاصة محمد باشا اينجة البيرقدار ومحمد كريدي باشا وغيرهما. وقد تجّسدت صور التعبير من الاستياء العارم إبان فرض قانون التجنيد الالزامي من قبل البيرقدار، فواجهه الموصليون بالاستنكار والرفض، وقاد ذلك الى التمرد والعصيان، مما يدل على عدم ايمان اهالي مدينة الموصل بالاهداف السياسية العثمانية، ولكن البيرقدار كان أسرع في المواجهة وحسم الموقف والقضاء على الانتفاضة الشعبية بنصب المدافع حول مدينة الموصل وتهديدها، وفرض أحكامه العرفية القاسية[٦٤].

يقول المؤرخ سليمان صايغ: «وكان محمد باشا (البيرقدار) شديداً فيما يرومه قاسياً على العصاة، فظاً شرساً مع الاهلين من ذلك إنه لما ثارت أهالي



الموصل، وأبوا قبول القانون العسكري وتنفيذه ارسل اليهم احد أعوانه يدعى قاسم أفندي ليدعوهم الى الطاعة ويقنعهم في الاذعان الى القانون العسكري. فلما أقبل رسوله الى الاهلي ثاروا عليه وقتلوه، فأحضر محمد باشا عشرين مدفعاً صوّبها على المدينة ثم أرسل عليها بعض الكتائب النظامية فدخلوها ونهبوا اسواقها وسفكوا دماء ابرياء كثيرين. ثم أمسك بعضاً من وجوهها وارسلهم نفياً الى البصرة ومن ثمّ انقاد الاهلون الى الاذعان. وصار محمد باشا يجنّد الاهالي من غير مراعاة السن والحال فكان يبث عسكراً في شوارع المدينة ليأتوه بمن يصادفونه أيا كان ... »[٦٥].

ان الاصلاحات الادارية والمالية في الموصل لم تأخذ طريقها للتنفيذ الا في عهد مدحت باشا للعراق ١٨٦٩ – ١٨٧٢م، إذ شهدت الولايات العراقية تحولات اساسية في النظم والهياكل والممارسات... وهي التي شكلّت ركائز في محاولات تحديث العراق، ولكنها لم تستمر بفعل انتهاء ولاية مدحت باشا، فغدت خطوات بطيئة بفعل سياسة قديمة لمؤسسات جديدة.

لقد زار الموصل في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر أبو الثناء الآلوسي في طريقه الى اسطنبول، إذ كانت رحلته نحوها للفترة ١٨٥١ – ١٨٥٣، وقد وصف الرجل مدينة الموصل وصفاً رومانسياً جميلاً قائلاً: «وهي مدينة عذبة الماء، طيبة التربة والهواء، طعامها هنيء وشرابها مريّ، واسعة البلاد وسرتها، ووجهها الصبيح وغرّتها تلد الربيع في السنة مرتين، فهي بين البلاد ام الربيعين.. وهي كالعرائس في حليها وزخارفها ... ولاعيب فيها سوى انها ايام الربيع تسرق العمائم الخضر من السادة.. وانها تنبت العلماء المحققين كما تنبت الاقحوان والنسرين وتخرج الاخيار كما تخرج الازهار..»[٦٦].

ويبدو جلياً للمؤرخ أن مجتمع الموصل عاش خلال الفترة ١٨٤٣ – ١٨٦٩م على بقايا الثقافة العربية الرصينة التي خلفتها المرحلة الجليلية إبان العهد المحلي الذي استمر اكثر من قرن كامل حفلت الموصل عصر ذلك بالانشطة الفعالة والابداعات المتميزة باعتبارها من المدن المنتجة الرئيسة على الرغم من النكسات المريرة التي تعرضت لها سياسياً واقتصادياً ناهيكم عن سوء الادارة وعنف الحكام الاتراك واضرارهم بالمصالح الاجتماعية التي اكتسبها اهالي الموصل منذ حصار نادرشاه للمدينة عام ١٧٤٣م[٦٧].

ويندهش القنصل الفرنسي في الموصل من اهاليها الذين كانوا يعلمون اخبار فرنسا ونابليون بونابرت، فقد كتب في تقريره المؤرخ في سنة ١٨٥٤م قائلاً فيه: «.. لانني ازداد اندهاشاً واستغراباً كل يوم من ان تاريخ الامبراطورية (الفرنسية) يعرفه الناس هنا (=الموصل) ...»[٦٨]. وليس هذا التحسس بغريب على مثقفي الموصل عصر ذاك اذا ماعلمنا بالشأو الكبير الذي كانت الثقافة في الموصل قد بلغته، إذ كانت مدينة عربية مرشحة لكي تنهض بدور ريادي في النهضة العربية الحديثة.

ولكن كانت الموصل قد غدت ولاية اعتيادية بعد انتهاء الحكم المحلي، ازدادت مشكلاتها وتفاقت المخاطر من حولها، وضمر دور الاسر العلمية والسياسية، ففي حين عاش يحيى باشا الجليلي بقية سنوات حياته في العاصمة العثمانية معزّزاً مكرماً[٦٩]. فإن بقية أحفاد بيت الغازي محمد أمين باشا قد اصبحوا في عداد ملاكي الاراضي من الطبقة الارستقراطية في البلد.. ولم نعثر على أية معلومات توضح لنا اية محاولة جليلية جديدة لاستعادة السلطة الشرعية– المحلية في الموصل للفترة ١٨٣٤ – ١٨٦٩م.. مما يدل على انتهائهم سياسياً امام سطوة الولاة الاتراك القساة.. ولم تكن آراء وأفكار بقية الاسر الموصلية الاخرى بمختلفة، إذ لم



تنحاز اية اسرة الى جانب أولئك الولاة.. بدليل أن البيرقدار نفسه قد فرض هيبته بالقوة والقسوة والصرامة.

لقد كان لتردي الاوضاع أثره في هجرة كثير من العلماء والادباء الموصليين الذين غادروا الموصل إبان عهود الولاة الاتراك نذكر منهم: الاديب قاسم بن يحيى الموصلي الشهير بمحضر زاده الذي رحل الى حلب ثم عاد الى الموصل[٧٠]، والأديب عبدالرحيم الفائز الذي رحل نحو بلاد الشام ومصر[٧١].. وهناك حسن حسني الذي إرتحل نحو بلاد الشام[٧٢] وديار بكر، وقد وصف رحلته التي قام بها سنة ١٨٦٧م الى ديار بكر في رسالة بعنوان: «الرحلة من الموصل الزاهرة الى ديار بكر العامرة»[٧٣]. وهناك ايضاً: كل من الشاعرين الشهيدين: عبدالغفار الاخرس[٧٤] وعبدالباقي الفاروقي.[٧٥]

من جانب آخر، غدت مدينة الموصل خلال الفترة المعنية، مركز استقطاب مهم لرجالات علم الآثار وعلم الانسان.. فضلاً عن كثير من المبشرين والقناصل والدوبلوماسيين.. إذ اصبحت الموصل قبلة للاوربيين نظراً لاهميتها التأريخية والاجتماعية، فكثرت الارساليات الدينية - التبشيرية، وفعاليات الآباء الدومينكان في التعليم والصحة والطباعة. ان الموصل كأبرز مدينة شرقية، احتلت موقعاً مهماً في التفكير الاوربي خلال العصر الحديث، وقد وفد الآباء الدومينكان الفرنسيون الى الموصل في اوائل سنة ١٨٥٧، ووسّعوا نشاطاتهم الطبية والتعليمية والتبشيرية في الموصل وضواحيها.. وكان لوجود القنصلية الفرنسية في الموصل اثر كبير في تحويل عدد كبير من السريان الى الكاثوليكية في قره قوش وبرطله، وقد اتهم القنصل الفرنسي ولاة الموصل الاتراك باثقال كواهل السكان ولاسيما المسيحيين منهم بالضرائب الفادحة.. وكان يبعث في الوقت نفسه بالمرسلين الدومينكان الى المسيحيين يرغبون في طلب الحماية الفرنسية من اجل التخلص من تلك الضرائب، شريطة الخضوع لبابا روما.[٧٦]

لقد تنبه كل من الانكليز والامريكان لنشاطات الفرنسيين في الموصل، فبدأوا يوفدون الارساليات البروتستانتية الى العراق[٧٧]، وكان على رأسهم كل من المبشرين گرانت Grant سنة ١٨٣٩م وپيركنس Perkins سنة ١٨٤٨م الامريكيين.. وعلى الرغم من قلة انتشار البروتستانتية في شمال العراق، فقد أنشأ في الموصل اول مقر لارسالية تبشيرية امريكية على يد گرانت.. ثم تتابع وصول بعض المبشرين الامريكان مثل: وليم پيري فوك والمستر فورد والمستر كمبرلاند والدكتور حزقيل وزوجته اللذين شيدا مدرسة في الموصل وغادراها سنة ١٨٦٤م[٧٨]. وكان للقنصل البريطاني في الموصل دوره في دعم الانشطة البروتستانتية والآثارية على امتداد سنوات القرن التاسع عشر متمثلة بجهود عيسى رسام الموصلي الذي اعتمدت بريطانيا عليه اعتماداً كبيراً[٧٩].

ان حصيلة الجهود المتسابقة لكل من الفرنسيين والانكليز والامريكان قد شملت مجالات عمل واسعة النطاق وخصوصاً في الصحة والتعليم والآثار والطباعة.. وقد استقبل المجتمع الموصلي خلال الفترة المعنية العشرات من الرجال والنساء الغربيين، وقد ساندتهم القنصليات المتعددة.. وكان تأثيرهم واضح المعالم على ذلك المجتمع الذي ستضطلع النخبة فيه لانجاز المهام النهضوية في حياة العرب القومية عند مطلع القرن العشرين. اذ كانت الظروف السياسية والاجتماعية قد نضجت كثيراً، فتأثرت بها.. وبدأت تعبرّ عن ارهاصاتها القومية ضمن اساليب مختلفة.

الاستنتاجات العامة:

بدأت صفحة تأريخية جديدة في حياة تأريخ الموصل الحديث، وذلك اثر العودة الى نظام



الادارة العثمانية المركزية في السنوات الاخيرة من عهد محمود الثاني. ويبدو للدارس بأن تنصيب الوالي محمد پاشا اينجة البيرقدار على الموصل، كان اجراء مرحلياً للفصل بين السلطات السياسية والاجتماعية. أي بمعنى: عملية فصل بين مصالح اكبر اسرتين متنفذتين في المجتمع عصر ذاك: الجليليين والعمريين مع لواحقهما من الاسر التجارية والأسر العسكرية (=الچلبية والاغوات) وفروعهما من الاقرباء الفقراء.. اضافة الى اتباعهم من «الگولات» (جمع گوله- بالتركية)، أي: «الخزمجية» (بلغة اهل الموصل). اضافة الى رفع يد الادارة المحلية عن مسؤوليتها على الاقتصاديات في المدينة والاقليم وتأسيس الانظمة البلدية لتنظيم علاقات تلك الاقتصاديات بالمجتمع وخصوصاً وحداته التجارية وصنوفه المهنية لمختلف الشرائح المعروفة.

جاء تنصيب محمد پاشا اينجة البيرقدار ايضا لأسباب خارجية وفرّها البلاط العثماني الى جانب الاوضاع الداخلية.. ويعتبر البيرقدار من الولاة الاتراك القساة الحازمين، وكان من الاصلاحيين البيروقراطيين، فدام حكمه للموصل طويلاً، وقف علي رضا باشا اللاز من وراء تعيينه عام ١٨٣٣م. فوضع البيرقدار حدّاً للمشكلات الاقليمية والعرقية التي عاشتها ولاية الموصل والامارات المجاورة لها، بشنّه حملة على امارة بهدينان سنة ١٨٣٣م، ونجح ايضا من خلال مساعدات الدولة العثمانية على يد رشيد محمد باشا الصدر الاعظم الاسبق، فوضعا حداً للاضطرابات الدموية باعتقال محمد باشا ميركور الذي ارسلاه الى اسطنبول، فأعدمه العثمانيون، وبموته زالت امارة سوران سنة ١٨٣٦م/ ١٢٥٢هـ. كما تم الاستيلاء على امارة بهدينان سنة ١٨٤٢م، والحقت جميع المدن والقصبات بالموصل.. كما واستطاع البيرقدار ان يخضع شمال العراق، ويعيد للموصل نفوذها السياسي كما كان عليه حالها ابان القرن الثامن عشر.

لقد زاول البيرقدار اجراءات اصلاحية عدة، اثر تنفيذه سياسة شرسة وتطبيق اداري صارم للمركزية العثمانية بادخاله موظفين اكفاء، وفرض ضرائب عديدة كالمكس والاعشار والمسقفات. وبدأ بدفع رواتب للجند والموظفين والخطباء ونجح في تجديد دور الحكومة من خلال مساهمات تجار المدينة ووجهائها. ولما مّر القائد الالماني الشهير «فون مولتكه» بالموصل، طلب منه البيرقدار ان يضع مخططاً لمنشآت الموصل، فحصل على ما اراد. واهتم البيرقدار بتنظيم جيشه، وأسس الافران والمعامل العسكرية (=الطوبخانات) وشيد مستشفى الموصل، وفتح شوارع جديدة، وجدّد الاضرحة.. وفرض الأمن، وحدّ من الفوضى باستحداثه جهاز للشرطة كقوات نظامية پوليسية لهم ثكنتهم، الى جانب ثكنات للجيش حسب صفوفهم كالمشاة والخيالة والمدفعية واذعن اهالي الموصل بعد رفض مستميت لقانون التجنيد الالزامي.. وقمع جميع الانتفاضات، وانصبت اصلاحاته على الجوانب العسكرية اكثر من الجوانب العلمية والمدنية.

توفي محمد پاشا اينجة البيرقدار سنة ١٨٤٣م/ ١٢٥٩هـ ودفن بالموصل بعد ان حكمها قرابة عشر سنوات، فتعاقب بعده عدد من الولاة الاتراك، ولم يبرز اي واحد منهم كبروز البيرقدار كونهم لم يمتلكوا كفاءاته السياسية ومقدرته البيروقراطية اولاً، اضافة الى قصر فترات عهودهم في ادارة الموصل ثانياً. لقد فرضوا اللغة التركية في الدوائر الرسمية، فانحسرت العربية في المدارس الدينية، فكان ان عدّ هذا العهد فترة اغفال للثقافة العربية مع اشتداد التسلط المركزي للدولة في فرض الضرائب والاتاوات.. كما وكثرت المفاسد وتردت الاحوال.. وعاشت الموصل في خضم مشكلات ادارية واجتماعية واقتصادية كثيرة.. ولم يرغب ذوو الكفاءات بالمجيء اليها، وكثيراً ما اقترف الولاة



الآثام تجاه ابناء الولايات العربية، وكانوا يهتمون بالابهة والبذخ.

وبعد عهد البيرقدار ايضا: افتقد الأمن وكثر اللصوص وقطاع الطرق، وازدادت اعمال السلب والنهب والاغارة على المدن من قبل القبائل كما حدث في عام ١٨٥٤م، حين حرض واليا بغداد وكركوك العشائر للاغارة على الموصل بقصد السلب والنهب، ولم تنقطع الغارات على اليزيدية منذ العهد المحلي ومطاردتهم لاغراض دينية واقتصادية/تأريخية.. فجرت مذابح دموية مريعة.

لقد حكم ولاية الموصل بعد وفاة محمد باشا اينجة البيرقدار عام ١٨٤٣م حتى الاحتلال البريطاني للموصل عام ١٩١٨م قرابة (٥٩) والياً تركياً، وبادخال عهد البيرقدار، فان عهد الادارة المركزية العثمانية يشكّله تركيب غريب متعدّد ومتنوّع من (٦٠) والياً للفترة ١٨٣٤-١٩١٨م (قرابة ٨٤ سنة)، في حين ان (٣٩) من الولاة الاتراك والجليليين قد تقلدوا حكم ولاية الموصل للفترة ١٧٢٦-١٨٣٤م، اي خلال (١٠٨) سنوات، علماً بأنّ قسماً منهم قد تقلّد الولاية لاكثر من مرّة، ولقد انتهى حكم الولاة العثمانيين للموصل اثر الاحتلال البريطاني لها عام ١٩١٨ لتبدأ صفحة تاريخية جديدة في حياتها المعاصرة.

الهوامش:

(١) خير من عالج هذه الجوانب بالتفصيل: د. عماد عبد السلام رؤوف، **الموصل في العهد العثماني: فترة الحكم المحلي ١٧٢٦-١٨٣٤**، النجف، ١٩٧٥، ص١٩٢-١٩٧.

(٢) S. H. Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford, 1925, p. 282.

(٣) سليمان صايغ، **تأريخ الموصل**، جـ١، القاهرة، ١٩٢٧، جـ٢، بيروت ١٩٢٨.

(٤) أن هناك معلومات كثيرة عن الموصل في كتب الرحلات والآثاريين والأجانب.. ومن الضروري الاستفادة منها في معرفة تفاصيل الأحداث خلال الفترة موضوعة البحث.

(٥) كريستيان رسّام هو أخو هرمزد رسام، العالم الآثاري الشهير الذي أعتمدت بريطانيا عليه أيضاً ولكن في الشؤون الآثارية، أنظر:

H. A. Layard, *Nineveh and its Remains, ed., intro. and notes written by H. W. F. Saggs, London, 1970, p. 7.*

(٦) من القناصل الأنكليز في الموصل: جون فردريك رسل للفترة ١٨٧٧-١٨٨٣، (وهو ويليام فردريك رسل) ووليام شو كلاند ريتشارد للفترة ١٨٨٣-١٨٨٥، وهاري هارلنج لامب للفترة ١٨٨٥-١٨٨٦م، وجون فردريك رسل (ثانية للفترة ١٨٨٦-١٨٨٧م، وبقي المركز شاغراً للفترة ١٨٨٧-١٨٩٣م، فأخذت بريطانيا تعيّن وكلاء ونواباً قناصل في الموصل، ومنهم: نيمرود رسام للفترة ١٨٩٣-١٩٠٨.

(٧) هو المسيو پول اميل بوتا P. E. Bota القنصل الفرنسي في الموصل الذي اتاها بعد أن كان يشغل المنصب نفسه في الاسكندرية والجزائر، وشارك في التنقيب عن الآثار الاشورية الى جانب لايارد، ولكنه لم يكن بمؤرخ كلاسيكي فاستفاد من لايارد كثيراً، وأجرى بعض التنقيبات الى جانب منصبه الدوبلوماسي في الموصل، أنظر:

Seton Lioyd, *The Archaeology of Mesopotamia, London, 1978, p. 17.*

(٨) پيير دي فوصيل، **الحياة في العراق منذ قرن ١٨٤٢-١٩١٤**، ترجمة: أكرم فاضل، بغداد، ١٩٦٨، ص١٥٤.

(٩) ذنون يونس الطائي، **الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في أواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني**. (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الآداب/جامعة الموصل، ١٩٩٠، ص١١٨ (بالاعتماد على مصادر وثائقية).

(١٠) د. سيار الجميل، **العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من أجل بحث رؤيوي معاصر**، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٩، ص٢٠٨.

(١١) **المصدر نفسه**، ص١٣٠.

(١٢) Cf. Stanford J. Shaw and Ezel K. Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. 2, Cambridge* Univ. press, 1977, pp. 61 – 85.

(١٣) أنظر التفاصيل في: د. عبد العزيز سليمان نوار، **تأريخ العراق الحديث من نهاية حكم داؤد باشا الى نهاية حكم مدحت باشا**، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٠١-١١٢، وأنظر أيضاً: محمد أمين زكي، **تأريخ الكرد والكردستان**. ترجمة عن الكردية: محمد علي عوني، جـ١، القاهرة، ١٩٣٦، ص٢٢٧-٢٣٨.

(١٤) القس سليمان صايغ، **المصدر السابق**، جـ١، ص٣١٠.

(١٥) **المصدر نفسه**، جـ١، ص٣١١.

(١٦) Sayyar K. AL – Jamil, *A critical Edition of al – Durr al – Maknun fi al – Ma'athir al – Madiya min al – Qurun of yasin al – Umari (920 – 1226 A.H. = 1514/1515 A.D. – 1811/1812 A.D.)*, vol.



1, St. Andrews Univ, Scotland, 1983, p. 116.

(١٧) صديق الدملوجي ، **أمارة بهدينان الكردية أو امارة العمادية** ، الموصل ، ١٩٥٢ ، ص ١١ – ٢٠ .

(١٨) راجع التفاصيل في : حسين حوزني موكرياني ، **تأريخ الأمراء السوران** (بالكردية) ، راوندوز ، ١٩٣٥ ، ص ٨٢ ، (هناك نسخة منه ترجمت الى العربية من قبل محمد الملا عبد الكريم ، بغداد ، د. ت.) .

(١٩) توصيف ذلك من : د. سيار الجميل ، "رحلة چوستن بيركنس عبر شمال العراق : الأرض الكلاسيكية عام ١٨٤٨ م" ، **مجلة المورد** ، المجلد (١٨) ، العدد (٤) ، بغداد ، ١٩٨٩ ، ص ١٧٦ – ١٧٧ .

(٢٠) أنظر تحليل ذلك عند المؤرخ لونكريك :

(S.H.Longrigg, *op – cit.*, p. 284).

(٢١) أنظر: حسين حوزني موكرياني ، **المصدر أعلاه** ، ص ١٠١ .

(٢٢) د. كاوس تفتان ، **الأكراد والأمبراطورية العثمانية** ، ترجمه عن الروسية الى الكردية : د. جليل جاسم ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص ١٦٥ – ١٦٧ .

(٢٣) محمد أمين زكي ، **تأريخ** : (سبق ذكره) . ص ٢٣١ .

(٢٤) عبد الفتاح علي يحيى ، "الهجوم العثماني على كردستان وسقوط أمارة سوران" ، **مجلة كاروان** ، العدد (٥٢/٥٣) . السنة (٦) كانون الثاني / شباط ١٩٨٧ ، ص ١٣٨ .

(٢٥) **المرجع نفسه** ، ص ١٣٨ – ١٣٩ .

(٢٦) محمد أمين زكي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٤٦ .

(٢٧) أذكر ماذكره لونكريك (Longrigg, *loc. cit.*) .

(٢٨) أنظر بخصوص طبيعة البيئة الصعبة من :

A. M. Hamilton, *Road Through Kurdistan: The Narrative of an Engineer in Iraq, with a foreward by Major – General Raw An – Robinson*, London, n.d., p. 279.

وعن تفاصيل الاحداث التأريخية ، أنظر سليمان صايغ ، **المصدر السابق** ، جـ ١ ، ص ٣١٢ . وراجع أيضاً : عباس العزاوي ، **تأريخ العراق بين احتلالين** ، جـ ٨ ، بغداد ، ١٩٥٦ ، ص ٣٦ .

(٢٩) راجع تفاصيل القصة الدرامية لنهاية حكم محمد باشا ميركور في :

Jemal – eddin Nebez, *aus Sulaimani Kurdistan Der Kurdische Furst Mir Muhummad – i Rawandizi genanat Mir – i Kora im Spiegel der Morgenlandischen und Abendlandischen Zengnisse* (Ein Beitag Zur Kurdischen Geschichte): Dissertation Zur Erlangung der Doktorwurde der philosophischen, Fakultat der Universitat Hamburg, 1970, pp. 111 – 149.

(٣٠) سليمان صايغ ، **المصدر السابق** ، جـ ١ ، ص ٣١٣ ، وأنظر: صديق الدملوجي ، **المصدر السابق** ، ص ٤٧ .

(٣١) سالنامه در موصل ولايتي لسنة ١٣١٣ هـ ، ص ٤٤٤ .

(٣٢) الدملوجي ، **المصدر السابق** ، ص ٦٧ .

(٣٣) لقد كتب العالم الآثاري الشهير هنري لايارد معلومات واسعة جداً عن هذه المعضلة المزمنة المستعصية ، أنظر :

Henrey Layard, *Nineveh and its Remains*, London (New ed.) 1970, pp. 23 – 49.

(٣٤) *Loc. cit.*

(٣٥) صديق الدملوجي ، **اليزيدية** ، الموصل ، ١٩٤٩ . ص ٤٥٦ – ٥١٤ .

(٣٦) التفاصيل التأريخية في **المصدر نفسه** اعلاه ، ص . ن .

(٣٧) أنظر: سليمان صايغ ، **المصدر السابق** ، جـ ١ ، ص ٣١٤ .

(٣٨) (S. H. Longrigg, *op.cit., p. 283)*.

(٣٩) J. Buckingham, *Travels in Mesopotamia*, London, 1827, p. 91.

(٤٠) أحمد الصوفي ، **خطط الموصل** ، جـ ٢ ، الموصل ، ١٩٥٣ ، ص ٢٨ .

لابد لنا أن نشير الى ان موقع كل من القشلتين الملكية والعسكرية بالموصل في المنطقة المطلّة على نهر دجلة خارج أسوار الموصل .. وفي المكان الذي تقوم فوقه اليوم بناية بلدية الموصل ودار المحافظ والمستشفى العسكري . وقد هدمت القشلة الملكية لكي ينشأ فوقها "دار الضيافة" الذي هدم هو الآخر ليقوم بدله "دار المحافظ" . أما الميادين الكبرى الواقعة مقابل كل من القشلتين ، فقد بني على جانب منها : متحف الموصل القديم والمتحف الحضاري بالموصل أمامه . أضافة الى "حديقة الشهداء" . أما بلدية الموصل الحالية ، فهي تقوم في المكان الذي كانت تقوم فيه دائرة الأملاك السنية التي أنشأها السلطان عبد الحميد الثاني .. في حين كانت بناية البلدية القديمة وحديقتها الغناء عند الربوة التي تقع قرب باب الجسر (= جسر نينوى) وفي المكان الذي خصّص اليوم لكي يكون ساحة لوقوف السيارات (المعلومات عن أوراق وصور قديمة في حوزة كاتب البحث) .

(٤١) سعيد الديوه جي ، **بحث في تراث الموصل** ، الموصل ، ١٩٨٢ ، ص ١٣٧ .

(٤٢) **المرجع نفسه** ، ص ٣٧ ، وانظر: صائغ ، **المصدر السابق** ، جـ ١ ، ص ٣١٣ . والعزاوي ، **المصدر السابق** ، جـ ٨ ، ص ٧ .

(٤٣) د. داؤد الجلبي ، **مخطوطات الموصل** ، بغداد ، ١٩٢٧ ، ص ٢٠٥ .

(٤٤) المايته : مصطلح يعني قوة من المرتزقة تكون مسؤولة عن حفظ الامن .

(٤٥) احمد الصوفي ، **تاريخ محاكم الموصل من ١٥٣٤ – ١٩١٨** ، الموصل ، ١٩٤٩ ، ص ١٨ .

(٤٦) سليمان صائغ ، **المصدر السابق** ، جـ ١ ، ص ٣١٣ . وانظر: د. عبد العزيز نوار ، **تاريخ العراق الحديث** . (سبق ذكره) ، ص ٨٦ .

(٤٧) أنظر: غانم محمد علي ، **النظام المالي العثماني في العراق ١٨٣٩ – ١٩١٤** (رسالة ماجستير غير منشورة) . كلية الآداب / جامعة الموصل ، شباط ١٩٨٩ ، ص ٨٧ .



(٤٨) جاء في "سالنامة الموصل" بأن محمد باشا اينجة البيرقدار قد توفي بمرض الدوسنتاريا ودفن في جامع النبي شيت بالموصل (انظر: سالنامه در موصل ولايتي لسنة ١٣١٢ هـ، ص٤٤٤).

(٤٩) الطائي، المرجع السابق، ص٥٧.

(٥٠) راجع ماكتبه د.يوسف عز الدين في كتابه: **الشعر العراقي: أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر**، القاهرة، ١٩٦٥، ص٢٠.

(٥١) **ديوان شعر عبدالله راقم أفندي** (مخطوط بحوزة كاتب البحث)، ورقة ٢٩ ب.

(٥٢) دي فوصيل، **المصدر السابق**، ص٧٨.

(٥٣) صايغ، **المصدر السابق**، جـ ١ ص٣١٧-٣١٨.

(٥٤) دي فوصيل، **المصدر السابق**، ص٨٠.

(٥٥) د. يوسف عز الدين، **داؤد باشا ونهاية المماليك في العراق**، ط ٢، بغداد، ١٩٧٦، ص١٣.

(٥٦) صايغ، **المصدر السابق**، جـ ١ ص٣١٧.

(٥٧) راجع: **سالنامه در موصل ولايتي لسنة ١٣٢٥ هـ**.

(٥٨) ج كيرك، **موجز تأريخ الشرق الأوسط**، ترجمة: عمر الأسكندري، مراجعة: د. سليم حسن، القاهرة، د.ت.، ص١٦٣.

(٥٩) د. سيار الجميل، "الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي ١٧٢٦-١٨٣٤م" في **الحياة الاجتماعية للولايات العربية أثناء العهد العثماني**، تقديم وتحرير الأستاذ د. عبد الجليل التميمي، جـ ١، تونس، ١٩٨٨.

(٦٠) انظر ماكتبه لونكريك: (S. H. Longrigg, op. cit., p. 313)

(٦١) أنظر: **الدستور**، المجلد (٢)، المادة (٢)/ (٣)/ (٤) بعنوان: "**مجموعة التنظيمات العثمانية**"، ترجمها: نوفل نعمة الله نوفل. بيروت. ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م.

(٦٢) قارن: عباس العزاوي، **المصدر السابق**. جـ ٧، بغداد ١٩٥٥، ص٤٢. وكتاب: د. عبد العزيز نوار، **المرجع السابق**، جـ ١، ص١٧٣-١٨٣.

(٦٣) د. عبد العزيز نوار، **تأريخ العراق الحديث** (سبق ذكره)، ص ١٨.

(٦٤) عباس العزاوي، **المصدر السابق**، جـ ٨، ص٦٩.

(٦٥) سليمان صايغ، **المصدر السابق**، جـ ١، ص٣١٣-٣١٤.

(٦٦) شهاب الدين ابو الثناء الالوسي، **غرائب الاغتراب ونزهة الألباب**، بغداد، ١٣٢٧هـ، ص٦٥.

(٦٧) التفاصيل من: د. سيار الجميل، **حصار الموصل: الصراع الاقليمي واندحار نادرشاه**، ط ١، الموصل، ١٩٩٠.

(٦٨) دي فوصيل، **المصدر السابق**، ص١٣٥.

(٦٩) محمد ثريا، **سجلي عثماني ياخود تذكره مشاهير عثمانية**، أسطنبول ١٣٠٨هـ، جـ ٤، ص ٦٤٤. وأنظر التفاصيل في: Percy Kemp, *Mosul and Mosuli Historians in the Jalili era 1726 — 1834* (unpublished ph. D. Thesis), Oxford, 1979.

(٧٠) صايغ، **المصدر السابق**، جـ ٢، ص١١٥،

(٧١) **المصدر نفسه**، جـ ٢، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٧٢) **المصدر نفسه**، جـ ٢، ص٢٦٩.

(٧٣) للتفاصيل، أنظر: د. عماد عبد السلام رؤوف، "حسن حسني القاضي ورحلته الى ديار بكر حدود ١٨٦٧" **مجلة بين النهرين**، العددان (٢٥-٢٦). السنة (٧). الموصل، ١٩٧٩، ص٣٥-٤٠.

(٧٤) أحمد عزت الفاروقي، **العقود الجوهرية في مدائح الحضرية الرفاعية**، القاهرة، ١٣٠٦هـ، ص٨٧.

(٧٥) أنظر ديوانه: عبد الباقي الفاروقي **أو الترياق الفاروقي أو ديوان عبد الباقي العمري**، ط ٢، النجف، ١٩٦٤.

(٧٦) أنظر التفاصيل في: John M. Fiey, *Mossoul Chretienn*, Beyrott, 1960, pp. 3 — 12.

(٧٧) د. عبد العزيز نوار، **تأريخ العراق الحديث** (سبق ذكره)، ص٣٠٦-٣٠٧.

(٧٨) ذنون الطائي. **المرجع السابق**، ص ١٠٩-١١٠.

(٧٩) سليمان صايغ، **المصدر السابق**، جـ ٣ (=**نفائس الآثار**)، لبنان، ١٩٥٦، ص٧٩.



الموصل في العهد الحميدي

(١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ ١٨٧٦-١٩٠٩م)

جاسم محمد حسن العدول

مقدمة:

بدأ العهد الحميدي باعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني عرش الدولة العثمانية في عام ١٨٧٦، واستمر حتى خلعه في عام ١٩٠٩. وكانت الموصل خلال السنوات الثلاث الاولى من العهد الحميدي تعد واحدة من سناجق (ألوية) سبعة كانت تتألف منها ولاية بغداد وهي: بغداد، والسليمانية،



وكربلاء، والعمارة، والموصل، وشهرزور، والحلة[1].

وقد ظلت الموصل على تلك الحال حتى عام ١٨٧٩ حينما اصبحت ولاية مستقلة[2]، وغدت تضم فضلاً عن سنجق الموصل كلاً من سنجقي السليمانية وشهرزور[3]. وعدَّ الخط الذي يبدأ من عانة على نهر الفرات، حتى مدينة تكريت على نهر دجلة، بمثابة الحدود الفاصلة بين ولايتي الموصل وبغداد[4]. اما عن مساحة ولاية الموصل فكانت تقدر بـ (٩١,٠٠٠) كم٢[5].

وفي حين كانت ولاية بغداد تعد ولاية من الدرجة الأولى، وولاية البصرة ولاية من الدرجة الثانية، فقد كانت ولاية الموصل ولاية من الدرجة الثالثة. وكان مرتب والي الموصل يقل عن مرتب نظيريه في بغداد والبصرة. فبينما بلغ مرتب والي بغداد (٢٠,٠٠٠) قرش، ومرتب والي البصرة (١٧,٠٠٠) قرش، كان مرتب والي الموصل يساوي (١٥,٠٠٠) قرش[6].

ولقد تعاقب على حكم ولاية الموصل خلال العهد الحميدي الذي استمر مدة (٣٣) عاماً، اربعة وعشرون والياً، تراوحت فترات حكمهم بين اقل من سنة واحدة، وخمس سنوات[7]. وقد وُصف اولئك الولاة بوجه عام بأنهم كانوا على درجة من الكفاءة والمقدرة، ولو ان ذلك لم يحل دون ان يكون بينهم عدد من الولاة الضعفاء والمرتشين[8].

الموصل وانتخابات البرلمان العثماني الاول:

كان السلطان عبد الحميد الثاني قد اوعز في السنة الاولى من اعتلائه الحكم بتشكيل لجنة قوامها اربعة اعضاء، مهمتها اجراء بعض التعديلات على الخطة التي كان قد وضعها مدحت باشا بشأن انتخابات اعضاء البرلمان العثماني الأول. وأعدت اللجنة خطة جديدة تألفت من سبعة مواد[9]، ونشرت رسمياً في ٢٨ تشرين الاول عام ١٨٧٦، وجرى تعميمها في الحال على حكام الولايات العثمانية كافة.

وقد اشارت المادة الثانية من الخطة الى انه بالنظر لضرورة اجراء الانتخابات بأسرع وقت ممكن، فإن النواب سوف لاينتخبهم الشعب مباشرة، بل ينتخبهم اعضاء مجالس الادارة في مراكز الولايات وفي السناجق والمناطق. فيما نصت المادة الرابعة على ان الحكومة العثمانية هي التي تتولى تحديد عدد نواب كل ولاية[10].

اما عن طريقة الاقتراع فكانت كالآتي: يكتب الناخب في بطاقة الاقتراع اسماء عدد من الاشخاص مساوياً للعدد المنصوص عليه في بطاقة الاقتراع من المرشحين المسلمين ومن غير المسلمين، يختارهم من بين مواطني ولايته وممن تتوافر فيهم الشروط الانتخابية. ثم تدفع بطاقات الاقتراع وتوضع في مظروف مختوم بالشمع، وترسل الى القائممقام في حالة ما إذا كانت الانتخابات قد جرت في قضاء، والى المتصرف في حالة ما اذا كانت قد جرت في السناجق، ويتولى المتصرفون ارسالها الى الوالي. كذلك يصوت اعضاء مجلس الادارة في مركز الولاية بطريقة مشابهة لتلك التي تجري في الاقضية والسناجق. ويتم فتح المظروف في مركز الولاية وبحضور لجنة تتألف من (١٥) عضواً يرأسها الوالي. وتتشكل من وجهاء الولاية وعلماء الدين ورؤساء الطوائف الدينية الاخرى. وبعد فرز الاصوات تعلن اللجنة اسماء اولئك الذين احرزوا اكثرية الاصوات. وبعد ابلاغ المرشحين الفائزين بفوزهم ترسل البطاقات والقوائم الانتخابية الى استانبول لكي يصار الى تدقيقها من قبل مجلس الدولة[11].

ومهما يكن من امر فقد تم انتخاب ثلاثة اشخاص عن ولاية بغداد والتي كانت الموصل آنذاك جزءاً منها للدورة البرلمانية الاولى وهم: عبدالرحمن وصفي آل شريف بك، وعبدالرزاق

افندي، ومناحيم صالح افندي[١٢]. وبالنظر الى ان تعداد سكان ولاية بغداد آنذاك كان يبلغ (١,٦٠٤,٤٧٦) نسمة[١٣]، فقد كان كل نائب من نواب ولاية بغداد الثلاثة يمثل (٥٣٤,٨٢٥) نسمة[١٤].

استغرقت اجتماعات الدورة البرلمانية الاولى زهاء ثلاثة اشهر ونصف الشهر، إذ بدأت في ١٩ آذار عام ١٨٧٧، واختتمت في ٢٨ حزيران من العام نفسه عندما صدرت ارادة سلطانية بهذا الشأن[١٥]. وبلغ عدد الجلسات التي عقدت خلال تلك الدورة ما يقارب (١٠٠) جلسة[١٦].

وبالنسبة لانتخابات الدورة البرلمانية الثانية فقد أسفرت عن فوز كل من رفعت بك، وعبدالرزاق افندي، ومناحيم صالح افندي[١٧]. وقد بدأت اعمال هذه الدورة في ١٣ كانون الاول عام ١٨٧٧، وانتهت في ١٤ شباط عام ١٨٧٨ حينما قرر السلطان تعطيل البرلمان لاجل غير مسمى[١٨]. وقد تراوح عدد جلسات الدورة الثانية مابين ١٥ الى ١٦ جلسة[١٩]، كُرس معظمها لمناقشة الاوضاع في منطقة البلقان والسياسة الخارجية للحكومة[٢٠].

لقد اتسمت انتخابات البرلمان العثماني الاول بدورتيه الاولى والثانية بسمات ابرزها:

١- ان توزيع المقاعد البرلمانية على الولايات لم يتم بصورة عادلة، فقد كان يفترض ان يخصص لولاية بغداد (١٤) مقعداً بالنظر لكثرة سكانها، لكن ماخصص لها في الواقع لم يزد عن ثلاثة مقاعد في كلتا الدورتين البرلمانيتين الاولى والثانية.[٢١]

٢- إن الناخبين لم يكونوا على دراية كافية بمعنى الحياة النيابية، او بالمسؤوليات المناطة بهم. فقد ذكر مصدر بأن سكان الولايات العثمانية كانوا - بوجه عام- يعتقدون أن مرشحي كل دائرة انتخابية انما يمثلون فقط ابناء الدائرة الانتخابية التي انتخبوا عنها، وكان الناخبون غالباً مايلحون على النواب بتحقيق مطالب ذات طابع شخصي بحت[٢٢].

٣- ان عملية الانتخابات جرت بهدوء تام وأسفرت عن فوز اولئك الذين أرادت الحكومة فوزهم[٢٣].

اما عن مساهمة الموصل في تلك الانتخابات فكانت محدودة جداً وذلك لان الموصل لم تكن وقت اجراء الانتخابات ولاية مما حال دون تخصيص مقاعد لها في البرلمان العثماني الاول. وعلى الرغم من ان المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ الموصل في هذه الفترة لم تورد- حسب علمنا- اية اشارة الى موضوع الانتخابات في الموصل، الا انه بالامكان ان نستنتج- طبقاً للمادة الثانية من خطة الانتخابات التي كنا قد اشرنا اليها آنفاً- ان مساهمة الموصل في الانتخابات اقتصرت على انتخابات محدودة جرت في مجلس ادارة لواء الموصل، وفي مجالس ادارة الاقضية التابعة له.

الموصل والحرب الروسية العثمانية لعام ١٨٧٧-١٨٧٨:

كان من بين الاحداث التي واجهتها الموصل في مطلع العهد الحميدي نشوب الحرب الروسية العثمانية في عام ١٨٧٧- ١٨٧٨، وهي الحرب التي عرفت في التاريخ العثماني باسم حرب (طقوسان اوج) اي حرب الثالثة والتسعين[٢٤]، نسبة الى العام الرومي الذي وقعت فيه وهو عام ١٢٩٣ رومية (١٨٧٧م)[٢٥]. وقد اطلق العراقيون على هذه الحرب اسم (طقناووز)[٢٦] حيناً، و(دقة الغربية) حيناً آخر. وكانت الغربية تعني في اللهجة العراقية جهة الشمال، وهي اشارة قصد بها جبهة قفقاسيا، وهي احدى جبهتي حرب عام ١٨٧٧- ١٨٧٨.

لعل الحرب الروسية العثمانية كانت اول حرب في تاريخ العراق الحديث وفي تاريخ الموصل، قاتل فيها العراقيون خارج حدود وطنهم. فقد استدعت



الحكومة العثمانية قوات الجيش السادس (وهو الاسم الذي يطلق على القوات العسكرية التي ترابط في العراق) للقتال في تلك الحرب. وقدر[٢٧] مصدر حجم تلك القوات بـ (١٣) طابورا[٢٨] (فوجاً). فيما أشار مصدر آخر الى ان عدد الجنود الذين اسهموا في تلك الحرب من ولاية بغداد– والموصل وقتذاك جزءً منها– بعشرة آلاف جندي، فضلاً عن اعداد اخرى من المتطوعين[٢٩] من ابناء العشائر العراقية (مثل عشيرة الهماوند التي كانت تتخذ من جمجمال الواقعة بين كركوك والسليمانية موطناً لها)[٣٠] الذين قاتلوا ضمن قوات الباش بوزق (وهي قوات خيالة غير نظامية) واثبتوا بسالة في الحرب[٣١].

لقد كان على الجيش السادس ان يقاتل في جبهة الاناضول. وحال تأخر وصوله الى هناك وذلك لعدم توافر وسائط نقل سريعة كالسكك الحديد مثلاً، دون تمكينه من المشاركة الفعلية في المعارك،[٣٢] وعلى اية حال، فقد قدم الموصليون، شأنهم في ذلك شأن اشقائهم من العراقيين تضحيات جسيمة في تلك الحرب، قدرت بحوالي ٨٠٪ من مجموع الجنود العراقيين[٣٣]. مات معظمهم جراء البرد القارص والجوع. ولم يقدّر لغير عدد ضئيل من الجنود العودة الى وطنهم[٣٤]. وكانت التضحيات الكبيرة للموصليين وللعراقيين بوجه عام في الحرب– والتي لم تكن لهم فيها اية مصلحة مباشرة، سيما وانها حرب بين دولتين اجنبيتين– سبباً لظهور ورواج النوحية المشهورة (اويلاخ يادقة الغربية)[٣٥].وقد اخذت بقايا القوات التي ارسلت من العراق وبضمنها الموصل تعود ادراجها الى الوطن في اعقاب الاوامر التي اصدرتها القيادة العليا للجيوش العثمانية الى قيادة الجيش الرابع – التي تتخذ من ارزنجان الواقعة في شرق الاناضول مقراً لها– في ايلول عام ١٨٧٨ (شوال ١٢٩٥هـ)، وكانت تقضي باتخاذ التدابير الكفيلة لتسهيل عملية انسحاب الثلاثة عشر فوجاً، التي كانت قد أرسلت من العراق، وتأمين عودتها اليه بأسرع وقت ممكن[٣٦].

وحري بالاشارة ان الحرب الروسية– العثمانية تركت آثاراً سلبية على الموصل والعراق عموماً، إذ حملت السلطات العثمانية على مضاعفة الضرائب على المواطنين، وابتزاز الاموال منهم تحت ستار جمع التبرعات للحرب.

واخيراً فقد أدت هزيمة العثمانيين في تلك الحرب، وفقدانهم اراضي واسعة في الاناضول والبلقان، الى ان يزيدوا من اعتمادهم على الاقطار العربية ولاسيما العراق الذي غدا في مقدمة الاقطار العربية التي اعتمد عليها السلطان عبدالحميد الثاني[٣٧]. وكان مرد ذلك يعود الى محاولة السلطان عبدالحميد الثاني استغلال العراق وبضمنه الموصل في امداد جيوشه بالجنود وتمويل خزائنه بالاموال[٣٨].

كارثة المجاعة عام ١٨٧٩ في الموصل وآثارها على الصعيد السياسي:

مع ان كارثة المجاعة التي حلت بالموصل في عام ١٨٧٩،[٣٩] تعد من المشكلات الاقتصادية، فاننا سوف نقصر معالجتنا لها على الانعكاسات التي خلفتها على الصعيد السياسي. إذ ادى اخفاق السلطات الحكومية في معالجة الآثار المترتبة على الكارثة الى ردود فعل سلبية تجاهها. فلقد كان من بين الاجراءات التي اتخذتها السلطات الحكومية للحد من مخاطر المجاعة تخويلها السلطات البلدية صلاحية مداهمة بيوت الاغنياء والاستيلاء على المواد الغذائية الفائضة عن حاجتهم وتوزيعها على الفقراء. الا ان الموظفين الذين كلفوا بتنفيذ تلك المهمة كانوا يفتقرون الى النزاهة وروح الشعور بالمسؤولية. فقد تأثروا بالاعتبارات الشخصية حيناً، وبالرشوة حيناً آخر، وكانوا يعمدون الى

تسريب اخبار التفتيش الى الاغنياء مما كان يتيح لهؤلاء فرصة اخفاء مالديهم من مواد غذائية فائضة. وتسبب هذا في جعل التفتيش اجراءً عقيماً، وعلاوه على ذلك لم يتورع بعض المسؤولين الحكوميين عن استغلال أزمة المجاعة لتحقيق الثراء الفاحش.[40]

وزاد الطين بلة أن الحكومة العثمانية اجرت تخفيضاً كبيراً على قيمة عملتها في العراق إبان كارثة المجاعة، إذ تدنت قيمة المجيدي (وهي عملة من فئة عشرين قرشاً) الى ثمانية قروش، وغدا البشلك (وهي عملة من فئة خمسة قروش) يساوي قرشين فقط. وزاد هذا التخفيض من معاناة المواطنين، وتضرر بسببه المئات منهم[41].

وهكذا فعل الجوع فعله في المواطنين ولاسيما الفقراء منهم،[42] فأخذوا يندّدون علانية بالحكومة العثمانية ويهتفون بسقوطها.[43]

علاقات الحكومة المحلية في ولاية الموصل مع عشائر شمر الجربا:

واجهت الحكومة المحلية في الموصل عدداً من المشكلات كان في مقدمتها نزوع العشائر الى الاستقلال، ورفضها تدخل السلطات الحكومية في شؤونها. إذ اعتادت العشائر ولاسيما القوية منها على بسط سيطرتها على مناطق معينة كانت تعدها مناطق نفوذ خاصة بها، اصطلح على تسميتها بـ (الديرة) وكانت العشائر تفرض على المسافرين والقوافل التجارية التي تمر عبر ديرتها دفع رسوم لها وهي ماعرفت بإسم الخوة او الخاوة بالاصطلاح المحلي. وقد ازدادت مقاومة العشائر للسلطات الحكومية عندما حاولت الاخيرة تطبيق نظام الخدمة العسكرية الالزامية على العشائر. كذلك دأبت بعض العشائر على الامتناع عن دفع الضرائب للحكومة باعتبارها سلطة غريبة عنهم.

وكانت الحكومة العثمانية قد بدأت منذ القرن التاسع عشر بتبني سياسة من شأنها تشديد قبضتها على المناطق التابعة لها. وقد تجسدت تلك السياسة بالقضاء على الامارات التي كانت تتمتع بالاستقلال. ففي العراق مثلاً، لم يكتف العثمانيون باستعادة حكمهم المباشر على بغداد وجنوب العراق في عام ١٨٣١، بعدما اقصوا المماليك عن حكمها، بل التفتوا الى الموصل حيث قضوا في عام ١٨٣٤ على الامارة الجليلية التي كانت تتولى حكمها. وغدت الموصل منذ ذلك الحين تخضع للحكم العثماني المباشر. كذلك أجهز العثمانيون على تلك الامارات التي كانت تقوم في شمال العراق مثل الامارة البابانية في السليمانية، والامارة البهدينانية في العمادية والامارة السورانية في راوندوز في حوالي منتصف القرن التاسع عشر.

ويبدو أن النجاح الذي حققه العثمانيون في مضمار القضاء على الأمارات المستقلة شجعهم على محاولة التوسع في تطبيق السياسة المركزية بحيث تشمل المناطق العشائرية. وبغية تحقيق هذا الهدف اقدموا على اتخاذ سلسلة من الاجراءات ضد العشائر. فلم يكتفوا برفض الاعتراف بالنظام العشائري[44] فحسب، بل حاولوا تقويضه[45]. واتبعوا في سبيل ذلك وسائل بعضها سلمي وبعضها الآخر قمعي.

فأما الوسائل السلمية فقد اشتملت على مواصلة العمل بسياسة توطين العشائر، التي كان قد بدأها الوالي مدحت باشا (١٨٦٩ - ١٨٧٢)، وتأسيس مدرسة في استانبول خاصة بابناء شيوخ العشائر البارزة تعرف باسم (مكتب العشيرة الخاص)، في محاولة من السلطات العثمانية لخلق جيل جديدة من شيوخ العشائر اكثر طواعية لها[46]. وكذلك اغراء شيوخ العشائر بتقلد المناصب الحكومية. فقد عمدت السلطات العثمانية الى تحويل بعض المناطق العشائرية الى وحدات ادارية، اناطت رئاستها بشيوخ العشائر. كما



اغدقت تلك السلطات على شيوخ العشائر الالقاب والخلع والنياشين في محاولة منها لكسب ودهم، وللابقاء على ولائهم للحكومة العثمانية. وعلاوة على ذلك، ضمت تلك الاساليب اسلوب اثارة الخلافات بين العشائر[٤٧]، واذكاء حدة النزاعات بينها[٤٨]، وكسر شوكة الشيوخ الذين ينجحون في بسط نفوذهم خارج نطاق عشيرتهم[٤٩]، وكذلك عقد ندوات مع شيوخ العشائر، وحثهم فيها على الاخلاد الى السكينة[٥٠]، والاستعانة احياناً ببعض الشخصيات العراقية المتنفذة لاقناع العشائر على دفع الضرائب للحكومة، وللحيلولة دون قيامها بحركة ضدها[٥١].

في حين كانت اساليب الحكومة العثمانية القمعية قد تضمنت استخدام القوة العسكرية لارغام العشائر على تنفيذ التزاماتها ازاء الحكومة، وفي القضاء على ثوراتها، وكذلك نفي شيوخ العشائر الثائرة احياناً، وترحيل العشائر الثائرة في احيان اخرى.

وسوف نتخذ من علاقات الحكومة المحلية في الموصل مع عشائر شمر الجربا نموذجاً للعلاقات القائمة بين تلك الحكومة والعشائر بوجه عام. اما سبب اختيارنا لعشائر شمر الجربا بالذات فيعود الى اسباب اهمها ان هذه العشائر كانت تعد اقوى العشائر في ولاية الموصل، وكانت تمارس نفوذاً على مناطق واسعة في شمال العراق.

كانت مضارب عشائر شمر الجربا تقع في منطقة الجزيرة الكائنة في شمال العراق بين نهري دجلة والفرات. وفي فصلي الشتاء والربيع حيث موسم الامطار والكلأ كانت عشائر شمر توسع نطاق ترحالها بحيث تشمل المناطق الواقعة بين نهر الخابور في اعالي الجزيرة شمالاً، وبين الحلة جنوباً. اما عن عدد افراد عشائر شمر، فقد قدر بحوالي مائة الف نسمة.[٥٢] وكانت عشائر شمر تقوم بفرض الخوة على التجار والمسافرين على الطريق الذي يربط بين الموصل وبغداد، وكذلك على الطريق الذي يصل بين الموصل وبلاد الشام. كما كانت تأخذ رسوماً على الاغنام والخيول العائدة الى العشائر الاخرى والتي كانت تجوب منطقة الجزيرة مثل عشائر طي، والجحيش، والبو حمد، والحديديين، والجبور.[٥٣] وتعكس هذه الظاهرة بوضوح قوة نفوذ عشائر شمر في منطقة الجزيرة، وذلك ماحمل الحكومة العثمانية والسلطات المحلية في الموصل على استمالة شيوخ هذه العشائر والسعي للابقاء على ولائهم لها.

يمكن القول بأن علاقات عشائر شمر مع السلطات الحكومية في ولاية الموصل إبّان العهد الحميدي قد اتسمت بطابع ودي بوجه عام. فقد حافظ شيخا شمر وهما (فرحان باشا)، و(مجول باشا) اللذان توليا مشيخة شمر خلال ذلك العهد على ولائهما للحكومة المحلية في الموصل.

فأما فرحان باشا الذي كانت مشيخته قد امتدت حتى وفاته في عام ١٨٩٠ (ذي القعدة ١٣٠٧)، فقد ابدى استعداداً للموافقة على سياسة توطين العشائر التي كانت السلطات العثمانية قد تبنتها منذ عهد الوالي مدحت باشا اذ بنى فرحان باشا داراً له في الشرقاط الى الجنوب من الموصل وذلك في عام ١٨٧٨، [٥٤] على امل ان يحذو ابناء عشيرته حذوه. وقد كافأته السلطات العثمانية على موقفه هذا فمنحته لقب (باشا)[٥٥]. كما خصصت منحة سنوية له مقدارها (٣٠٠٠) ليرة ثمناً لتعهده بالمحافظة على النظام في منطقته، ولحمله على اقناع عشيرته بالاستقرار. وعادت السلطات العثمانية فمنحت فرحان باشا اراضي اخرى في الفرحاتية قريباً من بلد وفي جنوب سامراء نظراً للصعوبات التي حالت دون نجاح الزراعة في الشرقاط.[٥٦] وقد بقي فرحان باشا على علاقات حسنة بالسلطات العثمانية حتى قيل انه لم يبد طيلة فترة مشيخته اية معارضة



ضد الحكومة.[٥٧] وشجع اولاده الصغار على تعلم اللغة التركية[٥٨]، في محاولة منه لكسب ود السلطات التركية. كما كان يحرص على الحصول على اذن من والي بغداد فيما اذا اراد السفر الى بغداد او مغادرتها[٥٩] وقد ابدى بعض ولاة بغداد من جانبهم مودة خاصة للشيخ فرحان إذ كانوا احياناً يصطحبونه معهم في جولاتهم التفقدية[٦٠]. وظلت العلاقات جيدة بين الطرفين حتى ان الشيخ فرحان تبرع بمبلغ (٥٠٠) قرش لاعادة اعمار احدى المنشآت العسكرية في بغداد[٦١]. وأعاد فرحان باشا احياناً الاموال التي كانت قد استولت عليها عشيرته الى الحكومة، كما حدث مثلاً في عام ١٨٩٩، عندما ارسلت السلطات الحكومية قوة ضده في اعقاب الغارات التي شنتها شمر على القوافل التجارية في كل من ولايتي الموصل وبغداد. حيث لم يكتف فرحان باشا بعدم مقاومة تلك القوة فحسب، وانما رد اليها الاموال المنهوبة، بل قدم الهدايا الى قائد القوة.[٦٢]

وهكذا نجحت الحكومة العثمانية – بفضل ولاء فرحان باشا لها – بالسيطرة على شمر. واتخذت تلك السيطرة مظاهر من بينها ان السلطات الحكومية استطاعت ان تجبي الضرائب من شمر بسهولة[٦٣].

على ان ولاء فرحان باشا للسطات الحكومية لم يحل من جهة اخرى دون ايوائه لابن عمه (الشيخ إسمير)، الذي كانت السلطات العثمانية تلاحقه بتهمة قتل بعض جنودها عقب إعدام شيخ شمر وهو الشيخ عبدالكريم خلال ولاية مدحت باشا على العراق، وكان فرحان باشا يرد على نداءات السلطات العثمانية بتسليمها الشيخ إسمير، بانه يجهل مكان وجوده[٦٤].

ومن جانب آخر، واجه الشيخ فرحان منافسة قوية من قبل اخيه الشيخ فارس. وكان الاخير قد غادر العراق الى حائل في اعقاب اعدام الشيخ عبدالكريم ثم عاد الى العراق في عام ١٨٧٥، وكان عمره آنذاك (٢٤) عاماً. وقد اخذ نفوذ الشيخ فارس ينمو بسرعة في أوساط شمر، سيما وانه كان من المعارضين لسياسة الحكومة العثمانية الرامية الى توطين العشائر، كما كان يمتاز على اخيه – بنظر عشيرته – بأن امه من اصل بدوي، في حين ان ام فرحان كانت من اصل حضري وقد بلغ من اتساع نفوذ الشيخ فارس ان قدر عدد اتباعه بنحو من نصف عشيرة شمر.

وسواء أكان الشيخ فارس هو الذي بادر بالاتصال بالسلطات العثمانية حينما عرض تقديم المساعدة لها في معالجة بعض الشؤون العشائرية مقابل حصوله على اموال من تلك السلطات، ام ان الاخيرة هي التي بدأت بمفاتحة الشيخ فارس للدخول في مفاوضات معها بهدف كسبه الى جانبها فقد دارت مفاوضات بين الشيخ فارس، وحسين باشا حاكم دير الزور، ولعل السبب في اختيار الاخير لهذه المهمة هو ان السلطات العثمانية في العراق ارادت تفادي الحرج إن هي تعاملت مع شيخين لعشيرة واحدة وفي وقت واحد. هذا الى جانب ان حاكم دير الزور كان ينحدر من اصل عربي مما يضمن لمفاوضاته مع الشيخ فارس مزيدا من فرص النجاح.

ومهما يكن من امر فقد وجه حسين باشا دعوة الى الشيخ فارس لزيارة دير الزور. ولبى فارس الدعوة، واستقبل بحفاوة بالغة من قبل حسين باشا، وتمخضت الزيارة عن التوصل الى اتفاق تعهد الشيخ فارس بموجبه بالمحافظة على الامن في منطقة البادية، مقابل حصوله على مرتب شهري من السلطات العثمانية، علاوة على مساندة الاخيرة له في صراعه ضد ابني اخيه فرحان[٦٥]، وهما عاصي ومجول اللذان كانا يناصبانه العداء بسبب تنامي نفوذه، بل انهما حاولا توريطه في نزاعات مع السلطات العثمانية عن طريق شنهما غارات على بعض العشائر في منطقة الفرات،



وتحميل رجال الشيخ فارس مسؤوليتها. وهكذا انقسمت عشيرة شمر بين زعيمين، وهو ماكان ينسجم مع السياسة العثمانية القاضية بتمزيق وحدة العشيرة.

وبصدد مشيخة مجول، التي بدأت في سنة ١٨٩١، على أثر وفاة ابيه فرحان باشا،(٦٦) فقد شهدت ازدياد سيطرة الحكومة على مجول وجدير بالذكر ان الشيخ مجول كان موضع ارتياح من قبل السلطات العثمانية قبل توليه مشيخة شمر. فقد كانت الحكومة المحلية في بغداد قد ناشدت في عام ١٨٨٢ (جمادى الاولى ١٢٩٩هـ) الحكومة المركزية في العاصمة مكافأة الشيخ مجول، تقديرا لجهوده في مسألة جمع تعويضات من عشيرته (الودي)، واستجابت الحكومة الاخيرة لطلب الحكومة المحلية في بغداد فمنحت مجول رتبة (قبوجي باشا)(٦٧).

وقد حدث في اعقاب الشكوى التي رفعها لفيف من تجار بغداد ممن استولت شمر على اموالهم، الى والي بغداد الحاج حسن باشا (١٨٨٩ - ١٨٩٤)، ان استدعى الاخير الشيخ مجول الى مركز الولاية في سنة ١٨٩١، وفرض عليه دفع تعويضات عن الاموال المنهوبة مقدارها (١٣٠٠٠) قرش وهدده في حالة قيام رجاله بغارات اخرى على القوافل التجارية لتغريمه اضعاف ماينهبونه، فضلاً عن إنزال اقسى العقوبات فيهم. كما حثه على طلب المساعدة منه عند شعوره بالعجز عن ردع اولئك الذين يواصلون سلب القوافل التجارية، وتعهد له في هذه الحالة بأن يرسل اليه على جناح السرعة قوات من الجندرمة لمساعدته.(٦٨)

وحرص مجول من جانبه على اظهار الود للسلطات العثمانية، كما يستدل على ذلك من ارساله أخاه حميدي الى استانبول في سنة ١٨٩١، للالتحاق بمدرسة العشائر فيها.(٦٩)

واصلت شمر مهاجمة القوافل التجارية في ولاية الموصل، وبالنظر لعجز الحكومة المحلية في الموصل عن وضع حد لها ارسلت السلطات المركزية الفريق عمر وهبي باشا الى العراق في سنة ١٨٩٢، للقيام - علاوة على مهام اخرى - باخضاع شمر وتوطينها. وعلى الرغم من ان الفريق عمر باشا كان قد نجح في تجريد شمر من بعض اسلحتها، فانه عجز عن اخضاعها، وهكذا استأنفت شمر شن غاراتها على القوافل التجارية(٧٠).

وفي الامكان ان نعلل شن تلك الغارات - في ذات الوقت الذي كان الشيخ مجول يحرص فيه على استمرار العلاقات الحسنة مع الحكومة - بانها كانت من تدبير فئات خارجة عن سيطرة مجول.

ومهما يكن من شيء، فقد واصل مجول مساعيه الرامية الى نيل رضا السلطات الحكومية، كما يتضح ذلك من موافقته في عام ١٨٩٩ على حضور الاجتماع الذي عقده مجلس ادارة ولاية بغداد والذي ترأسه والي بغداد نامق باشا (١٨٩٧ - ١٩٠٠) للبحث في النزاع الذي كان محتدماً بين عشائر شمر والدليم. وقد انتهى الاجتماع بعقد صلح بين العشيرتين، وتعهد شيخاهما بالامتناع عن القيام باي عمل من شأنه تعكير صفو الامن.(٧١)

كذلك أسهم الشيخ مجول مع شيوخ عشائر اخرى في التبرع بعدد من الجياد الاصيلة الى الجيش السادس في عام ١٨٩٩. وقد كافأت الحكومة العثمانية اولئك الشيوخ بان منحت كلاً منهم وساماً من النوع المجيدي ومن الدرجة الخامسة(٧٢). كما زج الشيخ مجول ببعض ابناء عشيرته للقتال الى جانب القوات العثمانية وقوات ابن الرشيد، ضد ابن سعود في عام ١٩٠٤.(٧٣) ويبدو ان الخطوة الاخيرة هي التي دفعت السلطات العثمانية الى تكريم الشيخ مجول بمنحه لقب (بك) في عام ١٩٠٥، فضلاً عن منحه مرتباً سنوياً مقداره (٢٠٠) ليرة عثمانية(٧٤).

ولعل من المفيد ان نشير الى ان الحكومة المحلية في الموصل كانت قد اعتقلت كلاً من عاصي بك ، والهادي وهما من ابناء فرحان في عام ١٩٠٤ ، بتهمة يرجح انها تتعلق بقيامها بالاخلال بالنظام والأمن ، ولو انه اطلق سراحهما في السنة نفسها بعد صدور عفو عنها من السلطان عبدالحميد الثاني. (٧٥)

ويبدو ان علاقات مجول مع السلطات الحكومية اخذت تتدهور قبيل الانقلاب الدستوري الذي حدث في عام ١٩٠٨. إذ اقدمت السلطات العثمانية على اعتقال الشيخ مجول عشية ذلك الانقلاب دون ان تفصح عن سبب اعتقاله. (٧٩) وفي عام ١٩٠٩ عادت شمر الى اخذ الضرائب من تجار الموصل ، فقد قدرت الاموال التي حصلت عليها شمر من تجار الموصل في ذلك العام بما يزيد على (٦٠٠٠) ليرة عثمانية. (٧٧)

علاقات الحكومة المحلية في الموصل مع اليزيديين:

كانت مناطق اليزيديين تتركز في بعض ارجاء ولاية الموصل ولاسيما في منطقتي سنجار والشيخان. وكانوا يمارسون طقوساً خاصة في عبادتهم (٧٨) . وقد حاولت السلطات العثمانية في مطلع السبعينات من القرن التاسع عشر شمول اليزيديين بأداء الخدمة العسكرية الالزامية ، لكن اليزيديين ناشدوا تلك السلطات من خلال عريضة رفعوها اليها ، اعفاءهم من الخدمة الالزامية ، بحجج منها انها تعيقهم عن اداء واجباتهم الدينية. وقد استجابت السلطات العثمانية آنذاك لطلبهم ، فوافقت على استثنائهم من اداء الخدمة العسكرية واستعاضت عنها بقبول البدل النقدي من اليزيديين. وظل الحال على ذلك حتى اعتلاء السلطان عبدالحميد الثاني عرش الدولة العثمانية. وقد تبنى الأخير سياسة جديدة تهدف الى بعث قوة الدولة العثمانية من جديد وتمكينها من مواجهة الاخطار الخارجية وذلك برفع شعار (الجامعة الاسلامية) (٧٩).

بدأت الحكومة العثمانية منذ العقد الاخير من القرن التاسع عشر باستخدام أساليب العنف ضد اليزيديين لارغامهم على اعتناق الاسلام. إذ ارسلت عدداً من الحملات العسكرية ضدهم. وكابد اليزيديون خلالها شتى صنوف الاضطهاد مما أثار سخطهم على الحكومة العثمانية . وقد بلغ هذا السخط ذروته على اثر ارسال الحكومة العثمانية الفريق عمر باشا الى العراق في عام ١٨٩٢ ، لاغراض من بينها محاولة تحويل اليزيديين الى الاسلام.

كان عمر باشا قد اتبع مع اليزيديين في بادئ الامر اساليب سلمية. إذ اتصل بـ (ميرزا بك) ، احد زعماء اليزيديين في منطقة الشيخان ودعاه الى زيارة الموصل. وقد لبى مرزا بك الدعوة حيث وصل الى الموصل بصحبة عدد كبير من اتباعه. وقد اغتنم عمر باشا فرصة تلك الزيارة لممارسة أقصى قدر ممكن من التأثير في نفوس اليزيديين . اذ أعد حفلاً ضخما لاستقبالهم وكان هو على رأس المستقبلين. وقد شارك في الاستقبال علماء الدين ، وبعض القطعات العسكرية المرابطة في الموصل ، فضلاً عن فرقة موسيقية عسكرية. وعقد عمر باشا اجتماعاً مع مرزا بك ورجاله في دار الحكومة وخلال ذلك دعا عمر باشا اليزيديين الى الاعلان عن تخليهم عن عبادتهم واعتناقهم الاسلام ، لكن اليزيديين– وباستثناء ميرزا بك واخيه واثنين من رجاله – احجموا عن ذلك وأثار هذا الموقف استياءً شديداً لدى عمر باشا اضطره الى استخدام اساليب العنف ضد اليزيديين . حيث ضرب الاخيرون ضرباً مبرحاً حتى مات بعضهم ، فيما اصيب بعضهم الاخر بجروح نقلوا على اثرها الى المستشفى. (٨٠)

وعلى الرغم من الفشل الذريع الذي مني به عمر باشا فانه حاول ايهام السلطات الحكومية بنجاح مهمته ، اذ ارسل برقية الى حكومة ولاية



الموصل، ادعى فيها بأنه نجح في اقناع كافة اليزيديين في ولاية الموصل باعتناق الاسلام طواعية.[٨١] بل انه بعث ببرقية اخرى الى استانبول زعم فيها بأنه نجح في تحويل (٢٠) الف من اليزيدية الى الاسلام. وناشد السلطات العثمانية ان تمنح اوسمة الى مرزا بك واخوته. ويبدو ان السلطات الاخيرة اقتنعت بادعاءات الفريق عمر باشا بدليل انها بعثت اليه بالاوسمة ، وقلدت لاصحابها بالفعل.[٨٢]

لم يحل فشل محاولة عمر باشا المذكورة آنفاً دون استمراره في مساعيه السلمية الرامية الى تحويل اليزيديين الى الاسلام. فقد ارسل فريقاً من المعلمين الى منطقة الشيخان، لتعليم اليزيديين اصول الدين الاسلامي، اضافة الى تعليمهم مبادئ القراءة. وقد قاطع اليزيديون اولئك المعلمين وطردوهم وهددوهم بالقتل اذا ماعادوا ثانية. ولما وصلت اخبار ذلك الى اسماع عمر باشا استشاط غضباً، وارسل ابنه على رأس كتيبة من الجنود الى منطقة الشيخان وقام افراد الكتيبة بقتل اعداد من اليزيديين ونهبوا بعضاً من قراهم واستحوذوا على مواشيهم، فيما اشعلوا النار في بعض آخر من القرى[٨٣]. كذلك نهبوا مقر الامير واستولوا على سناجق اليزيديين،[٨٤] وارسلوها الى بغداد حيث اودعت في احدى الخزانات التابعة للجيش السادس، وبقيت هناك حتى عام ١٩٠٨ حينما وقع الانقلاب العثماني اذ سمح قادة النظام الجديد بارجاع السناجق الى اماكنها في مرقد الشيخ عدي ابن مسافر في وادي لالش.[٨٥]

اثارت سياسة عمر باشا هذه ردود فعل شديدة في اوساط اليزيديين في سنجار فقد اعلن هؤلاء العصيان، وذلك ماحمل عمر باشا على ان يقود بنفسه حملة كبيرة ضدهم، بلغ قوامها عشرة افواج من المشاة، وكتيبتان من الخيالة، ووحدات من المدفعية، فضلاً عن بعض العشائر الموالية للحكومة ودارت رحى معركة عنيفة بين الطرفين في نيسان عام ١٨٩٣، استمرت ثلاثة ايام في موقع يعرف بـ (زوقاية). وقد تكبدت القوات الحكومية خلال المعركة خسائر فادحة، فيما كانت خسائر اليزيديين اقل منها نسبياً. ويعزى تفوق كفة اليزيديين في المعركة الى عوامل منها الطبيعة الجبلية لمنطقة سنجار، والى استماتة اليزيديين في القتال. ولعل من المفيد ان نشير الى ان القوات العشائرية التي كانت تقاتل في صف القوات الحكومية تخلت عن تأييدها للقوات الحكومية حينما ادركت ان سير القتال لم يعد في صالح هذه القوات. واضطر عمر باشا ازاء هذا الفشل الى ايقاف القتال، بل انه عقد هدنة مع اليزيديين، واستأنف من جديد محاولاته السلمية معهم لحملهم على اعتناق الاسلام.[٨٦] وبينما كانت المفاوضات تجري بينه وبين اليزيديين بشأن عقد صلح بينهما، إذ اصدرت الحكومة العثمانية قراراً بعزل عمر باشا بعد ان ادين امام لجنة تحقيقية- كانت ارسلتها الى الموصل للتحقيق في الشكاوى المرفوعة ضده- بارتكاب اعمال قمعية متعددة ضد اليزيديين.[٨٧] وقد أثار عزله ارتياحاً كبيراً في اوساط الناس في سنجار، حيث هتفوا بحياة السلطان عبدالحميد الثاني، لاعتقادهم بانه هو الذي امر بعزل عمر باشا بسبب استيائه من اعماله.[٨٨].

وقام اليزيديون عقب ذلك بأعمال انتقامية ضد بعض العشائر التي شاركت في حملة عمر باشا، كما بدأوا بالتعرض للقوافل التجارية مما اضطر السلطات الحكومية مرة اخرى الى ارسال قوة ضدهم في عام ١٨٩٥، استطاعت ان تنزل باليزيديين- الذين كانوا قد اتخذوا مواقعهم في القرى القريبة من سنجار- خسائر فادحة، واضطرتهم من بعد الى الاستسلام للسلطات الحكومية. وحدث ان امرت السلطات الحكومية قائد تلك القوة، قبل ان ينتهي من مفاوضات



الاستسلام مع اليزيديين، بوقف القتال والانسحاب الى سنجار[89]. لكن الاجراء الاخير لم يؤد الى تحسن العلاقات بين السلطات الحكومية واليزيديين لاصرار الاولى على شمول اليزيديين بالخدمة الالزامية، ورفض اليزيديين ذلك.

وعادت الحكومة العثمانية مرة اخرى الى اتباع الاساليب السلمية مع اليزيديين بغية اقناعهم باعتناق الاسلام. واوفدت لهذا الغرض عدداً من الوفود الدينية، كان من بينها الوفد الذي ارسلته في عام ١٨٩٧ والذي كان يرأسه مفتي ديار بكر مسعود افندي الا ان الوفد اخفق في مسعاه[90].

وعلى اية حال فقد اتخذت الحكومة العثمانية منذ عام ١٩٠٤ بعض الخطوات بغية تحسين علاقاتها مع اليزيديين، كان من بينها انها وافقت، بناء على اقتراح قدمه والي الموصل نوري باشا (١٩٠١ - ١٩٠٤) على ترك اليزيديين وشأنهم، وقبول البدل النقدي منهم عوضاً عن الخدمة الالزامية[91]. كما اعادت السلطات الحكومية الى اليزيديين مرقد الشيخ عدي في عام ١٩٠٧[92]. إلا ان كل تلك الاجراءات اخفقت في تحسين العلاقات بين الحكومة العثمانية واليزيديين.

ولقد ادى غياب وجود سياسة ثابتة للحكومة العثمانية تجاه اليزيديين الى ان يستخفوا بها حتى روي ان يزيديي سنجار كانوا يغتالون موظفي الحكومة ليلاً، ويهاجم بعض شقاتهم مقر الحكومة في وضح النهار. وكان الفوج المرابط في سنجار يحجم عن تقديم الحماية للمؤسسات الحكومية فيها بحجة عدم حيازته على اوامر بذلك[93].

انتفاضة الموصل ضد عمر باشا:

أشرنا فيما سبق الى ان الفريق عمر باشا قد قدم الى العراق لاجراء عدد من الاصلاحات فيه - وكما أشرنا الى ذلك من قبل -. وكان من جملة اعماله انه ضرب على ايدي المفسدين في الموصل، واتبع معهم اساليب غاية في الشدة كالتشهير بهم علناً. فمن ذلك انه عاقب احد الموظفين المتهمين بقبول الرشاوى بأن اركبه على حمار ووجهه الى الخلف، وطوف به في طرقات الموصل. ويبدو ان عمر باشا اشتط كثيراً في معاملة الناس، وتمادى في الحاق الاذى والضرر بهم، حتى انه اضطر بعض المواطنين ممن كانت بذمتهم ديون للحكومة الى بيع ثيابهم وبيوتهم كي يسددوا تلك الديون. ومن جانب آخر، فرض عمر باشا على وجهاء الموصل واثريائها دفع مساعدات مالية اجبارية للحكومة. وهكذا اتسع نطاق الاحتجاج ضد عمر باشا. ولما حاول مواطنو الموصل وتجارها ارسال برقيات احتجاج ضده الى الحكومة المركزية، اصدر عمر باشا تعليمات الى دائرة البرق في الموصل منعها بموجبها من ارسال البرقيات دون عرضها عليه اولاً[94].

وقد زادت العلاقات تدهوراً بين اهالي الموصل وعمر باشا على اثر الامر الذي اصدره الاخير في عام ١٨٩٢، والذي يقضي باجراء تعداد عام للسكان في الموصل وقد استغل خصوم عمر باشا هذه الفرصة للايقاع به، فأخذوا باطلاق شائعات مفادها ان عمر باشا يحاول استغلال عملية التعداد لانتهاك حرمات البيوت. وقد لاقت تلك الشائعات قبولاً من قبل جماهير الموصل فأعلن الاضراب العام، وأغلقت الاسواق، وطافت مدينة الموصل مظاهرات ردد المتظاهرون خلالها اهازيج تندد بعمر باشا[95].

اجبرت مقاومة اهالي الموصل لمشروع التعداد العام للسكان، عمر باشا على التخلي عنه، لكنه عزم في الوقت نفسه على الانتقام من اهالي الموصل فزاد من بطشه بهم، وتسربت اخبار ذلك الى الحكومة العثمانية.[96] فارسلت لجنة للتحقيق في الاتهامات الموجهة ضده. وقد وصلت اللجنة الى الموصل في نيسان عام ١٨٩٣، واستدعت عمر باشا للمثول



امامها على الفور. ولما تأكدت اللجنة من صحة الاتهامات ضد عمر باشا، ابرقت تقريراً بذلك الى العاصمة فوردت اوامر من الاخيرة تقضي بايقافه عن العمل وباستدعائه الى استانبول وغادر عمر باشا الى استانبول بصحبة اللجنة التحقيقية.[٩٧]

زج الموصليين بالحرب ضد الوهابيين:

عمد العثمانيون الى اشراك الموصليين في حروبهم ضد الوهابيين فقد دعت الحكومة العثمانية في عام ١٩٠٤ قيادة الجيش السادس الى اعداد قوة عسكرية وارسالها لمحاربة الوهابيين في الجزيرة العربية. وقد ارسلت القوة- التي ضمت اعداداً من الموصليين- وحققت بالتعاون مع قوات ابن الرشيد- وهو احد خصوم الوهابيين البارزين- قدراً كبيراً من النجاح، حتى ان ابن سعود، وهو الذي تولى زعامة الوهابيين، اضطر بعد اندحاره الى ان يقدم اعتذاراً الى الحكومة العثمانية، وقبلت الاخيرة اعتذاره بل انها عينته قائم مقام لنجد.

ويبدو أن العلاقات بين الطرفين تدهورت من جديد في اواخر عام ١٩٠٤ عندما أرسل العثمانيون حملة ثانية من العراق الى نجد تمكنت من دخول مدينة بريدة دون اية مقاومة.[٩٨] وجدير بالذكر ان السلطات العثمانية اصدرت في عام ١٩٠٤ نداء ناشدت فيه المواطنين بالتبرع بالاموال بغية تمكين الجيش من شراء الجمال.[٩٩] وكانت حصيلة ذلك النداء جمع مبلغ من ولاية الموصل قدر بحوالي الف ليرة ارسلت الى قيادة الجيش السادس.[١٠٠]

شهامة علماء واهالي الموصل:

كان محمود شكري الآلوسي واحداً من كبار علماء الدين في ولاية بغداد. وقد تأثر بالحركة الوهابية على الرغم من الجهود التي بذلها ابو الهدى الصيادي (وهو احد كبار رجال الدين المقربين من السلطان عبدالحميد الثاني، للحيلولة دون انتشار الافكار الوهابية في العراق.[١٠١]

وقد بدأ الآلوسي دعوته الى نبذ البدع والخرافات، وشن حملات عنيفة ضد رجال الدين المتزمتين[١٠٢] وقد اثارت دعوته سخط فريق من رجال الدين المحافظين الذين حملوا على دعوته، واتهموه بالكفر، وانكار الرسل وبأنه يحث على سفك الدماء، واباحة المحرمات. وقد استغل هؤلاء الخصوم فرصة وجود والٍ معروف بمناوءته لاي اصلاح وهو والي بغداد عبدالوهاب باشا (١٩٠٢- ١٩٠٣) للايقاع بالآلوسي وتحريض الوالي عليه، حتى انهم اقنعوا الاخير برفع مذكرة الى السلطان عبدالحميد الثاني اخبره الوالي فيها بتعاظم نفوذ الآلوسي، واتهمه بترويج الحركة العربية والانفصال عن الدولة العثمانية. واقترح الوالي على السلطان عبدالحميد الثاني ابعاد الآلوسي عن بغداد، وبانزال أقسى العقوبات في اعوانه وانصاره قبل ان يستفحل خطر دعوته، وتزج بالدولة- حسب قول الوالي- في مشكلات هي في غنى عنها.[١٠٣]

وقد استجاب السلطان عبدالحميد الثاني لاقتراح الوالي، إذ أصدر اوامر ابعاد بحق الآلوسي ورفاقه في عام ١٩٠٥ وكمايلي: ابعاد الآلوسي على الفور الى ولاية سيواس، وابعاد ابن عمه وهو ثابت ابن ابي البركات نعمان خيرالدين الآلوسي الى ديار بكر[١٠٤] وابعاد عدد من مواطني البصرة الى قونية.[١٠٥]

ولدى وصول محمود شكري الالوسي بصحبة اثنين من رفاقه المبعدين الى الموصل وهم في طريقهم الى اماكن ابعادهم خرجت جماهير الموصل لاستقبالهم. وقد بالغ مواطنو الموصل في الاحتفاء بالآلوسي وزميليه، ثم مالبث ان توسط لهم علماء الموصل ووجهاؤها لدى السلطان عبدالحميد الثاني وناشدوه ابقاءهم في الموصل. وقد استجاب السلطان لطلبهم. اذ وردت برقية من استانبول تفيد بصرف النظر عن امر ابعادهم.[١٠٦] وقد استغرقت

اقامة الرجال الثلاثة في الموصل مدة شهرين ، لقوا خلالها كل صنوف الحفاوة والتكريم [١٠٧] ، ثم عادوا بعدها الى بغداد في اعقاب العفو الذي اصدره السلطان عبدالحميد الثاني بحقهم في سنة ١٩٠٥ (١٣٢٣ هـ) ، وقد بلغوا بمضمونه من خلال برقية وردت من رئاسة كتاب المابين [١٠٨] وقد خرجت جماهير الموصل لتوديعهم.

مراسم احتفالات الموصل بالمناسبات الرسمية للدولة العثمانية :

جرت العادة في الموصل ، شأنها في ذلك شأن غيرها من الولايات ، على اقامة احتفالات كبيرة في المناسبات الرسمية للدولة العثمانية مثل ذكرى جلوس السلطان عبدالحميد الثاني التي كانت تصادف يوم ٣١ آب من كل عام. وفيما يلي وصف لوقائع الاحتفالات التي جرت في الموصل بمناسبة الذكرى الثلاثين لجلوس السلطان عبدالحميد الثاني : وزعت حكومة الولاية بطاقات الدعوة على كبار المدعوّين عشية يوم الاحتفال. وفي اليوم التالي وهو يوم الاحتفال حضر الوالي نوري باشا الى مقر الولاية بصحبة قائدي القوات النظامية والقوات الاحتياطية (الرديف) ، ورئيس دائرة الاملاك السنية (السلطانية) ، وكانوا يرتدون البزات الرسمية ، ويزينون صدورهم بالاوسمة ، ثم توالى حضور المدعوين الى مكان الاحتفال وهم كبار الموظفين المدنيين والعسكريين في الولاية ، وعلماء الدين المسلمون ، ورؤساء الطوائف الدينية الاخرى ، ووجهاء المدينة ، ووكلاء قناصل الدول الاجنبية ، كما حضرت الى موقع الاحتفال وحدات رمزية تمثل صنوف الجيش وقوات الجندرمة والبوليس ، وطلبة المدارس ، علاوة على فرقة موسيقية عسكرية. وافتتح الاحتفال بدعاء القاه احد علماء الدين البارزين في الموصل وهو محمد الشعار، ابتهل فيه الى الله ان يمد في عمر السلطان وان يديم حكمه. وكان الحاضرون يرددون بين فترة وأخرى كلمة (آمين). كما تليت كلمة باسم طلبة المدارس الرسمية والاهلية في الموصل ، وتلا ذلك عزف السلام الحميدي من قبل الجوق الموسيقي العسكري. ثم اتجه الوالي الى قاعة الاستقبال وعندها بدأت جموع المهنئين بتقديم التبريكات اليه. وقدمت خلال الحفل المرطبات والحلوى والسيكاير الى المدعوين . وقد استغرق الحفل بضع ساعات ، واطلقت المدفعية (٢١) اطلاقة ، كما اقيمت اقواس النصر على المباني الحكومية المهمة ، ورفعت فوقها الاعلام واللافتات. وعلى صعيد آخر اقيمت احتفالات شعبية في الموصل من قبل التجار واصحاب الحوانيت. وفي المساء ازدانت المدينة بالاضواء الملونة حيث اوقدت القناديل على المباني الحكومية والمدارس والمساجد والتكايا ودور العبادة للطوائف الدينية الاخرى. [١٠٩]

وقد جرت عادة السلطات الحكومية في تلك المناسبات على وضع حجر الاساس لبعض المشاريع. فعلى سبيل المثال احتفلت الموصل بوضع حجر الاساس لمبنى سجن جديد في الموصل في عام ١٩٠٧ بمناسبة عيد جلوس السلطان عبدالحميد الثاني. [١١٠] كذلك جرت عادة تلك السلطات على اصدار بعض القرارات التي من شأنها التخفيف عن كاهل المواطنين ، كما حدث مثلاً في عام ١٩٠٥ (رجب ١٣٢٣ هـ) حينما اصدر السلطان عبدالحميد الثاني وبمناسبة الذكرى الثلاثين لجلوسه قراراً اعفى بموجبه المواطنين مما تبقى بذمتهم من ديون للدولة. وقد تولت وزارة الزراعة العثمانية مهمة إعمام مضمون القرار على الولايات. وقد علقت جريدة (الموصل) وهي الجريدة الرسمية الوحيدة في الموصل آنذاك على ردود فعل المواطنين تجاه القرار بقولها « ان المواطنين ابدوا ارتياحاً للقرار، وانهم ابتهلوا الى الله بأن يمد في عمر السلطان ، وان يمن عليه بدوام العافية » [١١١]



محاولة اغتيال السلطان عبدالحميد الثاني واصداؤها في الموصل :

كان السلطان عبدالحميد الثاني قد تعرض الى محاولة اغتيال فاشلة في يوم ٢١ تموز عام ١٩٠٥ على يد بعض المنظمات المعادية لسياسته وكانت خطة الاغتيال تقضي بتفجير عربة مليئة بالمتفجرات حال انتهاء السلطان من اداء صلاة الجمعة في احد الجوامع التي اعتاد السلطان على اداء تلك الصلاة فيها. وتصادف ان تأخر السلطان في الخروج من الجامع فانفجرت العربة في وقت كان السلطان لايزال داخل الجامع. وهكذا نجا السلطان من محاولة الاغتيال، إلا انها اودت بحياة (٢٦) شخصاً، علاوة على (٥٨) جريحاً.[١١٢]

ولما وصلت أنباء فشل محاولة اغتيال السلطان عبدالحميد الثاني الى الموصل، عقدت اجتماعات حاشدة في مساجدها وكنائسها، والقى رجال الدين خلالها كلمات عبروا فيها عن استيائهم للمحاولة، وحمدوا فيها الله على نجاة السلطان، ودعوا له بدوام التوفيق وبالنصر على اعدائه. وكان من بين تلك الكلمات كلمة القاها الشيخ محمد الشعار[١١٣]، واخرى القاها اسطيفان نائب بطريارك الكلدان.[١١٤]

الحركة القومية العربية في الموصل خلال العهد الحميدي :

واجه الوعي القومي العربي في الموصل، عنتاً شديداً، وازدادت قبضة السلطات الحكومية على الموصل بدرجة أكبر مما كانت عليه في ولايتي بغداد والبصرة ولعل ذلك يرجع الى ان ولاية الموصل كانت اقرب من الولايتين المذكورتين الى استانبول وهذا اعاق نمو الحركة القومية فيها. وهذا فضلاً عن ان القانونين اللذين اصدرتها الحكومة العثمانية في عامي ١٨٨٠ و ١٨٨٢ القاضيان بايقاف عملية تسجيل الاراضي في العراق، لم يطبقا في الموصل وفي الاجزاء الشمالية من العراق. وقد ترتب على هذا ان اصبح ماسجل من اراضي في دوائر الطابو (دوائر التسجيل العقاري) في الموصل يفوق كثيراً تلك التي سجلت في بقية انحاء العراق. وكان لهذه الخطوة نتائج على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، حيث غدا كبار الملاكين، وهم الذين سجلت الاراضي باسمهم، يعتمدون كلية على الحكومة لحماية مابحوزتهم من املاك ضد غضب الفلاحين. وبعبارة اخرى لم يكن اولئك الملاكين في وضع يسمح لهم بالقيام بأي نشاط ضد الحكومة.[١١٥]

وقد تميزت الموصل كذلك بوجود اعداد من أنصار العهد الحميدي في الموصل والذين كانوا قد تأثروا بنزعته الدينية[١١٦] وفضلاً عن ذلك فقد اتبع السلطان عبدالحميد الثاني سياسة من شأنها تشديد قبضته على ولاية الموصل، بل الوطن العربي عموماً وذلك بعد هزيمة جيوشه امام روسيا في حرب عام ١٨٧٧ - ١٨٧٨ والتي أدت الى ضياع اراضٍ واسعة في البلقان والاناضول. اضف الى ذلك ان اكثر املاك السلطان الخاصة كانت تتركز في الولايات العربية.[١١٧] واعتمد السلطان عبدالحميد الثاني وسائل شتى للابقاء على سيطرته على الوطن العربي، ولكسب ود العرب كان من بينها تجنب استفزاز المشاعر القومية العربية. حيث تحاشى السلطان عبدالحميد الثاني السياسة العنصرية، واعتبر جميع السكان كعثمانيين بغض النظر عن قومياتهم. وهكذا طغى مفهوم العثمانية على اي مفهوم آخر. كذلك دأب عبدالحميد الثاني على التقرب من العرب من خلال اختيار حرسه الخاص منهم، واطرائه العرب بعبارات المديح كقوله فيهم (قوم نجيب عرب).[١١٨]

وفي الوقت نفسه حاول السلطان عبدالحميد الثاني السعي لطمس المشاعر القومية لدى العرب والتأكيد بدلاً من ذلك على الروابط الدينية معهم، سيما وان اكثرية الشعب العربي كانت تدين



بالاسلام، الذي كان له مكانة كبيرة في نفسه. وتنفيذاً لهذه السياسة اعلن السلطان عبدالحميد الثاني عن تبنيه سياسة الجامعة الاسلامية التي كانت تدعو الى اتحاد العرب والاتراك تحت لوائه. وكان من مظاهر تطبيق هذه السياسة، ولضمان فرص اكبر لنجاحها، ان حرص عبدالحميد الثاني على خطب ود الاسر المتنفذة في المدن العربية ولاسيما الاسر الدينية منها، عن طريق اغداق الامتيازات عليها. كما سعى في الوقت نفسه الى كسب ولاء الجماهير الشعبية عن طريق رعايته للمراقد الدينية ومنحه الهبات السخية لها. واسباغ الطابع الديني على بعض مشاريعه. فعلى سبيل المثال، ناشد السلطان عبدالحميد الثاني وسائل الاعلام في دولته بذل اهتمام خاص بالدعاية لمشروع سكة حديد الحجاز[١١٩]، والتأكيد على ان هدف السلطان منه هو توحيد الولايات العربية وربطها ببعضها وتسهيل عملية نقل الحجاج الى الديار المقدسة.

واخيراً، اولى السلطان عبدالحميد الثاني علماء الدين البارزين عناية خاصة فمنح اوسمة لبعضهم. فعلى سبيل المثال منح السلطان عبدالحميد الثاني في مناسبات عديدة اوسمة الى يوسف الرمضاني وهو من رجال الدين البارزين في الموصل[١٢٠]. كما أغدق على البعض الاخر منهم منحاً سخية، وخصص لهم مرتبات عالية.[١٢١]

حالت تلك الاجراءات دون قيام اية تنظيمات سياسية في الموصل حتى عام ١٩٠٨، وهو العام الذي حدث فيه الانقلاب الدستوري في الدولة العثمانية. وكان اول تنظيم حزبي تشهده الموصل، هو تأسيس فرع لجمعية الاتحاد والترقي بعد اعادة العمل بالدستور العثماني في ٢٣ تموز عام ١٩٠٨.[١٢٢]

واستمر الحال على تلك الشاكلة حتى عام ١٩٠٩، عندما نُحي عبدالحميد الثاني عن العرش، وسيطرت جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد السلطة في الدولة العثمانية. وقد تحولت الاخيرة الى سياسة التتريك التي كانت ايذاناً ببدء النزاع بين العرب والاتراك.[١٢٣]

ولقد رد العراقيون على تلك السياسة بأن التفوا حول قوميتهم العربية، ولم يتأخر الموصليون عن اداء واجبهم نحو قوميتهم، بل انهم تقدموا الصفوف، حتى ان ولاية الموصل امتازت على شقيقتيها ولايتي بغداد والبصرة بانها سبقتها في الدعوة للحركة العربية التي هيمنت عليها آنذاك بعض العوائل التي كانت تتمتع بنفوذ واسع خلال العهد الحميدي، علاوة على رجال الدين.[١٢٤]

اصداء الانقلاب الدستوري العثماني في الموصل:

لم يكن لاعادة الدستور في الدولة العثمانية في اعقاب الانقلاب الذي قادته جمعية الاتحاد والترقي في ٢٣ تموز عام ١٩٠٨، تأثير كبير في العراق حيث كان العراق شأنه في ذلك شأن الولايات الاخرى البعيدة عن استانبول، لم ير من عناء عهد الاستبداد إلا القليل.[١٢٥] كما لم تكن ردود فعل العراقيين عموماً تجاه الانقلاب ردوداً ايجابية. فقد استقبلت الجماهير الشعبية انباء الانقلاب بمشاعر الاستغراب، ووجدت صعوبة في ادراك مضامين الحملات الدعائية والشعارات التي اطلقها النظام الجديد[١٢٦].

اما بالنسبة للموصل، فكان صدى الانقلاب العثماني فيها محدوداً، سيما وان السلطان عبدالحميد الثاني كان يحتل مكانة في نفوس ابناء الموصل بوصفه خليفة المسلمين ورائد الجامعة الاسلامية. ولعل مرد هذا ان سكان الموصل كانوا قد تأثروا بالحملات الدعائية التي كان يروجها اعوان السلطان عبدالحميد الثاني من دعاة الجامعة الاسلامية. ومن جانب آخر كان الوعي



الديمقراطي ضعيفاً في اوساط سكان ولاية الموصل.[127] ومن الجدير بالذكر ان بعض الاوساط المحافظة في الموصل ابدت تحفظات على دعوة النظام الجديد الى مساواة المسلمين بغيرهم لاعتقادها بأن ذلك سوف يؤدي الى تجريدها من امتيازاتها القديمة.[128] واتخذ الاكراد موقفاً مماثلاً من الانقلاب ، فقد نظر رجال الدين الاكراد الى الدستور، وكأنه امر يتناقض مع الدين ، كما رأى الشيوخ والمتنفذون الاكراد في الدستور وسيلة للحد من نفوذهم ، كذلك اعرب الرجل الكردي العادي عن مخاوفه من ان يؤدي العهد الدستوري الى الخروج عن الآداب العامة والتقاليد المرعية.[129]

على ان تلك المشاعر لم تحل من جهة اخرى دون ترحيب بعض ابناء الموصل بالانقلاب.[130] فقد اعرب هؤلاء عن تأييدهم الانقلاب عن طريق اقامة الصلوات في المساجد، وزيارة مرقد النبي يونس (ع) كما نظموا تظاهرات طافت طرقات الموصل، وأقيمت معالم الزينة في بعض البيوت وفي الدوائر الحكومية. وازدانت طرقات الموصل بالاضواء ليلاً. وكانت العيارات النارية تطلق بين آونة واخرى احتفاءً بالمناسبة ، كما جرى عرض بالالعاب النارية.[131]

ونظم الشاعر الموصلي محمد حبيب العبيدي قصيدة من تسعة ابيات اعرب فيها عن ترحيبه باعادة الدستور، واثنى فيها على الانقلاب الذي وصفه بالثورة[132] . وانتقد في قصيدة اخرى السلطان عبدالحميد الثاني ولاسيما نزعته الاستبدادية . وقد جاء فيها قوله :

أو لم يكفه ثلاثون حولاً
وهو يلهو بالملك كيف يشاء[133]

وحذا الحاج محمد ضياء الدين الموصلي حذو العبيدي في هذا الشأن[134] كذلك كان فهمي عبدالرحمن المدرس وهو من الشخصيات الثقافية البارزة من اوائل المؤيدين للانقلاب الدستوري ، وقد سخر قلمه لكتابة مقالات مستفيضة دافع بها عن الانقلاب.[135]

اسماء ولاة الموصل منذ تحويلها الى ولاية في عام ١٨٧٩ وحتى انتهاء العهد الحميدي

ت	اسم الوالي	فترة حكمه بالسنين الهجرية	فترة حكمه بالسنين الميلادية
١-	فيضي باشا	١٢٩٥ – ١٢٩٥	١٨٧٨ – ١٨٧٨
٢-	عبدالنافع افندي	١٢٩٥ – ١٢٩٦	١٨٧٨ – ١٨٧٩
٣-	منير باشا (وكيل فريق)	١٢٩٦ – ١٢٩٨	١٨٧٩ – ١٨٨١
٤-	تحسين باشا	١٢٩٨ – ١٣٠٣	١٨٨١ – ١٨٨٥
٥-	فائق باشا	١٣٠٣ – ١٣٠٤	١٨٨٥ – ١٨٨٦
٦-	رشيد باشا	١٣٠٤ – ١٣٠٥	١٨٨٦ – ١٨٨٧
٧-	طاهر باشا	١٣٠٥ – ١٣٠٧	١٨٨٧ – ١٨٩٠
٨-	عبدالقادر كمالي باشا	١٣٠٧ – ١٣٠٨	١٨٩٠ – ١٨٩١
٩-	عثمان باشا	١٣٠٨ – ١٣٠٩	١٨٩١ – ١٨٩٢
١٠-	عزيز باشا	١٣٠٩ – ١٣١١	١٨٩٢ – ١٨٩٤
١١-	صالح باشا	١٣١١ – ١٣١٢	١٨٩٤ – ١٨٩٥
١٢-	الفريق عبدالله باشا	١٣١٢ – ١٣١٢	١٨٩٥ – ١٨٩٥
١٣-	زهدي بك	١٣١٢ – ١٣١٣	١٨٩٥ – ١٨٩٦
١٤-	عبدالوهاب باشا	١٣١٣ – ١٣١٤	١٨٩٦ – ١٧٩٧
١٥-	المشير عارف باشا	١٣١٤ – ١٣١٤	١٨٩٧ – ١٨٩٧
١٦-	حازم بك	١٣١٤ – ١٣١٧	١٨٩٧ – ١٨٩٩
١٧-	ناظم بك	١٣١٧ – ١٣١٧	١٨٩٩ – ١٩٠٠
١٨-	الحاج رشيد باشا	١٣١٧ – ١٣١٨	١٩٠٠ – ١٩٠١
١٩-	نوري باشا	١٣١٨ – ١٣٢١	١٩٠١ – ١٩٠٤
٢٠-	مصطفى يمني بك	١٣٢١ – ١٣٢٤	١٩٠٤ – ١٩٠٦
٢١-	الفريق زكي باشا	١٣٢٤ – ١٣٢٤	١٩٠٦ – ١٩٠٦
٢٢-	رشيد باشا	١٣٢٤ – ١٣٢٥	١٩٠٦ – ١٩٠٧
٢٣-	الفريق اول محمد فاضل باشا	١٣٢٥ – ١٣٢٦	١٩٠٧ – ١٩٠٨
٢٤-	طاهر باشا	١٣٢٦ وحتى انتهاء العهد الحميدي	١٩٠٨ وحتى انتهاء العهد الحميدى

المصدر: موصل ولايتي سالنامه رسميسيدر ١٣٣٠ ، موصل مطبعة سنده طبع اولنمشدر، ص١٠٥ – ١٠٦. وقد اعتمدنا في تحويل السنوات الهجرية الى السنوات الميلادية على يوسف ابكاروفيج اوربلي ، جداول لتحويل السنوات الهجرية الى السنوات الميلادية ، ترجمة حسين قاسم العزيز، مجلة المورد ، المجلد ٣، العدد ٤ ، ١٩٧٤ ، ص ص ١٣٥ – ١٣٧.

الهوامش

(١) Robert Devereux, The First Ottoman Constitutional Period, The Johns Hopkins Press, (Baltimore: 1963), p. 283

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، نقله الى العربية جعفر الخياط ، ط٤ ، مطبعة المعارف، (بغداد : ١٩٦٨)، ص ٣٧٦

(٣) الزوراء (صحيفة)، ع ٨٠٧، ٣٠ صفر ١٢٩٦
(٤) الكسندر اداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة هاشم صالح التكريتي، ج١، ط١، مطبعة جامعة البصرة، (البصرة: ١٩٨٢)، ص١٠
(٥) بيكباشي محمد نصر الله وآخرون، ممالك محروسة شاهانية مخصوص مكمل ومفصل اطلس، شركة مرتبية مطبعة سي، (استانبول: ١٣٢٥)، ص١٠٢
(٦) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، شركة التجارة والطباعة المحدودة، (بغداد: ١٩٥٦)، ص٥٠
(٧) للاطلاع على اسماء ولاة الموصل وسنوات حكمهم انظر قائمة بأسمائهم في متن البحث.
(٨) صديق الدملوجي، امارة بهدينان الكردية او امارة العمادية، مطبعة الاتحاد الجديدة، (الموصل: ١٩٥٢)، ص٧١
(٩) للاطلاع على نصوص هذه المواد انظر سليم فارس، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، ج٥، ط١، مطبعة الجوائب، (الاستانة: ١٢٩٤)، ص ص٣٣٨- ٣٤١
(١٠) Devereux, Op. Cit., p. 124
(١١) Ibid, p.p. 125 – 126
(١٢) Ibid, p.261
ذكر مصدر خطأ اسم عبدالرحمن الباجه‌جي بدلاً من عبد الرحمن وصفي ال شريف بك. انظر علي ظريف الاعظمي، مختصر تاريخ بغداد، مطبعة الفرات، (بغداد: ١٩٢٩)، ص٢٤٥. وحري بالاشارة ان اكثر من مصدر ذكر بأن عبدالرحمن وصفي آل شريف بك كان قد انتخب نائباً عن ولاية الموصل انظر العزاوي، المصدر السابق، ص٣٣ وكذلك حسين جميل، الحياة النيابية في العراق ١٩٢٥- ١٩٤٦ وموقف جماعة الاهالي منها، ط١، (بغداد: ١٩٨٣)، ص١٥. وفي رأينا ان ذلك خطأ بدليل ان الموصل لم تكن وقت اجراء الانتخابات ولاية قائمة بذاتها. وقد نشر احد المصادر صوراً لنواب بغداد الثلاثة ضمن مانشره من صور لنواب الولاية العثمانية الا انه اورد اسم دانيال افندي بدلاً من مناحيم صالح افندي. انظر رسملي كتاب (مجلة)، استانبول، جلد ١، نومرو ٤، كانون اول ١٣٢٤، ص ص٣٢١، ٣٢٤.
(١٣) Devereux, Op. Cit, p.140
(١٤) Devereux, Op. cit, p.139
(١٥) Ibid, p. 206
(١٦) احمد صائب، تركيا دن مجلس مبعوثان، نجم استقبال مطبعة سي، (در سعادت: ١٣٢٨)، ص٦
(١٧) Devereux, Op. cit., p. 269
(١٨) محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، (بيروت: ١٩٧٧) ص٣٦٧
(١٩) صائب، المصدر السابق ص٦
(٢٠) عبدالوهاب القيسي، حركة الاصلاح في الدولة العثمانية وتاثيرها في العراق ١٨٣٩- ١٨٧٧، مطبعة العاني، (بغداد: ١٩٦١)، ص٥
(٢١) Devereux, Op. cit., p. 140
(٢٢) سليمان البستاني، عبرة وذكرى او الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق خالد زيادة، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٧٨) ص٢٤٠.
(٢٣) ابراهيم خليل احمد، محافظة نينوى في العصور الحديثة، في عامر سليمان وآخرون، محافظة نينوى بين الماضي والحاضر، دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل: ١٩٨٦)، ص١٠٣.
(٢٤) شكري محمود نديم، احوال العراق في مرحلة المشروطية الثانية ١٩٠٨- ١٩١٨، رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت الى جامعة بغداد عام ١٩٨٥، ص٣٤.
(٢٥) انظر السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٨٩١- ١٩٠٨، ط٢، (بيروت: ١٩٧٩)، ص١٢
(٢٦) نديم، المصدر السابق، ص٣٤
(٢٧) علي الوردي، لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث، ج٣، مطبعة الشعب، (بغداد، ١٩٧٢) ص٣٥
(٢٨) الزوراء، ع ٧٨٥، ١٥ شوال ١٢٩٥
(٢٩) الاعظمي، المصدر السابق، ص٢٤٥
(٣٠) E.B. Soane, Confidential Report on the Sulaimania District of Kurdistan, (Calcutta, India: 1918), p.78
(٣١) باسيل نيكيتين، الاكراد، الترجمة العربية، (بيروت: ١٩٥٨)، ص١٥٥
(٣٢) لؤي بحري، سكة حديد بغداد، شركة الطبع والنشر الاهلية، (بغداد: ١٩٦٧)، ص١٢١.
(٣٣) سليمان فيضي، في غمرة النضال، شركة التجارة والطباعة المحدودة، (بغداد: ١٩٥٢)، ص٥٧
(٣٤) الاعظمي، المصدر السابق، ص٢٤٥
(٣٥) الوردي، المصدر السابق، ص٣٥
(٣٦) الزوراء، ع ٧٨٥، ١٥ شوال ١٢٥٩
(٣٧) فؤاد ميداني، «اسرار الجاسوسية في القضية العربية» مجلة الاسرار، السنة الاولى، ع ١٥، ١٢ تموز ١٩٣٨، ص١
(٣٨) محمد هاشم الكتبي، عصر السلطان عبدالحميد واثره في الاقطار العربية ١٨٧٦- ١٩٠٩، ج٨، المطبعة الهاشمية، (دمشق: ١٩٣٩)، ص٢٣٣
(٣٩) للاطلاع على تفاصيل كارثة المجاعة في الموصل في عام ١٨٧٩ انظر ناظم العمري، مخطوطة ناظم العمري في مكتبة الاوقاف العامة بالموصل، خزائن داود الجلبي تحت رقم ١٢٩- ٩٠، ص ص١٤- ١٥ وسليمان الصائغ، تاريخ الموصل، ج١، المطبعة السلفية، (مصر: ١٩٢٣)ص ص٣١٤- ٣١٥، بيير دي فوصيل، الحياة في العراق منذ قرن ١٩١٤- ١٩١٤، ترجمة اكرم فاضل، مطبعة الجمهورية، (بغداد: ١٩٦٨)، ص ص٨٣- ٨٤. ولبس بدج، رحلات الى العراق، نقله الى العربية فؤاد جميل، ج١، ط١، مطابع دار الزمان، (بغداد: ١٩٦٦)، ص٢٨٦ وكذلك ن. أ. خالفين، الصراع على كردستان، ترجمة احمد عثمان ابو بكر، مطبعة الشعب،



(بغداد : ١٩٦٩)، ص١١٣ وكذلك
Tristram J. Ellis, On a raft and through the Desert, (London), Vol. I, p.p. 97 – 100.

(٤٠) فوصيل، المصدر السابق، ص٨٤
(٤١) بدج، المصدر السابق، ج١، ص٢٨٧
(٤٢) فوصيل، المصدر السابق، ص٨٤
(٤٣) المصدر نفسه، ص ٨٥
(٤٤) طلعت الشيباني، واقع الملكية الزراعية في العراق، ط٢، مطبعة الزمان، (بغداد: ١٩٥٨)، ص٤٨
(٤٥) المركز الوطني لحفظ الوثائق، ملفة تسلسل ٥، تحت رقم ١٠٥/٣ بعنوان تقارير ادارية حول البصرة، ١٩١٧، ص١٠
(٤٦) للحصول على معلومات عن مدرسة العشائر الخاصة وشروط القبول فيها راجع : جاسم محمد حسن العدول «العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ – ١٩٠٩» هي رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى جامعة بغداد عام ١٩٧٥، ص ١٦٠.
(٤٧) Anne Blunt, Bedoun Tribes of the Euphrates, Vol. I, (London: 1968), p. 110. Office of the Civil Commissioner, The Arab of Mesopotamia, (Basrah: 1917), p.p. 55 – 56.
(٤٨) ويليم ويلكوكس «العراق كما عرفته بين سنتي ١٩٠٨ و١٩١١» البلاد (صحيفة)، ع ٤٣٧، ٩ كانون الاول ١٩٣٥ وكذلك J.A. Saldanha, Precis of Turkish Arabia Affairs 1801 – 1905, Part 1, (London: 1905), p.77
(٤٩) Office of the Civil Commissioner, op. cit., p.55.
(٥٠) الزوراء، ع ١٨٣٦، ١٣ جمادي الاخرة ١٣١٧
(٥١) محمد بهجت الاثري، اعلام العراق، المطبعة السلفية، (القاهرة : ١٣٤٥)، ص٥٦
(٥٢) محمد احمد محمود، احوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢ – ١٩١٨، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى جامعة بغداد في عام ١٩٨٠، ص١٢
(٥٣) المصدر نفسه، ص١٦
(٥٤) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٤، طبعة جديدة معدلة ومنقحة اعدها قسم الترجمة بمكتب امير دولة قطر، مطابع علي بن علي، الدوحة، (د.ت)، ص ٢٢٠٩.
(٥٥) عباس العزاوي، عشائر العراق، ج١، مطبعة بغداد، (بغداد : ١٩٣٧)، ص١٥٨.
(٥٦) محمود، المصدر السابق، ص٨٢
(٥٧) العزاوي، عشائر العراق، ج١، ص١٥٨
(٥٨) لوريمر، المصدر السابق، ص٢٢٠٩
(٥٩) العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٣٩
(٦٠) الزوراء، ع٧٨١، ١٦ رمضان ١٢٩٥ نقلاً عن محمود، المصدر السابق، ص٨٢
(٦١) الزوراء، ع ١٢٥٧، ٢٩ جمادي الاولى ١٣٠٣ نقلاً عن محمود، المصدر السابق، ص٨٢
(٦٢) Saldanha, Op. cit., p. 77
(٦٣) الزوراء، ع١٠٥٢، ٢٦ ذي القعدة ١٢٩٩
(٦٤) Blunt, Op. cit., Vol. I, p. 273
(٦٥) Ibid, p. 320
(٦٦) العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٠٣
(٦٧) الزوراء، ع١٠١٢، ٢٣ جمادي الاولى ١٢٩٩. وجدير بالذكر أن رتبة قبوجي باشا كانت تعادل رتبة رئيس الحجاب. انظر العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٢٣
(٦٨) الزوراء، ع ١٤٨٥، ٢٦ ربيع الاخر ١٣٠٩
(٦٩) الزوراء، ع ١٥١٨، ٥ محرم ١٣٠٩
(٧٠) الصائغ، المصدر السابق، ص٣١٦
(٧١) العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٣٧
(٧٢) الزوراء، ع١٨٣٢، ١٤ جمادي الاولى ١٣١٧
(٧٣) امين الريحاني، تاريخ نجد وملحقاته، ط٥، (الرياض : ١٩٨١)، ص ص١٤٠ – ١٤١
(٧٤) Robin Bidwell, The Affairs of Arabia 1905 – 1906, Vol. I, Part 11, (London : 1971), p. 33
(٧٥) موصل، (صحيفة)، نومرو ٧٧٤، ٢٦ ذي الحجة ١٣٢٢
(٧٦) الرقيب (صحيفة)، ع ٧٤٠، ذي القعدة ١٣٢٧ نقلاً عن محمود، المصدر السابق، ص٩٠
(٧٧) النجاح (صحيفة)، ٢٢ ذي الحجة ١٣٢٨ نقلاً عن ابراهيم خليل احمد، «اوضاع ولاية الموصل الاقتصادية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين» مجلة آداب الرافدين، (الموصل)، ع٧، ١٥ تشرين الاول ١٩٧٦، ص٢٢٢.
(٧٨) للاطلاع على تفاصيل حول معتقدات اليزيديين وطقوس عبادتهم راجع اسماعيل بك جول، اليزيدية قديماً وحديثاً، نشره قسطنطين زريق، المطبعة الاميركانية، (بيروت : ١٩٣٤)، ص ص٧٣ – ١٠٨
(٧٩) للحصول على تفاصيل وافية عن حركة الجامعة الاسلامية واهدافها وتطبيقاتها راجع العدول، المصدر السابق، ص ص٦٣ – ٦٦
(٨٠) الصائغ، المصدر السابق، ص ٣١٨ – ٣١٩
(٨١) الزوراء، ع١٥٢٢، ٣ صفر ١٣١٠
(٨٢) الوردي، المصدر السابق، ص٣٠
(٨٣) العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٢٠
(٨٤) كان لليزيديين ستة سناجق يعلو كل منها تمثال على هيئة ديك أو طاووس من النحاس او غيره يسمى طاووس ملك. انظر ابراهيم خليل احمد، ولاية الموصل دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ – ١٩٢٢، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى جامعة بغداد عام ١٩٧٥، ص١٠٨، هامش ٣٠٧
(٨٥) صديق الدملوجي، اليزيدية، مطبعة الاتحاد، (الموصل : ١٩٤٩)، ص٥٠٧
(٨٦) الصائغ، المصدر السابق، ص٣١٩
(٨٨) الدملوجي، اليزيدية، ص٥٠٩
(٨٩) المصدر نفسه، ص٥١٠
(٩٠) المصدر نفسه، ص٥٠٦

(٩١) داود الجلبي مخطوطات الموصل، مطبعة الفرات، (بغداد: ١٩٢٧) ص٢٥٢ وكذلك عبدالرزاق الحسني، اليزيديون في حاضرهم وماضيهم، ط٥، المطبعة العصرية، (صيدا: ١٩٦٨)، ص١٦٨.

(٩٢) ستيفن هيمسلي لونكريك، العراق الحديث من سنة ١٩١٠ - الى سنة ١٩٥٠، ترجمة سليم طه التكريتي، ج١، مطبعة حسام، (بغداد: ١٩٨٨)، ص١٠٥

(٩٣) الدملوجي، اليزيدية، ص٥١٢

(٩٤) الصائغ، المصدر السابق، ص٣١٦

(٩٥) الوردي، المصدر السابق، ص٥٠. وتجدر الاشارة الى ان الاوساط المحافظة في الموصل واصلت تحفظاتها تجاه عمليات تعداد السكان. فقد اندلعت تظاهرات في الموصل في اواسط العقد الاول من القرن الحالي احتجاجاً على عملية تعداد للسكان كانت السلطات الحكومية تزمع القيام بها آنذاك. وكان على رأس تلك التظاهرات رجل موصلي يعرف بـ (محمد ابو جاسم). ولما القت السلطات الحكومية القبض عليه وزجته في السجن تولى ابن اخته وهو سرحان بن ذو النون قيادة المظاهرات بدلاً منه. وكان من جملة الاهازيج التي نظمها الاخير «هذا الخال واني ابن اخته، عند الموت خالي عرفته» وقد القي القبض على سرحان ايضاً والقي به في السجن، وقيل انه اغتيل فيه انظر على التوالي: خيري العمري، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، مطابع دار الهلال، (مصر: ١٩٦٩)، ص٩٨؛ فيصل محمد الارحيم، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨- ١٩١٤، مطابع الجمهور، (الموصل: ١٩٧٥)، ص٩٩.

(٩٦) فوصيل، المصدر السابق، ص٨٩

(٩٧) الصائغ، المصدر السابق، ص٣١٩

(٩٨) لونكريك، العراق الحديث، ص١٢٢

(٩٩) موصل، نومرو ٧٦٦، ٢٤ رمضان ١٣٢٢

(١٠٠) المصدر نفسه، نومرو ٧٦٩، ٢٩ شوال ١٣٢٢

(١٠١) محمد كرد علي، المذكرات، ج١، مطبعة الترقي، (دمشق: ١٩٤٨)، ص٢٤٤

(١٠٢) خيري امين العمري، شخصيات عراقية ١، مطبعة دار المعرفة، (بغداد: ١٩٥٥) ص١٠

(١٠٣) محمد بهجت الاثري، محمود شكري الالوسي وآراؤه اللغوية، المطبعة الكمالية (دون مكان طبع: ١٩٥٨)، ص٨٧

(١٠٤) موصل، نومرو ٧٨٩، ٢٦ ربيع الاخر ١٣٢٣

(١٠٥) فيضي، المصدر السابق، ص٥٦

(١٠٦) موصل، نومرو ٧٨٧، ٤ ربيع الاخر ١٣٢٣

(١٠٧) محمد بهجت الاثري، اعلام العراق، المطبعة السلفية، (مصر: ١٣٤٥)، ص١٠١

(١٠٨) موصل، نومرو ٧٨٩، ٢٦ ربيع الاخر ١٣٢٣

(١٠٩) المصدر نفسه، نومرو ٧٩٦، ٣ رجب ١٣٢٣

(١١٠) مذكرات المطران بولس دانيال، مخطوط لدى السيد سهيل قاشا الذي يعمل حالياً معلماً في مدرسة الطاهرة بالموصل، حوادث سنة ١٩٠٧، ص٥

(١١١) موصل، نومرو ٧٩٦، ٣ رجب ١٣٢٣

(١١٢) اورخان محمد علي، السلطان عبدالحميد الثاني حياته واحداث عهده، ط١، دار الانبار، (الرمادي: ١٩٨٧)، ص١٦٣

(١١٣) يرجح انه محمد ضياء الدين الشعار انظر ترجمة لحياته في احمد محمد المختار، تاريخ علماء الموصل، ج٢، ط٢ (الموصل: ١٩٨٤)، ص٤٠

(١١٤) للاطلاع على نص الكلمتين انظر موصل، نومرو ٧٩٥، ٢٣ جمادي الاخر ١٣٢٣

(١١٥) وميض جمال عمر نظمي وآخرون، التطور السياسي المعاصر في العراق، (بغداد: د.ت)، ص٤٥- ٤٦

(١١٦) البرت م. منتشاشفيلي، العراق في سنوات الانتداب البريطاني ترجمة هاشم صالح التكريتي، (بغداد: ١٩٧٨)، ص ١١٥.

(١١٧) توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨- ١٩١٤، دار الهنا للطباعة، (مصر: ١٩٦٠)، ص٣٣

(١١٨) علي جودت، ذكريات علي جودت ١٩٠٠- ١٩٥٨، ط١، مطبعة الوفاء، (بيروت: ١٩٦٧)، ص٢٥- ٢٦

(١١٨) لونكريك، العراق الحديث، ج١، ص٧٣. لمزيد من المعلومات عن خط حديد الحجاز انظر سعد ابو دية، «الدور التاريخي للخط الحديدي الحجازي» مجلة المؤرخ العربي (بغداد)، ع٣٤، السنة الثالثة عشرة ١٩٨٨، ص ص٥٨- ٦٦

(١٢٠) المختار، المصدر السابق، ج١، ص٦٩

(١٢١) موصل، نومرو ٧٨٢، ٢٢ صفر ١٣٢٣

(١٢٢) ابراهيم خليل احمد، «الحركة العربية في الموصل قبيل الحرب العالمية الاولى»، مجلة الخليج العربي، (البصرة)، العدد ٧، ١٩٧٧، ص٨٦

(١٢٣) توفيق السويدي، مذكراتي نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، ط١، مطابع دار الغد، (بيروت: ١٩٦٩)، ص٢٠

(١٢٤) لونكريك، العراق الحديث، ج١، ص٨٣

(١٢٤) نديم، المصدر السابق، ص٥٣

(١٢٦) Ghassan R. Atiyyah, Iraq 1908 – 1921, A Political Study, Beruit, 1973, p. 52.

(١٢٧) احمد، ولاية الموصل، دراسة في تطوراتها السياسية، ص٣٥

(١٢٨) F.O. 371/546/35261, From the British Vice Consul in Mosul, Young to Sir G. Lowther. Dated Mosul, August 23, 1908, Quoted in Atiyyah, Op. cit., p. 52.

(١٢٩) الدملوجي، امارة بهدينان الكردية، ص١٥٥

(١٣٠) أشار مصدر الى ان اعلان الدستور- وهو اول نتائج انقلاب عام ١٩٠٨- لم يلق ترحيبا في الموصل الا لانه كان سبباً في عزل الوالي مصطفى بك الذي لم يكن محبوباً انظر: نجدة فتحي صفوة، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب، ط٢، (بغداد: ١٩٨٤)، ص٧٧ وتعليقنا على ذلك هو ان فترة حكم الوالي مصطفى يمني بك وكما مثبت في نهاية البحث كانت بين عامي ١٩٠٤- ١٩٠٦ وعليه فان الرواية بحاجة الى



اعادة النظر فيها.

(١٣١) محمد هليل الجابري، الحركة القومية العربية في العراق بين ١٩٠٨ - ١٩١٤، رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت الى كلية الاداب بجامعة بغداد في ١٩٨٠، ص٦٩

(١٣٢) ذكرى حبيب ديوان السيد محمد حبيب العبيدي، تحقيق احمد الفخري، مطبعة الجمهورية، (الموصل: ١٩٦٦)، ص٦

(١٣٣) المصدر نفسه، ص١٢

(١٣٤) الجابري، المصدر السابق، ص٧١

(١٣٥) منير بكر التكريتي، «فهمي عبدالرحمن المدرس ١٨٧٣-١٩٤٤» مجلة الجامعة (الموصل)، العدد (١٠)، السنة الثامنة، ١٩٧٨، ص٢١.

الموصل في العهد الاتحادي

(١٣٢٦ - ١٣٣٦هـ ١٩٠٨ - ١٩١٨م)

جاسم محمد حسن العدول

شهدت ولاية الموصل في العهد الاتحادي (١٩٠٨ - ١٩١٨) سلسلة من الاحداث والتطورات المهمة. ولغرض الاحاطة بكل تلك الاحداث والتطورات فسوف نقسم الفترة موضوعة البحث الى مرحلتين وكما يأتي:

اولاً: الموصل بين عامي ١٩٠٨ - ١٩١٤:

واجهت الموصل خلال عامي ١٩٠٨-١٩١٤ جملة من الاحداث والتغييرات كان بعضها بمثابة ردود افعال لاحداث جرت في مناطق اخرى من الدولة العثمانية وعلى النحو الآتي:

اجراء الانتخابات النيابية في اواخر عام ١٩٠٨:

شهدت الموصل في مطلع العهد الاتحادي اجراء انتخابات نيابية لانتخاب نواب عن ولاية الموصل في البرلمان العثماني الثاني [١]. وكان السلطان عبدالحميد الثاني قد اصدر مرسوما في ٢٤ تموز عام ١٩٠٨ دعا فيه الولاة كافة الى اجراء انتخابات في ولاياتهم لانتخاب نواب عنها الى البرلمان المذكور ووفقاً لاحكام دستور عام ١٨٧٦. وقد تقرر ان تجري الانتخابات في شهري تشرين الثاني وكانون الاول من عام ١٩٠٨ [٢].

ولم يشارك الممثلون الحقيقيون للشعب في تلك الانتخابات [٣] ولم يكن الشعب نفسه يمتلك آنذاك الوعي الكافي بمعنى الانتخابات [٤]. بل لم يكن الذين يدركون قواعد الانتخابات حتى في العاصمة استانبول يشكلون سوى اقلية ضئيلة [٥]. كذلك لم يتسن للناخبين ان يدلوا باصواتهم خلال الانتخابات بحرية، لاسيما انها كانت اقرب الى التعيين منها الى الانتخابات. هذا فضلاً عن احجام كثير ممن كان يحق لهم الادلاء باصواتهم عن المشاركة في الانتخابات لأسباب لعل من ابرزها خوفهم من ان تكون بمثابة خدعة يقصد بها سوقهم الى الخدمة العسكرية او جباية الضرائب منهم او ماشابه ذلك [٦].

ومع ان الانتخابات كانت قد جرت في كثير من انحاء العراق في أجواء من الهدوء التام [٧] إلا أن الانتخابات التي جرت في الموصل رافقتها بعض اعمال العنف، فقد اخبر احد مبعوثي ولاية الموصل رحالة انكليزياً خلال لقاء جرى بينهما مصادفة على ظهر باخرة كانت تبحر في طريقها الى استانبول، «ان خمسين شخصاً قتلوا خلال انتخابي وقيل إن عملية فرز الاصوات لم تجر بصورة دقيقة» [٨].

وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد تولت بنفسها الاشراف على عملية الانتخابات، اذ حرصت على ان تديرها بطريقة تضمن بموجبها فوز الاغلبية العظمى من مرشحيها [٩]. بل ان الجمعية لم تتورع



عن التدخل في تلك الانتخابات بصورة سافرة. فكان يقف مالايقل عن اثنين من مندوبي جمعية الاتحاد والترقي على كل صندوق انتخابي لمراقبته وحراسته. كما كان مندوبو الجمعية يطوفون على المنازل ويسلمون الناخبين من المرحلة الاولى جداول باسماء المرشحين الذي يجب عليهم انتخابهم في المرحلة الثانية، وكان هؤلاء بالطبع من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي[١٠].

وتجدر الاشارة الى ان الدستور العثماني كان قد اشترط توافر عدد من الشروط في المبعوث من بينها اجادة اللغة التركية[١١]، ونتيجة لتلك الاجراءات ولعدم وجود منافس قوي لجمعية الاتحاد والترقي في الانتخابات[١٢] فقد فاز مرشحو الجمعية بالاغلبية الساحقة من مقاعد مجلس المبعوثان.

لقد اسفرت تلك الانتخابات عن فوز خمسة نواب عن ولاية الموصل وهم: محمد علي فاضل آل عبد الحافظ، وداؤد يوسفاني عن سنجق (لواء) الموصل ونائبان عن سنجق كركوك وهما محمد علي بك فيردار وصالح نفطجي، ونائب واحد عن سنجق السليمانية وهو الحاج سعيد الكركوكي[١٣].

واقامت ولاية الموصل - بناء على أوامر تلقتها من الحكومة العثمانية - احتفالاً بمناسبة افتتاح البرلمان العثماني الثاني اذ أطلقت المدافع واوقدت القناديل والفوانيس ليلاً في كل من مراكز الولاية والسناجق والاقضية التابعة لها[١٤]. كما ارسل عدد من كبار المسؤولين في ولاية الموصل ببرقيات التهاني الى البرلمان بمناسبة افتتاحه مثل والي الموصل، ورئيس بلديتها[١٥].

افتتح مجلس المبعوثان اعماله في ١٧ كانون الاول عام ١٩٠٨ وحضر السلطان عبدالحميد الثاني حفل الافتتاح، والقى رئيس كتاب المابين الهمايوني (وهو مايقابل حالياً رئيس الديوان) خطاب العرش نيابة عن السلطان. وقد حاول السلطان في الخطاب ان يُبرّر تعطيل الحياة البرلمانية خلال

• السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦-١٩٠٩م.

الفترة السابقة بحجة ان الضرورة قضت بذلك، وادعى انه عمل خلال تلك الفترة على نشر العلوم والمعارف في انحاء الدولة العثمانية كافة وذلك ماأهّل الدولة العثمانية - بحسب قوله - الى تحمل مسؤولياتها. وقد إستمع المبعوثون لخطاب السلطان بتأمل وهدوء، لكنهم صفقوا له حينما اكد «بانه عازم على ادارة الدولة على اساس الدستور»[١٦].

دور مبعوثي الموصل في مجلس المبعوثان:

اما عن الدور الذي قام به مبعوثو الموصل في مجلس المبعوثان فقد تمثل في تقديم عدد من التوصيات والمقترحات وفي مختلف الشؤون. ففي اثناء مناقشة ميزانية الدولة العثمانية لسنة ١٩١٠، دعا مبعوث الموصل محمد علي فاضل بالاشتراك مع عدد آخر من المبعوثين العراقيين والعرب السلطات العثمانية الى الغاء بعض الضرائب، وتخفيض البعض الآخر منها في محاولة منهم للتخفيف عن كاهل المواطنين ذوي الدخل المحدود، وشددوا على القول



بان حاجة الدولة للضرائب يجب الا تكون سبباً في ارهاق كاهل المواطنين[17]. ويبدو أن الضرائب كانت موضع اهتمام خاص من قبل النائب المذكور. ففي اللقاء الذي جرى بين محمد علي فاضل وأحد الرحالة الانكليز- وقد اتينا على ذكره سابقا- قدم فاضل للأخير عرضاً بأهم الموضوعات التي تستأثر باهتمامه وكان في مقدمتها تثبيت ضريبة الارض واضاف الى ذلك قوله إن التجار والفلاحين سوف لايرحبون بتلك الخطوة نظراً لان التجار يرغبون في التزام الضرائب، في حين ان الفلاحين يفضلون التعاقد مع الحكومة مباشرة بشأن الضرائب. كذلك اعرب المبعوث نفسه عن ضرورة اجراء تعديلات على عقد امتياز سكة حديد بغداد- برلين للحيلولة دون تمكين الشركة صاحبة الامتياز من سرقة ثروة البلاد[18].

وفي اواخر عام ١٩١٠ قدم مبعوثا الموصل محمد علي فاضل وداؤد يوسفاني تقريراً من (٧) نقاط تطرقا فيه الى اعمال السلب والنهب التي كانت تقوم بها بعض العشائر في انحاء الموصل. وقد بلغت الجرأة بهذه العشائر الى حد أنها كانت تهاجم القوات الحكومية التي كانت ترسل لاجل استعادة المنهوبات. واضافا الى ذلك قولها انه بالرغم من القاء السلطات الحكومية القبض على (١٣) شخصاً ممن اتهموا بارتكاب تلك الاعتداءات لكنه لم يصل منهم الى الموصل إلا شخص واحد في حين اخلي سبيل الباقين دون ان تقدم السلطات الحكومية ايضاحات حول ذلك. وخلص التقرير الى القول بانه على الرغم من اطلاع الصدر الاعظم ووزير الداخلية على تلك الامور إلا انه لم يتخذ اي أجراء بصدده. وقد عاود مبعوث الموصل محمد علي فاضل طرح الموضوع ثانية، وانتقد صمت الحكومة تجاهه وأكد على أن سكوت السلطات الحكومية على تلك التجاوزات من شأنه ان يشجع العشائر على مواصلة التعرض للقوافل التجارية.[19]

وفي مطلع عام ١٩١١ أسهم مبعوثا الموصل مع عدد آخر من المبعوثين العراقيين والعرب في تقديم تقرير الى مجلس المبعوثان حملوا فيه بشدة على والي بغداد حسين ناظم باشا (١٩١٠- ١٩١١م) وانتقدوا تخويله صلاحيات واسعة[20] واتهموه باساءة استخدام تلك الصلاحيات واهماله الزراعة ومحاباته بعض شيوخ العشائر، وتغاضيه عن قطاع الطرق مما ادى الى انتشار الفساد[21]، ومع هذا ايد محمد علي فاضل في جلسة لاحقة زميله شوكت باشا مبعوث الديوانية وكان الاخير قد امتدح نزاهة الوالي ناظم باشا الا انه شكك في قدراته الادارية واتهمه بالاعتماد على موظفين غير اكفاء[22].

الاحداث الخارجية وتأثيراتها على الموصل:

واجهت الدولة العثمانية سلسلة من المشكلات الخطيرة خلال الفترة بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١٣. وقد تركت تلك المشكلات اصداء في ولاية الموصل ومن بين تلك المشكلات:

اولاً- سلخ جزيرة كريت عن الدولة العثمانية عام ١٩٠٩:

احدث الاحتلال اليوناني لجزيرة كريت في عام ١٩٠٩ صدىً واسعاً في الموصل. فقد عقد اجتماع حاشد في الساحة الكائنة بين القشلة (الثكنة) العسكرية والمدرسة الاعدادية رفعت خلاله لافتات بيضاء كتب عليها اسم كريت باللون الاحمر. وكان على رأس الحاضرين الوالي والامراء فضلاً عن كبار الموظفين والمشايخ وعلماء الدين ورؤساء الطوائف الدينية الاخرى، والقيت في الاجتماع عدد من الكلمات تضمنت شرحاً للقضية الكريتية. وكان من بين تلك الكلمات كلمة القاها محمد الفخري (الرئيس الأول لادارة نادي جمعية الاتحاد والترقي في الموصل) واخرى القاها فتح الله سرسم (صاحب امتياز جريدة نينوى الموصلية) وكلمة ثالثة تلاها

داؤد الملاح آل زيادة. ورفع المجتمعون في نهاية الاجتماع برقيات الى الصدارة العظمى ورئاسة مجلسي الاعيان والمبعوثان اعربوا فيها عن سخطهم على الاعتداء اليوناني على كريت وابدوا استعدادهم للتضحية في سبيل عودة الجزيرة الى السيادة العثمانية. وقام الوالي رشيد باشا بزيارة الى مقر نادي جمعية الاتحاد والترقي في الموصل بصحبة لفيف من وجهاء الموصل وعلمائها للاعراب عن تضامنهم مع الحكومة العثمانية[٢٣].

ثانياً – الاحتلال الايطالي لليبيا عام ١٩١١ :

اثار العدوان الاستعماري الايطالي على ليبيا في اواخر ايلول عام ١٩١١ ردود فعل غاضبة في الموصل. ومن الجدير بالذكر ان الحكومة العثمانية اعلنت في اعقاب ذلك العدوان حالة التعبئة العامة في كل ارجاء الامبراطورية العثمانية وفرضت زيادات على الضرائب[٢٤]. ولقد تمثلت ردود الفعل في الموصل في تأسيس العديد من اللجان في مدن وقصبات ولاية الموصل لجمع التبرعات دعما للمجهود العثماني الحربي. واسهمت بعض الصحف الموصلية مثل صحيفة (النجاح) في حث اهالي الموصل على المشاركة في التبرعات لتعزيز قوة الاسطول العثماني[٢٥]. ومن جانب آخر أعرب قسم من اهالي الموصل من خلال البرقيات التي رفعوها الى مركز الولاية عن رغبتهم في التطوع للقتال الى جانب اشقائهم الليبيين[٢٦].

ثالثاً– حرب البلقان عام ١٩١٢ :

كانت العصبة البلقانية (اليونان، وصربيا، وبلغاريا) والتي تأسست منذ شباط عام ١٩١٢ قد اعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ١٨ تشرين الاول من العام نفسه[٢٧]. وكان لهذه الحرب تأثيرها وصداها في الموصل. اذ اصدر علماء بغداد والنجف وكربلاء فتوى دعوا فيها ابناء العراق الى الجهاد والتضحية بالأرواح والأموال[٢٨]. وتشكلت لجنة في الموصل في كانون الثاني عام ١٩١٣ لجمع التبرعات حيث اخذت التبرعات العينية والنقدية ترد الى رئاسة اللجنة. كما عقدت اجتماعات في الاقضية التابعة لولاية الموصل القيت خلالها كلمات تدعو المواطنين الى شد ازر الدولة العثمانية ضد قوى العدوان[٢٩].

ومن جانب اخر قامت السلطات الحكومية بتوزيع بيان في الموصل في ١٢ شباط عام ١٩١٣ شرحت فيه ابعاد تلك الحرب ومارافقها من اعتداءات على حياة الرعايا العثمانيين وممتلكاتهم في منطقة البلقان. واهابت باهالي الموصل الى المشاركة في دعم المجهود الحربي من خلال اقتناء سندات القرض التي اصدرتها الحكومة العثمانية وهي من فئتين الاولى وهي من فئة المائة قرش وحدد سعرها ب (١٢٠) قرشاً والثانية بنصف هذا المبلغ. وجدير بالذكر ان تلك السندات كانت سندات مؤقتة حيث لم تكن السندات الاصلية قد صدرت بعد[٣٠]. ومن جانب آخر أرسلت لجنة جمع التبرعات في الموصل تاجراً موصلياً بوصفه مبعوثا عنها ليقوم ببيع سندات القرض في بغداد، ولشرح ابعاد موقف الحكومة العثمانية من حرب البلقان لكبار المسؤولين فيها[٣١].

ومن جانب آخر كانت أنباء العدوان الايطالي على ليبيا وحرب البلقان حافزاً قوياً لكثير من الشعراء والخطباء ورجال الدين الموصليين في نظم القصائد الشعرية والقاء الخطب الداعية الى وجوب التصدي لدول العدوان. وكان في مقدمة هؤلاء محمد حبيب العبيدي الذي هزته احداث الاعتداء الايطالي على ليبيا فالقى قصيدة من حوالي خمسمائة بيت بعنوان (الواح الحقائق) في المنتدى الادبي العربي في استانبول في عام ١٩١١ حذر فيها الغرب من التمادي في العدوان وتغنى بأمجاد الامة العربية ودعاها الى الذود عن الكرامة العربية[٣٢].



كما اصدر العبيدي بمناسبة حرب البلقان كتيباً بعنوان: (خطبة نادي الشرق). وقد اوضح الغرض منه في مقدمته حينما قال: «عسىٰ أن يستيقظ راقد وينهض قاعد»[٣٣]. وضمن الكتيب دعوة الى اتحاد العرب والاتراك وبقية المسلمين للذود عن حمى الاسلام وصد اعتداءات دول الغرب[٣٤].

وما ان عاد العبيدي الى الموصل في ١١ آذار عام ١٩١٢ حتى استأنف نشاطه فيها اذ القى خطاباً مهماً في ساحة قضيب البان (وهي ملعب الادارة المحلية حالياً) على حشد كبير من علماء ووجهاء واهالي الموصل في نيسان من العام نفسه[٣٥]، استعرض فيه ابرز الاحداث التي تمر بها الدولة العثمانية ودعا الى التصدي للمخاطر التي تهدد الدولة العثمانية[٣٦].

انتخابات عام ١٩١٢ في الموصل:

بدأت مظاهر التأييد التي قوبلت بها جمعية الاتحاد والترقي في بداية انقلاب عام ١٩٠٨ بالانحسار التدريجي. حيث اخذت تنكشف حقيقة الاتحاديين العنصرية. كما أن ممارسات الاتحاديين داخل مجلس المبعوثان اظهرت زيف شعاراتهم المتمثلة بالحرية والعدالة والمساواة. وزاد الطين بلة حدوث انشقاقات في صفوف الاتحاديين، واخيراً أدى فشل الدولة العثمانية في الدفاع عن ليبيا بوجه المستعمرين الايطاليين في عام ١٩١١ الى ازدياد حدة المعارضة لجمعية الاتحاد والترقي داخل مجلس المبعوثان وخارجه، ومن جانب اخر نجحت قوى المعارضة في رص صفوفها وتشكيل حزب لها باسم (حزب الحرية والائتلاف)[٣٧]. وذلك في ٨ تشرين الثاني عام ١٩١١، وضم هذا الحزب عناصر من (الحزب الحر المعتدل) واخرى من (حزب الاهالي) اضافة الى تلك العناصر التي كانت قد انشقت عن جمعية الاتحاد والترقي. وكان مبعوث الموصل داؤد يوسفاني احد الاعضاء الثلاثة الذين أسسوا أول هيئة ادارية برلمانية لحزب الحرية والائتلاف[٣٨]. كما كان يوسفاني مديراً مسؤولاً لـ (جريدة تنظيمات) وكانت تعمل على ترويج افكار ومبادئ حزب الحرية والائتلاف[٣٩].

تفاقم الصراع بين الاتحاديين والائتلافيين في مجلس المبعوثان وبهدف وقف تدهور مكانة الاتحاديين في الدولة العثمانية، وتمهيداً لعقد صلح مع ايطاليا ارتأت جمعية الاتحاد والترقي حل مجلس المبعوثان، ونجحت الجمعية في حمل السلطان محمد الخامس على اصدار ارادة بهذا الشأن في ١٨ كانون الثاني عام ١٩١٢، وتقرر بموجب الارادة نفسها الشروع بأجراء انتخابات جديدة في غضون ثلاثة اشهر من تاريخ حل المجلس السابق.

وأصدرت وزارة الداخلية العثمانية سلسلة من التعليمات تقضي بضرورة تهيئة مستلزمات الانتخابات من قوائم وصناديق انتخابية. وشددت التعليمات على وجوب ان يكون المرشح للانتخابات مُسجلاً في نفس الولاية التي يترشح عنها وان يكون مقيماً فيها وقد عللت الوزارة هذه الاجراءات بحجة ضمان سلامة الانتخابات[٤٠].

اختلفت الانتخابات الجديدة التي بدأت في اواخر كانون الثاني عام ١٩١٢ عن انتخابات عام ١٩٠٨. فبينما كان الاتحاديون قد انفردوا تقريباً في الانتخابات الاخيرة، فقد شهدت انتخابات عام ١٩١٢ تنافساً حاداً بين جمعية الاتحاد والترقي وحزب الحرية والائتلاف. ففي الموصل مثلاً خاض كل من محمود العمري ورشيد العمري الانتخابات بوصفهما ممثلين عن حزب الحرية والائتلاف وتولت (جريدة النجاح) الموصلية الدعاية لهما على صدر صفحاتها، فيما تبنت (جريدة نينوى) الموصلية ايضاً الدعاية لمرشحي جمعية الاتحاد والترقي[٤١].

وجدير بالذكر ان الاتحاديين اصدروا تعليمات

الى الولاة والمتصرفين دعوهم خلالها الى الاسراع في عقد الانتخابات، كما ارسلوا تعليمات سرية تخولهم ممارسة كل انواع الضغط على الناخبين كحملهم على انتخاب مرشحي الاتحاديين حتى لو تطلب ذلك استخدام القوة معهم [٤٢]. وتم بالفعل اجراء الانتخابات في وقت مبكر وقبل ان يتمكن بعض المبعوثين من العودة الى مناطقهم كما هو الحال مثلاً بالنسبة لـ (داوُد يوسفاني) مبعوث الموصل في مجلس المبعوثان السابق والذي لم يستطع الوصول الى الموصل الا بعد مرور شهرين على بدء الحملة الانتخابية [٤٣]. وبفضل تلك الاساليب نجح الاتحاديون في الفوز في الانتخابات وتشكيل مجلس مبعوثان جديد ذي غالبية موالية لهم [٤٤].

لقد انتخب اربعة نواب عن ولاية الموصل وهم: محمد علي فاضل آل عبد الحافظ عن لواء الموصل ونائبان آخران عن لواء كركوك ونائب رابع عن لواء السليمانية [٤٥].

حل مجلس المبعوثان:

على الرغم من ان الاتحاديين كانوا قد فازوا بالأغلبية الساحقة في انتخابات عام ١٩١٢، فانهم سرعان ماواجهوا معارضة شديدة لاسيما في صفوف الجيش العثماني. وقد اعلن فريق من ضباط الجيش في مناستر برئاسة اليوزباشي (النقيب) طيار بك ثورة على الحكومة الاتحادية ولجأوا الى الجبال في ١١ حزيران عام ١٩١٢ ودعوا من هناك الى تحقيق عدد من المطالب مثل تشكيل حكومة جديدة من غير اعضاء جمعية الاتحاد والترقي وحل مجلس المبعوثان، واجراء انتخابات جديدة، وابعاد الجيش عن التدخل في الشؤون السياسية والحيلولة دون تدخل جمعية الاتحاد والترقي في شؤون الدولة [٤٦].

واستجابة لتلك الضغوط اضطرت الحكومة القائمة آنذاك والتي كانت برئاسة سعيد باشا الى الاستقالة في ٩ تموز عام ١٩١٢، وخلفتها حكومة اخرى برئاسة احمد مختار باشا في ١٧ تموز من العام نفسه. ولم يرافق استقالة حكومة سعيد باشا حل مجلس المبعوثان الذي كان يتألف في غالبيته من الاتحاديين. وهكذا استمرت الاحتجاجات على بقاء مجلس المبعوثان في بعض الاوساط المدنية والعسكرية. اما عن موقف الاتحاديين فقد عارضوا في البداية حل مجلس المبعوثان بحجة انه اجراء غير دستوري [٤٧]. وازاء تفاقم الاحتجاجات ضد بقاء مجلس المبعوثان عقد اجتماع سري بين عدد من اعضاء الحكومة واعضاء من مجلس الاعيان نوقشت خلاله مسألة حل مجلس المبعوثان وتقرر على اثره اجراء تصويت حول استمرار بقاء مجلس المبعوثان او حله وقد ايد (٢٨) صوتاً حل المجلس فيما عارضت (٥) اصوات حله. وهكذا اصدرت ارادة سلطانية بحل مجلس المبعوثان في ١٥ آب عام ١٩١٢ ولم يكن قد مضى على انعقاده سوى بضعة أشهر [٤٨].

قررت وزارة أحمد مختار باشا البدء باجراء انتخابات جديدة قبل نهاية آب عام ١٩١٢. وقاطع الاتحاديون في البداية الانتخابات لكنهم مالبثوا ان شاركوا فيها اخيراً. وبسبب حرب البلقان التي اندلعت -كما اشرنا الى ذلك من قبل- في تشرين الثاني عام ١٩١٢ قررت حكومة كامل باشا الائتلافية تأجيل الانتخابات [٤٩].

وفي غضون ذلك شن الاتحاديون حملات عنيفة ضد حكومة كامل باشا واتهموها بالتفريط بالسيادة العثمانية ثم مالبث الاتحاديون ان اجبروا كامل باشا على الاستقالة والفوا وزارة من بين اعضائهم في ٢٣ كانون الثاني عام ١٩١٣ برئاسة محمود شوكت باشا [٥٠].

وتجدر الاشارة الى ان الانقلاب الاخير أثار مشاعر سخط بين ابناء الموصل، فقد رفع



المسترهوني مساعد القنصل البريطاني في الموصل تقريراً في شباط عام ١٩١٣ وصف فيه ردود الفعل في الموصل تجاه الانقلاب الذي قام به الاتحاديون ضد حكومة كامل باشا بقوله «انه قوبل بالاشمئزاز من اهالي الموصل»(٥١). ومهما يكن من امر فقد صدرت الاوامر باجراء انتخابات جديدة في اواخر عام ١٩١٣ ومطلع العام التالي(٥٢). وقد عاود الاتحاديون اللجوء الى اساليب الضغط والاكراه في هذه الانتخابات بل انهم عمدوا –كما هو الحال في العراق مثلا– الى ارسال (٦٤) ضابطاً برتبة بيكباشي (مقدم) لاجل التدخل في الانتخابات وضمان فوز مرشحيهم فيها، حتى انهم عينوا مبعوثا تركيا عن ولاية الموصل(٥٣).

ونتيجة للاجراءات والاساليب الآنفة الذكر اسفرت هذه الانتخابات عن فوز مرشحي جمعية الاتحاد والترقي في كل الولايات العراقية باستثناء ولاية البصرة التي فاز فيها مرشحون من اعضاء الجمعية الاصلاحية(٥٤). وقد اعلنت نتائج الانتخابات في ٤ كانون الثاني عام ١٩١٤ وكانت أسماء الفائزين فيها عن لواء الموصل كل من: صالح السعدي، ومحمد علي فاضل، وداود يوسفاني، وابراهيم فوزي(٥٥)، وافتتح مجلس المبعوثان الجديد جلساته في ١٤ آيار عام ١٩١٤ واستمر الى آب من العام نفسه حينما اصدرالسلطان محمد الخامس ارادة سلطانية بتعطيله بالنظر لظروف الحرب العالمية الاولى(٥٦)

نشاطات مبعوثي الموصل في مجلس المبعوثان الجديد:

تمثل دور مبعوثي الموصل في مجلس المبعوثان الجديد في تقديم عدد من المقترحات والاراء فقد تقدم مبعوث الموصل صالح السعدي في اثناء الجلسة التي عقدها مجلس المبعوثان في ٢ حزيران عام ١٩١٤ لمناقشة مشروع لائحة (تشجيع الصناعة) باقتراح دعا فيه الى ان يتولى المجلس البلدي في الموصل الزام اغنياء الموصل بانشاء شركات صناعية مساهمة وتحديد نسبة مساهماتهم فيها مالم يبادر اولئك الاشخاص الى تأسيس تلك الشركات في غضون سنة واحدة. لكن الاقتراح لم يعرض للمناقشة لعدم حصوله على الاصوات التي تؤهله للمناقشة(٥٧).



• محمد علي فاضل آل عبد الحافظ مبعوث (نائب) الموصل الى مجلس المبعوثان العثماني.

كذلك ساهم مبعوثو ولاية الموصل مع حوالي (٨٠) مبعوثاً آخر في رفع توصية الى مجلس المبعوثان في ٢ حزيران عام ١٩١٤ دعوا فيها الى الزام الدوائر الحكومية بشراء احتياجاتها من المصنوعات الوطنية وتغريم الموظفين الذين يخالفون ذلك(٥٨). كما تولى نائب الموصل محمد علي فاضل الرد على وزير المالية العثماني جاويد بك الذي طعن في صحة الأوقاف الخاصة بمراقد الانبياء في الموصل. وتجدر الاشارة في هذا الصدد الى ان وزارة المالية العثمانية كانت قد اصدرت تعليمات وضعت يدها بموجبها على تلك الاوقاف وعرضتها للايجار عن طريق المزايدة العلنية(٥٩).

علاقات السلطات الحكومية مع اليزيديين وعشائر شمر الجربا :

أ- العلاقات مع اليزيديين :

لم تختلف علاقات السلطات الحكومية مع اليزيديين خلال العهد الاتحادي كثيراً عما كانت عليه في العهد الحميدي. ومن الجدير بالذكر ان العلاقات شهدت قدراً من التحسن في مطلع العهد الاتحادي بدليل الزيارة التي قام بها احد امراء اليزيدية وهو اسماعيل بك چول الى استانبول في ٢٥ شباط عام ١٩٠٩ ، وحاول خلالها حمل السلطات العثمانية على وضع حد للاجراءات التي كانت قد اتخذتها ضد اليزيديين منذ عام ١٨٩٢ . ولقد التقى اسماعيل بك خلال تلك الزيارة بكل من الصدر الاعظم ومبعوث الموصل داود يوسفاني . وقد تعهد هولاء لاسماعيل بك أن يبذلا ما في وسعهما لتلبية مطالب اليزيديين. وصدر بالفعل قرار بهذا الشأن وصادقت عليه الحكومة العثمانية ومجلس المبعوثان[٦٠] .

لكن العلاقات بين الطرفين سرعان ماتدهورت من جديد فقد رفض اليزيديون الامتثال للقانون الذي اصدرته الحكومة العثمانية في عام ١٩٠٩ والذي يقضي بتوسيع نطاق نظام الخدمة العسكرية الالزامية بحيث يشمل السكان غير المسلمين[٦١] .

ومن جانب آخر لم يتبع الاتحاديون سياسة ثابتة تجاه اليزيديين بل استخدموا معهم سياسة اللين احياناً واساليب العنف احياناً اخرى. وقد ترتب على هذه السياسة ان استخف اليزيديون بالسلطات الحكومية ، وأخذوا يشنون هجمات متتالية على دار الحكومة في سنجار. لهذا ارسلت الحكومة المحلية في ولاية الموصل فوجين من القوات النظامية مع اثنين من بطريات المدفعية الجبلية واشتبكت هذه القوة مع اليزيديين في ٥ ايلول عام ١٩١٢ وكانت هذه الحملة سبباً لاستقرار الأمن في منطقة سنجار[٦٢] .

ب- العلاقات مع شمرالجربا :

اما فيما يتعلق بعلاقات السلطات الحكومية مع عشائر شمرالجربا فقد واصلت الاخيرة فرض (الخوة) على العشائر الاخرى التي كانت ترعى اغنامها في المراعي العائدة لشمر. فكانت تأخذ على كل قطيع خروفان واربع نعاج واربعة طليان وستة مجيديات[٦٣] وحصلت شمر على مايقرب من (٦٠٠٠) ليرة من تجار الاغنام الموصليين في عام ١٩٠٩ . وفي العام التالي حصلت شمر من التجار انفسهم على مبلغ (١٠٠٠) ليرة وطالبتهم بدفع المزيد من الاموال مما اضطر التجار الى رفع شكوى ضد شمر الى والي بغداد ناظم پاشا طالبين منه حماية اغنامهم واموالهم[٦٤] .

واستجابة لتلك المطالب ارسل ناظم پاشا قوة عسكرية ضد شمر في مطلع عام ١٩١١ قوامها الفي جندي ، فضلاً عن قوات اخرى من بعض العشائر. وانيطت قيادة تلك القوة بالعقيد رضا بك رئيس هيئة اركان الجيش السادس ، واستطاعت القوة تطويق اربعة الاف من رجال شمر بصحبة بعض شيوخهم مثل مجول والعاصي وشلال وذلك في منطقة الحضر وحصلت منهم على وعود بتسديد مابذمتهم من ضرائب متأخرة بلغت قيمتها سبعة آلاف ليرة تركية . كما صادرت القوة اعداداً من الجمال والاغنام. كما قام قائد القوة المذكورة بعزل مجول عن مشيخة شمر ونصب مكانه حاجم بن العاصي. وقد اثار الاجراء الاخير غضب الشيخ حميدي الذي كان قد تعاون مع القوة التركية[٦٥] .

ويبدو ان الاتفاق آلانف الذكر لم يصمد فترة طويلة فقد عادت المناوشات بين شمر والقوات الحكومية في العام نفسه . اذ أرسلت الاخيرة مفرزة من الجندرمة الى الشرقاط . وقد اشتبكت المفرزة مع



شمر مما تسبب في مقتل ثلاثة من ابناء شمر، وارسلت السلطات الحكومية بتعزيزات اخرى من قواتها تمكنت بواسطتها من السيطرة على الموقف[٦٦] .

وعلاوة على ماذكرنا فقد استمر طابع الشك يطغى على علاقات السلطات الحكومية مع بعض شيوخ شمر وكمثال على ذلك وصل العاصي وهو الرئيس الفعلي لقبائل شمر الى الموصل قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى وبعد ان تلقى ضمانات من الحكومة المحلية في الموصل بعدم التعرض له، الا ان الاخيرة سارعت الى زجه في السجن ولو أنها عدلت عن موقفها بعد قليل فاطلقت سراحه[٦٧] .

وفي الامكان ان نستنتج من خلال العرض السابق ان شمر كانت قد فقدت الكثير من نفوذها وقوتها خلال الفترة الممتدة من بداية سبعينات القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الاولى بسبب التطورات العديدة التي شهدتها خلال تلك الفترة كان من ابرزها الانقسامات المتعددة التي حصلت في زعامة شمر، وصراعاتها المزمنة مع عشائر عنزة. ومن جانب اخر ازدادت قوة العثمانيين بفعل تكثيف وجودهم العسكري في المناطق المتاخمة لشمر، وزيادة عدد دوريات البادية واستخدام العثمانيين البغال في حملاتهم ضد شمر فضلاً عن استخدامهم اسلحة اكثر تطوراً كالبنادق الحديثة. كما استفادت تلك القوات من وسائل الاتصالات الحديثة كالبرق. وهكذا فقدت شمر كثيراً من مزاياها القتالية السابقة كسرعة الحركة وعنصر المباغتة[٦٨] .

الموصل خلال الحرب العالمية الاولى :

اعلنت الدولة العثمانية النفير العام في الثاني من آب عام ١٩١٤[٦٩] . وفي صباح ذلك اليوم استيقظ العراقيون على اصوات الطبول تدق على غير العادة وظهرت ملصقات تحمل صورة مدفع وبندقية[٧٠] كتب في اسفلها (سفر برلك وار؛ عسكر اولانلر سلاح باشنه)[٧١] ومعناها ان النفير العام قد اعلن وعلى الجنود ان يكونوا على اهبة الاستعداد بأسلحتهم[٧٢] وفي الموصل جرى تعليق تلك الملصقات على الجدران وابواب الجوامع والمساجد والكنائس ودور الحكومة وفي الساحات العامة والشوارع والمنعطفات[٧٣] .

بدأت السلطات العثمانية على الفور حملات واسعة النطاق لتجنيد الشباب شملت أولئك الذين تراوحت اعمارهم بين (٢٠ الى ٤٠) سنة حتى خلت المدن والقرى من الرجال ولم يبق فيها سوى النساء والشيوخ[٧٤] وجرى ارسال اولئك المجندين الى جهات قفقاسية ووان[٧٥] . وابدى اهالي الموصل، شأنهم في ذلك شأن اشقائهم في بقية المدن العراقية الاخرى امتعاضهم من التجنيد، فلاذوا بالفرار الى الجبال والبوادي والتجأ نفر غير قليل منهم الى المناطق العشائرية ولما كثرت اعداد الهاربين من الخدمة العسكرية اصدر المشير انور باشا وكيل القائد العام للجيش التركي ووزير الحربية اوامر الى ضباط التجنيد والمجالس العسكرية والولاة باعدام نصف الهاربين المقبوض عليهم وسوق النصف الاخر الى الجبهات الحربية تحت الحراسة[٧٦] . وتم بالفعل تنفيذ احكام الاعدام رميا بالرصاص بعدد من الهاربين من الخدمة في موقع الدندان (جنوب مدينة الموصل)[٧٧]

وبهدف تأمين احتياجات القوات العثمانية من المواد الغذائية والتموينية فقد تشكلت في الموصل لجان عديدة وكما يأتي :

(١) لجنة التموين وكانت تتألف من أربعة اعضاء من وجهاء الموصل ويرأسها رئيس البلدية ومهمتها وضع اليد على كل مافي السوق من مواد غذائية وملابس وعدم السماح ببيعها الا بتصريح من قبلها.

(٢) لجنة الاعانات : وقوامها اربعة اعضاء ثلاثة



منهم من اعضاء اللجنة السابقة وتولت جمع التبرعات النقدية والعينية من الاهالي وتمكنت من جمع مبلغ خمسة الاف ليرة ذهبية بوقت قصير.

(٣) لجنة المبايعات وتشكلت من اربعة اعضاء من الاهالي وبرئاسة ضابط ومهمتها جمع ضرائب العشر من المزارعين[٧٨].

كما تأسست لجنتان فرعيتان هما (لجنة التشويق) اي التشجيع على التطوع ومهمتها حث ابناء العشائر على التطوع في الجيش، والاخرى (لجنة الفارين) أو (لجنة التعقيب) وتتولى تعقيب الهاربين والمتخلفين وسوقهم الى الجيش[٧٩] كذلك تالفت جمعية اخرى في الموصل لجمع التبرعات عرفت باسم (مدافعه مليه جمعيتي) اي جمعية الدفاع الوطني[٨٠].

ومن جانب اخر أصدر السلطان العثماني محمد الخامس وشيخ الاسلام سلسلة من البلاغات والفتاوي في تشرين الثاني عام ١٩١٤ تدعو الجيش والاهالي الى الجهاد[٨١]. وقرئت تلك الفتاوي في جوامع الاقطار الاسلامية كافة عقب الانتهاء من خطبة صلاة الجمعة[٨٢].

لقيت الدعوة الى الجهاد بعض القبول بين ابناء الموصل فاتجهوا الى الجوامع التي اتخذت كمراكز لاستقبال المتطوعين. ووصف شاهد عيان الموصل حينذاك بأنها غدت «ثكنة تموج بالرجال»[٨٣].

وقاتلت جموع المتطوعين داخل العراق وخارجه. اذ تقرر ارسال فريق منهم في اواخر عام ١٩١٤ الى حلب. وحضر ذووهم لتوديعهم. ولما كان الوقت ليلاً فقد اضطر هؤلاء الى التعرف على ابنائهم واقاربهم في ضوء عيدان الثقاب ولذلك اشتهرت هذه الحادثة باسم (طابور ابو شخاطة)[٨٤]. اما الفريق الاخر من المتطوعين فقد ارسل بعضهم الى جنوب العراق لمقاتلة القوات الانكليزية[٨٥] في حين ارسل بعض آخر منهم الى ايران لمشاغلة القوات الروسية فيها ولايقاف تقدمها عند راوندوز وبنجوين[٨٦].

وتجدر الاشارة الى ان اعداداً كبيرة من ابناء الموصل لقوا - شأنهم في ذلك شان اقرانهم في بقية المدن العراقية - حتفهم في جبهة القوقاز جراء الجوع والبرد[٨٧] ووقع بعضهم ممن قاتلوا في جنوب العراق في اسر القوات الانكليزية[٨٨]. واودت الحرب بحياة الالاف من ابناء الموصل[٨٩].

علاقات شمر الجربا مع السلطات العثمانية خلال الحرب العالمية الاولى :

سعت السلطات العثمانية الى استرضاء عشائر شمر الجربا خلال فترة الحرب العالمية الاولى. ونجحت تلك السلطات في الابقاء على ولاء شمر لها من خلال منح شيوخها بعض المناصب العسكرية الثانوية ودفعها رواتب سخية لهم. وقد استخدم الاتراك شمر الجربا كقوات احتياطية لمقاتلة القوات البريطانية في جنوب العراق. فقد شاركت مجموعة من ابناء شمر في الهجوم الذي قامت به القوات التركية ضد المواقع التي احتلها الانكليز في الشعيبة قرب البصرة في ١٢ نيسان عام ١٩١٥[٩٠].

كارثة المجاعة في الموصل (١٩١٧-١٩١٨) :

بدأت بوادر المجاعة تظهر في الموصل بصورة تدريجية منذ خريف عام ١٩١٧ ثم أخذت تتفاقم في شتاء ذلك العام حتى شهدت الموصل غلاء لم تعرف مثيلاً له من قبل. ويمكن أن نعزو أسباب تلك المجاعة الى عوامل منها :

١ - رداءة الموسم الزراعي لعام ١٩١٧: إذ وصفت حالة المزروعات في ذلك الموسم بأنها غير جيدة.[٩١] وقد زاد من الحالة سوءاً أقدام السلطات التركية على أخلاء مناطق زراعية بأكملها نتيجة العمليات الحربية وسوق عدد



كبير من أبناء الريف القادرين على العمل للخدمة في الجيش أو القيام بأعمال السخرة مما سبب أنخفاضاً كبيراً في مساحة الأراضي الزراعية في عموم العراق وقد بلغت مساحة الأراضي الزراعية التي تركها أصحابها في ولاية الموصل وحدها حوالي ٥٠٪ من مجموع الأراضي الزراعية [٩٢] .

٢ - اشتداد وطأة الضرائب على السكان : لقد أدت العمليات العسكرية في أثناء الحرب العالمية الأولى الى زيادة تأزم الوضع الأقتصادي في العراق حيث أستخدم كلا الجانبين المتحاربين جميع الأمكانات والثروات المتوفرة في البلاد لتلبية أحتياجات القوات المسلحة [٩٣] . والقت السلطات التركية من جانبها ثقل النفقات العسكرية كافة على أكتاف الشعب العراقي خاصة الفلاحين الذين يعدون دافعي الضرائب الأصليين. اذا أقتصر نشاط تلك السلطات في اثناء الحرب على جمع الضرائب وشراء المحاصيل الزراعية بأسعار بخسة جداً [٩٤] وبالعملة الورقية التي تدنت قيمتها [٩٥] الشرائية الى حد بعيد بحيث أصبحت كل ثمان ليرات ورقية تساوي ليرة ذهبية واحدة بل أن السلطات العثمانية لم تدفع أحياناً أية نقود مقابل ما كانت تستولي عليه من أموال المواطنين فمن ذلك أن موظفي الحكومة ورجال الشرطة كانوا يصادرون كل مالدى البدو الذين كانوا يقيمون قريباً من المدن من قطعان الاغنام والأبل بأسم (التكاليف الحربية) واذا ماتجرأ أحد من هؤلاء بمطالبة الحكومة برد أمواله فكان يزج به في السجن ولايطلق سراحه الا في حالة أجباره على التبرع بنصف تلك القطعان الى الحكومة ويعطى ايصالاً بقيمة النصف الباقي على أمل تسديده عقب أنتهاء الحرب العالمية الأولى من أموال التعويضات التي سوف تحصل عليها الدولة العثمانية من خصومها [٩٦]. وجدير بالذكر أن لجان الضرائب لم تكن تراعي الفروق المعاشية بين دافعي الضرائب فكانت تفرض على البقالين وغيرهم من الأصناف نفس الضريبة التي كانت تفرضها على كبار المزارعين ممن كانت مخازنهم السرية مليئة بالمؤونة . ومن جانب أخر كانت تلك اللجان تلزم الأشخاص على دفع الضريبة بصورة عينية مما أضطرهم الى شراء الكمية المفروضة عليهم من المحتكرين وبأثمان باهظة جداً واضطر بعض الناس الى بيع أثاث بيوتهم وحلي نسائهم كي يسددوا ثمن تلك الكمية . وعمدت السلطات العثمانية الى الأستعانة برجال الشرطة لاستحصال الضرائب من ابناء القرى. وقد عانى الناس الكثير على يد رجال الشرطة الذين كانوا يبتزون أموال المواطنين حتى أنهم لم يتورعوا عن «دخول دار العجوز التي لاتملك سوى مايسد رمقها فيصادرونه منها عنوة فتشتريه المسكينة منهم لقاء نقود ذهبية مرة فثانية أو ثالثة تخلصاً من الموت جوعاً» [٩٧] . وأدى كل ذلك بالمزارعين الى أخفاء حاصلاتهم عن أنظار السلطات العثمانية ثم الى شحة المواد الغذائية .

٣ - تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين الى الموصل : لقد شهدت الموصل وصول موجات كبيرة من المهاجرين اليها ولاسيما من الأرمن والأكراد . وقد قدر مصدر عدد الأرمن الذين دخلوا الموصل في عام ١٩١٧ بنحو من (٨٠٠٠) نسمة .كذلك وصلت الى الموصل أعداد كبيرة من المهاجرين الأكراد ممن أضطرتهم السلطات التركية الى ترك ديارهم



لأعتبارات عسكرية سوقية أو تموينية [٩٨]

٤– أزدياد حاجة القوات العثمانية الى المواد التموينية: دأب قادة القوات العثمانية على خزن كميات كبيرة من الذخائر والمواد التموينية للجيش قريباً من جبهات القتال لكنهم لم يولوا عناية كافية بتوفير الحماية اللازمة لها وأدى ذلك الى وقوع كميات كبيرة من الذخائر والمؤونة بيد القوات الأنكليزية لاسيما في جبهة دجلة ثم الى ظهور نقص شديد في الامدادات الغذائية التي تحتاجها القوات العثمانية [٩٩].

٥– الحصار البحري: كانت دول الحلفاء قد فرضت حصاراً بحرياً على الدولة العثمانية، وهكذا تعذر دخول السفن التجارية الى الموانئ العثمانية وتوقفت التجارة الخارجية. واصيبت تجارة الصادرات بأضرار بليغة اذ توقفت تقريباً تجارة العفص والصمغ [١٠٠] وهما من حاصلات ولاية الموصل [١٠١] كما توقف تصدير الفرو الى روسيا. ومن جهة أخرى أنخفض أستيراد البضائع الصناعية من الخارج خاصة في المناطق التي تقع تحت سيطرة القوات العثمانية. وعانت الموصل كسائر المناطق الأخرى من نقص شديد في الغزول والأقمشة الصوفية والكيروسين والاصباغ والسكر وماشابهها. وواجهت المؤسسات الصناعية التي كانت تعمل قبل الحرب كساداً لامثيل له بسبب توقف أستيراد الخامات نصف المصنعة التي تحتاجها كالغزول والأصباغ وغيرهما. أما الحرف اليدوية المحلية فأنها لم تستطع بناء قاعدة تقنية متقدمة تمكنها من النهوض بمستوى الأنتاج. وسبب توقف أستيراد المكائن في المناطق المحاصرة من العراق عرقلة نمو الأنتاج الصناعي أثناء الحرب بالرغم من توفر ظروف مناسبة لذلك. [١٠٢]

وأدى هبوط الأنتاج الزراعي وتوقف أستيراد البضائع الصناعية الى أرتفاع فاحش في الاسعار حيث أرتفعت أسعار الأقمشة في عام ١٩١٦ الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في عام ١٩١٣، وأزدادت اسعار الغزول في عام ١٩١٥ (٢,٤) مرة عما كانت في ١٩١٣ ايضاً والخيوط الى (٣) أضعاف والشموع الى (٤,٥) ضعفاً والأصباغ الى (٥) أضعاف وهكذا. كما أرتفعت أسعار المواد الغذائية أرتفاعاً فاحشاً حيث أرتفع سعر الخبز ثلاث مرات عما كان عليه قبل الحرب [١٠٣]. وبلغ سعر وزنة الحنطة (الوزنة تساوي ١٣,٥ كغم) ثلاث ليرات ذهبية [١٠٤] وذلك مادفع بالموصليين الى أن يطلقوا على مجاعة عام ١٩١٧ اسم «سنة الثلاث ليرات» [١٠٥] كما أرتفع سعر البيضة الواحدة الى (٣٠) قرشاً [١٠٦].

٦– تدهور قيمة النقد العثماني: طرحت الحكومة العثمانية بفعل اشتداد وطأة الحرب عليها، وزيادة النفقات العسكرية كميات كبيرة من النقود الورقية. وكانت اسعار هذه النقود عرضة للصعود والهبوط. وهكذا تدهورت قيمتها الشرائية في السوق اذ أصبح سعر الورقة النقدية من فئة المائة قرش لايساوي في السوق أكثر من عشرين قرشاً من مثيلتها من العملة المعدنية [١٠٧]، وكانت السلطات الحكومية تلزم الأهالي على دفع مابذمتهم لها من أموال بالعملة المعدنية في حين لم تكن تدفع لهم أموالاً إلا بالنقود الورقية. وكان الموظفون يتقاضون رواتبهم بالعملة الأخيرة. كما كانت تلك السلطات تستبدل لدى التجار مالديها من عملات ورقية بأخرى ذهبية وبالسعر الرسمي. وتمارس رقابة شديدة

على الصيارفة وكانت تعاقب بشدة أولئك الذين يتعاملون بالنقود الورقية بأقل من سعرها الرسمي (١٠٨).

أختلفت المصادر في تقدير عدد ضحايا كارثة المجاعة. فقد قدر مصدر عدد ضحايا تلك الكارثة بعشرة الاف شخص (١٠٩)، فيما قدرها مصدر آخر بحوالي عشرين الف نسمة (١١٠) وكانت الخسائر في صفوف المهاجرين فادحة جداً. فقد روي أنه لم ينج من كارثة المجاعة سوى ثلاثة أشخاص فقط من أصل ستة الاف مهاجر كانوا قد لجأوا الى الموصل من ولاية وان (١١١)

وقد أستغل بعض من ذوي النفوس الشريرة كارثة المجاعة في الموصل لأرتكاب جرائم شنيعة تمثلت في ذبح الأطفال وأستخدام لحومهم في تحضير القلية (وهي من الاكلات المشهورة في الموصل) وبيعها في السوق. وقد أقترنت تلك الجرائم بأسم عبود بن علي جاويش بن توفيق وزوجته عمشة (١١٢) وتراوح عدد ضحاياه بين ٩ - ١١ طفلاً (١١٣) وسيق المجرم بعد أنكشاف أمره الى المجلس العرفي وصدر الحكم عليه وعلى زوجته بالأعدام شنقاً ونفذ الحكم فيهما في اليوم نفسه في ميدان باب الطوب وذلك يوم ١٠ نيسان ١٩١٨ (١١٤).

وقد طالت المجاعة أيضاً القوات العسكرية العثمانية اذ تردت نوعية الأرزاق التي كانت تقدم للجنود الى حد بعيد حتى وصف أحدهم الحساء (الشوربة) التي كانت تقدم للجنود بالمقيئات التي توصف لبعض المرضى ووجد أحدهم ماء في الصمون الذي كان يتناوله الجنود وأضاف في معرض وصفه للمواد التي كان يصنع منها ذلك الصمون بقوله «ان كل شيء فيها عدا الحنطة والشعير» (١١٥) ولجأت السلطات العسكرية في محاولة منها لترشيد أستهلاك المواد الغذائية الى الأيعاز بنقل بعض الفرق العسكرية الى خارج العراق كما هو الحال عندما نقلت الفرقة (٤٦) من الموصل الى فلسطين. وللغرض نفسه صدرت أوامر بتسريح (٥٠٠٠) جندي من ابناء الموصل لحين موسم الحصاد كذلك نقلت أعداد من حيوانات النقل الى حلب وترتب على تلك الأجراءات أن قلت أعداد الجنود وفقدت القوات العسكرية قدرتها على التحرك. وكانت أرزاق المقاتلين تتناقص تدريجياً فقد أنقصت أرزاق الجنود الى النصف وفي خلال الشهور الأربعة الأولى من عام ١٩١٨ خفضت مرة أخرى الى الربع (١١٦). حيث بلغ أستحقاق الجندي (١١٠) غم من الخبز في اليوم الواحد الى أقل من صمونة واحدة، وخفض أستحقاق الحيوان الواحد الى مايزيد قليلاً عن نصف كيلو غرام من العلف يومياً (١١٧).

وفي عام ١٩١٨، وهو العام الذي بلغت فيه المجاعة ذروتها أخذت أعداد كبيرة من الجنود بالهرب من جبهات القتال (١١٨). وأزاء كل ذلك بادر قائد الفيلق السادس خليل باشا الى الأتصال بمقر القيادة العامة في أستانبول وأستحصل على أمر منها في أواخر أذار عام ١٩١٨ يقضي بجلب أمدادات من الحنطة والشعير من قونية قدرت ببضع ملايين من الكيلوغرامات لسد رمق الجيش السادس من المواد الغذائية وقد تأخر وصول تلك الأمدادات الى محطة نصيبين حتى أواسط نيسان عام ١٩١٨، ثم نقلت بصورة تدريجية على ظهور الجمال الى الموصل، وعندها تمكن الجيش من زيادة أستحقاق الجنود من الربع الى النصف ثم الى الثلثين حتى موسم الحصاد المقبل (١١٩). وقدر مصدر حجم الخسائر التي مني بها الجيش السادس خلال شهري كانون الثاني وشباط من عام ١٩١٨ جراء المجاعة والأمراض بتسعة الاف جندي. (١٢٠)

وفضلاً عن ذلك أدت المجاعة وجثث الموتى المتفسخة الى تفشي مختلف أنواع الأمراض والأوبئة كالطاعون والكوليرا (١٢١) والتيفوس والهيضة



وقد اودت تلك الأمراض بأرواح عدد كبير من الناس[١٢٢]، خاصة وأن العناية الصحية كادت أن تكون معدومة تماماً.

نهاية السيطرة العثمانية على الموصل:

كانت وزارة الحرب البريطانية قد بعثت في الأول من تشرين الثاني عام ١٩١٨ الى الجنرال مارشال Marshal قائد القوات البريطانية في العراق تخبره فيها بعقد الهدنة. واوعز الأخير الى الجنرال كاسلس Cassels بالزحف نحو الموصل وأحتلالها بحجة «أن الأتراك ينسحبون منها وأن هناك خطراً من أحتمال قيام بعض العناصر بأثارة الاضطرابات وأقلاق الأمن في المدينة»[١٢٣]. وفي ٢ تشرين الثاني تقدم الجنرال كاسلس بقواته واحتل النقاط المهمة والطرق المؤدية الى مدينة الموصل. وفي صباح اليوم التالي طلب كاسلس من القائد التركي أحسان باشا أخلاء الموصل لكن الأخير رفض الطلب في بادئ الأمر. وخلال المؤتمر الذي أنعقد في الموصل في ٧ تشرين الثاني والذي ضم كبار المسؤولين البريطانيين والأتراك وضع مارشال ستة شروط وطلب من أحسان باشا الموافقة عليها وتوقيعها فوراً[١٢٤]. واضطر أحسان باشا على الموافقة على تلك الشروط التي قال عنها أنها امليت عليه أملاءً وتوجب عليه أخلاء مدينة الموصل بصورة كلية في غضون عشرة ايام[١٢٥].

وأنسحب أحسان باشا من الموصل إذ استقل سيارة نقلته الى نصيبين وبمرافقة مدرعات أنكليزية وابقى ممثل عنه في الموصل وهو اليوز باشي (الرائد) حسن بك الكركوكي[١٢٦]. وفي ٩ تشرين الثاني شرعت القوات البريطانية بالدخول الى مدينة الموصل في حين أنسحبت القوات التركية الى نصيبين[١٢٧]. وفي ١٢ تشرين الثاني أصدر نوري بك وكيل والي الموصل بلاغاً دعا فيه كافة الدوائر والموظفين الى مزاولة أعمالهم بصورة أعتيادية[١٢٨].

ومهما يكن من أمر فقد غادر نوري بك الموصل بناء على طلب من الكولونيل لجمن Leachman في ١٣ تشرين الثاني ١٩١٨[١٢٩].

وتجدر الأشارة الى أن الموصليين أظهروا قدراً كبيراً من ضبط النفس في أثناء أخلاء الموصل من قبل الأتراك فقد قابل وفد من وجهاء الموصل وكيل الوالي نوري بك وأعربوا له عن أستعدادهم لتشكيل قوة حراسة تتولى المحافظة على الأمن والنظام في الموصل عشية أنسحاب علي أحسان باشا. وقد أجاب وكيل الوالي هذا الطلب. وتشكلت فرق للحراسة في كافة المحلات[١٣٠] وقد غدا الكولونيل لجمن حاكماً عسكرياً وسياسياً لمدينة الموصل وأتخذ على الفور سلسلة من الاجراءات للسيطرة على الموقف في الموصل كأصداره أوامر بأطلاق النار في الحال على كل من يتجول في المدينة عقب حلول الظلام وقام بسلسلة من المداهمات لبيوت الموظفين الأتراك ومكاتبهم بحثاً عن السجلات. وأحتجز عدداً ممن أتهموا بأرتكاب السرقات أو مخالفات أخرى. كما أطلقت النار على عدد قليل من المواطنين ممن أتهموا بالقيام بأعمال نهب في المدينة[١٣١]. وأصدر الجنرال فانشو قائد القوات الأنكليزية في جبهة الموصل أمراً دعا فيه كافة الموظفين المدنيين الى الأستمرار في أعمالهم ريثما تصل تعليمات جديدة بشأنهم[١٣٢] ولم تأت نهاية شهر تشرين الثاني ١٩١٨ حتى أتم الأنكليز أحتلال بقية المدن الأخرى في ولاية الموصل مثل تلعفر وسنجار وعقرة والزيبار والعمادية وزاخو.[١٣٣]

الهوامش

(١) كان البرلمان العثماني قد أفتتح في عام ١٨٧٧ وعطل في مطلع العام التالي.

(٢) M. S. Anderson, The Great Powers and the Near East 1774 – 1923, (London: 1970), P. 150.

(٣) فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكي، تاريخ الاقطار العربية الحديث، ترجمة د. عفيفة البستاني، (موسكو: ١٩٧٢)،



ص ٤٠٠.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، (بغداد: ١١٥٦) ص ١٦٥.

(٥) توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨- ١٩١٤ (القاهرة: ١٩٦٠)، ص ١٠٠.

(٦) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٣ (بغداد: ١٩٧٢) ص ١٦٧.

(٧) عبدالكريم العلاف، بغداد القديمة، ط١، (بغداد: ١٩٦٠)، ص ١٧٤.

(٨) Mark Sykes, The Caliph's Last Heritage, (London: 1915), P. 484.

وتجدر الاشارة الى ان مورخاً محدثاً استطاع من خلال بعض الاوصاف التي اوردها المصدر الاخير للمبعوث المذكور كوصف لحيته وعينيه وبالاستعانة ببعض الشخصيات التي عاصرت تلك الفترة من معرفة اسم المبعوث وهو محمد علي فاضل. انظر: ابراهيم خليل احمد، ولاية الموصل دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨- ١٩٢٢، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد: ١٩٧٥، ص ٤٦.

(٩) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس، ط٧، (بيروت: ١٩٨٢)، ص ص ١٧٨- ١٧٩.

(١٠) برو، المصدر السابق، ص ١٠٤.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٠١.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(١٣) مصطفى نور الدين الواعظ، الروض الازهر في تراجم آل السيد جعفر، (الموصل: ١٩٤٨)، ص ٢٣٧. وقد ذكر مصدر اسم مبعوث كركوك محمد علي بك قيردار على النحو الآتي: الحاج علي ابن الحاج مصطفى قيردار. انظر العزاوي، المصدر السابق، ج٨، ص ١٦٦.

(١٤) صحيفة تقويم وقائع (استانبول) برنجي سنة، ٢٧٤، ٢٨ ذي القعدة ١٣٢٦، ص ٢.

(١٥) المصدر نفسه، برنجي سنة، ع ٧٣، ٢٩ ذي القعدة ١٣٢٦، ص ص ٦- ٧.

(١٦) الواعظ، المصدر السابق، ص ص ٢٣٩- ٢٤٠.

(١٧) عصمت برهان الدين عبدالقادر، دور النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني ١٩٠٨- ١٩١٤، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الاداب بجامعة الموصل ١٩٨٩، ص ص ١١٢- ١١٣.

(١٨) Sykes, Op. cit., P. 484.

(١٩) عبدالقادر، المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٢٠) كان ناظم باشا يتمتع بصلاحيات واسعة جداً فبالاضافة الى منصبه كوالٍ على بغداد فقد كان في الوقت نفسه قائداً للجيش السادس في العراق وتمتع بصلاحيات اخرى في ولايتي البصرة والموصل، إذ انيطت به مهمة اقرار الامن واخضاع العشائر في الولايتين الاخيرتين. انظر: برو، المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٢١) عبدالقادر، المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٢٣) احمد، المصدر السابق، ص ص ٥٧- ٥٨.

(٢٤) البرت م. منتشاشفيلي، العراق في سنوات الانتداب البريطاني، ترجمة هاشم صالح التكريتي، (بغداد: ١٩٧٨)، ص ١١٣.

(٢٥) احمد، المصدر السابق، ص ص ٥٨- ٥٩.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٢٧) هـ. أ. ل. فشر، تاريخ اوربا في العصر الحديث (١٧٨٩- ١٩٥٠) تعريب احمد نجيب هاشم ووديع الضبع، ط٤، (القاهرة: ١٩٦٤)، ص ص ٤٥١- ٤٥٢.

(٢٨) مجلة لغة العرب، ج١١، السنة ٢، ايار ١٩١٣، ص ٥٣٦.

(٢٩) للتفاصيل انظر المصدر نفسه، ج٧، السنة الثانية، كانون الثاني ١٩١٣، ص ٣١٨. وتجدر الاشارة الى ان احد المصادر عزا ضآلة التبرعات التي كان يقدمها العراقيون الى عدم ثقتهم بنزاهة المسؤولين عن جمعها واحتمال سرقتهم اياها خاصة وانه لم تكن هناك اية رقابة على جمع التبرعات انظر منتشاشفيلي المصدر السابق، ص ١١٣ وهامش ١٠٣ في الصفحة نفسها. وذكر مساعد القنصل البريطاني في الموصل ان الموصليين قابلوا حملة التبرعات بمشاعر السخط ونقل عن المفتي الاول في الموصل قوله: «ان اية اموال تقدم الى السلطان غير شرعية بل هي حرام» انظر فؤاد قزانجي، العراق في الوثائق البريطانية ١٩٠٥- ١٩٣٠، (بغداد: ١٩٨٩)، ص ٩٢.

(٣٠) قزانجي، المصدر السابق، ص ص ١٠٥- ١٠٦.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٣٢) انظر مقاطع من القصيدة في رفائيل بطي، الادب العصري في العراق، قسم المنظوم، ج١، (مصر: ١٩٢٣)، ص ص ١٤٨- ١٥٢. محمد حبيب العبيدي، ذكرى حبيب ديوان السيد محمد حبيب العبيدي، تحقيق احمد الفخري، (الموصل: ١٩٦٦)، ص ص ٥- ٩.

(٣٣) محمد حبيب العبيدي، خطبة نادي الشرق، (الموصل: ١٣٣١ هـ)، ص ٢.

(٣٤) العبيدي، ذكرى حبيب، ص ٧.

(٣٥) المصدر والصفحة نفسها.

(٣٦) احمد، المصدر السابق، ص ص ٦٠- ٦١.

(٣٧) عبدالقادر، المصدر السابق، ص ٨٠.

(٣٨) برو، المصدر السابق، ص ٣٠٢ هامش ١.

(٣٩) احمد، المصدر السابق، ص ٧٠.

(٤٠) عبدالقادر، المصدر السابق، ص ٨١.

(٤١) احمد، المصدر السابق، ص ص ٧٢- ٧٤.

(٤٢) عثماني عربي، حرب الانتخابات في الدولة العلية العثمانية، (مصر: د. ت)، ص ص ١١- ١٢.

(٤٣) احمد، المصدر السابق، ص ٧٦.

(٤٤) عبدالقادر، المصدر السابق، ص ٨٤.

(٤٥) احمد، المصدر السابق، ص ص ٧٦- ٧٧.

(٤٦) برو، المصدر السابق، ص ٣٨٣.

(٤٧) محمد مظفر الادهمي، الحركة البرلمانية العثمانية في العراق،

مجلة آفاق عربية، السنة الثانية العدد ٦ ، شباط ١٩٧٧ ، ص ٢٧ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٢٧

(٥٠) عبدالقادر، المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٥١) قزانجي ، المصدرالسابق ، ص ٨٧ .

(٥٢) الأدهمي ، المصدر السابق ، ص ٣٠

(٥٣) أحد أعضاء الجمعيات العربية ، ثورة العرب ، (مصر: ١٩١٦) ، ١٠٩ .

(٥٤) سليمان فيضي ، في غمرة النضال ، (بغداد : ١٩٥٢) ، ص ١٤٠ .

(٥٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ وقد اورد الدكتور ابراهيم خليل احمد نبذة عن مبعوثي الموصل وكالاتي : كان صالح السعدي عضواً في محكمة الاستئناف في الموصل عام ١٩٠٧ ثم اصبح رئيساً لبلدية الموصل في عام ١٩١٢ .اما محمد علي فاضل فكان يتمتع بمكانة كبيرة في اوساط رجال الدين والوجهاء في الموصل وكان يعمل قبل دخوله معترك الحياة النيابية في المحاكم. على حين كان داود يوسفاني احد ابناء الطائفة الكلدانية والتي هي اكبر الطوائف المسيحية في الموصل وكان يحظى بتأييد بطريرك الكلدان. وأما ابراهيم فوزي فكان تركياً وشغل سابقاً منصب قائد للجندرمة (الشرطة) في الموصل انظر: احمد : المصدر السابق ، ص ٧٨-٧٩ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٨١

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ص ٨٠-٨١

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٨١

(٥٩) عبد القادر، المصدر السابق ، ص ١٦٨ . ذكر سليمان فيضي الذي كان مبعوثاً عن البصرة في عام ١٩١٤ انه تلقى عريضة موقعة من علماء وشيوخ الموصل ناشدوه فيها حث الحكومة العثمانية على اعادة النظر في قانون التجنيد الجديد والذي يقضي بتجنيد المعيلين والطلبة. انظر فيضي ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ وتعليقنا على ذلك هو ان العريضة كان يفترض ان ترسل الى مبعوثي الموصل أولعل السبب في ارسالها الى سليمان فيضي انه موصلي اولاً وانه معروف بقدرته ونشاطه وجرأته ثانياً.

(٦٠) اسماعيل بك چول ، اليزيدية قديماً وحديثاً ، نشر قسطنطين زريق ، (بيروت ، ١٩٣٤) ، ص ص ٢٨-٣٠ .

(٦١) متشاشفيلي ، المصدر السابق ، ١٢١ .

(٦٢) صديق الدملوجي ، اليزيدية ، (الموصل : ١٩٤٩) ، ص ٥١٢ .

(٦٣) المس بيل ، فصول من تاريخ العراق القريب ، نقله الى العربية جعفر الخياط ، ط٢ ، (بيروت : ١٩١) ، ص ١٦٥ .

(٦٤) احمد ، المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٦٥) John Frederick Williamson, A Political History of the shammar Jarba Tribe of AL-Jazirah: 1800- 1958. Unpublished Ph. D. Thesis, Indiana University (U.S.A.) 1974, P.P. 95-96.

(٦٦) احمد ، المصدر السابق ، ص ١١٥ .

(٦٧) المس بيل ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٦٨) Williamson, o.p. cit., P.P. 81-96.

(٦٩) انطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٢١٦ ؛ محمد طاهر العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، م١ ، (الموصل : ١٩٢٤) ، ص ١٣٢ .

(٧٠) الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج ٤ ، (بغداد : ١٩٧٤) ، ص ٨١

(٧١) العمري ، تاريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٣٢ .

(٧٢) الوردي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨١ .

(٧٣) احمد ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

(٧٤) العمري ، تاريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٣٢ وتجدر الاشارة الى ماذكره مصدر من ان الذين استدعوا للخدمة العسكرية تراوحت اعمارهم بين (٢٠-٤٥) سنة انظر، عبدالمنعم الغلامي ، والموصل خلال الحرب العالمية الاولى ، مجلة المعرفة (بغداد) ، ج ٥٠ ، السنة الثالثة ، ١ شباط ١٩٦٣ ص ٩ .

(٧٥) العزاوي ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٦٧ .

(٧٦) العمري ، تاريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٣٣-١٣٤ .

(٧٧) الغلامي ، المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٧٨) المصدر نفسه ، ص ٩ .

(٧٩) احمد ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .

(٨١) انطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(٨٢) العزاوي ، المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٢٦٧ .

(٨٣) احمد ، المصدر نفسه ، ص ١٧٥ .

(٨٤) عبد الحليم اللاوند ، نظرات في زجل الموصل (الموصل : ١٩٦٩) ص ص ٥٠-٥١ .

(٨٥) عبد العزيز القصاب ، من ذكرياتي ، ط ١ ، (بيروت : ١٩٦٢) ، ص ١١١ .

(٨٦) احمد ، المصدر السابق ، ص ص ١٨٠-١٨١ .

(٨٧) العمري ، تاريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٣٣ .

(٨٨) احمد محمد المختار ، تاريخ علماء الموصل ، ص٢ ، جـ١ ، (الموصل : ١٩٨٤) ، ص ٥٨ .

(٨٩) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٧٠ .

(٩٠) Willamson, Op. Cit., p. 97

(٩١) محمد أمين العمري ، تأريخ حرب العراق ، (بغداد : ١٩٣٥) ، م ٣ ، ص٩٠ .

(٩٢) ل . ن . كوتلوف ، ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق ، تعريب د. عبد الواحد كرم ، ط ٢ ، بيروت : ١٩٧٥ ، ص٦٨ .

(٩٣) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

(٩٤) المصدر نفسه ، ص٦٧ .

(٩٥) الواعظ ، المصدر السابق ، ص ٥١٦

(٩٦) فائز الغصين ، المظالم في سوريا والعراق والحجاز ، العقبة : ١٩١٨ ، ص١٢



(٩٧) العمري ، تأريخ مقدرات ، م ١ ص ١٤٠

(٩٨) أحمد ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩

(٩٩) العمري ، تأريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٣٦

(١٠٠) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(١٠١) الكسندر اداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة هاشم صالح التكريتي ، ج ٢ ، (البصرة : ١٩٨٩) . ص ٢٣٥

(١٠٢) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ص ٦٧ – ٦٨

(١٠٣) المصدر نفسه ، ص ٦٩

(١٠٤) العمري ، تأريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٣٨ . كانت قيمة الليرة الذهبية تساوي ثلاثة دنانير ونصف الدينار أنظر الواعظ ، المصدر السابق ، ص ٦٩٣ . العلاف ، المصدر السابق ص ص ١٧٠ – ١٧١ .

(١٠٥) أنظر : د. أبراهيم خليل أحمد «محافظة نينوى في العصور الحديثة» في عامر سليمان وأخرون ، محافظة نينوى بين الماضي والحاضر ، (الموصل : ١٩٨٦ ، ص ١١٢

(١٠٦) الغلامي ، المصدر السابق ، ج ٥٠ ، ص ١١

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٠

(١٠٨) العمري ، تأريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٣٣

(١٠٩) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٦٩

(١١٠) المختار ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٠

(١١١) القصاب ، المصدر السابق ، ص ١٨٦

(١١٢) الغلامي ، المصدر السابق ، ص ١١

(١١٣) أحمد ، المصدر السابق ، ص ٢١٨ ، أورد مصدر بأن الشرطة كانت قد عثرت في حفرة في بيت عبود على مائة جمجمة أنظر الوردي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩٢

(١١٤) الواعظ ، المصدر السابق ، ص ٥١٧ . وللأطلاع على تفاصيل المرافعة التي جرت بين الحاكم الذي تولى النظر في تلك القضية وبين زوجة عبود أنظر : الوردي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ٣٩٢ – ٣٩٣ .

(١١٥) الواعظ ، المصدر السابق ، ص ٥١٨

(١١٦) العمري ، تأريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٣٧ – ١٣٨

(١١٧) شكري محمود نديم ، حرب العراق ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ط ٤ ، (بيروت : ١٩٦٤) ، ص ١٧٣

(١١٨) العمري ، تأريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٣٨

(١١٩) المصدر نفسه ، ص ص ١٣٩ – ١٤٠

(١٢٠) الوردي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٩٣

(١٢١) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٦٩

(١٢٢) أحمد علي الصوفي ، تأريخ بلدية مدينة الموصل ، ج ١ ، (الموصل : ١٩٧٠) ص ٣٣

(١٢٣) أحمد ، المصدر السابق ، ص ٣١٥

(١٢٤) للاطلاع على نصوص تلك الشروط أنظر
Arnold T. Wilson, Mesopotamia 1917 – 1920
A Clash of Loyalties, London:1931, p. 20

(١٢٥) ستيفن هيمسلي لونكريك ، العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ ، ترجمة سليم طه التكريتي ، ج ١ ، ط ١ ، (بغداد : ١٩٨٨ ، ص ١٥٦

(١٢٦) العمري ، تأريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٤٨

(١٢٧) أحمد ، المصدر السابق ، ص ٣١٩

(١٢٨) أنظر نص البلاغ في العمري ، تأريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٥٢

(١٢٩) عمر ابو النصر ، الحرب العالمية الاولى موسوعة تأريخية مصورة ١٩١٤ – ١٩١٨ م ٣ ، ص ١٤٩

(١٣٠) العمري ، تأريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٥٠

(١٣١) Wilson, Op.cit., p.21

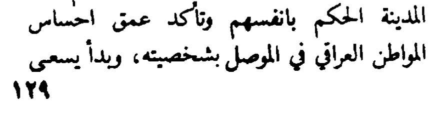
(١٣٢) العمري ، تأريخ مقدرات ، م ١ ، ص ١٥٣

الموصل والحركة العربية القومية في مطلع القرن العشرين

د. ابراهيم خليل احمد

مقدمة :

شهدت الموصل ابان حكم الجليليين لها (١٧٢٦ – ١٨٣٤) ، نهضة ثقافية علمية واسعة .. وخلال هذه الفترة ، استطاعت الموصل الحفاظ على كيانها وشخصيتها الحضارية العربية حتى ان



اللغة العربية اصبحت لغة الدوائر الرسمية انذاك. واتسعت حركة التأليف باللغة العربية وتسلم ابناء المدينة الحكم بانفسهم وتأكد عمق احساس المواطن العراقي في الموصل بشخصيته، وبدأ يسعى

لتطوير بلدته، وتخليص مؤسساتها شيئاً فشيئاً من السيطرة المركزية العثمانية. وكان لذلك كله اثر كبير في بروز نزوع عربي قومي مستقل، حتى شاع في أدب العصر تلقيب الولاة الجليليين بـ «الملوك» بل ودعيت حكومتهم بـ «الدولة العلية الجليلية» على غرار «الدولة العلية العثمانية»، وهو الاسم الرسمي للدولة المركزية [1]. ورغم ان الدولة كانت اسلامية ذات مقومات دينية بحتة، فقد عد الوالي الجليلي نداً للسلطان العثماني، فالاول يمثل العرب، والثاني يمثل الاتراك [2].

وكان لموقع الموصل الجغرافي والستراتيجي، ولامتلاك الموصل تراثاً نضالياً يمتد الى حقب طويلة من تاريخها اثر في ذلك. كما أن انتصارها على جيوش الفرس في عهد نادرشاه سنة ١٧٤٣ وصمودها قرابة (٤٠) يوماً أسهم في منحها شرف النيابة عن العرب في حراسة الثغور الشرقية وابعاد خطر كان يهدد الوطن العربي طوال قرون ثلاثة.

لقد ولد الموقف البطولي ذلك، لدى الموصليين شعوراً عميقاً بعروبتهم، وايماناً راسخاً بأن من وقف ضد الغزاة، ليس الجيش العثماني، وانما قواتهم المحلية، والتلاحم الوثيق بين جميع الفئات والطوائف التي تتألف منها الموصل. وقد اتضح التوجه العروبي في القصائد الشعرية التي خلد بها الموصليون دفاعهم عن مدينتهم ضد الطامعين [3].

كما كان لموقف الموصليين في نصرة إخوانهم المصريين ابان الغزو الفرنسي لمصر سنة ١٧٩٨ دور كبير في تنامي حسهم العربي وبروز نزعتهم القومية. ويصف لنا المؤرخ الموصلي المعاصر للغزو ياسين بن خير الله الخطيب العمري [4] (١٧٤٤ - ١٨١٦)، مدى متابعة الموصليين لما كان يجري في مصر من احداث في تلك المرحلة الخطيرة. ويتطرق الى اساليب الغدر والخيانة والحيلة التي لجأ اليها الفرنسيون في اثناء غزوهم لمصر، وكيف ان قائدهم (برته بول) أي بونابرت زحف الى عكا. ويقول ان حاكم عكا الوزير احمد باشا الجزار، وكان عنده ثلاثون الف مقاتل، خرج اليهم وهزمهم وأبعدهم عن عكا. ثم يشير العمري الى ذهاب المجاهدين من ابناء ولاية الموصل لنصرة اخوانهم المصريين ثم عودتهم الى بلدتهم بعد ان أسهموا مع اخوانهم المصريين في القتال ضد الغزاة.

ان هذا الذي أورده العمري يدل دلالة واضحة على تضامن الموصليين جميعاً مع اخوانهم في مصر، حين سمعوا بأنباء العدوان الاجنبي عليهم. وبعد ان تأكدت في الموصل اخبار جلاء الغزاة عن مصر والشام، عم فرح شديد، واقيمت المهرجانات على مدى ثلاثة أيام في مختلف انحاء الولاية، احتفالاً بالنصر المبين [5].

وحين شهد الوطن العربي منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حركات ذات طابع ديني - سياسي عدها المؤرخون ردود فعل على سيطرة العثمانيين واحتجاجاً على عجزهم وفسادهم وتخلفهم واستغلالهم، كانت الموصل في مقدمة الولايات التي ظهرت فيها مثل هذه الحركات. وقد ارتكزت الحركة السلفية في الموصل على اساس ردع البدع والضلالات التي لحقت بالأسلام. والتأكيد على التوحيد ومقاومة الفساد بكل اشكاله، وان الاسلام الذي كان السلطان العثماني يدعي حمايته ليس بالاسلام الحقيقي، وهذا يعني ضمناً ان السلطان ليس الامام المناسب للامة العربية [6].

لقد أحدث ظهور الحركة السلفية صراعاً فكرياً حاداً في الموصل بين السلفيين المجددين الداعين الى العودة بالاسلام الى نقائه الاول، وبين بعض اصحاب الطرق الصوفية الذين استفادوا من التقاليد المستندة الى البدع والدروشة والخرافات المنتشرة بين الاوساط الشعبية. وكان لهذا الصراع أثره في أن تصبح الموصل بؤرة حيوية للنقاش والحوار الذي ادى بالسلطة العثمانية الى الانحياز نحو ممثلي التيار الصوفي، ومحاربة الدعوة السلفية الجديدة التي تهدد وجودها واستمراريتها في حكم



الاقطار العربية[٧] .

ولكن هذا لم يمنع دعاة التوجه الاصلاحي السلفي من مواصلة العمل من اجل مقاومة مظاهر الضعف والتواكل والسلبية . وقد كان من أبرز من مَثَّل هذا التوجه في العقود الاولى من القرن العشرين : الشيخ عبد الله النعمة (١٨٧٤-١٩٥٠) والشيخ عبد الله الحسو (١٨٩٠-١٩٦٠) وغيرهما من الذين أرسوا دعائم مدرسة اصلاحية اسلامية لاتزال ظاهرة في الموصل حتى يومنا هذا[٨] .

الحركة العربية القومية في الموصل بعد الانقلاب الدستوري ١٩٠٨ :

لقد تطورت وقويت الاتجاهات الجديدة بنحو خاص بعد انتصار الانقلاب الدستوري العثماني في ٢٣ تموز ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩ وانهاء حكم الاستبداد الذي دام قروناً .. واطلاق العنان لدعاة الاصلاح والتغيير. وقد تأثر الوعي القومي في هذه الفترة بالذات بما كان يجري سواء في مركز الدولة ، أو في الولايات التابعة لها . وشهدت السنوات من ١٩٠٨-١٩١٤ تنامي الوعي القومي للعناصر التي تتألف منها الدولة العثمانية . ولم تكن الموصل بعيدة عن ذلك . فقد كانت على اتصال وثيق بالحركة الفكرية في سوريا ومصر ، وذلك عن طريق وصول عدد من الصحف والمجلات السورية والمصرية . ولقد كان تأثير المطبوعات السورية بدرجة اكبر من غيرها ، ولعل ذلك يرجع الى سهولة الاتصال بسوريا عبر البادية الشمالية[٩] .

وكانت حركة الوعي القومي العربي في سوريا أقدم عهداً ، واقوى تنظيماً ، واكثر انصاراً بالقياس الى الاقطار العربية الاخرى[١٠] . ولقد سبقت كما هو معروف ، حركة الوعي هذه نهضة فكرية ، ولما كان لكل حركة أن تضمن لنفسها واقعاً تعمل من خلاله ، فقد أثمرت تلك النهضة وبدأ صداها يترك أثره في الاوضاع السياسية[١١] .

واذا كانت حركة الوعي القومي قد إتخذت في سوريا شكلاً منظماً جلب انتباه المؤرخين فليس معنى هذا انه لم يكن هناك في الولايات العربية الاخرى عوامل تعمل عملها في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية ، تفاعلت بعضها مع بعض ، وادت الى ظهور الوعي القومي . وقد كان نصيب الموصل من هذا كله ، كما سبق ان قدمنا ، ان برزت فئة من مثقفيها اعتنقت الأفكار القومية وعملت على اثارة الوعي القومي بدرجة لاتقل أهمية عما جرى في الولايات العثمانية الاخرى . وقد لوحظ في الموصل ايضاً ان الوعي القومي لم يكن سوى جزء من ذلك الوعي العربي العام في مختلف الولايات العربية . كما اتبع نفس اساليب التوعية في الاقطار العربية ، واتجه باتجاهاتها وتأثر بكل الاحداث والوقائع[١٢] . ومن ذلك مثلاً ماحدث في الموصل من أصداء العدوان الايطالي على ليبيا ١٩١١ . اذ أحدث هذا العدوان هزة عنيفة في الموصل ، وحالما ترامت الى الموصليين الانباء حتى نشطوا في شجب العدوان وتنظيم المظاهرات ، وجمع التبرعات ، وارسالها الى اخوانهم عرب ليبيا . كما اعرب كثير منهم عن رغبتهم في التطوع والذهاب الى ساحة المعركة[١٣] .

واذا كانت الصحافة الموصلية[١٤] ، هي احدى الاساليب التي انتهجها ممثلو التيار القومي العربي فان التنظيمات الحزبية كانت كذلك اسلوباً آخر مما يتطلب القاء نظرة عليها للكشف عن طبيعتها وظروفها .

حزب اللامركزية الادارية العثماني - فرع الموصل :

تأسس حزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة أواخر سنة ١٩١٢ . وكان هدفه السعي لتطوير اسلوب الحكم في اقطار الدولة العثمانية على اساس اللامركزية[١٥] . وفي الموصل أُسس فرع لحزب اللامركزية ، وكان نشاطه سرياً ، خاصة وان سطوة الاتحاديين كانت يومذاك في الموصل أقوى مما كانت عليه في غيرها من المدن العراقية[١٦] .



عمل الفرع المذكور فترة من الزمن، حتى بعد نشوب الحرب العالمية الاولى، حين عثرت السلطات العثمانية على الرسائل التي كان يبعث بها حقي العظم سكرتير الحزب من القاهرة الى محمود المحمصاني في دمشق. ومن هذه الرسائل، رسالة مؤرخة في ١٦ نيسان سنة ١٩١٤ تضمنت بعض المعلومات عن فروع الحزب المذكور وبيان بأسماء معتمديه. وقد جاء فيها مايدل على وجود فرع في الموصل. وبعد قيام جمال باشا (السفاح) بحملته المشهورة ضد المنتمين الى الجمعيات العربية، ومنها حزب اللامركزية كتب الى والي الموصل آنذاك سليمان نظيف (١٩١٣- ١٩١٥) ان يعاقب العاملين في ذلك الحزب. وقد اعتقل ثلاثة اشخاص من المشتغلين في الحركة العربية وهم: سعيد الحاج ثابت، وابراهيم عطار باشي، وداؤد الملاح آل زيادة[١٧]. وصادف ان كان هؤلاء من المترددين على سليمان فيضي المحامي، مبعوث طالب النقيب، من قادة الحركة القومية في البصرة ابان وجوده في الموصل سنة ١٩١٣ من اجل فتح فرع مماثل للجمعية الاصلاحية في البصرة، فربط الوالي بين هذا الأتهام وذاك النشاط، وكاد الاشخاص الثلاثة يذهبون الى حبل المشنقة لولا ان تدخل بعض الوجهاء الذين انكروا للوالي ان يكون لاولئك الاشخاص أي نشاط سياسي آنذاك[١٨].

كما جرت سلسلة من الاتصالات السرية بين العرب القوميين في الموصل وبغداد. واشارت بعض المصادر الى مغادرة تاجر عربي الموصل الى بغداد في شباط ١٩١٣. وقد اتصل هذا بالعاملين هناك في الحركة القومية وتباحث معهم حول اهمية التنسيق في العمل السياسي، لكن السلطات الاتحادية سرعان ما أحست به فاستدعته واستجوبته[١٩].

ووصلت الموصل في ٢٣ نيسان سنة ١٩١٣ مجموعة من المنشورات السياسية، التي ارسلتها جمعية بيروت الاصلاحية (تأسست سنة ١٩١٢ وتدعو الى اللامركزية) تدعو الاهالي الى المشاركة الفعلية في النشاط القومي والمطالبة بالاصلاح واللامركزية[٢٠]. وازداد النشاط السياسي لحزب اللامركزية خاصة بعد ان أصدر الاتحاديون في ٥ ايار سنة ١٩١٣ قانوناً جديداً للولايات جاء على النقيض من اهدافه تماماً، فاخذ يطبع المنشورات المعادية للسلطة ويرسلها عن طريق البريد الى من يثق بهم. وكان هؤلاء يوزعونها بين الناس سراً. وقد أبرق الموصليون الى استانبول في منتصف شهر ايار ١٩١٣ برقية أعلنوا فيها عن سخطهم على القانون الجديد بوصفه غير كاف لاصلاح ولايتهم وطالبوا بادارة لامركزية للولايات العربية. كما نظموا مع البصريين والبغداديين لائحة جديدة بالاصلاحات[٢١]. ومما تضمنته هذه اللائحة المطالبة بان يكون الوالي عراقياً، وان يُعطى مجلس الولاية صلاحيات واسعة لتطوير الولاية اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً[٢٢].

لقد جرت محاولة لفتح فرع مماثل لجمعيتي البصرة الاصلاحية وبيروت الاصلاحية. وارسل طالب النقيب، كما ذكرنا انفاً سليمان فيضي الموصلي الى الموصل لهذا الغرض وكذلك للتباحث حول توحيد الاتجاه القومي العربي في العراق. وقد وصل فيضي الى الموصل في ٢٢ آب ١٩١٣، واتصل ببعض العاملين بالحركة العربية وعددهم كما اشار الى ذلك في مذكراته (٤٦) شخصاً من مدنيين وعسكريين منهم (رؤوف الغلامي وحمدي جليمران ومحمود الملاح، وسعيد الحاج ثابت وداؤد الجلبي وياسين الهاشمي وأيوب الشيخ عبد الواحد، وعبد المجيد شوقي البكري ومكي الشربتي ومحمد شريف الفاروقي وفوزي القاوقجي)، لكن السلطات الاتحادية سرعان ماأكتشفت أمره وكانت استخبارات الشرطة من القوة بحيث أحاطت به، وقيدت حركاته ورصدت نشاطاته وطوقته بالجواسيس من كل جانب. وقد أصدر مدير الشرطة خالد بك، وكان إتحاديا متطرفاً أمراً بمنع الاهالي من الاتصال به، واشاع في المدينة، ولا سيما في الاوساط الدينية، أن فيضي يعمل على نبذ



التقاليد الدينية وعصيان الدولة[٢٣].

وعلى الرغم من ذلك، فقد استفاد فيضي من مولده في الموصل، ونشأته فيها، ومن المكانة التي يتمتع بها والده كرجل دين لمكث في الموصل قرابة اربعين يوماً. وقد استقر الرأي على ان تظهر الجمعية الاصلاحية بمظهر أدبي، وذلك لأختلاف وضع الموصل السياسي آنذاك عن وضع البصرة[٢٤]. وطلب فيضي من سلطات الولاية منحه رخصة لتأسيس ناد باسم «النادي الادبي»، ولكن المحاولة فشلت فعاد فيضي الى البصرة في ٢٩ ايلول ١٩١٣[٢٥].

ومهما يكن من أمر، فأن لنشاط سليمان فيضي، والضجة التي أثيرت حولها، أثراً لاينكر بين كثير من الشباب الموصلي الذين جعلتهم حركته يتحسسون بالوعي القومي ويشعرون باهمية تنظيم انفسهم. كما وجدت الفكرة القومية طريقها بين الاهالي والحرفيين والتجار واصحاب الدكاكين وغيرهم. وكان ذلك بجهود عدد من الموصليين العاملين في الحركة القومية العربية[٢٦].

لقد سار الاتحاديون، برغم كل الاحتجاجات، وحتى اواخر الحرب العالمية الاولى بسياسة مركزية متطرفة أثارت حفيظة العرب. وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال بردود الفعل القومي الذي تمثل في قيام جمعيات واحزاب قومية نذكر منها جمعية العهد التي فتحت لها فرع في الموصل بين اواخر ١٩١٣ وبداية ١٩١٤ وجمعية العلم السرية التي تأسست في الموصل سنة ١٩١٤.

جمعية العهد فرع الموصل ونشاطاتها قبيل الحرب العالمية الاولى:

قام بتأسيس جمعية العهد السرية في استانبول، الرئيس الاول (الرائد) عزيز علي المصري، وكان من ابرز الضباط العرب في الجيش العثماني، وقد اشتهر بنزعته العربية القومية (ولد سنة ١٨٨٠ في القاهرة وتوفي سنة ١٩٦٤). وقد شاركه



• جميل المدفعي.

في تأسيس الجمعية نخبة من الضباط العرب المتحمسين للقضية القومية العربية امثال سليم الجزائري وطه الهاشمي وجميل المدفعي ونوري السعيد وعلي جودت الايوبي ومولود مخلص وياسين الهاشمي وغيرهم[٢٧]. ولايوجد تاريخ دقيق لنشأتها. فقد ذكر عزيز علي المصري بانه أسس الجمعية في سنة ١٩١٢[٢٨] بينما حدد جورج انطونيوس[٢٩] بداية سنة ١٩١٤ تاريخاً لنشأتها. أما أمين سعيد، فقد وضع اليوم الثالث والعشرين من تشرين الاول ١٩١٣ تأريخاً لتأسيس هذه الجمعية. وهذا هو التاريخ الصحيح لنشأة الجمعية[٣٠].

سميت هذه الجمعية بهذا الاسم، لأن إنتماء اي عضو اليها يعد بمثابة «عهد» بينه وبين الله على خدمة الامة العربية[٣١]. اما بالنسبة لأهداف الجمعية فثمة اختلافات في تحديدها، فهناك من يقول ان هدفها كان الحصول على الاستقلال الداخلي للاقطار العربية[٣٢]. في حين يذكر احد مؤسسي الجمعية بان هدفها «كان منحصراً في اصلاح الحال على اساس النظام الاتحادي (فيدراسيون)... ولم يفكر أحد منا في الانفصال عن الامبراطورية العثمانية، وانما كان تفكيرنا منصباً في الحصول على ادارة عربية محلية ولغة عربية رسمية على ان نشترك والعنصر التركي في ادارة سياسة الدولة العامة..[٣٣]». ويشير فوزي القاوقجي[٣٤] في مذكراته الى ان الجمعية كانت تعمل من اجل الاستقلال العربي والتحرر من السيطرة العثمانية.

لقد حرص عزيز علي المصري على ان تقتصر الجمعية على العنصر العسكري وحده. وكان العراقيون اكثر الجماعات عدداً في الجيش العثماني من العرب، لذلك كانت لهم قوتهم في مجالس جمعية العهد[٣٥]. وقد انشأ الضباط العراقيون في اواخر سنة ١٩١٣ وبداية سنة ١٩١٤ فروعاً للجمعية في الموصل وبغداد والبصرة[٣٦].

كانت الموصل في سنة ١٩١٣، مقراً للفيلق الثاني عشر العثماني بقيادة كل من أمير اللواء أسعد باشا الدرزي ورئيس اركانه المقدم ياسين الهاشمي. وكان اسعد باشا الدرزي يشغل منصب وكيل الوالي.. وقد عرف بانه يعطف على الحركة العربية القومية سراً[٣٧]. وقد ضم الفيلق عدداً من الضباط، فضلاً عن ياسين الهاشمي: عبد الله الدليمي وفوزي القاوقجي، ومجيد حسون وعبد الرحمن شرف ومختار الطرابلسي ومحمد شريف الفاروقي (العمري) وجميل روحي وعاصم حافظ وتوفيق الحلبي ومولود مخلص وعلي جودت الايوبي وغيرهم. وكان عدد من هؤلاء الضباط على صلة



• مولود مخلص.

وثيقة بعزيز علي المصري وغيره من الضباط العرب القوميين في استانبول، وبعد ان علموا بقيام جمعية العهد العسكرية في استانبول، قرروا في اواخر سنة ١٩١٣ تأسيس فرع لها في الموصل، وقد حمل جميل المدفعي منهاج الجمعية من استانبول[٣٨]. وهناك[٣٩] من يشير الى ان الفضل في تأسيس فرع الموصل يعود الى عبد الله الدليمي وهو ضابط موصلي حمل ختم الجمعية الخماسي الاركان والمعمول من الخشب والحديد والمطاط وفي وسطه دائرة صغيرة مكتوب فيها (العهد)، وفي زاوية كل ركن لآية القرآنية: «ليس للانسان إلاّ ماسعىٰ»[٤٠]



علي جودة الايوبي

لقد فاتح الدليمي عدداً من العسكريين من الذين عرفوا باتجاهاتهم القومية أو ممن كانوا اعضاء في الجمعية في استانبول، فلبىٰ دعوته عدد منهم، بينهم: ياسين الهاشمي، ومولود مخلص وعلي جودت الايوبي ومحمد شريف الفاروقي[٤١]. وعقد هؤلاء اجتماعاً في دار الدليمي تدارسوا فيه الخطة التي يجب اتباعها لفتح الفرع[٤٢]. فتشكلت لجنة مركزية من عبد الله الدليمي، وياسين الهاشمي، وعبد الرحمن شرف ومجيد حسون ومحمد شريف الفاروقي[٤٣]، تولت قبول المرشحين للعضوية والاشراف على ادائهم اليمين وكان اليمين يتم امام لجنة مُقنّعة، ويقسم العضو المرشح على القرآن الكريم، وسيف ومسدس، بالاخلاص للجمعية والعمل في سبيل تحرير العرب[٤٤]. وقد تحدث علي جودت الايوبي[٤٥] عن تأسيس فرع الموصل فقال: «... انشأنا في الموصل مركزاً (فرعاً) سريا للجمعية، وباشرنا تحليف الضباط الذين تطمئن الى ميولهم وافكارهم فحالفنا النجاح».

والى الشيء نفسه يشير فوزي القاوقجي[٤٦] قائلاً: «وكثر اتصالي بالضباط العرب (في



الموصل) ، وفوجئت ليلة بصديق من الضباط ينفرد بي ويسألني اذا كنت مخلصاً حقاً لبلادي أن اتبعه من غير سؤال . شد الضابط على عيني منديلاً ، وقادني الى دار لم أكن اعرفها ، حتى اذا وصلناها حل الرباط ، فأذا بي أمام جماعة مقنعة بألبسة سوداء لايظهر منها سوى عيونها ، وقد تجمعوا حول مائدة عليها نسخة من القرآن الكريم وسيف ومسدس. وطلب اليّ احدهم ان أقسم يمين الاخلاص لجمعية تعمل في سبيل تحرير العرب ، ففعلت ثم اغمض الضابط عيّني ثانية وعاد بي الى منزلي » .

لقد تألف فرع جمعية العهد العسكرية في الموصل اواخر سنة ١٩١٣ من عدد من الضباط العراقيين والسوريين امثال ياسين الهاشمي (بغدادي) ومولود مخلص (موصلي) وعلي جودت الايوبي (موصلي) ومحمد شريف الفاروقي (موصلي) وعبد الله الدليمي (موصلي) وعبد الرحمن شرف (بغدادي) وحسن فهمي وتوفيق المحمود وفوزي القاوقجي من السوريين. كما ضم فرع الجمعية ضباطاً آخرين من غير العراقيين والسوريين منهم على سبيل المثال : احمد مختار الطرابلسي ، صديق ورفيق عزيز علي المصري ، الذي استشهد فيما بعد في حروب بلده طرابلس الغرب ضد الاستعمار الايطالي(٤٧) .



• محمد شريف الفاروقي (العمري).

اقتصرت عضوية الجمعية على العسكريين فقط . وكانت اجتماعاتها سرية . اذ يجتمع اعضاء الجمعية حيناً في دار مولود مخلص ، وحيناً آخر في دار محمد شريف الفاروقي . كما اشار القاوقجي(٤٨) ان الجمعية كانت تعقد بعض اجتماعاتها في ناحية حمام العليل المعروفة بعيونها الكبريتية الشديدة الحرارة والتي يؤمها الموصليون للاستشفاء والاصطياف وتبعد عن الموصل حوالي (٢٥) كيلو متراً. ويضيف القاوقجي الى ذلك قوله ان المجتمعين كانوا يخرجون فرادى متنكرين بالزي العربي ، وذلك لكي يتجنبوا أعين السلطات وجواسيسها .

لقد كان للجمعية مراسلات مع مركز الجمعية في استانبول(٤٩) وكان من الذين انتدبهم المركز الى الموصل ضابط الركن طه الهاشمي ، والضابط جميل المدفعي . اذ وصلا الموصل ومعهما نشرات وبيانات ليطلع عليها اعضاء الجمعية . كما اوفد فرع الموصل عبد الرحمن شرف الى البصرة للاتصال بفرع الجمعية هناك(٥٠) وارتبطت الجمعية ارتباطاً غير مباشر مع العناصر العربية القومية من المدنيين في الموصل أمثال سعيد الحاج ثابت وابراهيم عطار باشي ورؤوف الغلامي وغيرهم . كما كان للجمعية مراسلات مع فرع بغداد(٥١) . وربما كان فرع الموصل حلقة وصل بين بغداد واستانبول(٥٢) .

قام فرع الجمعية في الموصل بنشاط ملحوظ ، وذلك بجهود ياسين الهاشمي الذي استفاد من سلطته العسكرية ، ومن تساهل وكيل الوالي اسعد باشا الدرزي كما اشرنا الى ذلك من قبل ، وقد اتسمت اعمال الجمعية بالهدوء والنظام والانضباط والحفاظ على السرية والكتمان. وسارت على مبدأ القسم والتحليف في ضم الضباط الى صفوفها(٥٣) . وكانت اجتماعات الفرع تدور حول اظهار مساوئ حكم الاتحاديين ومناقشة الوضع السياسي ، ومتابعة مايستجد من اخبار في استانبول . وفي نهاية كل اجتماع كان يطلب من الاعضاء نشر هذه الاخبار والمعلومات والافكار بين افراد عوائلهم ومن يأتمنونه من الاهالي والعسكريين لأثارة نقمتهم على الحكم العثماني(٥٤) . وقد تمكن ياسين الهاشمي في



هذه الفترة من إقناع بعض الضباط الاتراك بعدالة القضية العربية، وضرورة ايجاد حل لها يضمن تعاون العنصرين العربي والتركي في مواجهة سيطرة الاتحاديين على مقدرات الحكم في استانبول[٥٥].

قال المؤرخ الموصلي عبد المنعم الغلامي في كتاباته[٥٦] أنه لم يؤسس فرع لجمعية العهد في الموصل، بل اقتصر الأمر على عقد اجتماع في دار عبد الله الدليمي.. اما الضباط الذين حضروا الاجتماع فمنهم مولود مخلص ومحمد شريف الفاروقي وياسين الهاشمي وداؤد الجلبي، وهو طبيب عسكري من الموصل. وقد تبادل المجتمعون الافكار الوطنية وتطرقوا الى ضرورة تشكيل فرع للجمعية في الموصل، غير انه لم يتقرر فيما بينهم تشكيل هذا الفرع وانما اكتفوا كعادتهم السابقة في ذكر مساوئ الاتراك، وهضمهم لحقوق العرب.

ان ماجاء به الغلامي لايختلف كثيراً عما ذكره محمد طاهر العمري[٥٧]، او لعله اعتمد عليه في معلوماته عن هذا الموضوع، أو أنه اراد ان يظهر جمعية العلم السرية التي تشكلت في الموصل خلال هذه الفترة بجهود أخيه محمد رؤوف الغلامي، على انها الجمعية الوحيدة التي قادت النضال في الموصل ضد الاتراك في الفترة الواقعة قبيل الحرب العالمية الاولى وخلالها.

لقد اشار العمري الى أن الضباط العراقيين في الموصل مالوا الى فتح فرع لجمعية العهد، غير أن ذلك لم يتحقق، واقتصر الأمر على الاستمرار في عقد الاجتماعات الخاصة التي كان يحضرها عدد من شباب المدينة الموالين للفكرة العربية القومية[٥٨].

يمكن القول بأن ماذكره علي جودت الايوبي وفوزي القاوقجي اقرب الى الحقيقة وذلك لانهما من الضباط المؤسسين لفرع هذه الجمعية العسكرية في الموصل وصاحب البيت أدرى بشؤونه. وقد ورد في مذكرات تحسين العسكري، المارة الذكر، مايؤكد ذلك. كما ورد في مذكرات طه الهاشمي[٥٩] مايفيد ان الهاشمي بعد ان تعين في ٢٦ كانون الاول ١٩١٣ لأركان حرب الفيلق العثماني السابع في اليمن توقف في طريق عودته الى بغداد بالموصل فاتصل بفرع جمعية العهد فيها.

غدا نشاط جمعية العهد في الموصل محدوداً لسببين اثنين: أولها ان السلطة الاتحادية بعد ان اصبح لجمعية العهد نشاط كبير في استانبول، وتسربت الاخبار عن نشوء فروع لها في بعض المدن العربية، وانها قد لقيت تأييداً من الضباط العرب قررت أن تقاوم ذلك كله وتعمل على ان تفرق رجال هذه الحركة وتبعدهم قبل ان يشتد ساعدهم[٦٠]. ومما يؤكد إتهام جمال باشا في مذكراته الضباط العرب العاملين ضمن الفرقة المرابطة في شبه جزيرة غاليبولي بانهم صرفوا اهتمامهم عندما كانت الحكومة العثمانية مشغولة في الحرب البلقانية «الى تعضيد وسائل الابتزاز السياسي التي قام بها [دعاة القومية العربية] في استانبول بدلاً من القيام بواجباتهم»[٦١].

لهذا عقدت السلطات الاتحادية اجتماعاً خاصاً في وزارة الحربية، حضره الصدر الاعظم (رئيس الوزراء) سعيد حليم باشا، ومحافظ استانبول العسكري جمال (قبل تعيينه وزيراً للحربية)، ومدير الأمن العام عزمي بك. وقد دُرست في هذا الاجتماع التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة النشاط القومي العربي عامة ونشاط جمعية العهد خاصة. وقررت عدة قرارات اهمها: تولية القيادة في الولايات العربية الى الضباط الاتراك، واقصاء الضباط العرب والاستغناء عن خدماتهم فيها قدر الامكان وعهد الى جمال باشا بتنفيذ ذلك[٦٢]. وقد اكد أحد المؤرخين المعاصرين ذلك قائلاً: «ان انشاء جمعية العهد أحدث ضجة شديدة في الدوائر الحاكمة في استانبول لما عُرف به مؤسسها من الصلابة والقوة. واضاف ان التأييد الذي حصلت عليه الجمعية من الشبان والضباط العرب، وانشاء فرعين لها في بغداد والموصل، جعل الحكومة الاتحادية تخشى الجمعية وتحسب حسابها، وتفرق رجالها»[٦٣].



اما السبب الثاني «فهو نشوب الحرب العالمية الاولى». [٦٤] فكان من الطبيعي أن ينفرط عقد الجمعية ويتناثر اعضاؤها. فقد صدرت الأوامر الى ياسين الهاشمي بنقل الفرقة الخامسة والثلاثين من الفيلق الثاني عشر من الموصل الى حلب [٦٥] وكان معظم اعضاء جمعية العهد في الموصل من ضباط تلك الفرقة. وقد انتهز جمال باشا الذي عين قائداً أعلى للقوات العثمانية في سوريا، الفرصة لكي يتخلص من الضباط العرب، فاستعرض الفرقة وأحال عدداً من ضباطها على التقاعد، كما طرد عدداً آخر. وكان ياسين الهاشمي قد توقع في احد اجتماعات الفرع السرية،حسب مانقل ذلك لنا الايوبي، عندما قال لزملائه: «يظهر ان جمال باشا قد أتى الى سوريا ليبطش بأحرار العرب». [٦٦] إلا ان أحرار العرب، ايماناً منهم بعدالة قضيتهم، لم يتوانوا وانما استمروا في العمل من اجل الاستقلال والتحرر من السيطرة التركية. وقد توصلت جمعية العهد وشقيقتها جمعية العربية الفتاة الى قرار نهائي فحواه ان غاية العرب هو الاستقلال حفاظاً على كيان الأقطار العربية لاعداءً للترك. اما اذا كانت البلاد عرضة لخطر الاستعمار الاوربي، فالجمعيتان تعملان مع احرار العرب للدفاع عن الاقطار العربية جنباً الى جنب مع الاتراك أنفسهم. وقد اتصل مندوبو الجمعيتين بالشريف حسين، شريف مكة واطلعوا ولده فيصلاً على قرارهم وسلموه ميثاقاً في أيار ١٩١٥ يتضمن الشروط التي يطالب الزعماء العرب بتحقيقها كي يقوموا بثورة يتزعمها الشريف حسين واهمية الميثاق الذي عرف بميثاق او (بروتوكول) دمشق فيما بعد، تكمن في ان الشريف حسين، استند اليه في إعلان الثورة العربية في حزيران ١٩١٦. [٦٧]

جمعية العلم السرية:

تأسست هذه الجمعية في الموصل بجهود بعض المدنيين المؤمنين بالقضية القومية العربية وذلك في سنة ١٩١٤ وقبيل الحرب العالمية الاولى [٦٨] وقد اختار مؤسسوها هذا الاسم ليستطيعوا ان يأوّلوه من العَلَمْ (بفتح العين واللام) الى العِلْم (بكسر العين) عند الضرورة خوفاً من بطش السلطات الاتحادية [٦٩] .. ويذكر المؤرخ الروسي فلاديمير بوريسوفتش لوتسكي [٧٠]: «ان هذه الجمعية الصغيرة استهدفت الكفاح المسلح ضد الاتراك». وقد ذهب أحد المؤرخين الى ان هذه الجمعية، ربما كانت فرعاً مدنياً لجمعية العهد العسكرية [٧١]. ولكن الحقيقة تشير الى أن جمعية العلم تختلف عن فرع جمعية العهد في الموصل في مبادئها وتنظيمها وعملها، فهي جمعية سياسية قائمة بذاتها ولها منهج خاص بها [٧٢] ولم يمنع هذا من اندماج الجمعيتين، كما سنرى، في ايار ١٩١٩ [٧٣].

ترجع فكرة تأسيس هذه الجمعية الى شاب مسيحي موصلي اسمه نيقولا عبد النور (شهر اسلامه فيما بعد وعرف باسم ثابت عبد النور) [٧٤]. كان يدرس القانون في استانبول. عاد الى الموصل اواخر سنة ١٩١٣ موفداً من قبل جمعية المنتدى الادبي «ليستطلع اراء الشباب العربي المثقف في الموصل، وليتعرف على مايحتاجونه من عون وخدمات اذا ماذهبوا للدراسة الجامعية في الاستانة». وقد تمكن هذا الشاب المتحمس ان يلتقي بعدد من الطلاب، ويظهر انه قد التجأ الى هذه الفكرة حتى يتمكن من ان يتصل بالشباب الموصلي بحرية تامة، لهذا حضر الى المدرسة الاعدادية، وقام بزيارة مديرها، ثم اتجه الى الصف «مستغلاً الحصة الاخيرة المخصصة للمذاكرة حيث لايحضر فيها معلم». وقد روى عبد الرحمن صالح في مذكراته المخطوطة وكان احد الطلاب انذاك: ان «ثابت عبد النور بدأ الحديث بالتعارف والتوادد فالاشادة بذكاء العربي وتاريخه الذهبي». وقال: «ان بداية الحاكمية التركية كانت نهاية للسيادة العربية، وان البقاء على هذا الحال سيذهب بكل بقية عربية الى الزوال...». ووقف يشيد بالحضارة العربية ومكانتها في الأوساط العالمية.. وكيف ان العالم الاوربي قد رفع منزلة العرب اقراراً منه



بفضلهم على الانسانية واستشهد قائلاً: «ان المتحف البريطاني يحتفظ برقوق عليها احجار فيها بقع سوداء...» وبعد ان سرح نظره في وجوه الطلاب واصل القول: «انها احجار ملتقطة من ميدان (مرج دابق) الذي انتصر فيه السلطان سليم على جيش الخليفة العباسي الاخير فأراق السلطان التركي دماء عربية غزيرة، فتح بعدها ديار الشام ومصر واغتصب الخلافة العربية وجعلها وقفاً على الترك من بني عثمان»(٧٥).

لقد تركت تلك الكلمات اثراً عظيماً في نفوس الطلاب، وأحدثت ضجة كبيرة بين القوميين، فتوافد عدد كبير منهم للحضور الى مجلسه البيتي، فكان يلقي على مسامعهم شيئاً كثيراً من مآثر التاريخ العربي. وكان يثير فيهم الشعور القومي ويدعوهم الى تأسيس النوادي والجمعيات. وكان من نتائج ذلك ان شاع أمره ووصلت اخبار اجتماعاته مسامع السلطة فاحاطته بجواسيسها(٧٦).

وقد اضطر ثابت عبد النور، ازاء ذلك ان يفاتح نخبة من الشباب الموصلي لتأسيس جمعية سرية غايتها «السعي وراء التحرر من النير التركي»(٧٧) بأسم «جمعية العلم»(٧٨) يكون شعارها العلم العربي الذي يتألف من الالوان الاربعة الابيض والاخضر والاسود والاحمر(٧٩). فتم وضع اشارات للتعاون بين اعضاء الجمعية السرية، واتخذت الاسماء المستعارة اسلوباً للعمل(٨٠).

ومما شجع العاملين في الحركة القومية على تأسيس هذه الجمعية تحريض بعض الضباط القوميين امثال علي جودت الايوبي ومولود مخلص على تنظيم انفسهم وتوحيد جهودهم. وكان هذان الضابطان يترددان على مجالس المؤمنين بالحركة القومية. وقد روى أحد ممن شهد هذه المجالس ان مولود مخلص وعلي جودت حملا في يوم من الايام، قبيل نشوب الحرب العالمية الاولى، جريدة النهضة البغدادية الى احدى هذه الجلسات، وقد نشرت قصيدة للشاعر عبد الرحمن البناء يرثي فيها اللغة العربية، ويحث العرب على احيائها ونصرتها.

وقد تناقش المجتمعون في الحالة التي وصلت اليها امورهم وانبرى مولود مخلص ليقول: «انتبهوا الى ماتريده منكم الاتراك من شرور. انتبهوا الى ماحاط بكم من الخطر ان العدو فغر فاه الكبير ليبتلعكم... حافظوا على قوميتكم تعلموا، علموا. دافعوا عن حقوق امتكم واوطانكم، فاننا عن قريب سوف نذهب من بينكم».

وبعد ان انتهى مولود مخلص من كلامه اجابه محمد رؤوف الغلامي، وهو اديب وتربوي معروف، قائلاً: «نحن عند حُسن ظنكم. نحن مستعدون للموت ليحيا من بعدنا، فكونوا على ثقة باننا سنكون من العاملين على خطتكم ومن المعتصمين بمبادئكم». وقد كانت تلك الجلسة من أهم ماشجع القوميين على توحيد انفسهم داخل جمعية سرية(٨١).

ضمت جمعية العلم عدداً من القوميين والشباب المتحمسين من الموصليين منهم: مكي الشربتي، ومحمد رؤوف الغلامي وعبد المنعم الغلامي وثابت عبد النور وحقي آل حسين اغا، وحمدي آل محمد العبد الله وعمر الكلاوي، وعبد الاحد الصائغ واحمد بك الجليلي وعبد المجيد شوقي البكري ومحمد بك آل صالح بك ومحمد سعيد



• محمد سعيد الجليلي.

الجليلي وعبد الله العمري وغيرهم. كما اتصلت الجمعية بعدد من رجال الدين ووجوه الموصل وحصلت على تأييدهم ومن هؤلاء محمد سعيد



الغلامي ومحمد طاهر الفخري ونوري الفخري وأمين الجليلي ومحمد ضياء بك آل شريف بك[٨٢] .

لقد تضمن منهاج جمعية العلم في مادته الثالثة «ان غاية الجمعية الاستقلال العربي» و «السعي باخراج كل حكومة اجنبية من البلاد العربية»[٨٣] . أما المادة السادسة من المنهاج فقد نصت على ان «الجمعية متشكلة من هيئتين : الهيئة المركزية والهيئة الفرعية» . وكانت الهيئة المركزية تتألف على الاكثر من خمسة افراد ، وينزل هذا العدد الى ثلاثة نظراً لتبدل الاحوال . ويكون للهيئة المركزية مرخص (معتمد) وكاتب وامين صندوق . وفيما يأتي بعض اسماء القادة المؤسسين الاوائل لجمعية العلم[٨٤] . ومما يلحظ انهم من بيئة اجتماعية متواضعة[٨٥] .

الاسم الحقيقي	الاسم المستعار	المهنة انذاك
ثابت عبد النور	حسان	طالب في كلية الحقوق في استانبول
مكي الشربتي	طارق	كاتب في المجلس العرفي في الموصل
محمد رؤوف الغلامي	نادب الحق	مدير مدرسة دار العرفان في الموصل
رؤوف الشهواني	المغيرة	طالب في دار المعلمين في الموصل

انتخب ثابت عبد النور رئيساً للجمعية بعنوان (مرخص) وعرف بصراحته وجرأته ، فكان يجاهر امام الناس بالروح القومية ، ويندد بالاتحاديين . وقد كتب عنه ابراهيم الواعظ[٨٦] يقول : «كان ثابت عبد النور اللولب المتحرك في الموصل ، وصلة الوصل بين الذين يشتغلون في القضية العربية» . وكانت اجتماعات الهيئة المركزية تعقد في داره مما ادى الى وضعه تحت المراقبة ، واخيراً فاجأته الشرطة في داره وألقت القبض عليه وارسلته مخفوراً الى بغداد . وكان ذلك خلال سنة ١٩١٥ قد استمر كمرخص للجمعية حتى اواخر كانون الثاني ١٩١٩[٨٧] .

تميزت جمعية العلم عن فرع الموصل من جمعية العهد بانها كانت مدنية الطابع ، وان جُلّ اعضائها



ثابت عبد النور

من المتنسبين لمهنة التعليم ومنهم رجال دين وتجار وكسبة وطلبة بينما اقتصرت العهد على العسكريين[٨٨] . وقد اتخذت الجمعية مقراً سرياً لها في محلة خزرج بالجانب الايمن من الموصل . وكان ظاهرياً داراً لسكن احد قادتها وهو محمد رؤوف الغلامي[٨٩] . وقد انتمى الى الجمعية في أوقات مختلفة عدد كبير من الموصليين ، ومن مختلف الاعمار والطبقات نذكر منهم عبد الله افندي باشعالم ويحيى الشيخ عبد الواحد المعروف بـ (يحيى قاف) وياسين العريبي ومحمد امين العمري ومصطفى الحاج حسين اغا الجليلي ، وعبد الله اسماعيل الخياط ، وغيرهم[٩٠] .

لقد وجدت الجمعية ، في الحرب العالمية الاولى فرصة كبيرة لنشر الفكرة العربية وبث الشعور القومي بين الاهالي على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم العلمية . كما تولت ترجمة بعض الفصول من كتاب «قوم جديد» الذي أُلفه عبيد الله التركي ووزعته ليفهم الناس مافيه من كيد وعداء للعرب وللمسلمين[٩١] وخلال الحرب كذلك اتصلت الجمعية بالشريف حسين ، وقامت بنشاط سري في تحريض السكان والجنود العرب ضد الاتراك[٩٢] . وقد بدأت الجمعية تقاوم فكرة ان الحرب التي تخوضها الدولة العثمانية ، حرباً دينية .

وبعد اعلان الشريف حسين الثورة في الحجاز في حزيران سنة ١٩١٦ أنقسم الرأي العام في الموصل تجاه تلك الثورة قسمين . فقد نظر العامة



من الناس الى الشريف حسين على انه (خائن) أو (متمرد) على الدولة العثمانية المُسلمة، لتحالفه مع اعداء المسلمين من الانكليز وشاركهم في تلك النظرة عدد من ذوي المنازع الدينية من المثقفين. اما المثقفون من القوميين فقد وجدوا في ثورة الشريف حسين مبتغاهم في الحصول على الاستقلال[٩٣]. والى شيء من هذا القبيل يشير محمد طاهر العمري[٩٤] اذ يقول: «وقد كان للثورة الحجازية وقع عظيم على نفوس احرار سوريا والعراق. فلما سمعوا بها انضم الى الشريف كثير من الضباط والرجال العراقيين والسوريين، فلبوا دعوته للقيام باتمام مشروع الثورة العربية، ومنهم من هرب من الموصل.. والتحق بجيش الثورة خدمة لمستقبل العرب في استقلالهم».

وكان معظم الذين التحقوا بالثورة من الموصليين، من اعضاء الجمعيات السرية. نذكر منهم على سبيل المثال: محمد شريف الفاروقي، وعلي جودت الايوبي، ومولود مخلص، وعبد الله الدليمي، وداؤد صبري المدفعي واخوه محمد سامي المدفعي[٩٥] كما تمكن ثابت عبد النور نفسه من ان يهرب من سجنه في بغداد ويلتحق بالثورة[٩٦]. وقد بقي اعضاء جمعية العلم على اتصال تام باحداث الثورة العربية. اذ تمكنت الجمعية من الحصول على المنشورات والبيانات التي اصدرها الشريف حسين، والتي تدعو الى مناصرته والعمل ضد الاتراك[٩٧]. وقد تولى مكي الشربتي مرخصية الجمعية بعد اعتقال ثابت عبد النور.. واخذ يعمل على اعادة تنظيم اعمالها ومعاودة نشاطها.. وقد انضم اليها اعضاء جدد..[٩٨] كما استطاعت الجمعية التغلغل بين افراد الجيش العثماني وتحريض ابناء الموصل على الفرار والالتحاق بالثورة العربية[٩٩]. وربما كان للجمعية يد في الانتفاضة التي قامت بها حامية مدينة الموصل في نيسان سنة ١٩١٦ وكانت الحامية مكونة من الجنود العرب[١٠٠].

هذا وقد تصدت جمعية العلم لنشاط الدعاية التركية والالمانية في الموصل الذي تضمنته النشرات التركية «عثمانلي ازانسي»[١٠١]. كما كانت الجمعية تتصدى للبلاغات الرسمية التي تصدرها القنصلية الالمانية في الموصل بأسم «البلاغات الرسمية لحكومة الامبراطورية الالمانية». والتي كانت تحمل اخبار نشاطات الجيش الالماني وانتصاراته. وقد عملت الجمعية على تكذيب ودحض اخبار تلك النشرات وايقاف الاهالي على حقيقة الاخبار، وبث الدعاية للثورة العربية. واخذت الجمعية تظهر عداءها العلني للاتراك عن طريق توزيع المنشورات المعادية لهم، وبالتأكيد على حق العرب في ان يحكموا أنفسهم[١٠٢].

استمر النشاط السياسي لجمعية العلم الى ان انسحب الاتراك من الموصل، ودخلتها القوات البريطانية صبيحة اليوم العاشر من تشرين الثاني سنة ١٩١٨ وعبّر اعضاء الجمعية عن فرحتهم بانسحاب الاتراك بتظاهرة ارتدوا خلالها الزي العربي[١٠٣]. ولكن الجمعية سرعان ماأصيبت بخيبة امل كبيرة، حين اخبر الحاكم السياسي والعسكري البريطاني الكولونيل (العقيد) ليجمن leachman مرخص الجمعية مكي الشربتي ان على الجمعية حل نفسها والاعتماد على السلطات البريطانية في ادارة شؤون الحكم في الموصل.. عندئذ عقدت الجمعية اجتماعاً سرياً وقررت البدء بمقاومة المحتلين الجدد، وانتهاج اساليب جديدة للمقاومة ومن ذلك توسيع قواعدها التنظيمية، وانشاء واجهات ثقافية وعلمية كالنوادي والمدارس والمكتبات. وقد اسست لهذا الغرض مكتبة الخضراء ومدرسة النجاح والمدرسة الاسلامية[١٠٤]. وكان لهذه المؤسسات دور مهم في تصعيد حركة المقاومة العربية الموصلية للاحتلال والانتداب البريطاني، خاصة بعد ان قبلت برنامج جمعية العهد العراقي التي تأسست في سوريا سنة ١٩١٩ واصبح اسمها جمعية العهد العراقي فرع الموصل[١٠٥] وبعد ان اشترطت على مركز العهد العراقي العام في دمشق الغاء المادة القائلة



بالاستفادة من معاونة بريطانيا للعرب من منهجه. وقد ضاعفت الجمعية نشاطها في مقاومة المستعمرين الانكليز، ولعل تنظيمها لحركة تلعفر ١٩٢٠ ابرز مثل على ذلك.

خاتمة :

على الرغم من أوجه النشاط الموصلي المتنوع في المجال القومي فان الباحث البريطاني ستيفن همسلي لونكريك ينعت الوعي القومي العربي في الموصل في مطلع القرن العشرين بالضعف[١٠٦] . ويذهب مذهبه عدد من الباحثين منهم غسان عطية[١٠٧] ومحمد مظفر الادهمي[١٠٨] وعلي الوردي[١٠٩] ووميض جمال عمر نظمي[١١٠] ويتضح مما كتبه لونكريك انه يستند في رأيه هذا على النقاط الآتية :

١- هيمنة العوائل الرجعية والمحافظة.
٢- وجود طبقة من رجال الدين الرجعيين.
٣- توغل العنصر الكردي في داخلية الولاية[١١١] .

ان المتتبع لما قدمناه من تنامي الوعي القومي العربي في الموصل خلال الفترة الواقعة من اواخر القرن الثامن عشر وحتى الاحتلال البريطاني يرى فيه من الادلة الكافية لاثبات ان الموصل كانت مركزاً من مراكز الحركة القومية العربية ليس في العراق وحسب، بل وفي الوطن العربي كله .وان (لونكريك) قد يكون مغالياً في معاكسة العوامل الثلاث للتيار القومي العربي. فمواقف افراد العوائل ذات النفوذ المادي والاجتماعي لم يكن باكمله سلبياً، خاصة وان عدداً من افراد هذه العوائل كان من بين العاملين في الحركة العربية. ففضلاً عما ذكرناه في مطلع البحث هناك مايؤيد قولنا، فهذا رشيد العمري عميد الاسرة العمرية يقول لنائب القنصل البريطاني سنة ١٩١١ : «اذا كان الالبانيون قد حصلوا على ما كانوا يطالبون به، فاني آمل بأنّا سنعمل الشيء نفسه». ويعلق المؤرخ الاميركي فيليب ويلارد ايرلند[١١٢] بقوله : «لعل رشيد العمري كان يعبر عن رأي الكثيرين من العرب الذين كانوا على علم تام بما يشعرون به».

اما المس بل[١١٣] فقد ذكرت في كتاب لها صدر سنة ١٩١١ انها تعرفت في الموصل على احد الوجهاء ووصفته بانه ينتمي الى الطور القديم وسألته عن الحافز الذي يكمن وراء الحركة العربية؟ أجابها بحماس : «ان العرب ينبغي ان يحكموا أنفسهم بأنفسهم مهما كانت الظروف».

اما رجال الدين فبعضهم تعاطف، كما لاحظنا، مع القوميين، بل وتعاون معهم، كما هو الامر في حالة جمعية العلم. ومع اننا لاننكر اهمية وقوة الشعور الديني في الموصل فانه لم يختلف كثيراً عما كان عليه في الولايات العربية الأخرى. ثم ان الشعور القومي سرعان ماأخذ يحتل مكانته الى جانب الشعور الديني.. وفوق هذا وذاك فقد كانت وجهة الموصل وجهة عربية اسلامية لعوامل جغرافية واجتماعية كثيرة.

كما ان القوميتين العربية والكردية سارتا في خطين متوازيين يستهدفان التحرر من السيطرة الاجنبية ولم يكن في مساريها تناقضاً وتخالفاً.. وقد اتضح ذلك في حركات المقاومة العربية والكردية التي واجهها البريطانيون بعد احتلالهم الموصل سنة ١٩١٨.

الهوامش

(١) انظر: أمين بن خير الله العمري، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوه جي، ج ١، (الموصل، ١٩٦٧)، ص ٢٩٠.

(٢) اتضحت هذه النزعة في الشعر الموصلي انذاك.. وثمة قصيدة للشاعر حسن عبد الباقي الموصلي (ت ١٧٤٤) اذ يقول فيها مخاطباً الوالي الجليلي بقوله :

لو لم يكن خير من في الروم قاطبة
ماكنت من خير من في العرب منتخبا

ويقصد بالروم (الاتراك) والسلطان العثماني كان محمود الاول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) المعاصر للحاج حسين باشا الجليلي. انظر: عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي ١٧٢٦- ١٨٣٤، (النجف، ١٩٧٥)، ص ص ٣٦٥- ٣٦٦.

(٣) انظر: ذنون يونس حسين الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في

اواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لكلية الاداب - جامعة الموصل ١٩٩٠، ص ٤٢.

(٤) انظر كتابه: غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر، نشره محمد صديق الجليلي، (الموصل، ١٩٤٠)، ص ص ٤٨ - ٤٩، ٥٨.

(٥) للتفاصيل انظر: ابراهيم خليل احمد «الغزو الفرنسي لمصر في كتاب لمؤرخ موصلي»، جريدة الحدباء، الموصل، ١٥ آيار ١٩٨٤.

(٦) للتفاصيل انظر: البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، ط ٣، (بيروت، ١٩٧٧)، ص ٢٦.

(٧) الطائي، المصدر السابق، ص ص ٣٩ - ٤٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٩) كان المثقفون الموصليون، فضلاً عن ذلك يكتبون المقالات وينشرون القصائد في الصحف العثمانية والمصرية والسورية. انظر: ابراهيم خليل احمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، (الموصل، ١٩٨٢)، ص ١٩.

(١٠) عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، (بغداد، ١٩٦٣)، ص ٤١.

(١١) ابراهيم خليل احمد «الحركة العربية في الموصل قبيل الحرب العالمية الاولى»، مجلة الخليج العربي، البصرة، العدد (٧)، ١٩٧٧، ص ٨١.

(١٢) ابراهيم خليل احمد، ولاية الموصل دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ - ١٩٢٢، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الاداب بجامعة بغداد سنة ١٩٧٥، ص ١١٧.

(١٣) انظر: ابراهيم خليل احمد «صدى العدوان الايطالي على ليبيا ١٩١١ في الموصل» جريدة الحدباء، ٢٤ نيسان ١٩٨٤.

(١٤) انظر: ابراهيم خليل احمد «اثر الصحافة في تنامي الوعي القومي في الموصل»، مجلة بين النهرين، السنة (٣)، العدد (١٢)، ١٩٧٥، ص ص ٢٨٥ - ٢٩٠.

(١٥) انظر: جورج انطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس، ط ٢، (بيروت، ١٩٦٦)، ص ١٨٥.

(١٦) انظر: عاليه ديوان حرب عرفي سنده تدقيق اولونان مسئله سياست حقنده، ايضاحات دردنجي همايون طرفندن نشر ايدلمشدر، (استانبول، ١٣٣٢) ص ٦٢.

(١٧) سليمان فيضي، في غمرة النضال، نشره عبد الحميد فيضي، (بغداد، ١٩٥٢)، ص ٧٥.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(١٩) للتفاصيل انظر: محمد هليل الجابري، الحركة القومية في العراق بين ١٩٠٨ - ١٩١٤، رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت لكلية الاداب/ جامعة بغداد ١٩٨٠، ص ٤٥٣.

(٢٠) انظر: عبد الفتاح علي يحيى، الحياة الحزبية في الموصل ١٩٢٦ - ١٩٥٨، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لكلية الاداب - جامعة الموصل ١٩٩٠، ص ٢٢.

(٢١) انظر: الجابري، المصدر السابق، ص ٥٤٤ وكذلك احمد، ولاية الموصل، ص ١٤٥.

(٢٢) جريدة المفيد ١٠ أيلول ١٩١٣ كما وردت في: توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، (القاهرة، ١٩٦٠)، ص ٨١.

(٢٣) انظر: ابراهيم خليل أحمد «مهمة سليمان فيضي القومية في الموصل سنة ١٩١٣ واثارها» مجلة بين النهرين، السنة (٨)، العدد (٣٢)، الموصل، ١٩٨٠ ص ص ٤٣٢ - ٤٣٥.

(٢٤) عبد المنعم الغلامي، السوانح، (الموصل، ١٩٣٢) ص ص ١١ - ١٢.

(٢٥) احمد، الحركة العربية في الموصل، ص ٨٢.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(٢٧) امين سعيد، الثورة العربية الكبرى، جـ ١، (القاهرة) ١٩٣٤، ص ٤٦ وكذلك محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، جـ ١، (بغداد، ١٩٢٣)، ص ٣٣.

(٢٨) Hassan Saab, The Arab Federalists of ottoman Empire, (Amesterdam, 1958) p. 234.

(٢٩) انظر كتابه: يقظة العرب، ص ١٩٧.

(٣٠) برو، المصدر السابق، ص ٨١.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٥٦٠.

(٣٢) سعيد، المصدر السابق، جـ ١، ص ٤٦ وكذلك برو، المصدر السابق، ص ص ٥٥٧ - ٥٥٩.

(٣٣) نوري السعيد، محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسوريا ١٩١٦ - ١٩١٨، (بغداد، ١٩٤٧)، ص ٥.

(٣٤) انظر مذكراته ١٩١٤ - ١٩٣٢، جـ ١، اعداد خيرية قاسمية، (بيروت، ١٩٧٥)، ص ١٥.

(٣٥) انطونيوس، المصدر السابق، ص ١٩٧.

(٣٦) Ghassan R. Atiyyah, Iraq 1908 – 1921 (Beirut, 1973), p. 60.

(٣٧) انظر: احمد، الحركة العربية في الموصل، ص ٨٢.

(٣٨) تحسين العسكري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، جـ ١، (بغداد، ١٩٣٦)، ص ٤٠.

(٣٩) عبد المنعم الغلامي، اسرار الكفاح الوطني في الموصل ١٩٠٨ - ١٩٢٥، جـ ١، (بغداد، ١٩٥٨)، ص ص ٤٤ - ٤٥.

(٤٠) حول ختم الجمعية انظر: البصير، المصدر السابق، ص ٢٢.

(٤١) العسكري، المصدر السابق، جـ ١، ص ٤٠.

(٤٢) يحيى، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٤٣) يذكر غسان عطية على الصفحة (٦٠) من كتابه السالف الذكر: أن قيادة جمعية العهد في الموصل كانت تتألف من: مولود مخلص، وعلي جودت، وعبد الرحمن شرف، ومحمد شريف الفاروقي، وعبد الله الدليمي.

(٤٤) للتفاصيل: انظر: يحيى، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٤٥) انظر مذكراته المنشورة بعنوان: ذكريات ١٩٠٠ - ١٩٥٨، (بيروت، ١٩٦٧)، ص ١٤.



(٤٦) انظر مذكراته المنشورة بعنوان: مذكرات فوزي القاوقجي ١٩١٤ - ١٩٣٢، ج ١، اعداد الدكتورة خيرية قاسمية، (بيروت، ١٩٧٥)، ص ١٥.
(٤٧) العسكري، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠ وكذلك الايوبي، المصدر السابق، ص ٣٠.
(٤٨) المصدر السابق، ص ١٨.
(٤٩) العسكري، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٤٠ - ٤١.
(٥٠) انظر: طه الهاشمي، مذكرات طه الهاشمي، (بيروت، ١٩٦٧)، ص ٦ وكذلك الايوبي، المصدر السابق، ص ٣٠، العسكري، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠.
(٥١) انظر: ابراهيم خليل احمد «جمعية العهد فرع الموصل ونشاطاتها قبيل الحرب العالمية الاولى»، مجلة الجامعة، الموصل، العدد (١)، تشرين الاول (١٩٨٠ ص ٥٥).
(٥٢) الجابري، المصدر السابق، ص ص ٢٥٦ - ٢٥٨.
(٥٣) احمد، جمعية العهد، ص ٥٦.
(٥٤) انظر: الغلامي، السوانح، ص ٧٠، جريدة صدى الاحرار ٢ ايار ١٩٥٢.
(٥٥) جريدة البلاد ٣١ كانون الثاني ١٩٣٨.
(٥٦) انظر على سبيل المثال: اسرار الكفاح الوطني في الموصل، ج ١، ص ص ٤٣ - ٤٥.
(٥٧) انظر كتابه، تاريخ مقدرات العراق السياسية، ج ٣، (بغداد، ١٩٢٤)، ص ص ٤٥ - ٤٦.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ٤٦.
(٥٩) انظر مذكرات طه الهاشمي، ص ٦.
(٦٠) حين علم الاتحاديون بوجود حركة عربية بين الضباط العرب أمروا باعتقال الضابط عزيز علي المصري في شباط سنة ١٩١٤ انظر: انطونيوس، المصدر السابق، ص ص ١٩٧ - ١٩٨.
(٦١) جمال باشا، مذكرات جمال باشا، تعريب علي أحمد شكري، (القاهرة، ١٩٢٣)، ص ٩٠.
(٦٢) امين سعيد، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٤٦ - ٤٧.
(٦٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧.
(٦٤) Atiyyah, op. cit., p. 69.
(٦٥) العسكري، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢، جريدة البلاغ (الموصلية)، ٢١ كانون الثاني ١٩٣٨.
(٦٦) الايوبي، المصدر السابق، ص ص ٣٠ - ٣١.
(٦٧) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ - ١٩٢٠، (القاهرة، ١٩٧١)، ص ص ٢٧ - ٢٨.
(٦٨) انظر: وميض جمال عمر نظمي، ثورة ١٩٢٠، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، ط ٢، (بغداد، ١٩٨٥)، ص ٩٨.
(٦٩) العمري، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦.
(٧٠) انظر كتابه: تاريخ الاقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، (موسكو، ١٩٧١)، ص ٤١٣.
(٧١) انظر: العمري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٨.
(٧٢) يحيى، المصدر السابق، ص ٣٢.
(٧٣) نظمي، المصدر السابق، ص ٩٨.
(٧٤) كتب الاستاذ عبد الرحمن صالح في مذكراته المخطوطة بعنوان «كتاب العمر» الورقة ١١٨: «ان نيقولا عبد النور شاب موصلي متحمس... ظهر باسم عربي هو ثابت عرف به وبين صحبه».
(٧٥) عبد الرحمن صالح، كتاب العمر، الورقة ١٨.
(٧٦) انظر: ابراهيم خليل احمد «جمعية العلم السرية ودورها في تنامي الوعي القومي العربي في الموصل حتى ١٩١٨»، مجلة بين النهرين، العدد (٢٦)، ١٩٧٩، ص ٢١٠.
(٧٧) الغلامي، السوانح، ص ص ١١٢ - ١٢٠.
(٧٨) انظر منهاج الجمعية في المصدر أعلاه.
(٧٩) وهذا العلم، كما يبدو، هو العلم ذاته الذي رفعه بعض شبان المنتدى الادبي في استانبول ١٩٠٩ - ١٩١١. وعندما اعلن الشريف حسين الثورة العربية الكبرى ضد الاتراك سنة ١٩١٦ تبناه مع اجراء بعض التحوير عليه.. وهو اليوم علم فلسطين وعلم حزب البعث العربي الاشتراكي. انظر سليمان موسى، الحركة العربية ١٩٠٨ - ١٩٢٤، (بيروت، ١٩٧٠)، ص ص ١٣٥ - ١٣٨.
(٨٠) أحمد، جمعية العلم السرية، ص ٢١٠.
(٨١) الغلامي، السوانح، ص ص ٧١ - ٧٥.
(٨٢) احمد، ولاية الموصل، ص ١٦١.
(٨٣) أجريت عدة تعديلات على المنهاج، خاصة بعد احتلال الانكليز للموصل سنة ١٩١٨.. انظر نص المنهاج في بحثنا جمعية العلم السرية، ص ص ٢١٥ - ٢١٨.
(٨٤) جريدة صدى الاحرار ١٥ آب، ٣ تشرين الاول ١٩٥٢.
(٨٥) نظمي، المصدر السابق، هامش ص ٩٨.
(٨٦) انظر: مصطفى نور الدين الواعظ، الروض الازهر في تراجم السيد جعفر، نشره وعلق حواشيه ولده ابراهيم الواعظ، (الموصل، ١٩٤٨)، ص ٥١٧.
(٨٧) جريدة صدى الاحرار ١٦ ايار ١٩٥٢.
(٨٨) احمد، جمعية العلم السرية، ص ٢١٢.
(٨٩) جريدة صدى الاحرار ٢٢ آب ١٩٥٢.
(٩٠) يحيى، المصدر السابق، ص ص ٣٦ - ٣٧، صدى الاحرار ١٠ تشرين الاول ١٩٥٢.
(٩١) الغلامي، السوانح، ص ص ٩٩ - ١٠٠، ١٠٥.
(٩٢) نظمي، المصدر السابق، ص ٩٨.
(٩٣) مقابلة شخصية مع المرحوم حمدي جليمران بتاريخ ٢٣ تشرين الاول ١٩٧٣.
(٩٤) انظر كتابه: تاريخ مقدرات العراق السياسية، ج ١، ص ٣١٠.
(٩٥) انظر: الايوبي، المصدر السابق، ص ٣٥، العمري، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٢١٩، ٢٢٦ وجريدة صدى الاحرار ٣٠ ايار ١٩٥٢.
(٩٦) العسكري، المصدر السابق، ج ١، ص ١١٨.
(٩٧) الغلامي، السوانح، ص ١٠٢.
(٩٨) جريدة صدى الاحرار ٩ حزيران ١٩٥٢.



(٩٩) الغلامي، السوانح، ص ١٠٣.
(١٠٠) لونسكي، المصدر السابق، ص ٤٤٠.
(١٠١) احمد، جمعية العلم، ص ٢١٤.
(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٢١٤.
(١٠٣) الغلامي، السوانح، ص ١٠٧.
(١٠٤) للتفاصيل انظر: احمد، ولاية الموصل، ص ٣٢٧.
(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٥٩١.
(١٠٦) انظر كتابه: Iraq, 1900 to 1950 (Beirut, 1968), p. 45
(١٠٧) انظر كتابه: Iraq 1908 – 1921, p. 69.
(١٠٨) انظر رسالته للماجستير الموسومة: «المجلس التأسيسي العراقي: دراسة تاريخية سياسية» قدمت لكلية الاداب – جامعة بغداد سنة ١٩٧٣، ص ٢٦ وقد نشرت دون الفصل الاول ببغداد سنة ١٩٧٦.
(١٠٩) انظر كتابه: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ ٦، (بغداد، ١٩٧٦)، ص ٣٠٦.
(١١٠) يقول على الصفحة (٩٨) في كتابه السالف الذكر معتمداً على سليمان فيضي (في غمرة النضال ص ص ١٢١ – ١٢٤) ان فيضي الذي زار الموصل في اب ١٩١٣ اشار الى العدد المحدود للعناصر العاملة من أجل القضية القومية العربية.
(١١١) Longrigg, op. cit., p. 45 أما غسان عطية فيذكر على الصفحة (٦٩) من كتابه السالف الذكر: ان الموصل كانت معقلاً من معاقل المحافظين العرب. وقد فشلت المحاولات لانشاء جمعية قومية عربية فيها. ويرجع ذلك الى سببين اولهما: غياب الطبقة المثقفة وثانيهما قوة الشعور الديني الذي يحول دون أي تمرد ضد سلطة (الخليفة) العثماني.
(١١٢) انظر كتابه: Iraq: Astudy in political Development, (London, 1937), p. 229
(١١٣) انظر كتابها Amurath to Amurath, (London, 1911), P. 253.

رواد الحركة العربية القومية في الموصل

د. سيّار كوكب علي الجميل

المقدمة:

عاشت الموصل في مطلع القرن العشرين حالة احتدام فكري وايديولوجي متنوع الاتجاهات، ومتسارع الخطوات في التغيير واجراء التحولات.. بغرض الخروج عن الطور العثماني القديم الذي ألفه المجتمع العربي على مدى زمني طويل. ومع تفاقم تعقيدات متباينة في التفكير السياسي الحديث بتبلور مبادئ جديدة على الساحة كالحرية والعدالة والمساواة، والعمل على فصل السلطات من خلال إقرار «الدستور» مقوماً تشريعياً أساسياً في الدولة والمجتمع معاً. وقد كرس ذلك كله النزعة القومية في المشاعر والوجدان في مواجهة حقيقية بين المبادئ الحرة والواقع المرير، وخاصة في عام ١٩٠٨م الذي يعد علامة فارقة في تطور التفكير العربي. ونقطة فاصلة نحو الانطلاق القومي والدعوة لأول مرة الى هوية عربية موحدة، ولكن وفق أساليب وخطط متباينة[١].

وفي مدينة الموصل تبلورت افكار جديدة ساعدت في انمائها وانتشارها عوامل متعددة كان لها تأثيرها البالغ منذ القرن التاسع عشر، ومنها: الطباعة والصحافة والتعليم وحركة الاتصال بمجتمعات وبيئات أخرى[٢]. وكان لابد ان تظهر النزعة القومية – العربية بجلاء في مدينة كالموصل التي كانت من الحواضر العربية البارزة في تفاعل حركة النهضة العربية الحديثة، وتطور مضامينها تخلصاً من واقع الجمود والتخلف والانحطاط؛ وقد استندت تلك النزعة في مصادرها التاريخية الى جانب التأثر بآراء المفكرين العرب والأتراك معاً، الى واقع فكري محلي استمد قوته وعناصره من «حكم محلي مؤسساتي مبني على بيروقراطية قريبة الشبه من الحالة الاوربية»[٣].. فتمتعت الموصل بـ «انبثاق ثقافة عربية رصينة، وحركة اصلاحية، وفكرة قومية»[٤].

هكذا، ظهر عدد من الرواد المفكرين والقادة والزعماء القوميين والمحامين والمعلمين المواصلة الذين اضطلعوا بأدوارهم السياسية والفكرية والميدانية – العسكرية في مدينة الموصل ذاتها.. او في



العاصمة استانبول او حلب ودمشق وبغداد ومصر والبصرة والحجاز. فقد كان روّاد الحركة العربية - القومية في الموصل قد نظموا انفسهم حسب مؤهلاتهم وقدراتهم وابداعاتهم الى صنفين: كان للصنف الاول دوره الفكري والأدبي، إذ عبّر رجالاته من خلال خطابهم القومي عن مواقف سياسية مدنية، في حين كان للصنف الثاني منهم مشاركاته الحقيقية والفعالة في تكوين الحدث التاريخي - القومي، وخاصة في العمليات العسكرية الميدانية او السياسية الدبلوماسية. وكان كل من الصنفين قد تعرّض سلفاً للملاحقات والاضطهاد سواء من خلال مشاركتهم في الجمعيات القومية ذات الطابع المدني والعسكري، ام من خلال وسائل التعبير الاخرى كالصحافة والخطابة والتجمعات والعلاقات السياسية[٥].

نستطيع القول أيضاً ان المعلومات لم تزل مبتسرة وغير معروفة الى حد يومنا هذا عن رجال مواصلة قدّموا للقضية العربية ابّان الفترة ١٩٠٨ - ١٩١٨م، جهوداً قومية شريفة في سبيل الوصول الى تحقيق الاهداف السامية التي نذروا انفسهم من اجلها ردحاً طويلاً من الزمن الصعب ابّان عهد حكم الاتحاديين الذي بدأ بانقلاب عام ١٩٠٨، وكان قد احدث اولئك الرجال ردود فعل واسعة النطاق في اكثر من مكان اثر قيامهم بأدوار سياسية وفكرية خطيرة. علماً بأن ما كتب عن النشاطات القومية في الموصل حتى يومنا هذا تسوده المبالغة والتوهّم وعدم التدقيق في طبيعة المواقف وحقيقتها، والاستسلام لمقالات شخصية كتبت عن ادوار البعض وتجاهل ادوار بعض آخر، وذلك لقلة الاعتماد على الوثائق الرسمية وصحف ومقالات وكتابات ما قبل تأسيس العراق المعاصر عام ١٩٢١؛ اي ندرة الاعتماد على الأرث الفكري والقومي للفترة ١٩٠٨ - ١٩١٨م.

تحليل الأبعاد التاريخية والاجتماعية للحركة القومية العربية في الموصل:

لقد كان لمدينة الموصل الدور المبرّز على يد بعض ابنائها المستنيرين في التنديد العلني بالسياسة الطورانية التي اتبعتها جمعية الاتحاد والترقي، او بالعمل السري ضد التطبيقات العنصرية التي مارسها اولئك الاتحاديون. ولقد تبلور كل ذلك على نحو متسارع اثر الخيبة السياسية التي مُنيَ بها مثقفو الموصل الذين كان قد بارك اغلبهم (وحتى المتديّنين منهم) في مبدأ الأمر، الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨، فكان ان انقلبوا جميعهم ضد قادته وزعمائه الذين امعنوا في اضطهاد العرب وشنق احرارهم، وكبت مشاعر الجماهير، وبدئهم بمشروع تتريك ثقافتهم ولغتهم ومواريثهم وتقاليدهم العربية كافة.

وهكذا سنجد بعد مقارنة المواقف والأدوار، وما اذاعه البعض، وما كتبوه ونشروه اثر الانقلابية النفسية (السايكلوجية) التي حفّت بهم، ان جهود الرواد المواصلة الأوائل من القوميين الاحرار لم تنل حصّتها التاريخية بعد من الدراسة والذيوع والمعرفة لمدينة تعدّ بؤرة اشعاع قومي، وقاعدة من قواعد الانطلاق الفكري والنهضة العربية[٦]. ان هذا الرأي يخالف جملة وتفصيلاً ما كان كتبه كل من سليمان فيضي ود. وميض جمال عمر نظمي... وغيرهما إذ نعتوا النشاط القومي العربي في الموصل بالضعف لأسباب عديدة منها النزوع الديني والانقسام الاجتماعي وهيمنة العوائل القديمة[٧].

ان نظرة فاحصة في الميراث القومي لرجالات الموصل الأوائل ستعكس ضوءاً ساطعاً يبدد بعض الاحكام المستعجلة وغير الدقيقة، ناهيكم بأن هذا الموضوع بحاجة الى دراسات أخرى تخالف نتائجها مجمل الاحكام والآراء التي أطلقها البعض من الغلاة في الجانب الآخر، او تقويم جمعية على

حساب جمعية أخرى، وإبراز شخوص على حساب آخرين..

السؤال الآن: هل كان الاحساس الحاد بالعروبة في الموصل تلطّفه نظرة اسلامية؟ وسؤال آخر يقول: هل كانت الحركة القومية في الموصل محرومة من القائد الذي يعد وجوده آنذاك ضرورياً لتطور اي تنظيم سياسي مقارنة ببغداد التي وجدت السويدي على رأسها والبصرة التي كان طالب النقيب يقودها؟

ولكي نجيب عن ذلك، لابد لنا ان نتعمق قليلاً في استبطان الاتجاهات الفكرية لعدد من القوميين المواصلة الأوائل[8]، فهناك من تأثر منهم بأفكار الاصلاحية الاسلامية وفكرة «الجامعة الاسلامية» التي نشرها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده امثال: محمد حبيب العبيدي وسعيد الحاج ثابت ورؤوف الغلامي وغيرهم (من جيل المعلمين الشباب). وهناك من الرجال القوميين الرواد الذين تأثروا بالفكرة القومية الصرفة التي تقوم اساساً على المبادئ الدستورية الحديثة مجارين في ذلك الآراء التي أذاعها نجيب عازوري وعبد الغني العريسي وعبدالكريم الخليل، امثال: داود الملاح آل زيادة وعلي الجميل الموصلي وخير الدين العمري وثابت عبدالنور. وهناك من تأثر بالفكرة العثمانية اللامركزية أي بـ «الاصلاحية المدنية» والتي أذاعها رفيق العظم وحقي العظم ومحمد رشيد رضا، فكان ان تأثر بها سليمان فيضي الموصلي (بوساطة السيد طالب النقيب في البصرة) من خلال مهمته الاصلاحية (التي اسماها بالقومية) والتي لم تلق صدى يذكر في الموصل[9]. وهناك من زامل واشترك مع عزيز علي المصري في تأسيس جمعية العهد التي اتسمت بطابعها العسكري، ولاسيما بعض ضباط الموصل الى جانب بعض اخوانهم من الضباط العراقيين والذين سيكون لهم ذلك الدور المؤثر على الساحة الميدانية العربية ضد الاتراك، ومن أبرز اولئك الضباط المواصلة: محمد شريف الفاروقي وعلي جودت الايوبي ومولود مخلص وعبدالله الدليمي وغيرهم، وهم الذين تحملوا اعباءً ومهام بارزة في عمليات الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ سواء على مستوى الدبلوماسية السياسية ام على مستوى العمليات العسكرية[10].

اما بالنسبة للسؤال الثاني فيهدف الى معالجة حرمان الموصل- فعلاً- من القائد الملهم أو مايسمى بـ «الزعامة الملهمة (الكاريزما)»، فلذلك كله عوامل وأسباب متعددة منها:-

١. لم يكن المجتمع المحلي في الموصل منغلقاً على نفسه إبان القرن التاسع عشر كغيره من المجتمعات المحلية العربية التي انفتحت مباشرة على الافكار النهضوية والتجديدية التي عاشتها بلاد الشام ومصر مثلاً، بل كان للموصل رجالاتها الكثيرون من الأدباء والعلماء البارزين المؤسسين الذين كانت لهم مكانتهم القيمة في الاوساط العربية، أمثال: عبدالباقي الفاروقي والملا عثمان الموصلي وأقليمس يوسف داود، ونعوم فتح الله سحّار وشهاب الدين المليسي واحمد عزت باشا العمري.. بل اتسعت سمعة هرمز أنطوان رسام لتكون دولية في علم الآثار الاشورية[11].

٢. حظيت الموصل بأدوات واساليب طباعية وصحافية وعلاقات ثقافية وعامة، وطبع كتب ودواوين شعرية.. ومدارس وهيئات تعليمية مدنية ورشدية بفعل السياسات الاصلاحية والخطط التحديثية التي مارسها الآباء الدومنيكان وغيرهم في الموصل خلال القرنين المتأخرين، هذا الى جانب ماحظيت به الموصل من المدارس الدينية- الاسلامية المتعددة والتي تخرج فيها العشرات من العلماء والكتاب والفقهاء والادباء الذين أثروا الحياة العلمية والادبية العربية في الموصل.

٣. لم يتقوقع رجالات الموصل داخل اسوار مدينتهم في تحركهم الثقافي والفكري والقومي



والسياسي والميداني، فقد انتشروا في اماكن وحواضر وأقاليم عدة كاستانبول وبغداد والبصرة وبلاد الشام.. وخاصة اولئك الرجال الذين كان لهم فعل مؤثر على منشأ الحركة العربية من خلال الجمعيات القومية المدنية والعسكريه.

٤. التباين البيئوي- الاجتماعي في الانحدار الطبقي المحلي ليس لرواد الحركة القومية في الموصل، بل لفئة المثقفين والعلماء والادباء وسراة المدينة.. فضلاً عن تقوقع فئتين اجتماعيتين على نفسيهما، كل واحدة تستمد لنفسها قيمها ومواريثها من مرجعين تاريخيين تحكم علاقتيها بالمجتمع، اولاهما: «السادة الاعرجية» التي تنتمي اليها عوائلٍ معروفة في المدينة كآل الفخري والعبيدي والمفتي والنقيب.. وثانيها: «الشافعية» التي تقف على رأسها عائلة تخصصت في الافتاء الشافعي هي اسرة آل الغلامي.. كل ذلك خلق فجوة بين الاتجاهات، وحرمها تبلور الزعامة الريادية لها، فضلاً عن الظروف الاقتصادية الصعبة التي عاشتها الموصل قبل الحرب العالمية الاولى مقارنة بحواضر عربية اخرى.. ناهيكم عن الاوضاع السياسية والادارية القاسية خلال عهد الاتحاديين والتي قادت الى أسوأ الاحوال خلال الحرب العالمية الاولى.

٥. التعددية الاجتماعية والتنوع التأريخي لتراكيب مختلفة من الاسر القديمة وهي:

(١) اسر ذات أرومات عربية في المدينة

(٢) اسرة ذات جذور سلطوية حاكمة (كالجليليين .).

(٣) أسر ذات مكانة اجتماعية وعلمية (كالعمريين).

(٤) أسر ذات نفوذ ديني وأدبي (كالنقباء والسادة..).

(٥) اسر ذات مكانة اقتصادية وتجارية غير قديمة ومن اصول غير عربية[١٢].

كل ذلك، فضلاً عن نماذج اخرى، ولَّد اتجاهات متعددة، وولاءات متباينة ضمن المجتمع المحلي الواحد داخل اسوار المدينة، وحال دون بروز زعامة ملهمة (كاريزمية) قوية في الموصل عند مطلع القرن العشرين. إذ انغمر الجليليون في شؤون املاكهم ومواريثهم، وارتبطت عواطف العمريين بالعثمانيين حتى الرمق الاخير من حياة الدولة العثمانية بدليل صلاتهم التاريخية باستانبول وبروز ثلاثة قواد عسكريين اشتهروا منهم هم: سامي باشا الفاروقي[١٣] وهادي باشا العمري[١٤] وثالثهم محمد شريف الفاروقي[١٥]، (إذ جنح هذا الاخير عن الحالة العثمانية الى القومية العربية فغدا سكرتيراً ودبلوماسياً معتمداً للشريف الحسين بن علي في مصر إبان نشوب الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦). اما النقباء والاشراف والسادة في الموصل فكانوا قد شغلتهم الشؤون المحلية في داخل المدينة، ولم يأبهوا الى الدور الذي كان يملأ إرادتهم الاضطلاع به من أجل نصرته، كما حدث ذلك بالنسبة للسيد طالب النقيب في البصرة والسيد عبدالرحمن الكيلاني (النقيب) في بغداد علماً بأن السيد عبدالغني النقيب (نقيب اشراف الموصل) كانت له مكانة عالية في نفوس ابناء الموصل.

٦. تعدد الاساليب والسبل والمصادر لدى مثقفي الموصل من القوميين والاصلاحيين والاسلاميين في مجابهة السياسة الطورانية التركية التي مورست في ميادين عدة. وقد استطاع أولئك الرجال ان يؤثروا تأثيراً عميقاً في النفوس ولدى الاهالي والسكان، بل ونجحوا في غرس مبادئ وقيم تظهر لاول مرة، وقد برزت على اسس واضحة.. ويمكننا فرز ثلاثة اساليب ومصادر ايديولوجية اساسية هي:

(١) الاسلوب التعليمي المستند على مصادر دينية واضحة، وهو الذي مارسه عدد من المعلمين، ومنهم: قاسم الشعار ورؤوف الغلامي

ومحمود الملاح ورؤوف الشهواني ومحمد سعيد الجليلي وعبدالمجيد شوقي البكري وغيرهم.

(٢) الاسلوب الفكري والادبي المستند على مصادر قومية دستورية، وهو الذي مارسه عدد من الادباء والشعراء والمفكرين، ومنهم: داود الملاح آل زيادة وعلي الجميل الموصلي ومكي صدقي الشربتي وسليمان فيضي وخيرالدين العمري وصديق الدملوجي ود. داود الجلبي وغيرهم[١٦].

(٣) الاسلوب العسكري والميداني المستند على مصادر عثمانية نظامية، وهو الذي مارسه عدد من الضباط الموصليين الذين كانوا قد تخرجوا في معاهد عسكرية عثمانية، ومنهم: محمد شريف الفاروقي ومولود مخلص وعبدالله الدليمي وعلي جودت الايوبي وجميل المدفعي وعبد الحميد الدبوني وغيرهم.

لنقف عند تراجم أبرز الرواد الموصليين في الحركة العربية القومية ونستلهم بالمفكرين والادباء الذين تميزوا بنتاجاتهم القومية ثم ننتقل الى الضباط والمدرسين والمناضلين:

الرواد القوميون الاوائل

١. داود الملاح آل زيادة[١٧]

ولد في الموصل سنة ١٨٦٣م، ونشأ فيها، وتلقى علومه على أيدي كبار علمائها وأدبائها. وغدا أديباً وجّه عنايته منذ البداية نحو القضايا السياسية من خلال خطبه الداعية الى النهوض والتقدم. ومن المؤكد ان دوره النهضوي قد تبلور بعد احداث الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨ ووصول الاتحاديين الى حكم الدولة، وكان عمره آنئذٍ (٤٥) سنة، فهو اذاً، اكبر سناً من جميع رواد النزعة القومية في الموصل.

لقد أيّد الرجل جمعية الاتحاد والترقي، وانخرط عضواً فيها، وسعى بعد تأسيس جريدة «نينوى» في الموصل الى مناصرتها قولاً وفعلاً، كما دافع عن



• داؤد الملاح آل زيادة.

مصير الدولة العثمانية ضد السياسات العدوانية التي كانت موجهة ضدها[١٨]. ولكن ما ان ظهرت مساوئ الحكم الاتحادي حتى انقلب داود الملاح آل زيادة على الاتحاديين، وأخذ يهاجمهم في نفس جريدتهم «نينوى» وباللغة العربية. وتعد هذه الخطوة نقطة تحول ليس لهذا الرجل فحسب، بل لأغلب رجالات الموصل ومثقفيها (وحتى بعض رجال الدين المسلمين فيها) من الذين ادركوا جنوح الاتحاديين عن النهج الدستوري الذي كانوا اعلنوه، واتباعهم سياسة مركزية متطرفة.

بدأ داود الملاح آل زيادة ينشط في الاتجاه المضاد بنشره الفكرة الوطنية – القومية بين الشباب العربي[١٩]، مُعبراً عن خيبة الامل التي مني بها العرب، ويقول: «قد كنا نتأفّف من تلك الامور قبل استنارة الدستور فلما انشق الظالم محصوراً، والمظلوم منصوراً، فاذا الأمور تدور على محورها القديم والامة تقاسي العذاب الاليم والاستبداد على ازدياده والمتنفذ بالغ مراده قد صار له التطبع في الاستبداد طباعاً»[٢٠].

وقد وجد هذا الرجل أن الاصلاح هو الاسلوب الذي ينتشل الامة من تأخرها وانحطاطها. وقد دعا الى مبادئ العدالة وعلو الهمة والحرية «فمتى



حصل عندنا هذه الخصائل.. يقال قد بزغت عندنا شمس المشروطية.. وطلع كوكب الحرية وهناك ينشق فجر الترقي...»[٢١].

كما ودعا الى كسب العلوم والسعي للوصول الى حالة مدنية من خلال الاقتداء عمن سبقنا في كيفية بناء الاوطان وتكوين الحضارات، ولاسيما اقتناء سبل الاوربيين في العلوم والفنون واكتساب اساليب الزراعة والصناعة[٢٢]. والتفت الملاح الى ماانجزه الاسلاف من أمجاد وحضارة وتراث زاهر، فيلتفت الى بني قومه يحثهم على مواكبة ماشيده الاوائل من مآثر، إذ يقول ؛ «فيا اهل الوطن من ذوي الثروة: اما تنظرون هذا وطنكم العزيز الواجب عليكم خدمته.. معطل من المعارف والصناعة ومعرى جسمه من التجارة والزراعة، فهو حر» او وطني مواسي تهزه الاريحية الى جلب معامل او ماكينات لاهل وطنه»[٢٣].

كما ودعا هذا الرجل الى التعاضد والتآخي والمحبة بين جميع الملل والعناصر السكانية في وطنه[٢٤] كقيم اساسية ومرتكزات عملية في بناء المستقبل. وكان داود الملاح شاعراً منشداً مجيداً، وهو من اوائل الذين نظموا الاناشيد الوطنية الحماسية كأحدى أبرز الوسائل في التعبئة الشبابية والجماهيرية مستخدماً اسلوب اثارة المشاعر والنخوة وذكرى الامجاد والاعتزاز العربي، ورسم الخطى للسير قدماً على نهج متمدن.. فطفحت أناشيده وقصائده بالعواطف الجياشة والالفاظ التي تتغنى بأمجاد العرب وحضارتهم[٢٥]. وقد كان قد تأثر تأثراً كبيراً في انتهاج اسلوب ونظم الاناشيد الشعرية باستاذه الشاعر الموصلي مطمور الصيت عبدالله راقم افندي الذي يعد اول من كتب الاناشيد العثمانية على عهد الولاة الاتراك المتأخرين في نهايات القرن التاسع عشر[٢٦].

ويمكننا أن نقتبس بعض الادبيات من احد اناشيد داود الملاح آل زيادة، إذ يقول:

ألیس نحن الالى كنا دعاة الضيف
لنا ملوك الورى دانت بحد السيف
فكيف نغضي على هذا الردى والحيف
أبت بذا أمة جلت معاليها
هبوا بني وطني واستلفتوا الانظار
واحيوا لما خلفوا اجدادنا الاخيار
واسترجعوا مامضى واستطلبوا للثار
فتلك امصارنا حل العدو فيها[٢٧]

وله نشيد آخر جاء فيه:

ياأباة الضيم ماهذا التراخي والسكون
او ما كان لكم في سالف الدهر شؤون
ارضاء بعد ذاك العز في ذا الانتحار
حيث فاض الجهل فينا وانمحى ذاك الفخار
فثبوا مما عراكم واخلعوا ثوب الخمول
فلكم قد شهد العالم في كبر العقول[٢٨]

وعلى الرغم من ان الرجل لم يذكر كلمة «العرب»، الا أنه ساهم مساهمة جادة في ارهاص الفكر القومي البكر في الموصل.. وقد توفي فيها سنة ١٩١٦.

٢. محمد حبيب العبيدي

ولد في الموصل عام ١٨٨٠م. ونشأ فيها. وتلقى تعليمه في المدرسة الرشدية العثمانية ثم أخذ العلوم الدينية والشعر والأدب على ابرز علماء وأدباء عصره، وحصل على الاجازة العلمية، وقد تثقف في التاريخ وقرض الشعر منذ حداثة سنّه.. وكان ان تأثر تأثراً كبيراً بأفكار جمال الدين الافغاني ومحمد عبده الداعية الى مشروع «الجامعة الاسلامية»، ولكنه من جانب آخر كان قد أيّد الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨ على غرار اترابه من المثقفين الشباب، ومهاجماً السلطان عبدالحميد الثاني الذي كان قد التزم فكرة «الجامعة الاسلامية»[٢٩].

وعلى الرغم من هذا الاضطراب الايديولوجي فقد تلاقحت عنده فكرياً العروبة والاسلام، إذ

امتزجتا في ذهنه معاً.. وعليه، فان الرجل لم يكن في مطلع شبابه ذا خط فكري وايديولوجي واضح حتى في اسفاره الى مصر وبيروت واستانبول. وفي عاصمة الدولة، هناك في استانبول قدمه احد اصدقائه الى جمعية المنتدى الادبي، فالقى بين اعضائها شعراً قومياً. ولكنه لم ينتم الى ذلك التنظيم القومي المبكر(٣٠)، وقد عرف عنه فيما بعد انه يرى بأن تصحيح الاوضاع يجب أن يتناول انحاء البلاد الاسلامية كافة وليس الامة العربية فقط.

هكذا فان العبيدي دعا في أفكاره الى الوحدة الاسلامية على ان تكون الجامعة العربية مرتكزاً اساسياً في صرح هذه الوحدة، إذ يقول:
«ماأخال امة انتظمت في خط جغرافي انتظامكم ياقوم، فاليمن والحجاز ونجد والعراق وسوريا ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش، ثم ماأخال امة انتثر عقد جامعتها انتثاركم هذا، فهل انتم مستبصرون»(٣١).

محمد حبيب العبيدي ١٨٨٠ – ١٩٦٠

لقد استطاع العبيدي أن يوّظف كتاباته النثرية والمزيد من اشعاره في فجر شبابه من اجل النهضة الادبية والوحدة العربية – الاسلامية، وتعاطف في مطلع حياته مع التطلعات الاصلاحية وزامل الرجال العاملين في اتجاهات مختلفة: اللامركزية والاتحادية والائتلافية والقومية.. ولكنه بقي طوال حياته يؤمن بفكرة الرابطة الاسلامية، وسخر داره ومجلسه لاجتماعات مختلف الادباء والعلماء والمثقفين(٣٢) وكانت له علاقات ومساجلات ومراسلات مع عدد من رجالات العرب، كما انه نشر آراءه واشعاره في العديد من المجلات العربية، فضلاً عما طبعه من كتب ورسائل(٣٣).

ناصب السيد العبيدي الانكليز العداء، وأنجز كتابه عنهم بعنوان: «جنايات الانكليز..»(٣٤)، ولما كان في بيروت عام ١٩١٧ اعتقلوه ثم رحل الى مصر، فبقي فيها حتى سنة ١٩١٩، ثم عاد الى العراق(٣٥). وقد كانت له مواقف قومية في تعاطفه مع بعض الاحداث المريرة، منها: استنكاره للعدوان الايطالي على ليبيا عام ١٩١١.. وفي مجال آخر له قصيدة بعنوان «وطن العربي كله بلد عربي» يقول فيها:

رحماك رب محمد من معشر
باعوا تراث محمد بحطامِ
ليست بلاد العرب غير مغانم
قسمَتْ وأهلوها سوى اغنامِ
ألقوا بفضل زمامهم ليقودهم
نفرٌ يقاد الى الهوى بزمامِ
ألف السعادة من ظلال شقائهم
متنعماً بشقاوة الانعامِ
ومِن السفاهة والغباوة في الورى
جور العروش وطاعة الاقوامِ

ومنها قوله ايضاً:
شقيت بلاد الضاد في زعمائها
ياخيبة الآساد والآجامِ
لو كان في قوس الهداية منزع
ماأخطأت كبد الضلال سهامي
من في كلام الله ضل سبيله
هل يهتدي من بعدهِ بكلامِ



شاهدت وجوه القوم جف حياؤها
وقستْ قلوب في صدور لئامِ
موتى الضمائر لم تُفدهم عبرة
عظة الزمان وحكمة الاسلامِ
شروا الضلالة بالهدى وتحطموا
باعوا البلاد واهلها بحطامِ
ولرب مغرور نصحت فما ارعوى
حتى أتتهُ نصيحة الايامِ (٣٦)

بعد تأسيس الحكم الوطني في العراق، انتخب العبيدي نائباً عن الموصل في مجلس النواب العراقي، ثم نصّب مفتياً للموصل سنة ١٩٣٦م، وبقي في منصبه وفي مكانته حتى وفاته عام ١٩٦٠، تاركاً عدة من الكتابات والاشعار والتآليف.(٣٧)

٣. علي الجميل

ولد في الموصل سنة ١٨٨٩م، نشأ ودرس فيها منذ صغره على يد اخته (أسماء) اولاً، ثم اختلف الى المدارس الاهلية والعثمانية ثانياً، فدرس على أشهر العلماء والادباء اثر تخرجه من المدرسة الرشدية، وقد اهتم والده بتثقيفه فخصص له مدرسين خاصين في اللغات الفرنسية والتركية والفارسية، فأجاد العمل والتحدث بها(٣٨).. ثم توظف في دواوين الدولة، ثم استقال وعمل مدرساً فخرياً في المكتب الوطني. وبعد الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨، غادر الموصل الى استانبول عن طريق بيروت، وانخرط هناك في المدرسة الشاهانية الملكية العليا لدراسة الآداب الشرقية(٣٩).

وشارك في استانبول رفقة احمد عزة الأعظمي بتأسيس «المنتدى الادبي» وهي الجمعية العربية الفكرية الشهيرة التي ترأسها عبدالكريم الخليل. وقد حرّر علي الجميل في مجلتيها: «لسان العرب» و «المنتدى الادبي»، وبعد رجوعه الى العراق عام ١٩١١، اصبح مندوباً للمنتدى الادبي يتلقى مناشيره ومطبوعاته ليبثها وينشرها بين معارفه(٤٠).

وكانت للرجل مواقف حقيقية عدة، فقد وقف في مجابهة سياسة الاتحاديين المنحازة عن مبادئ الحرية والاخاء والمساواة وضد العرب. ومن جملة تلك المواقف رسالته الجريئة: «على رسلكم يازعماء الاتحاد والترقي» التي وجهها اليهم، والتي اضطهد من جرائها فهرب الى احد ابناء عمومته وهو الشيخ مسلط الملحم شيخ عشائر الجبور في البادية السورية، وجرت تحريات تفتيشية لداره، ولكن كان اهله قد احرقوا جميع اوراقه. ومما جاء في رسالته السياسية المذكورة «يازعماء الاتحاد وابطال الحرية وخطراء الامة، رفقاً بهذه الامة التي باتت عائمة في تيار الجهل وانتم والله لها لمغرقون. أردتم ان تلعبوا بالامة فاتخذتم الدين لكم احسن ستار تسدلونه على ماتصنعونه من المكائد والخدع..»(٤١).



• علي الجميل (١٨٨٩-١٩٢٨م).

وكان الجميل قد ألّف بعد رجوعه من استانبول وبناء على رغبة القادة السنوسيين كتابه «التحفة السنية في المشايخ السنوسية» اثر الغزو الايطالي لطرابلس الغرب سنة ١٩١١م، وقد طبعه على نفقته خفية بالموصل(٤٢)، ولكن صادره الاتحاديون وأحرقوه، وقد جاء في ترويسته بأن مؤلفه يرفعه لابناء الامة العربية. وجاء في مقدمته: «اما بعد،

فلا يخفىٰ على كل إنسان ذي انصاف ووجدان ما للامة العربية من الذكر الجميل والمجد الاثيل والمزايا الحسنة.. عزة انفسهم لاتنكر وشجاعتهم كل حين تذكر.. اصحاب همم علياء وكرم ووفاءوحمية وسخاء واقدام وحزم وذكاء.. طالما خضعت لهيبتهم القياصرة، وذلت لعلو هممهم الاكاسرة..»[٤٣].

ولقد كتب الجميل آراءه ونشر افكاره القومية الجريئة على صفحات جرائد ومجلات عراقية وعربية، من ابرزها: جريدة النجاح عام ١٩١٢ التي نشر فيها مقالات عدة في التاريخ واللغة العربية تحت اسم مستعار هو (عربي)، فضلاً عن قيامه بتحرير القسم العربي من جريدة «موصل» اضافة الى مراسلاته لجريدة «المصباح» و«اللسان»، ثم نشره لعشرات المقالات في جريدة «الموصل»[٤٤]. وقد كان الرجل وراء تأسيس «النادي العلمي» بالموصل إبان عهد الاحتلال البريطاني اذ كانت فكرته على غرار «المنتدى الادبي» في الاستانة كجمعية ادبية تعمل في السياسة سراً، وقد اصدر «النادي العلمي» مجلته التي تسمّت باسم النادي، وترأس علي الجميل تحريرها، ولكنها توقفت عن الصدور بعد ستة أشهر اثر غلق الانكليز للنادي بعد بدايته العمل المنظم ضدهم[٤٥].

وفي عام ١٩٢٧ دفعه شغفه للصحافة ان يصدر على حسابه الخاص جريدة «صدى الجمهور» وأوكل ادارتها للمحامي عبدالله فائق، وسخرها للقضايا القومية والمشكلات الاجتماعية، وبقي الجميل يتراس تحريرها حتى وفاته في حلب في اليوم الاول من تشرين الثاني ١٩٢٨[٤٦]. لقد نشر العشرات من المقالات في الفكرة القومية واحترامها، وفي اللغة العربية والمجتمع العربي والنهضة العربية.. وفي النقد السياسي والاجتماعي.. وكانت له علاقاته الحميمة بالقوميين رجال القضية العربية في بلاد الشام.. كما وكانت له مواقفه القومية التي تربى عليها جيل عريض من شباب الموصل[٤٧]. وقد وصفه زميله الدكتور داود الچلبي في حفل تأبينهِ قائلاً: «على افندي الجميل الذي ابلى بلاءً حسناً ايام القضية العربية.. كان مثالاً للانصاف، وعلماً رفيعاً. كان مصدراً [للمشاكل] القومية والمواقف السياسية وخطيباً مصقعاً. لاتأخذه في احقاق الحق سفاسف المخرصين، وهو من طبقة العقليين، ومن طالع طرفاً من كتاباته يعرف حقاً ما كان يغمره من الخير لهذه الامة العربية..»[٤٨].

وكان شاعراً مجيداً، نظم كثيراً من القصائد القومية التي نشرها في صحف ومجلات عربية، منها قوله:

هو العرب آل للرقي ذوو العلا
بنو المجد من عاداهموا اهلك النفسا
وفـاء واقـدام وحـزم وسـؤدد
من الشيم اللاتي غرسن بهم غرسا
إذا حلموا كانوا الظباء وان هموا
ارادوا دفاعاً اشهروا السيف والترسا
لهم همم لو ان معاشر عشرها
بنا اليوم لم نبك الحجاز والقدسا
اما تقرأون اليوم ما فاخروا بهِ
فقد ادهش الجن العفاريت والانسا[٤٩]

لقد ترك الجميل العديد من التآليف والكتب المنشورة وغير المنشورة في الادب والنقد الاجتماعي والسياسة والتاريخ.

٤. خير الدين العمري

ولد في الموصل سنة ١٨٩٠ وهو واحد من خمسة ابناء لـ (حسن زيور العمري) رئيس بلدية الموصل للفترة ١٨٨٧ - ١٨٩٢م، كان منهم اسعد العمري مدير اوقاف الموصل وارشد العمري مهندس بلدية الموصل والذي اصبح فيما بعد رئيساً لوزراء العراق. تلقى خيرالدين تعليمه على ايدي بعض علماء الموصل، ثم انخرط في المدارس الرسمية، حتى انهى دراسته الاعدادية سنة ١٩٠٦، ثم سافر سنة



١٩٠٨ الى استانبول في سفرة خاصة، وعاد الى الموصل بعد قضائه خمسة اشهر هناك، وبدأ يمارس التدريس في المدارس الاهلية بالموصل(٥٠). وقد تثقف باللغتين العربية والتركية، واستهواه العمل الصحفي، فاصدر بعد عودته من استانبول، وتأثره بالاحداث الدستورية هناك، جريدة «النجاح» سنة ١٩١٠، لكي تكون لسان حال حزب الائتلاف والحرية المعارض للاتحاديين(٥١)، وقد شاركه في تحريرها بعض الادباء المواصلة(٥٢).

وقد جرت عليه بعض المقالات اضراراً واوصاباً، حتى اغلقت الصحيفة بعد مرور سنة ونصف على تأسيسها.. فتقلد بعض الوظائف في دواوين الدولة. وبعد الاحتلال البريطاني للموصل، بدأ يساهم في مقاومته من خلال عضويته في الهيئة الادارية للنادي العلمي. كما وانه اوفد من قبل جمعية العهد بمهمة قومية الى دمشق يحمل مضبطة من وطنيي الموصل. وقد ساهم بعد تأسيس الدولة العراقية عام ١٩٢١ بنيابة في البرلمان العراقي(٥٣). وفي سنة ١٩٣٢، اصبح رئيساً لبلدية الموصل حتى سنة ١٩٤٧، وتوفي في ٢٥ آب ١٩٥١.

يقترن العمل القومي للرجل باصداره لصحيفته الرصينة «النجاح» التي دعا فيها الى التجديد والاصلاح، والانفتاح على المدنية الغربية. كما وتصدّت الجريدة لمعالجة الشؤون القومية مطالبة باحقاق الحقوق العربية كما وكانت الجريدة لنشر الاحداث القومية، ومنطلقاً حراً لبناء تطلعات في الحرية، وقارنت الجريدة بين السياستين الاستبدادية الحميدية والاتحادية الطورانية. واهتمت افكار الرجل بالنواحي الاقتصادية وتطوير الزراعة والصناعة من خلال فتح المدارس المختصة(٥٤).

واعتنت صحيفته بالتربية وتعميم اللغة العربية، فضلاً عن اهتمامها بالحياة الاجتماعية وضرورة القضاء على العادات البالية.. كما دعا العمري الى اشاعة الممارسات الديمقراطية وتعميق مفرداتها باقرار نظام التعددية الحزبية «بغية حصول موازنة في البرلمان». لقد خدم العمري التفكير القومي العربي بطريقة غير مباشرة من خلال نشاطاته الصحفية على الرغم من اخلاصه للرابطة العثمانية وايمانه باتجاه الائتلافية بين القوميات في الدولة العثمانية(٥٥). وللرجل بعض الآثار الادبية المخطوطة.

٥. ثابت عبدالنور

ولد في الموصل سنة ١٨٩٠، وهو عربي مسيحي اسمه الاصلي نيقولا عبدالنور، نشأ ودرس في مدارس الموصل، وبعد عام ١٩٠٨ بدأ يتأثر بالافكار القومية، ثم سافر الى اسطنبول، فانتمى لجمعية «المنتدى الادبي»، ثم عاد الى الموصل، وبدأ يبشر بافكاره في القائه لبعض الدروس التي اثارت في الطلبة الشعور القومي(٥٦). ولكن أبرز نشاط سياسي قام به قد تمثل بتأسيس جمعية «العلم» السرية التي كان وراء انشائها قبل الحرب العالمية الاولى من اجل اثارة الشعور القومي في الموصل. وكان الهدف الاساسي وراء تأسيسها يتمثل بالسعي لتحرر العرب من نير الاتراك(٥٧).

لقد اشتركت معه نخبة من الشباب المتحمس لتأسيس جمعية «العلم» وشعارها «العلم العربي» وهوالذي رفعته لاول مرة جميعة «المنتدى الادبي» عام١٩٠٩، وهو العلم نفسه الذي رفعه الشريف الحسين بن علي اثر اعلان الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦. وكان لجمعية «العلم» منهاجها السري. واسلوبها الخاص في تعامل الاعضاء بعضهم مع بعض، وكان أغلب الاعضاء من المعلمين الموصليين الشباب. وكان يتردد عليها بعض الضباط الموصليين، امثال: مولود مخلص وعلي جودت الايوبي(٥٨).

غدا ثابت عبدالنور مرخصاً للجمعية، والذي عرف فيها بصراحته وجرأته ومجاهرته بالروح



القومية، وتنديده، بالاتحاديين.. وقد أحيل الرجل الى المجلس العرفي العسكري بعد تحريات عنه، فحكم عليه بالسجن لمدة سنة واحدة، فعهد بادارة الجمعية الى مكي صدقي الشربتي لكنه استطاع ان يهرب من السجن بوساطة بعض من اقرانه القوميين الموصليين.. ويفلت من زمام السلطة بمغادرته الموصل، والتحاقه بالثورة العربية الكبرى التي كان يقودها الشريف الحسين بن علي في الحجاز[٥٩].

وبعد تأسيس الحكم الوطني في العراق. عاد الى بغداد، فشغل بعض الوظائف الادارية والدبلوماسية، ثم انتخب نائباً عن الموصل عام ١٩٣٠.. ولم يترك ثابت عبدالنور أية نتاجات فكرية في التأليف والفكر والادب، وعاش بقية حياته وحيداً وتوفي ببغداد عام ١٩٥٨.

٦. الدكتور داؤود الجلبي

ولد في الموصل سنة ١٨٧٩ ونشأ فيها ودرس في كتاتيبها، ثم درس في مدرسة الآباء الدومنيكان على مدى خمس سنوات، ثم انخرط في المدرسة الاعدادية الملكية في الموصل، وبعد تخرجه، سافر الى اسطنبول عام ١٨٩٩، فتخرج هناك طبيباً عسكرياً في المدرسة الطبية العسكرية. وإبان بقائه هناك شهد الجلبي على غرار اترابه من الشباب المواصلة احداث الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨.وبعد حصوله على شهادة الدكتوراه في الطب في ٢٦ ايلول سنة ١٩٠٩م، عاد الى الموصل ليعمل طبيباً في الوحدات العسكرية، ولكنه قام الى جانب ذلك مدرساً للتاريخ والجغرافية وعلم الحيوان في مدارس الموصل[٦٠].

لقد اهتم داؤود الجلبي بقضايا التاريخ العربي، وتضلع في اللغة العربية، وفي لغات اجنبية اخرى، فضلاً عن معالجاته للتراث العربي بدقة ومنهجية عالية. وكان الى جانب ذلك كله: طبيباً ناجحاً اكتسب سمعة عالية في المجتمع. وكان قد خدم في الجيش العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الاولى. وعلى الرغم من ان ليس لدينا أية معلومات عن انتمائه الى اي تنظيم قومي في استانبول أو الموصل فان ميوله القومية كانت واضحة شديدة الوضوح من خلال علاقاته مع الضباط القوميين القدماء من الموصل. اذ يذكر محمد شريف الفاروقي في احدى رسائله من انه كان يجتمع مع مولود مخلص وعبدالله الدليمي في بيتهم ليلاً مع الحاجي والدكتور داؤود (الجلبي) وداؤود الملاح وغيرهم[٦١].

وكانت علاقة الجلبي وثيقة بمولود مخلص. وكان - ايضاً - عضواً فعالاً في «النادي العلمي» بالموصل إبان الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨ مركزاً للنشاط السياسي المضاد للسلطات البريطانية. وقد انتخب رئيساً لهذا النادي عام ١٩١٩ الذي اغلقه الانكليز بعد اشهر قليلة من تأسيسه.

وبعد تأسيس الدولة العراقية تقلد مناصب عسكرية ومدنية عدة، منها نائباً عن الموصل في المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤، ومديراً للشؤون الصحية في الجيش العراقي سنة ١٩٣٠ ومديراً عاماً للصحة عام ١٩٣١، وبعد تقاعده نصب عضواً في مجلس الاعيان سنة ١٩٣٧، ثم نائباً عن الموصل سنة ١٩٤٣ مع مناصب علمية متعددة، وتوفي سنة ١٩٦٠[٦٢].

٧. محمد رؤوف الغلامي

ولد في الموصل سنة ١٨٨٩، ونشأ فيها، ودرس على ايدي بعض علمائها، ثم تخرّج في دار المعلمين الابتدائية. وكان له نشاطه المتصدي للسياسة الاتحادية والتعبئة الدينية ضدهم. وقد شارك في النشاطات القومية للجمعيات المحلية مثل «جمعية العلم» وفرع «جمعية العهد العراقي» و «جامعة الآداب». فكان معتمداً للاولى والثانية، ورئيساً للاخيرة. كما وساهم الغلامي في الفعاليات





• محمد رؤوف الغلامي.

التربوية والمكتبية. فهو من مؤسسي «مكتبة الخضراء» ومدرسة «دار النجاح الاهلية»[٦٣] ، متخذاً من مهنة التدريس وسيلة لغرس الامثلة الحية والمبادئ والقيم الدينية المشرّبة بالروح القومية لدى الناشئة في الموصل.

واشتهر الرجل بمجلسه الذي دعاه بـ «الندوة الغلامية» ويعقده في داره وكان يؤمه اصدقاؤه ومحبيه. كما وكان للغلامي دوره في انشطة فرع جمعية العهد بالموصل اضافة الى مراسلات له مع زملائه إبان حركة تلعفر ضد الانكليز عام ١٩٢٠[٦٤]. ولم يترك الغلامي كتابات او تآليف الا ما كتبه في أواخر ايامه حول «الامثال الموصلية» و«سيرة اسرته».. إذ لم نجد له أية مقالات سياسية او مقطوعات ادبية وفكرية وشعرية ولكن كانت له خطبه التي أكدّ فيها على التعليم الديني والعمل الاصلاحي ، اذ اقتصرت وسائله على ندوته وخطبه ورسائله وتدريساته.

يمثل محمد رؤوف الغلامي تياراً اصلاحياً توفيقياً بين الاسلام والقومية ، إذ يبتعد كثيراً عن الرؤية القومية الدستورية التي حملها اقرانه الذين يتميزون عنه بتآليفهم وكتاباتهم الفكرية واستنارتهم الذهنية.. وقد انضوى في خضم التيار الاصلاحي التوفيقي اضافة الى الغلامي ، كل من : سعيد الحاج ثابت ، وقاسم الشعار، ومحمود الملاح وجميل الجميل وعبدالمجيد شوقي البكري ومحمد سعيد الجليلي وحمدي جلميران وايوب الصمدي وغيرهم[٦٥].

بعد تأسيس الحكم الوطني عام ١٩٢١ ، بقي الغلامي في مهنة التدريس ، وكان ان تجاهله رجال الامس ، حتى تقاعد عن العمل ليرجع الى حلبة السياسة من جديد ، فانضم الى فرع حزب الاحرار بالموصل ، (وكان حزب الاحرار قد تأسس ببغداد على يد سعد صالح) ،. واسس الغلامي جريدة له في الموصل اسماها «صدى الاحرار» التي عبرت عن آرائه في فترة متأخرة من حياته ، واوقف مقالاتها على تسجيل تأريخه السياسي السابق.

رواد عسكريون : العمليات الميدانية

٨. محمد شريف الفاروقي

هو محمد شريف بن محمد الفاروقي (العمري) ، ولد في الموصل سنة ١٨٩١ ، ونشأ فيها ، ودرس في مدارسها ، ثم دخل المدرسة العسكرية وتخرج ضابطاً في الجيش العثماني ، ثم اصبح معلم الفيلق الثاني عشر في فن الرماية ، ومرافقاً لدى فخري باشا قائد ذلك الفيلق ووكيل جمال باشا (السفاح) والي سوريا. ثم اصبح الفاروقي – كما يذكر – العضو الاول بجمعية العهد المتشكلة من الضباط. ثم التحق بعد ذلك بجمعية العربية الفتاة ، وقد زامل ياسين بك البغدادي (= الهاشمي) الذي كان رئيساً لاركان حرب الفيلق الثاني عشر.

وفي اثناء عمله في سوريا اجتمع كل من سامي الصلح ومحمد المحمصاني وشريف الفاروقي في بيت «المدرس» بحلب الشهباء واجتمعوا بالامير فيصل ابن الحسين عند عودته من الاستانة واطلع الفاروقي على خططهم وساهم في توحيد المساعي معهم من اجل الاهداف القومية. فأحسّ جمال باشا يومئذٍ بسريان روح الحركة العربية. يقول الفاروقي : «فكان ماكان منه من حبس بعض اخواننا واما



نحن الضباط فبعد ان حبست في حلب مقدار (١٥) يوماً اصدر أمره بإرسالنا انا وياسين بك وأمين لطفي بك وعبدالقادر أفندي الى الاستانة...»[٦٦].

وبدأ الفاروقي يراسل الشريف الحسين بن علي قبل الثورة، وقد بادله الشريف حسين الاجوبة، ويبدو للمؤرخ بأن الثقة والاخلاص قد غرست من اجل القضية العربية، وان ثمة اراء رصينة للفاروقي اعتمدها الشريف حسين، فقد افصح الفاروقي عن آرائه القومية وخططه السياسية في امور شتى، منها بشأن الاعتماد على المستنيرين العرب الذين كانت الحركة القومية سائرة بينهم سيراً حسناً، واشارته الى اعتماده على الضباط من شباب الموصل ومنهم: مولود مخلص وعبدالله الدليمي[٦٧].

وحلّ شريف الفاروقي في الحجاز مع انطلاق شرارة الثورة العربية الكبرى الى جانب عدد مهم من القادة والضباط العراقيين الذين نهضوا بدور حاسم وقيادي في عمليات تلك الثورة ضد الاتراك[٦٨]. وقد اضطلع الفاروقي بدور مهم وحساس جداً، فلما وجد الشريف حسين انه يواجه تحدياً عسكرياً من قبل الاتراك لاسترداد الحجاز الذي استطاع ان يحرره، انتدب احد معتمديه وهو شريف الفاروقي للذهاب الى مصر واستحصال المساعدات المالية والعسكرية التي وعدت انكلترا بارسالها الى مكة[٦٩]، فضلاً عن تنظيمه ضباطاً ومأمورين وجنوداً الى الحجاز. فتحرك الفاروقي من مكة في اواخر شعبان سنة ١٣٣٤ (بداية تموز ١٩١٦) [لقد اعلنت الثورة العربية الكبرى في ١٠ حزيران/ يونيو ١٩١٦]، فوصل القاهرة في ٦ رمضان وشرع بتأدية المهام التي اوكلت له[٧٠].

ويتوضح جانب كبير منها في المراسلات المتبادلة بينه وبين قائده الشريف حسين، وبقي الرجل في القاهرة ينظم الشؤون السياسية والدبلوماسية للثورة العربية الكبرى، وكانت درجته برتبة «وزير» كما جاء ذلك في رسالة الامير عبدالله وكيل الخارجية العربية (وزير الخارجية)[٧١].

لقد كانت الفترة الزمنية التي قضاها الفاروقي في القاهرة، هي فترة قومية خصبة استطاع فيها ان يتصل بعدد كبير من الشخصيات العربية العسكرية والمدنية، واستطاع تنظيم شؤون من كان اسيراً ووصل الى مصر، فضلاً عن عدد من العراقيين والمصريين والسوريين منهم: نوري السعيد ورؤوف عبدالهادي والدكتور امين المعلوف وفؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب واخرين[٧٢].

واخيراً، لابد ان نقول إن الفكرة القومية عند هذا الرجل لم تكن وليدة ظروفه الصعبة فقد آمن بها منذ الانقلاب الدستوري لعام ١٩٠٨، وفي اثناء بقائه في الموصل، كان يحضر الاجتماعات القومية في دور زملائه ورفاقه في العقيدة والنضال. وتبدو قيمة الموصل ومكانتها القومية واضحة في ابرز الاحداث التاريخية والمصيرية من حياة العرب عند مطلع القرن العشرين، الا وهو حدث الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ كعلامة فارقة بدأ منها تاريخهم وتكوينهم السياسي العربي المعاصر.

هكذا، إذن فليس من المصادفات العجيبة، بل لدور الموصل وابنائها القيادي وكفاءتهم ورصانة مؤهلاتهم ان يبرز من بينهم محمد شريف الفاروقي ليكون السكرتير والمعتمد السياسي للشريف الحسين ابن علي (وفيما بعد الملك)، وان يكون الدكتور عبدالله الدملوجي الموصلي السكرتير والمعتمد السياسي للملك عبدالعزيز بن السعود، وان يكون علي جودت الايوبي الموصلي مديراً لادارة جيش الامير علي بن الحسين، وان يكون كل من الضابطين الموصليين مولود مخلص وعبدالله الدليمي سكرتيراً للامير فيصل بن الحسين.

٩. مولود مخلص

ولد في الموصل سنة ١٨٨٦م، ونشأ في محلة جامع خزام، ثم تلقى تعليمه في كتاتيبها ودرس في

مدارسها ثم انتقل الى المدرسة الاعدادية الملكية في الموصل، وبعد ذلك تخرج من المدرسة الرشدية العسكرية ببغداد، ثم سافر الى اسطنبول لغرض اكمال دراسته فانخرط في المدرسة الحربية هناك[٧٣]... وقد أثار هناك فيها بعض المشكلات مع بعض رفاقه فصدر الامر باخراجه جندياً الى القطعات العسكرية، فأبى أن يرضخ للامر، ففرّ من الجيش وذهب الى استانبول مطالباً بحقوقه ومستجيراً بأحد رجالات الموصل فيها والذي كان ملجأً للعراقيين هناك وهو سامي باشا الفاروقي فأعيد الى المدرسة الحربية.

وصل تقرير ضده يقول بأنه قد تفوّه ضد سياسة عبدالحميد الثاني. فأُلقيَ القبض عليه واعتقل لعدة اشهر، فاستنجد بالفاروقي ايضاً. وكان الموقف صعباً هذه المرة، كونها قضية سياسية بحتة، ولكن سهّل له عملية الهرب، ففر نحو بلاد الشام بعد ان فصل من دراسته، وقصد نجد خفية كونها لاتقع ضمن الممتلكات العثمانية، وذلك عن طريق النجف ومكث هناك مدة (١٣) شهراً بمعية الامير عبدالعزيز الرشيد، وقد اشترك معه في غزواته بعد ان نال ثقة الامير، ثم رجع الى الموصل، ومنها ذهب الى بلاد الشام ... وقد استمات في ان يكون ضابطاً.. وقد استطاع من خلال جهود احد رجالات الموصل الكبار في الجيش العثماني وهو الفريق هادي باشا العمري ان يرجع مرة اخرى الى المدرسة الحربية في مناستير بعد ان برأت المحكمة ساحته.. وبعد نضال شاق وهو في زهرة شبابه.. اذ كان قد انضم خفية الى جمعية الاتحاد والترقي السرية، وخدم فيها وشارك في انقلاب عام ١٩٠٨[٧٤]..

تخرج من المدرسة الحربية ضابطاً في الخيالة مع احتفاظه بقدمه العسكري،فعين في الجيش العثماني السادس في العراق، وانتقل من بغداد الى الموصل.. وفيها رفّع الى رتبة ملازم اول وقد اشتغل معلماً للجغرافيا والتاريخ في مدرسة دار المعلمين، والرياضة في الاعدادي الملكي «وبذل كل الجهود لتنمية الفكرة العربية في المدارس. وكانت له عضويته المهمة العاملة في جمعية العهد السرية» ومن المهم ان نذكر ذلك التناقض بين كونه معروفاً بحب الاتراك وتمسكه بهم وبين دوره في الحركة العربية.. إذ كان عند اندلاع الحرب العالمية الاولى محارباً عثمانياً في العراق وسوريا... وكان اسره بمثابة انعطاف في حياته وحياة رفاقه العسكريين الآخرين..[٧٥]

لقد وجد مولود مخلص الفرصة سانحة امامه عام ١٩١٦ ليستجيب لدعوة الشريف حسين بن علي، فالتحق بجيش الثورة العربية الكبرى في الحجاز، وحظي بخدمة الامير فيصل بن الحسين مرافقاً له،. فساهم في تشكيلات فصائل الجيش العربي كقائد للواء (الهاشمي) في وادي موسى برتبة مقدم. وساهم في تحرير سوريا من الاتراك، ونصّب حاكماً عسكرياً للواء دير الزور من قبل الحكومة العربية في دمشق. وعندما سقطت هذه الحكومة كانت له مساهماته في عمليات دير الزور العسكرية.. وعاد بعد ذلك الى العراق وتسلم مناصب عدة ببغداد منها رئاسة مجلس الاعيان العراقي، ومناصب اخرى[٧٦].

١٠. علي جودت الايوبي

ولد في الموصل سنة ١٨٨٦م، ونشأ فيها، وكان من اوائل خريجي المدرسة الرشدية والاعدادية الملكية فيها.. سافر الى اسطنبول وانخرط هناك في المدرسة الحربية وتخرج ضابطاً. وقد اشتغل في بغداد، وأظهر كفاءة عسكرية. وكان يتعاطف مع ابناء العرب في التمسك بقوميتهم العربية والمطالبة بحقوقهم المهضومة، إذ بدأ يجاهر بآرائه وافكاره، ولدى عودته الى الموصل قبيل الحرب العالمية الاولى، اشترك في تأسيس فرع لجمعية العهد



فيها[٧٧]. يقول: «إن جميل المدفعي قد أتى بمنهاج الحزب (= جمعية العهد) من الاستانة الى الموصل. ولذلك انشأنا في الموصل مركزاً سرياً للجمعية، وباشرنا تحليف الضباط الذين نطمئن الى ميولهم، وافكارهم، فحالفنا النجاح والحمد لله»[٧٨].

وعند نشوب الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ التي قادها الشريف الحسين بن علي إلتحق بالجيش العربي في الحجاز، فكان له دوره القيادي البارز في ادارة الخطط والعمليات الحربية الى جانب رفاقه من الضباط العراقيين ضد الاتراك. ويوضح في «ذكرياته» تلك الصعاب والحالات القاسية التي مرّ بها اولئك الرجال من خلال قيادتهم للجيش العربي المتقدم في البراري والصحاري القائضة في الايام الاولى في شهر آب من عام ١٩١٨، وهم يتقدمون نحو دمشق[٧٩].

وبعد عقد الهدنة نصّبته حكومة الامير فيصل العربية حاكماً عسكرياً لمدينة حلب، ثم نقل الى الوظيفة نفسها في منطقة البقاع السورية.. وتعرّض خلال تلك الفترة الى ضغوط فرنسية كبيرة.. حتى سقوط الحكومة العربية في الشام على يد الافرنسيين.. وكانت للرجل ادواره الخلاقة والصلبة في الثورة العراقية الوطنية عام ١٩٢٠، والمنطلقة من دير الزور السورية باتجاه تلعفر وسنجار والموصل.. وقد وقف الى جانبه عدد من الضباط الموصليين ورؤساء العشائر العربية. فقد ذكر أدوار الشيخ العاصي الفرحان رئيس عشائر شمر والشيخ مسلط الملحم رئيس عشائر الجبور فضلاً عن بعض شيوخ شمر أمثال: الشيخ مشهل الفارس والشيخ عجيل الياور[٨٠].

اما ضباط الموصل فكان هناك كل من: جميل المدفعي، وعبدالحميد الدبوني، ومحمود نديم السنوي، ومحمود اديب، وسليم الجراح، ومصطفى شوقي، ومحمد علي سعيد، والحاج رؤوف الشهواني، ومحمود الجراح، وعبدالله صالح، وحسن وحمدي داؤود وغيرهم. وقد نجحت عمليات نضالية وبطولية عديدة ضد المواقع العسكرية البريطانية في شمال غربي العراق وكانت تلك «العمليات» بمثابة بداية حقيقية تأريخية لثورة العشرين الوطنية التحررية[٨١].

وعاد علي جودت الايوبي الى العراق بعد تأسيس الحكم الوطني عام ١٩٢١. لكي يتقلد عدداً من المناصب الادارية والسياسية في الدولة العراقية حتى عام ١٩٥٨.

روّاد آخرون من الموصل:

١١. محمد مكي صدقي الشربتي

ولد في الموصل سنة ١٨٩٥، واتمّ دراسته في الاعدادية الملكية. كان له دوره في الحركة العربية منذ نشوئها. وقصد سوريا في العهد الفيصلي، بصفة سكرتير المركز العام لجمعية العهد العراقية ومديراً مسؤولاً لجريدة العقاب، وشارك في مؤتمر العراقيين على هامش المؤتمر السوري.. اذ اعرب العراقيون فيه عن ارادتهم باستقلال العراق، واعلان اتحاد سوريا والعراق سياسياً واقتصادياً. وفي الموصل إبان عهد الاحتلال البريطاني كان للشربتي دوره في النادي العلمي، وانتخب عضواً في هيئته الادارية.. تقلد بعض الوظائف، وقد اصدر بعد تأسيس الحكم الوطني جريدة «الجزيرة» وقد حملت طابعاً قومياً في الموصل.. انضم - فيما بعد - الى حزب الاستقلال في الموصل[٨٢].

١٢. توفيق آل حسين أغا

كاتب وشاعر باللغتين العربية والتركية ودرس على أبرز علماء الموصل وادبائها، وشغل وظائف عدة، كما وكان يقوم بترجمة نشرة «ازانسي» من التركية الى العربية إبان الحرب العالمية الاولى.. وكان خلال حياته يحمل الفكرة العربية[٨٣].



١٣. محمود الملاح

ولد في الموصل سنة ١٨٦١ ونشأ ودرس على أبرز علماء الموصل وادبائها ، فبرز شاعراً مجيداً متميزاً بأناشيده الحماسية وقد تأثر بأفكار ونشرات القوميين الاوائل في الموصل.. وسافر الى بلاد الشام واتصل ببعض العراقيين هناك عام ١٩١٩. كما وكانت له اتصالات متعددة مع بعض الشخصيات العربية- الاسلامية من خلال المراسلات.. وكان ينزع نزعة اسلامية واضحة في عروبته له كتابات نشرها فيما بعد. وتوفي سنة ١٩٦٩ (٨٤).

١٤. محمد سعيد الجليلي

ولد في الموصل سنة ١٨٩٦ ، نشأ ودرس على يد أبرز علمائها ، وتثقف على كتابات ومواقف الرواد الاوائل من القوميين المواصلة ، وبدأ يسهم بافكاره في الحركة القومية ، فأنتسب الى جمعية «العلم» السرية. وكان مدرساً في مدرسة «دار العرفان». وقام بجمع الاناشيد العربية الموصلية المثيرة للحماسة والمشاعر القومية في كراس صغير، مؤكداً دور التربية القومية.. كما ونشر كثيراً من المقالات في الجوانب الاصلاحية والسياسية فيما بعد ، توفي في الموصل سنة ١٩٦٣ (٨٥).

١٥. سليمان فيضي الموصلي

ولد في الموصل سنة ١٨٨٥ ، ونشأ ودرس فيها ، وقد تأثر بأفكار بعض ادبائها ومثقفيها العاملين في القضية العربية بين ١٩٠٨- ١٩١٤. اكمل دراسته للحقوق. وقد اشتغل منذ مطلع شبابه في مدينة البصرة ، وانتمى فيها الى فرع «الجمعية الاصلاحية» التي وقف على رأسها السيد طالب النقيب ، وقد تبنت هذه الجمعية اتجاه حزب اللامركزية العثمانية. وسكن سليمان البصرة وتآلف مع حياتها ، وأسس فيها مدرسة اهلية ، وكان قد اصدر جريدته فيها والتي اسماها بـ «الايقاظ» سنة ١٩٠٩ لنشر العلم والثقافة وتجديد الحياة التقليدية ورفض المتزمتين (٨٦).

وفي عام ١٩١٣ كلف بمهمة اصلاحية من قبل السيد طالب النقيب يقضيها في الموصل وقد زارها والتقى رجالاتها لاغراض سياسية تتصل بالجمعية الاصلاحية في البصرة (وقد اطلق فيضي عليها بـ المهمة القومية) ولكن مهمته لم تحقق غرضها بسبب مضايقات الحكومة الاتحادية فضلاً عن ان المناخ السياسي في الموصل كان مشحوناً ومهيئاً لبروز واستقبال تنظيم قومي وليس اصلاحي. لقد مكث سليمان فيضي في الموصل قرابة أربعين يوماً ، حاول خلالها ان يؤسس فرعاً للجمعية الاصلاحية شرط ان تبرز بمظهر ادبي وباسم «النادي الادبي».. ولكن مهمته لم تلق اي نجاح ، فعاد سليمان فيضي الى البصرة (٨٧).

استنتاجات :

لقد اطلعنا هذا البحث على جوانب ومعلومات اساسية لاحداث وتراجم بعض اولئك الرجال الذين اسهموا اسهاماً كبيراً وفعالاً في الحركة العربية القومية من ابناء مدينة الموصل. سواء كان ذلك بمواقفهم السياسية الصادقة ام كتاباتهم واشعارهم وخطبهم المعبرة عن واقع مشحون بالتطلعات والاماني والبحث عن هوية وانتماء حقيقيين. وقد وجدنا أن اكثر من (١٥) رائداً في هذا المجال قد تنوع اهتمامهم وتباين تخصصهم واختلفت مشاربهم نتيجة واضحة للابعاد الاجتماعية والفكرية التي تميزت بها الحركة القومية- العربية في الموصل إبان تأسيسها في المدينة. وتأثيرها على الساحة العربية على نحو كبير. ونتيجة لذلك التسابق والتنوع فقد افتقدت المدينة زعامة البطل القومي / المحلي فاختلفت بذلك عن كل من بغداد والبصرة.

وجدنا ايضاً أن ميادين العمل القومي لاولئك الرواد لم يقتصر على ميدان واحد دار جميعهم في

فلكه، بل كان هناك ثلاثة ميادين حقيقية في العمل والتفكير والنضال والتنظيم:

١. الميدان الفكري والادبي.

٢. الميدان التعليمي والتربوي.

٣. الميدان العسكري والسياسي.

وكان لكل ميدان سماته وخصائصه في ترتيب خصوصية مدينة الموصل بالنسبة للتفكير والنضال القوميين. ولكن يبقى الفضل كله لاولئك الرجال المخضرمين الاوائل الذين كرسوا حياتهم وخاطروا بأنفسهم إبان أشرس عهد عرفته الدولة العثمانية، الا وهو عهد الاتحاديين ١٩٠٨- ١٩١٨ في الموصل.. فكان لدور أولئك الرجال تأثير بالغ في الاجيال اللاحقة. ويبدو للدارس أن الرواد الاوائل لم ينالوا حقوقهم فيما بعد عندما تأسس الكيان الوطني في العراق عدا العسكريين منهم، بل وبقوا طوال هذا السنوات طي النسيان.

الهوامش

(١) انظر تفاصيل ما كتبه د. عبدالعزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي، ط١، بيروت، ١٩٨٤، ص١٨٩- ٢٣٧.

(٢) راجع عدة كتابات ودراسات نشرها د. ابراهيم خليل احمد، وخصوصاً في مجلة (بين النهرين)..

(٣) D.R. Khouri, "The Political Economy of the province of Mosul 1700 – 1850", Arab Historical Review For Ottoman Studies, No. 1/2, Tunisia, Jan. 1990, pp. 133 – 4.

(٤) د. سيار الجميل، «الولايات العربية والامبراطورية العثمانية: الحياة الادارية.. الملل والاقليات.. التنظيمات وبروز القوميات» مجلة المستقبل العربي، العدد (١٣٨)، لسنة (١٣)، آب/ اغسطس ١٩٩٠، ص ١٥٢.

(٥) راجع ماكتبه من التفاصيل كل من: محمد هليل الجابري، الحركة العربية في العراق بين ١٩٠٨- ١٩١٤ (اطروحة دكتوراه)، كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٩٨٠؛ ونوري احمد عبدالقادر، الموصل والحركة القومية العربية ١٩٢٠- ١٩٤١، (رسالة ماجستير)، كلية الآداب/ جامعة الموصل، ١٩٨٨.

(٦) التفاصيل في: ذنون الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في اواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني (رسالة ماجستير غير منشورة) كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٠، ص٢٦٨.

(٧) راجع مقارناً المصادر التالية: –
– سليمان فيضي، في غمرة النضال (مذكرات)، بغداد (نشره: عبدالحميد سليمان)، ١٩٥٢، ص١٢١.
– د. وميض نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق. (اطروحة دكتوراه منشورة)، بيروت، ١٩٨٤، ص٩٤- ٩٥.

(٨) من الاهمية بمكان، مراجعة ماكتبه عن رجالات الموصل ومثقفيها القوميين الاوائل كالمؤرخين، سعيد الديوه جي واحمد الصوفي ود. عبدالجبار الجومرد ورؤوف الغلامي ومحمد امين العمري وعبدالمنعم الغلامي وغيرهم.

(٩) انظر شروحات ذلك في: سليمان فيضي، المصدر السابق، صفحات متعددة؛ وراجع تحليلات ونتائج د. ابراهيم خليل احمد، ولاية الموصل: دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨- ١٩٢٢، (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الاداب/ جامعة بغداد، ١٩٧٥، ص١٤٧- ١٥١.

(١٠) التفاصيل في: محمد امين العمري، تاريخ مقدرات العراق السياسية (نشر باسم اخيه محمد طاهر آل المصيب العمري) ج٢، بغداد، ١٩٢٤، ص١٥١- وما بعدها.

(١١) راجع التفاصيل عنهم في: سليمان صايغ، تاريخ الموصل، ج٢، القاهرة، ١٩٢٧؛ ج٣، بيروت، ١٩٥٦ تحت عنوان (نفائس الآثار).

(١٢) من الاهمية مراجعة تفصيلات التاريخ الاجتماعي الحديث للموصل في:
Sayyar K. Al–Jamil, A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-madiya min al-Qurun of Yasin al-'Umari (920-1226 A.H. = 1514/1515 A.D.- 1811/1812 A.D.), vol. I (Introduction and Notes), St. Andrews Univ., Scotland, 1983, pp. 132-143.
وانظر ايضاً: د. سيار الجميل، «الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي ١٧٢٦ – ١٧٣٤»، ملف اعمال المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية. ج١، تونس، ١٩٨٨، ص٢٥٩ وما بعدها.

(١٣) بقي عثمانياً حتى النهاية اذ استوطن استانبول ولم يعد الى العراق، ثم تجنس بالتركية.. وكان له دوره في معاونة الطلبة العراقيين في الكليات العثمانية سابقاً (المعلومات قليلة ومبتسرة عنه: عن اوراق تاريخية خاصة بحوزة الباحث).

(١٤) رشح لعرش العراق وكان ثالث ثلاثة من المرشحين: عبدالرحمن الكيلاني (عن بغداد) وطالب النقيب (عن البصرة) وهادي باشا العمري (عن الموصل) ولكن غدا العرش لفيصل بن الحسين.

(١٥) اخباره وتفصيلات تاريخية ووثائقية عن حياته السياسية البارزة في تاريخ مقدرات العراق السياسية، (سبق ذكره)، ج٢، صفحات متعددة.

(١٦) ويمكننا اعتبار السيد محمد حبيب العبيدي (مفتي الموصل) هو



حصيلة جامعة للاسلوبين الاول والثاني.

(١٧) أبرز دراسة عنه كتبها د. ابراهيم خليل احمد، «داود الملاح ودوره في اثارة الوعي القومي العربي في الموصل» مجلة بين النهرين، العددان (١٨ - ١٩)، الموصل، ١٩٧٧.

(١٨) جريدة نينوى، العدد (٧)، ١٠ شعبان ١٣٢٧هـ ,١٩١٠م).

(١٩) محمد سعيد الجليلي، الاناشيد الموصلية للمدارس العربية، الموصل، ١٩٥٣، ص١٨.

(٢٠) جريدة نينوى، العدد (١٤)، ٢١ رمضان ١٣٢٧هـ (١٩١٠م).

(٢١) جريدة نينوى، العدد (٢٣)، ١٠ ذي الحجة، ١٣٢٧هـ (١٩١٠م).

(٢٢) جريدة نينوى، العدد (١٦)، ٢٠ شوال ١٣٢٧هـ (١٩١٠م).

(٢٣) جريدة نينوى، العدد (١٦)، ٢٠ شوال ١٣٢٧هـ (١٩١٠م).

(٢٤) جريدة نينوى، العدد (١٨)، ٥ ذي القعدة ١٣٢٧هـ (١٩١٠م).

(٢٥) ذنون يونس الطائي، المرجع السابق، ص٢١٨.

(٢٦) عن مقدمة مخطوطة ديوان الشاعر عبدالله راقم افندي واوراق ومجاميع شعرية اخرى (بحوزة الباحث).

(٢٧) محمد احمد المختار، تاريخ علماء الموصل، جـ ٢، الموصل، ١٩٦٢، ص٣٣ ،نقلاً عن الجليلي، الاناشيد الموصلية (سبق ذكره).

(٢٨) محمد سعيد الجليلي، الاناشيد.. ص٢٠، ونقله المختار ايضاً، تاريخ علماء الموصل، ٣٤/٢.

(٢٩) تفصيلات عن حياته في مقدمة ديوان شعره: ذكرى حبيب او ديوان السيد محمد حبيب العبيدي، كتبها احمد قاسم الفخري، الموصل، ١٩٦٦ (وهو جامع الديوان ومحققه)

(٣٠) علي الجميل، اوراق قومية، (مخطوط بحوزة الباحث) فيه تفصيلات عن حياة الرجلين في استانبول، ورقة ١٦٤أ ومابعدها.

(٣١) محمد حبيب العبيدي، خطبة نادي الشرق، الموصل، ١٩١٦، ص٤٩.

(٣٢) سليمان فيضي، في غمرة النضال، (سبق ذكره)، ص١٢٢، ١٢٩.

(٣٣) راجع: د. سيّار الجميل، «حياة محمد حبيب العبيدي وشعره»، جريدة الجامعة، العد (١٧)، (بغداد: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي)، ٣ أيار ١٩٨٩.

(٣٤) راجع تفصيلاته: محمد حبيب العبيدي، جنايات الانكليز، بيروت، ١٩١٦.

(٣٥) احمد محمد المختار، المصدر السابق ٤ جـ٢، ص٥١.

(٣٦) انظر: ديوان شعره (سبق ذكره)، ص١٦٥ - ١٦٦. وراجع الدراسة النقدية المطولة التي كتبها الاستاذ كوكب علي الجميل بعنوان: «اضواء على ذكرى حبيب: دراسة شعر السيد محمد حبيب العبيدي على ضوء النقد الادبي»، جريدة الهدف، الاعداد (٥٢٦ - ٥٣٨). السنة (١٦) الموصل، كانون الثاني - نيسان، ١٩٦٨. كما وكان الاستاذ روفائيل بطي قد كتب عنه فصلاً في كتابه المعروف: الادب العصري في العراق العربي،

(٣٧) من ابرز تآليفه: النواة في حقول الحياة، دمشق، ١٩٣٢. وله ايضاً: حبل الاعتصام ووجوب الخلاقة في دين الاسلام، بيروت، ١٩١٦.

(٣٨) إن أهم ترجمة لحياته هي التي كتبها الاستاذ روفائيل بطي بعنوان: «علي الجميل»، مجلة لغة العرب، ج٢ السنة (٧)، بغداد،شباط، ١٩٢٩، ص١٣٢ ومابعدها.

(٣٩) علي الجميل، اوراق قومية (مخطوط) سبق ذكره، ورقة ١٦٣؛ (نقل عنه ايضاً: ذنون يونس الطائي، المرجع السابق، ص٢٢٨).

(٤٠) المصدر نفسه، وانظر ايضاً: مجلة لسان العرب، المجلد الاول، الجزء الثالث، جمادىٰ الثاني سنة ١٣٣١هـ (مايس ١٩١٣م) الاستانة (نسخ نادرة وبعضها موجود ببغداد بحوزة الاستاذ حسّان علي البازركان).

(٤١) علي الجميل، اوراق قومية (سبق ذكره)، ورقة ٦٥.

(٤٢) طبع في مطبعة سرسم بالموصل ويحتفظ الباحث بنسخة نادرة وحيدة منه.

(٤٣) علي الجميل، التحفة السنية.. (سبق ذكره اعلاه)، ص٣-٤

(٤٤) انظر ترجمته عند روفائيل بطي، المصدر السابق، ص١٣٣؛ وانظر ترجمته ايضاً عند: احمد محمد المختار، تاريخ علماء الموصل، جـ١، الموصل، د.ت، ص٦١ (ارّخت مقدمته في عام ١٩٦١).

(٤٥) صفحات متعددة من مجلة النادي العلمي، العدد (١)، ١٥ كانون الثاني ١٩١٩م.

(٤٦) اعداد متفرقة من جريدة صدى الجمهور، الموصل، ١٩٢٧ - ١٩٢٨.

(٤٧) كما جاء في بيان نعيه الرسمي المنشور في جريدة صدى الجمهور، العدد (١٥٢) في ١٩٢٨/١١/٦.

(٤٨) المصدر نفسه.

(٤٩) ديوان شعر علي الجميل، (مخطوط بحوزة كاتب البحث)؛ وانظر أيضاً: جريدة النجاح (القسم العربي)، عدد (٢٧٢)، جمادى الاولى سنة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م).

(٥٠) خير الدين العمري، من المهد الى اللحد (مخطوط بحوزة عائلته)، جـ١، ص٥.

(٥١) ترجمته الكاملة كتبها صديقه علي الجميل في كتابه: نوابنا في الميزان (مخطوط بحوزة كاتب البحث)، ورقة ١٤.

(٥٢) مراجعة لاعداد متفرقة من جريدة النجاح بقسميها العربي والتركي.

(٥٣) جريدة صدى الجمهور، العدد (١١٥)، ١٦ أيار ١٩٢٨.

(٥٤) مراجعة لاعداد متفرقة من جريدته النجاح (القسم التركي) لسنة ١٩١١ (الاعداد ٣٠- ومابعده).

(٥٥) المصدر نفسه، العدد (٦١) ١٣٣٠هـ (١٩١٢م). وانظر ايضاً: العدد (٥٦) ٤ محرم ١٣٣٠هـ (١٩١٢م).

(٥٦) انظر عنه: محمد هليل الجابري المرجع السابق ص٥٥٢، وانظر



ايضاً: نوري احمد عبدالقادر، المرجع السابق، ص٤١.

(٥٧) راجع ماكتبه د. ابراهيم خليل احمد، «جمعية العلم السرية ودورها في تنامي الوعي القومي العربي في الموصل» مجلة بين النهرين، العدد (٢٦)، سنة ١٩٧٩، ص٢١٢.

(٥٨) انظر: علي جودت، ذكريات ١٩٠٠– ١٩٥٨، ط١، بيروت، ١٩٦٧، ص٣٦.

(٥٩) عبدالمنعم الغلامي، اسرار الكفاح الوطني في الموصل، بغداد، ١٩٥٨، ص٢٢٨– ٢٢٩.

(٦٠) انظر التفصيلات في: د. عمر الطالب، «الدكتور داود الجلبي» جريدة الحدباء، العدد (٤٢٢)، ١١ تموز ١٩٨٩: وانظر ايضاً، ذنون الطائي، المرجع السابق، ص٢٣٩– ٢٤٤. وراجع: مير بصري، اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث، بغداد، د.ت. ص١٦٠.

(٦١) محمد امين العمري. تاريخ المقدرات (سبق ذكره)، جـ١، ص٢٣٥.

(٦٢) وللدكتور داود الجلبي تآليف متعددة فضلاً عن تراجم ومختصرات وفهارس افاد فيها الثقافة التاريخية العربية كثيراً.. وان ابرز اعماله ومخطوطاته تحترز عليها مكتبة الاوقاف العامة بالموصل/ خزانة داود الجلبي.

(٦٣) محمد سعيد الجليلي، الاناشيد (سبق ذكرها)، ص٤١.

(٦٤) تجد اخباره فيما كتبه من مقالات في جريدته «صدى الاحرار» العدد (٢١٥) ومابعده، في ١٠ آب ١٩٥١ (صفحات مطوية..)، وايضاً ماكتبه عنه: عبدالمنعم الغلامي في كتابه اسرار الكفاح.. (سبق ذكره)، ص٣٤– ٣٨.

(٦٥) انظر: ذنون الطائي، المرجع السابق، ص٢٦٦.

(٦٦) محمد امين العمري، تاريخ المقدرات.. (سبق ذكره)، جـ١، ص٢١٩– ٢٢٠.

(٦٧) المصدر نفسه، ١/٢٢٩.

(٦٨) المصدر نفسه، ١/٣١٠ (ومن المهم مراجعة ماكتبه عدد من المؤرخين والساسة والقادة في كتبهم ومذكراتهم ودراساتهم عن احداث الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م).

(٦٩) المصدر نفسه، ١/٢٧٤– ٣٠٠، ١/٣١٠– ٣٢٥.

(٧٠) المصدر نفسه، ١/٢٧٤– ٢٧٩.

(٧١) المصدر نفسه، ١/٣٢٢.

(٧٢) مراجعة دقيقة لمراسلات محمد شريف الفاروقي الرسمية مع الملك الحسين بن علي، وكلّها محررة في كتاب تاريخ مقدرات العراق السياسية، جـ١، ص٢٧٤– ٣٢٥.

(٧٣) انظر عنه: الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦، المملكة العراقية/ بغداد، ص ٩٣٦– ٩٣٧.

(٧٤) تفاصيل تاريخية موسعة عن حياته وادواره السياسية والقومية تجدها في كتاب تاريخ مقدرات العراق السياسية (سبق ذكره)، جـ٢، ص٢٣٥.

(٧٥) المصدر نفسه، ٢/٢٣٢– ٢٣٥.

(٧٦) التفاصيل في تاريخ المقدرات..، جـ٣، ص٣٥٠– ٣٧٢.

(٧٧) جريدة الموصل، العدد (٧٧٣)، في ١٩ شباط ١٩٢٤، ولمزيد من التفاصيل عن حياته الاولى ودوره في الحركة العربية القومية، انظر: علي جودت، ذكريات (سبق ذكره).

(٧٨) علي جودت، المصدر اعلاه، ص٣٠.

(٨٩) المصدر نفسه، ص٥٣– ٦٩.

(٨٠) المصدر نفسه، ص١٠٠.

(٨١) المصدر نفسه، ص.ن.

(٨٢) نقلاً عن اوراق خاصة مخطوطة قديمة بحوزة كاتب البحث.

(٨٣) المصدر نفسه.

(٨٤) محسن الحبيب، الملاح الشاعر، بغداد، ١٩٦٤، ص٢٣– ٢٤

(٨٥) انظر: محمد سعيد الجليلي، الاناشيد الموصلية (سبق ذكره)، ص٦. ومن كراريسه الاخرى: كيف يرقى العراق: بغداد، ١٩٢٤/ خواطر ويوميات، بغداد ١٩٢٥/ من صميم الواقع، القامشلي، ١٩٥٦.

(٨٦) من ابرز الدارسين الذين كتبوا عنه: د. ابراهيم خليل احمد من الناحية التاريخية، و د. عمر محمد الطالب من الناحية الادبية، وغيرهما.

(٨٧) لقد استطاعت السلطات الاتحادية من احباط هذا المشروع قبل تأسيسه لاسباب امنية دينية وليست لاسباب قومية، كما علل ذلك د. ابراهيم خليل احمد في رسالته للماجستير: ولاية الموصل..، (سبق ذكرها)، ص١٥٠– ١٥٢.

نظم الحكم والادارة والجيش

التشكيلات الادارية العثمانية

(٩٢٢–١٣٣٦هـ ١٥١٦– ١٩١٨م)

علي شاكر علي

الادارة العثمانية في الموصل ١٥١٦– ١٨٣٤ :

تعد مدينة الموصل من أولى المدن العراقية التي دخلت تحت السيطرة العثمانية وذلك اثر هزيمة الفرس الصفويين في معركة جالديران ٢٢ آب ١٥١٤م/ ٢ رجب ٩٢٠هـ[1]. اما الجيش العثماني الذي اندفع في العمق الايراني، فدخل تبريز في ٥ ايلول ١٥١٤م. ثم قفل راجعاً الى



اماسيه ، ضمن خطة عسكرية تقوم على معاودة الهجوم على الاراضي الايرانية ، بعد انقضاء فصل الشتاء ، والملاحظة الجديرة بالاعتبار هنا هي سريان روح الثورة والانقضاض على الحاميات الفارسية في كل من ديار بكر والموصل ، واربيل وكركوك ، بمجرد سماع سكانها نبأ الهزيمة المنكرة التي لحقت بقوات الشاه اسماعيل الصفوي في معركة جالديران ، مما يعكس مدى كره السكان للمحتلين الصفويين الذين مارسوا شتى انواع القهر السياسي والديني والاقتصادي ضدهم . لذا فان المحاولة التي قام بها الشاه اسماعيل الصفوي في الأشهر الأخيرة من سنة ١٥١٥ م لاحتلال المدن التي انسحب منها الجيش الصفوي باءت بالفشل ففي اوائل سنة ١٥١٦ م ، بدأت قوة فارسية بالزحف باتجاه ديار بكر بقيادة قره خان ، كما تحركت قوات فارسية نحو ماردين والرُها ، فعادت العمليات العسكرية مرة اخرى ، وكادت القوات الفارسية ان تطبق بالحامية العثمانية في ديار بكر[٢] ، لولا الجهود التي بذلها ادريس البدليسي[٣] بالتعاون مع بيقلي محمد بكلر بكي ديار بكر. وفي مايس ١٥١٦ م ، جرّت المعركة الحاسمة بين الطرفين في سهل قره غين دده Karganded ، بالقرب من قوچ حصار بين اورفة ونصيبين، انتهت بمقتل قائد القوة الصفوية قره خان ، مع عدد كبير من قواده ، كما وقع عدد كبير من الجنود اسرى بيد العثمانيين ، ممن لم يحالفهم الحظ في الفرار من ساحة المعركة .

لقد كانت معركة قره غين دده ، بداية النهاية للنفوذ الصفوي في المنطقة الممتدة من اذربيجان شرقاً حتى حلب غرباً ومن ديار بكر شمالاً حتى كركوك جنوباً بما فيها منافذ تجارية ومدن ذات اهمية استراتجية ، فقد انسحبت منها الحاميات الصفوية خلال الايام القليلة التالية لمعركة ١٥١٦ م ، وللمؤرخ بيچر Pitcher نظرية حول دخول المدن والقصبات تحت السيطرة العثمانية كمدن مكتسبة عسكرية ، وأخرى دخلت بالتتابع ، وخلاصة النظرية هي :

(١) المناطق المكتسبة عسكرياً :

ارجاني ، سيفريك ، باريسيك ، حصن كيفا ، ميافارقين ، سعرد ، ديار بكر ، نصيبين ، الموصل ، حصن سوران ، اورفة ، الرقة ، كركوك .

(٢) المناطق التابعة :

جيرمك ، ارغني ، اتاك ، بدليس ، هزن (ازن) ، اورمايا ، عموم جزيرة ابن عمر ، العمادية[٤] .

والامر الذي لاشك فيه أن المناطق التي استحوذ عليها العثمانيون ، تمتاز بأهمية استراتجية ، خاصة الموصل ، فهي المنفذ التجاري المهم الى الاناضول وحلب والبحر المتوسط ، كما انها منطقة اتصال بين المناطق الجبلية الوعرة والسهول والصحارى التي تبدأ من جنوبها وتمتد حتى الخليج العربي[٥] .

وقد اخذت الاهمية الاستراتجية الاقتصادية والعسكرية تتضّح بشكل اكثر بعد دخول حلب تحت المظلة العثمانية في اعقاب معركة مرج دابق في ٢٤ آب ١٥١٦ ، فأصبحت المنطقة من ديار بكر الى حلب ثم الموصل ، بمثابة حزام الامن للدولة العثمانية التي حرصت طيلة القرون الاربعة التالية لمعركة جالديران على تغذيتها بحاميات عسكرية والوقوف بحزم ضد اية حركة معادية فيها .

(١) التشكيلات الادارية لولاية الموصل :

قبل التطرق الى التشكيلات الادارية العثمانية في الموصل لابد من الاشارة الى أن النظام الاداري العثماني يرتبط ارتباطاً وثيقاً وعميقاً بالنظامين الحربي والاقطاعي العثماني ، ولم يكن هذا النظام يطبق فور دخول المنطقة في المجال العثماني ، بل يطبق بالتدرج فالفترة بين دخول المنطقة تحت السيطرة العثمانية ، وتطبيق التنظيمات تعرَّف « بالفترة الانتقالية في

الأدارة العثمانية» لأن المهم في المرحلة الاولى هو تأكيد وابراز الهوية العثمانية للمنطقة دون تغيير البنى الادارية والاقتصادية والاطر الحياتية[٦].

وفي ضوء ما سبق فان الموصل لم تشهد اية تنظيمات ادارية حتى حملة السلطان سليمان القانوني الى بغداد سنة ١٥٣٤م. اذ استمرت التنظيمات الادارية السابقة كما هي دون تغيير، وقد وضعها حاكم إمارة الاق قويونلوي حسن الطويل، اذ كانت ديار بكر والموصل والرُها، تشكل وحدة ادارية واحدة وبعد قيام ولاية ديار بكر، اتخذت الموصل سمة سنجقّ سنة ١٥١٨م كما تشير دراسة وثائقية عن التقسيمات الادارية الأولى لولاية ديار بكر[٧]، على رأس السنجق مير لواء «سنجق بك». ولعل من المناسب ان نشير هنا إلى انه من الصعوبة قبول رأي المؤرخ النمساوي فون هامر، القائل. ان الموصل اتخذت سمة ولاية في عهد السلطان سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠م) باقتراح من المؤرخ ادريس البدليسي[٨]، لأن الوثائق العثمانية تشير الى حاكم الموصل باعتباره سنجق بك. لا بكلر بكى الذي يرأس الولاية عادةً[٩].

وفي اعقاب حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد ١٥٣٤م، والتي هي استكمال منطقي للسيطرة العثمانية التي شملت شمال العراق ووسطه[١٠]، بدأت التنظيمات الادارية العثمانية تتضح في الموصل في السنوات الثلاثة التالية للحملة المذكورة، ولما كانت طبيعة الموصل الاقتصادية تساعد على تطبيق النظام الاقطاعي العثماني، فضلاً عن قربها من الباب العالي، فقد ارتبطت الولاية الجديدة بالعاصمة العثمانية مباشرةً، شأنها شأن ولايتي ديار بكر وحلب. ويشير احد الباحثين[١١] في دراسة علمية له، الى الأبعاد السياسية والاقتصادية للنظام الاقطاعي، باعتباره اداة مهمة لاحكام ربط البلاد المحتلة بمركز الدولة، ووسيلة لاستثمار خيرات المنطقة لمنفعة الدولة العثمانية، لذا فان التقسيمات الادارية الجديدة لولاية الموصل كما سترد لاحقاً، تتوافق بالضرورة مع الهدف المتوخىٰ من تطبيق النظام الاقطاعي.

فالوثائق العثمانية التي يرجع تاريخها الى سنتي ١٥٣٩ - ١٥٤٠، تشير الى حدود ولاية الموصل على النحو الآتي: من الشمال ولاية ديار بكر، ومن الشرق ولاية شهرزور ومن الجنوب ولاية بغداد، ومن الغرب ولاية الرقة، اما التقسيمات الادارية للولاية فتظهر ولاية الموصل في تلك الوثائق، وهي تشمل ستة سناجق مركزها الموصل، وهي اسكي موصل وتكريت وزاخو وعانة وكشاف. وهذا التقسيم، يمثل التقسيم الاداري الاول للولاية[١٢].

والملاحظة المثيرة للانتباه هنا أن المتتبع للمصادر والوثائق العثمانية التي يرجع تأريخها الى النصف الثاني من القرن السادس عشر، يلاحظ الاشارة الى الموصل بكونها الى لواء لا ولاية «ايالة»[١٣]، تابع لولاية بغداد، مما يدفعنا الى الاعتقاد بأن قيام ولاية الموصل كان حالة مؤقتة، ثم ادمجت ضمن ولاية بغداد. غير ان تطور الاوضاع في شهرزور لغير صالح الدولة العثمانية سنة ٩٥٩هـ، اذ شهدت المنطقة اضطرابات واسعة بتشجيع وتغذية من الدولة الصفوية، فعرض والي بغداد محمد باشا الامر على الباب العالي[١٤]، ويشير مأمون بك بن بيگه بك الى ان احد القواد العثمانيين في العاصمة اقترح على الصدر الاعظم رستم باشا تقسيم ولاية بغداد الى نصفين، كأجراء اداري للحيلولة دون اضطراب اوضاع شهرزور. كما تعّهد للصدر الاعظم بالاستيلاء على شهرزور اذا ما تولى نصف ولاية بغداد «فاذا اردتم الاستيلاء على ولاية شهرزور، فقسموا ولاية بغداد نصفين، وانعموا على هذا العبد، بنصف منها، كما كان تحت تصرف غازي خان - فأنني اتعهد ان افتح شهرزور»[١٥]. وقد صدر الامر «الفرمان» السلطاني بـ «فرز نصف ولاية بغداد، واعطائه اياه، مع منصب أمير امراء وعشرة



آلاف آقجة من الخواص الهمايونية على ان يسكن لواء الموصل»[16].

في الواقع ان النص المذكور يكشف حقيقة مهمة ظلت غائبة عن المؤرخين الذين تصدوا لدراسة تاريخ العراق العثماني، كما يميط اللثام لأول مرة عن طبيعة وابعاد الادارة العثمانية في النصف الثاني من القرن السادس عشر. ويعتقد ان الوضع الاداري للموصل ظل كما هو حتى ارتقاء السلطان مراد الثالث العرش (١٥٧٤ - ١٥٩٥م) حيث تمت اعادة النظر في وضعية الولايات العثمانية برمتها في ضوء التطورات السياسية المستجدة[17]، فرجعت الموصل مرة اخرى كولاية قائمة بذاتها، تشمل على السناجق: باجوانلو و هارون و بانه، وأسكي موصل، كما هو واضح في قائمة عيني علي افندي، امين الدفتر الخاقاني ١٦٠٩م[18] غير ان التقسيم الاداري لولاية الموصل لم يبق ثابتاً، بل ظل يتمدد او يتقلص حسب الظروف السياسية السائدة، وهذا ما يفسّر لنا سبب اختلاف المصادر في تحديدها للتقسيمات الادارية لولاية الموصل، فالجغرافي العثماني كاتب جلبي، يذكر سناجق الموصل بانها ستة: «اسكي موصل وتكريت وهارون وباجوان والموصل (مركز الولاية»[19]. والملاحظة المثيرة للتأمل تبعية تكريت لولاية الموصل، بعد ان كانت ضمن ولاية بغداد، وقد يكون الدافع لالحاقها بالموصل، هو الاحتلال الصفوي لبغداد سنة ١٦٢٣م أما قائمة الرحالة التركي اوليا جلبي، الذي زار العراق في النصف الثاني من القرن السابع عشر، فانها تتفق مع ماذكره كاتب جلبي، غير انه يضيف قرهداسني وبوداسني (قرى يزيدية)[20]. مما يفهم منه استحداث سنجق جديد، بهدف تشديد قبضة الدولة على هذه المنطقة التي عرفت بعدم استقرار اوضاعها السياسية طيلة الفترة العثمانية.

الجهاز الاداري في الولاية:

كان على رأس الجهاز الاداري في الولاية هو الوالي، ومنصبه من ارفع المناصب، وهو حسب التقليد الاداري العثماني يكون الوحيد في المنطقة الادارية يتمتع بمنصب بكلر بكي، ويلقب ايضاً بـ «مير ميران» امير الامراء، باعتباره رئيساً لأمراء الالوية «لواء»، ويحق له رفع علم عليه طوغان[21]، دلالة على مركزه. في حين كان حكام السناجق، يحملون طوغاً واحداً، كما كان لوالي الموصل حق حضور الديوان السلطاني في اثناء وجوده في العاصمة العثمانية.

ومن الناحية النظرية، فان من اولى واجبات الوالي، ضمان استمرار ولاء الولاية للدولة العثمانية، والعمل على كبح واعز التمرد او الثورة في الولاية ورفع تقارير الى السلطان عن سيّر الامور في ولايته[22]، فضلاً عن تنفيذ الاوامر السلطانية في الاشتراك بالحملات العسكرية، وبقدر تعلق الأمر بالنقطة الاخيرة، فان الموقع الجغرافي للمدينة اضفى عليه اهمية استراتيجية من الناحية العسكرية جعلتها تتحمل اعباء تزويد الحملات العثمانية بالمؤن والذخيرة فضلاً عن حصتها من المقاتلين، كما ان هذه الحملات، خاصة المكلفة منها بالتوجه نحو بغداد، او شهرزور، كانت تعسكر فيها، لاعادة تنظيمها، او لمناقشة الخطط القتالية المطلوبة، وازاء اشتداد الصراع العثماني - الفارسي في النصف الاول من القرن السادس عشر، في اعقاب حادثة بكر صوباشي ١٦٢٣م، والحملات الاسترجاعية العثمانية ١٦٢٥، ١٦٢٨، ١٦٣٨[23] جعلت دائرة واجبات الوالي في الولاية تتسع فبالاضافة الى اشتراكه شخصياً في الحملة باعتباره حائزاً على اقطاع، كان عليه تهيئة الترتيبات لاستقبال افواج الحملة. وقلما نجد حملة عسكرية دائرة نشاطها الأراضي العراقية او الولايات المجاورة ليس فيها والي

الموصل، وقد ظلت الموصل تتحمل عبء تهيئة الاجواء المناسبة لكل الحملات العسكرية طيلة الفترة العثمانية تقريباً.

أما عن الولاة الذين تعاقبوا على حكم الموصل، بعد دخولها في المجال العثماني فليست لدينا اية معلومات عنهم طيلة الفترة الممتدة من سنة ١٥١٦ حتى ١٥٩١م حيث تبدأ السالنامات العثمانية [٢٤]، بذكر حكام الموصل، وهم ينتمون الى جنسيات مختلفة وممن خدموا في الولايات المجاورة مثل حلب، وديار بكر، وشهرزور، فعركتهم ظروف هذه الولايات، وعمقت من خبرتهم ومعرفتهم بشؤون المنطقة. ومن متابعتنا للسالنامات العثمانية لاحظنا ان خمسين والياً تعاقب على حكم الولاية خلال الفترة (١٥٩١- ١٦٥٤م) لم يكن بينهم إلا اثنان من السكان وهما بكر باشا الموصلي (١٦٢٥- ١٦٣٥) وداسني ميرزا باشا (١٦٥٠-١٦٥١م)[٢٥] والاستعانة بهما، جاءت في ظل احتدام الصراع العثماني- الفارسي كما هو معروف. والملاحظة المثيرة للتأمل في هذا المجال هي استعانة الدولة العثمانية بعد سنة ١٦٨٣ [٢٦]، بولاة من سكان الولايات العربية بصورة عامة، وولاية الموصل بصورة خاصة. وان تعليل هذا الاهتمام لايحتاج الى عناء كبير، فتوقف النشاط العثماني في الجهات الاوربية، اولاً، والمتغيرات الاجتماعية [٢٧] التي اجتاحت البادية الشمالية والتي شكلت خطراً جدياً على ولاية الموصل ذات الاهمية الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية، كلها تفسر سبب هذا الاهتمام، وفي ضوء ماسبق جاء قدوم علي (عرب علي باشا)، الى حكم الموصل سنة ١٦٨٣ حتى ١٦٨٧م، حيث عزل، ثم جاء مصطفى باشا وهو برتبة وزير حتى سنة ١٦٩٧ فأعقبه في الحكم عرب علي للمرة الثانية ١٦٩٧ [٢٨]. وعلى اية حال، فان المدينة شهدت سرعة في تغيّر الولاة حتى سنة ١٧٢٦م حين بدأ الحكم الجليلي.

كان يأتي بعد الوالي في سُلم الجهاز الاداري، المتسلّم، فهو نائب الوالي ووالي الولاية وكالةً في حالة غياب الاول، كما كان المتسلّم هو الذي يشرف على شؤون الولاية عند وفاة الوالي، الى ان يتم تعيين والٍ جديد، ان لم يُقرّ في المنصب، ومن الجدير بالذكر ان تعيين المتسلم كان يتم من قبل الوالي دون الرجوع الى العاصمة العثمانية.

ويرتبط بالوالي عدد كبير من الموظفين وفي المقدمة منهم، كتخدا (الكخيا)، وهو اشبه مايكون، بما يعرف اليوم بمدير مكتب، كما كان له حق مساعدة الوالي للعمليات العسكرية والسياسية، وعليه ان يرفع تقريراً، بما يجري في الولاية، ثم يأتي (المكتوبجي)، كاتب الرسائل، والمهردار (حامل الاختام) (والخزنة دار) امين الصندوق، وسلاحدار (المسؤول عن الاسلحة)، واحتشامات اغاسي (رئيس التشريفات) و (ميراخور) رئيس الاسطبل ومتوجلر اغاسي (الحاجب) والرونامجي (كاتب الوقوعات اليومية)[٢٩]، ويرد ذكر ديوان الانشاء ضمن الجهاز الاداري في الفترة الجليلية (١٧٢٦- ١٨٣٤) واغلب الظن ان هذا الديوان حل محل دائرة الرونامچي وكان يضم عدداً من خيرة ادباء المدينة وكتابها، والذين عرفوا بحسن الخط والدراية بانواعه [٣٠].

أما الادارة في السناجق فكانت بسيطة. فعلى رأس السنجق «سنجق بك» المسؤول عن حفظ الامن والنظام في منطقته، وارسال ماعلى سنجقه من تعهدات مالية، فضلاً عن استنفار الفرسان للتوجه الى جبهات القتال، بالتنسيق مع (آلاي بيك)[٣١]، ويعاونه في اداء مهمته (الصوباشي) وهو اشبه مايكون في الوقت الحاضر بضابط الشرطة.

في الواقع أن التطورات السياسية في العقدين الاول والثاني من القرن الثامن عشرّ، على



الصعيدين الخارجي والداخلي في الدولة العثمانية ، والتي تمثلت في تفاقم الاوضاع في ايران ، ودخول الدولة العثمانية طرفاً في الصراع الدولي[٣٢] باحتلالها اقليم كرمنشاه ، ثم اضطراب احوال الولايات العربية ، وعلى كافة الاصعدة الاقتصادية والسياسية وغيرها جعلت الدولة تعيد النظر في طبيعة الادارة ، بشكل عام ، فأقرت حكم الاسر المحلية في بعض المناطق ، او الولايات ومنها ولاية الموصل ، حيث بدأت فكرة حكم الأسرة الجليلية ١٧٢٦–١٨٣٤» حيث يحلو لبعض من المؤرخين نعت ادارتها بالادارة الاقليمية – الجليلية[٣٣] او فترة الحكم المحلي[٣٤] ، في ضوء تقويمهم للامر الواقع .

لقد استمرت التنظيمات الادارية العثمانية في ولاية الموصل خلال فترة حكم الولاة الجليليين ، وكان اولهم اسماعيل باشا الجليلي ، وتسلسل في الحكم من ابناء الاسرة الجليلية ستة عشر والياً حتى سنة ١٨٣٤ م ، ويشير احد الباحثين الى ان «طبيعة الادارة في ولاية الموصل ، كانت ترتبط بالسلطة المركزية العثمانية ارتباطاً قوياً في بداية الحكم الجليلي» غير أن الادارة في الموصل بدأت تتأثر كثيراً بالسياسة التي انتهجها مماليك بغداد (١٧٤٩ – ١٨٣١ م) والقائمة على اساس مد نفوذهم على ولايات اخرى ، بعد هيمنتهم على ولاية بغداد ، دون ان يعني هذا بالضرورة سياسة من اجل توحيد العراق باكمله ، فالعراق هو مجال لممارسة السلطة ، وليس هدفاً بحد ذاته ، ومن الراجح أن الولاة المماليك كانوا يتطلعون نحو الموصل والبصرة وغيرها لدفع بعض الشخصيات المملوكية المنافسة ، لهم ، وهذه حقيقة تشير إليها معظم المصادر المتوافرة[٣٥] .

وفي ضوء ماسبق ، حاولت حكومة بغداد المملوكية ، مد نفوذها سنة ١٧٧٨ م بتعينها حسن باشا الذي كان والياً على بغداد ، غير ان ذلك لم يستمر طويلاً ، اذ سرعان ، مارجع الحكم الجليليين ، ومن المعتقد أن السبب الذي يكمن في تخلي سلطة بغداد عن محاولتها ، هو الاستعداد العثماني لطرد الفرس من البصرة المحتلة منذ سنة ١٧٧٩ م[٣٦] ، وقد تكررت المحاولة مرة ثانية ايام حكم داوْد باشا (١٨١٧ – ١٨٣١) ، اذ اجتمع لمماليك بغداد نفوذ قوي في الموصل ، بعد الثورة الشعبية التي نشبت ضد الأسرة الجليلية الحاكمة ، غير ان هذه المحاولة باءت بالفشل ايضاً .

ومهما يكن من أمر، فقد انطوت صفحة المماليك في بغداد سنة ١٨٣١ م ، وبعد ثلاث سنوات ١٨٣٤ م ، انتهى حكم الجليليين في الموصل ، في اطار المحاولة العثمانية ، لتصفية الكيانات السياسية المحلية في الولايات العربية ، كخطوة اولية لتطبيق السلطة المركزية وبمفاهيم جديدة. املتها ظروف النصف الاول من القرن التاسع عشر الميلادي . والملاحظة الجديرة بالاعتبار هنا ان الدولة العثمانية سلكت سياسة جديدة تجاه ولاية الموصل. ألا وهي الاعتماد على ولاة من سكان المدينة (الموصل) . فتم تعيين محمد سعيد آل ياسين في ولاية الموصل (١٨٣١) ثم محمد اينجه بيرقدار (١٨٣٥ – ١٨٤٣) الذي اول من حاول ادخال التحديث في المدينة باعتماده سياسة اصلاحية[٣٧] تحول المؤسسات الادارية الى مؤسسات خدمية ، ولم يكن مرّد اعتماد الدولة العثمانية على ولاة محليين رغبة السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٧ – ١٨٣٩) نقل السلطة الى السكان ، بقدر ماكانت الظروف السياسية المضطربة سواء في العراق او التطورات المستجدة في بلاد الشام تتطلب اجراءً من هذا القبيل.

التنظيمات الادارية العثمانية الجديدة وتطبيقاتها في الموصل ١٨٧٩–١٩١٨ :

اصدرت الدولة العثمانية خلال الفترة الممتدة من ١٨٣٩ حتى ١٨٧٦ م ، عدة مراسيم وقوانين ،



استهدفت وقف التداعي والانهيار في الدولة والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة [٣٨] ، وذلك باعادة النظر في كافة القوانين القديمة . التي لم تعد تلبي متطلبات العصر، وبقدر تعلق الأمر بالادارة ، فقد نظم قانون ١٨٦٤ م والذي يعرف بـ « قانون الولايات » [٣٩] الهيكل الاداري الجديد للدولة العثمانية ، غير ان هذا القانون لم يطبق في العراق الا بعد مجيْ مدحت باشا الى حكم بغداد ١٨٦٩ – ١٨٧٢ م ، حيث شرع بعد ايام تولية تطبيق القوانين الاصلاحية ومنها قانون الولايات ، فقسم العراق الى ثلاث ولايات هي بغداد والموصل والبصرة . فاصبحت حدود ولاية الموصل تمتد الى ولايتي وان وديار بكر من الشمال ، ومملكة فارس (ايران) من الشرق ، وسنجق دير الزور من الغرب ، وولاية بغداد من الجنوب [٤٠] .

أما التشكيلات الادارية في ولاية الموصل بعد سنة ١٨٧٩ م ، فقد ضمت ثلاثة الوية ، وسبعة عشر قضاءً ، وبالصورة الآتية :

اولاً : لواء الموصل :

١ – قضاء الموصل (مركز لواء) ٢ – قضاء العمادية
٣ – زاخو ٤ – دهوك ٥ – عقرة ٦ – سنجار .

ثانياً : لواء كركوك :

١ – مركز اللواء كركوك ٢ – قضاء راوندوز
٣ – اربيل ٤ – كفري (صلاحية) ٥ – كويسنجق
٦ – رانية .

ثالثاً : لواء السليمانية :

١ – مركز اللواء سليمانية ٢ – قضاء كل عنبر
٣ – قضاء بازيان ٤ – شهربازار ٥ – مركه
٦ – الجاف .

وكانت الاقضية تشرف على النواحي (ناحية) التابعة ، وليست لدينا معلومات كافية عن اسماء النواحي التابعة للالوية التي كونت ولاية الموصل في اعقاب اول تقسيم اداري للمنطقة ، غير ان السالنامات العثمانية الصادرة في مطلع القرن العشرين توضّح بشكل جليّ عدد النواحي والاقضية التابعة للالوية التابعة لولاية الموصل ، فالتقسيمات الادارية للولاية ، كما وردّت في سالنامة سنة ١٩٠٩ م / ١٣٢٧ هـ . كانت على النحو الآتي :

	اللواء	القضاء	الناحية	القرية
ولاية الموصل	لواء الموصل	الموصل	شيخان ، عشائر سبعة	٥٠٦
		العمادية	داودية ، برواري	—
			بالا ، برواري زيد ،	—
			ريكان ، نيرو	—
		زاخو	——	١١٠
		دهوك	مزوري	٢١٥
		عقره	الزيبار	١٣٢
		سنجار	تلعفر	—
	لواء كركوك (التأميم حالياً)	كركوك	ملحة ، داقوق ، التون كوبري ، كيل شوان .	٣٤٨
		راوندوز	ديره حرير ، بالك برادوست شيروان .	٢٨٣
		كوى سنجق	شقلاوة	١٢١
		رانية	——	٩٠
		اربيل	سلطانية ، ديزه يي	٢٣٠
		الصلاحية (كفري)	قره تبه ، طوز خورماتو	٩١
	لواء السليمانية	السليمانية	قره طاغ	١٣٩
		گل عنبر	اليجة ، سروجك ، قزلجة	٤٧٢
		معمور حميد	قلعة ديزه ، سوركاش مركة	١٣٧
		بازيان	قلعة سبوكة ، سنكاو	١٥٩ وسبعة عشائر
		شهر بازار	سنك ، ماوث (ماوت)	—
المجموع	٣	١٤	٣٣	١٣٢٠٧ [٤١]

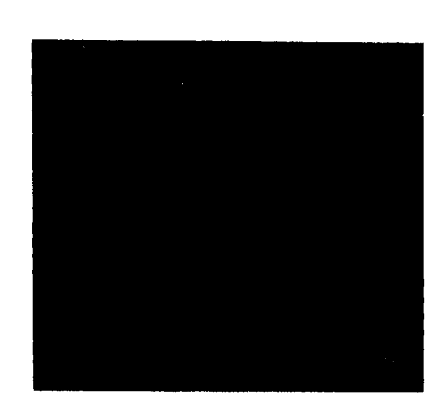


أما الجهاز الاداري في الولاية فقد حدّد قانون ١٨٦٤م طبيعة التشكيلة الادارية في الولاية والاجهزة والمؤسسات الادارية في كل منطقة، وصلاحيات وواجبات مسؤول المنطقة، وشكل العلاقة بين الادارة والسكان. فقد كان الوالي هو المسؤول الاداري الأول في الولاية، وواجباته تنحصر في رئاسة مجلس الولاية، وتنفيذ اوامر العاصمة العثمانية، والعمل على كبح جماح اية نزعة او حركة معادية للسلطة، كما ان الوالي هو الذي يشرف على الشؤون المالية والعسكرية في منطقته، ويرتبط لهذا الغرض جهاز اداري مالي يضم معاونه، والدفتردار (المسؤول عن الشؤون المالية) والمكتوبجي (المسؤول عن المراسلات الرسمية، ورئيس ديوان التمييز. وهؤلاء الاربعة يشكلون اركان الولاية [٤٢].

ان المجلس العمومي للولاية، والذي شكّل في ضوء قانون ١٨٦٤م كان يعقد اجتماعاته لمدة اربعين يوماً، وبرئاسة الوالي، و(١٢) عضواً بواقع اربعة اعضاء عن كل لواء، وقد اجاز القانون أن ينوب الوالي في رئاسة المجلس احد كبار الموظفين، ممن عُرِفَ بالنزاهة والكفاءة. كان على المجلس العمومي، من الناحية النظرية، العمل على رفع المستوى الاقتصادي والثقافي والتعليمي في الولاية، ورفع المقترحات الى العاصمة العثمانية لاقرارها، من هنا فقد كان دور المجلس استشارياً. أما الادارة في الأقضية والنواحي والقرى، فقد شكلت فيها مجالس ـ ادارة ضمت اعضاء اصلاء، وآخرون يمثلون السكان، وكان مسؤول الوحدة الادارية هو رئيس المجلس بطبيعة الحال، أما المجالس القروية فقد كانت تعرف بمجالس (الختيارية) ايضاً، اي مجلس كبار السن، ويضم مجلس كل قرية عدداً من الاعضاء المنتخبين يتراوح عددهم بين (٣ – ١٢) شخصاً [٤٣] حسب نسبة عدد السكان في القرية، ومدة العضوية في المجلس سنة واحدة، وقد اجاز القانون انتخاب بعضهم مدى الحياة، أما واجبات مجلس الختيارية فهي رفع المقترحات الى مدير الناحية، بشأن الخدمات التي تحتاجها القرية، مثل فتح الطرق وتشييد الجسور، كما نصّ قانون الولايات على ان من واجبات هذا المجلس احاطة المنطقة الادارية التابعة لها القرية علماً بالمتغيّرات الاجتماعية كالوفاة والولادة، ويكون واسطة الاتصال على الاكثر هو مختار القرية، الذي كان عليه ايضاً مساعدة موظفي الولاية في جباية الضرائب وملاحقة المطلوبين للسلطات المحلية، ولعل من المناسب ان نشير هنا الى ان تكليف الاشخاص للعمل مختارين في كل قرية او حي في كل قضاء، كان شيئاً جديداً على الادارة العثمانية في العراق، برغم وجود مختارين في احياء اسطنبول، يقومون بتبليغ الأوامر السلطانية منذ عام ١٨٢٦م [٤٤].

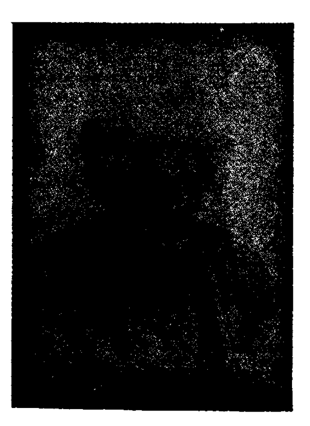
وعلى اية حال، فانه في ظل العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في القرى العراقية في العهد العثماني، والمهمات المطلوبة من الادارة، تأديتها تجاه السلطة المركزية خاصة المتعلقة بجباية الضرائب وحصة الدولة من الاموال، لنا ان نتصور الدور السلبي الذي نهض به بعض المختارين، خاصةً اذا كوّن لغة مشتركة مع المسؤول الاداري في المنطقة.

وفي ضوء تطبيقات قانون الولايات ١٨٦٤م، فقد تشكلت في الولايات العراقية دوائر بلدية، وبقدر تعلق الامر بولاية الموصل، فان بلديتها التي تأسست ١٨٦٩ هي اقدم دائرة بلدية في العراق [٤٥]. وتشير سالنامة الموصل لسنة ١٩١٢ ان بلدية الموصل كانت تضم مهندس البلدية المشرف على تخطيط الشوارع والتصميم العام للمدينة، وطبيب المدينة، والذي يسأل عن احوال المدينة الصحية. ويشرف على المجازر ومايباع في السوق من لحوم وفواكه وغيرها، وامين الصندوق وكاتب،



• البناية القديمة لبلدية الموصل.

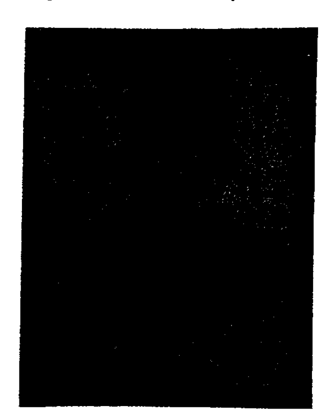
وهؤلاء الاربعة يمثلون السلطة في الولاية وهم اعضاء رسميون ، أما الاعضاء الآخرون ، فينتخبهم السكان، بشرط ان يكونوا من اصحاب الاملاك، لذا فهم لايتسلمون رواتب من الولاية، ويكون تعيين رئيس البلدية عادة من صلاحيات الوالي. وفي الواقع أن حجم منجزات بلدية الموصل ارتبط الى حد كبير بشخص الوالي ورئيس البلدية ، ومدى حماستها في انجاز ماتحتاجه المدينة من خدمات بلدية . ففي الوقت الذي لا نجد اية اشارة الى قيام البلدية ، بأي عمل خلال فترة رئاسة كل من



• الحاج سليم الدباغ (رئيس بلدية الموصل وكالة ١٩١٣م).

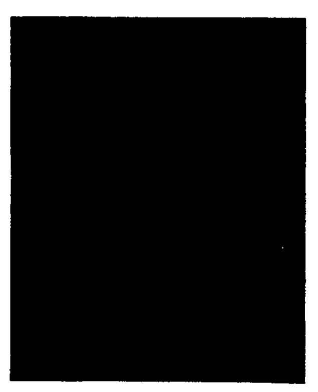
الحاج يونس المفتي ، التي امتدت بين سنتي ١٨٧٣– ١٨٧٧ ويونس الفخري ١٨٧٧– ١٨٧٨م ، نجد اضطلاع البلدية باعمال كبيرة خلال فترة رئاسة يونس آل الجليلي ١٨٧٨– ١٨٨٢م منها انشاء بعض الحوانيت وفتح بعض الشوارع في المدينة ، وحفر القساطل في المناطق المنخفضة وذلك لتصريف المياه في موسم الشتاء. وفي الفترة ١٨٨٢– ١٨٨٧م تولى رئاسة البلدية سليمان بن عبدالرحمن ، ولم تقم البلدية بأي عمل ، في حين قامت بلدية الموصل في فترة رئاسة حسن العمري ١٨٨٧– ١٨٩١ بعدة اعمال ، انعكست على اوضاع المدينة الجمالية والثقافية منها ، انجاز بناية دائرة البلدية ودائرة المحكمة الشرعية ، ودائرة الجندرمة ، كذلك انجاز مشروع للنقل بالعربات في مدينة الموصل ، كذلك انشاء دار للضيافة وكما ساهمت البلدية في التخفيف عن كاهل السكان اعباء الازمة الاقتصادية ، بسبب القحط والجدب الذي حل ، وذلك باستيراد الحنطة من الخارج.

وفي فترة رئاسة سعيد بن قاسم اغا آل سعرتي ١٨٩٨– ١٩٠٤م انجزت بلدية الموصل عدة

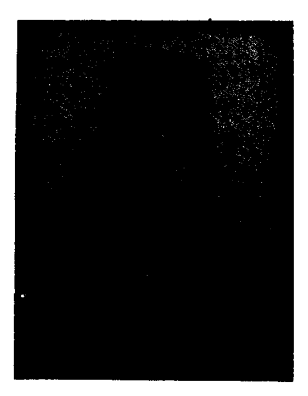


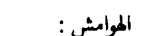
• حسن العمري رئيس البلدية للفترة من ١٨٨٧–١٨٩١ م.





صالح السعدي رئيس البلدية سنة ١٩١٢.





محمود بك آل شريف بك

مشاريع مهمة، تركزت على الجانب الصحي والمهني والامني منها: نقل معمل الدباغة الاهلي وكذلك المجزرة من داخل المدينة الى اطرافها، كما تم انشاء مستشفى جديدة ومدرسة للصناعة فضلاً عن اضاءة المدينة بالمصابيح النفطية، وكما قامت بلدية الموصل في فترة رئاسة محمود بك آل شريف آل المفتي ١٩٠٤ – ١٩٠٨م بتشييد بناية مدرسة اعدادية الموصل وفتح شارع رئيس امامها(٤٦) يعرف الآن بشارع العدالة(٤٧).

ونخلص في كل ما سبق الى القول بان التنظيمات الادارية، باعتبارها وسيلة من وسائل السلطة المركزية لبسط نفوذها قد عكست الوظيفة العسكرية والاقتصادية المطلوبة من الولايات التابعة للدولة العثمانية اداءها في المرحلة الاولى من التنظيمات الادارية العثمانية في ولاية الموصل، لذا يبقى الطابع التعسفي للادارة امراً وارداً في هذا المجال، في حين حاولت التنظيمات الادارية في المرحلة التالية ١٨٧٩ – ١٩١٨ ان تعكس بعض الابعاد الايجابية، ولو في حدود المسائل النظرية للسياسة العثمانية خاصة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

الهوامش:

(١) Edward S. creasy. History of the ottoman Turks (Ney York 1877) PP. 123 – 5.

(٢) انظر عن فترة مابعد جالديران:
Sevket Beysan oglu. Kisaltilmis, Diyarbakir Tarihi ve Abideleri). Diyarbakir Tanitma Dernigi Nesriyati. No. 11. Tarih ve Cografya Takimi. SS. 80 – 3.

(٣) عن الدور المهم الذي لعبه ادريس البدليسي في تصفية النفوذ الصفوي في المناطق الكردية في شمال العراق. انظر: عبدالعزيز قره جلبي. روضة الابرار المبين بحقائق الاخبار (بولاق ١٢٤٨هـ). ص ٢٠٤ ومابعدها. والبدليسي من المؤرخين العثمانيين الاكراد اللذين لمع نجمه في عهد السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ – ١٥١٢م)، المعروف بزهده وحبه للشيوخ والمتصوفين، فألّف له كتاباً سماه «هشت بهشت» اي «الجنان الثماني» وهو كتاب في التاريخ العثماني، وبعد اعتلاء السلطان سليم الاول العرش ١٥١٢ – ١٥٢٠م) عينه مساعداً له لادارة المناطق الكردية. لما كان يتمتع به البدليسي من احترام ومكانة رفيعة عند الاكراد باعتباره عالماً متبحراً في العلوم الدينية. توفى سنة ١٥٢١م. انظر. ترجمته في: بروسه لى محمد طاهر: عثمانلي مؤلفلرى – اسطنبول – مطبعة عامره ١٣٤٢هـ. ج٣. ص ٦ – ٧.

(٤) D. E. Pitcher. An Historical Geography of the ottoman empire. (leidin – Brill. 1972). P. 103 انظر كذلك دراسة د. سيار كوكب الجميل. السيطرة العثمانية على الموصل والجزيرة سنة ١٥١٦م. مجلة بين النهرين. السنة الثامنة. العدد ٣٠ لسنة ١٩٨١. ص ٣٢٤.

(٥) روبرت دَبليُو. اولسن. حصار الموصل والعلاقات العثمانية

الفارسية (١٧١٨ - ١٧٤٣). ترجمة عبد الرحمن الجليلي. (دار العلوم السعودية ١٩٨٣). ص ٥١.

(٦) انظر بحثنا: التنظيمات الادارية العثمانية في ايالة البصرة. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. الكويت. العدد ٣٥ لسنة ١٩٨٣ ص ١٢٨.

(٧) نجاة كويونج، «التقسيمات الادارية الاولى لمركز ديار بكر» مجلة كلية الاداب التاريخية. انقرة العدد ٢٣ اذار ١٩٦٩. ص ٣١ نقلاً عن اولسون، المصدر السابق ص ٩٤.

(٨) فون هامر، دولت عثمانية تاريخي. مترجمي. محمد عطا. دار الخلافة العلية. ١٣٣٥. ج ٤، ص ١٧٧.

(٩) حسين محمد القهواتي، العراق بين الاحتلالين العثماني الاول والثاني (١٥٣٤ - ١٦٣٨ م) رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الاداب. جامعة بغداد ١٩٧٥. ص ص ٣١٣ - ٣١٤.

(١٠) في الواقع، ان الاعتبارات التي دفعت الدولة العثمانية الى تجريد حملة ١٥٣٤ م تكمن في الرغبة في فرض السيادة الفعلية على طرق التجارة المهمة امثال طريق الحرير الذي كان يسير من تبريز الى ارضروم Erzuram وطوقات Tokat وبورصه Bursa وطريق التوابل Spice route الذي كان يمتد من البصرة الى بغداد وحلب، لذا فان دخول بغداد في الطوق العثماني هو استكمال منطقي لأمتداد النفوذ العثماني الى سوريا ومصر ١٥١٦ - ١٥١٧ م. انظر: صالح اوزبران. الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي. ترجمة: د. عبد الجبار ناجي. البصرة ١٩٧٩. ص ٢٧.

(١١) لمزيد من التفاصيل عن تطبيقات النظام الاقطاعي في ارجاء اخرى من المشرق العربي. د. عماد احمد الجواهري. الاوضاع الاقطاعية في فلسطين في العصر الحديث. (بغداد ١٩٨٣) ص ٤٥ ومابعدها.

(١٢) Bas vekalet Arsivi, istanbul. Tapu defteri. No. 195. نسخة مكتبة الدراسات العليا - كلية الاداب. جامعة بغداد.

(١٣) انظر عن ذلك. مذكرات مأمون بك بن بيگه بك. نقلها الى العربية وعلق عليها. محمد جميل الروژبياني وشكور مصطفى. (مطبعة المجمع العلمي العراقي. بغداد ١٩٨٠) ص ٧٣ والصفحات اللاحقة، ومما تجدر الاشارة اليه ان مذكرة مأمون بك امير اردال تضم عدة وثائق عثمانية، تكشف طبيعة العلاقة بين الاردلانيين والدولة العثمانية.

(١٤) عن اسباب اضطراب الحالة السياسية في شهرزور: انظر. مرتضىٰ نظمي زادة: كلشن خلفا. نقله الى العربية. موسى كاظم نورس. (النجف الاشرف. لا. ت) ص ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(١٥) مذكرات مأمون بك بن بيگه بك. ص ٧٤.

(١٦) المصدر السابق نفسه ص ص ٧٤ - ٧٥.

(١٧) نشر المؤرخ الاقتصادي التركي عمر لطفي بركان مجموعة القوانين الاقتصادية والقانونية التي صدرت في عهد السلطان مراد الثالث في مجلدين للاستزادة انظر:
Omer Lutfi Barkan. XV ve Xvi irri Asirlarda osmanli imparator ingunda, zirai,Ekonominin ve muli esaslari. Birinci. cilt.. Kanunlar. Burhan. matbues. Istanbul. 1943.. P. 173 – 174.

(١٨) ساطع الحصري. البلاد العربية والدولة العثمانية. الطبعة الثالثة. (بيروت ١٩٦٠) ص ١٤١.

(١٩) ان اهمية القائمة التي يذكرها كاتب جلبي تكمن في كونه احد الاشخاص الذين رافقوا الحملة حملة الصدر الاعظم خسرو باشا سنة ١٦٢٩ م لاسترجاع بغداد من الفرس. انظر: مصطفى ابن عبد الله كاتب جلبي: جهانما كتابي. (القسطنطينية ١١٤٥ هـ). ص ٤٣٦.

(٢٠) محمد ظلي بن درويش اوليا جلبي: اوليا جلبي سياحتنامه سي. (اقدام مطبعة سي استانبول ١٣١٤ هـ). ج ١. ص ١٨٧.

(٢١) الطوغ: او التوغ Tugh: شعار تركي قديم يتكون من علم ابيض تعلوه خصلة شعر (ذيل حصان)، يحمل في اوقات الحرب، فكان لبكوات السناجق الحق في رفع طوغ واحد في حين لبلكربكي، الحق في حمل طوغين، اما حكام الولايات من هم برتبة وزير فلهم حق رفع ثلاثة اطواغ، انظر: هاملتون جب. وهارولد بوون. المجتمع الاسلامي والغرب. ترجمة. احمد عبد الرحيم مصطفى. القاهرة ١٩٧١. ج ١. ص ١٩٧.

(٢٢) علي شاكر علي: تاريخ العراق في العهد العثماني. (بغداد ١٩٨٤). ص ص ٢٥ - ٢٦.

(٢٣) عن اشتراك ولاة الموصل في الحملات انظر: علي شاكر علي، المرجع السابق. ص ص ٤٥ - ٦٠.

(٢٤) السالنامة: كلمة مركبة من سال بمعنى السنة، ونامة: بمعنى الكتاب، فيمكن تعريب المصطلح بـ «الكتاب السنوي»، وللسالنامات العثمانية اهمية معتبرة من الناحيتين الادارية والمالية، أما من الناحية التاريخية، فمعلوماتها مضطربة وغير دقيقة لذا لايمكن الركون اليها دون مقارنتها بالمصادر الاخرى. انظر عن اهمية السالنامات دراسة الدكتور ابراهيم خليل احمد «السالنامات العثمانية مصدراً لتاريخ البصرة الحديث». مجلة دراسات الخليج العربي. البصرة. المجلد ١٤. العدد ٤١٣ لسنة ١٩٨٢.

(٢٥) عن اسماء الولاة الذين تعاقبوا على حكم الموصل انظر: سالنامة ولاية الموصل لسنة ١٣٠٨ عربي/ ١٣٠٦ رومي. باشراف وترتيب: حسن توفيق افندي/ مطبعة ولاية الموصل. ص ص ٣٨ - ٤٠.

(٢٦) بعد فشل المحاولة العثمانية سنة ١٦٨١ م في اقتحام فينا، بدأت الاستراتيجية العثمانية تركز على الولايات الاسيوية، لذا شهدت الجبهة العثمانية - الاوربية الهدوء انظر عن اهتمام الدولة بالولايات الاسيوية: Robert. W. olson. The siege of Mosul: and Ottoman Persian Relations (1718 – 1743). (Indiana university. 1975) P. 166.

(٢٧) لقد تمثلت هذه المتغيرات في اندفاع قبائل شمر من مواطنها في جزيرة العرب باتجاه الفرات الأعلى وثم الموصل وازاحتها للقوى القبلية في المنطقة. انظر: ستيفن همسلي لونكريك. اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ترجمة. جعفر الخياط. الطبعة



الرابعة. بغداد ١٩٦٨. ص ١٠٤.

(٢٨) عن دور علي كدوم والي الموصل والمعروف ايضاً بعرب علي باشا وصراعه مع عشائر طيئ انظر: ياسين بن خير الله العمري. زبدة الاثار الجلية في الحوادث الارضية. تحقيق عماد عبد السلام رؤوف. النجف الاشرف ١٩٧٤ ص ٧٥.

(٢٩) انظر: علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني ص ص ٢٨ - ٢٩.

(٣٠) عماد عبد السلام رؤوف: الموصل في العهد العثماني (فترة الحكم المحلي ١٧٢٦ - ١٨٣٤). مطبعة الاداب (النجف الاشرف ١٩٧٥). ص ٢٢٩.

(٣١) آلاي بيك: هو الشخص المسؤول عن تهيئة الفرسان في الاقطاعيات العثمانية وايصالهم الى ساحة القتال.

(٣٢) في العقد الثاني من القرن الثامن عشر، اشتداد الصراع الدولي على ايران التي شهدت اراضيها تدفق ثلاثة جيوش «الافغانية والروسية والعثمانية» فقد احتل العثمانيون اجزاء كبيرة من كرمنشاه ومن ضمنها همدان. انظر: ismail Hakki uzu cursili. osmanli Tarhi. cilt.4. Kisim. 1. (Ankara 1956.) SS 172 – 179.

(٣٣) د. سيار كوكب الجميل: الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي (١٧٢٦ - ١٨٣٤). بحث مقدم الى مؤتمر الحياة الاجتماعية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني. زغوان. تونس ١٩٨٨. ص ٢٤٤.

(٣٤) د. عماد عبد السلام رؤوف. المصدر السابق (عنوان الكتاب).

(٣٥) د. سيار الجميل ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ص ص ٢٤٥ - ٢٤٦ وعن ظروف وصول الاسرة الجليلية يمكن الرجوع ايضاً الى: سليمان صائغ الموصلي. تاريخ الموصل المطبعة السلفية (مصر ١٩٢٣). ج ١. ص ص ٢٧٤ - ٢٧٥ وعن المنافسة والصراع على السلطة في بغداد انظر: د. علاء موسى كاظم نورس. حكم المماليك في العراق. دار الحرية للطباعة. (بغداد. ١٩٧٥). ص ٤٩ ومابعدها.

(٣٦) د. عماد عبد السلام رؤوف: المصدر السابق ص ١٢٠.

(٣٧) يمكن الرجوع الى: د. ابراهيم خليل احمد. تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني (١٥١٦ - ١٩١٦). (الموصل ١٩٨٣) ص ص ٩٧ - ٩٨.

(٣٨) تشير الدراسات الحديثة الى ان السلاطين العثمانيين كانوا على ادراك بّين بضعف الدولة العثمانية وتأخرها عن ركب الحضارة العالمية، وسبل معالجة الضعف. كما ان بعض المثقفين العثمانيين، حالوا توضيح ابعاد الاخطاء التي ترتكب من قبل المؤسسات منهم قوجي بيك، المقرب من السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) والذي رفع اليه تقريراً ضمنه رؤيته حول واقع الدولة وسبل معالجة التداعي والضعف فيها انظر دراسة وافية عن مضمون التقرير في: د. خالد زيادة. اكتشاف التقدم الاوربي. دراسة في المؤثرات الاوربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر. (بيروت ١٩٨١). ص ص ١٦ - ١٧.

(٣٩) صدرت في الفترة الممتدة بين سنة ١٨٣٩ - ١٨٧٦ جملة من المراسيم والقوانين الإصلاحية، هذه الفترة التي تعرف في الادبيات والوثائق العثمانية بفترة التنظيمات، ومن هذه القوانين والمراسيم: خط شريف گلخانه ١٨٣٩م خط همايون ١٨٥٦ م، قانون الاراضي العثمانية ١٨٥٨ م، قانون الولايات ١٨٦٤ م. عن الابعاد الاجتماعية والاقتصادية لقوانين ١٨٥٨ م. انظر دراسة المؤرخ الالماني، ز. ي. هرشلاغ، مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط. ترجمة مصطفى الحسيني. دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٣. ص ص ٤٣ - ٤٨ وعن قانون الولايات يمكن الرجوع الى: مجموعة التنظيمات العثمانية المنشورة باسم (الدستور). ترجمة. نوفل افندي نصر الله نوفل. بيروت ١٣٠١. مجلد ١. ص ٣٨٢ - ٣٩٧.

(٤٠) سالنامة ولاية الموصل (موصل سالنامه رسميسدر رئيس التحرير. صفوت بك. لسنة ١٣٢٧ ص ٩ ومما تجدر الاشارة اليه ان الدولة العثمانية اصدرت في ١٨٧٢م/ ٢٩ شوال ١٢٨٧م تأكيداً بضرورة المحافظة على التقسيم الاداري الجديد في العراق، والذي نفذه مدحت باشا. الامر الذي يفهم منه وجود محاولة للتخلص من الادارة الجديدة التي الحقت اضراراً ببعض الشرائح الاجتماعية. انظر عن امر سنة ١٨٧٢ في: نمير طه ياسين. بدايات التحديث في العراق (١٨٦٩ - ١٩١٤) اطروحة ماجستير غير منشورة. الجامعة المستنصرية. ١٩٨٤. ص ٨٢.

(٤١) سالنامة الموصل لسنة ١٣٢٧. ص ١١ انظر كذلك. فيصل محمد الارحيم. تطور العراق تحت حكم الاتحاديين (١٩٠٨ - ١٩١٤). (الموصل ١٩٧٥). ص ٤٧.

(٤٢) الدستور. ج ١. ص ص ٣٨٦ - ٣٨٩.

(٤٣) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث (من نهاية حكم داؤد باشا الى نهاية حكم مدحت باشا» دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. (القاهرة ١٩٦٨ ص ص ٣٦٣ - ٣٦٤. ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال، فانه ليست لدينا معلومات اكيدة عن استمرار منصب باب العرب، وكانت مهمته ان يكون واسطة بين العشائر العربية والوالي لحل المشكلات بين الطرفين، في هذه الفترة، مع العلم انه كان موجوداً في الموصل سنة ١٨٤٧. انظر: نوار، المصدر السابق. ص ٣٦٥.

(٤٤) عبد الكريم غرايبة: تاريخ العرب الحديث. دار الاهلية للنشر والتوزيع (بيروت ١٩٨٤) ص ٢٥٨.

(٤٥) د. ابراهيم خليل احمد. ولاية الموصل. دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ - ١٩٢٢. رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الاداب. جامعة بغداد. ١٩٧٥. ص ٥٠؛ احمد علي الصوفي. تاريخ بلدية مدينة الموصل. (الموصل ١٩٧٠)، ج ١. ص ٢٢.

(٤٦) جاسم محمد العدول. العراق في العهد الحميدي (١٨٧٦ - ١٩٠٩). اطروحة ماجستير غير منشورة. كلية الاداب. جامعة بغداد ١٩٧٥. ص ص ٢٥٦ - ٢٥٧.



الموصل وحركة التنظيمات العثمانية

(١٢٥٥-١٢٩٣هـ ١٨٣٩-١٨٧٦م)

علي شاكر علي

توطئة:

بدأت حركة التنظيمات بأصدار البيان الاصلاحي المعروف بـ «منشور الگلخانة» في ٣ تشرين الثاني عام ١٨٣٩م، حيث تلي في قصر الگلخانة أي قصر الورد، على مشهد من الأعيان والسفراء وكبار رجال الدين والدولة، وقد عدّ بعض المؤرخين صدور هذا البيان الاصلاحي بمثابة تتويج للجهود الاصلاحية السابقة، وخاصة في عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) الذي أولى اهتماماً ملحوظاً بالاصلاحات المتعلقة بالنواحي العسكرية،[١] وذهب ضحيةً لافكاره الاصلاحية. ومن ناحية اخرى فان الباحث يتلمس على نحو واضح تأثر الاصلاحيين العثمانيين بمبادىء الثورة الفرنسية ١٧٨٩م، في: الحرية والمساواة، والاخاء. وتعليل هذه المسألة لاتحتاج الى عناء كبير، لان مبادىء الثورة الفرنسية انتقلت الى الولايات العثمانية بواسطة عاملين: اولاً بوساطة البعثات العسكرية الفرنسية التي وصلت الى الباب العالي، بهدف تجديد الجيش العثماني. وبعد ان تعلم الضباط العثمانيون اللغة الفرنسية لم يقتصروا على دراسة العلوم العسكرية الفرنسية فحسب بل صاروا يطالعون الكتب السياسية، خاصة كتابات رجال التنوير والتحرر من الاضطهاد والتقاليد الاجتماعية البالية، والعامل الثاني بوساطة البعثات الدبلوماسية سواء منها الاوربية المقيمة في الباب العالي ام العثمانية التي كانت تمثل الحكومة في عواصم اوربا وعلى الاخص في باريس[٢].

لقد كان بيان ١٨٣٩، فاتحة لعدة مراسيم اصلاحية استمرت حتى سنة ١٨٧٦م، من اهمها البيان الاصلاحي المعروف بـ «خط همايون ١٨٥٦م» اي الخط المبارك، وقانون الاراضي ١٨٥٨م، وقانون الولايات ١٨٦٤م واخيراً الدستور العثماني الصادر في عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)[٣] وبذلك تكون حركة التنظيمات العثمانية قد استغرقت سبعاً وثلاثين سنة.

في الواقع ان قراءة فاحصة لجميع المراسيم والقوانين الاصلاحية خلال الحقبة التأريخية المذكورة آنفاً تشير اشارة واضحة لا لبس فيها، الى ان الهم الاساس الذي كمن وراء اصدار هذه المراسيم والقوانين هو الرغبة في ايجاد هيكل اداري جديد قادر على استيعاب المتغيرات السياسية والاقتصادية والعسكرية، فقد كانت هذه الجوانب بحاجة ماسة الى اعادة نظر في اسسها واهدافها، ففي الجانب السياسي لم يعد جواب الباب العالي في نظر السكان مقنعاً بمطلقية حكم السلطان العثماني، كما ان العلاج الاقتصادي الذي وضع لتحسين وَضع الفلاحين، والمتمثل بنظام الالتزام[٤] زاد في الطين بلة، اذ جعل الفلاح يعيش تحت رحمة الملتزمين دون ان يأخذ هؤلاء بنظر الاعتبار مواسم القحط والمحل والفيضانات وغيرها. ومن ناحية اخرى فان سلسلة الهزائم العسكرية للجيش العثماني قد خلقت قناعة كاملة أن جيشاً نظامياً يمتاز بالصرامة والتدريب المتكامل هو الكفيل بانقاذ الدولة من الانهيار التام، لذا كان هذا الهم التاريخي كما يذكر الباحث وجيه كوثراني[٥]، يشكل قاعدة لكل المراسيم الاصلاحية، التي حاولت ايضا ايجاد ادارة وقضاء، يستوعبان «التنوع الملي» على اساس المساواة الحقوقية في الادارة والقضاء والتعليم، والقاسم المشترك هو



المصالحة القائمة على اساس التوفيق بين مصالح السكان والوطن في اطار التبعية العثمانية الواحدة وهو مفهوم يقترب كثيراً ما شاع في الوثائق والادبيات الاوربية في تلك المرحلة التأريخية، من مفهوم «الناسيوناليتي Nationalite». مع الحرص على ابقاء الامتيازات القديمة التي منحت للسكان و «الرعايا» غير المسلمين.(٦)

على اية حال، فان هذه المقدمة القصيرة عن التنظيمات العثمانية، ضرورية لمتابعة الموضوع الذي نحن بصدد بحثه، اي محاولة تتبع تأثير التنظيمات العثمانية على الموصل كولاية عثمانية. والمتتبع للمصادر والمراجع التأريخية المتيسرة عن ولاية الموصل يلاحظ ان تأثير التنظيمات العثمانية لم يصل الى الموصل على نحو مباشر وملموس الا بعد مجيء مدحت باشا والياً على العراق سنة ١٨٦٩ م، غير ان هذا لايعني ان المدينة (الموصل) لم تشهد اية اصلاحات خلال الفترة ١٨٣٩-١٨٦٩م، فالتجربة الاصلاحية التي باشرها والي الموصل محمد اينجة بيرقدار (١٨٣٥-١٨٤٣)، رغم نواقصها والغرض من تطبيقها، تبقى جديرة بالتنويه والاشادة، وكما يقول احد الباحثين في هذا المجال عن التجربة «انها لم تقدم للمجتمع ما كان يحتاجه ويتوقعه، اذ بقي يعاني من مشاكل سكانية ومعضلات عشائرية واقتصادية وازمات طبيعية مزمنة وخطيرة».(٧)

ادارة الموصل بين سنتي ١٨٣٥- ١٨٤٣ م:

عانت الموصل في السنوات الاخيرة من حكم الجليليين (١٧٢٦- ١٨٣٤م) الأمرين من فقدان الأمن وانتشار الفوضى في ارجائها، وكانت اسباب هذه الفوضى داخلية وخارجية. فقد استفحلت النزعة العشائرية في اطراف المدينة، وغدت هيبة الدولة غير ذات بال، كما ظهر الصراع بين الاسر الموصلية وخاصة الأسرتين العمرية والجليلية(٨). كما جاءت التطورات السياسية السريعة في بلاد الشام بنتائج سلبية على الاوضاع في المدينة على المدى القصير. اذ تطلعت الاسرة الجليلية الى الاستعانة بالعشائر العربية للوقوف بوجه خصومها وهذا ما حصل، عندما استعان الجليليون بعشائر شمر الجربا والتمهيد لهم بدخول المدينة سنة ١٨٣٢ م، واذا كان ما يذكره احد الباحثين(٩)، ان صفوك شيخ شمر جربا قد دخل المدينة بتحريض من ابراهيم باشا بن محمد علي حاكم مصر، الذي كان يعمل على ضم العراق والشام لمصر بهدف تكوين دولة عربية موحدة، وارداً في السياق العام للاحداث التأريخية، فان هذه الاستعانة تكشف عن عمق الصراع ووصوله الى مرحلة خطيرة. وفي اثناء هذه السنوات برز اسم محمد اينجة بيرقدار، عندما كلف بوضع حد للحالة غير الاعتيادية في نظر العثمانيين وقد جاءت نهاية الأسرة الجليلية في الموصل على يده كما هو معروف ولكن يبقى السؤال: من هو البيرقدار هذا. قائماً. يذكر عباس العزاوي(١٠) ان محمد اينجة بيرقدار تركي الاصل من مدينة پارطين في قسطموني، خدم العسكرية في مصر وغيرها، ثم طرد الى الشام، وبدأ هناك يجمع اعوان له، هاجم ديار بكر والموصل، وفي احدى المرات وصل هجومه قريباً من باب سنجار فخرج عليه الاهلون وطردوه، ولما سمع به والي بغداد علي رضا باشا أرسل في طلبه سنة ١٨٣٣م فاناط به حكم كركوك وتكليفه بقيادة حملة عسكرية لوضع نهاية للاسرة الجليلية(١١)، وفي سنة ١٨٣٥م اصبح والياً على الموصل، ويعتقد ان تعيينه لحكم الموصل جاء اعترافاً بعمله العسكري، وخبرته المتراكمة في شؤون المنطقة، والملاحظة الجديرة بالاعتبار هنا أن سنوات حكم البيرقدار قد حفلت باصلاحات لم تكن مألوفة لدى السكان سابقاً، كما ان معرفة السكان بالوالي الجديد عندما اقتحم احد ابواب المدينة، قد جعلتهم يعيشون تحت عقدة الخوف من وجوده في المدينة، فقد كانت «صرامته الخطيرة الخالية من

الرحمة »[12] كفيلة بخلق هذا الهاجس.

فقد كان اول عمل قام به محمد اينجة بيرقدار هو تطبيق «القرعة» اي التجنيد الالزامي، فعارضه السكان في ذلك، فلجأ كعادته الى استخدام القوة المتناهية ضدهم، وقد هددهم بقصف مدفعي في حالة عدم الامتثال «فأذعن الأهلون قسراً، وقبلوا بالجندية»[13] هكذا تم تطبيق التجنيد الالزامي في الموصل في حين لم يجرأ احد على تطبيقه في جنوبي العراق قبل سنة ١٨٧٠م/ ١٢٨٧هـ[14]. وقد ربط بيرقدار عمله هذا بعمل آخر يُعد ضرورياً، الا وهو الاهتمام بالصناعة العسكرية وخاصة صناعة المدافع والقنابل والبارود وغيرها من الاسلحة، فجلب صناعاً حاذقين، فعمل ما يزيد على الثمانين مدفعاً، كما أمر بيرقدار بتعمير الثكنة العسكرية «القشلة» لايواء الجند، والحق بها عدداً من الأفران لتموين الجند[15]، والتفت البيرقدار الى مسألة توفير الأمن في الطرق التجارية، اذ كانت العشائر العربية والكردية تغير دائماً على القوافل التجارية وخاصة تلك السالكة الطريق التجاري التقليدي الموصل- دياربكر- حلب. أو الموصل- تلعفر- بلاد الشام. وقد افاض المؤرخون في الاشارة الى حملاته العسكرية ضد العشائر القاطنة في تلعفر او سنجار وغيرها من المناطق[16]، وقد اقترنت هذه الحملات بالقسوة والصرامة كما اشرنا الى ذلك. واذا كانت حملاته العسكرية ضد المناطق التي ذكرناها، قد اثمرت في اسكات العشائر، فان صراعه مع الشيخ صفوك بن فارس (١٨١٨ - ١٨٤٧ م، لم يؤد الى نتيجة حاسمة. بل ان هذا الصراع قد ترك آثاراً اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة ظلت شاخصة فاعلة الى عهد قريب.

لقد بدأ الصراع بين والي الموصل محمد اينجة بيرقدار، وصفوك بن فارس عندما رفض الاخير التنازل عن «عانة» لصالح بيرقدار. وكانت عانة قد أعطيت لشيخ شمر الجربا مكافأة له على خدماته للدولة العثمانية ضد الفرس في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي. وقد احتج بيرقدار على عدم أذعان صفوك لطلبه في ترك عانة، وأخيراً نجح في أقناع علي رضا باشا والي بغداد بأبعاد صفوك عن عانة في نهاية عام ١٨٤١ أو أوائل ١٨٤٢. وقد لم يكن أمام صفوك أزاء هذا العمل الذي يمس قيمه الأجتماعية الا القيام بشن غارات على أطراف نهر الخابور، والأتصال بالعشائر الأخرى للقيام بالعمل نفسه، ولم تجد حكومة بغداد في عهد واليها نجيب باشا (١٨٤١-١٨٤٧م) بُداً من العدول عن سياسة العداء تجاه الشيخ الشمري، فأعلنت مرة أخرى أعترافها بعانة ضمن دائرة نفوذ شمر الجربا وكان ذلك سنة ١٨٤٣م[17] وهي السنة التي مات فيها البيرقدار. ويعتقد أن سبب أعتراف حكومة بغـداد بصفوك هو ظهور خطر عشائري جديد متمثل بعشائر عنزة.

كما ذكرنا سابقاً، فأن فترة حكم محمد اينجة بيرقدار التي أستمرت ثمانِ سنوات بقدر ماهي مهمة في جانب الأصلاح العسكري، فأن قوته وصرامته قد القتا ثقلاً أضافياً على السكان الذين كانوا يتطلعون الى اصلاحات تمس جوهر مشاكلهم الأقتصادية والأجتماعية، فلم يكن الاصلاح الشامل يراود ذهن الرجل «بيرقدار» بقدر ما كان همه الأساس هو ترضية اسياده في الباب العالي بقمع اية حركة معادية للدولة العثمانية.

لقد تعاقب على حكم الموصل بعد بيرقدار وحتى سنة ١٨٧٧م ثلاثة وعشرون والياً لم يبرز أي منهم في مجال الأصلاح، أو العناية بالسكان ومعالجة مشاكلهم، واذا ما أستثنينا الوالي حلمي بـاشـا الـذي حـكـم سـت سـنـوات (١٨٥١-١٨٥٧م)[18] فأن معدل حكم كل والي يقترب من سنة وايام معدودة. وهؤلاء الولاة جميعهم أتبعوا نفس الأسلوب العقيم في معالجة



مشكلات المنطقة خاصة العشائرية منها ألا وهو تجريد الحملات العسكرية على المناطق الثائرة والأفراط في أستعمال القوة ضد الثائرين. فقد جرّد شريف باشا والي بغداد سنة ١٨٤٣م حملة عسكرية ضد اليزيدية في سنجار، فلجأ هؤلاء الى الجبال، وبعد سنتين اي في عام ١٨٤٥م[١٩]، هاجمهم كذلك والي الموصل محمد باشا الگريدي. كما كان قصر حكم الولاة، وأفتقارهم الى الكفاءة والخبرة في شؤون المنطقة وأبعاد المشاكل المستفحلة خاصة العشائرية، كل هذه الأمور كانت تشكل أغراءً للخروج على السلطة القائمة في المدينة. في سنة ١٨٤٤م تعرضت مدينة الموصل الى غارات عشائر عنزة، وقد جاءت هذه الغارات في أعقاب حريق مدمر جاء على ديارها سنة ١٨٤٤م. فوقف كل من والي بغداد محمد نجيب باشا وحاكم الموصل محمد شريف عاجزّين عن صد غاراتها. فلجأ الى صفوك بن فارس شيخ شمر جربا طلباً للمساعدة فأندفع هذا ولأعتبارات أجتماعية وأقتصادية، ومعه الف من أتباعه لمواجهة قوة عنزة البالغة بـ (١٢٠) ألف مقاتل يقودهم الشيخ ادهام بن غهيس العنزي. والى الشمال الغربي من مدينة الموصل، دارت الدائرة على العنزيين فأنسحبوا نحو تلعفر واسكي موصل، وقد أستمرت المناوشات بين شمر وعنزة حتى سنة ١٨٤٥م اذ إنسحبت قوة عنزة الى الصحراء السورية[٢٠].

تأثرت ولاية الموصل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالسياسة المركزية التي حمل لواءها العثمانيون عن طريق تقليص الولايات العثمانية. في سنة ١٨٥٠م غدت الموصل سنجقاً تابعاً لبغداد[٢١]، ولم تستعد المدينة مركزها الأداري كولاية إلا سنة ١٨٧٩م.

شهدت مدينة الموصل في النصف الثاني من القرن التاسع بعض مظاهر التحديث، ففي سنة ١٨٥٨م أسس الأباء الدومنيكان المطبعة الحجرية في الموصل وبأشراف الأب بيصون Besson رئيس الارسالية الدومنيكية، حيث استمر العمل بها مدة ثلاث سنوات، وفي سنة ١٨٦٠م وصلت الى الموصل مطبعة حديثة مع ملحقاتها من أدوات وحروف وبأشراف الراهب هنري أمانتون رئيس الأرسالية الدومنيكية، وقد نشرت هذه المطبعة خلال الفترة ١٨٦١–١٨٦٧م ثلاثة وعشرين كتاباً، أغلبها يتصل بالفعاليات التبشيرية، كما أشتملت الفعاليات التبشيرية على أنشاء بعض المشافي في المدينة الى جانب المطبعة الكلدانية التي نصبت سنة ١٨٦٥م[٢٢].

٥- أصلاحات مدحت باشا والموصل ١٨٦٩–١٨٧٢م:

دخل العراق عهداً جديداً، حين عين مدحت باشا (١٨٢٢–١٨٨٣م) والياً عليه، فقد كان هذا السياسي المحنك مؤهلاً تماماً لدوره الأصلاحي، برصيد غني من الخبرة تراكم بالدراسة والأحتكاك بالغرب، ثم بالخدمة في أجزاء مختلفة من الدولة العثمانية مثل سوريا وصربيا ومقاطعات الدانوب، وأخيراً خلال عمله لمدة سنة رئيساً لمجلس الدولة وهو هيئة أستشارية للسلطان والحكومة، وفي العام ١٨٦٩ عين حاكماً للعراق، وكان همه الأول عند تولي الحكم هو تطبيق القوانين والمراسيم الأصلاحية التي حرّم منها سواء في الهيكلية الادارية الجديدة، أو في مجال القضاء والجيش وكذلك حل المشكلة العشائرية التي تفاقمت بسبب عقم المعالجة السابقة كما أشرنا الى ذلك. وبقدر تعلق الموضوع بالموصل، فقد غدت ولاية ضمن الولايات العراقية الثلاثة سنة ١٨٧٩م «بغداد – البصرة – الموصل» تشتمل على ثلاثة ألوية «كركوك، السليمانية، الموصل»، ولواء الموصل يشتمل على ستة أقضية هي قضاء الموصل، والعمادية وزاخو ودهوك وعقرة



وسنجار (٢٣) ، وأصبح الوالي ، على قمة السلطة الهرمية مسؤولاً عن الشؤون الأدارية والمالية والسياسة والمشرف على أمور الشرطة والمسؤول عن تنفيذ الأحكام التي تصدرها المحاكم ، ويعاون الوالي الدفتردار، غير أنه يرتبط مباشرة بوزارة المالية في الباب العالي. أما من الناحية العسكرية فقد كان في الموصل قائد عسكري مستقل ، أو يترأس الوالي نفسه هذا المنصب ، ويساعد الوالي مجلس أدارة يتألف من كبار موظفي الدولة ، يضاف اليهم أربعة أعضاء ينتخبهم السكان المسلمون وطوائف من غير المسلمين بنسب متساوية (٢٤) .

كان مدحت باشا يدرك تماماً أن العقبة الرئيسة التي تواجه اية حركة أصلاحية ، هي وجود عشائر عربية وكردية تعارض بشدة أدخال نظم جديدة في البلاد ، لأنها ستقضي حتماً على أمتيازاتها الأجتماعية المكتسبة وبخاصة نظامها المشيخي غير أن هذه العشائر سرعان ما أنهارت أمام خطط مدحت باشا العسكرية ، هذه الخطط التي حاولت أن تتجاوز أخطاء الولاة السابقين في معالجة المشكلة العشائرية وذلك بربط العشائر بالأرض لكي تستقر وتمتهن الزراعة وعند تولي مدحت باشا العراق وبقدر تعلق الأمر بعشائر الموصل فقد كانت عشائر شمر جربا تسيطر سيطرة فعلية على الطريق الممتد من تكريت الى الموصل ، بل كان الشيخ عبد الكريم جربا صاحب الكلمة العليا في هذه المنطقة ، ويعتقد أحد الباحثين أن عشائر شمر جربا بسبب سيطرتها على مناطق واسعة من المنطقة الشمالية الغربية للعراق كانت عقبة كأداء أمام مشاريع مدحت باشا في ربط العراق بالشام بخطوط برية لذا جرّد عليه حملة عسكرية أنتهت بالقبض على الشيخ عبد الكريم وأعدامه فيما بعد في الموصل ، وأقرار أخيه فرحان في المشيخة مع تسلم راتب شهري مقابل تعهده باستتباب الأمن في (ديرته) (٢٥) وقد قدّر راتبه بعشر الوارد من الحاصلات التي تزرعها عشيرته أي حوالي «١٢٠ ألف قرش» (٢٦).

لقد تمتعت مدينة الموصل بأستقرار نسبي في عهد الوالي مدحت باشا اذ نلمس دخول بعض مظاهر التحديث اليها ، خاصة التعليم المهني ، اذ عمم مدحت باشا أمراً بأستحداث مدارس للصنائع في البلاد وكان ذلك بهدف أدامة وصيانة المشاريع المزمع أقامتها في العراق. (٢٧)

كما عمل مدحت باشا على ربط مدينة الموصل بشبكة من طرق المواصلات مع المدن المجاورة مثل كركوك وأربيل، والسليمانية (٢٨) ، وذلك بهدف تنشيط الحياة الأقتصادية، فضلاً عن الهدف العسكري بطبيعة الحال. وتشير أحدث دراسة علمية (٢٩) الى أن أصلاحات مدحت باشا قد أثمرت في رفع المستوى المعيشي والصحي للسكان ، وهذا ماتتلمسه من خلال الزيادة الحاصلة في عدد السكان في العراق بصورة عامة. فقد قدر عدد السكان في العام ١٨٦٦ - ١٨٦٧ ب «١,٢٨٠٠٠٠» نسمة وكانت هناك زيادة في السنوات اللاحقة حيث قدر سنة ١٨٧٥م ب (٢٠٠٠٠٠٠) نسمة. أما فيما يتعلق بمدينة الموصل فقد كانت تحتوي في العام ١٨٧١م على ٩٠٠٠ - ١٠,٠٠٠ دار مجموع سكانها حوالي ٥٠,٠٠٠ نسمة. في حين قدرّت عشائر شمر الجربا وحدها وفي نفس السنة بين ٦٠,٠٠٠ الى ٧٠,٠٠٠ نسمة كما تشير بذلك جريدة الزوراء الصادرة في ٢٨ شعبان ١٢٨٨ هـ / تشرين الثاني ١٨٧١م . أن هذه الأرقام المذكورة هي تخمينية لأنه لم يجر اي تعداد عام للسكان في العهد العثماني ، بسبب مقاومة الأهالي لأي أجراء من هذا القبيل ، اذ كانوا يحرصون على عدم الأدلاء بمعلومات عن وضعهم الأسري خوفاً من الضرائب والخدمة العسكرية ، كما أن تقديم المعلومات للسلطات الحكومية عن الأناث يُعد خروجاً على المألوف من العادات التي لاتتيح افشاء



أسرار عن وضع الأثاث. على أية حال فأن فترة حكم مدحت باشا أنتهت سنة ١٨٧٢ م، وليست هناك أحداث تستحق الذكر في الموصل خلال السنوات ١٨٧٢-١٨٧٦ الا قيام بلدية الموصل ببعض الاعمال، التي تعرضنا لها في التشكيلات الأدارية العثمانية «المبحث الحادي عشر»، وأستمرار تبعية الموصل لولاية بغداد كسنجق حتى سنة ١٨٧٩م حين أصبحت ولاية من جديد لها: سنجقان: كركوك والسليمانية. (٣٠)

الهوامش

(١) للوقوف على تفاصيل اكثر عن جذور الحركة الاصلاحية في الدولة العثمانية انظر: د. احمد عبدالرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، بيروت ١٩٨٢ ص ١٧٠ ومابعدها. ولاغراض المقارنة انظر: ز. ي. هرشلاغ مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط، ترجمة مصطفى الحسيني. دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٣ ص ص ٤٠- ٤٦.

(٢) د. عبد الوهاب القيسي: حركة الاصلاح في الدولة العثمانية وتأثيرها على العراق (١٨٣٩ - ١٨٧٧ م). مجلة كلية الاداب. جامعة بغداد. العدد ٣ لسنة ١٩٦١. ص ص ١١١ - ١١٢.

(٣) عبدالكريم رافق. العرب والعثمانيون (١٥١٦ - ١٩١٦). دمشق ١٩٧٤ ص ص ١٤١ - ١٤٥.

(٤) الالتزام: اي منح الدولة الارض لكي يزرعها الملتزم لمدة معلومة مقابل مبلغ من المال، وللالتزام نتائج ايجابية وسلبية، ايجابية حيث تحصل الدولة على مورد مالي ثابت سلفاً في حين أن السلبية تتمثل في محاولة الملتزم الحصول على مبلغ اكبر من المبلغ الذي دفعه ويشتى الوسائل دون ان يعير اهتماماً بالفلاح.

(٥) السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ١٩٨٨ ص ٨٣.

(٦) وجيه كوثراني، المرجع السابق. ص ٨٤.

(٧) د. سيار الجميل: انتلجينسيا العراق: التكوين. الاستنارة والسلطة. بحث مقدم الى مجلس قسم التاريخ. كلية الاداب. جامعة الموصل لسنة ١٩٨٩ ص ٥.

(٨) عن جذور الصراع بين الاسرتين انظر: علي شاكر علي. تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ - ١٧٥٠ م دراسة في احواله السياسية. بغداد ١٩٨٥ «الفصل الرابع».

(٩) د. ابراهيم خليل احمد. تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني (١٥١٦-١٩١٦) الموصل سنة ١٩٨٦. ص٩٧.

(١٠) تاريخ العراق بين احتلالين. بغداد ١٩٥٥ ج٧ ص ٦٩.

(١١) عن نهاية الاسرة الجليلية انظر: د. عماد عبد السلام رؤوف. الموصل في العهد العثماني فترة الحكم المحلي (١٧٢٦- ١٨٣٤). مطبعة الاداب. النجف الاشرف. ١٨٢ - ٢٠٢.

(١٢) ستيفن همسلي لونكريك: اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ترجمة. جعفر الخياط. الطبعة الرابعة. بغداد ١٩٦٨ ص ٣٣٧.

(١٣) عباس العزاوي. المرجع السابق ج٧ ص ٦٩.

(١٤) لونكريك. المرجع السابق ٣٣٧. ولاغراض المقارنة انظر: ذنون يونس حسين الطائي. الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في اواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني. رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الاداب. جامعة الموصل ١٩٩١ ص ٥٦.

(١٥) عباس العزاوي. المرجع السابق ج٧ ص ٧٠ ومابعدها.

(١٦) انظر: ذنون يونس الطائي. المرجع السابق. ص ٥٧.

(١٧) للاستزادة عن عشائر شمر جربا انظر دراسة الباحث الامريكي John Frederick Willamson. APolitical History of the shammar Jarba. Tribe of AL- Jazirah. 1800 - 1958. indiaina university. U. S. A 1975. PP. 67 - 77

(١٨) للوقوف على اسماء ولاة الموصل انظر: سالنامة ولاية الموصل لسنة ١٣٠٨ هـ. (١٨٩١ م)

(١٩) عباس العزاوي. المرجع السابق. ص ٧١ ومابعدها.

(٢٠) Williamson. OP. cit. P. 72.

(٢١) لونكريك. المرجع السابق. ص ٣٣٦.

(٢٢) لمزيد من التفاصيل انظر: مدحت فضيل فتح الله. مطابع الموصل في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين واهم المطبوعات الصادرة عنها في احياء التراث العلمي والادبي. بحث مقدم الى ندوة «دور الموصل في التراث العلمي» المنعقدة في الفترة ١٦ / ٣ / ٨٨ ولغاية ١٧ / ٣ / ١٩٨٨. مطبعة التعليم العالي في الموصل ١٩٩٠ ص ص ٢٢٩ - ٢٣٦.

(٢٣) العزاوي، المصدر السابق، جـ٧، ص١٦٨.

(٢٤) عبد الوهاب القيسي. المرجع السابق. ص ١١٩.

(٢٥) د. عبدالعزيز سليمان نوار. تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داؤد باشا الى نهاية حكم مدحت باشا. القاهرة ١٩٦٨. ص ٣٧٢.

(٢٦) نمير طه ياسين. بدايات التحديث في العراق ١٨٦٩- ١٩١٤ اطروحة ماجستير غير منشورة. معهد الدراسات القومية والاشتراكية. الجامعة المستنصرية ١٩٨٤. ص ٩٥.

(٢٧) المرجع نفسه. ص١٢٢.

(٢٨) للوقوف على تفاصيل اكثر. انظر: جاسم محمد حسن. العراق في العهد الحميدي (١٨٧٦ - ١٩٠٩) رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الاداب. جامعة بغداد ١٩٧٥ ص ٤٧.

(٢٩) محمد عصفور سلمان. العراق في عهد مدحت باشا (١٢٨٦- ١٢٨٩ هـ) (١٨٦٩ - ١٨٧٢ م) رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الاداب. جامعة بغداد ١٩٨٩ ص ص ٧٨- ٧٩.

(٣٠) لونكريك: المرجع السابق. ص ٣٧٦.



بدايات حركة التحديث

نمير طه ياسين

مقدمة :

شهدت الموصل حركة أصلاحية تُعد جزءاً من عملية التحديث[1] في العراق وذلك منذ منتصف العقد الثالث من القرن التاسع عشر. وقد تمثلت هذه الحركة بمجموعة الاجراءات الرسمية الأصلاحية ، وقد شملت معظم نواحي الحياة ، وكانت الموصل في طليعة الولايات العراقية التي طبقت فيها تلك الأجراءات ، والتي عدت نتيجة من النتائج البارزة لحركة التنظيمات العثمانية[2] حيث لم تشهد الموصل منذ دخولها تحت السيطرة العثمانية سنة (١٥١٦)[3] ، وطوال القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني أية إصلاحات جوهرية في بنيانها الأقتصادي والأجتماعي وذلك بسبب عدم الأستقرار السياسي ، وفشل الحكومة العثمانية في توطيد الأمن وتوطين العشائر ، وأقتصار جهدها على إرسال الحملات العسكرية للعشائر العربية والكردية .[4] وذاق ، معظم العراقيين ومنهم سكان الموصل ، الأمرين من السياسة القائمة على إثارة النزعة العشائرية ، وحز في نفوسهم سيطرة الغرباء على مقدرات البلاد فكان هذا الشعور باعثاً لفكرة إنشاء دولة خاصة تحكم نفسها بمعزل عن المماليك والعثمانيين الغرباء .[5]

عاشت الموصل تحت نفوذ وسيطرة محلية ، ولما كانت الدولة العثمانية غير قادرة على معالجة مشكلات ولاياتها وحلها ، لذلك إستقدمت في القرن السادس عشر وبعد سنة (١٥١٦) بعض الأسر من الحجاز لتولي حكم الموصل منها الأسرة العمرية .[6] وغدت هذه الأسرة بعد فترة وجيزة من الأسر الأرستقراطية بالموصل. إلا أن مشكلات المدينة لم تحسم فأستمرت الفتن والأضطرابات بين الوالي العثماني والأسر المحلية وعلى رأسها العمريون.

وتطور الأمر الى نزاع مسلح لمرات عدة منها ماحدث في سنة (١٧٢٥) .[7] ودام إحدها مدة سنة نهبت خلالها الأسواق وقتلت الأنفس .[8] وقد هيأ هذا الوضع لظهور قوة نشيطة لها شعبيتها فبرزت الأسرة الجليلية ، وهي أسرة تجارية لها نفوذ واسع في المدينة ، وكان من أبرز شخصياتها أسماعيل باشا عبد الجليل الذي نصب على الموصل سنة (١٧٢٦) ومنح لقب الباشوية ، وولده حسين باشا (١٧٣٠) والذي يعد مؤسس حكم الولاة المحليين بالموصل.

ونشبت الخلافات بين الاسرتين العمرية والجليلية ، وتعرضت المدينة الى الكثير من المخاطر نتيجة لأثارة الفتن والمشكلات حيث عمدت كل أسرة الى الأستئثار بحكم الولاية حتى سنة (١٨٣٤) حين غدت الموصل تحت حكم الدولة العثمانية المباشر ، وأمتد ذلك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .[9]

وإبان تلك الفترة إستمرت الأضطرابات ، وتعرضت الموصل الى النهب والسطو من قبل العشائر وبتحريض في بعض الأحيان من الولاة العثمانيين ومنهم والي بغداد الذي حرض ضد الموصل سنة ١٨٥٤ .[10] الا أن بدايات التغيير الأصلاحي أخذت تظهر في الموصل منذ سنة ١٨٣٥ في عهد الوالي محمد إينجه بيرقدار حيث قاد حركة للتجديد في مختلف الميادين[11] ، أعقبها تأثير إصلاحات الوالي مدحت باشا (١٨٦٩ - ١٨٧٢) والتي دعمت مسيرة الأصلاح والتحديث في الموصل ولتوضيح مقدار التغيير الأصلاحي والتجديد وصولاً الى التحديث ، قسم البحث الى أربعة أقسام عالج القسم الأول التحديث في الميدان السياسي . وتناول القسم الثاني



التحديث في الميدان الأقتصادي وكرس القسم الثالث لدراسة التحديث في الميدان الأجتماعي ، وخصص القسم الاخير للتحديث في الميدان الثقافي والذي مهد لظهور نهضة ثقافية في الموصل كما سنرى.

الميدان الأداري والقضائي والعسكري :

بالنسبة للتنظيم الاداري فأنه يعد وجهاً من وجوه التجديد الأصلاحي في الموصل إذ كانت مقسمة الى سناجق (ألوية) تحت مسؤولية الباشا ، والسنجق أنيطت عهدته بـ (بك) ويسمى (سنجق بكي) أي (بك اللواء) ورتبته (مير لواء) أي أمير اللواء ،[١٢] وهو المسؤول عن الشؤون المدنية والعسكرية ، وأتسم التنظيم الأداري في العراق خلال السيطرة العثمانية بعدم الثبات ، فغالباً ما كان ينقل سنجق من ولاية الى أخرى أو تستحدث سناجق جديدة ، ففي الموصل أختلفت المراجع التأريخية في تحديد عدد السناجق ، فيذكر البعض أن عددها ستة سناجق هي : الموصل وباجلوانلو وتكريت وهورن وبانه واسكي موصل ، في حين اشار آخرون الى أن عددها ثلاثة هي خارون (هرون) وكشاف واسكي موصل وكذلك الموصل.[١٣] أما التنظيمات الادارية للألوية فيكون الوالي هو الحاكم الفعلي إدارياً وممثلاً للباب العالي (السلطان العثماني) في الولاية ويتم تعيينه بفرمان يصدر من الاستانة ، ويتمتع بصلاحيات مطلقة في تسيير أمور الولاية ومتابعة أحتياجاتها.[١٤] وسعى الوالي محمد إينجه بيرقدار لتنظيم المدينة أدارياً وتقسيمها الى وحدات أدارية وأخذ هذا التنظيم شكلاً هرمياً يبتدئ بالوالي وينتهي بالمختار سواء في المحلة أو القرية.[١٥] وقام الوالي مدحت باشا (١٨٦٩) بتطبيق قانون الولايات العثماني الصادر في ١٨٤٦ وقسم العراق الى ولايتين هما : ولاية بغداد وشملت بغداد والبصرة ، وولاية الموصل وشملت الموصل وشهرزور، وقسم الولاية الى ألوية واقضية ونواحي وقرى[١٦] واصدر مدحت باشا في ٢٩ شوال ١٢٨٧ (١٨٧١) نظاماً أدارياً للعراق قسم بموجبه الى ثلاث ولايات هي بغداد والموصل والبصرة. وضمت ولاية الموصل كل من لوائي كركوك والسليمانية و (١٤) قضاء و (٣٣) ناحية و (٣٢٠٧) قرية.[١٧]

وكان نظام حكم الولاية على غرار النظام المتبع في بقية أرجاء الدولة العثمانية ، فتعيين الوالي يصدر من استانبول ، وكثيراً مايضطر الباب العالي محاباةً لوالي بغداد ، عزل أو تنصيب ولاة الموصل.[١٨] ونظم الهيكل الأداري لولاية الموصل على النحو الآتي :

الوالي وهو مسؤول الجهاز الحكومي للولاية ، وفي أواخر القرن السابع عشر منح بعض ولاة الموصل رتبة (وزير) وهي مماثلة لرتبة والي بغداد وحلب ، وهذه الرتبة شرفية يحق لصاحبها رفع ثلاث أطواغ ونالها الوالي حسين باشا (١٧٣٠-١٧٥٧) وأخذت شكلاً آلياً في تقليد الولاة. اما واجبات الوالي تجاه السلطات المركزية فهي المشاركة الفعلية في الحرب ضد اعداء الدولة وقد أسر البعض منهم أمثال الوزير محمد أمين باشا في احدى الحملات على روسيا بعدها خرج من الأسر، وتوفي عبدالفتاح باشا في احدى حملاته ، لذلك قل خروج الولاة تدريجياً على رأس حملاتهم العسكرية واقتصر عملهم منذ أواخر القرن الثامن عشر على حماية الحدود او القيام بأعمال تأديبية ضد القبائل المجاورة. وشهد حكم محمد باشا (١٧٨٩-١٨٠٦) تنازله عن قيادة الجيش الى كتخداه وكاتب ديوانه[١٩] . وبموجب نظام الولايات لسنة (١٨٦٤) حددت مسؤولية الوالي الادارية[٢٠] : برئاسة مجلس إدارة الولاية والاهتمام بشؤون التعليم وضبط الأمن في الولاية ومراقبة



الجهاز الاداري والتقيد بميزانية الولاية والاهتمام بالشؤون المالية والاهتمام بالزراعة والتجارة والصحة والعمران وعليه إتخاذ الاجراءات السريعة التي تهدد المواطنين وأخبار الباب العالي بذلك . ويتألف الجهاز الاداري الذي يساعد الوالي من :

المتسلم : وهو نائب الوالي ويحل محله في غيابه . يعينه الوالي دون الرجوع الى استنبول ، وحصر هذا المنصب داخل الاسر المحلية فقد ولى حسين باشا أخاه فتاح بك هذا المنصب[٢١] .

مساعدو الوالي : يساعده عدد من الموظفين منهم الدفتردار (المسؤول عن واردات الخزينة) والمكتوبجي (المسؤول عن قلم التحريرات) والكتخدا وقائد الجندرمة ومدير الدفتر الخاقاني (المسؤول عن تطبيق الاحكام المتعلقة بحق إدارة الاملاك والأراضي)[٢٢] .

ديوان الانشاء : يضم عدداً من الكتاب ويختص بتحرير وترجمة كتب ورسائل الوالي ، وبرز هذا الديوان في الموصل في عهد الأسرة الجليلية ويرأس هذا الجهاز (رئيس كتاب الانشاء) ويتكون عادة من ادباء المدينة وشعرائها .

الجهاز المالي : تقع مسؤولية هذا الجهاز في ولاية الموصل على عاتق الولاة ، فهم المسؤولون عن جمع الضرائب وأرسالها للعاصمة سنوياً وفي حالة عدم إرسالها ترسل الدولة أحد موظفيها لجبايتها[٢٣] . وهناك عدة مناصب في هذا الجهاز متمثلة بالخزندار وهو الذي يشرف على خزانة الولاية وحفظ سندات ديوان الاصناف وتسجيل الفرمانات الواردة للولاية ومقدار الضرائب المفروضة على القرى النقدية منها او العينية ، وتدوين نفقات الوالي والمشاريع العامة . وتوجد وظائف اخرى في هذا الجهاز منها أمين الجزية وأغا الخراج وموظفي الدفتردارية[٢٤] .

وتأتي مرتبة القاضي بعد الوالي إذ يرشحه (قاضي القضاة) ويصدر فرمان بتعيينه ، والقاضي لايصدر أحكامه إلا بعد حصوله على فتوى من دار الافتاء الشرعي المكون من مفتي المدينة وأمين الفتوى ورئيس العلماء ، وكانت بناية المحكمة الشرعية في الموصل مستقلة عن سراي الحكومة[٢٥] . وهناك عدد من المساعدين للقاضي منهم :

المفتي : ويأتي بالدرجة الثانية في الجهاز القضائي بالموصل وهناك مفتيان الاول حنفي على المذهب الرسمي للدولة والثاني شافعي ويساعدان القاضي ومهمته ابداء الرأي في المسائل الفقهية ، وينوب المفتي القاضي عند تغيبه ، ويؤهل هذا المنصب صاحبه للوصول الى مرتبة القاضي ، وقد توارثته بعض أسر الموصل منها آل العمري ، وآل ياسين وآل الفخري وآل الغلامي[٢٦] .

نقيب الأشراف : مهمته تدقيق أنساب الاشراف واثبات صحة النسب المقدم اليه وانحصر هذا المنصب بأسرة آل الفخري، وبرز منهم يحيي بن فخر الدين وغيره[٢٧] .

واتسم القضاء بالبساطة . فكان القاضي ينظر في جميع الدعاوى الحقوقية والجزائية ودعاوي الاحوال الشخصية وفق الاحكام الشرعية[٢٨] . ويفصل بين الخصوم دون وجود محام. حيث كانت الدولة العثمانية تطبق الشرع الاسلامي في سن قوانينها وتشريعاتها القضائية مستند بذلك على فتوى شيخ الاسلام وذلك لغرض اضفاء الشرعية عليها . وفي عهد التنظيمات بدأت الدولة العثمانية باقتباس بعض النظم الاوربية منها النظام القضائي المدني وصدر قانون الجزاء الهمايوني في ٩ آب ١٨٥٨ وبموجبه حددت الدولة صلاحيات كل من النظامين القضائيين الشرعي والمدني ، فقلصت بعض صلاحيات القاضي وعهد بها الى موظفين مختصين كمفتشي الضابطة ، حيث أنيطت بهم مسؤولية مراقبة الاسواق من حيث ضبط الأوزان والأسعار ومحاسبة المتلاعبين بالمواد الاساسية كالخبز واللحوم[٢٩] . وانعكست هذه القوانين والاجراءات في الموصل فنظمت المحاكم سنة ١٨٥٨ على





• القشلة المدنية (السراي).

الشكل الآتي :

١ – المحكمة الشرعية وفيها القاضي والمفتي وحدد اختصاص هذه المحاكم بالنظر في امور الاوقاف والتركات والاحوال الشخصية من نفقة وطلاق وزواج وأرث.

٢ – مجلس تمييز الحقوق والجنايات : ويؤلف من القاضي رئيساً فضلاً عن وظيفته الأصلية وعضوية اثنين من المسلمين وواحد من المسيحيين واخر من اليهود، وظيفته النظر في القضايا الجنائية والحقوقية.

٣ – محكمة التجارة وفيها رئيس واعضاء دائميون وأعضاء مؤقتون وظيفتها النظر في القضايا التجارية او المتعلقة بالتجارة للولاية.

وشهدت الموصل تطوراً في النظام القضائي بعد سنة ١٨٧٨ وذلك بصدور قانون تشكيل المحاكم المدنية، فتشكلت عدد من المحاكم وحلت محل المجالس العدلية، وعين رؤساء لتلك المحاكم من قبل نظارة العدلية في استنبول، وكان أعضاؤها ينتخبون من قبل المجالس الادارية، ونصف اعضائها من المسلمين والآخرون من بقية الطوائف وحسب نسبتهم بالمدينة، وعند انتهاء مدة عضويته كان ينتخب اخر بدله. ومن هذه المحاكم محكمة حقوق بداءة، محكمة جزاء بداءة، مستنطق (حاكم تحقيق) مدع عام للبداية. وكانت احكام هذه المحاكم تستأنف في محكمة استئناف بغداد، وافتتحت محكمة إستئناف الموصل سنة (١٨٩٩)[٣٠]. وبعد اعلان الدستور العثماني سنة (١٩٠٨) أولت الحكومة العثمانية إهتماماً في إصلاح المحاكم والقضاء لاعادة ثقة المواطنين بالقضاء، فأستبدلت طريقة إنتخاب اعضاء المحاكم بطريقة التعيين واشترطت في التعيين التخرج من كلية الحقوق والمقدرة والكفاءة وحسن السمعة وخصصت لرؤساء المحاكم واعضائها رواتب ضخمة، وأحلت عناصر مثقفة بدل الموظفين القدماء، وحظيت الموصل بقسط من الاصلاح، فتم تعيين اعضاء المحاكم المدنية من حملة شهادات الحقوق وممن مارسوا مهنة القضاء والمحاماة فترة طويلة. وحدد ملاك المحاكم المدنية والشرعية بالموصل سنة (١٩٠٩) على الشكل التالي[٣١].

المحكمة الشرعية وتتألف من القاضي والمفتي وامين الفتوى ورئيس كتاب ومدير اموال اليتامى.

محكمة الاستئناف (الحقوقية والجزائية).
محكمة الحقوق البدائية.
محكمة الجزاء البدائية.
الهيئة الاتهامية (حكام الاحالة)
المدعي العام للاستئناف.
المدعي العام للبداية.
حاكم التحقيق الاول والثاني.
كاتب العدل وله معاون.



وفي ١١ نيسان ١٩١٢ ، صدر (قانون الدعاوى الاصلاحية) تسهيلاً لحسم القضايا الحقوقية البدائية البسيطة وتشكلت (محكمة صلح الموصل)[٣٢] . وكانت المحاكم على درجتين : الاولى محاكم بداءة والثانية محاكم إستئناف في مركز اللواء. اما في النواحي فكان هناك مجلس الختيارية اي الكبار في السن ومهمته فض النزاعات بين الأفراد صلحاً[٣٣] . وتميز القضاء بالموصل في عهد الأسرة المحلية بأن معظم قضاة الولاية كانوا من ابناء المدينة[٣٤] . ويظهر لنا مما تقدم أن القضاء بالموصل كان منتظماً وبعيداً عن تدخل السلطة.

وبالنسبة للجيش ، فان الموصل شهدت محاولة لتنظيم الجيش بعد سنة (١٨٤٨) حيث تم اعلان تشكيل الفيلق السادس. ونقل مقر قيادته الى بغداد[٣٥] . وأصبحت الخدمة العسكرية إلزامية للمسلمين من التبعة العثمانية ولمدة عشرين سنة تبدا من سن العشرين وحتى سن الاربعين ونظمت الخدمة على النحو الآتي :

١ – الخدمة النظامية : وهي إجبارية ومدتها اربع سنوات ثم قلصت الى ثلاث سنوات.

٢– الخدمة الرديفية : وهي خدمة الاحتياط مدتها ست سنوات ، بعدها أصبحت ١٢ سنة تعقبها المستحفظة ومدتها ثماني سنوات وهي مكملة للرديفية.

وكانت في الموصل الفرقة (٣٤) مشاة من الفيلق السادس ويتبعها اللوائين (٤٧ و٤٨) وكما هو موضح في الجدول الآتي :[٣٦]

رقم الفرقة	اللواء وموقعه	الآلاي وموقعه
٣٤مشاة	٤٧الموصل	٩٣موصل
		٩٤بعشيقة
	٤٨دهوك	٩٥دهوك
		٩٦ عقرة

وأدخلت تعديلات في نظام الجيش سنة ١٩١٣ وقسم الى فيالق وفرق وأتخذت الموصل مقراً للفيلق الثاني عشر والمتكون من فرقتين الأولى الفرقة (٣٥) ومقرها الموصل والثانية الفرقة (٣٦) ومقرها كركوك[٣٧] . وعانى العسكريون من تدني الاوضاع الاقتصادية والمعاشية ، فما يتقاضاه العسكري لايزيد في الشهر عن ثلاثة قروش وفي بعض الاحيان لم يتسلموا الرواتب لمدة تزيد عن سنة[٣٨] . وحظي الجيش باهتمام الوالي محمد اينجه بيرقدار فعمل على تطويره فبنى معملاً لصنع المدافع والقنابل وجلب له الصناع المختصين ، وانتج ما يزيد عن الثمانين مدفعاً سنة (١٢٥٩ هـ)[٣٩] .

وشهدت الموصل أول محاولة للتجنيد الألزامي في العراق سنة (١٨٣٥) ، فثار الأهالي ورفضوا تطبيق القانون العسكري ، وللحد من ثورتهم ، أرسل الوالي احد اعوانه المدعو (قاسم افندي) ليدعوهم الى الطاعة ويقنعهم بالالتزام به ، فثاروا عليه وقتلوه ، وبقتله احضر محمد اينجه بيرقدار عشرين مدفعاً وصوبها أتجاه المدينة وأرسل بعض الكتائب النظامية فدخلوها وسفكوا دماء الابرياء من اهل المدينة ونهبوا اسواقها.[٤٠]

وكانت الخدمة العسكرية محصورة بالمسلمين ، أما غير المسلمين فيدفعون البدل النقدي ، وبعد الانقلاب العثماني ١٩٠٨ عدل قانون التجنيد وأصدر مجلس المبعوثان في تموز ١٩٠٩ قراره بشمول جميع افراد الدولة العثمانية بالمكلفية دون استثناء. وفي الموصل استقبل هذا القرار بحماسة كبيرة فقد أبرق داود يوسفاني من استنبول يبشر الاهالي بالقرار، وسار المسيحيون المشمولون بالقرعة الى القشلة الهمايونية باحتفال عسكري تتقدمهم الموسيقى والاعلام العثمانية ، واحتشد الاهالي في الطرق واقيم



إحتفال خطابي القيت فيه عدد من الكلمات والخطب بهذه المناسبة [٤١] .

وفيما يتعلق بقوى الأمن الداخلي فقد كان للوالي قوة خاصة به تعرف بـ (التفنكجية) وهم حاملو البنادق ، ومهمتهم حفظ الأمن والقيام باعمال الشرطة وأنحصر منصب رئيس هذه القوة وراثياً باسرة موصلية تعرف بـ (بيت شويخ) وآخر من تولى هذا المنصب فيها (عمر أغا) وعرفت الأسرة ببيت عمر أغا [٤٢] .

وفي اواخر القرن التاسع عشر قدر عدد الجندرمة والضبطية باكثر من (٤٠٠) فرد [٤٣] . ونظمت على هيئة (استراسوار) اي الخيالة و(البيادة) وهم المشاة ، وواجباتها تكمن في حماية الامن وتوفير الطمأنينة وجمع المسوقين للخدمة وإستدعاء الاحتياط وجمع الايرادات وحماية قوافل المسافرين ومطاردة قطاع الطرق وحراسة السجون [٤٤] . وحقيقة هذه القوة انها لم تكن متقيدة بالنظام ويديرها ضباط أميون ، ولاتدفع لهم المرتبات الشهرية بأنتظام ، ومعظم أفرادها كانوا مراسلين وجباة للضرائب وخدم للموظفين الكبار وليست لديهم المقدرة على مطاردة اللصوص والمرتشين ، لكنها لم تخلُ من بعض الرجال المقتدرين الاكفاء [٤٥] .

وامتداداً لحركة التجديد والاصلاح تم تطوير هذا الجهاز في سنة ١٩١٣ وضع له نظام جديد وسعت بموجبه سلطات الشرطة وغيرت تقسيماتها حسب النمط الاوربي وعين مفتش عام في العراق (مدير الشرطة العام) قراجيا أفندي مفتشاً لبغداد وضمت صلاحياته الموصل والبصرة [٤٦] .

الميدان الاقتصادي

الزراعة :

اشتهرت الموصل منذ القدم بالزراعة ، فهي تقع وسط منطقة زراعية واسعة شديدة الخصوبة تمتد ما بين دجلة والزاب الاعلى وبين هذا النهر والزاب الاسفل ويضم سهل الموصل الممتد على طرفي نهر دجلة بين جبل الشيخان وجبل سنجار، وتعتمد في زراعتها على الامطار وتزرع فيها الغلال على مدار السنة ، وبقيت الموصل منتجة للحبوب (القمح والشعير) ومخزناً ضخماً يمد المناطق المجاورة بكميات كبيرة من هذه الغلال [٤٧] . وتعرض الانتاج الزراعي فيها في بعض الاحيان للاخطار والكوارث الطبيعية منها مهاجمة الجراد للحقول والمزارع والقضاء على المحصول لمرات عديدة [٤٨] . وهطول الامطار بكميات كبيرة مما تؤدي الى الفيضان وتلف المحصولات او هبوب ريح سموم تهلك الزرع او هجوم برد شديد فتجمد النهر مما يؤدي الى انتشار القحط وهذا ما حدث في سنتي ١٨٧٩ و١٨٨٠ فبسبب القحط المنتشر في شمال العراق عمت المجاعة اطراف المدينة وإزدادت وطأتها في الداخل وتركت اعداداً كبيرة من سكان الارياف قراها واتجهت صوب المدينة بحثاً عن رغيف الخبز لسد رمقها فتضاعف عدد الفقراء خلال شهر الى ثلاثة أضعاف ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً [٤٩] .

مما حدا بالفقراء الى مهاجمة بيوت التجار والاغنياء وهذا ما شهدته المدينة سنة ١٩١٣ [٥٠] . وعلى الرغم من ذلك ولكثرة خيرات الموصل وما تنتجه من محاصيل زراعية متعددة فقد أطلق عليها تسمية (كجك اسلامبول) اي استنبول الصغيرة . وهي تعد من أسرع مناطق العراق الاخرى في تطور العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، فقد كثر على سبيل المثال الاقبال على زيادة الأراضي المزروعة ببعض مناطقها الشمالية بعد حركة الاصلاح والتجديد الذي شهدته المدينة [٥١] . وحدث تغير في الانتاج الزراعي وخاصة بعد افتتاح قناة السويس واستقطاب مصر لدور العراق ، وأرتباط العراق بالسوق العالمية وازدياد الاقبال على المنتجات الزراعية واتساع المساحات المزروعة بوتائر سريعة ، وانعكس ذلك على سلوك الاقطاعي الذي عمد

الى زيادة كمية المنتجات الزراعية المخصصة للتصدير(٥٢)، فضلاً عن انتشار الأراضي السنية (التي تعود للسلطان عبدالحميد) في مناطق زمار والسهول الواقعة بين الزاب الاعلى والاسفل القريبة من الموصل(٥٣).

وتحول إقتصاد المدينة كباقي المناطق من إقتصاد طبيعي قائم على اساس اشباع الحاجة الى اقتصاد تسويقي قائم على الربح والتصدير(٥٤). وظهرت طبقة زراعية جديدة وهم (الملاك الغائبون) والذين ليست لهم أية صلة بالزراعة وأحياناً لم يشاهدوا أراضيهم(٥٥). فضلاً عن استخدام بعض الأساليب الزراعية الحديثة في الانتاج لتلبية الاحتياجات.

الصناعة :

عرفت الموصل الصناعة منذ الفترة الآشورية واستمرت الى السيطرة العثمانية، وكانت تقوم على اساس الانتاج الحرفي المنزلي كبقية المدن العربية في المشرق والمغرب(٥٦). واشتهرت بصناعتها الراقية وكانت تنتج كل لوازمها واحتياجاتها تقريباً وتصدر ما يفيض منها(٥٧). ونشطت فيها صناعة النسيج والحياكة وطباعة النقوش، وتحولت المدينة الى مركز تجاري مهم وظهرت فيها بعض الأسر المحلية التي جمعت بين نشاطها التجاري وملكيتها للأرض، وتعد صناعة النسيج من أهم الصناعات الموصلية. والعملية الانتاجية الاولية تتم في القرى القريبة وينقل النسيج الى المدينة لتصنيعه من خلال القصر والصبغ(٥٨). وتذكر المصادر ان في الموصل سنة (١٨٧٩) يوجد (٣٥٠٠) مصنع حياكة ويقصد بها المحلات الشعبية، ويحتمل ان تكون الدور الاهلية التي ينسج فيها من ضمنها(٥٩). واطلق على نوع محدد من النسيج (muslin) موسلين ولجودتها استخدمها الولاة في مجالس الضيافة ويذكر الرحالة (روبرت كير بورتر) انه عند استضافة الوالي داود باشا اياه (١٨١٦-١٨٣١) فرش على ركبتيه منديلاً من قماش الموسلين، وكان مطرزاً تطريزاً بديعاً(٦٠). وفضلاً عن صناعة النسيج كانت هناك صناعات تراثية يتوارثها الأبناء عن الآباء منها التطريز بالحرير وخيوط الفضة المطلاة بالذهب وبرقشة الاواني الفخارية وطليها بالدهان الاخضر او الملون إضافة الى الصناعة التقليدية كالنجارة والحدادة والبناء والدباغة وصناعة الصابون ومعالجة النحاس وعمل الأحذية (الخفافية) وصناعة الزيوت(٦١). وكذلك صناعة بعض المواد الانشائية كالنورة التي تستخدم في البناء بكثرة آنذاك ويطلق عليها محلياً (الجص)(٦٢). وبحكم الدقة والمهارة الفنية التي تميز بها الصناع الموصليون فضلاً عن الظروف المناخية والنظام العمراني يكون من يعيش بالموصل تواقاً لمزاولة الصناعة النسيجية(٦٣). فكانت في بعض الاحيان تتفوق على المنتجات الاوربية كصناعة السجاد المطرز بالازهار وبعض المطرزات إضافة لعمل سروج الخيول واحزمتها(٦٤). وفي أواخر القرن التاسع عشر دخلت الصناعة المحلية في الموصل تحت تأثير المنافسة الاجنبية(٦٥). فلم تتطور بالشكل المطلوب حيث وقفت تلك المنافسة واساليبها حائلاً دون تجديد الانتاج الموسع في الصناعة المحلية وان عملت الى تجديد الانتاج البسيط فعلى سبيل المثال أصبحت صناعة النسيج التي اشتهرت بها المدينة امام احد خيارين : إما ان تتطور أو تتلاشىٰ تدريجياً. لذلك بذلت الجهود في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لاستيراد الانوال اليدوية الاوربية. لتحل محل الأنوال المحلية وعلى الرغم من ذلك هبط عدد حائكي الانوال اليدوية الى ٥٠٠ حائك بالموصل سنة (١٩١١)(٦٦). ونتيجة لموقف الدول الأجنبية وسيطرة الرأسمال الاجنبي على الاقتصاد المحلي لم تتطور الصناعة وظهرت بعض الصناعات البسيطة



كصناعة الثلج وطحن الحبوب وقيام بعض الشركات الأجنبية والتي فتحت لها فرع بالموصل سنة (١٩١١) كشركة ماك اندروز فوربس Mac Andrews Forbes المختصة بجمع جذور عرق السوس وتصديرها للخارج[٦٧] . فحركة الاصلاح في قطاع الصناعة بالموصل عملت الى تجديد الانتاج البسيط واحيانا المتناقض وأدى الى دمار بعض الصناعات الحرفية وخرابها.

التجارة :

شهد قطاع التجارة بالموصل بعد حركة الاصلاحات العثمانية نمواً مطرداً وخاصة بعد سنة (١٨٦٩) من خلال العملية التجارية في الاستيراد والتصدير نجم عن ذلك تغييراً في علاقات الانتاج وارتباطها بالسوق الخارجية، واتساع تجارة التصدير الى اوربا[٦٨] . في الفترة بين (١٨٨٤-١٨٨٥) بلغت قيمة صادرات المدينة (٢٥١,٥٣٩) جنيه استرليني صدر منه ما قيمته (٧٥,٨٦٤) جنيه استرليني الى بريطانيا و(٩٦,٧٣٨) جنيه استرليني الى اوربا في حين بلغت قيمة الصادرات الى بريطانيا سنة (١٩١٠) (١٧٦,٥٠٠)، ووصل المعدل السنوي لقيمة صادرات الموصل خلال الفترة (١٩٠٩-١٩١٢) (٤٧٣٠٠٠) جنيه استرليني، وتتمثل صادرات الموصل آنذاك بالحبوب كالقمح والشعير والعدس ومواد الدباغة والمصارين والجلود والحيوانات[٦٩] .

وكانت العلاقة التجارية بين الموصل وحلب مزدهرة، فقد كان يمر بها طريق القوافل بين حلب وبغداد، وكانت تصدر المواشي وتستورد بعض المواد المصنعة ونصف المصنعة كالأقمشة والصابون والجلود والجدول الآتي يوضح طبيعة التبادل التجاري لسنة (١٩١١)[٧٠] .

قيمة الصادرات السورية الى الموصل		قيمة صادرات الموصل الى سورية	
جلود	٤٠,٠٠٠ فرنك فرنسي	صبغ للحياكة	٣٤,٥٠٠ فرنك فرنسي
صابون	٣٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي	صمغ عربي	٣٤,٥٠٠ فرنك فرنسي
اقمشة مختلفة	٢٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي	جاموس	٣٤٥,٠٠٠ فرنك فرنسي
المجموع	——	غنم	٦٩٠,٠٠٠ فرنك فرنسي
	٥٤٠,٠٠٠ فرنك فرنسي	بقر	٣٤٥,٠٠٠ فرنك فرنسي
		الحرير بالقيطان	١١,٥٠٠ فرنك فرنسي
		المجموع	——
			١٤٦٠,٥٠٠ فرنك فرنسي

ونمت في الموصل تجارة الاستيراد وبلغ قيمة مستورداتها من بريطانيا والدول الاوربية بـ(خمس) إجمالي مستورداتها التي قدرت بـ (٥٦٣,١٣٩) جنيه للسنوات (١٨٨٤-١٨٨٥)، وفي بداية القرن العشرين أصبح ثلث مستوردات الموصل من مناشىء أوربية، وبلغت قيمة مستورداتها من اوربا سنة ١٩٠٩ (١٤٧٣١٠) جنيه، وانخفضت سنة (١٩١٠) الى (١٤١٩٤٠) جنيهاً ويعزى الهبوط في التجارة المباشرة بين الموصل واوربا الى توافر المستلزمات من بغداد وحلب واستنبول وبأسعار اقل[٧١] ، والملاحظ ان تأثير حركة الاصلاحات وما رافقها من صدور للقوانين العثمانية المتعددة أدى في مجال التجارة الى ظهور فئات غنية بالموصل أصبح لها تجارتها وشركاتها ونظمت نفسها في غرفة تجارية سميت«تجارت اورطة سي» ووردت اشارات عدة الى أن تاريخ تأسيس هذه الغرفة يعود الى سنة ١٨٩٤ ، وترأسها خلال فترة التأسيس رئيسان هما الحاج أمين أفندي ومحمد جلبي الصابونجي.[٧٢]

الميدان الاجتماعي والحضري

نظرة عامة :

كانت تركيبة الموصل الاجتماعية جزءً من تكوين العراق المتميز بقومياته وأديانه المتعددة، فالعرب يكونون الاكثرية الساحقة من السكان ولم يكن عدد سكان الموصل ثابتاً، ويذكر ان البعض قدرهم بحدود ثمانين الف معظمهم من المسلمين وربعهم من النصارى وخمسة الآف من اليهود. وقدر آخرون سكان الموصل سنة (١٨٧٩) بـ (٤٠٠٠٠) نسمة، وفي سنة (١٨٨٩) بـ

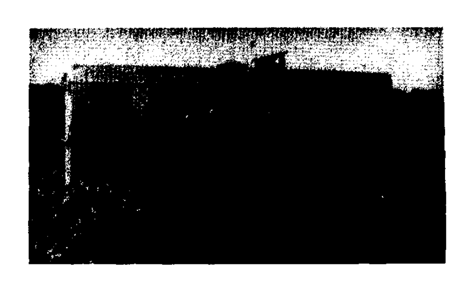


(٦٣٠٠٠) نسمة[٧٣].

وكانت مدينة الموصل تتألف من «محلات» تتميز بضيق أزقتها[٧٤]. وجمال اسواقها وكثرتها وحسن تنظيمها ووفرة حاجاتها المعروضة، وكانت المدينة تتزود بالمياه كبقية مدن العراق في قرب من جلود المعز تنقل على ظهور الحيوانات الى الدور، وفي مطلع القرن العشرين تم إقامة مشروع إسالة الماء ومدت الأنابيب المعدنية الى الدور لايصال الماء الصالح للشرب[٧٥]. ويقضي ابناء المدينة معظم اوقات فراغهم في المجالس الأدبية التي تعقد في بيوت عدد من الأسر العلمية التي برزت في الموصل خلال العهد العثماني كأسرة آل الفخري و آل الغلامي، كما تكثر في الموصل المقاهي الواسعة وبعضها يحتل الشارع بطوله، وتصف المقاعد على جانبي الطريق ويظللها سقف من الحصير، وهي بمثابة النوادي التي يلتقي فيها المواطنون حيث يستمعون الىٰ القصص الشعبية التي تؤكد على البطولة والشجاعة كقصة عنترة[٧٦]. ولمكانة الموصل فقد أشاد بها بعض الرحالة مثل ويكرام وذكر ان بوسع القاهرة فقط ان تزعم مضاهاتها، وانعكست وحدة المجتمع الموصلي من خلال مشاركة معظم ابناء المدينة في الاعياد الشعبية والرسمية والاحتفالات التي كانت تشهدها المدينة[٧٧].

التطور الحضري:

اشتهر الوالي محمد اينجة بيرقدار بعد توليه الموصل سنة ١٨٣٥، بهمته العالية وسعيه في تعمير المدينة بالاعتماد على مواردها المحلية، ودعم ابنائها الموسرين، فأجتمع بتجار المدينة وأغنيائها وألزمهم دفع مصاريف الاعمار المطلوبة للمدينة، فشيد دار الحكومة (القشلة) والثكنة العسكرية والمستشفىٰ التي كانت تفتقر اليها المدينة ، وبنىٰ جامع سوق الحنطة وجدد مزار النبي دانيال وشيد أبنية حكومية في مراكز الاقضية التابعة للموصل. وأنشأ المخابز والافران لانتاج الخبز في المدينة، واهتم ببعض الصناعات التي لها علاقة بالجيش[٧٨]. وشهدت المدينة خلال حكمه حركة واضحة من خلال اهتمام الاهالي بالعمل والانتاج، ونقل بعضهم جزءاً من متطلبات الحياة العصرية في الدول الصناعية، فجلب بعض سكان المدينة مكائن لطحن الحبوب لاستخدامها بدلاً من الطريقة التقليدية الاولية في طحن الحبوب والتي كانت تعتمد في عملها على الحيوانات، وقام أحد السكان بجلب ماكنة لصنع الثلج، ورحب الوالي بمبادرته ولتشجيع المواطنين على شراء الثلج وكسب زبائن له وضع اسم آمر حامية المعسكر في رأس قائمة المشتركين بثلجه مجاناً[٧٩]. وشهدت المدينة أوائل سنة (١٨٦١) نصب اول خط تلغراف بالعراق يربط بين الموصل وبغداد ثم ربط بأستنبول، [٨٠] وكان للتغراف دور مهم في دعم السلطة المحلية وإشاعة الامن من خلال تأمين سرعة نقل الاخبار والأحداث والمواقف[٨١]. وضمن حركة البناء والتجديد التي شهدتها المدينة تم افتتاح دائرة البريد في الموصل



• البناية القديمة للبريد في الموصل.

بعد سنة (١٨٧٨) إثر توقيع الدولة العثمانية على إتفاقية البريد العالمية في باريس، وكان البريد التركي يستخدم الطريق البري من خلال القوافل وهناك اوقات محددة لحركة القوافل فبريد التاتار (الرسمي) كان موعد مغادرة القافلة كل يوم اثنين



من اسبوع متجهاً الى استنبول عبر الموصل وديار بكر.[٨٢] ولنشاط الحركة التجارية نمت الحركة المصرفية بالمدينة وافتتحت عدة مصارف برساميل أجنبية منها فرع البنك العثماني الذي تأسس سنة (١٨٦٣) برأسمال بريطاني وفرنسي، وفرع للبنك الشرقي The Eastern Bank وهو برأسمال بريطاني.[٨٣]

البلدية :

تأسست دائرة بلدية الموصل ومجلسها سنة (١٨٦٩) ضمن خطط الاصلاحات العثمانية وكانت مؤلفة من الرئيس ومعاونه ومجلس يتألف من ستة اعضاء، ومدة العضوية فيه سنتان، وعضوية المجلس فخرية ويجتمع مرتين بالاسبوع، ومن الواجبات المنوطة به للنهوض بالمدينة وتطويرها هي : وضع الميزانية العامة للبلدية وفرض الضرائب أو الغائها على أصحاب الحرف والمهن، وإحالة الرسوم العائدة للبلدية علىٰ ملتزميها، وإحالة المشاريع العمرانية علىٰ المتعهدين، والبت في موضوع فتح الشوارع وتبليطها والاشراف علىٰ إنجازها واستملاك الدور والعرصات. وأنجزت بلدية الموصل عدداً من الاعمال منها تعمير العرصات القديمة في وسط المدينة وتشييد المقاهي الشعبية مثل (مقهىٰ الصوافة) وفتح الشوارع مثل شارع الطوافة وهو الممتد من منطقة باب البيض الىٰ دائرة الحكومة (القشلة) وشارع القشلة (العدالة)، وشارعي نينوى والنجفي اللذان يخترقان المدينة من وسطها ويمتدان من الشرق الى الغرب، وشارع النبي جرجيس الذي يقطع المدينة من جنوبها الىٰ شمالها[٨٤]. وعملت البلدية علىٰ إصلاح (القالدرم) وهو البلاط الترابي للطرق.[٨٥] وردمت الخندق الممتد من ساحل نهر دجلة الى باب الطوب وشمال منطقة باب لكش فمنطقة باب الجديد، وقامت بتشييد بناية لدائرة البلدية والمحكمة الشرعية ودائرة الجندرمة، وأسست مشروع النقل بالعربات داخل المدينة، وصنفت الباعة، وأبعدت معمل الدباغة والمجزرة وخانات الخمور الىٰ خارج المدينة، ودفعت إعانات للفقراء وفتحت ملجأ للمعوزين، وأنارت الطرق الداخلية بالمصابيح الزجاجية النفطية. وخلال الفترة الممتدة بين (١٨٨٧ – ١٨٩١) تأسست دائرة هندسية تأخذ على عاتقها القيام بالتخطيط للمشاريع المقترحة[٨٦] . وحفاظاً على الصحة العامة أشرف طبيب البلدية على اسواق المدينة وفرضت سنة (١٩١١) على ارباب الحرف وصناع الحلويات وبائعي الحليب استحصال اجازة قبل ممارسة العمل مشروطة بتفتيش الطبيب لمحلاتهم[٨٧] ، وطالبت اصحاب المطاعم والمشروبات الكحولية باستحصالها ايضاً[٨٨] .

الوعي الصحي والخدمات الصحية :

كانت الخدمات الطبية محدودة جداً والطب الشعبي هو السائد والوعي الصحي منتشراً لان الاهالي تقبلوا علاج الاطباء وتطبيبهم ووصف أحد الرحالة الأجانب نظرة أهالي المدينة الىٰ الاطباء بقوله إنهم (يشتاقون الىٰ الاطباء إشتياق المريض المحروق بالحمىٰ الىٰ قطرة الماء التي تعيد اليه الحياة والنماء)[٨٩] وشهدت الموصل خلال عهد الاسرة الجليلية حركة ثقافية نشطة إنعكست علىٰ الحالة الصحية فبرز عدد من الاطباء منهم الحاج محمد العبدلي (ت ١٧٥٠) ووصف بانه (قرأ الطب والتشريح علىٰ المهرة والحذاق ففاق جميع أقرانه) وغدا في النصف الاول من القرن الثامن عشر رئيساً لاطباء الموصل وجراحاً ماهراً وقصده عددٌ من المرضىٰ من أطراف العراق وكثيراً ما استدعي الىٰ بغداد لمعالجة الولاة[٩٠] . وقام بعلاج الجرحىٰ الوافدين الىٰ الموصل نتيجة للغزو الفارسي للعراق في اوائل حزيران ١٧٣٣ بقيادة نادر شاه[٩١] .

وتحفز عدد من الشباب الموصلي للتخصص بدراسة الطب، وأصبحت الموصل تقدم الخدمات الطبية لسكانها وللمناطق المجاورة لها. وكان الطبيب محمد الجلبي (١٧٧٦ - ١٨٤٦) من أبرز الاطباء واكثرهم شهرة ومن أشهر مؤلفاته الطبية شرح ارجوزة ابن سينا في الطب، وجمع كتاباً في الطب شرح فيه كيفية أخذ لقاح الجدري واستعماله وأعراضه في الموصل وان كان (جنو) قد أعلن اكتشافه للقاح سنة (١٧٩٨)[٩٢].

وقامت الارساليات التبشيرية من خلال المبشرين الذين وفدوا الى الموصل بدورمهم في مجال الطب ففي سنة ١٧٥٠ تقدم الآباء الدومنيكان طبيبين إيطاليين مبشرين هما فرنسيسكو توريان Tuoriane والاب دومنيكو كوديلنشيني Codelinchieni. ومنذ سنة (١٨٧٣) برزت الراهبات في تقديم الخدمات الطبية بالموصل، وفي سنة (١٨٧٦) افتتحت مستشفىٰ ليجون، ويبلغ عدد المراجعين لها في اليوم سنة (١٨٧٧) بين (٨٠-١٠٠) مريض وارتفع عددهم حتىٰ وصل معدل مراجعيها في اليوم الى (٢٠٠) مريض[٩٣]. وخلال السنوات الممتدة بين (١٨٨٧ - ١٨٩١) تم تأسيس دائرة صحة البلدية للاشراف علىٰ الصحة العامة. وفي سنة (١٩٠٧) تولىٰ الدكتور حنا خياط إدارة المستوصف الصحي وقام بتقديم الخدمات الصحية، وفي سنة (١٩٠٨) استحدث منصب مدير صحة الولاية لمدينة الموصل وانفصلت عن البلدية وأصبحت دائرة مستقلة وشغل منصب مديرها الدكتور فيضي بك[٩٤]. وفي سنة (١٩١٢) تم إنشاء بناية مستشفىٰ الغرباء بالقرب من المدرسة الصناعية في باب سنجار، وكان يعمل فيها عدد من الاطباء المتخرجين من كليات الطب في إستنبول وبيروت وجامعة باريس وسويسرا منهم الدكتور فتح الله غنيمة والدكتور عبد الاحد عبد النور والدكتور عبدالكريم قليان الذي شغل وظيفة الطبيب العدلي يعاونه الجراح الأهلي أمين السيفو والدكتور يحيىٰ سميكة، وهناك اطباء عسكريون منهم الدكتور داؤد الجلبي والدكتور احمد وجداني وغيرهم وكان لقسم من هؤلاء الاطباء عيادات خاصة بالمدينة[٩٥].

حركة التمثيل والمسرح :

كانت البدايات الاولى لحركة التمثيل محدودة ومقصورة علىٰ افراد معينين، حيث ترعرعت في احضان الجمعيات الادبية وهي ثمرة من ثمار النهضة والوعي القومي[٩٦]. ويطلق علىٰ التمثيل التشخيص والممثل بـ (المشخص) وانتشر التمثيل بين صفوف طلبة المدارس الاهلية ومعلميهم.

اما المسرح فإن جذوره تمتد الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتعدّ سنة (١٨٨٠) البداية الاولى لانطلاقته[٩٧]. بعد ان عني المبشرون به على مستوى مدارسهم واستخدموه وسيلة لنشر عقائدهم وقيمهم الدينية، ولكن سرعان مابرزت القيم الوطنية لانها إحدىٰ الادوات التي تعمل على حث المواطنين علىٰ الاستقلال والتخلص من السيطرة الاجنبية[٩٨]. واتجه المسرحيون في الموصل خلال الربع الاول من القرن العشرين الىٰ تبني المواقف القومية التي تدعو الى الفخر والاعتزاز بالتاريخ العربي وتثير في النفوس الحمية والالفة كرد فعل لدعاة الاخذ بالحضارة الغربية[٩٩]. وقدمت في الموصل عدة مسرحيات منها سنة (١٨٨٨) مسرحية (نبوخذ نصر) من تأليف الخوري هرمز نورسو الكلداني المارديني، وقدمت على مسرح المدرسة الاكليركية بالموصل، ومسرحية استشهاد (مارتسيوس) ترجمة سليم حسون وهي مسرحية تاريخية بثلاثة فصول، وكان للحركة المسرحية الدور الملحوظ في نشاط حركة الترجمة، إذ ترجم عدد من نصوص المسرحيات الادبية الى العربية ومن طليعة المسرحيات المترجمة كانت



مسرحية (فام فاملو كوالس) لمدام دي بفوار، ترجمت عن الفرنسية من قبل فتح الله سحار وعرضت سنة (١٨٩٣) باسم (لطيف وخوشابا)[١٠٠] . وابرز الذين قدموا خدمات لبناء المسرح في الموصل هم حنا رسام، الخوري هرمز، فتح الله سحار، نورسو الكلداني، وغيرهم.[١٠١] ويمكن اعتبار تلك المحاولات بدايات المسرح في الموصل حيث انه لم يرق الى ماوصل اليه من نشاط في بعض الاقطار العربية كمصر.

الملابس والزي الشعبي :

حافظ سكان المدينة على زيهم العربي المتمثل بالكوفية والعقال، اما رجال الدين فكانوا يرتدون الزبون شتاءاً والصاية صيفاً. والتجار وأرباب الحرف ارتدوا الزبون وفوقه الدميري ووضعوا العمائم على رؤوسهم[١٠٢] وارتدى الآخرون منهم اللباس التركي والعمائم والطرابيش مثل أهالي سوريا[١٠٣] . وبعد حركة الاصلاح العثماني تأثر أبناء الموصل ببعض المظاهر الحضارية والاجتماعية الاوربية فارتدوا الزي الاوربي المتمثل بالسترة والسروال ووضعوا الطربوش على رؤوسهم وعرفوا بـ (الافندية)[١٠٤] . اما البدو فامتازوا بزيهم البسيط فهم يرتدون ثوباً ويشدون عليه حزاماً ويضعون العباءة فوقه، والاغنياء منهم يزيدون عليه كساءً مبطناً أو جلداً من جلود الغنم يعرف بـ (الفروة) شتاءً[١٠٥] . اما النساء فارتدت المرأة الموصلية إزاراً طويلاً تعقده بيدها من وسطها ولونه اسود أو أزرق وتضع على رأسها طربوشاً مزركشاً بقطع ذهبية وتتبرقع بـ (الخيلية) وهي عبارة عن نسيج من خيط أسود مخرمة تطرز اطرافها بما يجعلها غير مرنة واستبدلت بالبوشيه (البيجة) والتي هي عبارة عن قطعة من القماش الاسود الشفاف لتغطية الوجه[١٠٦] . فحركة الاصلاح والتجديد اثرت في اهالي المدينة من خلال ارتدائهم للزي الاوربي وانحصرت بالمتعلمين والموظفين (الافندية).

الميدان الثقافي والتعليمي :

شهدت الموصل منذ بداية القرن الثامن عشر بوادر نهضة ثقافية واسعة، وامتازت هذه الفترة بظهور الاسر المحلية الحاكمة وانحسار النفوذ العثماني، وكان الادباء يمثلون المرآة التي تعكس صورة المجتمع آنذاك وهم الطليعة في فترة الحكم العثماني. وأطلقت الأسر المحلية في حكمها للموصل الثقافة العربية بعد ان كانت محصورة في المساجد والكتاتيب وأدخلتها في المؤسسة الادارية من خلال (ديوان الانشاء) الذي اعتمد العربية في المراسلات والوثائق الرسمية وارتفعت مكانة الادباء والعلماء من خلال تقلدهم للمناصب الادارية أو بحكم مكانتهم الاجتماعية المتميزة أو لادوارهم القومية المعروفة، وظهر من بينهم الشيخ مصطفى الغلامي وعبدالله الربتكي وغيرهم الذين خرجوا عن المفاهيم العثمانية السائدة آنذاك ودعوا الى تقدم الأمة ونقلوا معاناة أبناء جلدتهم وطرحوا افكارهم بنزعة عربية تؤكد تمسكهم بقوميتهم وأصالة تراثهم فمصطفى الغلامي مفتي الموصل يتمنىٰ الموت على حياة الذل والمسكنة بقوله[١٠٧] .

يا ليتنا متنا قبيل الأذى
وقبل هذا الذل والمسكنة

وساعد على ازدهار الحياة الفكرية حركة التأليف بمختلف فروع المعارف العلمية والانسانية وجرى الاهتمام بحركة إحياء التراث الأدبي العربي القديم وقيام حركة أدبية نشطة تبارىٰ فيها الموصليون فأكتظت المجاميع الأدبية بأشعار التشطير والتخميس والتسبيع، وكثيراً ماتنافس عدد من الادباء على محاكاة قصيدة لأحد الشعراء الاقدمين منهم الشيخ علي الوهبي الموصلي ويوسف العمري والشيخ صالح الحافظ ومحمد الغلامي وغيرهم وأدىٰ هذا الاهتمام الى نمو فن النقد الأدبي وبرز في

هذا المجال محمد الغلامي بكتابه «شمامة العنبر والزهر المعنبر»[١٠٨]. ومن المؤلفات الموصلية التي ذاع صيتها كتاب «منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء» لمحمد امين الخطيب العمري، وكتاب أخيه ياسين بن خيرالله العمري المعتمد على نظام الحوليات «الاثار الجلية في الحوادث الارضية»، وكتاب «غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر» وكتاب «روضة الفيحاء في تواريخ النساء»، إضافة الى العديد من الكتب الاخرىٰ التي كشفت لنا عن مدى الثقافة والمتابعة للاحداث سواء داخل المدينة أو خارجها. وبرز في هذا المجال أبناء الاسر المعروفة بمكانتها وعلمها منهم آل العمري وآل الفخري وآل الغلامي وآل المفتي وغيرهم. وأنجبت الموصل في هذه الحقبة ومابعدها عدداً وافراً من الأدباء والعلماء منهم أبن الصباغ (ت ١٨٢٤)، وعبد الباقي العمري (ت ١٨٦٢)[١٠٩]، الذي أختير لمنصب الكهية في باشوية الموصل وهو في العشرين من عمره المعروف بذكائه وجرأته الادبية، وسرعة بداهته فشارك في وفد الموصل لمقابلة الوالي داؤد باشا لاستحصال موافقته على تعيين يحيىٰ باشا والياً للموصل فأعجب به داود باشا وسأله عن حاجته فأجابه[١١٠]،

يامليك البلاد أمنيتي حا
شاك مثلي يعود منك كسيراً
أنت هارون وقته ورجائي
أن أرىٰ في حماك يحيىٰ وزيراً

وبرز الشاعر محمد أمين العمري (ت ١٨٧١) ماهراً في الانشاء مبدعاً في النظم وله آثار متعددة في النظم والنثر[١١١]. وشهدت فترة الاصلاحات العثمانية ومابعدها ظهور أدباء وعلماء مشاهير آخرين بالموصل منهم عبدالغفار الاخرس (ت ١٨٧٣) وهو من فحول شعراء عصره، لقب بالأخرس لحبسة في لسانه وهو شاعر متمكن من لفظه قوي العبارة له ديوان (الطراز الانفس في شعرالاخرس) طبعه احمد عزت الفاروقي، وعبدالله باشعالم (ت ١٨٧٩) نشأنه دينية اشتهر بمعرفته في الفقه والادب والقراءات السبع ولعلمه ومكانته منح في استنبول رتبة (باشعالم) أي رئيس العلماء وتولىٰ منصب الافتاء بالموصل. وكذلك أحمد عزت الفاروقي (ت ١٨٩٢) وهو شاعر ومؤلف جمع شعره في ديوان مخطوط وله عدة مؤلفات منها العقود الجوهرية وإحتوت علىٰ تراجم لبعض شعراء عصره، ورحلة الى نجد، ورسالة في التصوير الشمسي (مخطوط)، والسفينة (مخطوط جمع فيه بعض شعره ورسائله)، وترجم عن التركية أحكام الأراضي، وشغل عدة مناصب إدارية منها متصرف الاحساء وتعز. ومن شعراء الموصل المعروفين ملا حسن البزاز (ت ١٨٨٧)، درس عند الشيخ صالح بن طه الخطيب، غلب عليه الشعر وخاصة في التصوف والمدائح النبوية، وكانت مهنته البزازة، فضلاً عن شعراء آخرين منهم ملا شريف الموصلي صاحب ديوان (شغف المسلوب في حبات القلوب) والمتكون من اثني عشر مجلداً، وأحمد بن محمود الفخري الذي عرف بشعره الوجداني[١١٢].

بسبب استمرار حركة الاصلاحات العثمانية في ارجاء الدولة العثمانية ومنها الموصل ولانتشار الوعي بين الاهالي، وافتتاح المدارس الحديثة نمت فيها الثقافة وتطورت واتضحت في مظاهر متعددة منها :

الوعي السياسي :

تميز الوضع السياسي في الموصل بنفوذ العناصر المحافظة وكانت المدينة مقسمة الى أحياء يسيطر على كل منها عائلة ذات نفوذ اجتماعي ومادي، وغالباً ماتسود هذه العوائل علاقة تنافس وتنافر. لكنهم تفوقوا بالمحافظة على مراكزهم ومحاربة أي تغيير. وحافظت المراتب الاجتماعية على مكانتها في عهد



الاتحاديين ولم يتنافروا معهم ، وكان لهيمنة المشاعر الدينية التي ترىٰ في أي تحدٍ للسلطان مروقاً على الدين ، ولمغادرة المثقفين خارج المدينة فان لهذا دوراً في عدم بلورة العمل القومي وظهور الاحزاب والعمل السياسي في فترة متقدمة . أنجبت الموصل العديد من الشباب المتعلمين الذين ساهموا في العمل الوطني ونشروا الفكر القومي وبرزوا في العمل الحزبي السري منهم ، سعيد الحاج ثابت وابراهيم عطار باشي وداؤد الملاح آل زيادة ومحمد علي فاضل آل عبد الحافظ ومحمد حبيب العبيدي وداؤد الجلبي وغيرهم [١١٣] . وكان من اوائل الثائرين على سياسة التتريك داؤد صليوا (١٨٥٢ – ١٩٢١) الذي اقتحم ميدان الصحافة بعد الانقلاب العثماني سنة (١٩٠٨) وأصدر مع يوسف غنيمة جريدة «صدى بابل» في (١٧ آب ١٩٠٩) ، وقال (ان الحكومة التركية إن إصرت على عدم إستعمال اللغة العربية في الدوائر الرسمية فانها تقيم قائمة أولاد العرب عليها) [١١٤] . وتلقىٰ سليمان فيضي (١٨٨٥ – ١٩٥١) علومه بالموصل ثم انتقل الى المدرسة الاعدادية العسكرية في بغداد وأصدر في (١٢ آيار ١٩٠٩) جريدة «الايقاظ» وهي جريدة اسبوعية تصدر بالعربية والتركية [١١٥] . ويذكر فيضي عن زيارته للموصل بعد الانقلاب العثماني ، بقوله إن العمل السياسي شاق بالموصل بسبب القيود التي أحاطه بها رجال الشرطة ، والحظر الذي فرض عليه من قبل السلطة لمنع المواطنين من الالتقاء به خوفاً من نشر الفكر القومي ، وتمكن من نشر الدعوة القومية في الاوساط المدنية والعسكرية وإنهالت عليه طلبات الانتماء لجمعيته الاصلاحية التي دعا اليها [١١٦] . ولأخفاء نشاطه السياسي عن أنظار السلطة طلب من السطات المحلية ترخيصه في فتح نادي أدبي بأسم (النادي الأدبي) وساعده في مهمته وكيل والي الموصل ووعده بمنحه الأذن لتأسيس النادي المذكور ليكون ملتقى لأبناء المدينة [١١٧] . واستبشر ابناء المدينة كغيرهم من العراقيين بالانقلاب الدستوري العثماني في (تموز ١٩٠٨) ، لكن سلوك الاتحاديين واعتمادهم السياسة (الطورانية) وانشائهم النادي (كلوب) مقر لجمعية الاتحاديين وفتحهم مدرسة ملحقة بالجمعية (اتحاد وترقي مكتبي) [١١٨] ، وتعيين مدرسين لها لنشر الافكار الطورانية والمبادئ الاتحادية ، كان باعثاً لاستيقاظهم وشعورهم بما يحاك ضدهم من دسائس ، فضلاً عن الاوضاع العامة في الاقطار العربية كمحاربة الدولة العثمانية للمعارضين لها في اليمن ، وطرد عبد العزيز آل سعود من الاحساء ، وانتشار الدعوات القومية من خلال الكتب والمؤلفات والصحف العربية وبالاخص ظهور كتاب «أم القرىٰ» «وطبائع الاستبداد» للكواكبي وماتناقلته الصحف والمجلات من أخبار كجريدة «المفيد البيروتية» ومجلة «لسان العرب» [١١٩] . واعتمادها وسائل للتعبير عن السخط ضد الحكومة العثمانية إضافة الى الشكوى في مجلس المبعوثان ثم القيام بحملة توزيع ولصق المنشورات في اماكن متعدده وهامة في المدينة [١٢٠] . وانعكس هذا الشعور في صفوف المعلمين والشباب ، ففي دار المعلمين بالموصل برز عدد من دعاة الاشادة بمجد العرب وتاريخهم والتنبيه الى القومية العربية ، منهم مولود مخلص مدرس التاريخ المدني والاسلامي والذي كان درسه لايخلو من هذا التوجه ، وكذلك الشيخ قاسم الشعار مدرس علم الدين واللغة العربية وهو من المشجعين للطلبة في العمل للدفاع عن القومية العربية والمحافظة عليها [١٢١] . وبرز من أبناء الموصل من عمل في المجال القومي خارج العراق وفي استنبول في أثناء وجودهم فيها منهم ثابت عبد النور فقد انتمىٰ الى جمعية العهد وبرز فيها وسمّي بغدادلي الجمعية وأسس بعد عودته الى الموصل جمعية (العلم) وبرز آخرون ومنهم عبد الله الدليمي



وموفق كامل، واسس الدكتور داود الدبوني (جمعية العلم الاخضر) في استنبول في شهر أيلول سنة (١٩١٢)[١٢٢]. وعلى صعيد العمل الحزبي شهدت الموصل عدة أحزاب مناوئة لجمعية الاتحاد والترقي بعد تغيير منهجها في أواخر ايلول (١٩٠٩) وجعلها جمعية تركية بحتة فتم في آب (١٩١١) تشكيل فرع لحزب الحر المعتدل بالموصل فتقدم ابناء المدينة باستقالاتهم من الجمعية وانتموا للحزب الجديد، فكانت بداية الصراع الحزبي، ونشرت جريدة «النجاح» مقابلة مع مبعوث الموصل داؤد يوسفاني الذي صرح بـ (إننا انتسبنا لفرقة الحر المعتدل من كوننا رأينا برنامجه أشد واقرب علاقة بالمنابع الوطنية)، ودعا ابناء المدينة للانتماء قائلاً (من يحب وطنه ويتمنىٰ ويطلب صلاح حالنا فليسع بالمظاهرة لفرقتنا.. ان فرقتنا ماتشكلت الا لخدمة الوطن... وجل مقاصدنا إحياء الوطن، وعلمنا ان زوال القلاقل الحاضرة وتعالي الوطن لاشك منوط في حصول التوازن الحزبي)[١٢٣]. وبعد الانحدارات العثمانية امام الغزاة الايطاليين في طرابلس الغرب سنة (١٩١١)، عمدت المعارضة في ٨ تشرين الثاني (١٩١١) الى تكوين حزب الحرية والائتلاف. فانحل فرع حزب الحر المعتدل بالموصل وتشكل فرع لحزب الحرية والائتلاف في اواخر سنة (١٩١١) واصبحت جريدة النجاح لسان حال الحزب[١٢٤]. وهكذا نشطت الحياة الحزبية ونمى العمل السياسي في الموصل.

الطباعة:

تأخر ظهور الطباعة في الموصل، وكان أبناء المدينة يتحرقون شوقاً للطباعة لما لمسوه من فوائدها بسبب إطلاعهم علىٰ مطبوعات مصر وبلاد الشام وشهدت المدينة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأسيس عدد من المطابع. وارتبطت حركة الطباعة بنشاط الأرساليات التبشيرية المختلفة، ففي سنة (١٨٥٨) أسست مطبعة الدومنيكان في محلة الجولاق وهي مطبعة حجرية



• مطبعة الدومنيكان (قسم التجليد).

بدائية، وبعد خمس سنوات تم توسيعها وتطويرها بشراء معدات طباعية إضافية[١٢٥] ويتحدث الأب ليجيه عن المطبعة بقوله: في سنة (١٨٥٧-١٨٥٨) بدأت المحاولات الاولى للطباعة في المطبعة الحجرية وأخذ على عاتقه إدخال الطباعة لأتاحة الفرصة للطلبة للحصول على كراسات مطبوعة بعد أن كانوا يقرأون في أوراق المخطوطات القديمة بشكل حلقات دائرية. وبدأت المطبعة بطبع لوحات اعدها وألفها يوسف داود. وأثار دخولها تعجب الاتراك والاهالي خاصة عندما شاهدوا الاوراق البيضاء تدخل المطبعة وتخرج مطبوعة بنسخ كثيرة.

وفي سنة (١٨٥٨) تم طبع كتاب القراءة في ١٢ صفحة، وكتب الصلوات الطقسية، وتم طبع كتاب (خلاصة في مبادئ القواعد العربية) سنة (١٨٥٩) في ١٨٠ صفحة وهو أول كتاب في قواعد اللغة العربية يطبع في العراق. وبعد تحديث المطبعة تم طبع كتاب ديني ثم أعقبه كتاب في علم الجغرافية سنة (١٨٦١)، وشهدت المطبعة بين السنوات (١٨٦٧ - ١٨٩٨) نشاطاً ملحوظاً في طباعتها حيث شهدت تلك الفترة طباعة مايزيد على المئة مطبوع في مواضيع عدة دينية وتاريخية



وأدبية[126] وبلغات مختلفة منها العربية والتركية والفرنسية وأستمرت مطبعة الدومنيكان حتىٰ اوائل الحرب العالمية الاولى[127]، وفي سنة (١٨٦٣) اسس روفائيل مازهجي (شماس) مطبعة مجهزة بكل لوازم الطبع وطبع فيها عدداً من الكتب العربية والاجنبية[128] وفي سنة (١٨٧٥) أسس تحسين باشا والي الموصل مطبعة الولاية وجلب مكائنها من إستنبول وساهم الاباء الدومنيكان في إدارتها فنياً[129]. وطبع فيها المنشورات الحكومية والبيانات الرسمية والتقاويم السنوية وأموراً تجارية، وفي سنة (١٩١٠) إنشئت مطبعة نينوىٰ (اليدوية) وأسسها فتح الله سرسم وعيسى محفوظ وجلبها من باريس وكانت بحروف عربية ولاتينية ونصبت في منطقة (سوق الصرافين) قرب باب السراي. ويعتقد ان الغرض من تأسيسها طبع جريدة نينوىٰ التي أصدرها فتح الله سرسم سنة (١٩٠٩)[130]. ونشرت المطبعة عدداً من الكتب وباللغتين العربية

العالمية الاولى أقدمت السلطات العثمانية على مصادرتها، وطبعت فيها جريدة «دعوة الحق» (حقه طوغرو) التي كرستها للدعاية[132]، وباللغات الاربع العربية والتركية والفارسية والكردية. وفي سنة (١٩٢٢) تم فيها طباعة كتاب (تاريخ مقدرات العراق السياسية)[133].

الصحافة:

لم تظهر الصحافة في العراق إلا بعد تأسيس جريدة الزوراء في (١٥ حزيران ١٨٦٩). أما في الموصل فصدرت على غرار «الزوراء» جريدة رسمية بأسم (مُوصُل) في (٢٥ حزيران ١٨٨٥) وباللغتين العربية والتركية وبأربع صفحات بالحجم المتوسط بمقياس (٤٣×٢٧) وكل صفحة تتألف من ثلاثة أعمدة طويلة، وهي جريدة اسبوعية تصدر كل خميس وأستمرت بالصدور الى مابعد الحرب العالمية الثانية. وكانت في بدايتها لسان السلطان وأعوانه ولم تتعرض الى أهداف وأماني المواطنين وطموحاتهم



• جريدة «موصل» التي صدر عددها الاول في ٢٥ حزيران ١٨٨٥م.

والتركية وفي موضوعات لغوية وأدبية وفنية وساهمت في النهضة الفكرية ونشر الوعي القومي في الموصل، كطبع كتاب (الاناشيد الموصلية للمدارس العربية) والذي تم اعتماده في مدارس الموصل ونشره محمد سعيد الجليلي سنة (١٩١٤)، وكتاب (خطبة نادي الشرق) وهو كتاب اجتماعي خاطب فيه مؤلفه محمد حبيب العبيدي أهالي الموصل وحثهم على النهوض لنصرة العثمانيين في حربهم ضد الدول الاجنبية[131]. وخلال الحرب

وكثيراً ما إنتقدت ثورات العشائر وتميزت عن الزوراء في اسلوبها الأدبي الجزل الواضح والذي لايظهر فيه أثار العجمة والغموض والركاكة، وبطابعها الاخباري، فنشرت أخبار الولاية (الرسمية منها والقوانين والانظمة والاوامر والاعلانات الحكومية) والاخبار الخارجية وخطب الجمعة التي كانت تلقىٰ في جوامع المدينة[134]. وأفردت الجريدة باباً بعنوان (احداث الولاية) تناولت فيه ما يتعلق بحياة المواطن اليومية ومايعانيه من مشاكل وصعوبات

فنشرت عن الاضرار التي لحقت بالمدينة بسبب موجة البرد وتجمد نهر دجلة وقلة وسائل التدفئة[١٣٥]. ولعبت الجريدة دوراً في توعية الاهالي اجتماعياً وثقافياً وصحياً بما نشرته من مقالات وتوجيهات ، وكان اسلوبها أدبياً واضحاً ليس فيه شيء من الغموض والعجمة كما في جريدة الزوراء ولعل ذلك يرجع الى قيام عدد من الادباء والمثقفين والكتاب الموصليين بنشر المقالات فيها ، فضلاً عن مساهمتهم بالعمل في الصحافة العثمانية والعربية وبالاخص (السورية والمصرية) منهم احمد عزت العمري وعبدالله العمري وشهاب الموصلي واحمد سامي الموصلي وعبد الله الفيضي[١٣٦]. ويمكن تقسيم تاريخ جريدة الموصل الى اربعة مراحل تمتد الاولى منذ صدورها وحتىٰ اعلان الدستور العثماني في ٢٣ تموز ١٩٠٨ ، وتبدأ الثانية في اعلان الدستور وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، اما المرحلة الثالثة فتبدأ بعد الاحتلال البريطاني للموصل سنة (١٩١٨) وحتىٰ (١٩٣٤) يليها المرحلة الرابعة وتبدأ من إصدارها بعد انقطاع طويل من قبل يونان عبو اليونان سنة (١٩٤٧) واستمرارها حتى (١٩٤٩)[١٣٧]. وصدرت في الموصل مجلة (اكليل الورود) وهي ذات صبغة دينية وطابع أدبي وعلمي وأصدرها الآباء الدومنيكان في الاول من كانون سنة (١٩٠٢)[١٣٨]. وصدرت في بداية امرها في (٢٠) صفحة وبمقياس (١٨ × ١١,٥)[١٣٩]، وأهتمت بمعالجة موضوعات سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية وصحية. وأدى الانقلاب العثماني (٢٣ تموز ١٩٠٨) الى نشر وعي قومي في الموصل كجزء من الوعي العربي العام في مختلف الاقطار العربية إنعكس بقيام نهضة صحفية ، فصدرت أول جريدة محلية أهلية (نينوى) في (١٥ تموز ١٩٠٩) ، وكانت نصف اسبوعية ، وباللغتين العربية والتركية وهي لسان حال حزب الحرية والائتلاف المعارض للاتحاديين[١٤٠]. وجاء في مقال نشرته عن سبب اصدارها «... ان السبب الداعي لاصدار هذه الجريدة خدمة الوطن في هذا الزمن ونشر الحقائق والدقائق والحمية والغيرة على اعلان شأن الدستور الذي اشرقت شمسه الساطعة في سماء العدل ، فاستضاءت بها الافكار المظلمة من دور الظلم الذي سبق بأنحس الطالع واحسن المطامع »[١٤١]. واهتمت الصحيفة بالعلم ودعت الى تشجيع الالتحاق بالمدارس لمواكبة العصر ونشرت مقالاً تحت عنوان هَلُمَّ الى التقدم يابني الوطن جاء فيه : الكل يعلم مالبني الحدباء من الذكاء الفطري والنجابة والدهاء والعفة وعزة النفس والآنفة والحزم والعزم والاقدام وحب التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل .. هذا عصر العلم ، عصر النور والكهرباء ، عصر تنقرض فيه الأمة العاطلة وتحيي فيه الأمة العاملة ... فالإقدام الإقدام يابني الحدباء لارتشاف رحيق العلم واجتناء ثمار المعارف فلا أمة إلا برجالها ولارجال إلا بالعلوم ولاعلوم إلا بالمكاتب.[١٤٢] وفي (١٢ تشرين الثاني ١٩١٠)، أصدر محمد توفيق جريدة النجاح ، وفي (٢٧ حزيران ١٩١١) اصدر عبدالمجيد حيالي جريدة (جنة باز) أي المهذار وهي جريدة فكاهية[١٤٣]. لقد عالجت الصحافة المحلية والتي ظهرت بعد حركة الاصلاحات العثمانية جوانب مهمة من اهتمامات ابناء المدينة آنذاك وفي مقدمتها الدعوة الى بعث اللغة العربية واحياء الكيان السياسي العربي فضلاً عن معالجتها لموضوعات ثقافية واجتماعية واهتمت بالجانب الاجتماعي للمدينة وبالتعليم ومناهجه ، وتناولتهم بالنقد ودعت الى الاهتمام بالمدارس والعلم والادب . فكان لها الدور الايجابي بالنهوض بواقع المدينة وتطويرها .

التعليم :

أخذت بوادر التطلع عند العراقيين في اوائل القرن الثامن عشر بمعظم مجالات الحياة ومنها التعليم ، في



تلك الفترة نشطت المؤسسات التعليمية الشعبية وتمثلت بالكتاتيب والمدارس، وشهدت الموصل منذ الربع الاول من القرن الثامن عشر اهتماماً خاصاً بتشييد المدارس وتزويدها بما تحتاج اليه من الكتب والاموال ومن هذه المدارس مدرسة الحاج محمد بن علي النومة المشيدة سنة (١٧٠٨) ومدرسة محمد أغا السعرتي المشيدة سنة (١٧١٥) ومدرسة ياسين المفتي الموصلي المتوفى سنة (١٧٢٢) وازداد الاهتمام بالمؤسسات الثقافية بتولي الجليليون السلطة المحلية ومشاركة الاهالي في انشائها فساهم عدد من محبي العلم واهل البر والاحسان في هذا الجانب وتم افتتاح ١٥ مدرسة[١٤٤]. إضافة الى تشييد دور القرآن والحديث لنشر العلوم الصرفة ولتهيئة فئة مثقفة واعية قادرة على النهوض بأعباء الادارة الحكومية والشرعية[١٤٥]. وتولى مثقفو المدينة مهمة التدريس في هذه المدارس منهم يوسف العمري، وقاسم المعروف بأبن الخباز، وعلي محضر باشي، وعبدالرحمن الكلاك، والملا محمد أمين بن ملا عبيد وغيرهم. وكان في طليعة المدارس (مدرسة الباشا، والرابعية، والنعمانية، والاحمدية وابن يونس النحوي) وفي معظم هذه المدارس مكتبات عامرة تساعد طلبتها على الدراسة والاستقصاء ويصرف عليها من الاوقاف المخصصة لها. وأهم موادها الدراسية هي الاصول الفقهية وعلوم القراءات والتفسير والحديث والعقائد والكلام، إضافة لعلم المنطق والفلسفة والعلوم الرياضية والفلك والطب والآداب اللغوية من بديع ومعانٍ وبيان وعلم العروض[١٤٦]. وبعد حركة الاصلاحات العثمانية شهدت الموصل اهتماماً بالتعليم من قبل الدولة والاهالي والارساليات الأجنبية، ففي سنة (١٨٦١) تم افتتاح اول مدرسة (رسمية) إبتدائية ورشدية (متوسطة) في عهد الوالي كنعان باشا وبمسعى من قبل فهمي بن مصطفى العمري وشيدت في منطقة باب لكش (باب الجيش)[١٤٧]، وفي سنة (١٨٩٠) إنفصل المكتب الرشدي عن الابتدائي وتم فتح مكتب ابتدائي بالموصل سنة (١٨٩٤)، وانتشرت هذه المدارس في ارجاء المدينة وأقضيتها وبلغ عددها سنة ١٩١٤ بحدود (٣٠) مدرسة رسمية. وتحولت المدرسة الرشدية الى مدرسة اعداد ملكي سنة (١٨٩٥) وبلغ عدد طلابها (٣٤)[١٤٨]. ولاقبال الاهالي على ارسال اولادهم الى المدارس وظهور الحاجة الى توفير الهيئة التعليمية للمدارس الجديدة تم بحدود سنة (١٩٠٠) أفتتاح دار المعلمين بالموصل لسد النقص في عدد المعلمين للمدارس الابتدائية والرشدية، ويقبل فيه خريجو المدارس الاعدادية، واحتوى في بدايته على صفين ولم يزد طلابه عن عشر طلاب وبعد سنة (١٩٠٨) بلغ عدد صفوفه ثلاثة، واتسعت مناهجه وبلغ عدد طلابه (١٥٠) طالباً، ومن أساتذته مولود مخلص والشيخ قاسم الشعار[١٤٩] والذين عرفوا بأتجاهاتهم الوطنية في المدينة. والجدول في الصفحة التالية يوضح عدد المدارس واماكنها وعدد طلابها سنة (١٩٠٧)[١٥٠].

وكانت الموصل في طليعة المدن العراقية التي انشئت فيها مدارس لتثقيف وتعليم البنات. والاعتقاد الشعبي السائد بشأن تعليم البنات آنذاك يعد ضرباً من الطيش لذا إقتصر تعليمهن على التربية العائلية داخل بيوتهن، وأستمر الحال على هذا المنوال حتى اقبلت الأرساليات التبشيرية (اخوات المحبة) الى الموصل في شهر تشرين الثاني (١٨٧٣) فتم فتح مدرسة للبنات وعملوا على تعليمهن وتدريبهن على الاشغال البيتية كالخياطة والتطريز والنقش[١٥١]. اما الجهود الرسمية في هذا المجال فلم تنشط الا بعد المشروطية، اذ تم فتح مكتب ابتدائي ورشدي للبنات في محلة السرجخانة[١٥٢].

وشهدت الموصل إنتشار المدارس الاجنبية وهي مدارس الارساليات، ويعد التعليم أبرز

	المدرسة	المكان	عدد الطلاب
١	دار المعلمين	الموصل	٥
٢	الاعدادي	الموصل	٢٤١
٣	الرشدي للاناث	الموصل	١٠٧
٤	النموذجية الابتدائية	الموصل	٥٠
٥	جامع خزام الابتدائية	الموصل	٣٠
٦	الرابعية الابتدائية	الموصل	٧٥
٧	شيخ خالد الابتدائية	الموصل	٢٠
٨	باب عراق الابتدائية	الموصل	٥٢
٩	جامع جمشيد الابتدائية	الموصل	٢٥
١٠	باب السراي الابتدائية	الموصل	٣١
١١	الدراويش الابتدائية	الدراويش	٨
١٢	اورته خراب الابتدائية	اورته خراب	٩
١٣	قره قونيلي الابتدائية	قره قونيلي	٥
١٤	كوكجه لي الابتدائية	كوكجه‌لي	١٤
١٥	طوبزاوه الابتدائية	طوبزاوة	٨
١٦	عمر قابجي الابتدائية	عمر قابجي	٧
١٧	شريخان الابتدائية	شريخان	١١
١٨	ابو جربوعة الابتدائية	ابو جربوعة	٨
١٩	يارمجة الابتدائية	يارمجة	١٧
٢٠	منارة شبك الابتدائية	منارة شبك	١١
٢١	نينوى الابتدائية	نينوى	٢٠

أنشطة الأرساليات وذلك لتوظيفه في تغطية نشاطهم التبشيري. وكانت إرسالية الاباء الدومنيكان من اول البعثات التي افتتحت مدارس منذ دخولها العراق سنة (١٧٥٠)[١٥٣]. ونشرت الثقافة واللغة الفرنسية بالموصل وشهدت الموصل إفتتاح العديد من مدارس الطوائف المسيحية والتي كان مدرسوها من الرهبان والقسس وأهم هذه المدارس.[١٥٤]

١- مدرسة الكلدان إنشئت سنة (١٨٦٣) شيدها روفائيل مازه جي.

٢- مدرسة السريان إنشئت في اوائل القرن العشرين.

٣- مدرسة اليعاقبة.

وعلى الرغم من الدور الذي نهضت به البعثات التبشيرية في تنوير الشباب سياسياً وقومياً في النصف من القرن التاسع عشر، إلا انها تركت اثاراً سلبية في الداخل من خلال إرتباطها السياسي بالدول التي تنتمي اليها وتدعمها مادياً وأدبياً. فالمؤسسات الكاثوليكية بالموصل كانت تتلق إعانات من الحكومة الفرنسية بصورة مستمرة بلغت سنة (١٨٨٠) للموصل فقط (١١٥٠٠) فرنك فرنسي.[١٥٥]

لم يكتف مثقفو الموصل بما توفره لهم منشآتهم الثقافية فأرادوا الاستزادة في طلب العلم والمعرفة خارج حدود مدينتهم، فطافوا البلاد طلباً للعلم وبحثاً عن المعرفة وأنواع اخرى من الثقافة. وكانت حلب في مقدمة المدن التي زارها الموصليون ثم بقية بلاد الشام، فقد زارها الحاج محمد سعيد الجوادي والشيخ محمد احمد العمري والشيخ عطاء الله الموصلي والشيخ عبدالرحيم الفائز الذي قام برحلة طويلة وصل فيها الى القاهرة ودرس على يد شيخ الأزهر محمد السنبادي المالكي وحصل منه على اجازة عامة في جميع العلوم.[١٥٦] وخرج من الموصل القس الياس الموصلي وهو اول رحالة شرقي يزور القارة الامريكية في العصر الحديث.[١٥٧] وتعد هذه الرحلات من العوامل التي ساعدت على نمو المعرفة وتوسيع المدارك لتنمية العقول من خلال اطلاعهم على تجارب الشعوب وطبيعة الحياة للدول التي زاروها فأزدادت معلوماتهم ومعرفتهم. فالقنصل الفرنسي في الموصل دهش سنة (١٨٥٤) عندما وجد ان اهالي مدينة الموصل يمتلكون معلومات وافرة



عن نابليون اكثر مما يتوقعه.[158]

اما ابناء الاسر الموصلية فقد توجهوا الى استنبول وذلك من اجل اكمال تحصيلهم العسكري في الكلية العسكرية، او المدني العلمي في المؤسسات والمعاهد العلمية العالية مثل كلية الطب (طب شاهانه) ومكتب الحقوق العثماني وملكية شاهانه ودار المعلمين وغيرها من المؤسسات، ومن هؤلاء ثابت عبدالنور وياسين العريبي وعاصم الجلبي.[159]

ان حركة الاصلاحات التي شهدتها الموصل منذ منتصف القرن التاسع عشر كان لها دورها في اقتراب الموصليين من الحياة المدنية الحديثة وابتعادهم عن الحياة التقليدية القديمة، وظهور عدد من الادباء والمثقفين والسياسيين والذين اضطلعوا بادوار واضحة في حياة المدينة ويمكن ايجاز بعض الملاحظات التي ميزت الموصل عن مثيلاتها في الولايات العثمانية بعد حركة الاصلاح التي شهدتها وهي:

١- التعدد والتنوع في حركة التأليف بمختلف العلوم كالشعر والفقه والتفسير والتراجم وكتابة التاريخ

٢- انتشار الافكار الاصلاحية المتوقدة في الفكر العربي الاسلامي من خلال ما قدمه ابناء المدينة من آراء وافكار وكانت تمثل مدارس عدة بحد ذاتها.

٣- كانت الموصل مرتعاً للافكار الوطنية والقومية إضافة لتبنيها للاتجاه الديني.

٤- كانت الموصل اشبه بالجامعة العلمية يؤمها العديد من طالبي العلم للدراسة وتلقي العلوم وتبادل الآراء وللتجارة.

٥- تميزت الموصل بقدرتها على حكم نفسها بنفسها قرابة مائة عام من ١٧٢٦ وحتى ١٨٣٤.

٦- حافظ المجتمع الموصلي على عروبته فقد ذابت فيه مختلف الفئات السكانية بالرغم مما تعرضت له من هجرات خارجية واقليمية.

٧- كانت بعض الآراء والأفكار التي طرحها المصلحون الموصليون اساساً لعدد من التوجهات الفكرية الحديثة التي شهدها الوطن العربي وخاصة الاصلاحية منها.

الهوامش

(١) يقصد بالتحديث (Modernization) تلك المتغيرات التي تستهدف احداث تغييرات في جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والايديولوجية. فالتحديث يعني: جملة المتغيرات التي تستهدف الخروج من المجتمع التقليدي المحلي الضيق والانفتاح على العالم الخارجي الواسع. وهناك من يرى ان مصطلح التحديث مرادف لمصطلح التغريب (Westernization). ويعده المؤرخون الاجتماعيون: عبارة عن مجموعة من المتغيرات المعقدة جداً التي تؤثر في حالة مجتمع ما، او مجتمعات معينة بطريقة متفاوتة في بناء اولويات وقيم وأساليب وخصائص وممارسات... لمزيد من المعلومات انظر. William R. Poik and Richard L. Chambers, Beginning of Modernization in the middle East The Ninettenth centary. The university of chigaco Press, (chicago, 1968), p.1–2 ; D.Lerner, The Passing of Traditional Society: Modernizing The Middle East, Glencoe, 1958, 1964, p.116.

(٢) نمير طه ياسين: بدايات التحديث في العراق ١٨٦٩–١٩١٤، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٤.

(٣) سيار كوكب الجميل، دراسات في السيطرة العثمانية على الموصل واقليم الجزيرة سنة ١٥١٦ وبدايات الصراع العثماني الايراني الصفوي في عهد السلطان سليم الأول، بين النهرين، العدد (٣)، السنة الثامنة ١٩٨٠، ص٣٤٧.

(٤) احمد علي الصوفي: تاريخ الحاكم والنظم الادارية في الموصل ١٣٣٧–١٩١٩، مطبعة ام الربيعين، (الموصل، ١٩٤٩)، ص ص ١٤–١٧.

(٥) سليمان الصائغ: تاريخ الموصل، ج١، المطبعة السلفية، (القاهرة، ١٩٢٣)، ص ص ٢٧٠–٢٧٣.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٦٦.

(٧) سيار كوكب الجميل، الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي ١٧٢٦–١٨٣٤، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، (زغفوان، ١٩٨٨)، ص٢٥١.

(٨) محمد أمين بن خيرالله الخطيب العمري: منهل الاولياء ومشرب

الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، ج ١، تحقيق سعيد الديوه جي، (الموصل، ١٩٦٧)، ص ١٤١.

(٩) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٧، شركة التجارة والطباعة المحدودة، (بغداد، ١٩٥٥)، ص ٢٦؛ الجميل، الحياة الاقتصادية، ص ٢٥٢.

(١٠) سليمان فائق: تاريخ المماليك (الكوله مند) في بغداد، ترجمة، محمد نجيب ارمنازي، مطبعة المعارف، (بغداد، ١٩٦١)، ص ٨١.

(١١) محمد إينجه بيرقدار، تركي الأصل ولد في قصبة بارطين في قسطموني، وخدم بالسلك العسكري في مصر وبلاد الشام، عينه والي بغداد سنة ١٨٣٣ في كركوك، وصدر سنة (١٨٣٥) فرمان سلطاني بتعيينه والياً على الموصل، انظر الصائغ، المصدر السابق، ص ص ٣١٠– ٣١٢.

(١٢) عبدالعزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٦٨)، ص ٦٠٩.

(١٣) أنظر، علاء موسى كاظم نورس: حكم المماليك في العراق ١٧٥٠ – ١٨٣١، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٧٥)، ص ص ١٥– ١٦؛ عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٤، شركة التجارة والطباعة المحدودة، (بغداد، ١٩٥٤)، ص ٤٦؛ عماد عبدالسلام رؤوف: الموصل في العهد العثماني فترة الحكم المحلي ١٧٢٦– ١٨٣٤، مطبعة الآداب، (النجف، ١٩٧٥)، ص ٢١٤.

(١٤) ستيفن هيمسلي لونكريك: اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ط ٤، ترجمة جعفر الخياط، مطبعة المعارف، (بغداد، ١٩٦٨)، ص ٣٦١.

(١٥) العزاوي، المصدر السابق، ج ٧، ص ص ٣٠– ٣١، ٢٨٤.

(١٦) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٣، شركة التجارة والطباعة المحدودة، (بغداد، ١٩٥٥)، ص ١٦٨؛ نوار، المصدر السابق، ص ٣٥٧.

(١٧) اما فيما يخص لواء الموصل فضم خمسة اقضية هي سنجار والعمادية وزاخو ودهوك وعقرة وعشر نواح هي الشيخان، وعشائر السبعة، وداودية، وبرواري بالا، وبرواري زير، وريكان، ونيروه، ومزوري، والزيبار، وتلعفر، وتسعمائة وثلاث وستون قرية، لمزيد من المعلومات انظر، الدستور، مجموعة التنظيمات العثمانية، ترجمة نوفل نعمة الله نوفل، ج ١، المطبعة الأدبية، (بيروت، ١٣٠١)، ص ٢٩٧؛ فيصل محمد الارحيم، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨– ١٩١٤: مطبعة الجمهور، (الموصل، ١٩٧٥)، ص ص ٤٥– ٤٨؛ العزاوي، المصدر السابق، ج ٧، ص ص ١٦٧ – ١٧٠.

(١٨) أحمد علي الصوفي: المماليك في العراق، مطبعة الاتحاد الجديدة، (الموصل، ١٩٥٢)، ص ٣٦.

(١٩) ياسين خيرالله العمري: غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر، نشره د. محمد صديق الجليلي، مطبعة ام الربيعين، (الموصل، ١٩٤٠)، ص ص ٨٣– ٨٤.

(٢٠) الدستور، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٣٥٨– ٤٠٠.

(٢١) ياسين خيرالله العمري: زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية، تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف، مطبعة الآداب، (النجف، ١٩٧٤)، ص ١١٥.

(٢٢) الدستور، المصدر السابق، ص ص ٣٨٣، ٤٠١– ٤٠٥.

(٢٣) العمري، غرائب الاثر، ص ١٠٦.

(٢٤) رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٢٣٣– ٢٣٤.

(٢٥) الصوفي، تاريخ الحاكم، ص ٥.

(٢٦) رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٢٥٩– ٢٦٠.

(٢٧) العمري، منهل الاولياء، ص ص ٢٤٠– ٢٤٣.

(٢٨) الصوفي، تاريخ الحاكم، ص ٥.

(٢٩) الدستور، المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٦٨.

(٣٠) جريدة الزوراء العدد (٨٥٣)، ١ رمضان ١٢٩٦، الصوفي، تاريخ الحاكم، ص ص ٢٣، ٢٥ – ٢٦ ورد في جريدة الزوراء خبر تعيين عثمان أفندي رئيس لمحكمة بداءة الموصل ويعاونه المدعي العام داؤد افندي وعين نيازي أفندي مفتش للعدلية بالموصل.

(٣١) الصوفي، تاريخ الحاكم، ص ص ٣٦– ٤٠.

(٣٢) المصدر نفسه ص ٤٢.

(٣٣) الدستور، المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٣.

(٣٤) رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٢٥٩– ٢٦٠.

(٣٥) بغداد ولايتي سالنامة سي، ١٣١٨ (١٩٠٠)، ص ٢٥٣؛ بغداد ولايتي سالنامة سي ١٣٢٥ (١٩٠٧)، ص ١٠٨.

(٣٦) الارحيم، المصدر السابق، ص ص ٥٧ – ٥٨.

(٣٧) فلاديمير يوريسوفيتش لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم، (موسكو، ١٩٧٢)، ص ١٦٢.

(٣٨) ياسين، المصدر السابق، ص ٥٧.

(٣٩) الصائغ، المصدر السابق، ص ٣١٣.

(٤٠) العزاوي، المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٩؛ الصائغ، المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٤١) لوتسكي، المصدر السابق، ص ص ١٥٦– ١٦٠.

(٤٢) رؤوف، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٤٣) عبدالرزاق الهلالي: معجم العراق، ج ٢، دار الكشاف، (بغداد، ١٩٥٦)، ص ١٧٨.

(٤٤) الدستور، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٦٥٩– ٦٦٠.

(٤٥) لونكريك، المصدر السابق، ص ص ٣٧٦– ٣٧٧.

(٤٦) لوتسكي، المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٤٧) رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٧٨.

(٤٨) العمري، غرائب الاثر، ص ٩٦.

(٤٩) بيبردي فوصيل: الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤ – ١٩١٤، ترجمة اكرم فاضل، وزارة الثقافة والاعلام، (بغداد، ١٩٦٨)، ص ٩٩؛ الصائغ، المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٥٠) أ.م منتشاشفيلي: العراق في سنوات الانتداب البريطاني، ترجمة هاشم صالح التكريتي، مطبعة جامعة بغداد، (بغداد،



١٩٧٨) ، ص ٨٠.

(٥١) ل.ن كوتلوف: ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، ط ٢، ترجمة عبدالواحد كريم، دار الفارابي، (بيروت، ١٩٧٥)، ص ٧٦.

(٥٢) المصدر نفسه ص ص ٤٦ - ٤٧.

(٥٣) عماد الجواهري: تاريخ مشكلة الأراضي في العراق ١٩١٤- ١٩٣٠، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٧٨، ص ٤٣.

(٥٤) Roger owen, The middle East in the world Economy 1800 – 1914 ، ethen & Co.. (London.1981) p.274.

(٥٥) صديق الدملوجي، إمارة بهدينان، (الموصل، ١٩٥٢)، ص ١٢٨.

(٥٦) احمد الصوفي: خطط الموصل، ج ٢، مطبعة الاتحاد الجديدة، (الموصل، ١٩٥٣)، ص ٦٤، ٧٠.

(٥٧) موصل ولايتي / سالنامة رسميسيدر ١٣٣٠، ص ٨٩.

(٥٨) اهم القرى المحيطة بالموصل والتي تنتج المنسوجات على شكل اطوال في القرن التاسع عشر هي تلكيف (١٥٠ طول)، تل أسقف (١٠٠ طول)، بعشيقة (٤٠ طول)، برطلة (٥٠ طول)، كرمليس (٣٠ طول)، قره قوش (١٢٠ طول)، لمزيد من المعلومات انظر. رؤوف المصدر السابق، ص ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٥٩) فوصيل، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٦٠) يعقوب سركيس: مباحث عراقية، ج ٢، شركة التجارة والطباعة المحدودة، (بغداد، ١٩٥٥)، ص ٨.

(٦١) الصائغ، المصدر السابق، ص ٣٣٨؛ العمري، منهل الأولياء، ج ١، ص ٦٢.

(٦٢) دبليو أي ويكرام: مهد البشرية الحياة في شرقي كردستان، ترجمة جرجيس فتح الله، منشورات شركة دار العروبة، (بغداد، ١٩٧١)، ص ٧٢.

(٦٣) جوني يوسف حنا: تاريخ الصناعة الوطنية وعلاقتها بالتطور السياسي في العراق ١٩٢٩ - ١٩٥٨، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب جامعة الموصل ١٩٨٩، ص ٢٨.

(٦٤) رؤوف، المصدر السابق، ص ٢٨٨.

(٦٥) موصل ولايتي سالنامة رسميسيدر ١٣٣٠، ص ٨٩.

(٦٦) محمد سلمان حسن: التطور الاقتصادي في العراق التجارة الخارجية والنفوذ الاقتصادي ١٨٦٤ - ١٩٥٨، المكتبة العصرية، (بيروت، ١٩٦٥). ص ٢٨٣.

(٦٧) حنا، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٦٨) حسن، المصدر السابق، ص ٢٨٣.

(٦٩) ابراهيم خليل احمد، «اوضاع ولاية الموصل الاقتصادية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين»، مجلة آداب الرافدين العدد ٧، ١٥ تشرين الأول ١٩٧٦، ص ٢٣٣.

(٧٠) الأرشيف الوطني الفرنسي- محفوظات وزارة التجارة في باريس ANF vice–consulut de france a mossoul mouvement commercial du wilayet de mossoul en 1911.

نقلاً عن بطرس كيلي، تجارة ولايات بلاد الشام وولايات العراق والمغرب العربيين في نهاية العهد العثماني (١٨٢٠- ١٩١٠) منشورات مركز الدراسات والبحوث في الولايات العربية في العهد العثماني، (زغوان، ١٩٨٨)، ص ٤٠٧.

(٧١) حسن، المصدر السابق، ص ص ٢١٦، ٢٥٥، ٤٢٩.

(٧٢) احمد، المصدر السابق، ص ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٧٣) سر وليس بدج: رحلات الى العراق، ج ١، ترجمة فؤاد جميل، دار الزمان، (بغداد، ١٩٦٦)، ص ٢٩١؛ ويكرام، المصدر السابق، ص ٧١؛ فوصيل، المصدر السابق، ص ٤٥؛ كوتلوف، المصدر السابق، ص ص ١٨- ١٩.

(٧٤) احمد علي الصوفي: تاريخ بلدية الموصل، مطبعة الجمهور، (الموصل، ١٩٧٠)، ص ٢٢.

(٧٥) جيمس بكنغهام: رحلتي الى العراق ١٨١٦، ج ١، ترجمة سليم طه التكريتي، مطبعة أسعد، (بغداد، ١٩٦٨)، ص ص ٦٠ - ٦٣؛ ويكرام، المصدر السابق، ص ٧٢.

(٧٦) ابراهيم خليل احمد «الحياة الاجتماعية في ولاية الموصل ١٥١٠-١٩١٨» مجلة المؤرخ العربي، العدد (٣٩)، ١٩٨٩، ص ٣٥.

(٧٧) رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٣٥٠- ٣٥١؛ احمد، الحياة الاجتماعية، ص ص ٤٣ - ٤٥.

(٧٨) الصائغ، المصدر السابق، ص ٣١٣.

(٧٩) ويكرام، المصدر السابق، ص ٧٤.

(٨٠) Longrigg: S.H.IRAQ 1900–1950. Apolitical-social and Ecomomic history, Third imperession (Beirut,1948) p.34.

(٨١) علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ١٨٦٩- ١٩١٤، ج ٣، مطبعة الشعب، (بغداد، ١٩٧٢)، ص ٢٣٥.

(٨٢) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٨٣) ديبولافوا، رحلة الى العراق سنة ١٨٨١، ترجمة علي البصري، مطبعة أسعد (بغداد، ١٩٥٨)، ص ٨٣.

(٨٤) الصوفي، تاريخ بلدية الموصل، ص ص ٢٢ - ٣٠؛ الصائغ، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٨٥) جريدة الزوراء، العدد (٥٢١)، ٢ صفر ١٢٩٢.

(٨٦) الصوفي، تاريخ بلدية الموصل، ص ص ٣٠- ٣٣.

(٨٧) وثائق الحكومة البريطانية، وزارة الهند I.O.R رقم الملف 620/10، رقم الوثيقة 3865/4 ص 72

(٨٨) I.O.R. رقم الملف 620/2 رقم الوثيقة 7518، ص 8

(٨٩) رحلة أبي طالب خان الى العراق سنة ١٢١٣ هـ، ١٧٩٩، ترجمة د. مصطفى جواد، دار القلم للنشر، (بغداد، بلا)، ص ص ٣٠٨- ٣٠٩.

(٩٠) العمري، منهل الاولياء، ج ١، ص ص ٢٦٧- ٢٦٨؛ رؤوف، المصدر السابق، ص ٤٠٠.

(٩١) ابراهيم خليل احمد ، «محمد العبدلي الطيب» ، جريدة الحدباء ١٩ حزيران ١٩٨٤

(٩٢) احمد ، النشاطات الطبية ، ص ص ٢٥٤ – ٢٥٥ .

(٩٣) تعود تسمية (ليجون Leseune) الى الجنرال الفرنسي ليجون الذي مر بالموصل سنة ١٨٦٧ قادماً من ايران
احمد ، النشاطات الطبية ، ص ص ٢٥٨–٢٦٠.

(٩٤) محمد رؤوف الشيخلي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة ، ج ٢ ، مطبعة البصرة ، (البصرة ، ١٩٧٢) ، ص ٢٦٥ ؛ يوسف ذنون ، «اضواء من رواد الآثار والتراث في الموصل ١٨٩٣ – ١٩٨١» ، مجلة الجامعة ، العدد السادس ، آذار ١٩٨٢ ، ص ص ١٠٦ – ١١١ .

(٩٥) ذنون ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٩٦) عمر محمد الطالب ، «المسرحية التاريخية في الموصل» ، القسم الأول ، الجامعة ، العدد الثالث عشر ، السنة الثالثة نيسان ١٩٧٣ ، ص ٤٢ .

(٩٧) احمد فياض المفرجي ، «الحياة المسرحية في العراق ١٨٨٠ – ١٩٢١» ، سينما ومسرح ، العدد الأول ، حزيران ، ١٩٨٢ ، ص ص ١٤٨ ، ١٥١ .

(٩٨) عمر محمد الطالب ، «المسرحية العربية في العراق» ، مجلة المسرح ، العدد (٣) ، ١٩٦٧ ، القاهرة ، ص ٦٩.

(٩٩) عمر محمد الطالب ، «المسرحية التاريخية في الموصل» القسم الثاني ، الجامعة ، العدد الخامس عشر ، السنة الثالثة ، أيار ١٩٧٣ ، ص ٣٧٠.

(١٠٠) سليمان الصائغ : تاريخ الموصل ، ج ٢ ، المطبعة الكاثوليكية ، (بيروت ، ١٩٢٨) ، ص ٢٧٣ ؛ عمر محمد الطالب ، «الترجمة وبدايات المسرحية في العراق» ، آفاق عربية ، العدد (١) ، أيلول ١٩٨٢ ، ص ص ٢٨ – ٣٤ .

(١٠١) المفرجي ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

(١٠٢) ياسين ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(١٠٣) بكنغهام ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٦ .

(١٠٤) ديولافوا ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(١٠٥) أنستاس ماري الكرملي : خلاصة تاريخ العراق منذ نشأته الى يومنا هذا ، مطبعة الحكومة ، (البصرة ، ١٩١٩) ، ص ١٦٨ .

(١٠٦) احمد ، الحياة الاجتماعية ، ص ٤٢.

(١٠٧) رؤوف ، المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ص ٣٦٧ – ٣٧٣ .

(١٠٩) محمد جميل بيهم : الحلقة المفقودة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، (مصر ، ١٩٥٠) ، ص ٢٢٢ .

(١١٠) جعفر خياط : صور في تاريخ العراق في العصور المظلمة ، مطبعة دار الكتب ، (بيروت ، ١٩٧١) ، ص ص ٣٤٣ – ٣٤٤ .

(١١١) العزاوي ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ص ٢٦٧ – ٢٦٨ .

(١١٢) انظر ، ديوان الموشحات الموصلية ، جمع وتحقيق محمد نايف الدليمي ، مؤسسة دار الكتب جامعة الموصل ، (الموصل ، ١٩٧٥) ، ص ص ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٤٨ .

(١١٣) سليمان فيضي : في غمرة النضال ، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، (بغداد ، ١٩٥٢) ، ص ١٢١ ؛ غسان العطية «التنظيم الحزبي في العراق قبل الحرب العالمية الاولى» مجلة دراسات عربية ، السنة الثامنة ، العدد ١٢ ، تشرين الأول ١٩٧٢ ، ص ص ٤٤ – ٤٥ .

(١١٤) فائق بطي : اعلام في صحافة العراق ، مطبعة دار الساعة ، (بغداد ، ١٩٧١) ، ص ص ١٥ – ١٦ .

(١١٥) المصدر نفسه ، ص ص ٣٧ – ٣٨ .

(١١٦) فيضي ، المصدر السابق ، ص ص ١٢٣ – ١٢٤ .

(١١٧) عبدالمنعم الغلامي : اسرار الكفاح الوطني في الموصل ١٩٠٨ – ١٩٢٥ ، ج ١ ، مطبعة شفيق ، (بغداد ، ١٩٥٨) ، ص ٣٩ .

(١١٨) محمد هليل الجابري : الحركة القومية العربية في العراق بين ١٩٠٨ – ١٩١٤ ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب جامعة بغداد ١٩٨٠ ، ص ٧٠ .

(١١٩) الغلامي ، المصدر السابق ، ص ص ٢١ – ٢٣ .

(١٢٠) هليل ، المصدر السابق ، ص ٥٥٥ .

(١٢١) الغلامي ، ص ٢٥ .

(١٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

(١٢٣) جريدة النجاح ، العدد (٢٣) ، ١٦ رجب ١٣٢٩ ، ٣٠ حزيران ١٩١١ .

(١٢٤) انظر : عبدالفتاح علي يحيى : الحياة الحزبية في الموصل ١٩٢٦ – ١٩٥٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قدمت الى كلية الآداب جامعة الموصل ١٩٩٠ ، ص ١٧ .

(١٢٥) ابراهيم خليل احمد : نشأة الصحافة العربية في الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر ، (الموصل ، ١٩٨٢) ، ص ٥ .

(١٢٦) بهنام فضيل عفاص «تاريخ الطباعة العراقية منذ نشوئها وحتى الحرب العالمية العظمى الاولى» ، القسم الأول ، المورد ، المجلد العاشر ، العدد (٣ – ٤) ، ١٩٨١ ، ص ص ٧٨ – ٨١ .

(١٢٧) منير بكر التكريتي : الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية ١٨٤٩ – ١٩٢١ ، مطبعة الارشاد ، (بغداد ، ١٩٦٩) ، ص ٤٧ .

(١٢٨) الصائغ ، المصدر السابق ، ص ٣٢٣ .

(١٢٩) الوردي ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٦ .

(١٣٠) بهنام فضيل عفاص «تاريخ الطباعة العراقية منذ نشوئها وحتى الحرب العالمية العظمى الاولى» القسم الثاني ، المورد ، المجلد الثاني عشر ، العدد (٢) ، ١٩٨٣ ، ص ٣٩ .

(١٣١) احمد ، نشأة الصحافة ، ص ٩ .

(١٣٢) مجلة لغة العرب ، ج ٩ ، السند (٥) ، بغداد ١٩٢٧ ، ص ٥٣٢ .

(١٣٣) وائل النحاس : تاريخ الصحافة الموصلية ١٩٢٦ – ١٩٥٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب جامعة الموصل ١٩٨١ ، ص ١٢ .



(١٣٤) احمد، نشأة الصحافة، ص ص ٢٠ – ٢١.
(١٣٥) فيضي، المصدر السابق، ص ٨٢.
(١٣٦) عباس ياسر الزيدي، تاريخ الصحافة العراقية منذ نشأتها حتى سنة ١٩٣٦، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب جامعة بغداد، ١٩٧٥، ص ٣.
(١٣٧) انظر: النحاس، المصدر السابق.
(١٣٨) عبدالرزاق الحسني: تاريخ الصحافة العراقية، ج ١، مطبعة المقرئ، (النجف، ١٩٣٥)، ص ١٧.
(١٣٩) الزيدي، المصدر السابق، ص ٤٤.
(١٤٠) خير الدين العمري، مقدمات ونتائج مخطوط في حوزة حفيده خير الدين حسن العمري، الورقة ٣٩٣.
(١٤١) جريدة النجاح، العدد (٦)، ٢٩ ذي الحجة ١٣٢٨.
(١٤٢) جريدة النجاح، العدد (٤١)، ١٥ رمضان ١٣٢٩.
(١٤٣) فائق بطي: موجز لتاريخ الصحافة، ج ١، نقابة الصحفيين، (بغداد، ١٩٧٢)، ص ٦؛ بطي، اعلام في صحافة العراق، ص ٢٤٣؛ ولمزيد من المعلومات عن صحافة الموصل انظر ابراهيم خليل احمد: ولاية الموصل دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ – ١٩٢٢، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب جامعة بغداد ١٩٧٥.
(١٤٤) سعيد الديوهجي، مدارس الموصل في العهد العثماني، (بغداد، ١٩٦٤)، ص ٧.
(١٤٥) رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٤١٥ – ٤١٦.
(١٤٦) يوسف عزالدين: الشعر العراقي أهدافه خصائصه في القرن التاسع عشر، الدار القومية للطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٦٥)، ص ص ٢٢ – ٢٣؛ الصائغ، المصدر السابق، ص ص ٤١٥ – ٤١٩.
(١٤٧) الوردي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٩.
(١٤٨) عبدالرزاق الهلالي: تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ – ١٩١٧، شركة الطباعة والنشر، (بغداد، ١٩٥٩)، ص ص ١٧٧ – ١٧٨، ١٨٠ – ١٨١.
(١٤٩) المصدر نفسه، ص ١٨٢.
(١٥٠) سالنامة رسميسدر، موصل ولايتي، مطبعة الموصل ١٣٢٥ – ١٩٠٧ ص ص ١٣٠ – ٢٢٧.
(١٥١) الصائغ، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٥.
(١٥٢) الهلالي، تاريخ التعليم، ص ١٨١. وواجه التعليم النسوي مشكلة تمثلت بقلة الكادر التدريسي من المعلمات وصعوبة استقدام معلمات من استنبول ولعدم وجود معلمات عراقيات آنذاك فقد استعين بزوجات الموظفين الاتراك في العراق وممن تتوفر فيهن بعض المؤهلات المهنية والفنية وأستعين كذلك بزوجات بعض الأجانب في تدريس اللغات وتعليمهن الخياطة والامور البيتية، لمزيد من المعلومات انظر، عبدالوهاب القيسي «حركة الاصلاح في الدولة العثمانية وتأثيرها في العراق ١٨٣٩ – ١٨٧٧» بحث مستل من مجلة كلية الآداب العدد (٣)، كانون الثاني ١٩٦١، ص ٢٤.
(١٥٣) الصائغ، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٣؛ ديولافوا، المصدر السابق، ص ٧٦.
(١٥٤) جريدة الزوراء، العدد (٣٣٦)، ٧ صفر ١٢٩٠؛ الهلالي، تاريخ التعليم، ص ص ١٩٣ – ١٩٤.
(١٥٥) فوصيل، المصدر السابق، ص ١٤٦.
(١٥٦) رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٤٢٥ – ٤٢٦.
(١٥٧) يعقوب سركيس، مباحث عراقية، ج ١، شركة التجارة والطباعة المحدودة، (بغداد، ١٩٤٨)، ص ص ٣٣١ – ٣٣٤.
(١٥٨) فوصيل، المصدر السابق، ص ١٣٥.
(١٥٩) الهلالي، المصدر السابق، ص ٢١٩.

المحاكم والقضاء

جاسم محمد حسن العدول

تمهيد:

اقتصرت المحاكم الرسمية في الموصل، منذ وقوعها تحت السيطرة العثمانية في مطلع القرن السادس عشر، على المحاكم الشرعية واستمر الحال على ذلك حتى أواسط القرن التاسع عشر، عندما تأسست محاكم جديدة فيها عرفت بـ (المحاكم النظامية). وعليه فقد كانت محكمة القاضي الحنفي طيلة تلك الفترة بمثابة أعلى سلطة قضائية رسمية في الموصل.[1]

وكان القاضي على رأس الجهاز القضائي ويأتي في المرتبة الثانية بعد الوالي[2]. وبصورة عامة انقسم قضاة العراق الى صنفين رئيسيين اولهما: القضاة الرسميون وهم القضاة الذين كانت الحكومة العثمانية تعينهم وهم على وجه التحديد من اتباع المذهب الحنفي[3]، وثانيهما قضاة المذاهب الاخرى،



وكانت السلطات المحلية قد مُنحت حق اختيار احد الفقهاء البارزين ليكون قاضياً بين اتباع مذهبه[٤].

ومن جانب آخر، انقسم القضاة في الدولة العثمانية الى عدد من المراتب. أما بصدد قاضي الموصل فكان يعد- كزميليه قاضيي البصرة وشهرزور- من قضاة الدرجة الثانية، ويلقب بـ (الملا) وكان يحمل الألقاب نفسها التي يحملها كبار القضاة ممن هم من مرتبة المولوية[٥].

كان شيخ الاسلام هو المسؤول المباشر عن ترشيح قضاة المولوية وبضمنهم قاضي الموصل. واشترط فيمن يروم الحصول على منصب قاضي الموصل- كما هو شأن بقية قضاة الألوية العراقية الاخرى- ان يكون من الذين وصلوا في تعليمهم الى مراحل الخارج والداخل[٦].

ووجد الى جانب قاضي لواء الموصل قضاة الأقضية التابعة للواء. وكان ترشيح هؤلاء يتم من قبل قاضي عسكر الأناضول[٧]. ويحتفظ الأخير بسجل خاص بقضاة الأقضية التابعة لدائرته يُسمى (اقضية دفتري). وعندما يراد تعيين قاضٍ في احد الأقضية فإن اسمه يدرج في هذا السجل ثم يقوم قاضي العسكر بعرضه على شيخ الاسلام ثم على الصدر الأعظم وأخيراً السلطان لاستحصال موافقتهم على التعيين[٨].

وكان جميع القضاة- بصفتهم موظفين في الدولة- يتسلمون عند التعيين براءة تحمل توقيع (طغراء) السلطان تحدد فيها كافة صلاحياتهم وواجباتهم ويتوجب على القاضي ان يدفع مبلغاً معيناً من المال بإسم (رسم البراءة) عند تزويده ببراءة التعيين. وفي حين كان قضاة الأقضية يدفعون قسماً من ايرادهم الشهري رسم براءة، فإن قاضي الموصل، أسوة باقرانه من قضاة السناجق، كان عليه ان يدفع إيراد شهر كامل لقاء حصوله على البراءة[٩].

وفي الامكان ان نستدل على عظم مكانة القضاة وعلو منزلتهم من خلال عبارات الاطراء والتبجيل التي كانت تغدق على القضاة فقد كان نص الديباجة التي استخدمتها الفرامين والمراسلات الرسمية في مخاطبة قضاة الأقضية- وهم من صغار القضاة- كالآتي «قدوة قضاة المسلمين، زبدة الموحدين، معدن الفضل واليقين، المختص بمزيد عناية الملك المعين مولانا.... اسم المنطقة.... قاضيسي زيدت فضائله»[١٠].

وقد جرت عادة السلطات العثمانية على تحديد مدة معينة لبقاء القاضي في منصبه. فكانت مدة بقاء قاضي لواء الموصل هي سنة واحدة، في حين حددت فترة بقاء قضاة الأقضية التابعة للواء الموصل في مناصبهم بعشرين شهراً. وكان على قاضي القضاء الذي أنهى مدة خدمته ان يعود الى العاصمة حيث يواظب فيها على مراجعة ديوان القاضي عسكر كل يوم اربعاء على امل تعيينه مرة اخرى[١١]. وفي حين كان يسمح بنقل قاضي لواء الموصل بوصفه من قضاة المولوية من المناطق الآسيوية الى منطقة الروملي (في جنوب شرق اوربا) فإن قضاة الأقضية بوصفهم من درجة ادنى كانوا محرومين من هذا الحق ولم يكن في الامكان نقلهم الى خارج منطقتهم القضائية إلا في حالات الضرورة القصوى[١٢].

وتمتع القضاة- بالنظر الى المكانة الرفيعة التي كانوا يحتلونها سواء من وجهة نظر الدولة أو المجتمع بنوع من الحصانة وبعض الامتيازات. فقد كان يمنع انزال عقوبتي الاعدام ومصادرة الأموال بحق القضاة وكان يكتفى بمعاقبتهم في حالة إساءة استخدام سلطاتهم بعزلهم او نفيهم[١٣]. كذلك اعفي القضاة من دفع الضرائب[١٤].

وتجدر الإشارة الى ان كثيراً من القضاة اهملوا مواصلة تحصيلهم العلمي، بالنظر الى انهم كانوا يضمنون تعيينهم عندما يحين دورهم في التعيين



بصورة تلقائية. وقد استأثرت هذه الظاهرة اهتمام السلطات العثمانية فعمدت الى رفع المستوى العلمي للقضاة من خلال اجراء امتحانات عامة لهم عند كل تعيين جديد كما حدث مثلاً ابان حكم السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) والسلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) والسلطان احمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) [١٥].

لم يكن منصب القضاء في الدولة العثمانية حصراً بقومية بعينها إذ تولاه العربي والكردي والتركي والسلافي [١٦]. وكان من الامور الاعتيادية ان يعين قضاة اتراك في مناطق عربية، ويعين قضاة من العرب في مناطق غير عربية [١٧]. ومنذ بداية القرن السابع عشر شرعت الدولة العثمانية وبصورة مؤقتة بتعيين القضاة من بين اهالي المنطقة، وفي القرن التالي اصبح تعيين القضاة من بين ابناء المنطقة بصورة دائمية [١٨]. وتأسيساً على ذلك كان كل قضاة الموصل في اثناء فترة حكم الاسرة الجليلية (١٧٢٦ - ١٨٣٤) من بين أبناء الولاية ذاتها [١٩]. بل انها انحصرت في بعض الأسر الموصلية مثل آل العمري وآل الفخري وآل الغلامي [٢٠]. وفي أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين اسند منصب القاضي الى ابناء اسر جديدة كما هو الحال مثلاً بالنسبة للحاج قاسم محمد الشعار (ت ١٩٥٥) [٢١].

ولقد شغل كثير من ابناء الموصل مناصب قضائية رفيعة خارج الموصل فعلى سبيل المثال لاالحصر تولى علي افندي بن مراد العمري (ت ١٧٣٤ م) منصب قاضي بغداد [٢٢] كما تولى غيره من ابناء الموصل منصب القضاء في البصرة مثل عبدالله بن محمد الصوفي [٢٣] وفتح الله بن موسى العمري [٢٤]، كذلك شغل محمد بن ملا احمد بن الكوله منصب قاضي ديار بكر [٢٥]. وتقلد عبدالوهاب بن الحاج حسن الجوادي (ت ١٢٤٧ هـ = ١٨٣١ م) قضاء الرقة [٢٦].

واجبات القاضي وصلاحياته :

تعددت واجبات القاضي واتسعت صلاحياته الى حد بعيد، فكان من بين واجباته حسم جميع الدعاوى الحقوقية والجزائية ودعاوى الأحوال الشخصية [٢٧]. كما أشرف على اموال اليتامى والقاصرين [٢٨] بل نهض بكل أعباء كاتب العدل وبإعداد الوصايا وما الى ذلك [٢٩]. وأشرف على شؤون المساجد [٣٠] والأوقاف اذ احتفظ القاضي بسجل للمؤسسات الوقفية. وكان يصادق في نهاية كل عام على حسابات تلك المؤسسات ويدون في السجل جميع التغيرات التي قد تطرأ على المؤسسات الوقفية [٣١]. وكثيراً ماتولى القاضي الوقف بنفسه او شارك المتولي عليه مهمته [٣٢]. وتمتع القاضي احياناً بصلاحية تعيين رجال الافتاء غير الحنفية وتدخل احياناً في تعيين وعزل رجال الافتاء الأحناف ولعب دوراً في تعيين أساتذة المدارس الدينية وموظفي الأوقاف [٣٣]. وفي بعض الحالات جمع القضاة بين منصبهم ومنصب المفتي [٣٤]. وخلال العهد الجليلي كان اغلب قضاة الموصل ممن سبق لهم ان تقلدوا منصب المفتي [٣٥].

كذلك امتدت صلاحيات القاضي الى الشؤون الادارية، فبالنظر الى تمتعه بحق ارسال مذكرات احتجاج وعرائض الى استانبول مباشرة [٣٦]، فقد تمكن من انصاف الناس من جور بعض الولاة، اذ كان سبباً في عزلهم او نقلهم [٣٧]. وكان القاضي يسارع عقب عودته الى العاصمة بعد انقضاء فترة مأموريته الى اطلاع المسؤولين في العاصمة على شؤون المنطقة التي عاد منها. ولم يكن بإمكان اي موظف اداري مباشرة مهامه الا اذا اثبت لدى القاضي صحة تعيينه وسجل براءة تعيينه في سجل القاضي وذيلها بتوقيعه [٣٨]. كما كان القاضي يقوم بدور الوسيط في النزاعات التي تنشب بين بعض الفئات من السكان او تلك التي تندلع بين الباشوات وفي هذه الحالة كان في وسع القاضي ان

يأمر بعزل الباشا[٣٩]. كذلك كان القاضي ينوب عن الوالي او المتصرف او القائمقام في أثناء تغيبهم عن مراكزهم[٤٠]. وفي اوقات الحروب كان القاضي يقوم بالاشتراك مع الوالي او حاكم اللواء وبناء على اوامر من الدولة بجمع المتطوعين[٤١].

وعلى صعيد آخر تمتع القاضي بصلاحيات كبيرة في الشؤون المالية، فقد منح حق الاشراف على الضرائب في منطقته حيث كانت الضرائب العرفية (غير الشرعية) تسجل في سجل المحكمة الشرعية في اللواء او القضاء[٤٢]. وكان على القاضي ان يراقب الضرائب في منطقته وضمان ان تكون مطابقة لما هو مسجل منها في سجل المحكمة الشرعية. كما يقوم القاضي بالتوقيع على سجلات جباة ضرائب الأغنام وسجلات جباة الخراج. كما يشرف القاضي على تطبيق الأوامر والتعليمات الخاصة بصدد التيمارات[٤٣] في منطقته[٤٤].

وفي شباط عام ١٨٣٤ أصدر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) فرماناً، ألغى بموجبه الاسلوب القديم المتبع في جباية الجزية ونص على وجوب جبايتها مستقبلاً على يد لجنة تتألف من القاضي وعدد من المسؤولين الاداريين وبعض اعيان اهل الذمة[٤٥].

كذلك تولى القاضي مهمة تدقيق الحسابات الكمركية[٤٦]، وأخيراً تولى القاضي مهمة تحديد أسعار الحبوب وبقية المواد الغذائية الأخرى[٤٧].

تلك هي سلطات القاضي من الناحية النظرية. اما من الناحية العملية فإن وجود سلطات اخرى اعلى من سلطة القاضي سواء في الايالة او في السنجق مثل سلطة الوالي او حاكم السنجق، حتى ان البعض من هؤلاء تجاوز حدود سلطاته اذ كان يحد في بعض الأحيان من صلاحيات القاضي. فقد يعمد الوالي مثلاً الى زيادة نسبة الضرائب، او فرض ضرائب جديدة غير واردة في سجلات القضاة. او ان ملتزمي الضرائب لايتقيدون بما يصدره القاضي من تعليمات بخصوص الضرائب ولاسيما في المناطق البعيدة عن رقابة القاضي كالقرى النائية، او ان مهمة الاشراف على الأوقاف تناط في بعض الأحيان الى اناس آخرين غير القاضي[٤٨].

ولقد خاض كثير من قضاة الموصل في الحياة السياسية للمدينة ونهض بعضهم بدور مشرف في الذود عن مدينتهم بوجه الطامعين فيها. فقد اسهم قاضي الموصل في الدفاع عن المدينة ابان محاولة نادرشاه الاولى لاحتلال الموصل في عام ١٧٣٢ حينما اطلق قذيفة مدفع اصاب بها قائد الجيوش الغازية[٤٩]. وقام القاضي ايضاً بدور مهم في اثناء محاولة نادرشاه الثانية لاحتلال الموصل في عام ١٧٤٣، إذ اختير عضواً في وفد ضم ثلاثة أشخاص كلفوا بإجراء مفاوضات مع نادرشاه عقب فشله في احتلال الموصل، وقد تكللت تلك المفاوضات بالنجاح وعقد صلح بين الطرفين[٥٠] وعمد عدد من الولاة - كما كان الحال ابان العهد الجليلي - الى الاستعانة بالقضاة في معالجة بعض القضايا المهمة. فعلى سبيل المثال عقد الوالي امين باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي مؤتمراً في عام ١٧٥٨ ضم في عضويته كلاً من القاضي والمفتي وبعض الشخصيات المتنفذة الاخرى، لاستطلاع رأيهم بشأن الخطوات الواجب اتخاذها تجاه عدد من الشخصيات التي كان قد زج بها في السجن اثناء حكم ابيه لدورها في اثارة الاضطرابات في المدينة[٥١].

ومن جانب آخر أسهم بعض قضاة الموصل في الصراعات المحلية التي كانت شهدتها الموصل في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فقد وقف قاضي الموصل محمد بن الكولة، وكان معروفاً بنزعته الاصلاحية الى جانب والي الموصل عبدالرحمن بك ابن عبدالفتاح باشا أثناء فتنة عام ١٧٧١ التي نشبت بين مؤيدي الحركات الصوفية وخصومها[٥٢].



تشكيلات محاكم القضاة وطريقة اجراء المرافعات فيها :

كان لكل ولاية ولواء محكمته التي يمارس القاضي فيها واجباته الاعتيادية بمعية بقية اعضاء المحكمة. وكان تشكيل المحكمة يقتصر على هيئة بسيطة تتألف من القاضي ونائبه والقسام الشرعي وكاتب المحكمة ، وكان واجب الأخير ينصب على تدوين افادات اطراف القضية وادعاءات المدعين ودفاع المتهمين[٥٣] . اما بالنسبة لمحاكم الأقضية والنواحي فكانت تتشكل من القاضي وكاتب بسيط يساعده في تصريف شؤون المحكمة.

وفي حالة غياب القاضي عن دائرته كان ينبغي عليه ان يعين نائباً خاصاً ليقوم مقامه[٥٤] . وكان هذا في العادة من ابناء المنطقة وممن امضى في منصبه زمناً طويلاً[٥٥] . وفي احيان اخرى ناب المفتي عن القاضي اثناء غيابه[٥٦] . وباستثناء القاضي فقد تألفت هيئة المحكمة من موظفين محليين يشغلون مناصبهم بطريقة الوراثة احياناً[٥٧] .

وكانت كل محكمة تحتفظ عادة بدفاتر خاصة بها تسمى (السجلات) تحفظ فيها الفرامين الواردة من العاصمة ، فضلاً عن الدعاوى والأحكام الصادرة بشأنها وقضايا الزواج وعقود البيع والشراء والضرائب وغيرها[٥٨] .

وبوجه عام لم تكن محكمة القاضي تعرف المرافعات المعقدة وكان قرار المحكمة يصدره القاضي لوحده[٥٩] ، بعد حصوله على فتوى من دار الافتاء الشرعي التي كانت تضم مفتي المدينة ورئيس العلماء وأمين الفتوى[٦٠] .

أما بصدد كيفية سير المحاكمات فقد كان يتوجّب على طرفي القضية (المدعي والمدعى عليه) الحضور الى المحكمة ، وان يُحضر المدعي شاهدين على الأقل شريطة ان يكونا رجلين معروفين بسيرتهما الحسنة . ولا يعول على الأدلة المكتوبة او المستندات إلا في قضايا معينة . واذا ماتوافرت ادلة كافية لصالح المدعي فيصدر قرار لصالحه ، وفي خلاف ذلك يطلب من المدعى عليه ان يؤدي اليمين لاثبات براءته وعندها تغلق القضية . وبما أن الافادات الشفهية تمثل العنصر الحاسم في اية قضية فقد وضعت بعض الضوابط التي منع بموجبها مثلاً اعتماد إفادات الأقارب وكان القرار الذي تصدره المحكمة يعد قراراً نهائياً[٦١] .

وبوجه عام وصف القضاء العثماني بسرعة البت في القضايا اذ قد يصدر الحكم وينفذ خلال جلسة واحدة وقلما تعلق القضايا او يؤجل النظر فيها[٦٢] .

أما عن الأسس التي كان يعتمدها القضاة في اصدار احكامهم فكانت كالآتي :-

١- الشريعة الاسلامية : وكانت هذه الشريعة بمثابة القانون الاساسي لعموم الدولة العثمانية ، وكانت المصادر التي بنيت عليها الشريعة الاسلامية هي القرآن الكريم والسنة النبوية فضلاً عن كتب الفقه الحنفي ولاسيما كتابي (الدرر) و (ملتقي الأبحر) اللذين ضما آراء كل مشاهير الفقه الحنفي في الازمنة السابقة[٦٣] . وقد أُعتمد الكتاب الأخير حتى القرن التاسع عشر[٦٤] .
٢- القانوننامات : وهي تنظيمات اصدرها السلاطين العثمانيون وتناولت تلك الشؤون التي لم تتطرق اليها الشريعة ، وبطبيعة الحال يفترض بأنها لاتتعارض مع احكامها[٦٥] .

وقد انقسمت القانوننامات الى نوعين : الأول وهو القانوننامات العامة التي تسري احكامها في جميع مناطق الدولة . والثاني وهو القانوننامات المحلية او قانوننامات الايالات والتي يقتصر سريان احكامها على الايالة نفسها . وفي حين عرفت قانوننامتي ايالتي بغداد والبصرة . بأسماء اخرى فقد ظلت قانوننامة ايالة الموصل محتفظة بالاسم نفسه اي قانوننامة الموصل . وكانت القانوننامات المحلية تتناول عادة عديداً من القضايا كالأراضي



والضرائب والجرائم وواجبات الشرطة والحسبة وغيرها(٦٦).

٣- العرف: وهو مااستبقاه العثمانيون من ممارسات محلية قديمة أو مااصدره سلاطينهم من احكام في حالات معينة خارج حدود الشريعة.

وكان يتوجب على القاضي في حالة اصداره حكماً قاسياً في بعض القضايا الخطيرة كجرائم القتل مثلاً، ان يعرض الحكم اولاً على والي الايالة فإذا ماصدق الحكم من قبله ومن قبل اثنين من معتمديه وهما في الغالب من مقربيه فعند ذاك يتم تنفيذ الحكم بالمجرم وفي خلاف ذلك فإن الحكم يرسل الى العاصمة لعرضه على الديوان الهمايوني وحينذاك قد تتم المصادقة على الحكم او يصار الى تغييره(٦٧).

أما في القضايا البسيطة فلم تكن تتطلب تلك الاجراءات وكان يعاقب عليها عادة بالجلد أو بالغرامة او بكليهما معاً.

وقد يكون من المفيد أن نشير الى العقوبة التي نصت عليها قانوننامة الموصل في حالة دخول حيوانات شخص ما في حقل شخص آخر وتسببها في إلحاق أضرار بالحقل بان يدفع تعويضات لصاحب الحقل ويجلده خمس جلدات علاوة على تغريمه خمس اقجات. ومما يسترعي الانتباه ان القانوننامة المذكورة كانت تأخذ بنظر الاعتبار المستوى المادي للشخص حين فرضها غرامات مالية على المجرمين ففي حوادث فقئ العين او كسر اليد كان يعاقب عليها بتغريم الفاعل (٢٠٠) اقجة اذا كان غنياً، و(١٥٠) اقجة اذا كان متوسط الحال و (١٠٠) اقجة اذا كان فقيراً(٦٨).

كذلك تجدر الاشارة الى حرص المحاكم العثمانية على وجوب تنفيذ الحكم في نفس المنطقة التي ارتكبت فيها الجريمة، واذا ماهرب المجرم الى منطقة اخرى فإنه يعاد الى منطقته وينفذ فيه الحكم(٦٩).

وكان يساعد القاضي في تنفيذ مايصدره من احكام موظفان يعرف احدهما بـ (الصوباشي)(٧٠)، والآخر (احتساب اغاسي) اي المحتسب(٧١) وكان الأخير مسؤولاً بصورة مباشرة أمام القاضي واقتصرت واجباته على مراقبة الأسعار والأوزان. وكان المحتسب يحصل على وظيفته بطريقة الالتزام. أما ايراداته فكانت تتأتى من الرسوم المعروفة برسوم الاحتساب وهي التي تفرض على كل السلع المحلية والمستوردة(٧٢) وكانت في يد المحتسب سلطة معاقبة اصحاب الحوانيت المتجاوزين بصورة فورية وبهذا كانت وظيفته تختلف من حيث المبدأ عن وظيفة القاضي، اذ كان المفروض في الأخير ألا يصدر حكماً إلا بعد استماعه الشهود في محكمته(٧٣).

لم يسلم الجهاز القضائي - شأنه في ذلك شأن بقية اجهزة الدولة الاخرى - من التردي والفساد. فما أن حلّ القرن الثامن عشر حتى اصبح من الامور المألوفة ان تمنح الترقيات بالخطوة والرشوة، وان يطبق المزاد لا على الوظائف الادارية فحسب بل القضائية والدينية ايضاً وغدا موظفو المحاكم يعدون نموذجاً لخراب الذمم والفساد(٧٤). ويبدو أن الفساد في الجهاز القضائي استمر حتى أواخر القرن التاسع عشر، واتخذت اجراءات قاسية ضده فعلى سبيل المثال عوقب احد قضاة الموصل ممن كان ذاع صيته في الرشوة والفساد(٧٥) وكان المنادي يسير معلناً للناس جريمته(٧٦).

ولقد كان لمحكمة القاضي بناية مستقلة عن سراي الحكومة تقع في محلة باب لكش، ثم انتقل مقرها فيما بعد الى مبنى يقع قبالة مديرية الشرطة وبقيت كذلك حتى الاحتلال البريطاني للموصل في عام ١٩١٨ حينما تداعى المبنى وعرض للبيع(٧٧).

ولعل من المفيد ان نشير الى ان القضاة والعلماء



كانوا يرتدون زياً خاصاً بهم فكانوا يعتمرون عادة عمامةً سوداء مبطنة ويتسربلون بطيلسان اسود اقتداء بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)[٧٨] .

وحري بالذكر ان بعض القضاة انصرفوا الى التدريس في مدارس الموصل عقب اعتزالهم مناصبهم ، بل ان بعضهم كان يقوم بالتدريس في تلك المدارس في نفس الوقت الذي يتولى فيه منصبه قاضياً[٧٩] .

دخل القاضي وايراداته :

كان دخل القاضي يتألف بالدرجة الاولى من الاجور اليومية وقد اختلفت هذه الأجور تبعاً للوحدة الادارية التي كان يعمل فيها القاضي . فبينما كانت اجور قاضي سنجق (لواء) الموصل تبلغ (٣٠٠) اقجة يومياً كانت اجور قضاة الأقضية التابعة للواء الموصل تتراوح في بداية الأمر بين (٢٠) و (٤٠) اقجة يومياً ، ثم زيدت تلك الاجور على اثر انخفاض قيمة الأقجة بحيث اصبحت تتراوح مابين (٤٠) الى (١٥٠) اقجة يومياً[٨٠] .

وشكلت الرسوم المفروضة على مختلف القضايا التي تعرض على القضاة مصدراً مهماً آخر من مصادر دخل القضاة وقد تنوعت تلك الرسوم وكانت كالآتي : -

١ - رسم القسمة : وقد عرف هذا الرسم في بعض المصادر الموصلية المحلية باسم رسم (القسامية)[٨١] ، وهو الرسم الذي يحصل عليه القاضي نظير قيامه بتقسيم اموال المتوفي بين ورثته . واقتصر هذا الرسم على الأموال المنقولة فقط ، اذ لم يكن من الجائز قانوناً للقاضي ان يأخذ رسماً عن الأراضي او العقارات التي يتركها المتوفي لورثته[٨٢] . وقد اختلفت نسبة الرسم من وقت الى آخر وكانت في مطلع الحكم الجليلي في الموصل تساوي $\frac{١}{٢٠}$ من قيمة التركة واشار مصدر في معرض حديثه عن الأعمال التي قام بها ابراهيم اغا وهو احد ابناء اسماعيل باشا بن عبدالجليل الى الغائه ضريبة القسامية في محاولة منه للتخفيف عن كاهل الموصليين[٨٣] .

٢ - رسم النكاح : - وهو الرسم الذي يفرض على عقود الزواج . وقد حدد منذ زمن السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) بـ (٢٥) اقجة يأخذ القاضي منها (٢٠) اقجة وخصص الباقي لنائب القاضي وكاتب المحكمة[٨٤] . ويبدو انه في وقت لاحق تم التمييز بين الرسم الذي يدفع عند زواج الفتاة الباكر وهو (٢٥) اقجة ، وبين الرسم الذي يدفع عند زواج المرأة «الثيب» وهو (١٥) اقجة ، يأخذ القاضي (١٠) منها فيما يقتسم نائب القاضي والكاتب الباقي[٨٥] .

٣ - رسم الحجة : وهو الرسم الذي يأخذه القاضي عن الدعاوى التي ترفع اليه والتي يسجلها في سجل المحكمة الشرعية . وقد بلغ مقدار هذا الرسم (٢٥) اقجة في القرن السابع عشر خصص (٢٠) منها للقاضي فيما قسم الباقي بين نائب القاضي والكاتب[٨٦] .

وفضلاً عما ذكر فقد خصصت رسوم اخرى للقاضي مثل رسم العتاق نامة (اي براءة الذمة) والذي بلغت قيمته في القرن السابع عشر (٦٦) اقجة منها (٥٠) اقجة للقاضي و (١٠) اقجات لنائبه و (٦) اقجات لكاتب المحكمة ، كما سمح للقاضي بأخذ مبلغ قدره (١٢) اقجة لقاء وضع ختمه على المستندات وسجلات الملتزمين وجباة الضرائب وغيرهم[٨٧] .

ولما كان القضاة لايتقاضون اية مرتبات خلال فترة وجودهم خارج الخدمة او عقب احالتهم على التقاعد فقد كان لابد من ايجاد موارد دخل لهم سيما وان الدولة توقفت عن صرف المرتبات للقضاة حتى

اثناء وجودهم في الخدمة نظراً للزيادة الكبيرة التي طرأت على اعدادهم. ولحل هذه المشكلة عمدت الحكومة العثمانية الى ان تخصص للقضاة بعضاً من المناطق ليعتاشوا على ايراداتها كأن تمنحه بعض القرى مثلاً. وكان القاضي بدوره يوكل نواباً عنه لادارة تلك المناطق ويأخذ هؤلاء نسبة من الايرادات فيما يخصص الباقي منها للقضاة. واصطلح على تسمية الحصة التي يأخذها القاضي بإسم (اربلق)[٨٨].

نواب القضاة :

لم يكن القاضي ينظر لوحده في الامور الشرعية والحقوقية التي تخص منطقته، بل كان للقاضي نائب واحد او اكثر تبعاً لمكانة القاضي نفسه او لسعة المنطقة التي يقضي فيها. وانقسم نواب القضاة الى قسمين رئيسيين: الأول هم نواب القاضي الذين كانوا يعملون في النواحي الملحقة بالقضاء (ويقصد به هنا الوحدة الادارية التي تلي مباشرة اللواء) وكان هؤلاء يحصلون على مناصبهم بطريقة الالتزام ويمارسون القضاء بإسم قاضي القضاء. أما القسم الثاني من نواب القضاة فهم الذين يجلسون مع القاضي في المحكمة نفسها وينوبون عنه في النظر في بعض القضايا او يعملون معاً مع القاضي[٨٩].

ان الميزتين اللتين امتاز بها القضاء الا وهما نظام الخدمة الدورية واتباع اسلوب الالتزام في اسناد المناصب القضائية في النواحي لعبا دوراً كبيراً في الاساءة الى الجهاز القضائي. فبالنسبة لنظام الخدمة الدورية كانت فترة بقاء القاضي خارج الخدمة آخذة في الطول مع تزايد عدد القضاة. وبالنظر الى ان القضاة لم يكونوا يقبضون اية مرتبات خلال وجودهم خارج الخدمة فقد عمد الكثير منهم الى استغلال فترة خدمته لجمع اكبر مبلغ ممكن من المال حتى ولو دفع بهم ذلك الى اللجوء الى اساليب ملتوية كقبول الرشاوى او زيادة الرسوم المخصصة لهم عن النسب المقررة.

أما بالنسبة لاسلوب الالتزام في اسناد المناصب القضائية فقد دفع هو الآخر بكل من قاضي القضاء وبالشخص الذي يرسو عليه الالتزام الى ان يضعا الناحية المادية في المقام الأول. فقد دأب قاضي القضاء على تعيين نوابه من بين اولئك الذين يدفعون اموالاً أكثر من غيرهم دون الأخذ بنظر الاعتبار مدى صلاحيتهم لمنصبهم. أما عن النائب الذي حصل على منصبه بهذه الطريقة فمن البديهي ان يهتم بالدرجة الاولى باسترداد مادفعه ثمناً لمنصبه فضلاً عن اهتمامه بإستغلال منصبه الى أقصى حد ممكن بغية الحصول على ايرادات اضافية منه وبوسائل غير مشروعة غالباً. وقد حاولت الدولة العثمانية وضع حد لهذه الظاهرة من خلال المراسلات المتعددة التي خاطبت بها الولاة والقضاة بغية وضع حد للتعسف والاستغلال الذي يمارسه نواب القضاة في النواحي والقرى التي حصلوا على حق القضاء فيها بطريقة الالتزام[٩٠].

هيئات المحاكم الاخرى :

وجدت الى جانب محكمة القاضي الرسمية محاكم اخرى تختص كل منها بالنظر في قضايا ذات طبيعة خاصة. كان من بينها تلك المحاكم التي يرأسها قضاة من غير المذهب الحنفي وتختص هذه المحاكم بالنظر في قضايا الأحوال الشخصية لاتباع المذاهب الأخرى كعقود الزواج ومسائل الطلاق والميراث وما الى ذلك[٩١]. وهناك ايضاً محاكم الطوائف غير الاسلامية التي كان السلاطين العثمانيون قد اعترفوا لرؤسائها الروحانيين بصلاحيات واسعة في بداية الأمر ثم مالبثت ان تقلصت صلاحياتها بمرور الزمن[٩٢]. كذلك وجدت محاكم خاصة لمحاكمة رجال الانكشارية[٩٣] وأخرى لمحاكمة الأشراف وبالنسبة للأخيرة لم يكن بالامكان اعدام اي



شريف دون مصادقة نقيب الاشراف على الحكم[٩٤] كذلك خُوِّل رئيس التجار (الشاه بندر) صلاحية النظر في الخلافات الناشبة بين التجار[٩٥] ومن جانب آخر تمتع رؤساء الطوائف الحرفية الاخرى بصلاحيات مماثلة كتلك التي تمتع بها رئيس التجار[٩٦]. ومنح كبار المسؤولين الاداريين صلاحيات قضائية، فعلى سبيل المثال كان يحق لوالي الايالة لاسيما اذا كان حاملاً رتبة وزير سماع الدعاوى واصدار الأحكام بشأنها عندما تعرض عليه وهو في طريقه الى الايالة او في اثناء عودته منها الى العاصمة، كذلك مُنح السنجق بك (حاكم اللواء) احياناً صلاحية النظر في الدعاوى الشرعية في سنجقه، كما ان كتخدا (مساعد) الوالي كان ينظر احياناً في بعض الدعاوى التي تخص العسكريين والمدنيين[٩٧]. وفضلاً عن ذلك كانت المجتمعات القبلية التي ظلت تتمسك بتقاليد خاصة بها تمارس سلطة قضائية على افرادها وصلت الى حد اصدار عقوبة الموت كما هو الحال بالنسبة للجرائم التي تتعلق بالاعتداء على الأعراض وجرائم الزنا[٩٨].

المفتي:

كان المفتي بموجب النظام القضائي في الدولة العثمانية يأتي في المرتبة الثانية بعد القاضي ويتقدم في الوقت نفسه على نائب القاضي[٩٩]. إذ يعينه مفتي استانبول الذي كان بمثابة (المفتي الأول) في الدولة العثمانية وهو مايعرف أيضاً بـ (شيخ الاسلام)[١٠٠]. وكان تعيين المفتي الرسمي وهو المفتي الحنفي يستلزم صدور براءة سلطانية[١٠١] ثم يثبت في منصبه من قبل الباب العالي[١٠٢] وبصورة عامة تمتع المفتي في الولايات العربية بصلاحيات اكبر من تلك التي تمتع بها اقرانه في الولايات غير العربية[١٠٣]. وقد تركت الدولة العثمانية لاتباع المذاهب الدينية الاخرى حق اختيار مفتيهم من بينهم[١٠٤] ومن ثم تتولى السلطات المحلية المصادقة على تعيينهم بصورة رسمية[١٠٥] وهكذا وجد في الموصل مفتيان احدهما لاتباع المذهب الحنفي والآخر لاتباع المذهب الشافعي[١٠٦].

واتخذ المفتي من دار الافتاء الشرعي مقراً له. وتألفت هيئة الافتاء من المفتي رئيساً وعضوية كل من رئيس العلماء، وامين الفتوى. أما مجلس الافتاء فكان يعقد جلساته في يوم الثلاثاء من كل اسبوع[١٠٧].

وكانت مهمة المفتي ابداء الرأي في الكثير من القضايا الشرعية المختلف حولها، ولم يكن المفتي في الواقع يبتكر احكاماً جديدة في الشريعة الاسلامية اذ كان باب الاجتهاد قد اقفل منذ ان استقرت المذاهب الاسلامية وانما يعطي اجوبة عن اسئلة تدور حول قضايا معينة استناداً الى قواعد سابقة وثابتة[١٠٨].

كذلك تولى المفتي أعمالاً أخرى، فقد كان ينوب عن القاضي حين تغيبه عن وظيفته[١٠٩]. ويبدو أن المفتي كان يشرف– الى جانب غيره من رجال الدين– على شؤون الأوقاف. وقد استمر الحال على ذلك حتى عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨–١٨٣٩)، الذي رفع يد المفتي عن الأوقاف وجعلها تحت اشرافه، وانشأ ادارة تحولت فيما بعد الى (وزارة) للأوقاف[١١٠]. وتقلد المفتي أحياناً مناصب بعيدة عن اختصاصاته ففي عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ) كان المفتي يشغل منصب رئيس فرع المصرف الزراعي في قضاء دهوك[١١١].

ولم يشترط في تعيين المفتي ان يكون ممن درسوا في مدارس العاصمة بل كان يجوز أن يسند المنصب الى اولئك الذين تلقوا تعليماً في المدارس المحلية[١١٢]. ومن الناحية النظرية لم يكن المفتي يتقاضى راتباً على عمله[١١٣]، الا أنه من الناحية العملية كان يتقاضى اجوراً لقاء اصدار الفتاوى تتناسب مع الحالة المادية لطالب الفتوى. واستطاع

بعض المفتين جمع ثروات طائلة[١١٤] . وبخلاف القاضي كان المفتي يشغل منصبه مدى الحياة[١١٥] ولو أنه كان يحق له ان يتخلى عنه في حالة تقدمه في السن وعجزه عن ممارسة مهامه[١١٦] . وفي بعض الحالات كان يتم عزل المفتي من منصبه ثم يعاد اليه بعد حين[١١٧] . وتجدر الاشارة في هذا الصدد الى ان الولاة والوجهاء تدخلوا احياناً في عزل المفتي.

لقد انحصر منصب المفتي - كما هو الحال في العهد الجليلي مثلاً - في بعض الأسر الموصلية المتنفذة فلم يخرج منصب المفتي الحنفي من حوزة ثلاث اسر موصلية هي : آل العمري وآل ياسين وآل الفخري الأعرجي ، كذلك توارثت أسرة آل الغلامي منصب مفتي الشافعية جيلا عقب جيل[١١٨] . وحدث أحياناً ان انتقل منصب المفتي من الأب الى ابنه[١١٩] ، او من الأخ الى أخيه[١٢٠] ، او من الجد الى حفيده[١٢١] .

كذلك شغل أبناء الموصل منصب المفتي في بعض اقضية الموصل فقد عين الشيخ احمد الديوه جي مفتيا لقضاء سنجار في عام ١٩٠٩ (١٣٢٧ هـ)[١٢٢] . ومما يسترعي الانتباه ان اشغال منصب مفتي القضاء اصبح يتم عقب اجتياز المرشح لامتحان في العلوم الشرعية والفقهية. فعلى سبيل المثال ادى محمد بن احمد بن حسن الصوفي الامتحان بغية تعيينه مفتيا لقضاء سنجار في اواخر العهد العثماني ولما اجتاز الامتحان بتفوق وحصل على تقويم جيد في العلوم الشرعية والفقهية عين مدرساً عاماً في مدينة الموصل بدلاً من تعيينه مفتيا لقضاء سنجار[١٢٣] .

ومن الملاحظ ان عدداً من المفتين في الموصل كانوا يمارسون فضلاً عن واجباتهم التدريس في مدارس الموصل[١٢٤] . ولعل السبب في ذلك هو الحصول على مورد رزق لهم او لأغراض ثقافية وخيرية اوكليهما معاً.

لم تقتصر مهام مفتي الموصل على اداء واجباته التقليدية التي سبق أن أشرنا اليها آنفاً ، بل تعدتها الى الانغماس في الحياة السياسية لمدينة الموصل. فقد نهض مفتي الحنفية بالموصل السيد يحيى بن فخرالدين بدور مهم في احداث الحصار الذي تعرضت له الموصل على يد نادرشاه في عام ١٧٤٣ . فقد ارسل الأخير رسالة[١٢٥] الى المفتي المذكور خاطب من خلالها والي الموصل الحاج حسين باشا. ولما قرأ الأخير الرسالة على اسماع اهالي الموصل خول المفتي بكتابة رد عنها[١٢٦] .

كذلك عين مفتي الشافعية في الموصل السيد علي الغلامي عضواً في وفد ضم ثلاثة أشخاص انتدب لمفاوضة نادرشاه عقب فشل محاولته احتلال الموصل في عام ١٧٤٣[١٢٧] . كما استعان بعض الولاة بالمفتي في حل المشكلات التي كانت تعاني منها مدينة الموصل. وكمثال على ذلك عقد امين باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي مؤتمراً في ١٧٥٨ ضم القاضي والمفتي وبعض وجهاء المدينة لاستطلاع رأيهم بصدد امكان إطلاق سراح عدد من وجهاء المدينة الذين كان الحاج حسين باشا الجليلي قد زج بهم في السجن بتهمة ضلوعهم في الاضطرابات التي نشبت في عهده[١٢٨] .

وفضلاً عما ذكرنا فقد خاض مفتي الموصل في بعض الأحيان في الصراعات المحلية. ونجح المفتي كما هو الحال في عام ١٧٥٩ من جمع عدد من الأعوان حوله[١٢٩] كما ساهم المفتي في عام ١٧٦٩ في عقد صلح ولو ظاهريا بين الفرقة الانكشارية التي كانت ترابط في الموصل والتي كانت تخوض قتالاً بين بعضها البعض الآخر[١٣٠] .

وتحسن الاشارة الى ان عدداً من اهالي الموصل شغلوا منصب الافتاء خارج الموصل. فعلى سبيل المثال عمل علي المفتي بن مراد العمري (١٠٦٠ - ١١٤٧ هـ) مفتياً لبغداد مدة تقارب السنتين[١٣١] .



نشأة المحاكم النظامية :

عمدت الدولة العثمانية الى اصلاح وتنظيم الجهاز القضائي منذ بداية القرن التاسع عشر وكانت اولى الخطوات في هذا الشأن وضع المحاكم الشرعية في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩) تحت اشراف شيخ الاسلام بعد ان كانت تحت اشراف الصدر الأعظم [١٣٢] . كما تأسس مجلس للقضاء في عام ١٨٣٧ [١٣٣] ، وعُين (مجلس الاحكام العدلية).

وقد استهل عام ١٨٣٩ وهو العام الذي بدأت فيه فترة التنظيمات بصدور اول مرسوم اصلاحي في الدولة العثمانية والذي عرف بخط شريف كولخانة. وأكد المرسوم الحاجة الى ضرورة سن قوانين جديدة في الدولة العثمانية تنظم بموجبها مختلف اجهزة الدولة. وبقدر تعلق الأمر بالقضاء شدد المرسوم المذكور آنفاً على عدم جواز اعدام او تسميم ارباب الجنح بصورة علنية او سرية دون النظر في دعاواهم بشكل علني ودقيق وبموجب القوانين المرعية ، ومنع من حرمان ورثة المجرمين ممن تصدر بحقهم احكام بمصادرة اموالهم من حقهم في الميراث الشرعي. ووعد بزيادة عدد أعضاء مجلس الأحكام العدلية كما وعد ايضاً بإصدار قانون جزاء لمعاقبة كل شخص تسول له نفسه خرق احكام القوانين التي سوف تصدرها الدولة بغض النظر عن منزلته [١٣٤] .

وفي ميدان القضاء ، كما في كثير من الميادين الأخرى ، فضل الاتراك الاقتباس من القوانين الفرنسية. وهكذا تبنوا في عام ١٨٤٠ قانون العقوبات الفرنسي وتأخر اعلان القانون التجاري حتى عام ١٨٥٠ [١٣٥] بالنظر للمعارضة الشديدة التي قوبل بها القانون في اوساط رجال الدين الذين نظروا اليه باعتباره يتعارض مع مبادئ الشريعة الاسلامية [١٣٦] .

ومن جهة اخرى فقد اشتمل مرسوم «خطي همايون» الصادر في عام ١٨٥٦ على وعد باجراء عدد من الاصلاحات في ميدان القضاء فمن ذلك انه دعا الى احالة جميع الدعاوى التجارية والجنائية التي تقع بين المسلمين وغير المسلمين او بين المسلمين بعضهم مع بعض على الدواوين المختلطة ، وأكد على ضرورة ان تكون جلسات الدواوين علنية. وحث ايضاً على ضرورة الاسراع في البت في القضايا المعروضة عليها. وأكد على الامتناع عن انزال العقوبات البدنية بحق نزلاء السجون [١٣٧] .

وبعيد صدور مرسوم الهمايون شرعت السلطات العثمانية بإعداد مسودة قانون جديد للجزاء. وتم وضعه وصدرت ارادة سنية بتنفيذه في ١٨٥٨ (ذي الحجة ١٢٧٤ هـ) [١٣٨] .

ومنذ ذلك الحين ظهرت محاكم جديدة في الدولة العثمانية عرفت بـ (المحاكم النظامية) وكانت تنظر في القضايا الخارجة عن اختصاصات المحاكم الشرعية والتجارية. واستمرت المحاكم الشرعية ومحاكم الطوائف غير الاسلامية في مواصلة اعمالها الا أن اختصاصاتها حصرت في قضايا الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث وما شابه ذلك [١٣٩] فقد تأسست محاكم في القضاء عرفت بـ (مجلس القضاء) واخرى في اللواء سميت بـ (مجلس اللواء) وثالثة في الولاية دعيت بـ (مجلس الولاية).

وفي عام ١٨٦٨ قسم ديوان الأحكام العدلية الى قسمين دعي الأول بـ (مجلس شورى الدولة) فيما سمي الثاني بـ (ديوان الأحكام العدلية) وكان الأخير بمثابة المحكمة العليا في الدولة العثمانية [١٤٠] .

وفي عام ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) غيرت اسماء المحاكم في مختلف الوحدات الادارية اذ تحول اسم (مجلس القضاء) الى (مجلس دعاوى القضاء) وغير اسم (مجلس اللواء) الى (مجلس دعاوى اللواء) في حين ابدل اسم (مجلس الولاية) بإسم (مجلس دعاوى الولاية) [١٤١] .



وتجدر الاشارة الى ان الحكومة العثمانية اصدرت قراراً في عام ١٨٧٣ (ربيع الأول ١٢٩٠ هـ) قضى بتمديد فترة رئاسة المحاكم الشرعية في الولاية والأقضية التابعة لعدد من الولايات وبضمنها ولاية بغداد، بحيث اصبحت سنتين ونصف السنة مالم يقدم رؤساء تلك المحاكم طلباً بإعفائهم من مناصبهم قبل انتهاء تلك المدة أو أن يعزلوا نتيجة سوء تصرفهم[١٤٢].

وفي ١٤ كانون الأول من عام ١٨٧٤ أصدرت الحكومة العثمانية فرماناً تضمن عدداً من الاصلاحات والتغييرات في الجهاز القضائي في الدولة العثمانية كالتأكيد على مبدأ عدم تدخل السلطات التنفيذية في شؤون السلطات القضائية، وعلى ضرورة ان يكون اعضاء المحاكم من العناصر المشهود لها بالنزاهة والاستقامة. كذلك دعا الفرمان الى تنظيم المحاكم وتحديد اختصاصات كل منها وأكد على عدم عزل او نقل اعضاء المحاكم دون أسباب وجيهة. وعلاوة على ذلك أُخذ منصب رئاسة محكمة التمييز من عهدة ناظر (وزير) الامور العدلية، وربط ديوان الاستئناف التجاري ومحاكمه بنظارة الامور العدلية. وأضيف الى واجبات محكمة الاستئناف المرتبطة بديوان الأحكام العدلية واجبات كل من ديوان الاستئناف التجاري وواجبات الديوان الجنائي. وتقرر تقسيم محكمة الاستئناف الى ثلاثة اقسام يختص الأول منها في النظر في القضايا الجزائية ويختص الثاني بالنظر في الدعاوى الحقوقية فيما تنحصر واجبات القسم الثالث في الفصل في الدعاوى التجارية. ودعا الفرمان ايضاً الى انتخاب رؤساء وأعضاء لمحكمة التمييز والى منح اعضاء المحاكم الذين ينتخبون من الآن فصاعداً براءات سلطانية عالية تحول دون عزلهم او نقلهم دونما سبب مقنع وبتخصيص رواتب تقاعدية لهم. ومنح الفرمان كل الرعايا العثمانيين حق انتخاب اعضاء المحاكم. وحث الفرمان على ارسال تعليمات واضحة حول تشكيلات المحاكم وطريقة انتخاب أعضائها الى كافة ارجاء الدولة وان يصار الى تنفيذها على الفور. ومن جهة اخرى اوضح الفرمان اختصاصات عدد من المحاكم فمن ذلك أنه اشترط ان يتولى النواب (القضاة) الموجودين في مراكز الولايات رئاسة دواوين التمييز وان تحال الى نواب تلك المراكز الاعلامات (الأحكام) التي تصدرها المحاكم الشرعية في الألوية والأقضية بغية تدقيقها، وان تتولى المحاكم النظامية الفصل في جميع الدعاوى سواء تلك التي بين المسلمين وغير المسلمين او بين الرعايا غير المسيحيين وغيرهم من الرعايا المسلمين وأخيراً دعا الفرمان الى الاسراع بإنجاز القوانين والأنظمة الخاصة بالمحاكم[١٤٣].

وتجدر الاشارة الى أن السلطات العثمانية كانت قد ارسلت في عام ١٨٧٤ تعليمات تتألف من اربع مواد الى كافة الولايات اوضحت فيها اموراً تتعلق برئاسة ديوان التمييز واختصاصاته[١٤٤]. وبلغ عدد النسخ من تلك التعليمات التي ارسلت الى ولاية بغداد (١٥٠) نسخة. وحثت السلطات العثمانية الولاة والمتصرفين على تطبيق تلك التعليمات حرفياً ودعت الى توزيع عدد كاف منها في الألوية والأقضية وان يصار الى شرح مضامينها الى الأهالي[١٤٥].

وفي عام ١٨٧٦، اصدرت الحكومة العثمانية دستوراً تضمن كثيراً من الاصلاحات والتغييرات في مختلف مرافق الدولة. فبالنسبة لجهاز العدالة فقد أكدت المادة (٨١) منه على عدم جواز عزل القضاة من مناصبهم وعلى ان ترقياتهم او تغيير عناوينهم او احالتهم على التقاعد تجري وفقاً لأحكام القانون. ونصت المادة (٨٢) على ان كل أنواع المحاكمات تجري بصورة علنية. وتضمنت المادة (٨٣) على ان بإمكان كل شخص ان يستخدم في حضور المحكمة كل وسيلة مشروعة يراها ضرورية



للمحافظة على حقوقه. وجاء في المادة (٨٦) ان المحاكم يجب ان تبقى بعيدة عن كل نوع من أنواع التدخل في شؤونها. ونصت المادة (٨٧) على ان يكون النظر في الدعاوى الشرعية من صلاحية المحاكم الشرعية فيما يكون النظر في الدعاوى النظامية من اختصاص المحاكم النظامية[١٤٦].

وتم في عام ١٨٧٨ الانتهاء من اصدار الجزء الأخير من مجلة الأحكام العدلية[١٤٧]. والتي أصبحت بمثابة القانون الذي تعتمده كل المحاكم المدنية في الامبراطورية العثمانية والجمهورية التركية فيما بعد حتى عام ١٩٢٦[١٤٨] بل أن المجلة ظلت تدرس في كلية الحقوق في بغداد حتى أوائل الخمسينات من القرن الحالي حين تم وضع قانون جديد هو القانون المدني العراقي[١٤٩].

وواصلت الحكومة العثمانية ادخال تعديلات اخرى على الجهاز العدلي في الدولة. ففي عام ١٨٧٩ (١٢٩٦ هـ) سن قانون اصول المحاكمات الحقوقية وصدرت ارادة سنية بالعمل بموجبه، كما صدر في العام نفسه قانون تشكيل المحاكم المدنية في مراكز الولاية والألوية والأقضية[١٥٠]. واستحدث في السنة ذاتها منصب مفتش عدلي في ولاية الموصل[١٥١]. كما غيرت اسماء المحاكم في الوحدات الادارية، اذ غير اسم (ديوان تمييز الولاية) الى (محكمة استئناف الولاية) وابدل اسم (مجلس تمييز اللواء) بإسم (محكمة بداءة اللواء) كما غير اسم (مجلس دعاوى القضاء) الى (محكمة بداءة القضاء)[١٥٢]. كذلك صدر في العام نفسه قرار بعدم ضرورة مصادقة الجهات الادارية على الاعلامات التي تصدرها المحاكم وبذلك قطعت الصلة بين الجهازين الاداري والقضائي[١٥٣].

وبعد عام ١٨٧٩ انقسمت المحاكم العثمانية الجديدة من غير محاكم الصلح الى ثلاثة انواع هي (١) محاكم البداءة (٢) محاكم الاستئناف (٣) محكمة التمييز التي كان مقرها في العاصمة استانبول.

وتعدّ المجالس الادارية في النواحي ومجالس الوجهاء التي تعمل على انهاء القضايا بالتصالح من قبيل محاكم الصلح. وهي تنظر في الدعاوى الصغيرة وتفرض غرامات بسيطة وتحكم بالسجن لمدة لاتزيد على يوم واحد كما ان من حقها اجراء تحريات في البيوت. ولكن قرارات هذه المحاكم ليست قطعية حيث بإمكان المتخاصمين ان يرفعوا دعاواهم الى محاكم البداءة في الأقضية.

وتتألف محاكم البداءة (بدايت محكمة سي) من رئيس هو «النائب» او القائم بمهمة القاضي الشرعي وعضوية اثنين من الأعضاء المنتخبين احدهما مسلم والآخر غير مسلم. وفي الحالات التي تشتمل فيها الدعوة على جناية اوجنحة ذات طابع بوليسي يضاف الى الهيئة المذكورة مدير الجندرمة (مدير قوة الأمن الداخلي) الذي يقوم بمهمة نائب المدعي العام كما يضاف لها ايضاً محقق قضائي وأمين للسر. وأحكام هذه المحاكم غير قابلة للاستئناف في القضايا التي تحول اليها من محاكم الصلح وكذلك في الدعاوى المدنية التي لاتزيد على (٥٠٠) قرش، وفي الدعاوى الخاصة بالأملاك غير المنقولة التي لايزيد ماقدره من دخل على (٥٠٠) قرش. وتقوم هذه المحاكم مقام محاكم البداءة التجارية في الأماكن التي لاتوجد فيها مثل تلك المحاكم، وفي هذه الحالة يضاف الى عضويها المذكورين اعلاه واللذين ينتخبان عادة لمدة سنتين ويتسلم كل منها مقابل القيام بمهامه مائتي قرش شهرياً عضو ثالث ينتخبه تجار القضاء ويقوم بمهمته مجاناً.

وتعد محاكم السنجق (اللواء) محاكم استئناف بالنسبة لمحاكم القضاء وهي تنقسم الى أربعة فروع: مدنية وتجارية ومحاكم البوليس الاصلاحية وجنائية، وتعتبر قرارات محاكم السنجق قطعية في الدعاوى المدنية التي تتعدى قيمتها عشرة آلاف قرش، وفي الدعاوى الخاصة



بالاملاك غير المنقولة التي لايزيد ماقدره من دخل على الف قرش. ويتألف الفرع المدني من هذه المحاكم من رئيس هو قاضي المحكمة الشرعية وعضوين منتخبين احدهما مسلم والآخر غير مسلم. اما بالنسبة للفرع التجاري فإن الرئيس يعينه وزير العدل في حين ينتخب العضوان من قبل التجار. اما محاكم البوليس الاصلاحية فإنها تتألف من نفس الهيئة التي يتألف منها الفرع المدني في حين تتألف المحكمة الجنائية في السنجق من الهيئة نفسها مضافاً اليها عضوان منتخبان فضلاً عن المدعي العام ومحقق وأمين للسر.

ويتماثل التنظيم القضائي في مركز الولاية مع نظيره في الوحدات الادارية الاخرى باستثناء ان محكمة البوليس الاصلاحية تنفرد في مركز الولاية بأنها تقوم أيضاً بمهمة دائرة اتهام. وتعد محكمة مركز الولاية كمحكمة استئناف لمحاكم السناجق. أما محكمة التمييز فكان مقرها في العاصمة استانبول حيث تردها الى هناك جميع القضايا من محاكم الولايات[١٥٤].

وعلى الرغم من أن الموصل اصبحت ولاية قائمة بذاتها منذ عام ١٨٧٩ فإنها خلت من وجود محكمة استئناف منها حتى عام ١٨٩٩ (١٣١٧ هـ) عندما شكلت محكمة استئناف في الموصل[١٥٥] وهكذا كانت الأحكام التي تصدرها المحاكم في الموصل تستأنف لدى محكمة استئناف بغداد[١٥٦]. بل ان الأخيرة تنظر في القضايا المستأنفة من انحاء العراق المختلفة وكانت تتألف من حكام معينين بإرادة سنية ومن هيئة من الأهالي[١٥٧].

ولعل من المفيد أن نشير الى الأمر الذي اصدرته وزارة الداخلية العثمانية في عام ١٨٩٠ والذي اعفت بموجبه رؤساء المحاكم والمدعون العامون من اداء خدمة الاحتياط (الخدمة الرديفية) طالما كانوا في مناصبهم[١٥٨].

وكانت الدوائر العدلية في ولاية الموصل في عام ١٨٩٢ (١٣١٠ هـ) تتألف مما يلي: -

١- محكمة البداءة: وكانت تنقسم الى دائرتين هما دائرة الحقوق وتتألف من رئيس وعضوين دائميين وعضو ثالث احتياط ودائرة الجزاء وتتألف من رئيس وعضوين دائميين وعضو ثالث احتياط فضلاً عن مدعي عام.
٢- دائرة قلم المحكمة وتتألف من رئيس كتاب (باشكاتب) وعدد من الكتبة.
٣- دائرة التحقيق (استنطاق دائرة سي) وتتألف من اثنين من المحققين.
٤- دائرة الاجراء وتتألف من مأمور اجراء ومأمورين تنفيذيين (اجراء مباشري).
٥- محكمة بداءة- القسم التجاري وتتشكل من رئيس وعضوين من اعضاء محكمة البداءة وأربعة من التجار المنتخبين وكاتب ضبط.
٦- المحكمة الشرعية وتتألف من القاضي رئيساً وعضوية رئيس كتاب المحكمة الشرعية وسبعة كتاب[١٥٩].

وفي الأقضية الملحقة بمركز ولاية الموصل مثل اقضية زاخو وعقرة والعمادية فقد اقتصر الجهاز القضائي فيها على محكمة بداءة تتشكل في العادة من القاضي ومن عضوين ورئيس كتاب ومعاون محقق ومأمورين تنفيذيين (اجراء مباشري) وآخر بعنوان اوطه جي*.

أما في قضاء دهوك فقد كانت محكمة البداءة فيها تتألف من تشكيلات الأقضية السابقة الذكر نفسها باستثناء اضافة معاون مدعي عام وخلوها من وظيفة اوطه جي وفي الوقت الذي اوردت فيه سالنامة الموصل لعام ١٣١٠هـ (١٨٩٢-١٨٩٣) معلومات حول مختلف الدوائر في قضائي سنجار وزيبار لكنها لم تورد اية معلومات عن الدوائر العدلية فيها[١٦٠].

وحافظت الدوائر العدلية في الموصل في عام ١٨٩٤ (١٣١٢هـ) على نفس تشكيلاتها السابقة



باستثناء بعض التغييرات البسيطة إذا اصبحت المحكمة الشرعية تضم موظفاً بعنوان مدير اموال الايتام واخر بعنوان محضر باشي (وهو المسؤول عن تبليغ اوامر المحكمة واحضار ذوي العلاقة اليها) كما الغيت محكمة التجارة [١٦١] ، وانيطت اعمالها بمحكمة الحقوق البدائية. [١٦٢]

واصدرت وزارة العدلية في عام ١٨٩٨ (١٣١٧ هـ) تعميماً دعت فيه الى تأسيس محاكم جزاء في كل الألوية والأقضية التي تؤسس حديثاً. [١٦٣]

وفي بداية القرن الحالي استحدثت لجان ومحاكم جديدة في الموصل وغدت الدوائر العدلية فيها تتألف كما هو الحال في عام ١٩٠٧ (١٣٢٥ هـ) مما يلي:

١- المحكمة الشرعية: وتتألف من القاضي (نائب الشرع) رئيساً ومن رئيس كتاب وستة كتاب ومدير اموال الايتام ومحضر باشي.

٢- لجنة العدلية (أنجمن عدلية) وتتشكل من مفتش للعدلية رئيساً وعضوية رئيس محكمة الاستئناف الحقوقية، ورئيس الاستئناف الجزائية، ومدعي عام الاستئناف ورئيس محكمة الحقوق البدائية ورئيس محكمة الجزاء البدائية ومعاون المدعي العام للبداء، ورئيس كتاب للاستئناف. [١٦٤]

وكانت هذه اللجنة تعقد جلسة واحدة في كل اسبوع للتداول في بعض الامور مثل تعيين الكتبة الذين تحتاج اليهم المحاكم. وتنظر ايضاً في قضايا نقل وعزل الموظفين، كما كانت تقدم مقترحات حول احتياجات ولاية الموصل لفتح محاكم جديدة فيها الى وزارة العدلية. [١٦٥]

٣- محكمة الاستئناف الحقوقية: وتتألف من رئيس واربعة اعضاء.

٤- محكمة الاستئناف الجزائية: وتتشكل من رئيس واربعة اعضاء.

٥- محكمة الحقوق البدائية: وتتألف من رئيس وعضوين دائميين وعضو ثالث احتياط.

٦- محكمة الجزاء البدائية: وتتألف من رئيس وعضوين دائميين وعضو ثالث احتياط.

٧- دائرة مدعي عام الاستئناف: وتضم مدعياً عاماً وكاتباً واحداً.

٨- دائرة معاونية مدعي عام البداءة: وتتألف من معاون مدعي عام وكاتب واحد.

٩- دائرة قلم الاستئناف: وتتشكل من رئيس كتاب واربعة كتبة ضبط وعضو احتياط واحد.

١٠- دائرة قلم البداءة: وتتألف من رئيس كتاب وثلاثة من كتاب الضبط.

١١- دائرة التحقيق: وتضم محقق اول ومحقق ثان.

١٢- دائرة الاجراء: وتقتصر على مأمور اجراء واحد [١٦٦].

وكانت احكام محاكم البداءة في مدينة الموصل وفي الالوية والأقضية التابعة لولاية الموصل تستأنف لدى محكمة استئناف الموصل. اما القضايا الجنائية فكانت تحسم من قبل محكمة الاستئناف الجزائية باعتبارها محكمة جنايات، وتميز احكامها لدى محكمة التميز العليا في استانبول [١٦٧].

واولت السلطات العثمانية قدراً آخر من الاهتمام باصلاح المحاكم والقضاء عقب اعادة اعلان الدستور في عام ١٩٠٨. وكان في مقدمة تلك الاصلاحات اصدار قانون انتخاب وتعيين الحكام الذي استبدلت بموجبه طريقة انتخاب اعضاء المحاكم بطريقة التعيين. واشترط القانون على من يرغب التعيين في السلك القضائي ان يكون حاصلاً على شهادة كلية الحقوق وان يمتاز بالكفاءة وحسن السيرة. واستغني عن خدمات الموظفين القدماء واحل محلهم عناصر مثقفة كما خُصصت رواتب مجزية لرؤساء المحاكم واعضائها. [١٦٨]

وتجدر الاشارة في هذا الصدد الى أن تأسيس

مدرسة للحقوق في مدينة بغداد كان في الأول من ايلول سنة ١٩٠٨ (١٦٩)

اما عن تأثيرات تلك الاصلاحات على الأجهزة القضائية في الموصل فقد تمثلت في كثير من المظاهر كان من بينها تعيين اشخاص ممن عرفوا بكفاءتهم ونزاهتهم على رأس المحاكم كما هو الحال مثلاً بالنسبة لرئيس محكمة استئناف الموصل فائق بك الذي حظي بتقدير كبير من لدن اهالي الموصل. كذلك كان من مظاهر تلك الاصلاحات ان اصبح تعيين اعضاء المحاكم المدنية على اختلاف درجاتها مقصوراً على اولئك الذين يحملون شهادة كلية الحقوق وممن مارسوا مهنة القضاء والمحاماة فترة طويلة من الزمن. (١٧٠)

واجريت تغييرات طفيفة على ملاك المحاكم في الموصل في عام ١٩١٢م (١٣٣٠هـ) شملت دمج محكمتي الاستئناف الجزائية، والاستئناف الحقوقية في محكمة واحدة باسم محكمة الاستئناف التي غدت تتألف من رئيس واربعة اعضاء دائميين وعضوين احتياط ورئيس كتاب وسبعة كتاب. وأبقي على لجنة العدلية الا ان رئاستها انيطت برئيس محكمة الاستئناف وقلص عدد اعضائها بحيث اصبحت تتشكل من رئيس محكمة الحقوق البدائية ورئيس محكمة الجزاء البدائية ومدعي عام المركز ومدعي عام الاستئناف ورئيس كتاب للاستئناف. كذلك دمجت دائرة مدعي عام الاستئناف مع دائرة معاونية مدعي عام البداءة في دائرة واحدة باسم دائرة مدعي عام المركز والتي اصبحت تتألف من مدعي عام المركز وكاتب واحد (١٧١).

اما في الاقضية التابعة لمركز ولاية الموصل فقد اتسع ملاك المحاكم فيها في عام ١٩١٢ واصبح يضم كما هو الحال في اقضية عقرة ودهوك والعمادية وزاخو محكمتين الاولى وهي المحكمة الشرعية وتضم في العادة القاضي ورئيس كتاب وكاتبين، اما الثانية فهي محكمة البداءة وتتألف عادة من رئيس وهو رئيس المحكمة الشرعية نفسه، ورئيس كتاب ومن كاتب اوكاتبين علاوة على محقق في بعض الاحيان او معاون محقق في احيان اخرى. كما استحدثت محكمة جديدة في قضاء سنجار وهي المحكمة الشرعية وكانت تتشكل من قاضٍ وكاتب واحد. (١٧٢)

وفي ١١ نيسان ١٩١٢ اصدر البرلمان العثماني قانون الدعاوى الصلحية تسهيلاً لحسم القضايا الحقوقية البدائية البسيطة، وعلى اثر هذا تأسست محكمة صلح في الموصل وكانت تتألف من حاكم واحد يطلق عليه اسم (رئيس محكمة الصلح) واستمرت هذه المحكمة حتى الاحتلال البريطاني للموصل في ١٠ تشرين الثاني عام ١٩١٨ (١٧٣).

وقد يكون من المفيد ان نشير الى ان الممثلين العرب الذين عقدوا مؤتمراً في باريس بين ١٨-٢٣ حزيران ١٩١٣ والذي اتفقوا فيه على مطالبة الحكومة العثمانية باجراء سلسلة من الاصلاحات في الاقطار العربية، كانوا قد طالبوا بان تتولى السلطات المحلية في الولايات العربية تعيين كل الموظفين في هذه الولايات، باستثناء الحكام والموظفين العدليين والذين كانوا يعينون من قبل العاصمة وبارادة سنية (١٧٤).

وبرغم كل تلك القوانين والتعليمات وبرغم وجود عدد من رؤساء المحاكم الذين حظوا بتقدير كبير من لدن اهالي الموصل، فان ذلك لم يمنع من وجود بعض المساوئ في الجهاز القضائي في الموصل. منها اساءة بعض منتسبي الجهاز القضائي استخدام سلطاتهم، واستعمال اللغة التركية في المحاكم بدلاً من اللغة العربية، وعدم دفع مرتبات القضاة بانتظام. (١٧٥)

الهوامش :

(١) كان المذهب الحنفي مذهباً رسمياً للدولة العثمانية.

(٢) علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨-١٧٥٠م دراسة في احواله السياسية، ط ١، (الموصل:



١٩٨٤)، ص٢٦.

(٣) Wayne S. Vucinich, The Ottoman Empire Its Record and Legacy, (Princeton:1965),p.38.

(٤) H.A.R. Gibb and Harold Bowen, Islamic Society and the West, Vol.one, Part II,(London:1965),p.123.

(٥) المولوية: وهي مشتقة من كلمة ملا العربية وقد اطلقها العثمانيون على بعض الدرجات القضائية العالية والتي يلقب قضاتها بـ (ملا) او(منلا) ويدخل في عدادها قضاة الايالات (الولايات) وقضاة السناجق ويتقاضون أُجوراً يومية مقطوعة مقدارها (٥٠٠) اقجة. انظر خليل علي مراد، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٦٣٨-١٧٥٠، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بغداد: ١٩٧٥) ص٢١٦ هامش ٣. وتجدر الاشارة الى ان الاقجة هي عملة فضية استمر تداولها حتى النصف الأول من القرن السابع عشر وكانت تزن في البداية ربع مثقال ثم اخذ وزنها يتناقص تدريجياً بحيث اصبحت في القرن السابع عشر لاتزيد عن ١/٤ أو ١/٥ وزنها الأصلي. المصدر نفسه ص ص٤٣٨، ٤٣٩.

(٦) مراد، المصدر السابق، ص٢٣٢. ومراحل الخارج والداخل هي مراحل دراسية يمر بها الشخص الذي يطمح في الحصول على منصب قضائي او ممارسة التدريس في مدارس العاصمة العثمانية استانبول. ومنذ عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) انتظمت تلك المراحل بصورة نهائية واصبح عددها (١٢) مرحلة وكانت كالآتي ١- ابتدا خارج ٢- حركة خارج ٣- ابتدا داخل، ٤- حركة داخل... (١٢) دار الحديث انظر:

Gibb & Bowen, Op. cit., Vol,one Part II, p. 146 and note in the same page.

(٧) كان قاضي عسكر الأناضول مسؤولاً عن المناطق الآسيوية اضافة الى مصر انظر:

Vucinich, Op.cit., p.38. Gibb & Bowen, Op. cit. Vol.one, partII,p.122.

(٨) مراد، المصدر السابق، ص٢٢٣.

(٩) المصدر نفسه، ص٢٢٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص٢٢٤.

(١١) المصدر والصفحة نفسها.

(١٢) المصدر نفسه، ص ص٢٢٣-٢٢٤.

(١٣) عبدالكريم محمود غرايبة، مقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠-١٩١٨، ج١، (دمشق: ١٩٦٠)، ص٨٤.

(١٤) ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني (دمشق: ١٩٧٣)، ص١٢٧.

(١٥) مراد، المصدر السابق، ص ص٢٣٤-٢٣٥.

(١٦) غرايبة، المصدر السابق، ص٨٠.

(١٧) يوسف عزالدين، داؤد باشا ونهاية المماليك في العراق، ط٢، (بغداد: ١٩٧٦)، ص٢٠.

(١٨) الصفصافي احمد المرسي، «الدولة العثمانية والولايات العربية»، مجلة الادارة، (الرياض) العدد ٤، السنة الثامنة، ١٩٨٣، ص٧٠.

(١٩) عماد عبدالسلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني في فترة الحكم المحلي ١٧٢٦-١٨٣٤، (النجف الأشرف: ١٩٧٥)، ص٢٥٥. وتجدر الاشارة الى ماذكره مصدر من ان قاضي الموصل الذي اشترك في وفد المفاوضات مع نادرشاه عقب فشله في احتلال الموصل في عام ١٧٤٣ كان من بلاد الروم. انظر ياسين بن خيرالله الخطيب العمري، منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوه جي، (الموصل: ١٩٥٥)، ص١٨٢.

(٢٠) رؤوف، المصدر السابق، ص٢٥٦.

(٢١) احمد محمد المختار، تاريخ علماء الموصل، ج١، ط٢، (الموصل: ١٩٨٤) ص٦٨، ج٢، ص٥٦.

(٢٢) ياسين بن خيرالله العمري، زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية، تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف، (النجف الأشرف: ١٩٧٤)، ص١٦؛ ياسين بن خيرالله العمري الخطيب الموصلي، غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، (بغداد: ١٩٦٨)، ص٣٤٠.

(٢٣) سعيد الديوه جي، مدارس الموصل في العهد العثماني، القسم الثاني، مجلة سومر، المجلد ١٩، ١٩٦٣، ص ٦١.

(٢٤) محمد امين بن خيرالله الخطيب العمري، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، ج ١ تحقيق سعيد الديوه جي، (الموصل: ١٩٦٧)، ص ٢٢٤.

(٢٥) ياسين بن خير الله الموصلي، المصدر السابق، ص ١٣.

(٢٦) سعيد الديوه جي، «مدارس الموصل في العهد العثماني» مجلة سومر مجلد ١٨، (١٩٦٢)، ص ٩٤.

(٢٧) أحمد الصوفي، تاريخ محاكم الموصل، (الموصل: ١٩٤٩)، ص٥.

(٢٨) Gibb & Bowen, Op.cit. Vol. one, Part II,p.132.

(٢٩) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية (٣) الاتراك العثمانيون وحضارتهم، نقله الى العربية نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، ط١، (بيروت: ١٩٤٩)، ص١٠١.

(٣٠) Gibb & Bowen, Op.cit, Vol.one, Part II,p.125.

(٣١) عبدالودود يوسف، «سجلات المحاكم الشرعية كمصدر أساسي لتأريخ العرب في العصر العثماني» المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١٩، ١٩٧٢، ص٣٣٤.

(٣٢) رؤوف، المصدر السابق، ص٢٥٥.

(٣٣) غرايبة، المصدر السابق، ص٨٢.

(٣٤) الصوفي، المصدر السابق، ص٥.

(٣٥) رؤوف، المصدر السابق، ص٢٥٩.

(٣٦) هاملتون جب وهارولد بدون، المجتمع الاسلامي والغرب، ج٢، ترجمة احمد عبدالرحيم مصطفى، (مصر: ١٩٧١)، ص٧.

(٣٧) غرايبة، المصدر السابق، ص٨١.

(٣٨) يوسف، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(٣٩) Gibb & Bowen, Op.cit, Vol.one, Part II,p. 125.



(٤٠) الصوفي ، المصدر السابق ، ص ٥ .
(٤١) مراد ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .
(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٥ .
(٤٣) التيمارات : نوع من أنواع الاقطاعات وتتراوح ايراداته بين (٢٠٠٠) الى (١٩,٩٩٩) اقجة .
(٤٤) مراد ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .
(٤٥) احمد عبدالرحيم مصطفى ، في اصول التاريخ العثماني ، ط ١ ، (بيروت : ١٩٨٢) ص ١٩١ .
(٤٦) الصباغ ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ .
(٤٧) Vucinich, Op.cit., p.39.
(٤٨) مراد ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .
(٤٩) سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، ج ١ ، (بيروت : ١٩٢٨) ، ص ٢٧٧ .
(٥٠) ياسين بن خيرالله الخطيب العمري ، منية الادباء ، ص ١٨٢ .
(٥١) دومينيكو لانزا ، الموصل في الجيل الثامن عشر حسب مذكرات دومينيكو لانزا ، عربها عن النص الايطالي القس روفائيل بيداويد ، (الموصل : ١٩٥١) ، ص ٤٦ .
(٥٢) رؤوف ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .
(٥٣) مراد ، المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .
(٥٤) Gibb & Bowen, Op.cit., Vol.one, Part II, 124.
(٥٥) غرايبة ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .
(٥٦) الصوفي ، المصدر السابق ، ص ٥ .
(٥٧) غرايبة ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .
(٥٨) مراد ، المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .
(٥٩) الكسندر اداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة د. هاشم صالح التكريتي ، ج ١ ، ط ١ ، (البصرة : ١٩٨٢) ، ص ٨٤ .
(٦٠) الصوفي ، المصدر السابق ، ص ٥ .
(٦١) Gibb & Bowen, Op.cit., Vol.one, Part II,p:p.131 – 132.
(٦٢) غرايبة ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .
(٦٣) جب وبوون ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦ .
(٦٤) مراد ، المصدر السابق ، ص ٢٥٢ ، هامش ١ .
(٦٥) جب وبوون ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ص ٣٦ – ٣٧ .
(٦٦) مراد ، المصدر السابق ، ص ص ٢٥٤–٢٥٩ .
(٦٧) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .
(٦٨) المصدر نفسه ، ص ٢٦٧ .
(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٢٦٨ .
(٧٠) الصوباشي رئيس للشرطة في وقت السلم وقائد وحدة عسكرية وقت الحرب .
(٧١) جب وبوون ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٩ . علي ، المصدر السابق ، ص ص ٢٧–٢٨ .
(٧٢) كانت الحكومة العثمانية قد بعثت على سبيل المثال بفرمان الى بغداد في عام ١٦٨٣ حددت بموجبه رسوم الاحتساب على كل المواد والسلع للتفاصيل انظر : يعقوب سركيس ، مباحث عراقية ، ق ٢ (بغداد ١٩٥٥) ص ص ٢٤٥–٢٥١ .
(٧٣) جب وبوون ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ .
(٧٤) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ص ١٥ -١٦ .
(٧٥) پيبردي موصيل ، الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤–١٩١٤ ترجمة اكرم فاضل ، (بغداد : ١٩٦٨) ، ص ص ٨٧–٨٨ .
(٧٦) علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، جـ ٣ (بغداد : ١٩٧٢) ص ٥٠ .
(٧٧) الصوفي ، المصدر السابق ، ص ٦ .
(٧٨) احمد الصوفي ، خطط الموصل ، ج ٢ ، (الموصل : ١٩٥٣) ، ص ٣١ .
(٧٩) الديوه جي ، المصدر السابق ، مجلد ١٨ ، ص ص ٨٣ ، ٩٤ .
(٨٠) مراد ، المصدر السابق ، ص ص ٢٢١ ، ٢٢٣ .
(٨١) محمد أمين العمري ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٣ .
(٨٢) مراد ، المصدر السابق ، ص ص ٢٤٠ – ٢٤١ .
(٨٣) محمد أمين العمري ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٣ .
(٨٤) مراد ، المصدر السابق ، ص ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .
(٨٥) المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .
(٨٦) المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .
(٨٧) المصدر والصفحة نفسها .
(٨٨) احمد جودت باشا ، تاريخ جودت باشا ، ترجمة عبدالقادر الدنا ، (بيروت : ١٣٠٨ هـ) ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
(٨٩) مراد ، المصدر السابق ، ص ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .
(٩٠) المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .
(٩١) مراد ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .
(٩٢) اداموف ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٤ .
(٩٣) جب وبوون ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ص ١٣٠ – ١٣١ .
(٩٤) Gibb & Bowen, Op.cit., Vol.one, Part II,p.93.
(٩٥) مراد ، المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .
(٩٦) جب وبوون ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧ .
(٩٧) مراد ، المصدر السابق ، ص ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .
(٩٨) Gibb & Bowen, Op.cit. Vol. one Part II,p.127.
(٩٩) Gibb & Bowen, Op.cit., Vol. One, Part II,p. 135.
(١٠٠) لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ترجمة عفيفة البستاني ، (موسكو : ١٩٧١) ، ص ٢٤ .
(١٠١) الصوفي ، تاريخ حاكم الموصل ، ص ٥ .
(١٠٢) Gibb & Bowen, Op.cit., Vol.one,Part II,p.136.
(١٠٣) الصباغ ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
(١٠٤) الصفصافي ، المصدر السابق ، ص ٧١ .
(١٠٥) Gibb & Bowen, Op.cit., Vol.one, Part II,p.136.
(١٠٦) نيبور ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة محمود حسين الأمين ، (بغداد : ١٩٦٥) ، ص ١١٢ .
(١٠٧) الصوفي ، تاريخ حاكم الموصل ، ص ص ٥ – ٦ .
(١٠٨) الصباغ ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ .
(١٠٩) الصوفي ، تاريخ حاكم الموصل ، ص ٥ .
(١١٠) مصطفى ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ .
(١١١) موصل ولايتي سالنامه سي ، ١٣١٠ هـ ، ص ١٦٠ .
(١١٢) Gibb & Bowen, Op.cit., Vol.one, Part II,p.135



(١١٣) غرايبة ، المصدر السابق ، ص ٨٦ ؛ الصباغ ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

Vucinich, Op.cit., p.39

(١١٤) Gibb & Bowen, Op.cit. Vol.one, Part II, p.137.

(١١٥) Ibid, p.135.

(١١٦) انظر محمد أمين العمري ، منهل الأولياء ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(١١٧) انظر على سبيل المثال محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ج ٤ ، (القاهرة : ١٣٠١ هـ) ص ٢٣٣ ؛ ياسين الموصلي ، غاية المرام ، ص ٣٤٠ .

(١١٨) رؤوف ، المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

(١١٩) الديوه جي ، المصدر السابق ، مجلد ١٨ ، ص ٧٣ ؛ الصوفي ، تاريخ محاكم الموصل ، ص ٨ .

(١٢٠) الصوفي ، تاريخ محاكم الموصل ، ص ٩ .

(١٢١) محمد أمين العمري ، منهل الأولياء ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(١٢٢) المختار ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(١٢٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨ .

(١٢٤) الديوه جي ، المصدر السابق ، مجلد ١٨ ، ص ص ٧٣ ، ٨٧ .

(١٢٥) للاطلاع على شيء من محتويات تلك الرسالة انظر صائغ ، المصدر السابق ، ج ١، ص ص ٢٨٠ – ٢٨١ .

(١٢٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ص ٢٧٩ – ٢٨١ .

(١٢٧) ياسين بن خيرالله الخطيب العمري ، منية الأدباء ، ص ١٨٢ .

(١٢٨) لانزا ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(١٢٩) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

(١٣٠) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

(١٣١) صائغ ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٢ ؛ المرادي ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣١ .

(١٣٢) Enver Ziya Karal, Osmanli Tarihi, Cilt VII, Ankara 1956, s.164.

(١٣٣) Vucinich, Op.cit., p.40.

(١٣٤) محمد فريدبك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية (بيروت : ١٩٧٧) ص ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .

(١٣٥) Vucinich, Op.cit., p.40.

(١٣٦) عبدالعزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث ، (القاهرة : ١٩٦٨) ص ٤٥ .

(١٣٧) فريدبك ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

(١٣٨) الصوفي ، تاريخ محاكم الموصل ص ٢١

Vucinich, Op. Cit., p. 40

(١٣٩) Karal, Op.cit., s.167.

(١٤٠) Karal, Op.cit., s.166.

(١٤١) جريدة الزوراء ، ع ٢٧١ ، ٤ جمادى الآخرة ١٢٨٩ .

(١٤٢) الزوراء ، ع ٣٤٤ ، ٦ ربيع الأول ١٢٩٠ .

(١٤٣) سليم فارس ، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ، ط ١ ، ج ٥ ، الاستانة (١٢٩٤ هـ) ص ص ٢٦١ – ٢٦٣ .

(١٤٤) انظر الزوراء، ع ٦٠٤ ، ٢٧ محرم ١٢٩٣ .

(١٤٥) الزوراء ، ع ٦٠٢ ، ٢٠ محرم ١٢٩٣ .

(١٤٦) فارس ، المصدر السابق ، ط ١ ، ج ٦ ، (الاستانة : ١٢٩٥) ، ص ص ١٩ – ٢٠ .

(١٤٧) كانت الحكومة العثمانية قد أمرت منذ عام ١٨٧٠ بتشكيل لجنة لاعداد مسودة مجلة الأحكام العدلية تتألف من خيرة المشرعين في الدولة العثمانية انظر الصوفي ، تاريخ محاكم الموصل ، ص ٢٤ . وتوزعت المجلة بعد انتهاء العمل فيها على (١٦) مجلداً اكمل (١٥) منها في عام ١٨٧٤ في حين تأخر انجاز الجزء السادس عشر حتى عام ١٨٧٨ انظر:

Karal, Op.cit., s.173.

(١٤٨) Vucinich, p.40.

(١٤٩) ستيفن همسلي لونكريك ، العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ ، ج ١ ، ترجمة سليم طه التكريتي ، ط ١ ، (بغداد : ١٩٨٨) ، ص ٦٩ هامش ١ .

(١٥٠) الصوفي ، تاريخ محاكم الموصل ، ص ٢٥ .

(١٥١) الزوراء ، ع ٨٥٣ ، ١ رمضان ١٢٩٦ وتجدر الاشارة الى التغيير الذي حدث في الموصل في عام ١٨٧٩ حينما إصبحت مركزاً لولاية قائمة بذاتها انظر البرت م . منتشاشفيلي ، العراق في سنوات الانتداب البريطاني ، ترجمة هاشم صالح التكريتي ، (بغداد : ١٩٧٨) ، ص ٨٧ وينبغي التنويه ايضاً بأن منصب المفتش العدلي لم يستمر طويلاً اذ مالبث السلطات العثمانية ان الغته في عام ١٨٨٦ (شعبان ١٣٠٣ هـ) انظر الزوراء ، ع ١٢٦٧ ، ٢٣ شعبان ١٣٠٣ وأعيد المنصب مرة اخرى في عام ١٩٠٧ انظر موصل ولايتي سالنامه سي ١٣٢٥ هـ ، ص ١٥٤ .

(١٥٢) الزوراء ، ع ٨١٩ ، ٣ ربيع الآخر ١٢٩٦ .

(١٥٣) عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٨ (بغداد : ١٩٥٦) ص ٤٦ .

(١٥٤) اداموف ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ص ٨٢ – ٨٣ .

(١٥٥) الصوفي ، تاريخ محاكم الموصل ، ص ٣٣ ذكر مصدر بأن تأسيس محكمة الاستئناف في الموصل تم عقب الانقلاب الدستوري الذي قام به الاتحاديون ضد السلطان عبدالحميد الثاني في عام ١٩٠٨ انظر منتشاشفيلي ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(١٥٦) الصوفي ، تاريخ محاكم الموصل ، ص ٢٥ .

(١٥٧) سليمان فيضي ، في غمرة النضال ، (بغداد : ١٩٥٢) ، ص ٥٤ .

(١٥٨) الزوراء ، ع ١٤٢١ ، ٧ رجب ١٣٠٧ .

(١٥٩) موصل ولايتي سالنامه سي ١٣١٠ هـ ، ص ص ٨٤ – ٨٦ .

(٠) والاوطه جي تعني الحاجب او البواب .

(١٦٠) موصل ولايتي سالنامه سي ١٣١٠ هـ ، ص ص ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٤ .

(١٦١) انظر: موصل ولايتي سالنامه سي ١٣١٢ هـ ، ص ص ١٢٨ – ١٢٩

(١٦٢) الصوفي ، تاريخ محاكم الموصل ، ص ٣٢ .

(١٦٣) الزوراء ، ع ١٨٣٨ ، ٢٧ جمادى الآخرة ١٣١٧ .

(١٦٤) موصل ولايتي سالنامه سي ١٣٢٥ هـ ، ص ١٥٤



(١٦٥) الصوفي ، تاريخ حكام الموصل ، ص ٣٤ .

(١٦٦) موصل ولايتي سالنامه سي ، ١٣٢٥ هـ ، ص ص ١٥٥ - ١٥٦

(١٦٧) الصوفي ، تاريخ حكام الموصل ، ص٦

(١٦٨) المصدر نفسه ، ص ٣٧

(١٦٩) أنظر: ابراهيم خليل احمد ، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩ - ١٩٣٢ ، مطبعة جامعة البصرة ، (البصرة ، ١٩٨٢) ، ص٤٦.

(١٧٠) الصوفي ، تاريخ حكام الموصل ، ص ٣٧ .

(١٧١) موصل ولايتي سالنامه رسميسدر ١٣٣٠هـ ، ص ص ١١٣ ، ١١٤ .

(١٧٢) المصدر نفسه ، ص ص ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ .

(١٧٣) انظر:ابراهيم خليل احمد وجعفر عباس حميدي ، تاريخ العراق المعاصر (الموصل : ١٩٨٩) ، ص ١٥ .

(١٧٤) عبدالعزيز محمد عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤ - ١٩١٤ ، مصر: ١٩٦٩ ، ص ٥٣ .

(١٧٥) لمزيد من التفاصيل انظر: لونكريك ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٧٠ . دبليو. اي. ويكرام ، ادكار. تي. اي. ويكرام ، مهد البشرية الحياة في شرق كوردستان ، ترجمة جرجيس فتح الله ، (بغداد : ١٩٧١) ، ص ٧٥ .

التشكيلات العسكرية في الموصل

د. شكري محمود نديم

مقدمة :

حين ظهرت الموصل سنة ١٨٧٩ ، ولاية قائمة بذاتها ، ونظمت بشكل ثلاثة الوية (سناجق) وهي ؛ الموصل وكركوك والسليمانية ، وضعت القيادة العامة العثمانية خطة التوزيع السلمي (الاعتيادي) للجيش العثماني ، وبموجب اعادة التنظيم هذه ، تقرر تشكيل المفتشية الرابعة ، وهي بمثابة (قيادة جيش) . وكان مقرها في بغداد ، وتشمل صلاحياتها ولايات العراق الثلاث : بغداد والموصل والبصرة . والحقت بقيادة المفتشية الرابعة قيادات فيالق تم توزيعها . وفيما يتعلق بالبحث كانت قيادة الفيلق (١٢) في الموصل وتتبعها فرقتان وهما الفرقة (٣٥) في الموصل والفرقة (٣٦) في كركوك .

الوحدات العسكرية في الموصل خلال العهد العثماني :

شهد عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩)، تقارباً عثمانياً المانياً في مجالات متعددة ، وكان ابرزها الجانب العسكري . حيث استقدمت الدولة العثمانية هيئة عسكرية المانية لدراسة وضع القوات المسلحة العثمانية ، وتقديم المقترحات حول رفع كفاءتها القتالية . ويبدو أثر هذه الهيئة واضحاً عند دراسة توزيع القوات العثمانية في منطقة الموصل . ويتبين من سالنامه الموصل (١٣٢٥هـ-١٩٠٧) أنه لم يكن في الموصل قطعات نظامية (وهو امر غريب) حيث كان فيها وحدات من الرديف وهي وحدات هيكلية [١] تضم العناصر الاساسية من الضباط والمراتب وجلهم من الاحتياط المسرح من الخدمة بعد اكمال الخدمة الالزامية . وتظهر السالنامه المذكورة ان القوات المرابطة في الموصل كانت كما يلي : [٢]

الفرقة ٢٤ رديف :

ومقرها ومركز قيادتها في مدينة الموصل وهي مؤلفة من :

اللواء ٤٧ رديفاً
اللواء ٤٨ رديفاً } مقرات هيكلية فقط

اللواء ٩٣ رديف : ويضم هذا اللواء عدداً من المراتب بملاك ناقص على ان يسد عند الطوارىء وفي حالة



اعلان النفير العام (التعبئة العامة) ويتألف من :

الفوج الاول من اللواء ٩٣ في الموصل
الفوج الثاني من اللواء ٩٣ في الموصل
الفوج الثالث من اللواء ٩٣ في الموصل
الفوج الرابع من اللواء ٩٣ في سنجار

اللواء ٩٤ رديف : ولايختلف موقف هذا اللواء عن اللواء ٩٣ ويتألف من :

الفوج الاول من اللواء ٩٤ في بعشيقة
الفوج الثاني من اللواء ٩٤ في الرشيدية
الفوج الثالث من اللواء ٩٤ في النافكر
الفوج الرابع من اللواء ٩٤ في عقرة

اللواء ٩٥ رديف : ولايختلف هذا اللواء عن اللواءين ٩٣ و٩٤ ويتألف من :

الفوج الاول من اللواء ٩٥ في راوندوز
الفوج الثاني من اللواء ٩٥ في برادوست
الفوج الثالث من اللواء ٩٥ في الزيبار
الفوج الرابع من اللواء ٩٥ في حرير

اللواء ٩٦ رديف : ولايختلف هذا اللواء عن الالوية الثلاثة السابقة ويتألف من

الفوج الاول من اللواء ٩٦ في دهوك
الفوج الثاني من اللواء ٩٦ في الداؤودية
الفوج الثالث من اللواء ٩٦ في العمادية
الفوج الرابع من اللواء ٩٦ في زاخو

ومما يلحظ ان الوحدات العسكرية الموجودة في هذه المناطق كانت من المشاة فقط ، ولم يرد اي ذكر للخيالة او المدفعية وهي الصنوف الموجودة في تلك الفترة.

وفي السالنامه التي تلي سالنامه (١٣٢٥هـ-١٩٠٧) وهي السالنامه الخامسة الصادرة في ولاية الموصل (١٣٣٠هـ-١٩١٢) نلحظ تغييراً كبيراً في توزيع القوات في منطقة الموصل ، حيث حلت القوات النظامية محل قوات الرديف[٣] وبهذا يكون التوزيع كما يأتي : [٤]

في مدينة الموصل : القوات النظامية- المشاة

الفيلق (١٢) : مقر قيادة الفيلق مع كامل هيئات الاركان والدوائر والشعب الملحقة.

وكان الفيلق (١٢) مؤلفاً من الفرقتين (٣٥) و (٣٦).

أما القطعات المرتبطة بقيادة الفيلق بصورة مباشرة فكانت على الوجه الآتي :

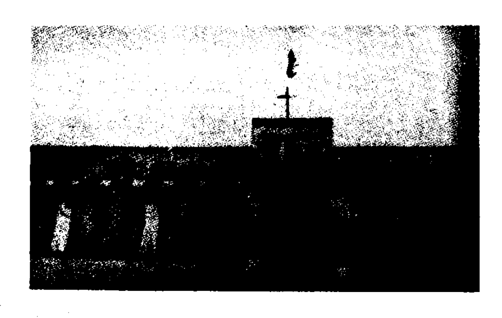
لواء القناصة (نيشانجي) ١٢- في مدينة الموصل
فوج هندسة الفيلق ١٢ - في مدينة الموصل
فوج نقلية الفيلق ١٢ - في مدينة الموصل
سرية المخابرة والبرق للفيلق ١٢-في مدينة الموصل

أما الفرقتان فقد كانت الفرقة (٣٦) ومقر قيادتها في كركوك والفرقة (٣٥) ومقر قيادتها في مدينة الموصل وموزعة كما يأتي :

في مدينة الموصل : مقر قيادة الفرقة مع كامل هيئات الاركان والدوائر والشعب الملحقة.

القطعات المرتبطة مباشرة بقيادة الفرقة وكانت جميعها في مدينة الموصل وتتألف من :

فوج القناصة (٣٥)
هندسة الفرقة (٣٥)
مخابرة الفرقة (٣٥)
نقلية الفرقة (٣٥)



• القشلة العسكرية (الثكنة العسكرية).

وكانت الفرقة مؤلفة من ثلاثة ألوية مشاة وهي :
اللواء (١٠٣) واللواء (١٠٤) واللواء (١٠٥) وكان كل من هذه الالوية مؤلفاً من ثلاثة افواج . وقد نظم الفوجان الاول والثاني منها بشكل وحدات كاملة مقاتلة ، اما الفوج الثالث(من كل لواء) فقد كان بمثابة مركز تدريب وبملاك هيكلي .

الخيالة :

كانت مدينة الموصل مقراً للواء الخيالة (١٣) المؤلف من (٣) كتائب وهي الكتائب (٣٣) و(٣٤) و (٣٥) وكان اللواء بكامله في مدينة الموصل .

المدفعية :

كانت مدفعية الفرقة (٣٥) بكاملها في مدينة الموصل وهي مؤلفة من ٣ كتائب والكتيبة مؤلفة من ٣ بطريات (البطرية ٤-٦ مدافع) مابين مدافع ميدان (صحراء) او جبلية .

قوات الرديف :

وفضلاً عن القوات النظامية المبينة آنفاً كانت الموصل مقراً لفرقة من الرديف مؤلفة من ثلاثة ألوية منظمة بثلاثة افواج لكل منها ، وكان اللواء الاول منها يرابط في مدينة الموصل . اما اللواء الثاني فكانت افواجه موزعة في بعشيقة وعقرة ودهوك ، واللواء الثالث كان موزعاً بين اربيل وراوندوز.

نظرة عامة :

تطرقنا فيما سبق الى بحث القوات العسكرية الموجودة في مدينة الموصل ، وكان الهدف من ذلك بيان اهمية الموصل بالنسبة للدولة العثمانية ، فقد كانت مقراً لقيادة فيلق وفرقة من القوات النظامية بصنوفها المختلفة ، ولمقرات عدد لايستهان به من الالوية والكتائب والافواج . وكان معظم الضباط والمراتب والجنود من العراقيين ومن الموصليين خاصة . ويمكن القول إن القوات الموجودة في الموصل في العهد العثماني الاخير اي قبيل الحرب العالمية الاولى ، كانت من الناحية العددية لاتقل عن اقصى عدد بلغته في عهد الحكم الوطني العراقي في الاحوال الاعتيادية . وتبرز اهمية هذه المقارنة في ضوء الموقع العسكري للموصل حيث كانت في العهد العثماني بعيدة عن الحدود ، وكل ما يحيط بها شمالاً وجنوباً وغرباً وشرقاً بلاد عثمانية بخلاف ما اصبحت عليه بعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة .

الحرب العالمية الاولى وجلاء العثمانيين :

لم تكن الموصل كما هو معلوم قريبة الى جبهات القتال في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) ، وحيث كان القتال منذ نشوب الحرب في ٦ تشرين الثاني ١٩١٤ يدور بين البريطانيين والعثمانيين في جنوبي العراق ، وقد مضى ٣ سنوات منها جنوب بغداد التي دخلها البريطانيون في ١١ آذار ١٩١٧ ، وتوقف الزحف البريطاني شمالاً في مدينة سامراء الى اواخر سنة ١٩١٧ . فالبريطانيون بالرغم من تفوقهم الساحق وعلمهم بضعف القوات العثمانية ، وعدم قدرتها على الصمود أمامهم فأنهن لم يزحفوا نحو الموصل التي كان بوسعهم دخولها خلال سنة ١٩١٧ . ولعل لذلك علاقة بمعاهدة سايكس- بيكو(١٦ مايس ١٩١٦) التي أعطت جزءاً من ولاية الموصل للفرنسيين وأخيراً شرع البريطانيون بالزحف شمالاً عندما أصبحت الحرب وشيكة الانتهاء ، وفي هذه الفترة كانت مدينة الموصل قاعدة إدارية للقوات العثمانية . وموقعاً لاعادة تنظيم هذه القوات المنهكة والمضعضعة التي كانت تعاني الجوع والنقص في العدد والعُدد . وقد أصدرت القيادة البريطانية أوامرها الى قواتها في العراق يوم ٢ تشرين الاول ١٩١٨ بالتقدم شمالاً نحو الموصل .



اعادت القيادة العثمانية تنظيم قواتها وعينت خليل باشا قائد الجيش السادس قائداً للقوات العثمانية في قفقاسيا التي دخلتها بعد اعلان الثورة البلشفية في روسية (تشرين الاول ١٩١٧). وتسلم القيادة في العراق بدلاً منه علي احسان باشا.[٥] وفتح مقره في الموصل في ١ أيلول ١٩١٨ وقد حشد كل القوة المتيسرة لديه وهي حوالي (٤٠٠٠) مقاتل و(٥٠) مدفعاً في موضع الفتحة.

دارت المعارك الاخيرة في الحرب والمعروفة في التاريخ العسكري باسم معارك (الفتحة والجرناف) في الفترة (١٨–٣٠ تشرين الاول) وانتهت بالقضاء على القوات العثمانية التي كانت تجابه قوات تتفوق عليها بثلاثة اضعاف في العدة والعدد وتدعمها الطائرات والدروع وفي خلال فترة القتال هذه بدأت مفاوضات الهدنة بين بريطانيا والدولة العثمانية في ٢٠ تشرين الاول ١٩١٨ وقد كانت اوامر علي احسان الى قائد الجبهة صريحة بمحاولة تأخير زحف البريطانيين الى اطول ما يمكن، بغية منعهم من كسب الاراضي قبل عقد الهدنة. اما البريطانيون فقد وطدوا العزم على الزحف شمالاً بأقصى سرعة ودخول الموصل قبل اعلان الهدنة وعلى الرغم من ان البريطانيين قد نجحوا في القضاء على القوات العثمانية بعد تطويقها وأسرها، فانهم لم ينجحوا في الوصول الى الموصل. ويمكن القول ان علي احسان باشا قد فشل فشلاً عسكرياً كبيراً مقابل نجاحه السياسي الذي لم يتمتع به طويلاً، فقد ضحى بقواته الميدانية في سبيل الاحتفاظ بالموصل والتي لم يتمكن من الاحتفاظ بها كذلك، فقد تلقى يوم ٣١ تشرين الاول ١٩١٨ نبأ عقد الهدنة والامر بايقاف القتال من القيادة العامة التركية. وكانت القوات البريطانية على الخط العام (خانقين– كفري– كركوك– القيارة – عنه). واستمر البريطانيون في زحفهم شمالاً، برغم عقد الهدنة، فوصلت قطعاتهم السيارة المؤلفة من المدرعات والخيالة حمام العليل يوم ١ تشرين الثاني وتوقفت فيها. وامتنع علي احسان عن اخلاء الموصل على الرغم من انهيار الامبراطورية العثمانية، الا ان القائد البريطاني الجنرال مارشال وجه له انذاراً بوجوب اخلاء ولاية الموصل كلها بين ٨ تشرين الثاني و١٥ منه فاضطر علي احسان للرضوخ وفي ١٠ تشرين الثاني ١٩١٨ دخلت القوات البريطانية الموصل دون قتال، كما انسحبت بقايا القطعات العثمانية من ولاية الموصل كلها نحو نصيبين وجزيرة ابن عمر.[٦]

الحكم البريطاني المباشر ١٩١٨–١٩٢١

كانت الاراضي العراقية التي دخلتها قوات الغزو الاستعمارية البريطانية تخضع لحكم عسكري مباشر واستمر هذا الحكم منذ الانزال البريطاني **في الفاو في ٦ تشرين الثاني ١٩١٤**. واستقر بمقياس واسع بعد احتلال البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ ومن ثم بغداد في ١١ آذار ١٩١٧. وكان الحكم يمارس في انحاء العراق المختلفة عن طريق الحكام السياسيين وهم ضباط من الجيش البريطاني يديرون شؤون الاقضية والنواحي المهمة وكان على رأسهم ضابط سياسي بريطاني هو السير برسي كوكس الذي رافق القوات البريطانية منذ شروعها في الحركات العسكرية. وباستمرار الحرب قامت القيادة البريطانية بتشكيل قوة من المجندين المحليين الذين عرفوا بأسم (الشبانة)، ومن ثم اطلق عليهم تسمية (الليفي LEVIES) كانت تقوم بواجب القوة الاجرائية التنفيذية لجهاز الحكم الذي كان يدير الشؤون المدنية وذلك لتتفرغ القوات المسلحة البريطانية لواجباتها الاصلية.

وبعد انسحاب العثمانيين من العراق واخلائهم لولاية الموصل، واعلان الهدنة مع الدولة العثمانية، اعادت القوات المسلحة البريطانية تنظيم قواتها وتوزيعها في العراق. وكانت القيادة العامة لها في



بغداد. كما وضعت حامية كبيرة تقدر باكثر من فرقة في مدينة الموصل والمناطق المحيطة بها (الفرقة ١٨ الهندية والقطعات الملحقة بها) وقررت القيادة البريطانية توسيع قوات (الليفي)، وزيادة قوتها العددية وتنظيمها بشكل سرايا من المشاة والخيالة ووحدة مدفعية وخدمات ادارية وبذا تطورت هذه القوة من (٤٠) مقاتلاً سنة ١٩١٥ الى (٦٢٠٠) في سنة ١٩٢٢[٧]، وكان هذا اقصى ما بلغته حيث تلا ذلك تقليصها والغاؤها تدريجياً. ثم تبدل رجال هذه القوة من العرب فقط الى قوة مختلطة من العرب والاكراد والآثوريين والتركمان واليزيديين، الا انها في آخر الامر اقتصرت على الآثوريين. ومنذ اوائل سنة ١٩١٩ كان هناك حشد من قوات الليفي هذه في مدينة الموصل والمناطق المحيطة بها. وتأسست قيادة لقوات الليفي في الموصل في البناء المعروف (ببيت حميدة) قرب جامع النبي شيت ووضعت بأمرتها قوة تقدر بـ (٢٠٠٠) مقاتل.

اشتبكت قوات الاحتلال البريطاني، بما فيها القوات النظامية وقوات الليفي، في معارك متعددة مع الانتفاضات الوطنية التي قام بها الثوار العراقيون من العرب والاكراد في المناطق المحيطة بالموصل ونذكر منها العمادية وعقرة وتلعفر ومن المفيد هنا الاشارة الى القتال الذي نشب بين الموصليين من القصابين وجنود الليفي في سوق الموصل في ٢٣ آب ١٩٢٣[٨]. وقد سقط عدد من القتلى والجرحى من الطرفين وأرغمت القيادة البريطانية على سحب الليفي الى معسكراتهم في خارج المدينة.

الحكم الوطني: عهد الحكومة المؤقتة:

أدت الثورة العراقية المجيدة التي فجرها الاحرار في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ الى ارغام السلطات البريطانية على اعادة النظر في سياستها أزاء العراق، حيث قررت العدول عن الحكم المباشر الى حكم وطني مع الحفاظ على مصالحهم الأساسية. وتعاقبت الأمور بسرعة حيث عاد السر پرسي كوكس الى العراق في ١١ تشرين الاول ١٩٢٠ وفي ٢٥ تشرين الاول اعلن عن تشكيل الحكومة المؤقتة برئاسة عبدالرحمن الكيلاني (نقيب اشراف بغداد) واناطة وزارة الدفاع بالفريق جعفر العسكري. وفي ٦ كانون الثاني ١٩٢١ عقد الاجتماع الاول لفتح دوائر المقر العام للجيش العراقي (القيادة العامة). وفي ١ حزيران ١٩٢١ فتحت دوائر التجنيد في الانحاء المختلفة من العراق ومنها لجنة تجنيد الموصل، وكانت بعهدة المقدم الحاج احمد سري بن صالح.

وفي ٢٨ تموز ١٩٢١ شكلت اول وحدة مقاتلة من الجيش العراقي وهي فوج المشاة الاول الذي سمّي فيما بعد بـ «فوج موسى الكاظم»[٩].

اثر مؤتمر القاهرة الذي عقد في الفترة (١٢–٢٤ آذار ١٩٢١) لرسم السياسة البريطانية الجديدة في الشرق إتخذت من خلاله قرارات عديدة تتعلق بالعراق من ضمنها إقرار النظام الملكي، وتسمية الامير فيصل بن الحسين مرشحاً للعرش. وفيما يتعلق بالجانب العسكري تقرر خفض نفقات الاستعمار، بتأليف جيش عراقي من (١٥٠٠٠) مقاتل وتعزيز قوات الليفي ليصل تعدادها الى (٧٠٠٠) مقاتل والاعتماد في السيطرة على المنطقة بسلاح جديد ظهر تأثيره وهو السلاح الجوي، فتقرر وضع ستة أسراب من الطائرات البريطانية في مواقع سوقية داخل العراق وسحب القوات البريطانية البرية بصورة تدريجية.

وفيما يتعلق بالموصل قررت القيادة العامة البريطانية في العراق إنشاء قاعدة جوية ومطار في الموصل وإقامة معسكر في منطقة الغزلاني لاسكان القوات المرابطة في الموصل[١٠].

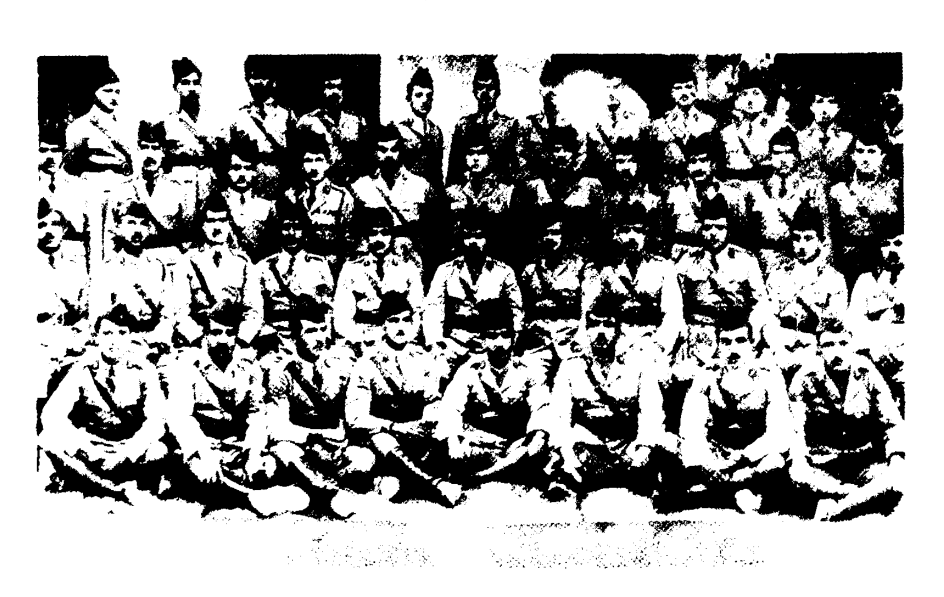


عهد الحكم الملكي - فيصل الاول (١٩٢١-١٩٣٣)

قضية الموصل وتأثيرها على حركات القوات المسلحة

كانت الحكومة التركية تطالب بالموصل بشدة مستندة الى أن تقدم القوات البريطانية نحوها كان مخالفاً لاحكام الهدنة. وفي أيلول ١٩٢٤، وفي عهد وزارة ياسين الهاشمي اجتازت قوات تركية غير نظامية الحدود في قاطعي زاخو والعمادية. وبسبب توتر الموقف قررت الحكومة العراقية سوق القطعات العراقية المتيسرة، ومما تمَّ تشكيله منها الى منطقة الموصل اعلاناً عن ارادتها في التمسك بالموصل. وتطلب الموقف استحداث قيادة عسكرية لقيادة هذه الوحدات، فصدر في ٢٨ كانون الاول ١٩٢١ امر بانشاء (آمرية منطقة الموصل) وكان اول آمر لها العقيد الركن طه الهاشمي. وفي ٣١ تشرين الاول ١٩٢٣ صدرت ارادة ملكية بربط قيادة الجيش العراقي في لواء الموصل بالمتصرفية مؤقتاً وتعيين الفريق جعفر العسكري قائداً ومتصرفاً في الموصل وتسلم مهام منصبه في ٤ تشرين الثاني ١٩٢٣[١١]. وتقرر ايضا ايداع قيادة قطعات الجيش العراقي المحتشدة في الموصل الى قائد الطيران البريطاني في العراق مؤقتاً وذلك لأن القوات البريطانية كانت هي المسؤولة عن حدود العراق أزاء كل عدوان خارجي على نحو ما نصت عليه المعاهدة العراقية- البريطانية لسنة ١٩٢٢. وبعد أن استفاد البريطانيون من الضغط التركي لتحقيق مآربهم بتمديد مدة المعاهدة الى خمس وعشرين سنة وحصولهم على امتياز النفط تمت التسوية النهائية لقضية الموصل بعقد اتفاقية انقرة في ٥ حزيران ١٩٢٦ التي تنازلت بها تركيا عن جميع ادعاءاتها بولاية الموصل واعترفت بموجبها بعائدية هذه الولاية للعراق. ونجمل أدناه توزيع وحدات الجيش العراقي في منطقة الموصل ما بين زاخو ومدينة الموصل في شهر تشرين الاول ١٩٢٥[١٢] :

في مدينة الموصل: آمرية المنطقة. كتيبة الهاشمي



- ضباط المنطقة العسكرية الشمالية.

الخيالة البطرية الجبلية الاولى.
سريتا مشاة من الفوج الثالث.
سرية النقلية الاولى. مستودع تدريب مشاة.

في منطقة زاخو: فوج المشاة الثالث (ناقص). سرية حدود. رعيلان من كتيبة الهاشمي وكانت هذه كلها موزعة بفصائل وحظائر على خط الحدود.

وكانت هذه القوة تبلغ ما يقارب ربع قوة الجيش العراقي آنئذ. وكان تنظيم الجيش وتزايد الوحدات يتم باسلوب الوحدات المستقلة المرتبطة بالمناطق او بالمقر العام بصورة مباشرة، وتحمل الوحدات الاساسية المقاتلة (المشاة، الخيالة، المدفعية) ارقاماً متسلسلة فيقال الفوج العاشر والكتيبة الثالثة وهكذا. واستقرت خطة توزيع الجيش في الظروف الاعتيادية في منطقة الموصل خلال الفترة (١٩٢٦-١٩٣٦) على الوحدات والتشكيلات الآتية [١٣].

- آمرية منطقة الموصل.
- (٣) ثلاثة افواج من المشاة.
  كتيبة خيالة.
- (٢) بطريتان من المدفعية الجبلية ويضاف لها بطرية ميدان (صحراء) أحياناً.
  خدمات ادارية ساندة.

عهد الملك غازي ١٩٣٣ - ١٩٣٩

اتبع الجيش العراقي منذ تأسيسه في سنة ١٩٢١ نظام التطوع. ولما كان هذا النظام باهظ التكاليف ولايوفر للجيش العدد الكافي من الاحتياط المدرب، فقد حاول المسؤولون من المدنيين والعسكريين استبدال التطوع بنظام الخدمة الالزامية المعتمد في الجيوش كافة. وبدأت المحاولات من سنة ١٩٢٧، الا أن البريطانيين كانوا لها بالمرصاد. ولم يتحقق ذلك إلا في سنة ١٩٣٥ حين شرع بتنفيذ قانون الدفاع الوطني في ١٢ حزيران ١٩٣٥ واثر ذلك وضعت خطة جديدة لأعادة تنظيم الجيش وتوسيعه وتشكيل مقرات الالوية والفرق والغاء اسلوب الوحدات المستقلة.
وفي ١٥ نيسان ١٩٣٦ [١٤] تألفت فرقتان: الاولى (في بغداد) والثانية (في كركوك) ووضع جحفل لواء من هذه الفرقة في الموصل. والجحفل: خليط من الوحدات المقاتلة والفنية والادارية ويبلغ ثلث قوة الفرقة. وعلى هذا الأساس أصبحت الموصل مقراً للواء المشاة السادس والوحدات الملحقة به، مع وجود فوج حدود في زاخو وأبقيت آمرية المنطقة في الموصل بأمرة قيادة الفرقة الثانية في كركوك.

وفي خلال هذه الفترة كانت الموصل منطقة تحشد وقاعدة عسكرية لعمليات قتالية قامت بها القوات المسلحة العراقية. وكانت الوحدات المشاركة في ذلك تعود الى معسكراتها الاعتيادية بعد الانتهاء منها ونذكر هذه العمليات باسمائها المعروفة في سجلات الجيش العراقي [١٥].

- حركات بارزان الاولى ١٩٣٢
- حركات الآثوريين عام ١٩٣٣.
- حركات سنجار عام ١٩٣٥.

وفي عام ١٩٣٧ تسلمت القوة الجوية العراقية مطار الموصل وتقرر نقل السرب الاول الى الموصل واسكانه في هذه القاعدة.

فترة الوصاية وعهد الملك فيصل الثاني ١٩٣٩ -١٩٥٨

الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١

شارك لواء المشاة السادس المقيم في الموصل ومعظم ضباطه وجنوده من أهلها في حرب ١٩٤١. وكان له دور مجيد فيها حيث قام بالهجوم الليلي لاسترجاع الفلوجة، وكاد ينجح لولا التفوق الجوي المعادي الذي انزل باللواء خسائر كبيرة بالضباط



والجنود. كما كانت الموصل قاعدة ادارية للمساعدات القادمة من القيادة الفرنسية في سورية وللقوة الجوية الالمانية التي شاركت في القتال الى جانب القوات العراقية[16]. واعقب الحرب الاحتلال البريطاني الثاني للعراق كما هو معلوم فاسترجعت القوة الجوية البريطانية مطار الموصل، واستمرت باشغاله الى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥. كما نشرت الألوف من جنودها في الموصل والمناطق المحيطة بها. وشرعت الجهات العراقية المسؤولة تحت الضغط البريطاني بتقليص القوات المسلحة العراقية والغاء وحدات وتشكيلات كثيرة من ضمنها لواء المشاة السادس الذي أُلغيَّ واستعيض عنه بجحفل لواء المشاة الخامس الذي تم اسكانه في الموصل مع تخصيص احد أفواجه لواجب حامية عقرة. كما الغي فوج حدود زاخو. والغيت آمرية منطقة الموصل واستعيض عنها بآمرية موقع الموصل. وبعد اعادة التنظيم اصبح الجيش العراقي مؤلفاً من ثلاث فرق الاولى منها: في الديوانية والثانية في كركوك والثالثة في بغداد. التي نقلت فيما بعد الى بعقوبة - وقد اضيف للوحدات المرابطة في الموصل فوج هندسة الفرقة الثانية، وتأسست فيها مدرسة المشاة.[17]

وفي اواخر سنة ١٩٥٨ كانت القوات المسلحة في الموصل كما يلي:

- آمرية موقع الموصل.
- لواء المشاة الخامس.
- (٣) ثلاثة افواج بضمنها فوج في عقرة.
- كتيبة مدفعية جبلية - الكتيبة الثانية - (٣) بطريات.
- كتيبة مدفعية الميدان التاسعة - آلية - (٣) بطريات.
- كتيبة هندسة الفرقة الثانية.
- مستشفى الموصل العسكري.
- السرب الأول - تابع الى قيادة القوة الجوية.
- مدرسة المشاة - تابعة لمديرية التدريب العسكري.
- سرية نقلية حيوانات.
- سرية نقلية آلية.
- خدمات إدارية.

العهد الجمهوري (١٩٥٨ - ١٩٦٨)

أولت القيادة السياسية في العهد الجمهوري اهتمامها لتوسيع الجيش واعادة تنظيمه وتجهيزه. وقد تم تشكيل الفرقة الخامسة في عام ١٩٥٨[18] كما وضعت الاسس لاكمال تجهيز وتسليح الفرقة المدرعة الرابعة التي كان قد اعلن عن تشكيلها في اواخر العهد الملكي. وقد اصبحت الموصل في هذا العهد مقراً لفرقة مشاة، وفي بعض الأحيان عند تطلب الموقف مقراً لقيادة فيلق وأُضيفت ثكنات جديدة لاسكان الوحدات والتشكيلات المستحدثة نتيجة التوسع الكبير في القوات المسلحة بصنوفها كافة.

قوى الأمن الداخلي فترة السيطرة العثمانية (١٨٣٩ - ١٩١٨)

تتألف قوى الامن الداخلي في الدولة العثمانية من عنصرين هما: الشرطة (البوليس) والدرك (الجندرمة). والاخير هو العنصر الاجرائي المنفذ لتوجيهات العنصر الاول، وهو بوجه عام شبيه بالجيش مع فروق في التنظيم والتسليح حيث لايملك اسلحة ثقيلة. وقد قاتلت عدة وحدات من الدرك مع الجيش العثماني في مجابهة القوات البريطانية الغازية. وهناك نوعان من وحدات الدرك وهما: الثابت الذي يرابط في مناطق معينة تكون منطقة عمله وهو من المشاة والدرك السيار ويجهز افراده بخيل لنقلهم او ببغال ويعرف هذا القسم بالبغالة (أستر سوار)[19].

١ - الشرطة (البوليس)

جرت اصلاحات كبيرة في جهاز الشرطة أو

(البوليس) كما كان يعرف في الدولة العثمانية لاول مرة سنة ١٩٠٠ وذلك لاعداد جهاز متخصص في اعمال التحري ومكافحة الجرائم على الوجه الصحيح. وقد وضعت هذه الأجهزة في اول الامر في المدن الكبيرة، والمراكز الادارية حيث يتكاثف السكان. أما الارياف فتركت بعهدة الدرك، وخولت الشرطة استدعاء الدرك لمساعدتها. وأقيمت المخافر (قره غول خانة) في انحاء المدن. وقد حاولت الحكومة العثمانية إصلاح قوات الامن فوضعت سنة ١٩١٣ نظاماً جديداً لتوسيع سلطات الشرطة وتطوير انظمة عملها وقد استعانت بضباط شرطة أوربيين لتنفيذه. ويتضمن هذا النظام تقسيم الدولة العثمانية الى خمس مناطق لكل منطقة لجنة يرأسها مفتش شرطة عام[٢٠].

ويتبين من تدقيق (سالنامة) الموصل لسنة ١٣٣٠ هـ الموافقة لسنة ١٩١١/١٩١٢ انه كان فيها:[٢١]

- مديرية شرطة يرأسها مدير برتبة مقدم شرطة.
- هيئة شرطة يرأسها ضابط شرطة (مجلس شرطة).
- تسعة مراكز شرطة يوضع في المهمة منها مفوض (قوميسير) ومعاون مفوض ومنها مثلاً مركز (باب النبي) وكانت المراكز موزعة في السراي وباب النبي وباب الجسر وباب لكش، وتحدد السالنامة المذكورة آنفاً عدد افراد الشرطة بـ (١٥) شرطياً في كل مركز.

٢- الدرك (الجندرمة):

لم يكن في الولايات العثمانية جهاز أمن منظم قبل فترة التنظيمات. وكانت حاميات الجيش النظامي وقوات الوالي الخاصة المعروفة بالضبطية تقوم بحفظ الامن والنظام. وفي سنة ١٩٠٣ تقرر تشكيل قوات خاصة لهذا الواجب توضع تحت السيطرة المباشرة للولاة. وقد عرفت هذه القوة بأسم (الجندرمة) حسب التسمية الفرنسية. وبذلك استبعد الجيش النظامي عن واجبات الامن الداخلي، وكان بوسع الوالي تعزيز قوات الدرك الموجودة بأمرته بقوة درك غير نظامية تجند محلياً وتدفع اجورها من الولاية وتعرف هذه بأسم (الهايتة). وقد نظم الدرك العثماني على أسس عسكرية، واعتبر صنفاً من صنوف الجيش وربط بأحدى دوائر وزارة الحرب في استانبول ويؤمن ضباط الدرك من الجيش النظامي عن طريق الانتداب[٢٢] والاعارة. وحسب سالنامة الموصل الاخيرة لسنة ١٣٣٠/١٩١٢ يتبين انه كان في ولاية الموصل لواء من الدرك منظم باربعة افواج وعلى الوجه الآتي[٢٣]:

١- **الفوج الاول**: ومقره في الموصل وسراياه موزعة كما يأتي:

- سرية في الموصل.
- سرية في العمادية.
- سرية في عقرة.
- مفرزة في زاخو.
- مفرزة في تلعفر.

ويضاف لهذه أربع سرايا من الخيالة تقيم في مدينة الموصل.

٢- **الفوج الثاني**: في كركوك.

٣- **الفوج الثالث**: في السليمانية.

٤- **الفوج الرابع**: بغالة (استرسوار) في الموصل. ويتنقل جنوده على البغال.

ويمكن القول إنه كان في الموصل ما يقارب (١٢٠٠) جندي من الدرك وكانت عناصر الدرك موزعة على السناجق والأقضية والنواحي ضمن الولاية بشكل افواج وسرايا وفصائل ومفارز وبقوة تتناسب مع الموقع والواجب. ومن المعتاد ان يوفد الدرك مفارز صغيرة تكلف بمساندة الشرطة في الحفاظ على الأمن والنظام، وتعقيب المجرمين، وحماية مأموري الجباية، وحراسة بعض المواقع



والدوائر والسجون، ولواجبات الاطفاء وحراسة ناقلي البريد (السعاة) والاجانب.

الحكم البريطاني المباشر ١٩١٤ - ١٩٢١

بعد اسبوع من احتلال الانكليز للبصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ شُرع بتأسيس جهاز شرطة مدنية تحل محل (البوليس) التركي وقد نظم جهاز الشرطة الجديد هذا على نمط الشرطة الهندية وجيء له بضباط شرطة متخصصين من الهند ومصر لرعاية شؤونه وباستمرار سنوات الحرب الطويلة ١٩١٥ و١٩١٦ و١٩١٧ اكتسب هذا الجهاز الخبرة وتطور بحسب توسع رقعة الاحتلال البريطاني. وبعد احتلال بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ قررت الحكومة البريطانية في شهر تموز ١٩١٧ البدء بالتحول من الادارة العسكرية الى الادارة المدنية وابدلت تسمية منصب السربرسي كوكس من (رئيس الحكام السياسيين) الى (الحاكم المدني العام) وفي شهر ايلول من سنة ١٩١٨ رفعت الفوارق التي كانت موجودة بين ولايتي بغداد والبصرة. فأصبحتا وحدة ادارية واحدة تدار من بغداد. وحين اتمت القوات البريطانية احتلال الولايات الثلاث في تشرين الثاني ١٩١٨ ، اصبحت جميع تنظيماتها بما فيها جهاز الشرطة خاضعة للادارة المركزية في بغداد التي يرأسها (الحاكم المدني العام). وكان جهاز الشرطة يرتبط به بصورة مباشرة. وبالنسبة لولاية الموصل ومدينة الموصل ذاتها، كانت الامور اسهل حيث تم تبادل السلطات دون قتال. وتولى الكولونيل (العقيد) ليجمن الشؤون الادارية في مدينة الموصل وهو عليم بخفاياها جراء نشاطه التجسسي فيها خلال فترة السيطرة العثمانية. وحلت الشرطة الجديدة محل البوليس التركي واحتفظ البريطانيون بالمناصب الكبيرة في الشرطة وشرعوا في إعداد العراقيين وتدريبهم للعمل كافراد ومفوضين وضباط شرطة وفتحت مدرسة الشرطة (كلية الشرطة فيما بعد) لتدريبهم[٢٤].

واستعاض البريطانيون عن الدرك (الجندرمة) التركي بالقوات المجندة محلياً (الليفي) التي سبق التطرق اليها. ومن الغريب ان جهاز الدرك التركي عند انتقاله الى السيطرة البريطانية في ولاية الموصل إحتفظ باسم (الجندرمة) واستمر معظم منتسبيه على العمل بأمرة البريطانيين الى اواخر سنة ١٩٢٤ حيث استبدلت التسمية بالشرطة[٢٥].

الحكم الوطني ١٩٢١ وما بعدها

أعقب تتويج الملك فيصل الاول في ٢٣ آب ١٩٢١ العمل على حلول العراقيين محل البريطانيين بصورة تدريجية وعلى اعطاء الصبغة العراقية للأجهزة التي تتعامل مع عامة الشعب ضمن جهاز الدولة. وفي مقدمة هذه الاجهزة جهاز الشرطة. فأستحدثت مديرية الشرطة العامة في وزارة الداخلية وأنتدب الفريق نوري السعيد من منصبه في رئاسة الاركان العراقية للقيام بتأسيس جهاز الشرطة الجديد فتسلم هذا المنصب في ١١ كانون الثاني ١٩٢٢[٢٦]. واعقب ذلك تأسيس مديريات الشرطة في الالوية (المحافظات) على ان تقوم هذه بدورها في اقامة مراكز الشرطة في الاقضية والنواحي وتشعبت اعمال الشرطة بمرور الزمن، فظهرت الاقسام التخصصية الفنية مثل تحقيق الأدلة الجنائية والمرور والجنسية والسفر وغيرها. وانتشرت من العاصمة الى المحافظات وفي مقدمتها الموصل. وبقي المفتشون والخبراء البريطانيون في جهاز الشرطة، الى حين دخول العراق في عصبة الامم سنة ١٩٣٢ حين تم بعد ذلك التخلص منهم تدريجياً.

وفيما يتعلق بالدرك كانت وجهة النظر العراقية



تختلف عن التركية حيث لم تشكل قوات درك في عهد الحكم الوطني، واستعيض عن الدرك بجزء من قوات الشرطة عرف بأسم (القوة السيارة)، وهي قوة عسكرية في تدريبها وتنظيمها وترتبط بمديرية الشرطة العامة وتقوم بنفس واجبات قوات الدرك العثمانية، ومازال هذا الاسلوب متبعاً حتى يومنا هذا.

الهوامش

(١) الهيكل والهيكلي: تعني في المفردات العسكرية العناصر الاساسية التي يجب توافرها، والتي يمكن الارتكاز عليها عند تكامل الوحدة او التشكيل فعندما تكون القوة الكاملة المقاتلة لفوج مشاة مثلاً (٨٠٠) شخص يكون الفوج بالتنظيم الهيكلي (٥٠-١٠٠) شخص وهم آمر الفوج وآمري السرايا وضابط الاعاشة والمراتب والأداريين والفنيين الضروريين. وعند القرار على اعداد هذه الوحدة للقتال بملاك حربي عند اعلان النفير (التعبئة العامة) مثلاً، يلتحق المدعوون الى الخدمة بالهيكل وتتكامل الوحدة. ومن الأمثلة على الوحدات الهيكلية والقيادات الهيكلية: وحدات الرديف والاحتياط.

(٢) سالنامة الموصل ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧) ص ١٢٥.

(٣) قسمت الخدمة العسكرية الالزامية في الدولة العثمانية الى:
الخدمة النظامية ٤ سنوات.
خدمة الاحتياط الاول ٢ سنتان.
خدمة الاحتياط الثاني (الرديف) ٦ سنوات.
خدمة الاحتياط الثالث (المستحفظ) ٨ سنوات.
فيكون مجموع الخدمة (٢٠) سنة، يخضع لها المكلف من سن الدعوة (١٨) سنة وشرع بتطبيق هذا القانون من سنة ١٨٤٣. انظر: عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٧، (بغداد، ١٩٥٥) ص ص ٢٢٥-٢٢٩.

(٤) سالنامة الموصل ١٣٣٠ (١٩١٢)، ص ١٤٠.

(٥) شكري محمود نديم، حرب العراق، (بغداد، ١٩٦٢) ص١٨١.

(٦) المصدر نفسه، ص ص ١٨٢-١٨٣.

(٧) ترجمة رسمية محدودة التوزيع لكتاب (الليفي العراقي) تأليف العقيد براون، ص ٤٥.
Iraq Levies by col. Brown.

(٨) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٩) منح فوج المشاة الاول اسم فوج موسى الكاظم بموجب الارادة الملكية المؤرخة في ٩ آذار ١٩٢١ (أوامر الجيش العراقي ١٩٢٢).

(١٠) تسلم الجيش العراقي، معسكر الغزلاني سنة ١٩٣٠ ومازال قائماً ومستعملاً مع كثير من الاضافات والتطوير. اما المطار الذي كان يعرف بين الموصليين باسم (الطيران) فقد تسلمته القوة الجوية العراقية منذ سنة ١٩٣٧.

(١١) جمهورية العراق، وزارة الدفاع، مديرية التطوير القتالي، تأريخ القوات العراقية المسلحة، جـ١، (بغداد، ١٩٨٦)، ص ٢٢٠ وسنشير اليه لاحقاً بـ (تاريخ القوات العراقية المسلحة).

(١٢) تاريخ القوات العراقية المسلحة، جـ٢، (بغداد، ١٩٨٧، ص ١٨٤.

(١٣) نظام المركة للجيش العراقي، مضبرة (ارشيف) هيئة تدوين تاريخ القوات العراقية المسلحة.

(١٤) وزارة الدفاع (العراق)، اليوبيل الفضي، الجيش العراقي ١٩٤٦، مطبعة الجيش، ص ٦٥.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(١٦) الحرب العراقية - البريطانية لسنة ١٩٤١، اضبارة وثائق. هيئة تدوين تاريخ القوات العراقية المسلحة.

(١٧) نظام المعركة للجيش العراقي، المصدر اعلاه.

(١٨) وزارة الدفاع (العراق)، اليوبيل الذهبي، الجيش العراقي ١٩٧١، مطبعة الجيش، ص ٧٢.

(١٩) انظر: شكري محمود نديم، دراسة احوال العراق في مرحلة المشروطية الثانية ١٩٠٨-١٩١٨، رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت الى كلية الاداب بجامعة بغداد سنة ١٩٨٥ ص ص ١٤٢-١٤٣.

(٢٠) للتفاصيل انظر: ابراهيم خليل احمد، ولاية الموصل: دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨-١٩٢٢، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الآداب بجامعة بغداد، ١٩٧٥، ص ٣٤.

(٢١) سالنامة الموصل ١٣٣٠ هـ (١٩١٢)، ص ٧٥.

(٢٢) نديم، المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٢٣) سالنامة الموصل ١٣٣٠ هـ (١٩١٢) ص ص ٧٦، ٧٧.

(٢٤) نديم، المصدر السابق، ص ص ٢٣٨-٢٤٢.

(٢٥) كتاب الليفي العراقي، ص ٤٧.

(٢٦) تاريخ القوات العراقية المسلحة، جـ١، ص ٢٢٠.



النظام الاقطاعي في الموصل

أ.د عماد احمد الجواهري

تمهيد :

الاقطاع من النظم القديمة لحيازة الارض واستثمارها وفق مضمون علاقات انتاج دالة على تبعية حارث الارض للمتصرف بالاقطاع[1] . والجذور التاريخية لنشأة الاقطاع في الموصل تبدو موغلة في القدم اذ يمكن تعقبها في نموذج الحيازة في عهد الدولة الاشورية (الالف الثاني قبل الميلاد) وهي من اقدم الكيانات السياسية التي اتخذت من مدينة نينوى التاريخية مركزاً لها[2] . كما يمكن تعقب ظروف اكثر تدهوراً لحارثي الارض في نموذج الحيازة الاقطاعية الذي ساد انحاء العراق – ومنها الموصل – في كل من عهدي الاحتلال الاخميني (٥٣٩–٣٣١ ق.م)[3] والساساني (٢٢٤ – ٦٣٦ م)[4] .

وفي العهد الاسلامي عرف الاقطاع في وقت مبكر من تأسيس الدولة العربية الاسلامية . ويمكن رصده بوصفه أحد الاجراءات الاولى التي أضحت فيما بعد جزءاً من مضمون النظام الاقتصادي الاسلامي . ان الاقطاع الاسلامي خلافاً للاقطاع القديم لم يكن شكلاً من اشكال الحيازة ، بل نظاماً لعمران الارض يفضي النجاح فيه الى الملكية التامة للارض ، وهي أهم اشكال الحيازة وأقواها على الاطلاق[5] .

والاراضي المملوكة ملكاً تاماً يطلق عليها كذلك الاراضي العشرية بمعنى انها تدفع العشر بمثابة زكاة مقطوعة الى بيت المال . ان أصناف الاراضي العشرية متعددة[6] . وقبل تحرير العراق كانت كل ارض يقطعها الحاكم تحقيقاً لمنفعة اجتماعية – عمران الاراضي وفائدة بيت المال وفائدة المقطع له– تصبح ا رضاً مملوكة ملكية تامة رقبة وتصرفاً . غير انه بعد تحرير العراق وظهور الاراضي الخراجية ، وهي عموم الاراضي التي لم توزع على المحاربين ووضعت رقبتها بيد الدولة او بيت المال بينما ظل التصرف فيها لمصلحة ساكنيها[7] ، تركز الاقطاع على الاراضي الموات وهو في هذه الحالة يفضي ايضاً الى الملكية التامة للارض (من احيا ارضاً ميتة فهي له) حتى وان كانت في الاصل من صنف الاراضي الخراجية . وهكذا تظهر الميزة الاساسية للاقطاع إذ أن صاحبه يدفع العشر مكافأة له على عمران الارض في حين يدفع جاره المتصرف بأرض خراجية معمرة أصلاً ضريبة الخراج التي لاتقل عن الثلث في أحسن الاحوال – تزيد عن النصف احياناً وتقل عن الخمسين (٢/٥) أحيانا – وحكم الاراضي في الموصل سواء تلك التي فتحت عنوة ام تلك التي صولح اهلها أم كانت فيئا[8] حكم واحد ، هو أنها جميعاً أراضٍ خراجية[9] .

من الثابت تاريخياً ان ظهور الاراضي الخراجية يرتبط باجراء اقتصادي شرعه الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت الاغراض المنشودة من هذا الاجراء متعددة اهمها :

١– المحافظة على استقرار الاوضاع الاجتماعية– الاقتصادية في الاراضي المفتوحة .
٢– ايجاد مصدر ثابت لبيت المال يحقق المنفعة الاجتماعية للمسلمين كافة .
٣– منع ظهور طبقة اجتماعية بين المسلمين مناظرة

لتلك التي يصطلح عليها عادة «لوردات الاراضي» والتي ظهرت في اوربا.

٤- ادامة زخم الجهاد الاسلامي باتجاه الاقاليم غير المفتوحة.

وجدير بالذكر ان اجراء الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رض) السالف الذكر كان مقروناً ايضاً بوصايا مشددة ومتابعة أكيدة هدفها جميعاً اعمام العدالة الالهية على الجميع سواء كانوا من المسلمين ام من غير المسلمين. ان الاشارة التاريخية المشهورة المتضمنة استدعاء عمر بن الخطاب (رض) لعامليه في سواد العراق وجبله وسؤالهما عن مقدار ما كان يدفعه الاهلون في العهد الساساني ومقارنة ذلك بمقدار مايدفعه الأهلون في ظل الدولة الاسلامية وقوله المشهور لهما: «انظر لاتكونا حملتما الارض مالاتطيق، أَما لَئِنْ بَقِيتُ لأرامل أَهل العراق لأدَعهنْ لايَحتجْنَ الى أحدٍ بعدي»[١٠]. ان هذه الاشارة والاشارات الكثيرة الاخرى التي تتضمن مراعاة الظروف والاحوال عند الجباية والنظر في اساليبها واناطة مهامها بعمال مختصين وتوجيه الاشراف على ديوان الخراج الى شخصيات نزيهة معروفة من القضاة تؤكد الابعاد السامية للسياسة المالية- الاقتصادية التي انتهجها المسلمون الاوائل بعد تحرير الامصار[١١].

وبعامة اتخذ اسلوب جباية الخراج احدى طريقتين الاولى: على اساس وحدة الارض ويعرف خراجها باسم «خراج المساحة». اما الثانية: فتكون على اساس قسمة الحاصل ويعرف خراجها باسم «خراج المقاسمة». ويذكر ان الخليفة المهدي العباسي ادخل نظام المقاسمة وحدده بنصف الحاصل من الحبوب ثم رفعه بعدئذ الى ٣/٥ من الحاصل.وفي سنة (١٧٢هـ) اعاد الخليفة الرشيد العباسي (١٧٠-١٩٣هـ) الخراج الى نصف الحاصل واستمر ذلك الى آخر القرن الثاني للهجرة. وفي عهد الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) خفض الخراج الى (٢/٥) من الحاصل واستمر على هذه النسبة الى القرن الرابع الهجري. وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ذكر ان اراضي اقليم الجبل كانت تدفع نصف الحاصل واحياناً اقل من ذلك، اما «القطائع» فإنها كانت تدفع العشر بعامة[١٢].

اما قيمة الخراج المقدرة في ضوء الاسعار السائدة آنذاك فإن اهم الاحصائيات التي بين ايدينا عن الموصل والنواحي المجاورة لها تشير الى الارقام الآتية[١٣].

١- نواحي الموصل الشرقية والغربية (٦٣٠٠) ألف درهم.

٢- النواحي الملحقة باقليم الجزيرة وتشمل على: (ديار ربيعة، بلد يعربايا، نصيبين، دارا، ماردين، كفوثوتا، تل سنجار، الخابور) (٤٦٣٥) ألف درهم.

ان هذه الارقام منسوبة الى وثائق دواوين الخراج لسنة (٢٠٤ هـ) ولاتتوفر احصائيات للسنوات السابقة على حد قول قدامة بن جعفر صاحب كتاب «الخراج وصناعة الكتابة» المتوفى سنة (٣٣٨هـ) فهو يؤكد على حرق دواوين الخراج في اثناء الفتنة بين الامين والمأمون. واذا صحت هذه الملاحظة فإن بالوسع تقويم هذا الحدث بوصفه ينطوي على مغزى خاص. وعلى أية حال فإن المعلومات الاحصائية هذه تثير نقطتين جديرتين بالتأمل، الاولى: دلالات التقسيم الاداري على المناطق التي تعد وحدات مستقلة في جمع الخراج ودفعه لخزانة الدولة. اما الثانية فهي قيمة تلك الايرادات الامر الذي له دلالاته على الامكانات الاقتصادية من ناحية، واحتمال وجود بعض التجاوزات من لدن الجباة والملتزمين من ناحية اخرى.

وفي غضون ذلك كان من بين العوامل التي ادت الى تظاهر دور ذوي النفوذ في الريف الاسلامي، اتباع اسلوب «الضمان» أو «الالتزام» في جباية الخراج وهو اسلوب لجأت اليه الدولة في وقت مبكر بوصفه اسلوباً بديلاً عن اسلوب الجباية المباشرة، وبخاصة عندما تكون الظروف غير مؤاتية لارسال الجباة. ومن الناحية الواقعية كان الضامن (الملتزم)



الذي حل محل الدولة يتصرف وكأنه مالك الارض. وقد نجح الملتزمون فيما بعد في الاستحواذ على الارض اما اقطاعاً من خلال الدولة او شراءً بحكم قدراتهم المالية. يقول الاستاذ الدوري: ان الضمان الذي اتبع في وقت مبكر كان محدوداً في الوقت ولاتصحبه امتيازات وفي سنة (٣٠٧هـ) اصدرت الدولة قراراً حظر منح الضمان للقادة والوزراء، غير ان هذا القرار أهمل في وقت لاحق[١٤]. وهكذا يبدو ان تظاهر امور الملتزمين توافقت مع ظروف التسلط الاجنبي.

وفي الدولة العربية الاسلامية ارتبط تطور الاقطاع من نظام لعمران الارض الى شكل من اشكال الحيازة بالتجاوزات التي تعكس تغلب ذوي النفوذ ايضاً. ان شيوع «اقطاع التمليك» ومن ثم «اقطاع الاستغلال» بنوعيه «اقطاع الأرض» - منح المقطع حق زراعة الارض - و «اقطاع الخراج» - منح المقطع حق التصرف بايراد الارض من ضريبة الخراج - يمثل دليلاً مفيداً في هذا التقويم[١٥]. ان التحليل المنطقي لتطورات من هذا القبيل يعني ان السلطة كانت مدفوعة بعوامل عدة لاعلاقة لها بمسألة العمران، ويأتي في مقدمتها مكافأة الخدمات التي يقدمها ذوو النفوذ حيث عمدت الى اقطاع الارض تمليكاً أو تصرفاً. وهذا يعني منح حقوق لاشخاص لاعلاقة لهم بالأرض، غير أنهم بوسعهم ان يستخدموا سلطة الدولة لدعم «حقوقهم» التي تحولت واقعياً الى امتيازات «شبه اقطاعية» كما انها توسعت بمرور الزمن على حساب اصحاب الحقوق الاصلية في الاراضي الخراجية. وتوكيداً لهذه الملاحظات ذكر ان اقطاعات كثيرة اقطعت لكثير من القادة الاتراك في عهد تغلبهم على سلطة الخلافة العباسية من قبيل تلك التي اقطعت لـ «ايتاخ» على القاطول او تلك التي اقطعت لـ «وصيف» في أصبهان والجبل. وكان الوزير علي بن عيسى من بين ابرز اصحاب النفوذ الذين حصلوا على اراضٍ عن طريق الشراء في ديار ربيعة والموصل. وجدير بالذكر انّ اراضي كثيرة انتقلت الى هؤلاء واضرابهم من ذوي النفوذ في وقت لاحق بوصفهم «حماة» اضطر أصحاب الحقوق الاصلية الى الالتجاء اليهم تخلصاً من تجاوزات العمال وجباة الخراج فانحدروا الى مجرد فلاحين بعد ان كانوا مالكين لحق الرقبة في اراضي الاقطاعات المعمرة او مالكين لحق الزراعة والتصرف بالاراضي الخراجية بوصفهم من السكان الاصليين[١٦].

لقد استمر الوضع على الحال المذكورة حتى العهد البويهي (٣٢٠- ٤٤٧هـ) حين ظهر الاقطاع العسكري ثم ساد على انواع الحيازة الاخرى في عهد لاحق. ان واقع ظهور الاقطاعات العسكرية في اواخر عصر الخلافة العباسية الذي يشير الى وقوع السلطة الحقيقية بيد الحكام والعساكر الفارسية والتركية يمثل صورة جلية لتطور دور الاقطاع من مكافأة استثمار الارض الى مكافأة الخدمات المقدمة للدولة. وبعبارة اخرى من مكافأة عملية انتاجية الى مكافأة المهام والوظائف الادارية والعسكرية التي يتضائل تأثيرها على العملية الانتاجية بطبيعة الحال. فالامراء والجنود في العصر البويهي نالوا الاقطاعات العسكرية التي كانت تتراوح بين ولايات كاملة «اقطاعاً ادارياً- عسكرياً» او بضع قرى مكافأة لخدماتهم في المؤسستين الادارية والعسكرية.

ان جهود هؤلاء لتأمين مايترتب عليهم دفعه الى أمرائهم ادى الى توسيع هيمنتهم على حصة الفلاحين باستمرار، كما ان انصرافهم الرئيس الى جمع الاموال دفعهم الى تخريب الاقطاع بهدف رده الى الدولة ثم التعويض عنه باقطاع آخر أوفر ريعاً، في حين نجدهم على استعداد دائم للتجاوز على انماط الحيازة الاخرى المجاورة لهم بما فيها الاراضي الملك التي منحت اقطاعات مكافأة لجهود احيائها بعد ان كانت ارضا موات «قطاع التمليك»[١٧].

ويلاحظ ان الاقطاع العسكري اتسع كثيراً في العهد السلجوقي (٤٤٧- ٥٩٠هـ) عندما واجه



نظام الملك الوزير في عهد الب ارسلان (٤٥٥ – ٤٦٥هـ) وابنه ملكشاه (٤٦٥ – ٤٨٥هـ) مشكلة تجهيز جيش قبلي كبير. وقد حلت المشكلة باعتماد نمط «الاقطاع العسكري» على حساب اسلوب «الضمان» الذي لم تتخل عنه الدولة العباسية في مختلف العهود. وقد وصف احد المؤرخين المعاصرين لذلك العصر ابعاد هذا الاجراء فأشار الى تناقص ايرادات الدولة بسبب حالة الخراب التي آلت اليها احوال العمران في عهد البويهيين فكان الاجراء الجديد «محاولة ناجحة» للاصلاح:

«فرأى نظام الملك أن الاموال لاتحصل من البلاد لاختلالها ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها. فعرضها على الاجناد اقطاعاً، وجعلها لهم حاصلاً وارتفاعا. فتوفرت دواعيهم على عمارتها، وعادت في اقصر مدة الى احسن حالة من حليتها»[١٨].

والمؤكد لدينا ان نمط الاقطاع الاداري الذي يجيز لصاحبه منح اقطاعات صغرى ضمن الاقطاع الكبير، «واقطاع» الالتزام قد تعايشا مع الاقطاع العسكري، الا ان الاقطاع الاخير أصبح اكثرها شيوعاً. وكان من النتائج الخطيرة لشيوع هذا الاقطاع هو استقراره في ايدي اصحابه وتطوره الى إقطاع وراثي مارس فيه المقطع صلاحيات واسعة مقابل الخدمة العسكرية واعداد الجند الذين كانوا في الواقع يستلمون راتباً او قطعاً من الارض ويدينون بالولاء له. وقد استقرت فكرة وراثة الاقطاع العسكري في عهد الزنكيين (٥٢١– ٦٦٠هـ) والايوبيين (٥٦٩ – ٦٦١هـ)[١٩].

لقد كانت الموصل جزءاً مهماً من ارضية هذه التطورات السياسية فانتشرت فيها انماط الحيازة الاقطاعية الجديدة فضلاً عن انماط الحيازة القديمة. كما ان هذه التطورات انعكست على شؤون «الديوان» الذي نيطت به مهمات الاشراف على الاقطاعات. وهكذا تعددت شعب الديوان في ضوء تعدد انماط الحيازة. وفي ايدينا اشارة مهمة الى وجود خمس شعب في «ديوان اربل» وذلك في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) في تاريخ سابق لسقوط الدولة العربية الاسلامية[٢٠]. وتتضمن تلك الاشارة ملاحظات مهمة على فساد امور «الديوان» والظلم الذي كان يمارسهُ المشرف على شؤونه بحق السكان.[٢١]

وفي هذه الصفحات لابد لنا من التأكيد بأن التطورات الاخيرة في الحيازة تمثل صفحة من صفحات التخبط في ادارة الاراضي وجباية الخراج. اما الابعاد الاصلاحية فإن اهميتها تتراجع باستمرار امام ضغوط التجاوزات والتغيرات التي تفرضها التطورات السياسية. وفي الموصل تبدو صورة هذا التخبط ليس في واقع اقطاعي تتداخل فيه انماط الاقطاع الاداري والعسكري والضمان حسب، بل في الضغوط التي تفرضها التطورات السياسية ايضاً. ففي اشارة يرجع تاريخها الى اواخر القرن السادس الهجري(الثاني عشر الميلادي)ذكر ان حاكم الموصل ابا منصور قايماز بن عبد الله اقطع بعض المدعين لصنعة الكيمياء ضياعاً بلغت ايراداتها السنوية عشرة آلاف ديناراً (لاحظ تداخل اسلوب الضمان مع الاقطاع الاداري في هذا المثال). وقد سار ذلك المدعي باهالي الموصل ممن وقعوا تحت «نفوذه الاقطاعي» سيرة قبيحة لم ينج منها حتى العلماء ومنهم الشيخ سلمان بن يحيي البجباري الذي كان قد أُقطع سابقاً بضعة فدن «اقطاع رزق» معفاة من الخراج في قريته «بجباري» الواقعة على نحو ميل الى الشرق من الموصل، لقد أُجبر الشيخ المذكور على دفع خراجها مما اضطره الى الهجرة الى اربل[٢٢]. وفي اشارة اخرى يرجع تاريخها الى اوائل القرن السادس الهجري ذكر انه في عهد حكم أبي عز الدين البرسقي على الموصل اقطع قائده بابكر بن ميكائيل اربل اقطاعاً عسكرياً قام الاخير بتوزيعه اقطاعات عسكرية صغيرة على اتباعه من الاجناد البابكرية وقد ادى هذا الاجراء الى حدوث اضطراب بين اهالي القرى المشمولة بالاقطاع واضطروا الى الهجرة الى قرى عدة في الموصل وبخاصة قرية «عيسى» في منطقة «حبتون» احدى نواحي الموصل (لاحظ

تداخل الاقطاع العسكري مع الاقطاع الاداري في هذا المثال)[٢٣].

لقد ظل الاقطاع العسكري وقريناه الاقطاع الاداري والضمان قائماً طوال الحقبة المضطربة اللاحقة. فقد اعتمد عليه المغول في ادارة الاراضي الخراجية (اراضي الديوان) وفي جباية الخراج. كما ظهرت في هذا العهد الاراضي «الهمايونية» (السلطانية أو خاص أنجو) على نطاق واسع حتى غدا من الصعوبة التمييز بينها وبين «اراضي الديوان»[٢٤]. واللافت للنظر ان هناك اختلافاً في المصادر حول مسألة انتقال الاقطاع بالوراثة في هذا العهد. والمرجح برأينا ان السياسة المغولية تحفظت على مسألة توريث الاقطاع[٢٥]. ومن الاحداث المهمة في هذا العهد ماأشارت اليه بعض المصادر وهو «ضمان العراق» واستيفاء خراجه «ذهباً احمراً» مما ألحق بالسكان اضراراً فادحة[٢٦].

وقد عانت الموصل من السياسة الاقطاعية المغولية وبخاصة تعسف «صاحب الديوان». ويذكر ان الموصل شهدت انتفاضة مهمة في عهد ارغون خان (١٢٨٤ - ١٢٨٩م) الذي اهمل شكاوى اهاليها ضد «امين الدولة» المشرف على «الديوان» في الموصل وهو شقيق «سعد الدولة» اليهودي المشرف على «ديوان الممالك العراقية» والمشهور بانه واحد من اكثر متولي «الديوان» ظلماً وفساداً[٢٧].

وفي عهد السلطان محمود غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٣م) بذلت محاولة لاصلاح السياسة الاقطاعية المغولية تضمنت الغاء الضرائب غير الشرعية وهي «ضرائب اقطاعية» محلية فرضها وكلاء المغول ونوابهم في الاقاليم. كما انه حاول اعمام «الاقطاع العسكري» على حساب الاقطاع الاداري والضمان بهدف منع التعديات على الفلاحين لتقديره ان بامكان القائد او الامير ضبط امور الجند في الاقطاع المقرر «للامير وعساكره العشرة آلاف» في حين يقوم الفلاحون بالزراعة وتأدية الخراج للاجناد. واخيراً وضع غازان سجلاً باصناف الاراضي وحاصلاتها و «ارتفاع» خراجها. وتحفظ سجلات كل ولاية عند «صاحب الديوان» لغرض المراجعة عند حصول الشكاوى[٢٨].

ولاشك فإن اعمام الاقطاع العسكري على حساب الاقطاع الاداري والضمان يعني ان ايرادات الخراج ستذهب مكافأة بصورة مباشرة الى العساكر نظير خدماتهم الحربية في حين ستنخفض عن ايرادات الدولة من خراج الموصل سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م فبلغت (٣٢٨) ألف دينار[٢٩]. وهذه الملاحظة الاحصائية لاتفيد في بيان ما اذا كان هذا الخراج مقدراً على اساس حجم التشكيلات العسكرية المنتفعة من الخراج، أم انه يعكس معدلات الخراج من الاقطاع الاداري والضمان حسب، ام جميع ماذكر وهو الراجح برأينا.

وفي العهد الجلائري استمرت الانواع الثلاثة الرئيسة من الاقطاع قائمة وهي الاقطاع الاداري والضمان والاقطاع العسكري. وكان اكثرها شيوعاً الاقطاع العسكري وهو ماتدلل عليه كلمة «اقطاع» بوصفها مرادفة لكلمة «راتب» - «السيورغال» و «التيول»[٣٠] -، وفي الوقت نفسه لم تعد الدولة قادرة على ان تحول دون تغير صنف الارض من حيازة ملحقة بالنمط الاقطاعي العام تعكس نمط أي من الاساليب الاقطاعية المعروفة (الاداري والضمان والعسكري) الى صنف الاراضي المملوكة. وهذا يفسر الاشارات الكثيرة حول ظهور الملكيات الخاصة في اراضي عرف صنفها الاصلي بأنها أراضي خراجية. ومن اهم هذه الاشارات تلك التي ذكرت ان الخواجة مجد الدين السلامي قد تملك قرى كثيرة واملاكاً واسعة قرب الموصل: السلامية والمأخوذة والمراوزة والمناصف، وكذلك الاملاك التي انتقلت عن طريق الشراء الى بعض رجال الدين المسيحيين بالقرب من الموصل ايضاً: كرامليس وباقردا وكفرعزي وغيرها[٣١].

والمرجح في رأينا ان مثل هذا التغيير لم يكن مصدره المباشر أياً من انماط الحيازة الاقطاعية المعروفة الواسعة الانتشار (الاداري والضمان



العسكري) بل تلك الانماط المحدودة واهمها: «ادرار بمقاصة» و «معيشت بمقاصة» وهي نماذج من الاقطاعات معفوة من الضرائب منحت لبعض الاشخاص (العلماء والشعراء والمتصوفة وغيرهم) اما أرضاً او خراجاً وهي عادة تبقى عند المستفيدين من اقطاعها يتصرفون بها كالملك[٣٢].

ولما كانت الموصل في العهد الجلائري تحت نفوذ التركمان «القرة قوينلو» فإن الشكل الرئيس للاقطاع كان ادارياً وان تحصيلات الخراج تزيد او تنقص في ضوء الظروف، وهي ظروف لم تكن في صالح الجلائريين غالباً. وهكذا لم تزد تحصيلات الدولة من خراج الموصل سنة (١٣٦٣م) على (٢٠) ألف ديناراً وهذا الرقم يمثل (١ / ١٦) من تحصيلات الخراج لسنة (١٣٣٥م) في اواخر العهد المغولي[٣٣].

وفي عهد التركمان القرة قوينلو والآق قوينلو ظل الاقطاع بأنماطه الثلاثة الرئيسة (الاداري والضمان والعسكري) قائماً وذلك لكونه التراث الرئيس للشرق الاسلامي في تنظيم ادارة الاراضي واستيفاء خراجها، غير ان لدينا بعض المسوغات التي تجعلنا نعتقد ان الاقطاع العسكري قد انحسر لصالح كل من الاقطاع الاداري والضمان، فالاضطرابات الكثيرة خلال هذين العهدين لم تسمح للجند ان يتولوا مهات ذات طابع اداري – مالي أو عمراني اقتصادي لاجل ذلك جرت العادة على اقطاع البلاد ادارياً أي على اساس «وحدة الاقليم» أو الولاية بطريقة الضمان. وجدير بالذكر ان ظروف التغيير السياسي وما كان يصاحبها من تغييرات في ارباب الاقطاع وهي تغييرات من شأنها ان تلحق الاضرار بالزراعة والعمران، قد استدعت اجراءات مناسبة هدفها اعادة الاطمئنان وتنشيط عمران الارض. وهكذا تكررت ظاهرة اعفاء ارباب الخراج من الضرائب المقررة لسنوات متعددة وبخاصة في المراحل الانتقالية حين تكون الاهداف السياسية مناظرة في قيمتها للاهداف الاقتصادية – العمرانية. ان بين ايدينا ثلاثة امثلة كان اولها: بعد سيطرة الشاه محمد بن قره يوسف على بغداد سنة (١٤١١م). اما المثال الثاني: فهو بعد سيطرة السلطان اوزون حسن على بغداد سنة (١٤٧٠م). ان الاجراءات التي اتخذها كل من شاه القرة قوينلو وسلطان الاق قوينلو في المثالين السابقين مشابهة لاجراء سابق قام به السلطان اويس الجلائري بعد استعادته العراق وقضاءه على عصيان الخواجة مرجان في بغداد سنة (١٣٧٤م)[٣٤].

ومن المفيد ان نذكر في هذا المبحث ان «الاتاوة السنوية» بوصفها دليلاً على التبعية السياسية ملاحظة ترددها المصادر المحلية[٣٥] وبخاصة تلك التي عاصرت الاحداث في حقب الاضطراب وصراع القوى السياسية. وفي رأينا ان هذه «الاتاوة» تمثل من جانب آخر صيغة بدائية يكون كل من الاقطاع الاداري واقطاع الضمان نموذجاً اكثر تطوراً لها. وفي وقت لاحق سرعان ماتأخذ امور ادارة الارض وجباية الخراج شكلاً اكثر تنظيماً يعكس حالة الاستقرار النسبي وتكون هناك في العادة الفرص مناسبة للتمييز بين تلك الاراضي التي يتخذ بشأنها قرار معين بوصفها «اقطاعاً ادارياً» يمنح لشخصية لها مقامها عند سلطان الدولة، او «اقطاع ضمان» يمنح بطريقة المزايدة، او اقطاعاً عسكرياً يمنح بمثابة راتب للامير واجناده. ان هذا التمييز يتم عادة من خلال توجيه «مؤسسة الديوان» التي لها ان تقدر أياً من الاساليب الاقطاعية أوفق من الناحيتين السياسية والعمرانية. كما يجري في بعض الاحيان وضع قواعد ثابتة يتم العمل بمقتضاها وتتم المحاسبة في ضوئها عند حصول تجاوزات او شكاوى. وابرز مثل على ذلك «دستور حسن بك» (اوزون حسن) الذي يتضمن مجموعة القوانين التي شرعها السلطان المذكور حول ادارة الاراضي وجباية الخراج لتحقيق «العدل والعمران»[٣٦].



النظام الاقطاعي العثماني في الموصل :

ويعد الاقطاع العثماني اهم التطورات في شكل الحيازة الاقطاعية في العصر الحديث ، وقد اخذ العثمانيون بهذا النظام في وقت مبكر من تأسيس الدولة العثمانية متأثرين بالارثين القبلي التركي والحضاري الاسلامي والبيزنطي وهدفوا منه شأنهم شأن اسلافهم السلاجقة والمغول ومعاصروهم التركمان والمماليك الحصول على خدمات حربية يقدمها المستفيدون من الاقطاع[٣٧] . ويتميز الاقطاع العثماني بانه يؤدي وظائف عديدة لاحصر لها وهذه الوظائف تتناول شؤون الادارة المحلية والمالية والاقتصاد (العمران) وتجهيز الفرسان للاغراض الحربية والامنية وتوطيد النظام والقانون والولاء السياسي والفرز الاجتماعي الطبقي او الطائفي او العشائري تبعاً لظروف الاقليم[٣٨] . ويمكن القول ان العثمانيين نجحوا في احتواء مزايا الأنماط الاقطاعية لاسلافهم ومعاصريهم ، كما حاولوا تجاوز نواقص وسلبيات تلك الانماط الاقطاعية والاساس في ذلك ليس منفعة صاحب الاقطاع بل منفعة الدولة اولاً ، لأجله كانت الرتبة العسكرية صفة ملازمة لارباب الاقطاع في النموذج العثماني . والرتبة العسكرية تكون عادة دالة على درجة الاقطاع كما ان درجة الاقطاع تكون عادة دالة على المرتبة العسكرية لصاحبه . فالاقطاع من درجة « خاص » الذي يزيد ايراده السنوي على (١٠٠) ألف اقجة مخصص للسلاطين والوزراء والامراء . اما الاقطاع من درجة « زعامت » الذي يعبر عن الاقطاعات المتوسطة ويتراوح ايراده السنوي بين (٢٠) ألف و(١٠٠) ألف أقجة مخصص لقادة الجيش «الزعماء» . وأخيراً فإن الاقطاع من درجة «تيمار» يعبر عن الاقطاعات الصغيرة التي يقل ايرادها السنوي عن (٢٠) ألف اقجة فإنه مخصص « للسباهيه » أي الفرسان[٣٩] . وعلى الرغم من ان « التيمار» يعبر عن ادنى درجة في نموذج الاقطاع العثماني فانه يستخدم احياناً للدلالة على الاقطاع العثماني من مختلف الدرجات . اما الفرسان الذين يجهزهم صاحب الاقطاع « التيمارجي » فإن عددهم يتناسب مع ايراد الاقطاع . فالآلاف الخمسة الاولى من كل اقطاع مكافئة لخدمة صاحب الاقطاع بوصفه « سباهياً » في حين يلزم صاحب الاقطاع بتجهيز عدد من الفرسان بمعدل فارس واحد مقابل كل (٣) آلاف اقجة اضافية من ايراد الاقطاع[٤٠] .

ومعروف ان فاعلية النظام الاقطاعي العثماني واكبت مرحلة قيام الدولة العثمانية واتساعها . وهذا يعني ان الفترة المثالية لدراسة النظام الاقطاعي العثماني بوصفه نظاماً جمع مزايا النظم الاقطاعية السابقة عليه هي العصر العثماني الاول الذي يمتد الى نهاية القرن السادس عشر[٤١] . وعملياً فإن منتصف القرن السادس عشر يعتبر بداية لحقبة طويلة من التراجعات والانحلال . في حين رصدت اولى الملاحظات عن خلل النظام الاقطاعي (توجيه التيمارات بالرشوة) في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) اي حوالي منتصف القرن السادس عشر. وقد تلا ذلك خلل آخر وهو اسناد التيمارات الى خدمة الوزراء خلافاً للقانون في عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥م) ثم بلغ الفساد ذروته فيما بعد حين اصبح باستطاعة ندماء السلطان اغتصاب القرى او التيمارات وتوزيعها على اتباعهم[٤٢] . وقد استغرقت عملية انحلال وتفسخ النظام الاقطاعي العثماني القرنين السابع عشر والثامن عشر. وفي حوالي منتصف القرن التاسع عشر اعلنت الدولة العثمانية قرارها الخطير بالغائه[٤٣] .

ان هذه الملاحظات السريعة عن النظام الاقطاعي العثماني لها اهمية كبيرة في معالجة مسألة تطبيق هذا النظام في الموصل. وهنا لابد من تسجيل الملاحظات الآتية :

١- كان للموصل تراث عريض من الممارسات الاقطاعية تتابعت وتداخلت فيها انماط الاقطاع الاداري واقطاع الضمان والاقطاع العسكري والتي ترجع اسبابها الى تقلب



كيانات سياسية على المنطقة من ناحية وتنوع التكوينات الاجتماعية الزراعية والقبلية فيها من ناحية اخرى[44] .

٢- ان النظام الاقطاعي العثماني تأسس اصلاً وسط ظروف اجتماعية واقتصادية ومكانية ملائمة. وهي ظروف القرية في الاناضول والروميللي التي تتميز بالحضور الدائم للسلطة المركزية ووفرة الامطار التي جعلت الاستقرار والزراعة ممكنة[45] .

٣- ان دخول الموصل تحت الحكم العثماني في اوائل القرن السادس عشر يعني تاريخياً مرحلة بداية تداعي النظام الاقطاعي نفسه.

وهذا فإن الانطباع الأولي لابد ان يعكس امكان تطبيق النظام الاقطاعي العثماني في الموصل. ولما كانت المهات السياسية الادارية بعداً مهماً من ابعاد النظام الاقطاعي العثماني بحكم كونها تمثل دالة مهمة على الدرجة الاقطاعية ، لذا اقتضت الضرورة البحث عن الواقع الاداري للموصل منذ دخولها تحت الحكم العثماني

وللصعوبات التي تواجه البحث في هذه النقطة تحديداً فقد تحقق في هذه الدراسة التوفيق بين مذكرات مأمون بك بن بيگه بك- وهو احد الامراء الاكراد المعاصرين للاحداث- والمعلومات التي نسبها لونكريك الى مصادره الاصلية. لقد وقعت الموصل اثناء حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد تحت تأثير نفوذ حسين بك داسني «سنجق بك» اربيل الذي كان يتصرف «بزعامة» ديار بكر[46] . وبعد انجاز السلطان لمهمته في بغداد قيل ان السلطان انعم بحكومة الموصل على «رجل مجرب من الرعايا.. من جزيرة أبن عمر». وفي سنة ١٥٣٩م ذكر ان سنان باشا الكبير تولى حكومة الموصل مدة عشرة اشهر!![47] ويستفاد من المعلومات الوثائقية المنسوبة الى دفاتر طابو الموصل للفترة (١٥٤٤- ١٥٤٩م) ان الموصل كانت سنة (١٥٤٩م) مركزاً لايالة مؤلفة من خمسة سناجق[48] . غير ان المعلومات التي يذكرها مأمون بك تظهر مركز الموصل هذا بوصفه قراراً مؤقتاً اتخذ بناءً على اقتراح عثمان باشا الجركسي «بكلربكي»- أمير أمراء- امارة قرة مان الأسبق تحقيقاً لخطة وضعها هذا الباشا هدفها استعادة شهرزور من السيطرة الصفوية. ولكن محاولة عثمان باشا لاستعادة شهرزور باءت بالفشل وتوفي قبل ان يدرك بغيته فاضطر السلطان الى إعادة المناطق المقتطعة من إيالة بغداد الى وضعها السابق[49] . ولايعرف على وجه الدقة : هل ان الموصل كانت جزءاً من ايالة بغداد ، ام انها كانت تتمتع بوضع خاص جعل منها اهلاً لتكون مركز ايالة تضم المناطق المتقطعة والتي وصفت بأنها شكلت حوالي نصف ايالة بغداد. وقد تلا الاجراء الاخير هذا «اعطاء الموصل الى أمير الجزيرة (؟) وذلك في سنة ١٥٥٣م»[50] .وعلى أية حال فالدلالات الاقطاعية لايالة الموصل المقترحة في مشروع عثمان باشا تمثلت بخمسة سناجق اقطاعية هي: أسكي موصل وتكريت وزاخو وعانة وكشاف[51] . والمفروض في ضوء هذه التقسيمات الاقطاعية ان جزءاً مهماً من المجهود الحربي الذي قام به عثمان باشا قد اعتمد على التجهيزات الاقطاعية المحلية. والملاحظ ان «ايالة الموصل» قد استقرت في درجتها الاقطاعية الجديدة هذه منذ سنة (١٥٧٧م) ولفترة طويلة لاحقة. ويستفاد من المعلوات الوثائقية انها قسمت الى ست اقطاعات من درجة خاص و (٢٧١) اقطاعاً من الزعامات والتيمارات. وان هذه الاقطاعات كانت مكلفة بتجهيز الفرسان وفقاً للصورة الآتية[52] :

- سنجق الموصل (١٣٨) سباهياً
- سنجق باجوانلو (٤٣) سباهياً
- سنجق هورن (٤٠) سباهياً
- سنجق عانة (٤٠) سباهياً
- سنجق تكريت (٤٠) سباهياً
- سنجق اسكي موصل بدون تجهيز

ومع ملاحظة ان تأسيس النظام الاقطاعي العثماني في الموصل قد واكب فترة انحسار دوره



العسكري ، لذا فان بوسعنا الافتراض ان التجهيزات الاقطاعية المشار اليها آنفاً ينبغي ان ينظر اليها في ضوء الدلالات الامنية المحلية لا الحربية التقليدية. والحق فإن من الصعوبة التصور بامكان تجهيز الفرسان الاقطاعيين طالما كانت «اوجاقات الانكشارية» قد فتحت أبوابها على مصاريعها لكل شخص حيث يقترن مثل هذا الانخراط بامتيازات لم يعد يحظى بها غيرهم من العساكر العثمانية(٥٣).

ومن المفيد ان نذكر في ضوء التقسيمات الاقطاعية المشار اليها ان عدداً من اقطاعات ايالة الموصل تركت بدون تجهيز لكونها مرتبطة بشخص الاقطاعي الذي يكون في الغالب زعيماً قبلياً. وفي هذه الحالة كما في الحالة التي تسند فيها الاقطاعات الى اقطاعيين غير قبليين كان بوسع السلطان او الصدر الاعظم سحب الاقطاع عندما تكون هناك اسباب موجبة لذلك(٥٤).

ان استيفاء موضوع الاقطاع العثماني ومظاهره الشكلية يستدعي الاشارة الى ان «الاقطاع الاداري» الذي كان سائداً في العهود السابقة والذي اصبح في العهد العثماني صيغة دالة على النمط الاقطاعي العثماني بنموذجيه «الاقطاع الحربي والاقطاع الشكلي» اتجه عموماً نحو التخلي عن نموذجه الاصلي وهو «الاقطاع الحربي» الى «الاقطاع الشكلي» بالنظر للتدهور العام من ناحية والاستجابة الى ظروف المناطق النائية من ناحية ثانية. وقد تطلب الاتجاه الجديد استحضار نموذج «اقطاع الضمان» — وهو نموذج موجود في الارث الاقطاعي للمنطقة — للمساعدة في ايجاد اسس مقبولة للاتجاه الجديد(٥٥).

ان منح الايالة «اقطاعاً ادارياً» بطريقة «الضمان المقطوع» استتبع بطبيعة الحال منح السناجق والاقطاعات من صنف الزعامة والتيمار بطريقة الضمان أيضاً. وتحقيقاً لدمج هذا الاتجاه الجديد بالنموذج الاقطاعي الاصلي «الاقطاع الحربي» كان يجري منح ارباب هذه الاقطاعات رتباً عسكرية تتراوح بين «الباشوية» و «البك» و «الاغا» تبعاً لدرجة الاقطاع «خاص»، «زعامت»، «تيمار» وقد عرف ملتزمو هذه الاقطاعات فيما بعد (نهاية القرن السابع عشر) باسم «ضباط المالكانات» حين استقرت الاقطاعات بحيازتهم وصارت تمنح لكل منهم مدى الحياة «مالكانة»(٥٦). ومفهوم ان هذا الاسلوب الذي كان سائداً في العراق بخاصة اكتفى بولاء صاحب الاقطاع وتعهده بضمان الامن في منطقته وقد ادى الى اهمال التعهدات الحربية ومن ثم زوالها(٥٧).

اما مضمون العلاقات الاقطاعية في النموذج العثماني للاقطاع فإنها تظهر في صورة عملية استغلال للفلاحين تمارسها العناصر المتصرفة بالاقطاع. ويتلخص مضمون الاستغلال الاقطاعي في حق الاقطاعيين من الزعماء والسباهية جباية الضرائب من الفلاحين في الزعمات والتيمارات وكذلك حق الملتزمين في الاقطاعات او «المالكانات» جباية الضرائب من الفلاحين ايضاً. كما تتضمن صورة الاستغلال الاقطاعي فروضاً وواجبات ورسوماً متعددة يبتزها الاقطاعيون وغالباً ما كانت تدفع طوعاً بوصفها تقاليد اقطاعية(٥٨). وقد اشارت وثيقة عثمانية عن ولاية الموصل الى اهم هذه الفروض والواجبات وكما يأتي(٥٩):

١ — حق التيمارجي في جزء من الحاصلات التي يساعد في نقلها الى السوق.
٢ — حق التيمارجي في الغنم السمينة التي ترعى في التيمار.
٣ — عقد نكاح اي شخص يوجب دفع «حق عروسية» للتيمارجي.
٤ — حق التيمارجي في جزء مما يطحن في طاحونة التيمار.
٥ — حق التيمارجي في قسم من البضائع والسلع التي تنقل عبر ارض تيماره.

ان ممارسة الاقطاعي تيمارجياً كان ام ملتزماً للامتيازات الاقطاعية كانت تزيد من معاناة الفلاح وقد اضطر الفلاحون الى الرضوخ لان



محاولات الفرار او الهجرة كانت تجابه بعنف وذلك لان القوانين العثمانية التي يعود تاريخها الى عهد سليمان القانوني قد حظرت على الفلاحين الهجرة واعطت الاقطاعيين حق اجبار المهاجرين على العودة الى التيمار والزامهم بتقديم العمل المجاني لقاء اكل بطونهم[٦٠].

كان ابرز اقطاعيي الموصل ينتمون الى الأسر البارزة التي مارست الحكم بمعرفة السلطات العثمانية فذكر مثلاً ان علي افندي بن مراد العمري المتوفى سنة (١٧٣٤م) تملك نصف قرى (جبل) مقلوب فضلاً عن قرى اخرى في تل اسقف ولواحقها: دير اسحق والعتبة وحسن شامي وقرية برطلة ولواحقها: الجنكجي وجام كرك وقرية انج قلعة وقرية الميان وخرابك وسندانك وغيرها. وذكر ايضاً ان الاراضي الواقعة في قرة قوش منحت من قبل الباب العالي للاسرة الجليلية في حين جرى الاستحواذ على اراضي جديدة واهمها نواحي الموصل الواقعة في شرق دجلة سنة (١٧٤٧م) من قبل مراد باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي[٦١].

إلغاء النظام الاقطاعي:

وفي القرن التاسع عشر (عهد التنظيمات العثمانية) كانت مسألة الغاء النظام الاقطاعي من القرارات المهمة التي اتخذتها الدولة العثمانية وقد جاء قرار الغاء النظام الاقطاعي بعد محاولات فاشلة لاصلاحه في السنوات ١٦٣٢م، ١٦٥١م، ١٧٧٧م[٦٢]. وكانت سمعة هذا النظام قد ساءت كثيراً منذ ان اظهرت هزيمة الجيوش العثمانية المؤلفة من الفرسان الاقطاعيين في الحصار الثاني لفينا سنة ١٦٨٣م عجز هذه القوات وعدم فاعليتها إذ كانت محاولات الاصلاح السابقة قد واجهت المقاومة من مختلف المنتفعين[٦٣]. وربطت بعض المصادر بين ثراء ونفوذ ارباب الاقطاع وبين الاجراءات الضريبية التي اتخذتها الدولة واخصها ضريبة «بدل التيمار» التي هدفت اساساً الحد من نفوذ الاقطاعيين[٦٤] وكانت الدولة قد اتجهت في القرن الثامن عشر الى منع اعادة منح الاقطاعات المنحلة الامر الذي ساعد على اعادتها الى الدولة[٦٥]. وفي لائحة خط شريف كولخانة سنة (١٨٣٩م) اعترفت الدولة العثمانية صراحة بفساد اسلوب الالتزام، وقد اتخذت اجراءات لاصلاح نظام الجباية في سنة (١٨٤٠م) و (١٨٥٤م) عهدت فيها الجباية الى الخزينة بوساطة الجباة والمحصلين الرسميين ولكنها مع ذلك لم تتخل عن الاسلوب المذكور نهائياً[٦٦].

وفي سنة (١٨٥٨م) اصدرت الدولة قانون الاراضي الجديد الذي نص على الغاء النظام الاقطاعي القديم واضعاً يد الدولة العثمانية على معظم اصناف الاراضي في البلاد العثمانية. وفي السنة التالية صدر قانون الطابو الذي اسس نظاماً لتفويض الاراضي الى طالبيها مقابل بدل المثل ثم تسجيلها في سجلات خاصة هي سجلات الطابو تحقيقاً لاهداف الاصلاح المنشودة بابعادها السياسية في تثبيت السلطة المركزية للدولة وابعادها الاقتصادية في توفير ظروف العمران الزراعي وابعادها الاجتماعية في تحقيق اسباب الاستقرار وازالة عوامل الاضطراب وبخاصة بين القبائل التي مازالت في حالة البداوة[٦٧].

تحقق شمول الموصل بخطط الاصلاح في سنة (١٨٧١م) في عهد ولاية مدحت باشا الذي منحته الدولة صلاحيات لتطبيق إجراءاتها الاصلاحية في سنجقي الموصل والبصرة المرتبطين بولاية بغداد.

ان السياسة العثمانية الجديدة في ابعادها القانونية - الاقتصادية ستعمل على تحديد أسماء المتصرفين بالأرض وتعيين حقوقهم التصرفية بدون اشتباك مع أية حقوق تصرفية اخرى مما يفسح المجال للاستثمار والعمران وفي ذلك تتحقق المنفعة للدولة وللافراد ولعموم المجتمع.

ومفهوم ان سياسة تفويض الارض ببدل المثل



ثم تسجيلها بالطابو يعني عملياً منح المتفوضين حق الملكية الصرفة اي ان الدولة ليس لها في هذه الارض غير ضريبة العشر فقط بينما يوفر للملاكين فرصة الاستثمار بالشكل المناسب. والملاحظ ان الهدف الاصلي لسياسة التفويض لم يتحقق ذلك لأن الفلاحين كانوا غير قادرين على استيعاب دوافع الخطة الجديدة وفوائدها بل ان الكثير منهم توجسوا خيفة منها. وهكذا لم يتقدم لشراء الاراضي «تفوضها» غير الوجهاء والبكوات واثرياء المدن وقد حل هؤلاء الذين صاروا يعرفون باسم «ملاكي الطابو» محل اولئك الاقطاعيين من ارباب الزعامة وأرباب الالتزام. كما استفاد العديد من الاقطاعيين القدامى من هذه الفرصة فأصبحوا جزءاً من طبقة «ملاكي الطابو» الجديدة (٦٨).

وقد ذكرت امثلة متعددة عن سياسة التفويض في الموصل فهناك اشارة الى تفويض وجهاء الموصل لمعظم القرى المحيطة بالموصل. وقد تراوح عدد القرى المسجلة باسماء كل من هؤلاء الوجهاء بين (٣) قرى و(٥٠) قرية. وذكر ان سيطرة هؤلاء امتدت الى قرى اليزيدية في الشيخان وسنجار(٦٩). وفي تلعفر سجل الاغوات المتنفذون فيها القرى المحيطة بالمدينة بأسمائهم ايضاً(٧٠). وفي جنوب الموصل تم تسجيل مساحات شاسعة من الاراضي الاميرية في منطقة الشرقاط وعلى امتداد نهر دجلة حتى الموصل باسم فرحان بن صفوك رئيس قبائل شمر الجربا ومنحته الدولة لقب «باشا» من اجل ان يعمل على استتباب الأمن في منطقته ويعمل على توجيه عشائره من تقاليد الغزو الى الاستقرار والزراعة(٧١). وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) سجلت مساحات شاسعة باسمه فاصبح اكبر ملاك طابو في الولاية(٧٢).

ان الوضع القانوني لهذه الطبقة الجديدة لايسمح باطلاق مصطلح الاقطاعيين عليهم وذلك لان النظام الاقطاعي قد تم الغاؤه منذ صدور قانون الاراضي (١٨٥٨م) وتطبيقه في الموصل (١٨٧١م)، غير ان بقاء علاقات الانتاج على وضعها القديم واحياناً تعرضها الى المزيد من التدهور في بعض المناطق جعل كثيراً ممن تصدوا لدراسة هذا الموضوع يميل الى وصف «ملاكي الطابو» بالاقطاعيين. كما ان عودة الدولة العثمانية الى تطبيق اسلوب الالتزام في الاراضي غير المفوضة من ناحية وبقاء العلاقات الابوية حتى بعد تسجيل الاراضي بالطابو، اسهم ايضاً في تقويم الواقع الجديد بوصفه واقعاً اقطاعياً.

وفي اوائل عهد الاحتلال رصدت بعض المصادر البريطانية الآثار الاقطاعية في الموصل الموروثة عن العهد العثماني فأشارت الى ظاهرة الملاكين الموصليين الغائبين وجلهم من وجهاء المدينة الذين استغلوا نظام الطابو للاحتيال على الفلاحين واغتصاب اراضيهم بتلفيق تهم القتل ضدهم او الرهونات او الوثائق المزورة او اغراقهم بالديون ومن ثم شراء اراضيهم باثمان بخسة تصل الى ربع قيمتها. اما علاقاتهم بالفلاحين الذين يعرفون عادة باسم «المربعجية» لتقاضيهم حصة تتراوح بين (١ / ٤) و(١ / ١٦) من المحصول ذلك لأن الملاك كان يمارس سلطة واسعة في تعيين الحصص وفي حالة رفض الفلاح فإن الملاك يقوم بطرده والتعاقد مع غيره. وقد ازداد نفوذ الملاكين في اواخر العهد العثماني باستخدام المكائن وبخاصة الحاصدات وبالاعتماد على دعم السلطة المحلية التي كانوا يلتجئون اليها لتحطيم شوكة الفلاحين عند الضرورة(٧٣).

والملاحظ ان تقاليد الفروض الاقطاعية الطوعية التي اعتادت عليها المنطقة منذ القديم حالت دون قيام وعي فلاحي بالمخاطر الناجمة عن سياسة التفويض، اما في وسط وجنوب العراق فقد كان على ملاكي الطابو اذابة العلاقات القبلية الابوية من اجل الاستئثار بريع الأرض مما لم يكن مقبولاً على الاطلاق فتزعم الرؤساء الصغار الانتفاضات الفلاحية ضد الملاكين واضطرت الدولة العثمانية الى ايقاف سياسة التفويض بينما استمرت عملية تسجيل الاراضي بالطابو في ولاية



الموصل حتى زوال الحكم العثماني[٧٤] .

لقد ايدت التقارير البريطانية هذه الحقيقة ، فأشارت مثلاً الى وجود «قضايا كثيرة جداً في جهات سنجار وتلعفر كانت تعرف بحصول غش فيها عند التسجيل ويقاوم تنفيذها – اعادة النظر في هذه القضايا – بحذر في الوقت الحاضر ضحاياها انفسهم»[٧٥] .

خاتمة :

ومعروف أن الادارة البريطانية التي انتقدت السياسة العثمانية تجاه مسألة الارض تعاملت معها من زاوية المصلحة البريطانية حسب ، فالبيان رقم (١٥) في ١٨ / كانون الاول / ١٩١٨ الخاص «بالاراضي الاميرية المتنازع فيها» اكد وجود حقوق تملك منحتها السلطات العثمانية لملاكي الطابو وبصورة غير قانونية الامر الذي كان سبباً لاثارة المشاكل مما يتطلب وضع نظام تسوية جديد. لقد اعطى هذا البيان توجيهاً للضباط البريطانيين بأن عليهم سماع تلك الدعاوى وتعيين الهيئة التي تفصل فيها[٧٦] أما البيان رقم (٥٤) الصادر سنة (١٩٢٠م) المعروف ببيان تحديد وتسجيل الاراضي فإنه قرر هدفه في اعادة فتح دائرة للطابو خاصة بالاراضي الزراعية تتولى تسجيل الاراضي بعد اجراء الاعمال اللازمة لتثبيت حدودها وحقوق التملك فيها وبعد تسوية الخلافات والمشكلات بمعرفة الضباط البريطانيين[٧٧] .

وفي دراسة سابقة لكاتب هذه السطور حاول تقويم الاسس التي قامت عليها التسويات التي انجزها البريطانيون فوجد أن نتائج التسويات اعتمدت على علاقة اطراف النزاع بالانكليز فكسب اعوان الانكليز قضاياهم التي كانت معلقة فترة طويلة بينما خسر مشايعو الاتراك او المعادون للانكليز او المشكوك بولائهم حقوقهم في الاراضي مهما كانت قوة الحجج والسندات التي تؤيدهم[٧٨] . وفي رأينا أن الاشارات الكثيرة التي اثبتتها التقارير البريطانية حول عدم شرعية عملية التسجيل التي انجزت لصالح وجهاء وملاكي الموصل في العهد العثماني مصدرها الرئيس موقف الموصل من الحكم البريطاني اثناء الاحتلال وبعده وليس ادل على ذلك من وجود ملاحظتين متناقضتين في تقرير واحد تؤكد الاولى على ضرورة تدقيق ظروف تسجيل الأراضي في الموصل في حين تؤكد الثانية على ان تبديد مخاوف الطبقة المتنفذة في السليمانية تطلب عدم ارسال سجلات الطابو الى بغداد حيث تكون عرضة للتدقيق غير الملائم للوضع ! ![٧٩]

وكان قيام الحكم الوطني وموقف الموصل في أثناء المشكلة التي اندلعت مع تركيا ظرفاً مناسباً لاعادة النظر في السياسة المطلوبة تجاه الوجهاء والملاكين في المدينة. وعندما اصدرت الحكومة العراقية قانوني التسوية واللزمة سنة (١٩٣٢م) وتعديلاتها تم من خلال محاكم التسوية تأكيد الشرعية القانونية للحجج القديمة العائدة للعهد العثماني وللادعاءات المستندة على التقادم في التصرف في ضوء مجموعة من الاعتبارات لعل من اهمها مراعاة ظروف النفوذ المحلي لاصحاب الحجج والادعاءات[٨٠] . وقد خلقت هذه السياسة ذعراً في اوساط الفلاحين الذين استجابوا لحركات رؤسائهم الصغار من اجل مقاومة هذه السياسة. ولعل من الشواهد البارزة على هذه الحركات في الموصل انتفاضة «البو متيوت» ضد شيوخ «شمر» الذين انجزت التسوية لصالحهم[٨١] .

ان من نافلة القول ان نشير اخيراً الى تعاظم شوكة هؤلاء الملاكين وتسلطهم بعد ان تعددت مواقعهم في الحكومة والبرلمان الامر الذي حمل الكثيرين على التشاؤم من إمكان تحقيق اصلاح للاوضاع في الريف والتي انعكست اثارها السلبية في جميع ثنايا المجتمع العراقي[٨٢] . لذا لم يكن من قبيل المصادفة ان يكون «الغاء الاقطاع» وتشريع قانون «الاصلاح الزراعي» احد المبادئ



والاهداف الرئيسة للثورة التي قامت في (١٤ تموز ١٩٥٨)[٨٣].

الهوامش

(١) للمزيد من الايضاح انظر: صلاح الدين الناهي، مقدمة في الاقطاع ونظام الاراضي في العراق، (بغداد ١٩٥٥)، ص ص ٥ - ٧.

(٢) للمزيد من التفصيل انظر: ني. أي. ياكوبسون، التركيب الاجتماعي للامبراطورية الاشورية: فصل من كتاب العراق القديم دراسة تحليلية للاحوال الاقتصادية بقلم جماعة من علماء الآثار السوفيت، ترجمة سليم طه التكريتي، دار الحرية (بغداد ١٩٧٩) ص ص ٤٢٣ - ٤٥١.

(٣) انظر: محمد رندمابيف، بلاد بابل في العهد الاخميني، فصل من كتاب العراق القديم، ص ص ٤٥٣ - ٤٧٥.

(٤) انظر: آرثر كريستنسن، ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، (بيروت -) ص ص ٢٠٨، ٢٤٦.

(٥) وتكون فيها رقبة الارض أي الملكية القانونية او الفقهية للارض بيد صاحبها. انظر الناهي، المصدر السابق، ص ٤.

(٦) انظر اصناف الاراضي العشرية في: أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم، كتاب الخراج، نشره قصي محب الدين الخطيب، ط ٥ (القاهرة ١٣٩٦هـ) ص ٧٥.

(٧) انظر اصناف الاراضي الخراجية في: ابو يوسف، المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٨) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، (بغداد ١٩٨١)، ص ص ٣٨١ - ٣٨٣.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

(١٠) ابو يوسف، المصدر السابق، ص ص ٤٠ - ٤١.

(١١) انظر نصائح ابو يوسف للخليفة هارون الرشيد. المصدر نفسه، ص ص ٥٢ - ٥٤، ٦٠ - ٦١.

(١٢) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط ٢ (بيروت ١٩٧٤) ص ص ١٨٤ - ١٨٥.

(١٣) قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص ص ١٧٥ - ١٧٦، ١٨٢ - ١٨٣.

(١٤) الدوري، المصدر نفسه، ص ٤٣.

(١٥) ابن جماعة الحموي، مستند الاجناد في آلات الجهاد، تحقيق اسامة ناصر النقشبندي، (بغداد ١٩٨٣) ص ص ١٢٩ - ١٣٠.

(١٦) انظر وقارن: الدوري، المصدر السابق، ص ص ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٥٨.

(١٧) عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة (بيروت ١٩٧٨) ص ص ٨٧، ٨٨.

(١٨) الفتح بن علي الاصفهاني، (مختصر) تاريخ دولة آل سلجوق لمؤلفه عماد الدين حامد الاصفهاني، (بيروت ١٩٧٨) ص ٦٠.

(١٩) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص ص ٩٥ - ٩٦.

(٢٠) وهذه الملاحظات تركها لنا مجد الدين النشابي الاربلي المتوفى سنة ٦٥٦هـ وكان شغل منصب كاتب الانشاء لحاكم اربل الملك المعظم مظفر الدين كوكبري. انظر: محمد بن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود (بغداد ١٩٨٠) ج ٢٠ ص ص ١٥٩، ١٦٢ - ١٦٣.

(٢١) يعقوب والمختص هما المشرفان على شؤون الديوان في اربل في عصر صاحب الملاحظات اعلاه.

(٢٢) ابن المستوفي، شرف الدين ابو البركات، تاريخ اربل المسمى نباهة البلد الخامل بمن ورده من الاماثل، تحقيق سامي بن السيد خماس الصقار، (بغداد ١٩٨٠) ج ١ ص ص ١٦٨ - ١٦٩، ٥٤٩، ج ٢ ص ٢٨٣.

(٢٣) ابن المستوفي، المصدر نفسه، ج ١ ص ٢٧٣.

(٢٤) نوري عبد الحميد خليل العاني، العراق في العهد الجلائري. ٧٣٨ - ٨١٤هـ / ١٣٣٧ - ١٤١١م دراسة في اوضاعه الادارية والاقتصادية (بغداد ١٩٨٦) ص ١٨٧.

(٢٥) العاني، المصدر نفسه، ص ١٨٧ وقارن مع الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص ص ٩٨ - ٩٩ حيث يذهب الى رأي مخالف اعتماداً على «صبح الاعشى».

(٢٦) عباس العزاوي، تاريخ الضرائب العراقية من صدر الاسلام الى آخر العهد العثماني، (بغداد ١٩٥٩) ص ٣٥.

(٢٧) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٣٥) ج ١ ص ٣٥١.

(٢٨) انظر:

S.M.Haider, Land Problems of Iraq, Unpublished theisis, London Uneversity London 1942, pp. 144 – 150;

العاني، المصدر السابق، ص ١٨٨.

(٢٩) العاني، المصدر نفسه، ص ٢٢٣ اعتماداً على المستوفي القزويني في كتابه «نزهة القلوب» وعبد الله المازندراني في كتابه «رسالة فلكية».

(٣٠) يعبر «السيورغال» عن الصك الذي يمنح بمقتضاه الشخص ترخيصاً لتحصيل راتبه مباشرة من الضرائب التي تؤديها قرية من القرى. اما «التيول» فتعبر عن التحصيلات نفسها. انظر: العاني، المصدر نفسه، ص ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٣١) المصدر نفسه، ص ص ١٩٠ - ١٩١.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

(٣٤) طارق الحمداني (دراسة وتحقيق)، التاريخ الغياثي: الفصل الخامس من سنة ٦٥٦هـ - ٨٩١هـ / ١٢٥٨م - ١٤٨٦م، لمؤلفه عبد الله بن فتح الله البغدادي الغياث (بغداد ١٩٧٥) ص ص ٢٤٨، ٢٩١ - ٢٩٢، ١٦٢.

(٣٥) انظر على سبيل المثال «كتاب التاريخ الغياثي» بوصفه مصدراً محلياً معاصراً للاحداث حافلاً بمثل تلك الاشارات.

(٣٦) الحمداني، المصدر نفسه، ص ٣٩٢.

(٣٧) حول الاقطاع المملوكي انظر للباحث: «ملاحظات حول

الاقطاع المملوكي في فلسطين، مجلة دراسات عربية، دار الطليعة بيروت العدد (٦) نيسان ١٩٨٢.

(٣٨) تابع هذه الوظائف في الفصل الاول من دراستنا: تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ١٩١٤- ١٩٣٢ ودراسة في التطورات العامة، دار الحرية (بغداد ١٩٧٨) ص ص ١٦ وما يليها.

(٣٩) احمد بن اسماعيل جودت باشا، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر الرنا (بيروت ١٣٠٨هـ) ج ١ ص ٩٩.

(٤٠) جنيّ. ديني J.Deny، مادة تيار، دائرة المعارف الاسلامية (طهران) ج ٩ ص ص ١٣١- ١٣٢، جودت، المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٤١) وصف جودت، المصدر نفسه، الصفحة نفسها القوات الاقطاعية انها كانت «القوة الجسيمة للدولة».

(٤٢) جودت، المصدر نفسه، ص ١١٢، ديني، المصدر السابق، ص ١٤٤، سوبرنهيم M.Sobernheim، مادة اقطاع، دائرة المعارف الاسلامية، ج ٢ ص ٤٨٠.

(٤٣) انظر مايلي ذلك في هذه الدراسة.

(٤٤) انظر ماسبق ذلك في هذه الدراسة.

(٤٥) انظر: Haider, Op. Cit., pp. 172— 173

(٤٦) مأمون بك بن بيكه بك، مذكرات مأمون بك بن بيكه بك، ترجمة محمد جميل الروزبياني وشكور مصطفى، الهيئة الكردية في المجمع العلمي العراقي، (بغداد ١٩٨٠) ص ص ٢٧- ٢٨.

(٤٧) ستيفن همسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر خياط، ط ٥ (بغداد د.ت) ص ص ٤١، ٥٤.

(٤٨) علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني (١٦٣٨- ١٧٥٠م) دراسة في احواله السياسية، (بغداد ١٩٨٥) ص ٢٣.

(٤٩) مأمون بك، المصدر السابق، ص ص ٧٤- ٧٥، ٧٨.

(٥٠) لونكريك، المصدر السابق، ص ص ٥٤- ٥٥.
لابد من لفت الانظار هنا الى ان العرض السريع لتباين مركز الموصل الاداري يعكس في دلالاته الاقطاعية تغلب درجة الموصل الاقطاعية لمدة عقود من الزمن قبل استقرارها في عهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) ولقرون عديدة لاحقة بصفتها احدى الايالات العثمانية.

(٥١) علي، المصدر السابق، ص ص ٢٣- ٢٤.

(٥٢) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط٣ (بيروت ١٩٦٥)، ملحق الكتاب اعتماداً على وثيقة عثمانية هي: رسالة عين علي افندي امين الدفتر الخاقاني سنة (١٦٠٩م) وعنوانها «قوانين آل عثمان فيما يتضمنه دفتر الديوان».
وقارن عدد الاقطاعات مع مايذكره:
Haider,Op. Cit., p. 174
الذي يجعلها (٢٧٤) اقطاعاً من درجة «زعامت وتيار» واعتماداً على اوليا جلبي يجعلها لونكريك، المصدر السابق ص ٤١ (٦٦) زعامة و (١٠٠٤) تياراً.

(٥٣) انظر: هملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الاسلامي والغرب ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى، (القاهرة ١٩٧١) ج ١ ص ٢٥٢.

(٥٤) كان السباهية يتمتعون وحدهم بحقوق وراثية في اقطاعاتهم. اما كبار المقطعين فكانوا يستحوذون على اقطاعاتهم بحكم وظائفهم بصورة مؤقتة. انظر: المصدر نفسه، ص ٧٦- ٧٧.

(٥٥) وتعرف هذه الاقطاعات بـ «السالیانات» وهي مرتبطة بمنصب الوالي لا بشخصه كما هو الحال في الاقطاع الحربي: انظر: ديني، المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٥٦) جب وبوون، المصدر السابق، ج ٢ ص ٨٨.

(٥٧) ومن المفهوم ان الباشوات كانوا يدعون بعضاً من هؤلاء عند الضرورة للاسهام في حملاتهم لقمع التمردات المحلية.
انظر كتابنا: تاريخ مشكلة الاراضي في العراق، ص ١٩. الحاشية رقم ٢٧.

(٥٨) انظر استنتاج ذلك في: جب وبوون، المصدر السابق، ج ٢ ص ص ٥٤- ٨٧ (الوضع الاقطاعي في الروملي والاناضول ودلالات ذلك في الولايات العربية في المصدر نفسه، ص ص ٨٧- ١١١.

(٥٩) عبد الرحمن وفيق، تكاليف قواعدي، برنجي طبعي (استانبول ١٣٢٨هـ) اينكي قسم ص ٣٦ (بالتركية).

(٦٠) جب وبوون، المصدر السابق، ص ص ٦٤، ٩١.

(٦١) سيار كوكب الجميل، الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي ١٧٢٦- ١٨٣٤، بحث مقدم الى ندوة الحياة الاجتماعية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني، الجزءان الاول والثاني جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، (زغوان ١٩٨٨) ص ص ٢٥٣- ٢٥٤.

(٦٢) ديني، المصدر السابق، ص ١٤٤،
Haider, Op. Cit., p. 170

(٦٣) انظر دراستنا: تاريخ مشكلة الاراضي في العراق، ص ٢٥ والحاشية (٥٥) في الصفحة نفسها.

(٦٤) عبد الحميد كمال، تطور التشريعات الملكية الزراعية في العراق، من تقارير الهيئة العربية للاصلاح الزراعي، ارشيف وزارة الزراعة (بالرونيو) ص ٦. انظر ايضاً عرضاً مماثلاً في كتابنا: تاريخ مشكلة الاراضي في العراق، ص ص ٢٤- ٢٥.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٦٦) دولة علية عثمانية، الدستور (مجموعة الانظمة الصادرة في الدولة العثمانية)، ترجمة نوفل نعمة الله نوفل، (بيروت ١٣٠١هـ) المقدمة، وانظر عرضاً لاجراءات اصلاح نظام الجباية في كتابنا: الاوضاع الاقطاعية في فلسطين في العصر الحديث، مطبعة جامعة بغداد (بغداد ١٩٨٣)، ص ص ١٢٧-١٢٨.

(٦٧) انظر نص قانوني الاراضي والطابو في كتاب: الدستور، ص ص ١٤- ٤٣، ٤٤، ٥١، وانظر تقويم لبعض الابعاد العامة لهذين القانونين في تاريخ مشكلة الاراضي في العراق، ص ص ٢٧- ٢٨، ٣٠، ٣٦.

(٦٨) المصدر نفسه، ص ص ٣٤- ٤١.

(٦٩) ابراهيم خليل أحمد «اوضاع ولاية الموصل الاقتصادية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن



المشرين»، مجلة آداب الرافدين العدد (٧) (١٩٧٦) ص ص ٢١٩ ٤٢، ولاغراض البحث ص ص ٢٢٦ – ٢٢٧.
(٧٠) ابراهيم خليل أحمد، المصدر نفسه، ص ٢٢٧.
(٧١) لونكريك، المصدر السابق، ص ٣١٢.
(٧٢) Haider, Op. Cit., pp. 417 – 420
(٧٣) المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر خياط، ط ٢ (بيروت ١٩٧١)، ص ص ١٦٩ – ١٧٠، ١٧٤.
(٧٤) انظر: تاريخ مشكلة الاراضي في العراق، ص ٨٠، ٤١.
(٧٥) بيل، المصدر السابق، ص ١٧١.
(٧٦) القيادة العامة لقوات الحملة البريطانية، مجموعة البيانات والاعلانات وغيرها التي هي الآن نافذة والمتعلقة باهالي العراق وادارتها الملكية من ١١/ ٣/ ١٩١٧ الى ٣٠/ ٩/ ١٩٢٠ المصدرة من القائد العام او بتفويض منه، مطبعة الحكومة (بغداد ١٩٢١)، ص ص ١٤ وما يليها.
(٧٧) المصدر نفسه، ص ص ٢٢٩ – ٢٣٧.
(٧٨) تاريخ مشكلة الاراضي في العراق، ص ص ١٨٢ – ١٨٣.
(٧٩) بيل، المصدر السابق، ص ص ١٧١، ١٩٦ – ١٩٧.
(٨٠) انظر للباحث: تاريخ مشكلة الاراضي والاصلاح الزراعي في العراق ١٩٣٣ – ١٩٧٠، اطروحة دكتوراه غير منشورة كلية الاداب جامعة بغداد ١٩٨٢، ص ص ١٨٠ وما يليها.
(٨١) نشرت اخبار هذه الانتفاضة في: جريدة صوت الاهالي، العدد الصادر في: ٣/ أيلول/ ١٩٤٦.
(٨٢) تابع ذلك في رسالتنا للدكتوراه: المصدر السابق، ص ص ٩٤ – ١٧٧.
(٨٣) انظر: المصدر السابق، ص ص ٣٠٠ – ٣٠١ وانظر: فاضل حسين، سقوط النظام الملكي في العراق ط ١ (القاهرة ١٩٧٤)، ص ٧١.

النظام المالي

أ. د. خليل علي مراد

لم يُدرس موضوع النظام المالي في الموصل ابان عهد السيطرة العثمانية ١٥١٥–١٩١٨م دراسة شاملة وافية لحد الآن. وهذا الفصل من الموسوعة محاولة للاحاطة بجوانب هذا النظام من خلال دراسة ثلاثة محاور اساسية فيه وهي: النظام النقدي، والضرائب، والميزانية والنفقات العامة. وتجدر الاشارة الى اننا لم نتطرق في هذا الفصل الى موضوع الجهاز الاداري العثماني في الموصل لانه دُرس ضمن فصل آخر من هذه الموسوعة وهو الفصل الخاص بدراسة التقسيمات والتنظيمات الادارية العثمانية في الموصل. ولكننا تطرقنا، حيثما تطلبت الضرورة ذلك، في هذا الفصل الى الموضوع على نحو مقتضب.

١ – النظام النقدي (السكة والنقود):

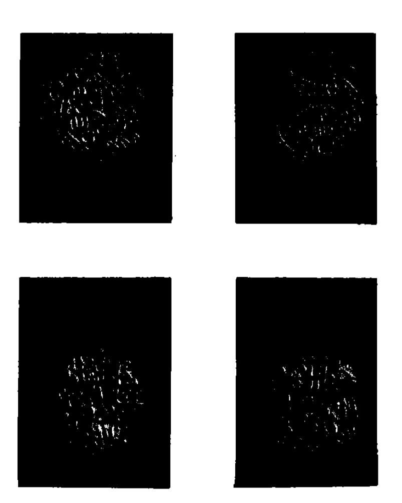
ان معلوماتنا عن سك النقود في الموصل ابان عهد السيطرة العثمانية تكاد تكون معدومة. اذ لاتتوافر لدينا سوى اشارة واحدة عن وجود دار لسك النقود في الموصل في مطلع ذلك العهد لكنها ما لبثت ان توقفت عن العمل سنة ١٥٨٠م.[١] واصبحت الموصل تعتمد على النقود المسكوكة في بغداد،[٢] ومن ثم العاصمة استانبول وبعض المدن الكبرى في بلاد الشام ومصر.[٣]

كانت النقود المتداولة في الموصل ابان العهد المذكور على نوعين، اولها النقود العثمانية التي كانت الاساس المعترف به في جميع المعاملات، وثانيها بعض النقود الاجنبية التي اقتصر استعمالها على بعض المعاملات التجارية فقط مثل العباسي والتومان من بلاد فارس والروبية الهندية.[٤] ويبدو ان استعمال النقود الاجنبية في الموصل كان في نطاق ضيق جداً، وربما يرجع ذلك الى حقيقة ان علاقات الموصل التجارية الرئيسة في تلك الفترة كانت مع مناطق عثمانية مثل ولايات بغداد وحلب وغيرها من ولايات الاناضول العثمانية. وبناءً على ذلك يمكن القول ان النقود العثمانية الرسمية كانت اساساً لمعظم العمليات التجارية فضلاً عن كونها

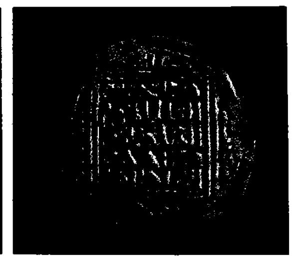


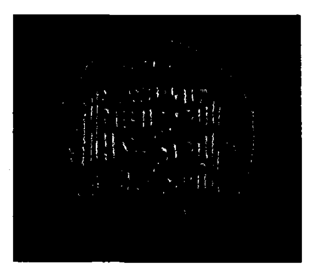
الاساس المعترف به في جميع المعاملات الرسمية وحسابات الدولة في ولاية الموصل.

يمكن تمييز مرحلتين رئيستين في تاريخ النظام النقدي العثماني في ولاية الموصل، تبدأ المرحلة الاولى منذ احتلال العثمانيين لها سنة ١٥١٦م وتنتهي عند سنة ١٨٤٠م. اما المرحلة الثانية فتبدأ باصلاح النظام النقدي في الدولة العثمانية سنة ١٨٤٠م وتنتهي عند سنة ١٩١٨م، وهي السنة التي انسحب فيها العثمانيون من الموصل. وفي كلتا المرحلتين كانت هناك نقود فضية وذهبية ونحاسية، اما النقد الورقي فقد تأخر صدوره حتى سنة ١٩١٤م عندما اصدرت الدولة العثمانية الليرة الورقية التي لم تلق رواجاً يُذكر.



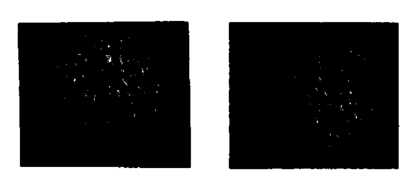
نقود عثمانية ذهبية





نقود عثمانية ذهبية

بعد ان فرض العثمانيون سيطرتهم على الموصل سنة ١٥١٦م دخلت النقود العثمانية قيد التداول فيها. وكانت الآقجة[٥] اول نقد فضي عثماني يتم تداولها في الموصل على الارجح، وقد عُرفت في الموصل باسم درهم أو صاغة.[٦] والآقجة أقدم عملة عثمانية معروفة اذ يرجع تاريخ سكها الى سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨- ١٣٢٩م.[٧] واصبحت وحدة النقد القياسية في الدولة العثمانية حتى النصف الاول من القرن السابع عشر. وقد سكت في البداية بعيار ٩٠٪ وبوزن ٦ قراريط أناضولية، اي ربع مثقال.[٨] وقد تعرض وزن الآقجة وعيارها الى انخفاض مستمر. فقد انخفض وزنها الى قيراط وربع سنة ١٦٤٨م، ثم الى نصف قيراط سنة ١٨١٨م، كما انخفض عيارها الى ٧٠٪ ثم الى ٤٦٪ في التأريخين المذكورين.[٩] ومع ان سك هذه العملة قد توقف سنة ١٨٢٧م فان العرف جرىٰ في ولاية الموصل على اعتبارها في امور الوقف سهاماً يُحسب مقابلها حسب الوارد دون ان يكون لها علاقة بوزن الفضة أو قيمتها.[١٠]



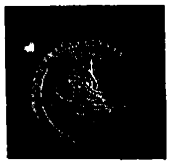
نقود عثمانية ذهبية



بعد الآقجة أصبحت البارة [11] وحدة النقد القياسية في الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر.[12] وقد استخدمت البارة، وهي عملة فضية ايضاً، في ولاية الموصل وبقية الولايات العراقية والعربية منذ القرن السادس عشر ايضاً، وعرفت في الموصل باسم «مصرية» وكانت تعادل ثلاث آقجات.[13] وقد بلغ وزن البارة في نهاية القرن السابع عشر ٠,٧٠٧ غراماً فقط بعيار ٧٠٪.[14]

وفي ذلك الوقت، اي نهاية القرن السابع عشر، دخلت التداول عملة عثمانية فضية جديدة هي القرش.[15] ففي سنة ١٦٨٨م بدأت الدولة العثمانية بسك هذه العملة الجديدة بوزن ٦ دراهم، اي ٩٦ قيراطاً.[16] ومع ان وزن العملة الجديدة هذه ارتفع الى ٨ دراهم، اي ١٢٨ قيراطاً، بعيار



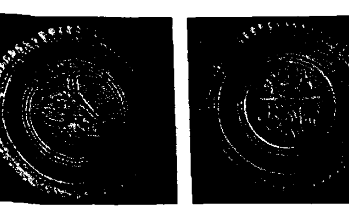


نقود عثمانية ذهبية

٦٠٪ في عهد السلطان احمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م) الا انها بدأت بالانخفاض بعد ذلك الى ان بلغ وزنها ١٦ قيراطاً فقط وعيارها ١٧٪ فقط في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م).[17] وكانت قيمة القرش قد ثبتت في البداية بما يعادل ٤٠ بارة، أي ١٢٠ آقجة.[18] وقد عُرف هذا القرش في الموصل باسم «قرش صاغ» أي القرش الصحيح تمييزاً له عن «القرش الرايج» أو «القرش الموصلي» الذي ورد ذكره في بعض وقفيات الموصل وكان يعادل ١٠ بارات، أي ٣٠ آقجة فقط.[19] كما شاع استعمال قرش آخر في الموصل عُرف باسم «قرش بغدادي» وكان يعادل ٥٥ بارة أي ١٦٥ آقجة، وقد بطل التعامل به في الموصل منذ سنة ١٧٨٧م بسبب الانخفاض المستمر في قيمته وحلت محله عملة فضية أخرىٰ هي الريال.[20] وقد عرفت العملة الاخيرة باسم الريال العتيق او الحميدي نسبة الى السلطان عبدالحميد الاول (١٧٧٣-١٧٨٩م)، كما اطلق عليه اسم «الطمشلق» ايضا وهي كلمة تركية تعني الستيني اذ كان الريال يعادل ٦٠ بارة اي ١٨٠ آقجة.[21]

ومن العملات الفضية العثمانية التي كانت قيد التداول في الموصل ايضا في القرن الثامن عشر الزلطة[22]. ويختلف الباحثون في تحديد تأريخ سك هذه العملة فمنهم من يجعلها سنة ١٦٩٤م او سنة ١٦٩٨م او ١٧٠٤م.[23] وكانت الزلطة تعادل ثلاثة ارباع القرش الصاغ حيث كانت تعادل ٣٠بارة اي ٩٠آقجة.[24] وقد عرفت في الموصل باسم «قرش زولط».[25] كما ورد ذكرها في جباية بعض الضرائب في الموصل في اواخر القرن الثامن عشر.[26]

وفضلاً عن العملات الفضية العثمانية شاع في الموصل استخدام النقد الذهبي العثماني ايضا. وقد عُرف النقد الذهبي العثماني في الموصل باسم «زِر



نقود عثمانية ذهبية

محبوب» والتي تعني في التركية والفارسية «ذهب محبوب»، اما في بلاد الشام فقد عُرف باسم «الذهب المحبوب السلطاني».[27]

وقد اشار الرحالة الدانمركي كارستن نيبور «C.Niebuhr» الذي زار الموصل سنة ١٧٦٦م الى



هذا النقد الذهبي عند حديثه عن الجزية التي يدفعها النصارىٰ واليهود فيها.[٢٨] وقد أُطلقت تسمية «زِر محبوب» على كافة العملات الذهبية العثمانية التي سُكت في عهد السلاطين مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣م) ومصطفىٰ الثالث (١٧٥٧- ١٧٧٣م) وسليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) وغيرهم، وكانت تُنسب اليهم فيقال «زر محبوب مصطفاوي» أو «زر محبوب سليمي» وهكذا.[٢٩] ولاتتوافر لدينا معلومات عن قيمة هذه العملة ووزنها وعيارها باستثناء معلومة واحدة تشير الى ان كل ٢٠ قطعة منها كانت تعادل حوالي ٧ جنيهات و١٠ شلنات انكليزية في العراق سنة ١٧٧١م.[٣٠]

وأخيراً كانت هناك عملة نحاسية عثمانية صغيرة في الموصل وردت باسم «منقير» تارةً و«منقور» تارةً أخرىٰ في الوثائق الخاصة بالتنظيمات المالية العثمانية في ولاية الموصل في القرن السادس عشر. وكانت هذه العملة تعادل $\frac{١}{٨}$ آقجة في الموصل في ذلك القرن.[٣١] وقد تغيرت قيمة العملة النحاسية بالنسبة للآقجة مع الانخفاض المستمر في قيمة الأخيرة، بحيث اصبحت تعادل $\frac{١}{٤}$ آقجة في اواخر القرن السابع عشر.[٣٢] ويعني هذا ان المنقير او المنقور هو العملة النحاسية نفسها التي عُرفت باسم «فلس» في الموصل ابان القرن الثامن عشر، اذ كانت كل اربعة فلوس تعادل صاغة أي آقجة واحدة.[٣٣]

ان ما كان يميز النقود العثمانية، الفضية منها بصورة خاصة، هو الانخفاض المستمر في وزنها وعيارها وبالتالي قيمتها الحقيقية. وقد اتضح ذلك من خلال تبديل وحدة النقد القياسية باستمرار من الآقجة الى البارة ثم الى القرش.[٣٤] ولاشك ان هذا الانخفاض المستمر في قيمة النقد العثماني كان يعكس الوضع الاقتصادي المتدهور للدولة العثمانية. وقد اصبح الانخفاض في قيمة العملة العثمانية شديداً خلال الفترة الممتدة بين سنة ١٧٧٤م و١٨٢٩م عندما تعرضت الدولة العثمانية الى سلسلة من الهزائم العسكرية على يد روسيا القيصرية. واعقب ذلك انخفاض آخر في منتصف ثلاثينات القرن التاسع عشر بحيث انخفضت قيمة العملة الرسمية العثمانية الى نسبة الثلثين في سوق التبادل مع العملات الاجنبية. فعلى سبيل المثال كانت قيمة التالر الاسباني ٧ قروش عثمانية سنة ١٨٢٤م بينما أصبحت تعادل ٢١ قرشاً سنة ١٨٣٦م[٣٥].

حاولت الدولة العثمانية اصلاح نظامها النقدي المتدهور باتخاذ اكثر من خطوة. ففي ٢٦ صفر ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م صدر قانون اصلاح النظام النقدي الذي اكد على مراعاة المصلحة العامة في هذا الشأن، وذلك بالزام دائرة سك النقود «الضربخانة» بتصحيح العيارات وتعيين الاوزان واستخدام الالآت الحديثة في سك النقود، وان لايكون هدفها من وراء ذلك تحقيق اية مكاسب مالية، وان يكون عملها مقتصراً على مراعاة قيمة الذهب والفضة ومصاريف السك فقط.[٣٦] وفي سنة ١٨٤٤م بدأت الخطوات العملية لتطبيق هذا النظام. فقد تم استبدال العملة الفضية القديمة التي فقدت قيمتها بالمجيدي الجديد، كما سُكت عملات معدنية من فئاتٍ أقل.[٣٧] وعلى اية حال فان هذا الاجراء لم يوقف الانخفاض المستمر في قيمة العملات العثمانية ومنها القرش المجيدي الجديد. فاضطرت الدولة الى اصدار قرار آخر في سنة ١٨٨٠م تم بموجبه اتخاذ الليرة العثمانية الذهبية التي تعادل ١٠٠ قرش وحدة نقد قياسية بدلاً من القرش.[٣٨] ومع ذلك بقي القرش وحدة نقد قياسية في ولايات الدولة، واستخدم ايضا كوحدة حساب حكومي.[٣٩]

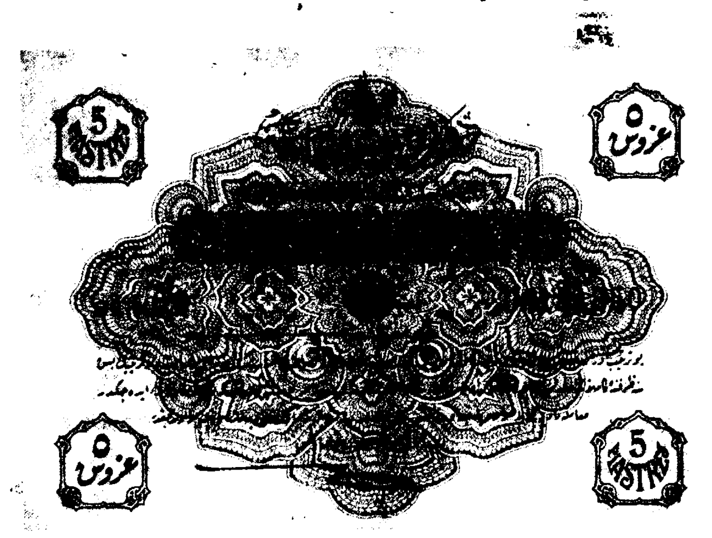
منذ بدء الخطوات العملية لتحقيق الاصلاح النقدي سنة ١٨٤٤م حلت العملات العثمانية



الجديدة محل العملات القديمة في جميع ولايات الدولة العثمانية، بما في ذلك ولاية الموصل. وكانت العملة الذهبية في النظام النقدي الجديد هي الليرة التي كانت تسمى «عثماني التون» اي الذهب العثماني، وكانت تعادل ١٠٠ قرش في البداية. وقد سكت منها خمس فئات هي فئة ٥ ليرات و٢,٥ ليرة وليرة واحدة و $\frac{١}{١٠}$ ليرة و $\frac{١}{٢٠}$ ليرة. اما العملة الفضية الجديدة التي عُرفت باسم «المجيدي»، نسبة الى السلطان عبدالمجيد الاول (١٨٣٩-١٨٦١م)، فكانت ذات خمس فئات ايضا وهي المجيدي الذي يساوي ٢٠ قرشاً ونصف مجيدي وربع مجيدي و $\frac{١}{١٠}$ مجيدي و $\frac{١}{٢٠}$ مجيدي. اما القروش فقد سكت منها فئة قرش واحد يعادل ٤٠ بارة وفئة قرشين (=٨٠بارة) ونصف قرش (٢٠ بارة) وكانت الاخيرة تعرف باسم «يرملك» وهي كلمة تركية تعني «العشريني». كما سُكت عملة فضية أصغر هي المتليك من فئة $\frac{١}{٢}$ قرش و $\frac{١}{٤}$ قرش و $\frac{١}{٨}$ قرش. وقد استبدل هذا المتليك الفضي بآخر نحاسي بعد سنة ١٩١٠م.[٤٠] وهذا المتليك هو العملة نفسها التي اشار اليها ستيفن همسلي لونكريك «S.H. Longrigg» باسم القرش النحاسي عند حديثه عن العملات المتداولة في العراق في بداية القرن العشرين.[٤١]

ان ظاهرة انخفاض قيمة العملات العثمانية استمرت حتى بعد الاصلاح النقدي لان الوضع الاقتصادي للدولة العثمانية استمر في التدهور. وتتضح هذه الظاهرة عند مقارنة قيمة الليرة الذهبية بالقرش الفضي. فقد كانت الليرة تعادل ١٠٠ قرش في البداية، ثم عُدلت قيمتها بعد انقلاب الاتحاديين سنة ١٩٠٨م الى ١٠٢ قرش و ٢٤ بارة.[٤٢] اما في التعامل بين الناس اي في السوق فان قيمة الليرة وصلت الى ١٠٨ قروش او اكثر.[٤٣]

ومع قيام الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤م اصدرت الحكومة العثمانية ليرة ورقية، ووعدت بان ترفع قيمتها بما يساوي قيمة الليرة الذهبية ان هي خرجت من الحرب منتصرة. الا ان العملة الورقية لم



نقد ورقي عثماني من فئة (٥) قروش

تلق رواجاً في ولاياتها اذ كانت قيمتها هناك تتراوح بين ١٠٪ و١٢٪ من قيمتها المقررة.[٤٤] ولاشك ان ذلك كان تعبيراً عن ضعف الثقة من جانب سكان هذه الولايات في الدولة العثمانية ووضعها الاقتصادي.

٢ - الضرائب :

ابدى العثمانيون اهتماماً خاصاً بموضوع الضرائب وجبايتها في المناطق التي خضعت لسيطرتهم. ذلك ان الضرائب كانت المورد الأساس الوحيد لخزينة الدولة، فضلاً عن انها دليل اعتراف بالسيادة العثمانية من جانب الذين يدفعونها.[٤٥]

فرض العثمانيون ضرائب عدة في ولاية الموصل، شأنها في ذلك شأن سائر ولايات الدولة العثمانية. وقد بقيت هذه الضرائب دون تغيير مهم يُذكر حتى عهد الاصلاحات العثمانية «التنظيمات» في القرن التاسع عشر.[٤٦] وكانت بعض هذه الضرائب معروفة في الدول الاسلامية التي سبقت العثمانيين مثل العشر والجزية ورسوم المواشي، وعُرفت هذه لدى العثمانيين باسم الضرائب الشرعية «تكاليفي شرعية». اما الضرائب الاخرى التي استحدثها العثمانيون فقد عُرفت باسم الضرائب العرفية «تكاليفي عرفية».[٤٧]

كانت ضريبة العشر المعروفة احدى اهم الضرائب في ولاية الموصل وقد فُرضت على ما تنتجه الارض الزراعية من الغلة سنوياً. الا ان النسبة الفعلية لهذه الضريبة لم تكن تنطبق على تسميتها. فقد كانت نسبة ضريبة العشر على انتاج الحنطة والشعير في ولاية الموصل تبلغ $\frac{1}{5}$ الحاصل واشجار الفواكه $\frac{1}{7}$ الحاصل والخضراوات $\frac{1}{10}$ الحاصل. كما انها قُدرت نقداً على محاصيل زراعية اخرى، فعلى سبيل المثال قدرت ضريبة العشر على انتاج الكروم بنسبة تتراوح بين ٤٪ و٦٪ من قيمة الحاصل.[٤٨] ولاتتوافر في الوقت الحاضر ارقام حول مجموع ايرادات ضريبة العشر في الموصل باستثناء بعض الارقام عن نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين والتي سنذكرها لاحقاً.

اما ضريبة الجزية فقد فرضت على غير المسلمين من نصارى ويهود ويزيديين في ولاية الموصل. وقد حُددت هذه الضريبة بمقدار ٢٤٠ آقجة على كل فرد سنوياً، ثم أُعيد النظر فيها سنة ١٦٩٤م عندما حُددت بنسب مختلفة على الاغنياء ومتوسطي الحال والفقراء حيث اصبح الغني يدفع اربع قطع ذهبية ومتوسط الحال قطعتين والفقير قطعة واحدة.[٤٩] اما رجال الدين والشيوخ والعجزة فقد استثنوا من دفعها. وقد أيد الرحالة نيبور دفع الجزية في الموصل وفق هذه النسب الجديدة عندما زارها سنة ١٧٦٦م وبان مجموع ايرادات هذه الضريبة كانت تبلغ ٣٠ كيساً (الكيس= ٥٠٠ قرش) سنوياً.[٥٠]

وكانت ضرائب المواشي في الموصل متعددة ايضا ومنها رسم الاغنام ومقدارها آقجة واحدة على كل رأسين منها ورسم الجاموس ومقدارها ٢٢ آقجة عن كل رأس منها وضريبة رعي الاغنام ومقدارها رأس واحد عن كل قطيع، بحساب القطيع ٣٠٠ رأس.[٥١]

اما ضرائب الاسواق والتجارة فكانت تشكل هي الأخرى مورداً مهماً من ايرادات ولاية الموصل. واهمها ضريبتا التمغا والباج. وكانت الاولى تفرض على مايباع في اسواق المدينة، اما الثانية فكانت تفرض على مرور السلع والمنتجات المختلفة بالمدينة. وكانت ضريبة التمغا تبلغ ضعف ضريبة الباج. فعلى سبيل المثال كانت ضريبة التمغا على النيلة تبلغ ٦٪ من قيمتها والباج ٣٪ من قيمتها، وتبلغ ضريبة التمغا على العباءة الواحدة آقجة واحدة والباج نصف آقجة وهكذا.[٥٢] ولم تكن هناك



قاعدة واحدة لتقدير نسب هاتين الضريبتين، فقد يتم تقديرها حسب العدد او الوزن او حمولة الجمال والبغال.[٥٣] وتعطينا بعض الوثائق فكرة عن ايرادات خزينة الولاية من بعض هذه الضرائب التي كانت جبايتها تُعهد الى الملتزمين. فقد بلغ التزام ضريبة التمغا عن سوق الخيل وسوق الغزل، اي سوق بيع القطن وما يتعلق به، في مدينة الموصل مبلغاً قدره ٤٨٠٠ قرش سنة ١٧٧٥م.[٥٤] ومن ضرائب الاسواق ايضا ضريبة الاحتساب، ولاتعطينا المصادر فكرة واضحة عنها باستثناء الاشارة الى انها كانت تتألف من رسوم تسعير بعض السلع والمنتجات والغرامات المفروضة على المتلاعبين بالاسعار ورسم زهيد عن عمليات البيع والوزن.[٥٥] وقد بلغ التزام رسوم الاحتساب في الموصل مبلغاً قدره ٤٠٠٠ قرش سنة ١٧٦٤م.[٥٦]

فضلاً عن الضرائب السابقة ابتدع العثمانيون ضرائب ورسوماً اخرى خصصت ايراداتها للحائزين على الاقطاعات العسكرية العثمانية في الموصل. فقد طبق العثمانيون اسلوب الاقطاع العسكري في ولاية الموصل حيث قُسمت المناطق الزراعية الى اقطاعات سُجلت بأسماء الجنود والضباط والقادة العسكريين. وكان هؤلاء يستحصلون ايرادات هذه المناطق من الضرائب والرسوم بدلاً من استلام الرواتب من الدولة. وقد قُسمت هذه الاقطاعات الى ثلاثة انواع حسب ايرادها السنوي، النوع الاول اقطاع التيمار الذي يُمنح لصغار الجنود ويقل ايراده السنوي عن ٢٠٠٠٠ آقجة، واقطاع الزعامت (من كلمة زعامة العربية) الذي يُمنح للضباط ويتراوح ايراده السنوي بين ٢٠,٠٠٠ و٩٩,٩٩٩ آقجة، واقطاع «الخاص» الذي يمنح لكبار القادة العسكريين والولاة ويتجاوز ايراده السنوي ١٠٠,٠٠٠ آقجة.[٥٧] وتذكر بعض المصادر وجود ٤٩٠ اقطاعاً عسكرياً في ولاية الموصل في منتصف القرن السابع عشر.[٥٨]

ان اهم الضرائب التي كانت تدفع للحائزين على الاقطاعات العسكرية هي ضريبة الفلاح المتزوج (بناك) والفلاح الاعزب (مُجرّد)، وكانت الاولى تبلغ ١٢ آقجة سنوياً والثانية ٦ آقجات سنوياً.[٥٩] وكانت هذه الضريبة تُجبىٰ بهذا المقدار في بعض مناطق ولاية الموصل وبمقادير اكبر بكثير في مناطق اخرىٰ ضمن الولاية ذاتها.[٦٠] ومن ضمن الضرائب الاقطاعية ايضاً (رسم العروس) بمقدار ٦٠ آقجة على زواج البنت الباكر و٣٠ آقجة على زواج المرأة الثيب. وكان هذا الرسم يُقسم مناصفة بين الحائز على الاقطاع العسكري وبين امير اللواء (سنجق بك) الذي يقع الاقطاع العسكري ضمن الحدود الادارية للوائه.[٦١] وضريبة الحقل (چفت رسمي) ومقدارها ٥٠ آقجة يدفعها الفلاح عند حصوله على قطعة ارض زراعية، وضريبة استضافة صاحب الاقطاع (رسم اركاديه) ومقدارها ٦ آقجات سنوياً.[٦٢] وضريبة الطواحين (دَكِرْمَنْ رسمي) ومقدارها ٦٠ آقجة على الطاحونة التي تعمل طيلة السنة و٣٠ آقجة على الطاحونة التي تعمل مدة ستة اشهر و ١٥ آقجة لتلك التي تعمل ثلاثة اشهر من السنة فقط[٦٣] ورسم النحل (زنبور رسمي) التي فرضت على خلايا نحل العسل.[٦٤]

والى جانب الضرائب السابقة الذكر والتي يمكن تسميتها بالضرائب والرسوم الثابتة لانها ثبتت نسبها في التنظيمات المالية العثمانية الخاصة بالموصل، كانت هناك ضرائب اخرى لاتخضع في تنظيمها لقاعدة محددة ثابتة. ومنها بعض الضرائب والرسوم التي فرضتها سلطات ولاية الموصل على سكان بعض القرىٰ وعلى العشائر التي تمتهن الرعي. فقد كان على القرىٰ المعروفة بانتاج المنسوجات تقديم كمية من انتاجها الى سلطات ولاية الموصل سنوياً. وكان شيخ قبيلة طي يقدم



مبلغاً سنوياً يتراوح بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ قرش الى تلك السلطات، كما دفعت عشيرة الجحيش مبلغاً قدره ١٥٠٠ قرش الى خزينة الموصل سنة ١٨١٦م، في حين فُرض على شيوخ عشيرة الشرابيين تقديم كمية من السمن تقدر بمائة مَنْ[٦٥] في شهر جمادىٰ الآخرة من كل سنة الى مطبخ والي الموصل.[٦٦]

وهناك ضرائب اخرى يمكن تسميتها بالضرائب الطارئة، ففي اوقات الحرب كان على سكان الموصل كسائر مدن الدولة العثمانية، دفع مبالغ معينة على شكل تبرعات عادةً لتمويل الحملات العسكرية، وتُسمىٰ هذه الضريبة «إمدادي سفرية».[٦٧] وقد تقوم بعض الأسر الثرية في المدينة بتمويل بعض الحملات العسكرية لوحدها وخاصة الحملات العسكرية المحدودة. ففي سنة ١٧٢٣م قامت الاسرة الجليلية[٦٨] بتجهيز الاسلحة والذخائر والاموال للقوة العسكرية الموصلية التي اشتركت في الحملة العسكرية العثمانية ضد بلاد فارس.[٦٩] كما كان ولاة الموصل يفرضون ضرائب اضافية على السكان لتغطية اي عجز في ميزانية الولاية احياناً او تعمير بعض المنشآت العامة في الموصل. ففي سنة ١٧٢٠م أراد والي الموصل مصطفىٰ باشا (١٧٢٠–١٧٢٣م) فرض ضريبة اضافية على سكان الموصل لتمويل مشروع بناء قناطر حجرية ثابتة لجسر الموصل العائم، لولا أن بادرت بعض الشخصيات البارزة في المدينة التىٰ تحمل هذه النفقات ومنهم علي افندي العمري واسماعيل اغا الجليلي.[٧٠] وعندما دعت الحاجة تجديد هذه القناطر سنة ١٧٦٦م فُرض على كل راكب يمر على جسر المدينة دفع مبلغ قرش واحد لهذا الغرض.[٧١]

وربما يكون من المناسب الاشارة اخيراً الى رسوم المحاكم الشرعية بوصفها جزءاً من ايرادات خزينة ولاية الموصل. فقد فُرض على الدعاوى التي تعرض على المحاكم رسم يعرف بإسم (رسم الحجة) بلغ قدره ٢٥ آقجة على كل دعوى في القرن السابع عشر. اما رسوم عقد الزواج فقد بلغت ٢٥ آقجة على زواج البنت الباكر و١٥ آقجة على زواج المرأة الثيب[٧٢]. وأخيراً رسوم تقسيم التركات والتي عُرفت في المصادر المحلية الخاصة بتاريخ الموصل بإسم (رسم القسامة)[٧٣]. وقد بلغ مقدار هذا الرسم ٢٠ آقجة مقابل كل ١٠٠٠ آقجة من التركة ثم خُفض الى ١٥ اقجة في القرن السابع عشر[٧٤]. الاّ أن هذا التحديد لم يُراعَ في الموصل التي بلغ مقدار هذا الرسم فيها ٥٠ آقجة مقابل كل ١٠٠٠ آقجة من التركة في مطلع القرن الثامن عشر. وقد أُلغي هذا الرسم من قبل والي الموصل اسماعيل الجليلي سنة ١٧٢٦م بوصفه «بُدعة»[٧٥].

كانت بعض الجهات مُعفاة من دفع الضرائب مثل المؤسسات الدينية وبعض القرى التي تقدم خدمات معينة للدولة مثل توفير الرجال للعمل في تعمير الطرق أو التحصينات العسكرية او للجيش والبحرية[٧٦]. وتوجد لدينا اشارة في سجلات الأراضي الخاصة بولاية الموصل في القرن السادس عشر الى استثناء احدى العشائر، وهي عشيرة القره قوينلو التركمانية، من دفع الضرائب بوصفها (عشيرة محاربين)[٧٧].

يتضح مما سبق مدى تعقيد نظام الضرائب العثماني في الموصل، ومدى العبء الواقع على كاهل السكان. ومما زاد الوضع سوءاً جور الملتزمين في جباية الضرائب وتعسف بعض الولاة العثمانيين وأصحاب الاقطاعات العسكرية ايضاً في جباية الضرائب والرسوم المفروضة على السكان. ولا يكاد يخلو مصدر او مرجع عن تاريخ العراق عموماً في عهد السيطرة العثمانية من ذكر شواهد كثيرة على مثل هذه الحالات. وقد حاولت الدولة العثمانية في عهد الاصلاحات المعروف بـ (التنظيمات) في القرن التاسع عشر تنظيم الضرائب وجبايتها. فقد



اعترف خط شريف كلخانه (بيان قصر الورد)، وهو اول مرسوم اصلاحي صدر سنة ١٨٣٩م ودشن عهد التنظيمات، بالحاجة الى ضرورة اعادة تنظيم الضرائب وتغيير اسلوب جبايتها والغاء الضرائب والرسوم غير الشرعية، والعمل على توزيع الضرائب توزيعاً عادلاً على الجميع وبدون استثناء وفق قدرة الافراد على دفعها، كما أكد المرسوم الاصلاحي المذكور على ضرورة الغاء اسلوب الالتزام في جباية الضرائب ومحاربة الرشوة بوصفها من أسباب الخراب، كما أكد على ضمان أمن النفس والعرض والمال[٧٨]. وتبع ذلك اصدار قوانين متعددة بخصوص الضرائب والرسوم وتنظيم جبايتها. وقبل ذكر الضرائب والرسوم الجديدة لابد من التذكير بأن الكثير من هذه القوانين قد تأخر تطبيقها في العراق عموماً، بما في ذلك الموصل، حتى عهد الوالي المصلح مدحت باشا ١٨٦٩-١٨٧٢م[٧٩]، كما شهدت الفترة اللاحقة لولاية مدحت باشا على العراق تراجعاً في تطبيقها.

اعتُبرت ضريبة العشر الضريبة الوحيدة على انتاج الأرض من الغلة الزراعية في نظام الضرائب الجديد. وقد اصدرت الدولة في ٩ شعبان ١٢٧٧هـ / ١٨٦١م نظام الواردات العشرية الذي أجاز تحصيل ضريبة العشر نقداً او عيناً مع تحديد مقدارها بالسعر المتداول للغلة الزراعية في سوق المنطقة المعنية والذي يقرره المجلس المحلي فيها، سواء أكان مجلس ادارة ولاية ام مجلس ادارة لواء أم قضاء، كما عُهد الى المجلس المحلي ايضاً مهمة الاشراف على كيل الملتزمين لاحتساب حصتهم وذلك حماية للفلاح ومصالحه[٨٠]. وتبع ذلك صدور مجموعة من الأنظمة والقوانين الاخرى المتعلقة بالأرض والزراعة وحقوق الملكية والتي اربكت استقرار ضريبة العشر ورسخت روح العداء بين الفلاحين والدولة وخلقت الكثير من المشكلات ضمن الولايات العراقية[٨١].

استمرت جباية ضريبة العشر في الموصل، كما في السابق، بنسبة تزيد على ١٠٪ رغم التأكيدات المستمرة في بداية عهد الاصلاحات على عدم تجاوز النسبة المقررة. فعلى سبيل المثال بلغت نسبة ضريبة العشر على الحبوب في ولاية الموصل في أواخر ذلك العهد حوالي ١٢,٥٪ نتيجة اضافة رسوم مختلفة اليها بين حين وآخر[٨٢].

والى جانب ضريبة العشر على الانتاج الزراعي فُرضت ضريبة اخرى على الأراضي والمنشآت القائمة عليها، وهي ضريبة الأراضي والمسقفات[٨٣]. وترد في الكتب السنوية (السالنامات) الخاصة بولاية الموصل بإسم ضريبة الاملاك والعقارات «املاك وعقار ويركوسي»[٨٤]، اما بين سكان الولاية فقد عُرفت بإسم ويركو فقط. وقد حددت الارادة السلطانية الصادرة في ١٣ نيسان ١٨٨٧م نسبة هذه الضريبة بمقدار ٠,٤٪ من قيمة الأرض الخاضعة لضريبة العشر، و ١٪ من قيمة الأرض غير الخاضعة لتلك الضريبة. وكانت القيمة التي تُتخذ اساساً لتقدير نسبة هذه الضريبة هي قيمة البيع التي تُخمن من قبل لجنة خاصة. وكان المفروض اجراء عملية تخمين جديدة كل خمس سنوات لكن ذلك لم يطبق، واستمرت جباية هذه الضريبة سنوياً على أساس تقديرات سنة ١٨٨٧م. وكانت نسبة هذه الضريبة على المنشآت والأبنية تتراوح بين ٠,٥٪ و ٠,٨٪ من القيمة التخمينية للأبنية التي يشغلها مالكوها و ١٪ من القيمة التخمينية للأبنية المؤجرة. وقد طرأت زيادات عديدة على هذه الضريبة فيما بعد بنسبة ٦٠٪ من مقدار الضريبة على الأرض و ٤١٪ من مقدار الضريبة على الأبنية. وقد بلغت ايرادات ضريبة الأراضي والعقارات في الموصل مايعادل ٤٤٨٥٠ ديناراً عراقياً[٨٥].

وتقرر في النظام الضرائبي الجديد ايضاً الغاء ضريبة الجزية سنة ١٨٥٧م حيث حلت محلها



ضريبة البدل العسكري أو «الاعانة العسكرية»[٨٦]. وقد حدد البدل العسكري في البداية بمبلغ ٥٠٠٠ قرش عن كل ١٨٠ رجلاً ثم أصبح سنة ١٨٨٤م مبلغ ٥٠٠٠ قرش عن كل ١٣٠ رجلاً[٨٧]. وقد صدر قانون ينظم دفع البدل العسكري على عشرة اقساط بدءاً من شهر آذار من كل سنة على أن لاتُستحصل من الفلاحين في مواسم الحراثة والزراعة[٨٨]. وقد وسع نطاق البدل العسكري بحيث اصبح يشمل المسلمين غير الراغبين في اداء الخدمة العسكرية الالزامية. ولكن المبلغ الذي حُدد دفعه بالنسبة للمسلمين كان كبيراً جداً، اذ بلغ ٥٠ ليرة منذ سنة ١٨٨٥م[٨٩]. وتشير سجلات الدولة العثمانية الى البدل الذي يدفعه غير المسلمين بإسم «بدل عسكري» والبدل الذي يدفعه المسلمون «بدل نقدي عسكري»[٩٠]. ومع ان الدولة اصدرت قانوناً سنة ١٩٠٨ حول فرض الخدمة العسكرية الالزامية على غير المسلمين والامتناع عن أخذ البدل العسكري منهم الا ان هذا القانون لم يُطبق عملياً[٩١].

ومن الضرائب السابقة المهمة التي استمر العمل بها، مع بعض التعديلات ضريبة الأغنام والجمال والجواميس والحيوانات «اغنام، ديوه، جاموس وجنوار رسوماتي». وقد عرفت في الموصل بإسم «الكودة»[٩٢]، وكانت تستوفى عن الأغنام والأبقار بمقدار ٩,٥ قرش عن كل رأس منها[٩٣]. وكانت هذه الضريبة تلي ضريبة العشر من حيث الأهمية في قائمة ايرادات ولاية الموصل.

ومن ضمن التغييرات المهمة في نظام الضرائب في القرن التاسع عشر الغاء ضرائب الأسواق والاحتساب في المدن والاستعاضة عنها بضريبة جديدة هي ضريبة التمتع «تمتع ويركوسي» أو مانسميه الآن ضريبة الدخل. وقد فرضت هذه الضريبة اولاً على التجار والحرفيين ثم شملت اصحاب الرواتب والاجور بعد انقلاب سنة ١٩٠٨م. وقد حُددت هذه الضريبة بنسبة ٣٪ من الدخل في سنة ١٨٦٠م ثم ارتفعت الى ٤٪ سنة ١٨٧٩م ثم الى ٥٪ سنة ١٨٨٥م[٩٤].

وفيما عدا التغييرات التي طرأت على الضرائب الأساسية السابقة تم استحداث عدة ضرائب ورسوم جديدة ايضاً جرى العمل بها في ولاية الموصل لحين احتلالها من قبل البريطانيين سنة ١٩١٨م، وسنتطرق الى ايراداتها السنوية لاحقاً في موضوع ميزانية الموصل. وهذه الضرائب والرسوم الجديدة هي:

١- ضريبة اعمال الطرق «نافعة ويركوسي»: كانت السلطات العثمانية في الولايات تفرض، كما ذكرنا، ضرائب معينة على السكان عند الحاجة لصيانة وتعمير بعض المنشآت العامة وطرق المواصلات. وقد الغى السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩م) ذلك وجعل خزينة الدولة مسؤولة عن تمويل هذه الأعمال. الا أن عجز خزينة الدولة عن تحمل مثل هذه المصاريف ادى الى صدور قرار في تموز ١٨٦٧م بإنشاء صناديق خاصة في الولايات لهذا الغرض. ثم صدر قرار آخر في سنة ١٨٦٩م يقضي بمشاركة جميع الذكور في الريف ممن تراوح اعمارهم بين ١٦ و ٦٠ سنة بالعمل مجاناً ٤ أيام في السنة أو ٢٠ يوماً في كل خمس سنوات دفعة واحدة في مثل هذه الأعمال. وفي سنة ١٨٨٩م صدر قرار ضريبة اعمال الطرق بخصوص جواز دفع بدل نقدي قدره ثلاثة أو اربعة قروش عن كل يوم من ايام العمل التي ارتفعت الى خمسة ايام سنوياً. وأصبحت الضريبة الجديدة تشمل جميع الذكور في الولايات ممن تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٦٠ سنة[٩٥].

٢- ضريبة المسكرات «مُسكرات رسمي»: وقد



فرضت على بيع المشروبات الروحية ، وقد حُددت هذه الضريبة سنة ١٨٦١م بنسبة ١٠٪ من قيمة المشروبات ، اضافة الى ضريبة ثانية على محلات شرب المشروبات الروحية بنسبة ٢٥٪ من الايجار السنوي لتلك المحلات [٩٦] .

٣- ضريبة استهلاك الملح «طوز رسمي» : كانت الدولة العثمانية قد احتكرت انتاج وبيع الملح بموجب نظام الملح الذي صدر سنة ١٨٦٠م [٩٧] . وقد فرضت الدولة العثمانية ضريبة على استهلاك الملح ايضاً مقدارها نصف قرش على استهلاك كل كيلوغرام من الملح [٩٨] .

٤- ضرائب ورسوم متفرقة اخرى : ومنها ضريبة قطع الاخشاب من الغابات «اورمان رسمي» ، وضريبة المعادن عن استغلال الثروات المعدنية ، وضريبة مواد البناء وتُسمى «كرسته رسمي» [٩٩] ورسوم الطوابع «پول رسمي» واخيراً الرسوم المستحصلة في المحاكم لحساب خزينة الدولة . ويمكن مراجعة ايرادات هذه الضرائب والرسوم في جداول الايرادات والمصروفات في صفحات لاحقة من هذا البحث .

لم تكن جميع ايرادات الضرائب والرسوم تذهب الى خزينة الدولة . فقبل الغاء الاقطاع العسكري رسمياً سنة ١٨٣١م كانت بعض هذه الايرادات يستحصلها حائزو الاقطاعات العسكرية بدلاً عن تسلم رواتب من خزينة الدولة مباشرة . وبعد سنة ١٨٨١م خُصصت ايرادات ضرائب ورسوم الملح والمسكرات والتبغ والطوابع ومصائد الاسماك والحرير لهيئة «ادارة الدين العام العثماني» التي تأسست في كانون الاول ١٨٨١م ، وكانت تستحصل ايرادات الضرائب والرسوم المذكورة لايفاء ديون الدولة العثمانية [١٠٠] . وكانت هذه الايرادات تستحصل في الموصل من قبل دائرة خاصة تابعة لادارة الدين العام العثماني كانت تضم مديراً ورئيس كتاب وكاتبين وامين للصندوق فضلاً عن عدد من المأمورين في بعض مدن وأقضية ونواحي ولاية الموصل [١٠١] . واضافة لذلك فان جزءاً مهماً من ايرادات ضرائب الاراضي والزراعة في ولاية الموصل كان يذهب الى الخزينة الخاصة للسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩م) . فقد كان السلطان المذكور مالكاً لمساحات شاسعة من الاراضي الزراعية في ولاية الموصل والولايات العراقية الاخرى عُرفت بـ «الاراضي السنية» . وقد كانت الدائرة الرئيسة لادارة هذه الاراضي تقع في الموصل [١٠٢] . وكان فلاحو هذه الاراضي يدفعون ضريبة تبلغ ٢٠٪ من انتاج الارض من الغلة الزراعية ، ١٢,٥٪ منها حصة الحكومة و ٧,٥٪ لخزينة السلطان عبدالحميد الثاني باسم «حصة طابو» [١٠٣] . وقد تنازل السلطان عبد الحميد الثاني عن هذه الاراضي في ١ أيلول ١٩٠٨م ودورت باسم الخزينة العامة للدولة وأخذت تُعرف بالأراضي المدورة [١٠٤] .

كانت الضرائب تُجبى بأساليب متعددة اهمها اسلوب الالتزام ، اي منح حق جباية ضريبة معينة في منطقة محددة الى شخص ، هو في العادة من وجهاء المدن او شيوخ العشائر ، مقابل دفع مبلغ محدد من المال سلفاً الى خزينة الدولة . وقد تكون مدة الالتزام سنة واحدة او سنتين [١٠٥] . وكان هذا الاسلوب من أسهل الأساليب بالنسبة للدولة لانه يجنبها الاحتكاك المباشر مع دافع الضريبة ويوفر عليها ارسال حملات عسكرية لضمان جباية الضرائب . وعلى عكس ذلك كان هذا الاسلوب وبالاً على دافع الضريبة لان الملتزم ، الذي كان همه الاول تحقيق الربح ، لم يكن يتردد في اتباع اساليب تعسفية في تقدير نسب الضرائب وجبايتها [١٠٦] . وتشير سجلات اراضي الموصل



في القرن السادس عشر الى خراب الكثير من القرى بسبب جور هؤلاء الملتزمين[107]. وقد اعترفت الدولة العثمانية بمساوئ هذا الاسلوب والغته سنة ١٨٣٩م، وقررت جباية الضرائب بوساطة موظفين أو «أمناء» تعينهم لهذا الغرض. لكنها سرعان ماتراجعت عن قرارها واعادت العمل باسلوب الالتزام سنة ١٨٤٠م. ومن الاسباب المهمة لهذا التراجع قلة كفاءة وخبرة الموظفين وضعف علاقاتهم المحلية وسعة المناطق التي كان عليهم جباية ضرائبها، الامر الذي ادىٰ الى انخفاض ايرادات الدولة. وفي سنة ١٨٤٧م اصدرت الدولة قراراً آخر حدد مدة الالتزام بخمس سنوات[108]. وقد استمر العمل باسلوب الالتزام في الموصل وبقية انحاء العراق الى مابعد انقلاب الاتحاديين سنة ١٩٠٨م[109].

اما الأسلوب الآخر في جباية الضرائب فهو اسلوب منح ايرادات منطقة معينة او عدة مناطق لبعض الاشخاص وفق اسلوب الاقطاع العسكري العثماني الذي اشرنا اليه، والذي استمر قائماً حتىٰ سنة ١٨٣١م. وقد اثقل اصحاب هذه الاقطاعات كاهل الفلاحين بجباية الضرائب بنسب اعلىٰ من النسب المقررة وبالالتزامات الاقطاعية الاخرىٰ. وقد لفتت هذه التجاوزات انتباه السلاطين العثمانيين الذين اصدروا اوامر عديدة الى ولاة وقضاة الاناضول والولايات المجاورة، ومنها ولاية الموصل، حول متابعة تجاوزات اصحاب الاقطاعات العسكرية[110]. الا ان مجرد اصدار مثل هذه الاوامر لم يكن رادعاً لاصحاب تلك الاقطاعات.

والى جانب الاسلوبين السابقين كان هناك اسلوب ثالث في جباية بعض الضرائب وهو اسلوب «الأمانة»، اي جباية الضرائب بوساطة امناء او موظفين تعينهم الدولة لهذا الغرض. وقد عُرف هذا الاسلوب في الموصل منذ القرن السادس عشر في جباية بعض الضرائب الزراعية[111]. كما وردت اشارة في المصادر المحلية الى وظيفة «أمين الجزية» في القرن الثامن عشر[112]، وهو موظف مكلف بتحصيل الجزية من غير المسلمين. وعلى اية حال يبدو ان هذا الاسلوب كان معروفاً على نطاق محدود حتىٰ منتصف القرن التاسع عشر عندما توسعت الدولة فيه. وقد عُرف عن كثير من هؤلاء الموظفين الأمية والرشوة وسوء استخدامهم لوظائفهم بغية تحقيق مكاسب شخصية[113].

ولابد من الاشارة أخيراً الى اسلوب رابع في جباية الجزية لم يستمر العمل به طويلاً. فبعد الغاء الجزية واحلال البدل العسكري محلها اصبحت الضريبة الاخيرة تستحصل من قبل رؤساء الطوائف الدينية الخاضعة لضريبة البدل العسكري. ثم الغي هذا الاسلوب في سنة ١٩٠٢م حيث عُهد باستحصال البدل العسكري الى موظفين رسميين[114].

٣- الميزانية والنفقات العامة :

تميزت الادارة المالية العثمانية في ولاية الموصل بالبساطة حتىٰ عهد الاصلاحيات العثمانية في القرن التاسع عشر. فقد عُهدت مهمة ضبط حسابات الولاية الى موظف خاص هو «دفتردار المالية» الذي كان يُعين من العاصمة استانبول مباشرةً ويُعد ممثل السلطان العثماني فيما يخص الشؤون المالية فيها[115]. وكانت مهمته الاساسية حساب الايرادات والمصروفات وارسال الفائض الى خزينة الدولة المركزية في العاصمة[116]. ويُشار الى هذه الاموال المرسلة الى العاصمة باسم «ميري الموصل» في المصادر المحلية[117]. ولا تتوافر لدينا معلومات عن ايرادات ومصروفات ولاية الموصل قبل اواخر القرن التاسع عشر باستثناء إشارة وردت لدىٰ الرحالة الفرنسي اوليفييه G. A. Olivier، الذي زار الموصل سنة ١٧٩٤م، بان الايرادات



وجميع المصروفات في الموصل لاتزيد على مايعادل مائة الف فرنك[118].

اهتمت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر باعادة تنظيم شؤونها المالية، وكان من مظاهر هذا الاهتمام تأسيس وزارة المالية في سنة ١٨٣٩م، ونشر اول ميزانية نُظمت وفق النموذج الاوربي في سنة ١٨٦١م[119]. ثم صدر نظام الادارة المالية، وبموجبه أصبحت الخزينة المركزية في العاصمة ترسل سجلاً خاصاً في كل سنة الى الولايات يُعرف باسم «ميزانية الولاية» لتسجيل جميع الايرادات والمصروفات فيه. واعقب ذلك صدور نظام ميزانية الولايات في سنة ١٨٧١م[120] وقد تضمنت سالنامات ولاية الموصل في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي تفاصيل ايرادات ومصروفات الولاية نقلاً عن سجلات الميزانية. وسنعرض هنا ثلاث ميزانيات لولاية الموصل للسنوات المالية ١٨٨٩ - ١٨٩٠م[121] و ١٨٩١ - ١٨٩٢م[122] و ١٨٩٤ - ١٨٩٥م[123] نقلاً عن هذه السالنامات. كما نعرض الايرادات والمصروفات للسنوات المالية ١٩٠٩ - ١٩١٠م[124] و ١٩١٠ - ١٩١١م[125] نقلاً عن دراسة حديثة اعتمدت السالنامات العامة للدولة العثمانية[126]. ولابد من التنويه هنا بان الارقام التي نقلناها عن السالنامات الخاصة بولاية الموصل تخص لواء الموصل، وهو مركز الولاية، فقط مع الأقضية والنواحي التابعة للواء. اما ارقام السنوات ١٩٠٩ - ١٩١١م فتخص جميع الوية ولاية الموصل وهي الوية الموصل وكركوك والسليمانية لانها وردت بهذه الصورة في السالنامات العامة للدولة العثمانية والتي تضمنت الارقام الاجمالية الخاصة بكل ولاية.

يتضح لدينا من الميزانيات السابقة أن ضرائب العشر والاملاك والعقارات «الويركو» ورسوم الاغنام والمواشي والحيوانات كانت تشكل المصدر الرئيس لايرادات خزينة ولاية الموصل. في حين كانت مصروفات الجيش والشرطة (الضبطية) والجندرمة (الدرك) ودائرة المالية والويركو تشكل الجزء الاهم من المصروفات. ونلاحظ في الميزانية الاولى والثانية ان الايرادات اكثر من ضعف المصروفات، في حين نلاحظ العكس في الميزانية الثالثة حيث زادت المصروفات على الايرادات بمقدار ١,٦٩٤,١١١ قرش. والسبب في ذلك هو الزيادة الكبيرة في نفقات الجيش. وفي مثل هذه الحالات التي كانت تظهر في ولايات عربية اخرى مجاورة ايضاً كان العجز في الميزانية يغطى من ميزانيات السنوات اللاحقة او من قيام ميزانية الدولة بتحمل بعض المصروفات على ان يجري تسديدها من خزينة الولاية فيما بعد[127].

وتظهر لنا هذه الميزانيات حقيقة مؤلمة وهي قلة النفقات العامة في مجالات الصحة والمعارف والاشغال العامة. والحقيقة ان عبء هذه النفقات كان يقع على كاهل السكان من خلال التبرعات او الاعانات السنوية، اضافة الى اعباء الضرائب الاخرى. وقد لخص احد الباحثين ذلك الوضع بقوله «ان الرعايا في الدولة العثمانية كانوا يعيشون بأرواحهم وأموالهم من اجل مصلحة الحكام ومجدهم. وكان كل فرد من طبقة الموظفين من السلطان فما دون، خلال القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين، ينظر الى من هو انزل منه درجة كانه يشتغل من اجل مصلحته واسعاده. وقد تجمعت اعباء جميع هؤلاء على كواهل السواد الاعظم من الناس والفلاحين الذين اسيئت معاملتهم وقاربوا مستوى المجاعة»[128] ان هذا الوضع يفسر لنا ايضاً تأكيد عدد من الجمعيات العربية التي ظهرت بعد انقلاب سنة ١٩٠٨م على ضرورة توجيه الحكومة اهتماماً اكبر لتحسين اوضاع الولايات العربية وانفاق نسبة اكبر من الايرادات على الخدمات والمنشآت العامة التي كانت تلك الولايات بأمس الحاجة اليها.



ايرادات ومصروفات لواء الموصل للسنة المالية ١٨٨٩ - ١٨٩٠م

الايرادات		المصروفات	
نوع الايرادات	قرش	نوع المصروفات	قرش
١ - ضريبة الاملاك والعقار	١٦٢٩٤٦٦	١ - المحاكم الشرعية	٩٤٠٢٩
٢ - ضريبة التمتع	٣٩١٨٦٩	٢ - الداخلية	٥٨٦٦٥٠
٣- البدل العسكري	٣١١٠٣٩	٣ - العدلية	٢٠١٣٥٦
٤ - رسم الاغنام	١٧٢١٧٦٢	٤ - الاشغال (النافعة)	٥٦٠٣
٥ - رسم الجمال	١٢٢٠٠	٥ - دائرة المالية والويركو مع الرواتب	٧٣٢٤٨٤
٦ - ايرادات ضريبة العشر الممنوحة بالالتزام	١٨٨٤٣٧٧	٦ - اسهم متنوعة	٣١٨٥٣
٧- ايرادات ضريبة العشر عن طريق اسلوب الامانة	٤٤٠٠٠٠	٧- رواتب الجيش والشرطة والجندرمة (الدرك)	١٤٥٥٩١٧
٨- رسوم الغابات ومواد البناء والطوابع	٦٢٥٠٠	٨- رواتب افراد	١٢٣٨٤٩
٩ - عائدات الاملاك والطابو	٥٣٣٠٠		
١٠ - عائدات المحاكم	٥٩٨٧٥		
١١ - رسوم متنوعة	٥٦٤٢٧٥		
١٢ - بدلات ايجار الاملاك الاميرية	٤٦٨٧٥		
١٣ - عائدات متفرقة	٥٥٧٠٠		
المجموع	٧,٢٣٣,٢٤٨ قرش	المجموع	٣,٢٣١,٧٤١ قرش



ايرادات ومصروفات لواء الموصل للسنة المالية ١٨٩١ - ١٨٩٢م

الايرادات		المصروفات	
نوع الايرادات	قرش	نوع المصروفات	قرش
١ - ضريبة الاملاك والعقار	١١٧٤٢٣٥	١ - المحاكم الشرعية	٩٢٤٤٦
٢ - ضريبة التمتع	٥٣٧٣٥١	٢ - الداخلية	٦١٧٩١٢
٣ - البدل العسكري	٤٠٦٢٦٦	٣ - العدلية	٢٠١٣٥٦
٤ - رسم الاغنام	١٧١٧٨٣١	٤ - المعارف	——
٥ - رسم الجمال	٥٨٠٠	٥ -الاشغال (النافعة)	٢٠٩٨٨
٦ - ايرادات ضريبة العشر الممنوحة بالالتزام	١٧٧٧٨٠٠	٦ - دائرة المالية والويركو مع الرواتب	٦٦٢١٨٩
٧ - ايرادات ضريبة العشر عن طريق اسلوب الامانة	٤٢٠٠٠	٧ - اسهم متنوعة	٢٨٦٨٢
٨ - رسوم الغابات ومواد البناء والطوابع	٥٥٥٠٠	٨ - رواتب الجيش والشرطة والجندرمة (الدرك)	١٤٨٥٩١٧
٩ - عائدات الاملاك والطابو	٩٠٧٤٣		
١٠ - عائدات المحاكم	٦٦٠٣٨		
١١ - رسوم متنوعة	٥٦٥٩٥٦		
١٢ - بدلات ايجار الاملاك الاميرية	٣٠٥١٢		
١٣ - عائدات متفرقة	٢٩١٥٠		
المجموع	٦,٤٩٩,١٥٢ قرش	المجموع	٣,١٠٩,٤٩٠ قرش

ايرادات ومصروفات لواء الموصل للسنة المالية ١٨٩٤ - ١٨٩٥م

الايرادات		المصروفات	
نوع الايرادات	قرش	نوع المصروفات	قرش
١ - ضريبة الاملاك والعقار	٢٠٨٥٧٧١	١ - المحاكم الشرعية	١١٠٩٠٠
٢ - البدل العسكري	٤٥٢٣٦٢	٢ - الداخلية	٨٧٤٨٦٠
٣ - رسم الاغنام	٢٣٨١٩٩٢	٣ - العدلية	٢٢٤٣٨٨
٤ - ايرادات ضريبة العشر	٢٥٤٧٣٨٥	٤ -المالية	٨٥٦٦١٥
٥ - ايرادات الاملاك الاميرية	٢٥٤٤٤	٥ - اسهم متنوعة	٢٩٦٧٢
٦ - رسوم متنوعة	٤٢٨٢٣٠	٦ - دار المدافع (طوبخانه)	٢٠٠٠
٧ - رسوم الغابات ومواد البناء	٤٥٤٠٠	٧ - الجندرمة (الدرك)	١٤٨٤٦٨٠
٨ - عائدات الاملاك والطابو	٥٠٠٠٠	٨ - الصحة	——
٩ - عائدات المحاكم	٥٥٢٠٠	٩ - رواتب تقاعدية للعسكريين	١٤٩٧٢٤
١٠ - عائدات متفرقة	٤٣٩٠٠	١٠ - رواتب الجيش النظامي والاحتياط (رديف)	٥٤٣٣١٦٩
		١١ - ملابس	٦٠٠٠٠٠
		١٢ - سِپارِش*	٢٢٨٠٠
		١٣ - الاشغال (النافعة)	٢٠٩٨٨
المجموع	٨,١١٥,٦٨٥ قرش	المجموع	٩,٨٠٩,٧٩٦ قرش

(*) سپارِش: لم يرد في هذه الميزانية توضيح لطبيعة هذا النوع من المصروفات وكلمة سپارش لها اكثر من معنىً في اللغة التركية. فهي تعني الأمر بصنع أو ارسال شيء، وتعني ايضا ارسال حوالة مالية، كما تعني ايضا المبلغ المستقطع من راتب موظف او ضابط ما لتوزيعه على ذويه أو اقربائه في مكان آخر. انظر. شمس الدين سامي؛ قاموس تركي (درسعادت- اقدام مطبعة سي- ١٣١٩هـ)، ص ٧٠٧.



ايرادات ولاية الموصل للسنة المالية ١٩٠٩ - ١٩١٠

نوع الايرادات	قروش	الملاحظات
١ - ضريبة العشر	١٣,٣٧٤,٧٦١	القيمة التخمينية لهذه الضريبة في ولاية الموصل هي ٩,٣٢٧,٩٦٨ قرش في تلك السنة . وقد تم تحصيل ماقيمته ٧,٩٨٥,٥٧٥ قرش عن هذه السنة اضافة الى ماقيمتهُ ٥,٣٨٩,١٨٦ قرش عن متأخرات السنة السابقة .
٢ - رسوم الاغنام والابقار والجمال وغيرها من الحيوانات	١٠,٦٢٩,١٦١	القيمة التخمينية ٦,٨١٥,٦٦٢ قرش في هذه السنة . تم تحصيل ما قيمته ٥,٧٧٧,٦٦١ قرش اضافة الى ٤,٨٥١,٥٠٠ عن متأخرات السنة السابقة .
٣ - ضريبة الاملاك والعقار (الاراضي والمسقفات)	٤,٥٥٤,٤٩٧	القيمة التخمينية ٤,٠٠٥,٤٥٧ قرش عن هذه السنة . تم تحصيل ماقيمته ٢,٢٤٩,٧٠٠ قرش اضافة الى ٢,٣٠٤,٧٩٧ قرش عن متأخرات السنة السابقة .
٤ - البدل العسكري	١,٢٢٤,٨٢٦	منها ٤٨٦,٤٧٥ قرش بدل نقدي عسكري عن المسلمين و ٧٣٨,٣٥١ بدل عسكري من غير المسلمين
٥ - ضريبة التمتع	٧٠٧,٢٢٩	القيمة التخمينية لهذه الضريبة ٦٣٩,٩٥٣ قرش عن هذه السنة . تم تحصيل ٣١٠,٦٦٢ قرش منها اضافة الى ٣٩٦,٥٦٧ قرش عن متأخرات السنة السابقة .
٦ - ضريبة اعمال الطرق	٣٧,١١٣	منها ٣١,٥٨٤ قرش عن متأخرات السنة السابقة و ٥,٥٣٢ قرش تم تحصيلها في هذه السنة .
٧ - رسوم المحاكم النظامية	٢١٠,٠٩٦	
٨ - رسوم المحاكم الشرعية	٨٧,٩٨٠	
٩ - رسوم الطوابع	٣٥٩,٢١٢	عدد الطوابع المباعة ٣٦٢,٢٧٨
١٠ - رسوم المسكرات	٩١,٤١٨	
١١ - ضريبة الملح	٧٢٤,٢٠٤	عن استهلاك ١,٤٦٣,٥٤٨ كغم من الملح .
المجموع	٣١,٩٩٠,٤٩٧	



مصروفات ولاية الموصل للسنة المالية ١٩١٠ - ١٩١١م

نوع المصروفات	قروش
١ - رواتب ومصروفات دوائر وزارة الداخلية	١,٨٧٩,٩٤٤
٢ - رواتب ومصروفات ادارة الدين العام العثماني (مكتب الموصل)	٦٥٩,٨٣٧
٣ - رواتب ومصروفات دائرة الدفتر الخاقاني*	١٥٠,٢٥٧
٤ - قوات الجندرمة (الدرك)	٤,٣٦٧,٥٦٧
٥ - رواتب ومصروفات الدوائر التابعة لوزارة الحربية	١٧,٥٤٣,٤٣٨
٦ - مصروفات خاصة بدعم مشروع سكة حديد الحجاز	٧,١٥٧
٧ - رواتب ومصروفات دوائر وزارة الغابات والمعادن	٧٦,٥٦٠
٨ - رواتب ومصروفات دوائر وزارة التجارة والاشغال	٥٨٢,٧٣١
٩ - رواتب ومصروفات دوائر وزارة الشؤون الدينية	٧٧٨,٥٩٧
١٠ - رواتب ومصروفات دوائر وزارة المالية	٤,٤٥٦,٥١٣
١١ - رواتب ومصروفات دوائر وزارة العدلية	١,٠٩٥,٢٨٠
١٢ - رواتب ومصروفات الامن العام	٢٤٢,٩٨٧
١٣ - رواتب ومصروفات المعارف	٤٨٥,٣٧٧
المجموع	٣٢,٣٢٦,٢٤٥

(*) مهمة هذه الدائرة هي متابعة وتنفيذ احكام القوانين والانظمة والتعليمات الخاصة بادارة الاملاك والاراضي والنفوس وما يخص معاملات تصرف الاملاك وتملكها والاشراف على معاملات المأمورين في الأقضية وابلاغ الوالي عن كل موظف يتجاوز التعليمات والانظمة. وقد تأسست هذه الدائرة في العراق في عهد مدحت باشا.

الهوامش

(١) عماد عبدالسلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني ١٧٢٦-١٨٣٤م (النجف- مطبعة الآداب- ١٩٧٥) ص ٥٥١.

(٢) يذكر يعقوب سركيس ان سك النقود في بغداد استمر حتى سنة ١٨٣٥م، في حين ان فالنتين ينقل لنا صوراً لنقود مسكوكة في بغداد سنة ١٨٣٩م. راجع، يعقوب سركيس، مباحث عراقية في الجغرافية والتأريخ والآثار (بغداد- دار الحرية للطباعة - ١٩٨١) ق ٣، ص ٨٠، W.H.Valentine; Modern Copper Coins of Muhammadan states (London-1911) pp, 26-27.

(٣) رؤوف، المصدر السابق، ص ٥٥١.

(٤) المصدرنفسه، ص ٥٥١.

(٥) الآقجة Akçe كلمة تركية تعنى الشيء الضارب الى البياض وتُسمى باليونانية Aspron وبالفرنسية Aspre. ويرى بوون Bowen انها تعني القطعة الصغيرة البيضاء، راجع وقارن، موسى الحسيني المازندراني، العقد المنير في تحقيق ما يتعلق بالدراهم والدنانير (طهران- مكتبة الصدوق- ط٢- ١٣٨٢هـ) جـ١، ص ١٠٥، انستانس ماري الكرملي، النقود العربية وعلم النميات (بيروت - د.ت) ص١٦٥، Encyclopedia of Islam, New Edition, Vol.I, Art. "Akçe".

(٦) يعد بعضهم الصاغة عملة اخرىٰ غير الآقجة، لكننا اعتبرناها نفس العملة لان قيمتها مساوية للآقجة تماماً كما ورد في الصفحات اللاحقة من هذا البحث عند حديثنا عن العملة النحاسية المعروفة بالمنقير او الفلس، راجع، رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٥٦١-٥٦٣، ياسين بن خير الله الخطيب العمري، غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر (الموصل- مطبعة ام الربيعين- ١٩٤٠) ص ١٥، ورحلة الاب فنشنسو الى العراق، ترجمة بطرس حداد- مجلة مجمع اللغة السريانية- المجلد الاول- ١٩٧٥- ص ١٩٦، وكذلك Ismail H.Uzunçarşili; Osmanli devletinin teskilatindan kapikulu Oçaklari- (Ankara- 1943) Vol.I, P,473.



(٧) Islam Ansiklopediasi, Cilt, I, P,232.

(٨) احمد جواد ؛ تاريخ عسكري عثماني (اسطنبول – ١٢٩٧هـ) جـ١ ، ص ٦١ ؛ عباس العزاوي ، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية (بغداد – شركة الطباعة والتجارة – ١٩٥٨) ص ١٤٢ .

(٩) العزاوي ؛ المصدر السابق ، ص ص ١٤٤ – ١٤٥ ، رؤوف ؛ المصدر السابق ، ص ٥٥٤ .

Uzuncarsili; Op., Cit, I, P.232.

(١٠) رؤوف ؛ المصدر السابق ، ص ص ٥٥٤ – ٥٥٥ .

(١١) من كلمة «پارجة» التي تعني «قطعة» في التركية والكردية والفارسية . ولاتزال الكلمة تستخدم في هذه اللغات بمعنى النقود بصورة عامة .

(١٢) خليل الساحلي ؛ «النقود في البلاد العربية في العهد العثماني» مجلة كلية الآداب – الجامعة الاردنية – المجلد الثاني – ايار ١٩٧١ ، ص ١٠٩ .

(١٣) العمري ؛ المصدر السابق ، ص ١٥ . ويذكر ان تسميتها باسم «مصرية» منشأها ان الدولة العثمانية رخصت سكها في مصر . ومازال اهل دمشق ومدن اخرى في بلاد الشام يُسمون النقود «مصاري» ، راجع ؛ الشيخ احمد البديري الحلاق ؛ حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ – ١١٧٥ هـ/ ١٧٤١ – ١٧٦٢م (القاهرة – مطبعة البيان العربي – ط ١ – ١٩٥٩ – تحقيق احمد عزت عبدالكريم) ص ٤ .

(١٤) الساحلي ؛ المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(١٥) يذكر الكرملي ان اصل تسمية القرش من الالمانية Groshen ، راجع ؛ الكرملي ؛ المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(١٦) Ziya Karamursel; Osmanli mali tarihi hakkinda tetkikler, (Ankara – 1940) ؛ P,215 ؛ H.Gibb & H.Bowen; The Islamic society and the West (Oxford – 1957) Part II, P,53.

(١٧) العزاوي ؛ المصدر السابق ص ١٤٨ ، رؤوف ؛ المصدر السابق ، ص ٥٥٥ .

(١٨) Gibb & Bowen; Op. cit, P,54.

(١٩) رؤوف ؛ المصدر السابق ، ص ص ٥٥٥ – ٥٥٦ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٥٥٨ ، ياسين بن خيرالله العمري ؛ زبدة الاثار الجلية في الحوادث الارضية (النجف – مطبعة الآداب – ١٩٧٤ – تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف) ص ١٦٠ . وكلمة ريال مأخوذة عن Royal اي ملكي .

(٢١) العمري ؛ زبدة الاثار ص ١٦٠ هامش ٣ .

(٢٢) اصل الكلمة سلاقي ومعناها الذهب ، الا ان العثمانيين اطلقوها على هذه العملة الفضية . راجع ؛ الكرملي ؛ المصدر السابق ص ١٧٥ .

Gibb & Bowen; OP. cit, P,54.

(٢٣) راجع وقارن ؛ العزاوي ؛ المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، جواد ؛ المصدر السابق ، ص ٦١ ،

Karamursel; OP. cit, P, 215.

(٢٤) Gibb & Bowen; OP. cit, P,54.

(٢٥) دومنيكولانزا ، الموصل في القرن الثامن عشر (الموصل – المطبعة الشرقية الحديثة – ١٩٥٣ – ترجمة روفائيل بيداويد) ص ٩٢ .

(٢٦) العمري ؛ غرائب الاثر ، ص ٤٠ .

(٢٧) الحلاق ؛ المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(٢٨) كارستن نيبور ؛ رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر (بغداد – شركة دار الجمهورية – ١٩٦٥ – ترجمة محمود حسين الامين) ص ١١٥ .

(٢٩) سركيس ؛ المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٣١) Omer L. Barkan; XV ve XVI inçi asirlarda Osmanli imparatorlugunda Zirai ekonominin hukuki ve mali esasleri (Istanbul – 1943) Cilt I, P,178.

(٣٢) Uzuncarsili; OP. cit, P, 473.

(٣٣) العمري ؛ غرائب الاثر ، ص ١٥ .

(٣٤) عبدالمنعم السيد علي ؛ التطور التأريخي للانظمة النقدية في الاقطار العربية (بيروت – ١٩٨٣) ص ٣٨ .

(٣٥) ز . ي . هرشلاغ ؛ مدخل الى التأريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط (بيروت – دار الحقيقة – ١٩٧٣ – ترجمة مصطفى الحسيني) ص٨٠ .

(٣٦) راجع التفاصيل في ؛ العزاوي ؛ المصدر السابق ، ص ص ١٦١ – ١٦٢ .

(٣٧) هرشلاغ ؛ المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٣٨) ذيل دستور (استانبول – ١٢٩٨هـ) جـ١ ، ص ص ٦٧ – ٦٨ .

(٣٩) استيبان عربيان ؛ اصول دفتري (استانبول – ١٣٣١هـ) ص ١٠ .

(٤٠) سالنامة دولت عليه عثمانية (استانبول – محمود بك مطبعة سي – ١٢٩٨هـ) ص ص ٤٥٧ – ٤٥٨ ؛

Justin McCarthy; The Arab World, Turkey and the Balkans 1878 – 1914, Ahandbook of historical statistics (Baston – 1982) P,153.

(٤١) Stephen H.Longrigg; Iraq 1900 – 1950 (Beirut – 1968) P,28.

(٤٢) عربيان ؛ المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٤٣) سركيس ؛ المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٤٤) سركيس ؛ المصدر السابق ، ص ٦٩ ؛ هرشلاغ ؛ المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٤٥) على سبيل المثال عندما كانت المشاكل تظهر بين العثمانيين والفرس حول تبعية العشائر الحدودية لهذا الطرف او ذلك كان العثمانيون ، وكذلك الفرس ، يجتهدون في تقديم الأدلة على ولاء هذه العشائر وتبعيتها واعترافها بالسيادة من خلال اثبات دفعها الضرائب لهذا الطرف او ذلك .

(٤٦) Stanford J.Shaw & E.K.Shaw; History of the Ottoman empire and modern Turkey (Cambridge – 1977) vol.2, P,95.

(٤٧) Mustafa Akdag; Turkiyenin iktisadi ve ictimai tarihi (Istanbul – 1974) Cilt I, PP, 511 – 514.

(٤٨) Barkan; OP.cit, P,173.

(٤٩) راشد محمد افندي ؛ تاريخ راشد (اسطنبول – ١٨٦٥م) ج٢ ، ص ١٤٨ ، عباس العزاوي ؛ تاريخ الضرائب العراقية (بغداد – شركة الطباعة والتجارة – ١٩٥٩) ص ١١٦ .

(٥٠) نيبور ، المصدر السابق ، ص ١١٥ .

(٥١) Barkan; OP.cit, PP, 175 – 176.

(٥٢) Barkan; OP.cit, PP, 176 – 178.

(٥٣) Ibid, P,178 وطبقاً لما ذكره الرحالة نيبور فقد كان التجار يدفعون ضريبة الباج بمقدار ١٠ قروش على حمل كل جمل من الاقمشة بغض النظر عن نوع القماش و٧,٥ قرش على حمل الجمل من القهوة و $\frac{٢}{٣}$ ٦ قرش على حمل الجمل من الفلفل . اما اذا كانت البضاعة محملة على ظهور الحمير او البغال فانها توزن ويدفع الباج عنها ، نيبور ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٥٤) العزاوي ؛ المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٥٥) Barkan; OP. cit, P, 179.

(٥٦) العزاوي : المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٥٧) بشأن تفاصيل اكثر عن الاقطاع العسكري العثماني راجع ما كتبه ديني تحت مادة «تيمار» في دائرة المعارف الاسلامية ، ج٦ ، ترجمة احمد الشنتناوي وآخرون .

(٥٨) V.P. Mutafcieva & S.A. Dimitrov; Sur le'tat du systems des Timars des XVII – XVIII (Sofia – 1968) P,16.

(٥٩) هاملتون جب وهارولد بوون ؛ المجتمع الاسلامي والغرب (القاهرة – دار المعارف – ١٩٧١ – ترجمة احمد عبدالرحيم مصطفى) ج٢ ، ص ٦٣ .

(٦٠) ارشيف رئاسة الوزراء (تركيا) ؛ دفتر طابو رقم ٦٦٠/ ولاية الموصل – الاوراق ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ .

(٦١) Barkan; OP.cit, P, 174.

(٦٢) Ibid, 174.

(٦٣) Ibid, 176.

(٦٤) Ibid, 176.

(٦٥) وحدة وزن كانت تعادل ٣,٢٧٥كغم في القرن السادس عشر في بغداد في حين كان المَنّ في البصرة يعادل ١١كغم . وكان هناك مَنّ خاص بالحبوب وآخر للحرير وآخر للسمن وهكذا ، وكان مَنّ السَمْن يعادل رطلين انظر ، رؤوف ؛ المصدر السابق ، ص ٣١٤ ؛ حسين محمد القهواتي ؛ العراق بين الاحتلالين العثمانيين الأول والثاني ١٥٣٤ – ١٦٣٨ م (رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب – جامعة بغداد – ١٩٧٥) ص ص ٤٣٤ – ٤٣٥ .

(٦٦) رؤوف ؛ المصدر السابق ، ص ص ٣١٤ – ٣١٥ .

(٦٧) Cevdet Turkay;"Osmanli imparatorlugnda vergi" Belglerle, Turk tarih dergisi, CiltX Sayi 57, p.18.

(٦٨) تولت هذه الاسرة بعد ذلك حكم ولاية الموصل بين سنة ١٧٢٦ و ١٨٣٤ م .

(٦٩) سليمان صائغ ؛ تاريخ الموصل (القاهرة – المطبعة السلفية – ١٩٢٣) ج١ ، ص ٢٧٤ .

(٧٠) رؤوف ؛ المصدر السابق ، ص ص ٥١ – ٥٢ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ٣١٣ .

(٧٢) I.H.Uzunçarşili; Osmanli devletinin ilmiye teşkilati (Ankara – 1965)p,85.

(٧٣) محمد أمين بن خيرالله الخطيب العمري ؛ منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء (الموصل – ١٩٦٧ – تحقيق سعيد الديوه جي) ج١ ، ص ١٤٣ .

(٧٤) ملي تتبعلر مجموعة سي – صاي ٣ – ص ٥٤٢ ؛ Uznucarşili; Op.cit,p,85

(٧٥) العمري ؛ منهل الاولياء ، ج١ ، ص ١٤٣ .

(٧٦) Shaw; Op.cit, p,95.

(٧٧) ارشيف رئاسة الوزراء (تركيا) دفتر الطابو ٦٦٠ / ولاية الموصل ، الورقة ٢١٧ .

(٧٨) الدستور (مجموعة القوانين والتنظيمات العثمانية) ترجمة نوفل نعمة الله نوفل (بيروت – ١٣٠١ هـ) ج١ ، ص ص ٢ – ٤ .

(٧٩) Longrigg; Op.cit,p,35.

(٨٠) الدستور ، ج٢ ، ص ص ٤٧ – ٤٩ .

(٨١) راجع التفاصيل في ، عماد احمد الجواهري ؛ تاريخ مشكلة الأراضي في العراق ١٩١٤ – ١٩٣٢ م (بغداد – دار الحرية – ١٩٧٨) ص ص ٣٠ – ٤٢ .

(٨٢) المس جيروترود بيل ،فصول من تاريخ العراق القريب (بيروت – مطبعة دار الكتب – ١٩٧١ – ترجمة جعفر خياط) ص ١٧٢ . اضيفت الرسوم والزيادة منذ سنة ١٨٧٨ م لدفع غرامة حربية لروسيا القيصرية بعد حرب ١٨٧٧ – ١٨٧٨ م واضافة اخرى سنة ١٨٨٥ لتمويل انشاء المصرف الزراعي واضافة اخرى للانفاق على المعارف وغير ذلك .

(٨٣) Shaw; Op.cit,p,98.

(٨٤) انظر مثلاً ؛ موصل ولايتي سالنامه سي ١٣٠٨ هـ / ١٣٠٦ رومي ، ص ١٠٦ .

(٨٥) Charles Issawi (ed.); The economic history of the Middle East 1800 – 1914 (Chicago – 1975)p,189.

(٨٦) Shaw; Op.cit,p,97.

(٨٧) هرشلاغ ؛ المصدر السابق ، ص ٨١ . في حين يذكر البعض ان مقدار البدل بلغ ٢٧ قرشاً و٣٢ بارة لكل شخص والبعض الآخر يذكر ان البدل كان ٣٠ قرشاً لكل شخص ، راجع فيصل محمد الارحيم ؛ تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨ – ١٩١٤ م (الموصل – مطابع الجمهور – ١٩٧٥) ص ٥٥ ؛ جاسم محمد حسن ؛ العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ – ١٩٠٩ م (رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب – جامعة بغداد – ١٩٧٥) ص ٢٣٨ .

(٨٨) الدستور ، ج٢ ، ص ٢٧ .



(٨٩) Shaw; Op.cit,p,100.

(٩٠) نلاحظ هذا التمييز في التسمية في قائمة ايرادات ولاية الموصل للسنة المالية ١٩٠٩ - ١٩١٠م، راجع، McCarthy; Op.cit,p,173.

(٩١) حسن، المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(٩٢) كودة كلمة تركية يُراد بها الذبيحة، لكن العزاوي يعتقد أن اصل التسمية من الكيد اي الأخذ قسراً، راجع وقارن، مجلة لغة العرب، ج ٢، شعبان ١٣٢٩هـ / آب ١٩١١م، ص ٨٠، العزاوي، المصدر السابق، ص ١١٣.

(٩٣) المس بيل، المصدر السابق، ص ١٧٣.

(٩٤) دليل العراق الرسمي لسنة ١٩٣٦ (بغداد - ١٩٣٦) ص ص ٣١١ - ٣١٢ وكذلك، Shaw; Op.cit, pp,96-99.

(٩٥) Shaw; Op.cit,p,101, McCarthy; Op.cit,p,158.

(٩٦) راجع تفاصيل ضريبة المسكرات في، الدستور، ج ٢، ص ص ٦٣٢ - ٦٤١.

(٩٧) راجع تفاصيل هذا النظام في، المصدر نفسه، ص ص ٦١٠ - ٦٢٨.

(٩٨) استوفت الدولة العثمانية في السنة المالية ١٩٠٩ - ١٩١٠م ماقيمته ٧٢٤٢٠٤ قرشاً من هذه الضريبة في ولاية الموصل، McCarthy; Op.cit,p,179.

(٩٩) يعقوب سركيس، «واردات العراق بين عهدين» مجلة غرفة تجارة بغداد، السنة الرابعة، ج ٨ - تشرين الأول ١٩٤١، ص ٦٦٤.

(١٠٠) هرشلاغ، المصدر السابق، ص ص ٨٦ - ٨٧.

(١٠١) موصل ولايتي سالنامه سي ١٣١٠هـ / ١٣٠٨ رومي. ص ٨٨ وصفحات عديدة غيرها.

(١٠٢) المس بيل، المصدر السابق، ص ١٦٧.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(١٠٤) الجواهري، المصدر السابق، ص ٤٤.

(١٠٥) جب وبوون، المصدر السابق، ص ٨٤.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ص ٨١-٨٣.

(١٠٧) ارشيف رئاسة الوزراء (تركيا) دفتر الطابو ٦٦٠ / ولاية الموصل، الورقة ٢٨٣.

(١٠٨) Shaw; OP. cit, P. 96.

(١٠٩) العزاوي، تاريخ الضرائب، ص ١١٣.

(١١٠) Halil inalcik; "Adaletnameler" Belgeler, Cilt, III, Sayi 3 - 4, 1967.

تتضمن هذه المقالة نصوص هذه الاوامر في القرن السابع عشر.

(١١١) ارشيف رئاسة الوزراء (تركيا)، دفتر الطابو ٦٦٠ / ولاية الموصل - الورقة ٢٨٣.

(١١٢) رؤوف، المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(١١٣) الجواهري، المصدر السابق، ص ٤٧.

(١١٤) حسن، المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(١١٥) خليل علي مراد، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٦٣٨ - ١٧٥٠م (رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الاداب - جامعة بغداد - ١٩٧٥) ص ١١٥.

(١١٦) جب وبوون، المصدر السابق، ص ٦.

(١١٧) العمري، غرائب الأثر، ص ١٠٦.

(١١٨) ج. أ. اوليفيه، رحلة اوليفيه الى العراق ١٧٩٤ - ١٧٩٦م (بغداد - مطبعة المجمع العلمي العراقي - ١٩٨٨ - ترجمة يوسف حبي) ص ص ٤٥ - ٤٦.

(١١٩) هرشلاغ، المصدر السابق، ص ٧٣.

(١٢٠) الدستور، ج ٢، ص ص ٦٦ - ٧٠.

(*) تبدأ السنة المالية العثمانية في ١ آذار من كل سنة.

(١٢١) انظر الدراسة الحديثة التي قدمها (McCarthy) والمشار اليها في هوامش سابقة.

(١٢٢) موصل ولايتي سالنامه سي ١٣٠٨هـ / ١٣٠٦ رومي، ص ص ١٠٦ - ١٠٧.

(١٢٣) موصل ولايتي سالنامه سي ١٣١٠هـ / ١٣٠٨ رومي، ص ص ١٥٤ - ١٥٥.

(١٢٤) موصل ولايتي سالنامه سي ١٣١٢هـ / ١٣١٠ رومي ص ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

(١٢٥) McCarthy; Op. cit, PP, 171 - 179.

(١٢٦) McCarthy' Op. cit, PP, 190 - 204.

(١٢٧) انظر ذلك مثلاً في، عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤ (القاهرة - دار المعارف - ١٩٦٩) ص ٢٢١.

(١٢٨) فيليب ويلارد آيرلند، العراق، دراسة في تطوره السياسي (بيروت - دار الكشاف - ١٩٤٩ - ترجمة جعفر خياط) ص ص ٤٦ - ٤٧.



تجارة الموصل

أ. د. خليل علي مراد

كانت الموصل مركزاً مهماً من مراكز النشاط التجاري في العراق ابّان العصور الوسطى الاسلامية. الا ان اضطراب الاوضاع السياسية في العراق والمناطق المجاورة له بعد موجة الغزو المغولي للشرق العربي والاسلامي في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ادى الى تدهور الاوضاع الاقتصادية عموماً، والنشاط التجاري بخاصة، في تلك المناطق. وكانت الموصل من بين المراكز التجارية التي تأثرت كثيراً بتلك الاوضاع، فقد تحولت الى مجرد موقع حربي تتنافس عليه اقوام شتى بدءاً من المغول الذين احتلوها سنة ١٢٦١م وانتهاءً بالصفويين والعثمانيين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي[١]. ومما زاد في تدهور الاوضاع الاقتصادية في الموصل الاوبئة والمجاعات المتكررة التي تعرضت لها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي[٢].

مركز الموصل التجاري في عهد السيطرة العثمانية:

بدأت الموصل تستعيد نشاطها ومركزها التجاري تدريجياً بعد ان فرض العثمانيون سيطرتهم عليها سنة ١٥١٦م، وعلى بقية انحاء العراق والمناطق المجاورة مثل بلاد الشام وبعض مناطق شبه الجزيرة العربية وشمال غرب بلاد فارس في النصف الاول من القرن السادس عشر الميلادي. ذلك ان احدى النتائج المهمة التي ترتبت على هذا التوسع العثماني في اراضي آسيا الغربية التي كانت منقسمة الى عدد من الدول المستقلة، توحيد هذه على شكل ولايات يسود السلام علاقات بعضها ببعض داخل الامبراطورية العثمانية الواسعة ذات الحدود المترامية الاطراف[٣]. وقد هيأ هذا الوضع الجديد فرصاً افضل ومجالات ارحب للنشاط التجاري الذي يعتمد على السلم والاستقرار في المقام الاول. فقد اصبحت ولاية الموصل تشترك مع ولايات عثمانية اخرى في تشكيل منطقة اقتصادية واحدة تمتد من البحر المتوسط غرباً حتى الخليج العربي جنوباً، أي بامتداد يشمل منطقة الهلال الخصيب بأسرها، مع ما يتصل بها من طرق متشعبة في الاناضول وبلاد فارس ومصر وشبه الجزيرة العربية وغيرها[٤].

وإذا كان التوسع العثماني في اراضي آسيا الغربية قد هيأ الظروف الملائمة لانعاش تجارة المنطقة فإن خصائص الموقع الجغرافي لمدينة الموصل كان وراء بروزها مركزاً تجارياً مهماً في شمال العراق مرة اخرى. ذلك انها تتوسط ثلاث مناطق متميزة هي المنطقة الجبلية الكردية واقليم الجزيرة ومنطقة البادية الصحراوية. وترتب على ذلك ان اصبحت اسواق الموصل مقصد سكان هذه المناطق لبيع ومبادلة منتجاتهم فيها والتزود بما يحتاجونه من سلع ومنتجات منها. وقد وصف الرحالة الفرنسي جان بابتيست تافرنييه J. P. Tavernier الموصل سنة ١٦٤٤م بأنها «ملتقى مهم للتجار، خاصة تجار العرب والاكراد»[٥]. كما كتب الراهب الايطالي دومنيكو لانزا D. Lanza في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بأن الموصل «تستفيد من موقعها الجغرافي المتوسط بين الجهات فتأتيها الاعراب من البادية والاكراد من الجبال ويبتاعون منها ما يحتاجونه...[٦]».

وفضلاً عما سبق كان هناك عامل آخر يتمثل في



ارتباط الموصل، من خلال طرق مواصلات برية ونهرية عدة، مع مدن العراق المهمة في الوسط والجنوب ومع البلدان المجاورة مثل بلاد الشام والاناضول وبلاد فارس. وفي الوقت ذاته كانت الموصل نقطة التقاء طرق تجارية عديدة تربط الاناضول بجنوب العراق، ومدن شمال غرب بلاد فارس بالمراكز التجارية المهمة في شمال بلاد الشام، وبصورة خاصة مدينة حلب. ونتيجة لذلك نشطت تجارة المرور (الترانسيت) عبر المدينة، وقد نهض التجار الموصليون بدور مهم في هذه التجارة ايضاً[٧].

يمكن القول ان الموصل تمتعت بمركز تجاري مهم طيلة عهد السيطرة العثمانية تقريباً فقد وصف الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف L. Rauwlff، الذي مرّ بالموصل في كانون الثاني ١٥٧٥م، تجارة المدينة بقوله «... ان التجارة نشطة فيها اذ ان في المدينة مخازن كبيرة للسلع نتيجة لوجود النهر [اي دجلة] حيث يتم نقل مختلف البضائع والفواكه من البلاد المجاورة بطريق النهر وبالبر الى بغداد»[٨].

اما الرحالة الفرنسي اوليفييه G. A. Olivier الذي مرّ بالموصل سنة ١٧٩٤م فقد وصفها بأنها «اعظم الاسواق التجارية في الشرق»[٩] كما اشار الى اهمية المدينة في تجارة الترانسيت بقوله «... ان معظم الاقمشة وعقاقير الهند والسلع تمر بهذه المدينة في طريقها الى الاستانة عبر آسيا الصغرى، وكذلك بشأن قهوة مخا وبضائع فارس، كما انها مستودع للعفص والصمغ وشمع كردستان، وقطن المناطق القريبة»[١٠]. كما اشار الرحالة الانكليزي وليم هيود W. Heude الذي مرّ بالموصل سنة ١٨١٧م الى اتساع تجارة الموصل بشكل يدل على ثروة ودرجة كبيرة من الطمأنينة قلما توجد في غيرها من المدن[١١].

كانت هناك فترات متميزة ايضاً في نشاط الموصل التجاري في عهد السيطرة العثمانية. ولاشك ان فترة ولاية الاسرة الجليلية (١٧٢٦ - ١٨٣٤م) تُعد خير مثال على ذلك، فقد اهتم ولاة هذه الاسرة، التي كانت من اهم الاسر التجارية في الموصل يومئذ[١٢]، بحماية

برنجي قسم تجار

ملاحظات

* من سجلات غرفة تجارة الموصل (ولايتي موصل مركز تجارت وزراعت وصنايع اوطه سي) ٢٢ تموز ١٣٣٤ مالية رومية (١٩١٨).

المصالح الاقتصادية لمدينة الموصل. وقد اتضح ذلك من اهتمامهم بصيانة طرق التجارة وتأمين الحماية العسكرية اللازمة لها وتخفيض نسبة الضرائب التجارية * ، وإلزام جباة الضرائب بعدم تجاوز نسب الضرائب والرسوم المقررة عند تقدير قيمة البضائع التجارية. وقد اكد هذا الامر الرحالة الدانمركي الشهير كارستن نيبور C. Niebuhr الذي مرّ بالموصل سنة ١٧٦٦م وأشار الى انخفاض مقدار الضرائب التجارية فيها قياساً الى بقية الولايات الأخرى المجاورة(١٣) . ويضيف الرحالة الفرنسي اوليفييه الى ان هذه السياسة جعلت التجار والاهالي يكيلون المديح لولاة الأسرة الجليلية ومنهم محمد باشا الجليلي الذي كان والياً على الموصل انذاك(١٤) ، بسبب نزاهته ونزاهة موظفيه. ويمضي الى القول بأن هذا الوالي كان يعمل كل ما في وسعه لحمل تجار المناطق المجاورة على جلب محاصيلهم الزراعية الى الموصل ، وتسهيل معاملات التجار من قبل موظفي الكمارك. وترتب على ذلك تقاطر التجار والباعة على الموصل عندما وجدوا انفسهم في مأمن ، فقد وسعوا اعمالهم التجارية هناك ، كما ازداد عدد القوافل التجارية التي ترد الى المدينة(١٥)

من جهة أخرى كانت تجارة الموصل تتأثر احياناً ببعض الاضطرابات والمشكلات في مناسبات مختلفة. وفي مقدمتها تعرض القوافل التجارية لغارات بعض القبائل العربية والكردية او اليزيديين عند مرورها في ديارهم ، خاصة في اوقات تدهور علاقات هذه القبائل مع السلطات العثمانية في العراق. وكانت هذه القبائل تدرك جيداً عجز تلك السلطات عن اتخاذ اجراءات رادعة ضدها. باستثناء فترة حكم بعض الولاة الاقوياء في بغداد والموصل والذين كانوا يشنون حملات تأديبية ضد هذه القبائل بين حين وآخر. وهكذا كان الطريق التجاري النهري بين الموصل وبغداد، وكذلك الطريق البري بينها غرب نهر دجلة عرضة للغارات واعمال السلب والنهب في الفترة بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر الميلادي(١٦) . كما كان الطريق التجاري بين الموصل وديار بكر وحلب عرضة لاعمال مماثلة من جانب اليزيديين وبعض عشائر قبيلة طي العربية التي استقرت في منطقة جبل سنجار(١٧) . وكانت الخسائر الناجمة عن هذه الغارات جسيمة في بعض الاحيان. فعلى سبيل المثال بلغت خسائر احدى القوافل التجارية على طريق الموصل- حلب في سنة ١٨١٠م ما قيمته ١٠٠٠٠٠ قرش عثماني عدا الجمال والخيل والدواب(١٨) .

وفي اقليم الجزيرة كانت قبيلة شمر الجربا القوية تفرض سيطرتها معتدة المنطقة ملكاً لها. وقد عرضت هذه القبيلة الطريق التجاري بين الموصل وبغداد الى الانقطاع في السنوات ١٧٩٨م، ١٨٠٥م، ١٨٠٧م، ١٨١٠م(١٩) وعلى الرغم من تحسن علاقات هذه القبيلة مع السلطات العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فإن بعض افرادها استمروا في الاغارة على القوافل التجارية وأخذ ماتحمله من امتعة واموال(٢٠) . وفضلاً عن ذلك كانت هذه القبيلة تفرض ضرائب على تجار الاغنام والمواشي في الموصل وبغداد الذين يرسلون قطعانهم عبر ديار هذه القبيلة. فعلى سبيل المثال دفع تجار الاغنام في الموصل ضريبة تزيد على ٦٠٠٠ ليرة عثمانية الى هذه القبيلة سنة ١٩٠٩(٢١) .

وكان للصراع العثماني- الفارسي على العراق اثر سلبي على النشاط التجاري في العراق بعامة ، وخاصة عندما تكون اراضيه هدفاً للحملات العسكرية الفارسية وميداناً للحرب بين الجانبين. فقد اضطربت الحالة في اسواق العراق سنة ١٧٣٣م بسبب الغزو الفارسي ومحاولة احتلال بغداد والموصل(٢٢) والشيء ذاته ينطبق على غزو نادر شاه ، حاكم بلاد فارس بين سنة ١٧٣٦-



١٧٤٧م، للعراق والحصار الذي فرضه على الموصل. وكانت احدى اهدافه المهمة السيطرة على طرق التجارة المتفرعة منها[٢٣].

ومن العوامل المؤثرة على النشاط التجاري سلباً المشكلات التي كانت تحدث داخل المدينة احياناً، ومنها المصادمات بين وحدات الجيش الانكشاري فيها. فقد توقفت عمليات البيع والشراء في اسواق الموصل اياماً عديدة سنة ١٧١١م بسبب هذه المصادمات[٢٤]. كما أدت حوادث مماثلة في سنة ١٨٠٦م الى نهب حوالي ٢٠٠ دكان، وقُدرت قيمة الاموال المنهوبة بحوالي ٥٠٠٠٠قرش[٢٥].

واخيراً فان بعض العوامل الطبيعية كانت تعرقل احياناً النشاط التجاري. مثال ذلك ان تفشي وباء الطاعون في الموصل سنة ١٧٩٩ - ١٨٠٠م جعل والي بغداد سليمان باشا الكبير يرفض استقبال اية قافلة تجارية من الموصل، كما توقف ورود القوافل التجارية من بغداد والمناطق الكردية المجاورة الى الموصل مما ادى الى ارتفاع اسعار بعض المواد الغذائية فيها[٢٦]. كما ادى تفشي وباء الطاعون في العراق سنة ١٨٣١م الى كساد تجاري عام فيه[٢٧].

حاولت السلطات العثمانية معالجة بعض هذه المشكلات التي تؤثر في النشاط التجاري، وفي مقدمتها غارات القبائل على القوافل التجارية. فقد وجهت حملات عسكرية متعددة ضد هذه القبائل، كما اهتم بعض الولاة، ومنهم ولاة الموصل من الاسرة الجليلية، بارسال رجال مسلحين مع القوافل التجارية لحمايتها[٢٨]. الا ان كل ذلك لم يضع حداً لتلك المشكلة.

أسواق الموصل:

ان معلوماتنا عن اسواق الموصل وحالتها في عهد السيطرة العثمانية قليلة الى حد ما، إذ لاتتوافر سوى معلومات متفرقة في ثنايا مؤلفات الرحالة الاوربيين الذين مروا بالموصل، وفي السالنامات (الكتب السنوية) العثمانية الخاصة بولاية الموصل في اواخر القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن الحالي، وبعض الوثائق العثمانية والمحلية. اما سجلات المحاكم الشرعية للولاية ذات الاهمية البالغة فلا تزال غير مصنفة وغير متاحة للباحثين. وسنحاول، اعتماداً على مالدينا من معلومات متفرقة، تكوين فكرة عن أسواق الموصل.

شهدت أسواق الموصل توسعاً مستمراً في عهد السيطرة العثمانية تبعاً لنمو النشاط التجاري وتطوره. وقد اهتمت الأسر التجارية وصاحبة النفوذ في المدينة بانشاء عدد من المتاجر والخانات[٢٩]. وكانت الاخيرة مخصصة لسكن التجار ولخزن السلع والبضائع المختلفة.

عندما مرّ الرحالة الفرنسي تافرينيه بالموصل سنة ١٦٤٤م لم يكن في المدينة، على حد وصفه، سوى سوقين معقودين وخانين متواضعين مكتظين بالمسافرين[٣٠]. اما مصطفى بن كمال الدمشقي الصديقي الذي زار الموصل سنة ١٧٢٦م فيكتفي بذكر نزوله في خان للتجار هو خان «الاغا»[٣١]. فيما أشار الرحالة الدانمركي نيبور سنة ١٧٦٦م الى وجود خمسة عشر خاناً في الموصل بينهاخمسة خانات صغيرة ورديئة والبقية كبيرة وواسعة. ووصف اسواق الموصل ومقاهيها وحمّاماتها بأنها جميلة وخلابة، وان اجمل وأحسن هذه المحلات تعود الى الاسرة الجليلية[٣٢]. وقد ارتفع عدد خانات الموصل الى خمسة وعشرين خاناً في نهاية القرن الثامن عشر، وفي ذلك الوقت كان في الموصل عشرة اسواق[٣٣]. ويبدو ان بعض هذه الخانات كانت صغيرة ولم تلفت اهتمام الرحالة في اوائل القرن التاسع عشر، حيث يذكر الرحالة الفرنسي دوبريه (A. Dupre) وجود اثني عشر خاناً في الموصل، اهمها خان «العلوة» وخان «المفتي» لكل منها ست وعشرين غرفة ويستعملان ايضاً بمثابة مخزن



لبضائع الكمارك التي تفرض عليها الرسوم[٣٤]. في حين ذكر الرحالة الانكليزي وليم هيود سنة ١٨١٧م وجود ستة عشر خاناً في الموصل منها عشرة او اثنتا عشرة كبيرة جداً[٣٥]. وهذه الملاحظة الاخيرة قد تفسر قلة عدد الخانات التي ذكرها دوبريه والذي ربما يكون قد اكتفى بذكر الخانات الكبيرة جداً فقط.

اما سالنامات ولاية الموصل فتتضمن ارقاماً تفصيلية عن اسواق الموصل وخاناتها التجارية في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن الحالي. فقد ورد في سالنامة الموصل لسنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م ان في المدينة ثلاثة وعشرين خاناً و٢٦٧٧ دكاناً ومحلاً تجارياً[٣٦]. ويرتفع الرقم في سالنامة الموصل لسنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م الى ٢٨٥٢ دكاناً و ١١٠ متجراً (تجارتخانة) وأربعة وثلاثين خاناً[٣٧]. وبعض هذه الخانات قائمة حتى يومنا هذا حيث تحولت الى أسواق[٣٨].

كانت الدكاكين والمحلات التجارية في الموصل موزعة على اسواق متعددة يختص كل واحد منها ببيع سلعة او بضاعة معينة. وترد في الوثائق اشارات الى عدد من هذه الاسواق مثل «سوق الحنطة» و «سوق الخيل» و «سوق الغزل» و «سوق العلوة»[٣٩]. كما كان في المدينة سوق خاصة ببيع منتجات الهند واوربا من السلع الثمينة[٤٠]. وربما كان هذا السوق ضمن السوق الذي ورد في بعض وقفيات الموصل باسم «السوق الكبير» الذي يعرف اليوم بسوق السراجين[٤١].

اما بالنسبة للسلع والبضائع المعروضة في اسواق الموصل ومستوى اسعارها فيمكن القول ان هذه الاسواق تميزت على الدوام تقريباً بوفرة السلع والبضائع واعتدال اسعارها. فقد وصف شاهد عيان في منتصف القرن السابع عشر وفرة السلع والبضائع المختلفة في اسواق الموصل ورخص اسعارها، خاصة اسعار الفواكه والمواشي والخيول[٤٢]. وفي اواخر القرن الثامن عشر الميلادي وصفت اسواق الموصل بانها «مزودة تزويداً حسناً بالسلع» وبأن اسعار معظمها، عدا الملابس، معتدلة تماماً[٤٣]. وفي اوائل القرن التاسع عشر الميلادي كانت اسواق الموصل تضاهي، بل تتميز عن، اسواق مدينة القاهرة بكثرتها ووفرة مافيها من سلع وبضائع مستوردة من الهند وأوربا والمناطق المجاورة[٤٤]. ولم تتغير حال اسواق الموصل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع فارق واحد هو اختفاء بعض السلع المنتجة محلياً، خاصة المنسوجات القطنية، وكثرة الاقمشة والسلع الاجنبية فيها لاسيما الانكليزية الصنع منها[٤٥].

كانت أسواق الموصل عرضة للتفتيش باستمرار من قبل موظف خاص هو المحتسب الذي كانت مهمته الاساسية مراقبة الاسعار والاوزان والمكاييل والتأكد من التزام التجار والباعة بها[٤٦]. وبعد صدور قانون الجزاء الهمايوني سنة ١٨٥٨م عُهد بهذه المهام الى مفتشي الضابطة او الضبطية (الشرطة)[٤٧]. اما مهمة حراسة الاسواق فقد عُهد بها منذ القرن السادس عشر الميلادي الى حراس ليليين عرفوا باسم «العسسية» في الوثائق العثمانية[٤٨]. وكانت مهمة هؤلاء حراسة المحلات التجارية ليلاً والقاء القبض على كل من يتجول فيها في ساعة متأخرة من الليل وتفتيشه والتحقيق معه. وكانت رواتب هؤلاء الحراس تجمع شهرياً من اصحاب الدكاكين والمحلات التجارية في اسواق الموصل[٤٩]. ثم انتقلت مهمة حراسة الاسواق في القرن التاسع عشر الميلادي الى رجال الضبطية الذين كانوا يتسلمون رواتب شهرية من خزينة ولاية الموصل كما يتضح من سجلات مصروفات الولاية[٥٠].

كان التعامل التجاري في اسواق الموصل يتم باسلوبين الاول: هو اسلوب المقايضة الذي استمر حتى وقت قريب جداً من عصرنا، أما الثاني: فهو



اسلوب التعامل النقدي بالعملات الذهبية والفضية العثمانية الرسمية والمحلية والاجنبية. وقد استلزم ذلك وجود اشخاص يعملون في مجال الصيرفة كان معظمهم من اليهود[٥١]. اما المصارف فقد تأخر ظهورها في الموصل حتى أواخر القرن الماضي. في سنة ١٨٩٤م افتتح في الموصل فرع البنك الامبراطوري العثماني[٥٢]، وفرع البنك الشرقي (Eastern Bank. LMTD)[٥٣] قبيل الحرب العالمية الاولى مباشرة[٥٤]. وكان في الموصل مصرف آخر اقل اهمية قبل ذلك هو المصرف الكلداني الذي اعلن افلاسه في سنة ١٨٨٠م[٥٥].

قبيل الانتهاء من موضوع الاسواق لابد من الاشارة الى المقاييس والاوزان والمكاييل المعتمدة فيها. فالذراع كان وحدة القياس الاساسية لدى باعة الاقمشة، اما الاوزان والمكاييل فكانت تختلف احياناً عن تلك المعتمدة في بغداد او البصرة، بل كانت تختلف نسبياً من تجارة الى اخرى داخل الموصل. وهذه الاوزان والمكاييل هي[٥٦]:

اولاً: الاوزان والمكاييل المعتمدة عند تجار الصوف والحبوب والسمن والجبن والطحين:

الاوقية = ٠,٢٨ رطل انكليزي.

الحقه = ١٦ أوقيه او ١,٦ حقة اسطنبولي.

وزنة أو مَنْ = ٦ $\frac{١}{٢}$ حقه موصلية

القنطار = ٢٠ وزنه

ثانياً: الاوزان والمكاييل المعتمدة لدى العطارين في بيع السكر والصابون والتوابل والشاي والنيلة وغيرها:

درهم = ٠,٠٧ ليبرة*

أوقية = ٤ دراهم

حقة = ١٢ أوقية او ١,٢ حقه اسطنبولي

مَنْ = ٦ حقه موصلية او ٧,٢ حقه اسطنبولي

القنطار = ٣٠ مَنْ.

ثالثاً: الوزن المعتمد لدى الصاغة وتجار المعادن الثمينة:

قيراط = ٤ غرام

دانق = ٤ قراريط

درهم = ٤ دانق

مثقال = ١ $\frac{١}{٤}$ درهم.

رابعاً: الوزن المعتمد لدى باعة اللحوم والخضراوات هو حقه موصلية تعادل ١٦ أوقية.

الصادرات والواردات:

تألفت صادرات الموصل من سلع ومنتجات مختلفة، منها ماينتج في المدينة ومنها مايرد اليها من المناطق المجاورة ويعاد تصديره. مقابل ذلك كانت الموصل تستورد ماتحتاجه هي والمناطق المجاورة لها من سلع ومنتجات بوصفها سوقاً تجارية رئيسة في القسم الشمالي من العراق[٥٧].

كانت المنسوجات القطنية تُعد، حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، اهم صادرات مدينة الموصل. فقد اشتهرت الموصل بمنسوجاتها القطنية منذ العصر العباسي. وكان القطن اللازم لهذه الصناعة يُزرع في سنجار والقرى المحيطة بالموصل والتي اشتهر بعضها، مثل قرية برطلة بزراعة نوعية جيدة من القطن[٥٨]. وكان كثير من سكان الموصل يعملون في هذه الصناعة ويقسمون الاعمال فيما بينهم من غزل ونسج وصبغ وتقصير وغير ذلك[٥٩]. وقد اشتهرت الموصل في عهد السيطرة العثمانية، كما في السابق، بانتاج نوع فاخر من الاقمشة عرف باسم «موسلين» نسبة اليها. وقد عمل كثير من سكان الموصل في تجارة الاقمشة والمنسوجات القطنية ايضاً[٦٠]. وكانت هذه المنسوجات القطنية تصدر الى حلب بصورة خاصة حيث تباع هناك الى التجار الفرنسيين الذين يقومون بشحنها من هناك الى ميناء مرسيليا[٦١]، كما

تُستهلك كميات كبيرة منها في مدينة حلب ايضاً[٦٢]. والى جانب تجار الموصل نشطت احدى الشركات التجارية الانكليزية، وهي شركة المشرق (Levant Company) في تجـارة الاقـمشـة والمنسوجات بين الموصل وحلب[٦٣].

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تقريباً بدأت تجارة المنسوجات القطنية الموصلية تتراجع تدريجياً بسبب تدهور صناعة النسيج في المدينة حيث لم يعد انتاج بعض انواع المنسوجات يكفي حتى للاحتياجات المحلية[٦٤]. ويُعزى هذا التراجع الى السياسة التجارية العثمانية بالدرجة الاولى. فقد كانت اسواق الولايات العثمانية، بما فيها ولاية الموصل، مفتوحة امام المنتجات الاوربية طبقاً لمعاهدات عقدت بين الدولة العثمانية وبعض الدول الاوربية مثل بريطانيا وفرنسا وغيرها[٦٥]. فقد ضمنت هذه المعاهدات امتيازات كثيرة لرعايا الدول الاخيرة من بينها حرية المتاجرة مع موانيء ومدن الامبراطورية العثمانية. ونتيجة لذلك وجدت الصناعة المحلية في الموصل، كما في غيرها من مدن الامبراطورية العثمانية عاجزة من منافسة منتجات مثيلاتها من الصناعات الاوربية التي تميزت بجودتها ورخص اثمانها خاصة بعد تدشين عصر الثورة الصناعية منذ اواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادي، في وقت كانت فيه الصناعة المحلية في الموصل تقوم على اساس الانتاج الحرفي. وفضلاً عن ذلك كانت المنتجات الاوربية تخضع لضريبة كمركية واحدة نسبتها ٥٪ من قيمتها تدفع مرة واحدة عند دخولها الاراضي العثمانية. في حين كانت المنتجات المحلية خاضعة لضريبة كمركية تصل نسبتها الى ١٢٪ من قيمتها عند تصديرها، كما فرضت نسبة مماثلة على تصديرها من ولاية الى اخرى داخل حدود الامبراطورية العثمانية فضلاً عن ضريبة تبلغ نسبتها ١٪ من قيمتها عند بيعها فيصبح المجموع الكلي للضريبة ١٣٪ من قيمتها.

وقد نتج عن هذه السياسة تشجيع الاستيراد وتثبيط الانتاج المحلي الخاضع لعبء ضريبة اضافي يبلغ ٨٪[٦٦]. وتعكس لنا ملاحظة الرحالة الانكليزي واليس بدج W. Budge، الذي زار الموصل سنة ١٨٨٨م حقيقة ما آلت اليه صناعة المنسوجات الموصلية وتجارتها عند حديثه عن اسواق الموصل قائلاً «...لم اجد فيها حوانيت تبيع العاديات، كما ليس لدى باعة الاقمشة الا ما استورد من مانجستر ومنسوجات حديثة جيْ بها من حلب. وعبثاً حاولت العثور على القماش المعروف بالموصلي (اي الموسلين) الذي انبثق اسمه من اسم مدينة الموصل واشتهر في الشرق كله بسبب من لونه اللطيف ونعومة ملمسه. ان كل ماعُرض عليَّ كان من صنع انكلترا وقد لُف حوله الواح انكليزية وغُلف بورق انكليزي وطبعت عليه اسماء صانعيه من الانكليز»[٦٧].

تأتي الاغنام والمواشي بعد المنسوجات من حيث الاهمية في صادرات الموصل، وكانت هذه تُصدر الى سوريا ومصر واجزاء اخرى من الدولة العثمانية بصورة خاصة[٦٨]. ففي اواخر القرن الماضي كانت الموصل تصدر حوالي ١٠٠٠٠٠ رأس من الاغنام الى سوريا والاناضول سنوياً[٦٩]. وارتفعت اعداد الاغنام المصدَّرة في أوائل هذا القرن بحيث بلغت صادرات الموصل منها الى سوريا فقط ١٠٠٠٠٠ راس في سنة ١٩٠٨م. اما من حيث القيمة فانها بلغت حوالى ٨٠٠٠٠ جنيه استرليني سنة ١٩١٠م ثم انخفضت الى حوالي ٣٥٠٠٠ جنيه استرليني فقط سنة ١٩١٢م بسبب هلاك اعداد كبيرة من الاغنام لقساوة برد شتاء ١٩١٠-١٩١١م[٧٠]. وفي مطلع هذا القرن ايضاً تراوحت قيمة صادرات الموصل من الماعز مابين ٣٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً[٧١]. كما كانت تصدر ما معدله ٢٠٠٠ رأس من الابقار سنوياً وعدداً مماثلاً من الجمال في اواخر القرن الماضي[٧٢]. وكانت تجارة



الخيل رائجة ايضاً حيث كانت الموصل تصدر اعداداً منها الى البصرة حيث تشحن من هناك الى الهند واوربا[٧٣]. وكان هناك اشخاص معينون من قبيلة شمر يتعاطون هذه التجارة حيث يقومون بالتجوال في مناطق القبائل العربية والكردية في المنطقة لشراء الخيول وبيعها بعد ذلك في اسواق الموصل وبغداد وغيرها[٧٤] وقد برزت في مدينة الموصل أسر معينة في تجارة الخيول مثل آل الطالب[٧٥]. ولم يكن تصدير الخيول مستمراً دائماً اذ كانت السلطات العثمانية تفرض حظراً على تصديرها في أوقات مختلفة. ومع عدم توافر ارقام عن اعداد الخيل المصدرة من الموصل فان بعض المصادر تذكر انها كانت تمثل نسبة كبيرة من الخيل المصدرة من العراق عموماً والتي بلغ عددها ١٤١٣ رأس قدرت قيمتها بحوالي ٣٥٣٢٥ جنيه استرليني سنة ١٩١٢م اضافة الى ١٧٤٩ رأس قدرت قيمتها بحوالي ٤٣٧٢٥ جنيه استرليني سنة ١٩١٣م[٧٦].

والى جانب الاغنام والمواشي كانت الموصل تُصدر منتجات حيوانية ايضاً بكميات كبيرة مثل الجلود والصوف وغيرها. إن أحد الارقام الرسمية العثمانية يذكر ان انتاج ولاية الموصل من الصوف في سنة ١٩٠٩- ١٩١٠م فقط بلغ ١٣٥٢٥٢٤ اوقية[٧٧]. وكان تجار الموصل يصدرون هذه المادة الى بغداد وحلب حيث تشحن من الاخيرة الى انكلترا وغيرها من دول اوربا. وقد بلغت قيمة صادرات الموصل من الصوف ٧٩٠٠٠ جنيه استرليني سنة ١٩١٢م، كان نصيب انكلترا منها حوالي ٥٧٠٠٠ جنيه استرليني والبقية الباقية الى دول اخرى[٧٨]. اما الجلود فقد بلغ انتاجها حسب الارقام الرسمية العثمانية ايضاً ١١٠٧٣ جلد بقر و ١٢٠٢٦٠ جلد غنم وماعز في سنة ١٩٠٩- ١٩١٠م[٧٩]. وكان جلد الماعز المدبوغ يُعرف باسم «سختيان»[٨٠] كما كانت الموصل تصدر كميات غير قليلة من المرعز ايضاً حيث بلغت كمية المرعز التي صُدرت من الموصل وبغداد الى الاسواق الانكليزية والامريكية ١٨٠٠ رزمة (بالة) سنة ١٩٠٣م[٨١].

ومن صادرات الموصل المهمة ايضاً الحبوب، خاصة القمح، التي كانت تُصدر الى بغداد والبصرة ومنها الى مناطق اخرى. وقد قُدرت قيمة صادرات الموصل من الحبوب حوالي ٢٠٠٠٠٠ جنية استرليني سنة ١٩١٠م[٨٢].

اما صادرات الموصل من المصنوعات المحلية الحديدية والنحاسية فهي الطناجر وأباريق الماء والقهوة والاواني التي كان يتم تصديرها عن طريق نهر دجلة الى بغداد والبصرة[٨٣]. اضافة الى كميات من الحرير الى سوريا بشكل خاص. ويقدر البعض قيمة صادرات الموصل من الحرير الى سوريا سنة ١٨٧٤ - ١٨٧٥م بما يزيد قليلاً على مايعادل ٤٠٠٠ دينار عراقي[٨٤]. كما كانت الموصل تصدر عرق السوس والمصارين[٨٥]، وقد تأسست شركة امريكية في البصرة سنة ١٩٠٤م لاستئجار اراضي عرق السوس لاستخراجه وكبسه لغرض التصدير، وفي سنة ١٩١١م افتتحت هذه الشركة فرعاً لها في الموصل[٨٦].

وفيما عدا ماسبق كانت الموصل مركزاً لتصدير منتجات اقليم الجزيرة والمنطقة الجبلية الكردية المجاورة. ومن هذه المنتجات العفص والبسط والعباءات والعسل والتبغ والصمغ والبندق والجوز واللوز وغير ذلك. وكان تجار المدينة يصدرون هذه المنتجات الى بغداد وحلب بالدرجة الاولى. ولا تتوافر ارقام عن حجم هذه التجارة عدا بعض شهادات المعاصرين عن تصدير كميات كبيرة جداً من العفص والبندق الى حلب[٨٧]. وتقديرات اخرى حول تصدير مايتراوح بين ٤٠ و ٥٠ طن من العسل سنوياً الى بغداد خلال الفترة ١٩٠٨- ١٩١٢م[٨٨].

اما قائمة الواردات فهي متنوعة ايضاً، فقد



كانت الموصل تستورد من حلب وعن طريقها ايضاً النيلة، التي تستخدم في صبغ المنسوجات والجوخ والاقمشة والحديد والصابون وسلع ومنتجات اوربية اخرى[89]. والسكر والشاي والبن والفلفل والشمع والكبريت والادوية والسجاد والفواكه المجففة ومواد صباغة هندية عن طريق البصرة وبغداد[90]. والنحاس من الاناضول وارمينية والمناطق الكردية. والسجاد والتبغ الاصفهاني والفضة والجواهر واللؤلؤ وشالات كشمير وكرمان من الخليج العربي وبلاد فارس عبر بغداد[91]. ونضيف الى هذه القائمة سلعاً ومنتجات اخرى بدأت تصل الى ميناء البصرة منذ مطلع القرن الحالي وتجد طريقها الى اسواق المدن العراقية، ومنها الموصل. ومن هذه السلع والمنتجات الساعات والمكائن والقوارب البخارية ومكائن الخياطة ومضخات المياه وقطع الحديد والفولاذ والقصدير والمبارد والمناشير وأواني الشاي المعدنية والملاعق وأبر الخياطة والاواني الخزفية والزجاجية وزجاج النوافذ والاسمنت والاصباغ والزيوت والقرطاسية والكحول[92].

ان متابعة حركة صادرات الموصل ووارداتها تبين طبيعة علاقات الموصل التجارية فحتى النصف الثاني من القرن الماضي كانت تجارة الموصل الرئيسة مع حلب وبغداد وبدرجة اقل مع الاناضول وبلاد فارس. وكانت تجارة الموصل مع حلب ذائعة الصيت حتى أصبح مصطلح «تاجر حلب» صفة لكل ذي ثروة في الامثال الشعبية في الموصل[93]. وقد وُصفت مدينة حلب في ثلاثينات القرن الماضي بأنها مركز تجاري "Enter pot" يجهز المناطق المجاورة مثل مرعش وأورفة وديار بكر وماردين والموصل بما تحتاجه من سلع ومنتجات مختلفة[94]. الا أن بعض التطورات المهمة التي حصلت في النصف الثاني من ذلك القرن أدت الى تغيير أساس في نمط علاقات الموصل التجارية. وفي مقدمة هذه التطورات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م، وتأسيس شركات للنقل التجاري في نهر دجلة بين بغداد والبصرة مثل شركة لنج الانكليزية وشركة عمان العثماني التركية، واصلاحات الوالي مدحت باشا في العراق بين سنة ١٨٦٩ و١٨٧٢م وفي مقدمتها محاولة توطين العشائر، ونمو الشركات الاوربية والمحلية وتوسع الطلب الاوربي على المواد الاولية والغذائية[95]. وقد ترتب على كل ذلك، وخاصة افتتاح قناة السويس وتأسيس شركات النقل النهري في العراق، تقليص حجم تجارة الموصل مع حلب. فقد ادى افتتاح قناة السويس الى زيادة تجارة العراق مع أوربا مباشرة، واصبحت انكلترا والهند تشغلان مكان الصدارة في تجارة العراق الخارجية. واصبحت الموصل تستورد احتياجاتها من السلع الانكليزية والاوربية من بغداد بدلاً من بلاد الشام. وكانت هذه العملية أفضل وأسهل واكثر ربحاً بالنسبة لتجار الموصل. وقد حاولت السلطات العثمانية في العراق تشجيع التجارة بين الموصل وبغداد بفتح خط ملاحي بينها في نهر دجلة لكن هذه المحاولة لم تكن ناجحة[96].

ان الارقام المتوافرة عن تجارة الموصل الخارجية في اواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن تظهر مثل هذا التحول بوضوح. في سنة ١٨٨٤ – ١٨٨٥م بلغت قيمة صادرات الموصل مايعادل ٢٥٠٠٠٠ دينار عراقي، كانت حصة انكلترا والدول الاوربية منها ١٧٥٧٠٤ دينار والبقية الى الهند وبلاد الشام وبلاد فارس. وخلال السنوات ١٩٠٩ – ١٩١٢م كانت صادرات الموصل الى انكلترا والدول الاوربية تزيد على نصف صادراتها الكلية[97]. وينطبق هذا الامر على الواردات ايضاً. في اوائل القرن الحالي كانت الموصل تستورد ثلثي احتياجاتها من انكلترا واوربا والثلث المتبقي من الهند وبلاد الشام وبلاد فارس. فقد بلغت قيمة واردات الموصل مامعدله ١٥٨٠٠٠ دينار عراقي سنوياً خلال الفترة



١٩٠٩ - ١٩١٢م كان نصيب انكلترا وأوربا منها اكثر من ٩٠٠٠٠ دينار عراقي والهند ٣٧٠٠٠ دينار والبقية من بلاد الشام وبلاد فارس[٩٨] ولعل الجدول التالي يعزز تصورنا عن التحول في علاقات الموصل التجارية.

«تجارة الموصل الخارجية خلال السنوات ١٩١٠ ١٩١٢،[٩٩]

أ- الصادرات :

السنة	القيمة الكلية (بالجنيه الاسترليني)	نسبة الصادرات الى :			
		انكلترا	الهند	دول اجنبية اخرى	اجزاء اخرى من الدولة العثمانية
١٩١٠	٦٠٩٤٣٠	٪٢٨	٪٥	٪٨	٪٥٩
١٩١١	٣٤٣٣٣٠	٪٤٧	٪٧	٪١٢	٪٣٤
١٩١٢	٤٢٦٠٠٠	٪٣٨	٪٦	٪١٢	٪٤٤

ب- الواردات :

السنة	القيمة الكلية (بالجنيه الاسترليني)	نسبة الواردات من :			
		انكلترا	الهند	دول اجنبية اخرى	اجزاء اخرى من الدولة العثمانية
١٩١٠	١٤١٩٤٠	٪٢٦	٪٢٥	٪٣١	٪١٨
١٩١١	١٦٤٩٤٠	٪٢٠	٪٢٤	٪٣٢	٪٢٤
١٩١٢	١٧٨٢٣٠	٪٢٨	٪٢٣	٪٣١	٪١٨

كان لهذا النمو السريع في تجارة التصدير والاستيراد مع انكلترا ودول أوربا الصناعية الاخرى آثار اقتصادية واجتماعية مهمة. فقد نمت البرجوازية التجارية المحلية وزادت ارباحها، ونظمت هذه البرجوازية نفسها في «غرفة تجارة وزراعة» الموصل منذ اواخر القرن الماضي. فقد ورد في سالنامة الموصل لسنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢ - ١٨٩٣ ذكر هذه الغرفة التي كان يرأسها الحاج أمين افندي ونائبه عبدالله جودت افندي[١٠٠]. وبرزت أسر معينة قامت بدور مهم في تجارة المدينة واستأثرت بعوائدها الاقتصادية حتى الحرب العالمية الاولى مثل آل الجادر وآل الصابونجي وغيرهما[١٠١].

وترتب على هذه العلاقات التجارية الجديدة ايضاً ارتباط العراق عموماً بالسوق العالمية وتحول اقتصاده من اقتصاد قائم على الاكتفاء الذاتي تقريباً الى اقتصاد قائم على اساس الانتاج الواسع لغرض التصدير وتحقيق الارباح. فقد ادى الطلب المتزايد على المنتجات الزراعية والحيوانية الى زيادة رقعة الاراضي المزروعة بشكل ملحوظ وصاحب ذلك زيادة الاستغلال الاقطاعي للفلاحين.

وعلى أية حال فإن هذه التجارة النامية بين الموصل من جهة وانكلترا وأوربا من جهة اخرى تعرضت الى نكسة خلال السنوات الاربع الاخيرة من الحكم العثماني، اي سنوات الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨. ذلك ان اشتراك الدولة العثمانية في تلك الحرب الى جانب دول الوسط ضد دول الحلفاء لم يؤدِ الى وقف التبادل التجاري بينها وبين الدول الأخيرة حسب، بل الى تحول العراق الى ساحة حرب بين القوات العثمانية والقوات الانكليزية التي بدأت باحتلال القسم الجنوبي منه منذ نهاية سنة ١٩١٤. كما ان اجراءات العثمانيين في ولاية الموصل خلال الحرب أدت الى تدهور أوضاعها الاقتصادية. فقد جرّد العثمانيون معظم القرى من رجالها بوساطة التجنيد، كما توقفت حركة النقل والزراعة بسبب مصادرة عدد كبير من حيوانات النقل للاغراض العسكرية، وتركت ٥٠٪ من الارض الزراعية دون زراعة. وكانت النتيجة معاناة الموصل من مجاعة رهيبة في شتاء ١٩١٧ - ١٩١٨م راح ضحيتها حوالي ١٠٠٠٠ نسمة[١٠٢]. وفي ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ انتهى عهد السيطرة العثمانية بانسحاب القوات العثمانية منها ودخول قوات الاحتلال البريطاني الى المدينة.



الهوامش

(١) عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي ١٧٢٦ - ١٨٣٤م (النجف- مطبعة الاداب- ١٩٧٥) ص ٢٩٤.

(٢) ياسين بن خيرالله العمري، زبدة الآثار الجلية في الحوادث الارضية (النجف- مطبعة الآداب- ١٩٧٤- تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف) ص ص ٥٠- ٥٧.

(٣) هاملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الاسلامي والغرب (القاهرة- دار المعارف- ١٩٧١- ترجمة احمد عبدالرحيم مصطفى) ج ٢، ص ٦.

(٤) رؤوف، المصدر السابق، ص ٢٩٤.

(٥) جان باتيست تافرنييه، العراق في القرن السابع عشر (بغداد- مطبعة المعارف- ١٩٤٤ - ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد) ص ٥٨.

(٦) دومنيكو لانزا، الموصل في القرن الثامن عشر (الموصل- د. ط - ١٩٥٣- ترجمة روفائيل بيداويد) ص ١٧.

(٧) كانت تجارة الموصل مع بغداد تتم عبر ثلاثة طرق، الاول طريق ذو اتجاه واحد في نهر دجلة من الموصل الى بغداد حيث تُشحن البضائع بالأكلاك (العوامات)، والثاني طريق القوافل التجارية غرب نهر دجلة مروراً بمدن تكريت وسامراء، والثالث طريق القوافل التجارية شرق نهر دجلة مروراً بأربيل وكركوك ويتفرع عن هذا الطريق في اربيل اكثر من طريق بري الى السليمانية وكوي وراوندوز. وكان التجار يفضلون طريق شرق دجلة على طريق غرب دجلة لأن الاخير يمر عبر البادية حيث تقل القرى ومصادر المياه فضلاً عن مخاطر التعرض للسلب والنهب فيه على يد قبائل المنطقة. اما تجارة الموصل مع المنطقة الكردية فكانت تتم عبر طرق قوافل برية تربطها بمدن دهوك وعقرة والعمادية وزاخو. اما تجارتها مع البلدان المجاورة فكانت تتم عبر طرق برية عديدة للقوافل التجارية تربط الموصل بهمدان وكرمنشاه في بلاد فارس عبر راوندوز والسليمانية، وطريق آخر يربطها بمدن الاناضول المهمة مثل سعرت وبتليس وطرابزون وديار بكر وغيرها عبر زاخو، واكثر من طريق يربطها بمدينة حلب وميناء الاسكندرونة في بلاد الشام. انظر، موصل ولايتي سالنامه سي ١٣٢٥هـ، ص ٣١؛ رؤوف، المصدر السابق، ص ص ٢٩٥- ٢٩٨. خليل علي مراد، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٦٣٨ - ١٧٥٠ م (رسالة ماجستير غير منشورة- جامعة بغداد- كلية الآداب- ١٩٧٥) الصفحات ٣٧١- ٣٧٥ و٤٠٨- ٤١٥.

(٨) ليونهارت راوولف، رحلة المشرق الى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين (بغداد- دار الحرية للطباعة- ١٩٧٨- ترجمة سليم طه التكريتي) ص٢٠٥.

(٩) ج. أ. اوليفييه، رحلة اوليفييه الى العراق ١٧٩٤ - ١٧٩٦م (بغداد- مطبعة المجمع العلمي العراقي- ١٩٨٨- ترجمة يوسف حبي) ص ٤٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ص ٤٧- ٤٨.

(١١) «رحلة الى مابين النهرين في مطلع القرن التاسع عشر» ترجمة البير ابونا، مجلة بين النهرين- السنة الثانية- العدد ٥- ١٩٧٤، ص ٨٤.

(١٢) كان عبدالجليل اغا جد الاسرة الجليلية قد ولد في ديار بكر سنة ١٦٢٠م في اسرة تجارية غنية. وقد عمل في التجارة وكانت اكثر تجارته مع الموصل وبغداد، ثم انتقل الى الموصل حيث استقر فيها. انظر، عصام الدين عثمان بن علي بن مراد العمري، الروض النظر في ترجمة ادباء العصر (بغداد- مطبعة المجمع العلمي العراقي- ١٩٧٤- تحقيق سليم النعيمي) ص ٥٠٥.

• بخصوص هذه الضرائب راجع الفصل الخاص بالنظام المالي العثماني في الموصل في هذه الموسوعة.

(١٣) كارستن نيبور، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر (بغداد- شركة دار الجمهورية- ١٩٦٥- ترجمة محمود حسين الامين) ص ١٠١.

(١٤) تولى محمد باشا الجليلي ولاية الموصل بين سنة ١٧٨٩ و ١٨٠٦م.

(١٥) اوليفييه، المصدر السابق، ص ص ٤٩- ٥١.

(١٦) ياسين العمري، المصدر السابق، ص ٩٧؛ عبد الرحمن بن عبدالله السويدي، تأريخ بغداد او حديقة الزوراء في سيرة الوزراء (بغداد- مطبعة الزعيم- ١٩٦٢- تحقيق صفاء خلوصي) ج ١، ص ١٨؛ رؤوف، المصدر السابق، ص ٣٠٨.

(١٧) ياسين العمري، غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر (الموصل- مطبعة ام الربيعين- ١٩٤٠) ص ٢١.

(١٨) ياسين العمري، المصدر السابق، ص ١٢١، والقرش عملة فضية عثمانية معروفة سكت في سنة ١٦٨٨م وكانت تساوي ٤٠ پارة او ١٢٠ آقجة عثمانية. انظر،
Ziya Karamursel; Osmanli mali tarihi hakkinda tetkikler (Ankara – 1940) P, 215; H. Gibb & H. Bowen: The Islamic Society and the West (Oxford – 1957) Part II, PP, 53 – 54.

(١٩) ياسين العمري، المصدر السابق ص ص ٤٨، ٧١، ٧٤؛ ابراهيم خليل احمد «اوضاع الموصل الاقتصادية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين» مجلة آداب الرافدين- جامعة الموصل- العدد ٧- تشرين الاول ١٩٧٦، ص ٢٢٢.

(٢٠) جاسم محمد حسن، العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦- ١٩٠٩ (رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة بغداد- ١٩٧٥) ص ص ١٧٤- ١٧٧.

(٢١) احمد، المصدر السابق، ص ٢٢٢. والليرة عملة ذهبية عرفت باسم «عثماني التوني» اي الذهب العثماني وقد سكت سنة ١٨٤٤ وكانت تعادل ١٠٠ قرش في البداية ثم جرى تعديل قيمتها بعد انقلاب الاتحاديين سنة ١٩٠٨ فأصبحت تعادل ١٠٢ قرش و ٢٤ بارة. اما قيمتها في السوق فقد وصلت الى ١٠٨ قروش.



انظر: غانم محمد علي، النظام المالي العثماني في العراق ١٨٣٩ - ١٩١٤م (رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الاداب - جامعة الموصل - ١٩٨٩) ص ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢٢) جون غوردن لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي (الدوحة - د.ت - ترجمة لجنة من الاساتذة) جـ٤، ص١٧٨٩؛ ولتوضيح مدى اضطراب حالة الاسواق يومئذٍ نذكر ان الموصل التي كانت تصدر الحبوب بكميات كبيرة في الظروف الاعتيادية اضطرت في تلك السنة الى استيراد كميات كبيرة منها من ديار بكر انظر؛

Gengiz Orhanlu ve T. Işksal; "Osmanli devrinde nehir nakliyati hakkinda arastirmalar, Dicle ve Firat nehirlerinde nakliyat" Türk tarih dergisı, cilt xlll, Sayi 17 – 18, p, 94.

(٢٣) روبرت أولسون، حصار الموصل والعلاقات العثمانية - الفارسية ١٧١٨ - ١٧٤٣م (الرياض - دار العلوم للطباعة - ١٩٨٣ - ترجمة عبدالرحمن الجليلي) ص ٣٠٢.

(٢٤) ياسين العمري، زبدة الاثار.. ص ٨٠.

(٢٥) ياسين العمري، غرائب الاثر... ص٧٢.

(٢٦) المصدر نفسه، ص٥٤.

(٢٧) فلاديمير ب. لوتسكي، تاريخ الاقطار العربية الحديث (موسكو - دار التقدم - د.ت - ترجمة عفيفة البستاني) ص١٦٩.

(٢٨) ياسين العمري، غرائب الاثر... ص٦١.

(٢٩) رؤوف، المصدر السابق، ص٤٥٣.

(٣٠) تافرنيه، المصدر السابق، ص٥٩.

(٣١) مصطفى بن كمال الدين الدمشقي الصديقي، كشط الصدأ وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان (نسخة مخطوطة في مكتبة المجمع العلمي العراقي، رقم ٥٤/ م) ورقة - ٩.

(٣٢) نيبور، المصدر السابق، ص١١١.

(٣٣) محمد امين بن خيرالله الخطيب العمري، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء (الموصل - د. ط - ١٩٦٧ - تحقيق سعيد الديوه جي) جـ١، ص٦٢.

(٣٤) رؤوف، المصدر السابق، ص٤٥٥. وخان المفتي مايزال قائماً حتى الوقت الحاضر حيث يقع بين سوق باب السراي وسوق الصفارين وزقاق حمام الصالحية حيث اصبح الطابق السفلي منه سوقاً لبيع الاسرة الحديدية والاسفنج والسجاد، اما الطابق العلوي فيضم عدداً من الخياطين والسراجين انظر؛ هاشم خضير الجنابي، التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة (الموصل - دار الكتب للطباعة - ١٩٨٢) ص ٤٥.

(٣٥) رحلة الى مابين النهرين في القرن التاسع عشر، ص٨٤.

(٣٦) موصل ولايتي - سالنامة سي، ١٣١٢هـ، ص٢٦٢.

(٣٧) موصل ولايتي سالنامه سي، ١٣٢٥هـ، ص١٣٠.

(٣٨) من هذه الخانات خان الجلود وخان عبو التتنجي وخان الحجيات وخان المقصوص وخان الكرك وخان السواد وخان القلاوين وخان حمو القدو وخان المفتي وخان الحديد والفحم وخان حاج قاسم أغا. ولمزيد من التفاصيل انظر، الجنابي، المصدر السابق، ص ص٣٢ - ٤٩.

(٣٩) سليمان الصائغ، تاريخ الموصل (القاهرة - المطبعة السلفية - ١٩٢٣) جـ١، ص٣١٣؛ عباس العزاوي؛ تاريخ الضرائب العراقية (بغداد شركة للطباعة والتجارة - ١٩٥٩) ص٥١، سعيد الديوه جي؛ اعلام الصناع المواصلة (الموصل - مطبعة الجمهور - ١٩٧٠) ص ص ٦١ - ٦٣، رؤوف: المصدر السابق، ص ٤٤٣.

(٤٠) جيمس بكنغهام: رحلتي الى العراق (بغداد - مطبعة اسعد - ١٩٦٨ - ترجمة سليم طه التكريتي) جـ١، ص٦١.

(٤١) رؤوف، المصدر السابق، ص٥٤١.

(٤٢) «رحلة الأب فننشنسو الى العراق» ترجمة بطرس حداد - مجلة مجمع اللغة السريانية، المجلد الاول - ١٩٧٥ - ص١٩٦.

(٤٣) جاكسون، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧م (بغداد - مطبعة الاسواق التجارية - د.ت - ترجمة سليم طه التكريتي) ص١٠٥.

(٤٤) بكنغهام، المصدر السابق، ص٦١.

(٤٥) سربدج، رحلات الى العراق (بغداد - دار الزمان - ١٩٦٦ - ترجمة فؤاد جميل) جـ١، ص ص٢٨٨ - ٢٨٩؛ «مشاهدات جون آشر في العراق سنة ١٨٦٤» ترجمة جعفر خياط - مجلة سومر - المجلد ٢١ - الجزء ١ - ٢ - السنة ١٩٦٥، ص ص ٩٣ - ٩٤.

(٤٦) Omer L. Barkan: xv ve xvi, asirlarda Osmanli imparatorlugunda Zirai ekonominin hukuki ve mali esasleri, cilt, I, Kanunlar (Istanbul – 1943) p, 179.

(٤٧) الدستور، مجموعة التنظيمات العثمانية (بيروت - المطبعة الادبية - ١٣٠١ هـ - ترجمة نوفل نعمة الله نوفل) جـ٢، ص٦٦٨.

(٤٨) عسسية من كلمة عسس وعسا وعسسا التي تعني التجول او التطواف ليلاً.

(٤٩) Barkan; Op. cit, p, 179.

(٥٠) راجع بعض هذه السجلات في؛ موصل ولايتي سالنامه سي ١٣٠٨هـ، ص ص ١٠٦ - ١٠٧، وموصل ولايتي سالنامه سي ١٣١٠هـ، ص ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٥١) راجع التفاصيل في، علي، المصدر السابق، ص ص ١٨٢ - ١٨٦.

(٥٢) تأسس هذا البنك رسمياً في ١ حزيران ١٨٦٣م ولكنه في حقيقته يُعد امتداداً للبنك العثماني الذي سبق ان تأسس سنة ١٨٥٦م برؤوس اموال انكليزية صرفة. واقتصر نشاط البنك العثماني على القيام بجميع عمليات البنك التجاري دون ان يكون له حق اصدار الاوراق النقدية في البداية. وما لبث ان تحول الى بنك مركزي للدولة سنة ١٨٦٣م بعد دخول رؤوس الاموال الفرنسية واليهودية اليه واصبح يعرف باسم البنك الامبراطوري العثماني. راجع، علي؛ المصدر السابق ص ص١٨٨ - ١٨٩.

(٥٣) تأسس هذا البنك في انكلترا سنة ١٩٠٩ م برأسمال قدره ٣٠٠ ألف جنيه استرليني، وراسمال احتياطي قدره مليون جنيه استرليني وضمانات قدرها خمسة ملايين و ٨٨٥ ألف جنيه استرليني. وكان المقر الرئيس للبنك في لندن، اما فروعه فقد توزعت على الهند وجزيرة سرنديب والعراق - انظر، تقويم العراق لسنة ١٩٢٣ (بغداد - مطبعة العراق ١٩٢٣) ص ٢٢١.

(٥٤) احمد، المصدر السابق، ص٢٣٥.

(٥٥) مدام ديولافوا، رحلة الى العراق سنة ١٨٨١م) بغداد مطبعة اسعد - ١٩٥٨ ترجمة علي البصري) ص٨٣.

(٥٦) Great Britain, Admirality intelligence department, A Hand book of Mesopotamia (London - 1918) vol. I, P, 240.

* Libra وحدة وزن تعادل ٠,٤٥٣٦ كغم في النظام الانكليزي.

(٥٧) Gr. Britain Admirality; Op. cit, p, 196.

(٥٨) كانت برطلة مشهورة بزراعة نوعية جيدة من القطن قبل ذلك ايضاً، انظر:

Hamd - Allah Mustawfi: The geographical part of Nuzhat Al - Qulub (Leiden - Brill - 1919 - trans by. G. Lestrang) p, 103.

(٥٩) لانزا، المصدر السابق، ص ص ١٥ - ١٦.

(٦٠) الديوه جي، المصدر السابق. ص ص٣٨ - ٣٩.

(٦١) رؤوف: المصدر السابق، ص٢١٩.

(٦٢) الاب فرديناند توتل اليسوعي: وثائق تاريخية عن حلب (بيروت - المطبعة الكاثوليكية - د.ت) جـ١، ص٣٩.

(٦٣) Ralph Davis: Aleppo and Devanshire Square, English traders in the Levant in the eighteenth century (London - 1967) p, 125.

وكانت شركة المشرق قد تأسست سنة ١٥٨١م واستمرت في نشاطها التجاري مع المشرق لمدة تزيد على قرنين من الزمان بعد تأسيسها وكانت الشركة تستورد الحرير الخام والقطن والتوابل من المشرق بالدرجة الاولى وتصدر اليها بالمقابل الاقمشة الصوفية وكميات قليلة من النحاس والقصدير. وكانت لها ثلاثة مراكز تجارية مهمة هي حلب وأزمير واسطنبول لمزيد من التفاصيل راجع، عبدالامير محمد أمين «التنافس بين الشركات التجارية الانكليزية في منطقة الخليج العربي والاقطار المجاورة خلال القرن السابق عشر والثامن عشر» مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد - العدد ٦ - نيسان ١٩٦٣ - وكذلك

Alfreed G. Wood; A history of the Levant Company (London - 1964).

(٦٤) Charles Issawi (ed.); The economic history of the Middle East 1800 - 1914 (Chicago - 1975) p, 51.

(٦٥) تم توقيع اولى هذه المعاهدات سنة ١٥٣٥م بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا وتبعتها معاهدات مماثلة مع الدول الاوربية الاخرى بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر. وقد اصبحت هذه المعاهدات اساساً لنظام الامتيازات الاجنبية في الامبراطورية العثمانية.

(٦٦) محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق، التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ١٨٦٤ - ١٩٥٨ (بيروت - المكتبة العصرية - ١٩٦٥) جـ١، ص ص ٣٣٩ - ٣٤٠ وقد تنبهت الحكومة العثمانية في وقت متأخر الى مخاطر هذه السياسة حيث عدلتها بعد عقد سلسلة من المعاهدات مع انكلترا وفرنسا وايطاليا والنمسا وهولندا وبلجيكا وروسيا والسويد واسبانيا والدانمرك بين سنة ١٨٦١ و ١٨٦٢م أسفرت عن دفع رسوم الواردات الى ٨٪ وخفض نسبة رسوم الصادرات الى ٨٪ على ان يستمر تخفيض رسوم الصادرات بعد ذلك تدريجياً، راجع، علي: المصدر السابق. ص ١١٥.

(٦٧) بدج: المصدر السابق، جـ١، ص ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٦٨) Gr. BritainAdmirality; Op. cit., pp, 204, 224.

(٦٩) موصل ولايتي سالنامه سي، ١٣١٢ هـ، ص٢٦٧.

(٧٠) Gr. Britain Admirality; Op. cit., p, 223.

(٧١) ل. ن. كوتلوف، ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق (بغداد - ١٩٨٥ - ترجمة عبدالواحد كرم) ص٩١.

(٧٢) جاسم محمد حسن: المصدر السابق، ص ص ٣١٠ - ٣١١.

(٧٣) استمرت تجارة خيول الموصل، وهي من الانواع الجيدة، رائجة في الهند لحين ظهور السيارات التي قضت على هذه التجارة. انظر: داؤد الجلبي «مكانة الموصل في الاقتصاديات العامة» مجلة غرفة تجارة بغداد - السنة ٤ - الجزء ٨ - تشرين الاول ١٩٤١، ص ٥٩٧.

(٧٤) Gr. Britain Admirality: Op. cit, p, 223

(٧٥) يظهر مما ذكره سليمان فيضي ان آل الطالب تخصصوا في تجارة الخيول مع الهند بالذات، سليمان فيضي، في غمرة النضال (بغداد شركة التجارة والطباعة المحدودة - ١٩٥٢) ص ١٤١.

(٧٦) Gr. Britain Admirality: Op. cit, p, 223

(٧٧) Justin McCarthy: The Arab World, Turkey and the Balkans 1878 -1914 (Boston - 1982) p, 300.

(٧٨) Gr. Britain Admirality; Op. cit, P, 219.

(٧٩) Mc Carthy; Op., cit., P,302.

(٨٠) الاب انستاس ماري الكرملي «الزراعة والتجارة في العراق سنة ١٩٠٣» مجلة غرفة تجارة بغداد - السنة ٤ - الجزء ٨ - تشرين الاول ١٩٤١ - ص ٦٥٤.

(٨١) المصدر نفسه، ص٦٥١.

(٨٢) Gr. Britain Admirality; Op. cit., p, 216.

(٨٣) جاكسون، المصدر السابق، ص١٠٥: موصل ولايتي سالنامه سي، ١٣١٢ هـ، ص٢٦٦.

(٨٤) محمد سلمان حسن: المصدر السابق، ص٩٠.

(٨٥) كانت مصارين الاغنام المُعدة للتصدير توضع في ظرف ثم يوضع الظرف في صندوق يُطلى بالقار ثم يغلف بكيس (گونية) ويطلى بعد ذلك بالقار مرة اخرى لئلا يتسرب الهواء الى داخلها فتفسد المصارين. انظر، الكرملي، المصدر السابق، ص ٦٥٦. الكرملي، المصدر السابق، ص٦٥٦.

(٨٦) محمد سلمان حسن، المصدر السابق ص١٣٥.



(٨٧) لانزا ؛ المصدر السابق ، ص١٨ ، نيبور؛ المصدر السابق ، ص١١٤.

(٨٨) ابراهيم حلمي «الاشتيار او جمع العسل في ديار الكرد» مجلة لغة العرب- بغداد- السنة ٢- الجزء ١٠ - جمادي الاولى ١٣٣١ هـ/ نيسان ١٩١٣م ، ص٤٥٣.

(٨٩) لانزا ؛ المصدر السابق ، ص ص١٦ - ١٧ ، توتل : المصدر السابق ، ص ص٤٩ ، ٦٦ ، سهيل قاشا ؛ «الموصل في مذكرات الرحالين الاجانب في فترة الحكم العثماني» مجلة بين النهرين- العدد ٢١ - السنة ٦ -١٩٧٨، ص٢٠.

(٩٠) محمد سلمان حسن : المصدر السابق ، ص٢٥٣ ؛ رؤوف؛ المصدر السابق ، ص٣٠٢.

(٩١) قاشا ؛ المصدر السابق ، ص ص٢٢ - ٢٣.

(٩٢) محمد سلمان حسن : المصدر السابق ، ص٢٥٦ ، حسين محمد القهواتي : دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩- ١٩١٤م (بغداد- مطبعة الارشاد- ١٩٨٠) ص ص ٤٤٠-٤٤١.

(٩٣) رؤوف ؛ المصدر السابق ، ص ٣٠٠

(٩٤) Issawi; Op. cit., p.223.

(٩٥) محمد سلمان حسن ؛ المصدر السابق ، ص ص ٨٧ - ٨٨ ، ١٢٩ ، وبشأن تفاصيل وافية عن شركات النقل النهري في العراق ودورها التجاري خلال الفترة المذكورة ، راجع ، القهواتي ؛ المصدر السابق ، ص ص ٢٠٤ - ٢٩١.

(٩٦) Roger Owen: The Middle East in the world economy 1800 – 1914 (London– 1981) p, 183.

(٩٧) محمد سلمان حسن : المصدر السابق ، ص١٣١.

(٩٨) المصدر نفسه ، ص٢٥٥.

(٩٩) Gr. Britain Admirality; Op. cit., p. 201.

(١٠٠) موصل ولايتي سالنامه سي ، ١٣١٠ هـ ، ص ٨١.

(١٠١) احمد ؛ المصدر السابق ، ص٢٣٩.

(١٠٢) المس بيل ؛ فصول من تاريخ العراق القريب (بيروت - مطبعة دار الكتب- ط٢- ١٩٧١- ترجمة جعفر الخياط) ص١٦٨.

الحياة الاجتماعية

التنظيمات الاجتماعية

أ. د عماد عبد السلام رؤوف

نقابة الأشراف :

ضمت الموصل ، مثلها في ذلك مثل أغلب الولايات العربية الأخرى ، نقابة للأشراف ، وظيفتها الأساسية العناية بأمور المتحدرين من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وضبط أنسابهم وتدقيقها . وكانت هذه النقابة قد تأسست قبل نحو خمسة قرون تقريباً من بدء الحكم العثماني للمدينة ، أي في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . صحيح أن ثمة أشارات عدة تدل على وجود أفراد وربما أسر علوية قبل ذلك التأريخ أيضاً ، الاّ أن ظهور نقابة خاصة بهم لم يحدث الاّ نحو سنة ٤٣١ هـ/١٠٣٩ م ، حين أستقر في الموصل نقيب العلويين في مدينة بغداد الزاهد محمد أبو البركات ابن الأمير زيد ضياء الدين بن الأمير أحمد بن الأمير محمد بن محمد الأشتر بن عبيدالله بن علي بن عبيد الله بن علي الصالح بن عبيدالله الأعرج من ذرية الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم[١] ، وكانت تقاليد الحكم والنقابة قد أستقرت لدى الأسرة منذ عهد جدهم عبيدالله الأعرج وذلك لتولي رجالها الأمارة والنقابة في الكوفة جيلاً بعد جيل ، ومايتصل بذلك من مسؤوليات خاصة ، مثل أمارة الحج بوجه خاص ، حتى قال الناس «السماء لله والأرض لبني عبيدالله»[٢] . ولذا لم يكن غريباً أن تنتقل هذه التقاليد الى الموصل ، إثر نزول محمد ابي البركات فيها ، فكان تأسيس نقابة للأشراف ، تنطبق حدودها الجغرافية على أقليم الجزيرة الذي تعد مدينة الموصل قاعدته في ذلك العصر ، وبينما أستقر احد ولدي ابي البركات ، ويدعى الشريف زيد ضياء الدين (ت٥٦٣هـ/١١٦٧م) في الموصل ، متولياً شؤون نقابتها ، أستقر الشريف علي شهاب الدين في نواحي نصيبين وديار بكر ، ليتولى نقابة تلك المنطقة الواسعة ، وأن لبث - من ناحية



الأشراف والتوجيه – تابعاً الى نقيب الموصل ، ولهذا السبب لقب نقيب العلويين في الموصل بـ (نقيب النقباء في الموصل وديار بكر ونصيبين) . وأستمر نقباء الموصل يحملون هذا اللقب حتى سنة ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م ، وكان الأخيرون يقضون فصل الصيف غالباً في نصيبين ، أو في مدينة حصن كيفا القريبة منها ، ليتولوا الأشراف هناك على أعمال فرع نقابتهم .

ولقد أدت نقابة الأشراف في الموصل وتوابعها أدواراً سياسية وأجتماعية مهمة منذ عهد تأسيسها ، فَبَرزَ من رجالها في أواخر العصر العباسي من تولى الوزارة[٣] وتولى أحدهم ، في عهد الأحتلال المغولي ، حكم الموصل ،[٤] وكان لبعضهم دور في دفع الأذى عن مدينتهم في أثناء الأحتلال التيموري سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م[٥] . ووصفهم ابن عنبة النسابة في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) بأنهم «أهل رياسة قديمة والى الآن»[٦] .

وكان دخول العثمانيين الموصل بداية لتغيّر مهم في نقابة الموصل ونصيبين ، ففي أواخر سنة ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م أنفصلت المنطقتان أدارياً ، واستتبع ذلك ايجاد نقابة مستقلة : في كل من الموصل ونصيبين ، وأصدر السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٢٠–١٥٦٦) فرماناً يتضمن إنشاء (نقابة للأشراف) في كل مدينة كبيرة من مدن الدولة ، ومن هذا التأريخ أصبح لقب النقيب في الموصل هو (نقيب الأشراف) كما حمل النقباء في المدن الأخرى هذا اللقب أيضاً .

وليست ثمة معلومات كافية توضح دور نقابة الأشراف في الحقبة الأولى من الحكم العثماني في الموصل ، وأن كانت ثمة أشارة تدل على محاولة رجالها تأكيد دورهم في الحياة الأجتماعية فيها ، فقد أحيوا بعض الاحتفالات الدينية ، وكانوا في أثنائها «يطوفون في الأسواق والأزقة» .[٧] ومن الراجح أنهم كانوا يقيمون في القسم الجنوبي من البلدة ، وهو القسم المكتظ بالسكان في ذلك العصر ، ولكن أصطدامهم ببعض الأسر الموصلية القوية هناك ، ثم بحكومة الولاية نفسها ، أدى الى نقلهم للسكن في القسم الشمالي من مدينة الموصل ، والخالي يومذاك ، فعمروه وأقاموا فيه ، حتى عُرِفَ فيما بعد «بمحلة السادة»[٨] .

وأدى ظهور آل الجليلي وتوليهم حكم ولاية الموصل أكثر من قرن كامل (١١٣٩ – ١٢٤٩ هـ / ١٧٢٦ – ١٨٣٤ م) الى تغير مهم في طبيعة نقابة الأشراف ، فلم تعد تصنف ضمن القوى الشعبية المعارضة ، كما رأينا من قبل ، ذلك أن زعامة الجليليين قد أستقطبت جميع تلك القوى في كفاحها من أجل توطيد الحكم المحلي في الموصل ، ولذا فأننا لم نسمع بأي دور قيادي شعبي للنقابة طيلة الحقبة المذكورة[٩] ، وأنما وضع رجالها ثقلهم الى جانب الحكومة المحلية بحسبانها المعبرة عن روح الموصل نفسها . قال العمري[١٠] : «وكان لهم أتصال بخدمة ملوك (أي ولاة) الموصل ثم بخدمة ملوك (ولاة) بغداد فصارت لهم التقدمة وحصلت لهم الرياسة التامة» . وتولت أسرة النقباء وظائف شرعية مهمة ، كأفتاء الحنفية ، والقضاء أحياناً ، وبرز منها نقباء أشتهر معظمهم بسعة الثقافة والتأليف ، منهم السيد حسن أفندي المُفتي (ت ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧ م) والسيد فيض الله النقيب بن علي وغيرهم[١١] .

وكانت مُهمة النقيب الوحيدة هي : تدقيق أنساب الاشراف ودراستها وعدم المصادقة على صحة أي نَسب دون التأكد منه . وكان تأني النقيب في أثبات صحة الأنساب المقدمة اليه ، وتمهله في دراستها ، وعدم وثوقه بالشهود ، مثار تبرم بعض المعاصرين[١٢] . اذ كان للأشراف – عادة – من الأمتيازات الأجتماعية ما لايستهان به ، وكان تزييف الأنساب من الأمور المحتملة الحدوث دوماً ،



لذا فقد توجب عليه أن يحفظ أنسابهم ممن دخل فيها وليس منها، أو خرج عنها وهو منها، ويثبت هذه الأنساب في ديوان خاص يسمى «بحر الأنساب» أو «جريدة الأنساب». كما أنه كان يفصل في الدعاوي القائمة بين الأشراف أنفسهم، وبينهم وبين الآخرين أيضاً، وله أن يعاقبهم ويقيم الحدود عليهم اذا أرتكبوا مخالفة شرعية أو قانونية، وله الحق في أستيفاء حقوقهم، أو وضع الحجر عليهم.

الأصناف:

شهدت الموصل، خلال القرن الثامن عشر، أنتعاشاً واضحاً لحركة أقتصادية نشطة أستدعى الى قيامها ظهور الطبقة التجارية القوية في الولاية، فتحولت الموصل – تدريجاً – الى مركز تجاري مهم يصل بين تجارة البحر المتوسط وبين الخليج العربي والمحيط الهندي، وأدى ظهور هذه الطبقة التجارية النشطة الى زيادة أهمية المدينة ذاتها، وماتمثله من نشاطات صناعية مهمة تصلح للتبادل والتجارة، وبخاصة صناعة الأنسجة التي كانت تعد أهم الصناعات الموصلية وأكثرها حيوية في التبادل التجاري.

وكان طبيعياً أن يؤدي تركز النشاط الحرفي، وتقدم الصناعة اليدوية في مدينة الموصل، وأزدياد طلب التجار لها، الى محاولة خلق ظروف جديدة للعمل، والخروج من نطاق الحرفة المنزلية الى مجال العمل الجماعي الأكثر رقياً، وذلك لتحقيق أنتاج أكثر وأسرع يفي بمطالب التجارة الواسعة. فكان من نتيجة هذا أن نشأت معامل بسيطة لأنتاج مختلف السلع، وخاصة الأنسجة بأنواعها. وقد أشاد رحالون أوربيون زاروا الموصل في تلك الحقبة بمعامل النسيج والنحاس والحديد القائمة في المدينة آنذاك.

ونتيجة النشاط الحرفي المتزايد تعاظمت أهمية (الأصناف) كتنظيمات أقتصادية – أجتماعية تحمي أصحاب كل حرفة من التعدي، وتضمن مستوى مقبولاً للمهنة، وتحدد أسعار منتجاتها. وثمة أشارات تدل على أرتفاع شأن هذا النظام وأزدياد أهميته، ففي عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م أثارت الأرباح التي تجنيها اصناف الحرفيين أهتمام «أعيان الموصل» الذين يظهر لنا أنهم – هنا – من أرباب الأقطاعات الزراعية، فأقترحوا فرض ضريبة سنوية (صاليان = ساليانه) على «أرباب الصنائع والحرف» الذين بلغ عددهم آنذاك نحو ثلاثة آلاف، ولكن الأقتراح واجه معارضة قيل أنها أستندت الى أُسس أخلاقية دينية[١٣]، ومن المحتمل أن سلطة المدينة خشيت أن هي فرضت مثل تلك الضريبة أن تثير معارضة ذلك العدد الكبير نسبياً من المنتجين، وهو أمر يمكن أن يقلق السلطة مما يدل على قوة الأصناف الأقتصادية وتحولها للتعبير عن مصالحها بأساليب سياسية.

وكان تكليف سلطة الولاية لثلاثة من أعيان الموصل بدفع هذه الضريبة وحدهم يؤلف مناورة ذكية لتجنب الأصطدام بالأصناف مباشرة، والاّ فأن أُولئك الثلاثة – وهم إسماعيل أغا (باشا فيما بعد) الجليلي، وقره مصطفى بك، وعلي أفندي المفتي العمري – كانوا يعملون بالتزام الضرائب على أصناف الحرف في الموصل، أي أن مصدر ثرواتهم هي الاصناف ذاتها. ونحن نعلم ان الجليليين، قبل أن يتولوا حكم الولاية، كانوا يلتزمون ضمان رسوم الأحتساب المعروفة في العراق بـ «التمغا» وهو يعني جمع الضرائب من المرافق الأقتصادية في البلد[١٤]. وبلغت ثروات ضامني الاصناف الى حد أنهم أشتركوا في تنفيذ مشروع ضخم عجزت ميزانية الولاية نفسها عن تحمل نفقاته، وهو بناء قناطر حجرية ثابتة لجسر الموصل العائم، بعد أن كانوا «أُدوا الصاليان عن الأصناف والرعية»[١٥].

ويذكر محمد أمين العمري[١٦] (توفي سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨ – ١٧٨٩م) أن من الأسباب



التي مكنت آل الجليلي من الوصول الى السلطة ماعرف عنهم من «عناية بالفقراء وأرباب الصنائع يدافعون عنهم ويحامون ويسعون لهم بالمصالح، وأزالة المظالم وتبديل البدع». ومعنى هذا أن أرباب الصنائع، وهم أهل الأصناف، أصبحوا، في أوائل القرن الثامن عشر، مركز الثقل الرئيس في الحياة السياسية الداخلية للموصل، وغدا مجرد منحهم الثقة لأحد الزعماء يعني ايجاد فرص طيبة له لتولي مواقع مؤثرة في حكم الولاية.

وليس ثمة معلومات كافية عن عدد الأصناف في الموصل، فقد كانت هناك صناعات كثيرة مثل الحياكة، والحدادة، والنجارة، والخفافية (صناعة الأحذية) والدباغة، والسراجة، والصياغة، وصياغة الأواني النحاسية.. الخ، على أنه يبدو أن للأسباب المالية والأدارية دورها في ضم عدد من الأصناف المتشابهة حرفها، ضمن صنف واحد. اذ تشير نصوص تأريخية[١٧] أنه كان في الموصل سبعة أصناف يرأسها شيخ يعرف بأسم «شيخ الاصناف السبعة». وأغلب الظن أن تحديد عدد الاصناف بسبعة فقط لم يكن الاّ تحديداً رسمياً، هدفه توحيد أدارة كل مجموعة من الأصناف المتقاربة المهن، في صنف واحد رئيس، تيسيراً لمهمة الأشراف على الحرف المتعددة التي كانت منتشرة في ولاية الموصل آنذاك، وضم الجميع تحت «مشيخة» عامة واحدة. وليست ثمة نصوص توضح طبيعة مهام «شيخ الأصناف السبعة» ودوره في الحياة العامة للولاية، وأثر السلطة السياسية في أختياره، أو أقراره في منصبه، وحدود صلاحياته في التعامل معها، ومن المعقول أن أختياره كان يجري من قبل شيوخ الأصناف السبعة مباشرة، الاّ أن إقراره في منصبه كان يحدث من قبل حكومة الولاية، فهو الذي يمثل أهل الحرف أمامها.

وبلغ من نفوذ السلطة السياسية على شؤون الأصناف أن تولى الوالي نفسه أدارة تلك الشؤون أو الأشراف عليها من النواحي المالية، ويفهم مما أورده العمري أنه كان على هذا الشيخ أن ينظم حساباته في «دفتر خاص» يبين فيه ماينفقه وسبب أنفاقه، وأنه كان عليه أن يقدم دفتره الى الوالي ليشرف على سير الأمور المالية للأصناف بأسرها.

وكانت عملية البيع تجري بين الاصناف بالدين، بضمانة الوالي نفسه، ويحتفظ الاخير بسندات الصفقة في خزينة الولاية،[١٨] ومع ذلك، فأن من صلاحية شيخ الاصناف السبعة أن يُنفق بعض أموال أصنافه «في مصالح البلد» دون الرجوع الى رأي السلطة، وأن كان عليه أن يبين «مكانها ومصرفها» عند تدقيق دفتره. وربما تجرأ بعض أُولى النفوذ في الحكومة على أخذ بعض الأموال من شيخ الاصناف على سبيل الأستدانة، ولكن ذلك العمل لم يكن مرضياً لدى الحكومة على أية حال.[١٩]

وتعوزنا النصوص التي توضح شكل التكوين الاجتماعي داخل الصنف نفسه[٢٠]. ولعل من اهم ميزات هذا التكوين أنه تأثر بالنظام العائلي السائد في تلك العصر، فكان أن تحولت مشيخة الصنف الى منصب وراثي محض، تتولاه في كل حرفة معينة أسرة مُبرزة في صنفها، وتتميز عن غيرها بلفظة «باشي» أي كبير، أو رئيس، فشيخ صنف العطارين يدعى «عطار باشي» وشيخ صنف النجارين «نجار باشي» وهكذا الأمر بالنسبة لشيوخ الأصناف الأخرى.

الطرق الصوفية:

شهدت المئتان السادسة والسابعة للهجرة (١٢ و١٣ م) تبلور عدد من التنظيمات الأجتماعية، على هيئة «طُرُق» تستوحي تقاليدها، وتعاليمها، من سِيَر بعض البارزين من الرجال في مجالات العلم والزهد والعبادة، وذلك بعد أنقضاء صفحة الصوفية الرواد، الذين عاشوا فُرادى دون أن يخلفوا



وراءهم أتباعاً يصوغون تعاليمهم على هيئة تنظيمات محددة.

وكان أبرز الطرق الصوفية التي وجدت سبيلها الى الموصل منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، الطريقة العدوية المنسوبة الى الشيخ عدي بن مسافر الأموي الهكاري (المتوفى سنة ٥٥٧ هـ/١١٦١ م). والطريقة القادرية، المنسوبة الى السيد الشيخ عبد القادر بن موسى الحسني الجيلي البغدادي (المتوفي سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م) والمنتقلة الى الموصل على يد الشيخ قضيب البان الحسين بن عيسى الحسني الموصلي (المتوفي سنة ٥٧٣ هـ/١١٧٧ م) والطريقة الرفاعية المنسوبة الى السيد الشيخ أحمد الرفاعي الحسيني الواسطي (المتوفي سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م) والمنتقلة الى الموصل على يد الشيخ عبد الملك بن حماد الكناني الموصلي (المتوفي ٥٧١ هـ/١١٧٥ م) والشيخ محمد الغزالي المعروف بالغزلاني (المتوفى ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م).

ولقد أنتشرت تلك الطرق في الموصل، مثلها في ذلك مثل مدن العالم الأسلامي آنذاك، أنتشاراً واسعاً، وأنشأ أتباع كل طريقة «تكية» خاصة بهم، يمارسون فيها شعائر طريقتهم من أدعية وأذكار، ووقفت عليها، بمرور الزمن، الأوقاف الكافية لأدامتها والأنفاق على رجالها. وأختار بعضهم مساجد ومدارس معينة لتكون مثابة لهم، وكان لكلٍ من تلك المنشآت أوقافها الخاصة بها.

ومنذ بداية العصر العثماني أنيطت نقابة الاشراف ببغداد بشيوخ الطريقة القادرية. كما أنيطت نقابة الاشراف بالبصرة بشيوخ الطريقة الرفاعية، على نحو لم تجد البلاد له سابقة من قبل، وبهذا تم ربط جميع التكايا بنقابتي الاشراف المذكورتين، وأصبح نقيب أشراف بغداد، يعرف بشيخ السجادة القادرية أو خادمها، ومثله ما فعله نقيب أشراف البصرة، وتولى كل منها الأشراف على مجموعة التكايا العائدة لطريقته، وبالمقابل فأن أدارة أوقاف تلك التكايا أصبحت منحصرة في يدهما، يتوليانها بصفة مركزية مباشرة. وهكذا فقد وجدت الطريقتان القادرية والرفاعية في الموصل تعزيزات معنوية ومادية قوية في ذلك العصر، ولم يعد ممكناً -من الناحية العملية- أن تنافسها اية طريقة صوفية أخرى. صحيح أن مصادر القرنين السادس عشر والسابع عشر تشير الى تراجم رجال صوفيين ينتسبون الى طرق أخرى، كالخلوتية والمولوية والشاذلية حققت بعض النجاح في أنتشارها، الاّ أن الأثر الأجتماعي لهذه الطرق ظل محدوداً، لأنها لبثت -في نظر السكان- تمثل أمتداداً لتنظيمات دخيلة تقع مراكزها في مناطق بعيدة، في حين لم ينظر للقادرية والرفاعية الاّ بوصفها طرق عراقية صميمة.

سَعت كل من هاتين الطريقتين الى أقامة عدد من المراكز التابعة لأشرافها، وذلك بالترويج الى كرامات رجالها وغيرهم، وبناء المشاهد عند قبورهم، لتكون بمثابة مراكز روحية لها، مما أدى الى ظهور عدد كبير من هذه المشاهد التي يلتف حولها الناس أيماناً منهم بفضل أصحابها، مثل مقام الحامد والمحمود ومقام محمد الخلال ومقام محمد الأباريقي ومقام حسان البكري ومقام ابي الوفا ومقام الشيخ علي ومقام الشيخ عيسى ومقام السلطان أويس القرني ومقام الشيخ ابي العلاء ومقام الشيخ صالح ومقام الشيخ الوسواسي وغيرهم[٢١].

وشيئاً فشيئاً تحول أتباع الطرق الصوفية الى مجرد سدنة للمشاهد المذكورة، وفقدت -بذلك- طاقتها الروحية التي كانت سبباً في أنتشارها أول مرة، وصارت القضية الأساسية للصوفية هي تأكيد الأيمان بكرامات الأولياء، دون غيرها من أمور التصوف وشؤونه. ومن الطبيعي أن يكون من وراء ذلك مستفيدون حقيقيون، هم القائمون على



خدمة المشاهد والأضرحة والذين غدوا بمثابة «وسطاء» بين اصحاب الحاجات وقاصدي التبرك وبين «الأولياء» أنفسهم.

ولقد بدا واضحاً، منذ أواخر القرن الثامن عشر، أن ثمة طريقين لتجاوز أزمة التنظيمات الصوفية، الأول بالغاء هذه التنظيمات فكراً ومسلكاً، والثاني إحداث حركة أصلاحية قوية داخل التصوف نفسه يكون من شأنها تخليصه مما علق به من شوائب وتقاليد غريبة، وأحياء التربية الخلقية لدى أتباعه، ولقد وجدت الطريقة الأولى، القائمة على فكرة الألغاء التام، تطبيقها في ولاية الموصل متمثلة في الحركة السلفية القوية التي شهدتها منذ منتصف القرن الثامن عشر، والتي قادها بصلابة الملا أحمد بن الكولة (المتوفي سنة ١١٧٣ هـ/١٧٥٩م) ثم أبنه محمد من بعده، وكان الأخير «شديد الأنكار على جميع الأولياء»[٢٢] وجاهر في نقده لشيوخ الصوفية الأقدمين، مثل الشيخ محيي الدين بن عربي، والشيخ عبد القادر الكيلاني، فتألب الناس عليه، حتى أضطر الى مغادرة الموصل، الاّ أن دعوته لقيت قبولاً، فأنقسم المثقفون الموصليون الى فريقين: فريق محافظ مازال متأثراً بالطرق الصوفية، وبروح العصر التقليدية، وفريق سلفي ثائر يدعو الى نبذ تقديس الأولياء ويجاهر في مقاومته للطرق الصوفية، بالحط من مكانة مؤسسيها وزعمائها. وجمع كل فريق ما أستطاع من الحجج للدفاع عن مبادئه، وألف المحافظون كتباً مهمة في الرد على الدعوة الجديدة، فكان ذلك من بواعث حركة التأليف عند الكتاب. وشاعت الرغبة في البحث في تراجم الأولياء، بعد أن كانت مكانتهم أمراً مسلماً به لايحتاج الى بحث وتنقيب.

على أن الدعوة ما فتئت تكسب الى صفوفها أنصاراً جدداً، ومال بعض المحافظين الى الأخذ بوجهة نظرها بغية أصلاح الوضع المتردي للطرق الصوفية القائمة آنذاك، فكتب أمين العمري كتاباً أسماه «الكشف والبيان عن مشايخ هذا الزمان» حاول فيه التمييز بين الكرامات الحقيقية والكرامات المزعومة، وكتب الحاج عثمان بك بن سليمان باشا الجليلي مقالات كثيرة على الذين سخّروا الطرق الصوفية لمصالحهم الدنيوية. وألف رسالة رد فيها على الشيخ خالد النقشبندي، مجدد الطريقة النقشبندية في العراق، أسماها «دين الله الغالب على المنكر المبتدع الكاذب» وحمل على طائفة الدراويش وأصحاب التكايا بجد ونشاط.[٢٣] ويظهر من كتابه هذا أن محاولات مهمة جرت من قبل الطريقة النقشبندية في بغداد لنشر نفوذها في الموصل أيضاً، الاّ أن علماء الموصل أستقبلوا رسلها بمناظرات ومناقشات، حضرها بعض أولي الأمر، وتناولوا فيها بالنقد فلسفة الطرق الصوفية أصلاً، وأنتهوا الى بطلان الأسس التي تقوم عليها هذه الطريقة.

وفي الواقع فأن تدهوراً ملحوظاً أصاب الطرق الصوفية، بحسبانها تنظيمات أجتماعية، في النصف الاخير من القرن التاسع عشر، برغم محاولة بعض الولاة العثمانيين الذين خلفوا حكم الجليليين أحياءها، وتخصيص بعض المشاهد تكايا لها، وذلك بسبب قوة النزعة السلفية فيها وخروج «العلماء» من صراعهم ضد «أصحاب الطرق» منتصرين، وهو الصراع الذي دام نحو قرن كامل من الزمن.

الهوامش:

(١) ابن عنبة: عمدة الطالب في أنساب آل ابي طالب ٣١٨-٣٢٩

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٣.

(٣) تولي النقيب محمد شرف الدين الحسيني العلوي بن زيد ضياء الدين وزارة الدولة الأتابكية زمن السلطان مسعود بن مودود زنكي سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣.

(٤) وصف علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الحسيني الملقب



بحيدرة بأنه «نقيب الموصل وملكها» أنظر بحثنا : «حكام العراق وموظفوه في عهد المغول الأيلخانيين» ، مجلة المؤرخ العربي العدد ١١ (١٩٧٩) ص٦٨-٧٢.

(٥) بحر الأنساب لسادات الموصل (مخطوط) وياسين العمري : منية الأدباء ص ١٧٢ (هامش المحقق سعيد الديوه جي).

(٦) ابن عنبة : عمدة الطالب ٣٢٩.

(٧) ياسين العمري: الدر المكنون، أحداث سنة ١٠٥٩ (مخطوط)

(٨) سليمان الصائغ : تأريخ الموصل ١٦٧/١.

(٩) عماد عبد السلام رؤوف: الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي (النجف ١٩٧٥) ص ٢٦٢.

(١٠) منهل الأولياء ٢٤٠/١.

(١١) المصدر نفسه ٢٣٩/١.

(١٢) منهل الأولياء ٢٤٦/١ و ٢١٤/٢

(١٣) ياسين العمري : منية الأدباء في تأريخ الموصل الحدباء ص ٨٠.

(١٤) عباس العزاوي : تأريخ الضرائب العراقية ص ٥١.

(١٥) ياسين العمري : الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون ص ٥٨٠ (مخطوط).

(١٦) منهل الأولياء ١٤٢/١

(١٧) المصدر نفسه والصفحة

(١٨) مجهول : القوانين السلفية (مخطوط) الورقة ١٨

(١٩) منهل الأولياء ١٤٢/١

(٢٠) أنظر بحثنا «الملامح الأجتماعية لنظام الأصناف في العراق ابان العصر العثماني» المقدم الى مؤتمر الحياة الأقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، المنعقد في تونس ١٩٨٥ ، والمنشور في المجلة التاريخية المغربية ، السنة ١٢ ، العدد ٣٩-٤٠ ، تونس ١٩٨٥ ص ٤٤٦-٤٦٠

(٢١) أنظر محمد أمين العمري : منهل الأولياء ، الجزء الثاني ، واحمد ابن الخياط : ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء.

(٢٢) ياسين العمري : غرائب الأثر ص ٣٥.

(٢٣) عماد عبد السلام رؤوف: الموصل في العهد العثماني ص ٤١٢-٤١٣.

مظاهر الحياة الاجتماعية

أ.د عماد عبدالسلام رؤوف

لعل اكثر الظواهر الاجتماعية التي كانت لها آثارها على مجمل الحياة الثقافية والفكرية أهمية ، اعتياد معظم الأسر البارزة في المدن العراقية خلال القرون الأخيرة على عقد مجالس عامة ، في أيام مخصوصة كل اسبوع يحضرها الادباء والمثقفون بوجه خاص. فضلاً عن رجال الاسرة المضيفة ذاتها.

المجالس :

ان اهمية تلك المجالس التي كانت تعقد في المدن العراقية ومنها الموصل لاتتمثل في كونها ضمت النخبة المثقفة في ذلك العصر الذي قل فيه المثقفون فحسب. وانما في تقاليدها الثابتة المتمثلة في الحرص على عدم الحيلولة بين انسان وحضورها والمشاركة — إن شاء — في احاديثها، او الاكتفاء بسماع مايدور فيها من حوارات وافكار. وتحديد يوم معين لهذا المجلس يعني — بحد ذاته — ان ذلك اليوم هو مناسبة عامة لـ «قبول» الجميع دونما استثناء ، فلا يوصد باب ، ولا يُسأل احد عن سبب زيارته ، وعن المقصود بها ؛ ومن هنا عرفت هذه المجالس في المدن العراقية ، ومنها الموصل ، «بالقبولات».

ولم يكن عقد المجالس في حقيقة الامر مقتصراً على اهل المدن دون غيرهم ، وانما كانت تنتشر حتى في اصغر القرى واقصاها من العمران ، لانها جزء من صميم حياة القبيلة ، حيث يجتمع الناس في مضيف شيخها يسمرون فيه ويتبادلون الاحاديث. على ان الفرق الرئيس بين هذه المضايف الريفية والمجالس المدنية يكمن في طبيعة مايجري فيها من احاديث ، فبينما يقتصر الحديث في الاولى على انشاد الشعر البدوي ، ورواية القصص ، وتصريف شؤون القبيلة او العشيرة ذاتها ، غلب على المجالس المدنية ، منذ القرن الثامن عشر — وربما منذ وقت سابق لانستطيع تحديده — احاديث اكثر الناس



ثقافة ومعرفة بحسب مقاييس عصرهم. صحيح ان اهتمامات الاسرة المضيفة، او مهنتها الموروثة كانت تؤثر في اتجاهات الحديث والحوار، بل في نوع الحضور نفسه، الاّ ان الطابع الثقافي، والادبي منه بوجه خاص. ظل هو السائد في تلك المجالس. وكانت المطاردات الشعرية، والمباراة في نظم الشعر في موضوع محدد. والتشطير والتخميس، والتغني بمآثر السلف ورواية اشعارهم ونثرهم، من الموضوعات المحببة لرواد المجالس غالباً. ولانشك في اهمية هذا الامر، بوصفه باعثاً لهم على الاطلاع على الاعمال الادبية البارزة لشعراء العربية وادبائها المتقدمين، في عصور الازدهار والتقدم التي عاشتها الأمة، ومجرد محاولة محاكاتها، والتأثر بها لهو من الاسباب الواضحة لحركة تطور الوعي القومي في العراق في ذلك العصر.

ولقد حفلت مدينة الموصل، في العصر العثماني، بعدد وافر من المجالس الكبيرة التي كانت تعقد في بيوت أسرها البارزة، وكانت لهذه المجالس تقاليدها المرعية، فهي تبدأ – عادة – في ساعة محددة من النهار وتنتهي في ساعة مثلها، ويحترم الحضور هذه المواعيد، فلا يتأخرون عنها الاّ إضطراراً، وللوجوه البارزة منهم اماكنهم المعتادة في صدر المجلس، بحسب مقاماتهم العلمية والاجتماعية، اما الآخرون فبوسعهم تخير ما يحلو لهم من اماكن. واذا صادف انعقاد المجلس وقت اداء فريضة الصلاة قام إمام مخصوص بالاسرة المضيفة (تعينه لهذا الغرض) برفع الأذان بين الحاضرين والأم بهم، فلا يفوت احد اداء الفريضة، ولاشك في أنّ ادائها بصفة جماعية – على هذا النحو – يضفي على المجلس وقاراً وهيبة ونقاءً، فاذا ماانقضت عاد الحاضرون الى ما كانوا عليه من احاديث ادبية وعلمية مختلفة.

وعلى الرغم من عدم وصول معلومات تفصيلية عما كان يدور في تلك المجالس من احاديث وأخبار، فان في وسعنا ان نكوّن فكرة واضحة عنها، فمعظمها وجد طريقه الى مؤلفات أدباء العصر على شكل مناظرات ادبية، ومساجلات شعرية، واختيارات من دواوين المتقدمين، ومن حاكاها، او تأثر بها من المتأخرين، ونماذج من رسائل منثورة، وقطع أدبية رقيقة، وتراجم للمعاصرين. ومن الثابت لدينا انه لو لم يكن مؤلفو تلك الكتب من حضار المجالس وملازميها لما تمكنوا من كتابة اكثر مواد كتبهم تشويقاً ومتعة، بل لما أوحي اليهم بفكرة تأليف بعضها اصلاً، وليس كتاب «نوادر المنح في اقسام الملاحة والملح» لمحمد امين العمري (ت ١٢٠٣هـ / ١٧٨٧م) الاّ نموذجاً على ما كان يدور في المجالس الادبية التي عاصرها من«نوادر وملح» ويفهم مما ذكره عصام الدين عثمان العمري[١] (ت ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م) في مقدمة كتابه «الروض النضر في ترجمة ادباء العصر» انه ماجمع مواد كتابه إلا بعد ان اطال تطوافه في المجالس ادباء عصره «فكل يوم بواد، وفي كل حين بناد» ومثله ما اشار اليه محمد بن مصطفى الغلامي[٢] (ت ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م) في مقدمة كتابه «شمامة العنبر والزهر المعنبر» من انه ما ان شب حتى اخذ يتطفل على مجالس الادب يشارك فيها بأدبه وشعره.

وقد ضمت تلك المجالس معظم مثقفي الموصل الذين عرفوا بتضلعهم من معارف عصرهم، وتدلنا تراجم من علمنا منهم على المستوى الادبي الرفيع الذي كانت عليه مجالس القوم آنذاك، فالشيخ مصطفى الصباغ وصف بأنه «ملحوظ للملوكنا (يريد ولاة الموصل من آل الجليلي) ومحظوظ منهم، له عندهم مكان، اذا غاب ذكروه واذا حضر اكرموه»[٣] ووصف الشيخ العالم عبدالله الربتكي بأنه كان «عالي القدر عند الملوك والاكابر»[٤] وقيل عن الشيخ مصطفى الغلامي انه «عاشر الملوك، وحظي عند ملوك الموصل»[٥] ومثله ابنه المفتي علي



الغلامي ، فقد «عاشر ملوك بني عبدالجليل ، وحظي عندهم ، وكان نديمهم»[٦] ومثله ايضاً الأديب الشاعر محمد الغلامي فانه «اتصل بخدمة ملوكنا فكان احد المنادمين ومن أخص المصاحبين»[٧] ووصف الاديب صالح بن المعمار بأنه «لم يزل مدة عمره ملازم المجالس الجليلية ، فطوراً يشطر بمشحوذ قريحته أبيات المتقدمين وآناً يدرسها ، ووقتاً يثمن السبع المعلقات ووقتاً يخمسها»[٨]

واشتهر في الموصل ، في كل حقبة عدد من المجالس التي يؤمها الناس للتمتع بما يجري فيها من حوار ، والاستفادة مما يدور على ألسن أهل الادب والعلم منه من فوائد جمة ، الاّ ان ابرز تلك المجالس ، واطولها عمراً هي التي اعتيد عقدها في بيوتات عريقة قديمة ، عرفت بالامارة او السيادة او العلم والقضاء والافتاء ، من اشهرها مجالس آل الجليلي ، وآل الاعرجي ، وآل العمري ، وآل الغلامي. فهذه وغيرها ، كانت أشبه بندوات مفتوحة ، تجمع الخاصة بالعامة في لقاءات دورية ، فتشيع المعرفة ، وتوسع نطاق الثقافة بين الجمهور.

ولم يقتصر دور هذه المجالس على الجوانب الادبية البحتة حسب ، وانما اخذت منذ أواخر القرن التاسع عشر تشهد تحولاً خطيراً في اهدافها وموضوعاتها ، اذ اخذت تتردد فيها الاحاديث القومية المبكرة وتابع القوم من خلالها ما كان يجري في الدولة ، وفي اقطار العروبة الاخرى من احداث ، وناقشوا الاحتمالات المستقبلة لها في ضوء ما كان يصلهم من أخبار ، وساعد انتشار الصحف في اواخر العصر العثماني ، ووصول الصحف الصادرة في مصر وبلاد الشام واستانبول الى الموصل ، الى تحول تلك المجالس الى مايشبه ان يكون حلقات ثقافية ، تتلى فيها مقالات الصحف السياسية والفكرية ، ليجرى– من ثم– نقاشها.

فَشكّل ذلك المناخ الطبيعي لتشكل اولى التنظيمات السياسية القومية في المدينة فيما بعد.[٩]

الأعياد والمناسبات الاجتماعية :

احتلت الاعياد والمناسبات الاجتماعية المختلفة لدى الفرد الموصلي اهمية فائقة في حياته ، فهي فضلاً عن عدها وسيلة ترفيهية كانت تعبر عن وحدة المجتمع الموصلي ، على الرغم من تنوع مكوناته ، حيث يشترك الجميع في الاحتفال بأعياد كل طائفة متجاوزين الفوارق الدينية او القومية بينهم.

ولعل أبرز انواع الاحتفالات تلك المناسبات الشعبية التي تضرب في عمق الحياة الروحية للشعب ، مثل الاحتفال بليلة النصف من شعبان ، واستقبال شهر رمضان ، والاحتفال بالعيدين ، ويتم الاعلان عن هذه المناسبات رسمياً ، باطلاق عدد من قذائف المدفعية ، وبقيام فرقة الموسيقى العسكرية (المهتر خانة) بعزف انغامها في الاماكن العامة.

وكان شهر رمضان موسماً حافلاً بالمراسيم الممتعة ، ففيه تبين مختلف مظاهر التسلية واللهو البريء ، وتتبادل الزيارات وتتم اللقاءات وتقدم التهاني والهدايا ، ومن الاخيرة انواع فاخرة من الحلوى والاطعمة و «الشربت» وتقام الصلاة في الايام الاخيرة من الشهر في اكبر جوامع المدينة واهمها. وتقع عند المشاهد المنسوبة للانبياء وهي جامع النبي جرجيس ، وجامع النبي شيت ، وجامع النبي يونس ، والمعتاد ان تزين شرفات هذه الجوامع ليلاً بالمصابيح الموقدة ليضفي شعاعها بهجة وسحراً على نفوس القاصدين والمارين. ويجرى فيها احياء المناسبات الدينية الخاصة بالشهر، وهي ذكرى موقعة بدر الكبرى وليلة القدر، وليلة العيد.

وفي صباح اول يوم من ايام العيد ، يزدان (السراي) بمظاهر الاحتفال ، ويخرج موكب الوالي بأبهى حلة الى احد الجوامع الثلاثة لاداء صلاة

العيد، وفي طريق عودته يخرج الناس لتحيته، ثم يستقر به المقام في صدر قاعة مجلسه بالسراي، لاستقبال وفود المهنئين من الموظفين والاتباع والاعيان والوجهاء والعلماء وبعض زعماء القرى والعشائر المجاورة. وفي الوقت نفسه يأمر بمنح موظفيه وأتباعه وقراء المساجد وخدمها وغيرهم عطايا العيد التقليدية. هذا في حين يقف عازفو الموسيقى العسكرية (المهترخانة) خارج مبنى السراي لتعزف الحانها طيلة ايام العيد.



• احتفال الموصليين بأحد الاعياد الدينية.

ويتميز برنامج الاحتفال بعيد الاضحى، بتضمنه نزهات جماعية يخرج فيها السكان من مختلف الطوائف الى ريف المدينة، وبخاصة تل التوبة، عند جامع النبي يونس، في القسم الشرقي المقابل للمدينة، والموضع المعروف ببئر البنات في قربة نينوى، القريبة من التل نفسه.

ولما كان لمعظم الأسر في المدينة مقابرها الأسرية الخاصة، وهي منتشرة في اطراف المنطقة المأهولة من المدينة، فان زيارة أضرحة الراحلين من اسلاف الأسرة تبدو مظهراً ثابتاً من مظاهر الاحتفال بالعيدين، وعلى الرغم مما يعتري زيارات كهذه – عادة – من ذكريات مؤلة وأسى تتعلق بشخص الفقيد الراحل فان شيئاً كثيراً من الترويح كان يكتنف تلك الزيارات، اذ من المألوف ان تنتقل الاسرة كلها الى الخلاء، بعيداً عن ضيق المحلات والأزقة، وعن رتابة الحياة اليومية، فتتمتع ببهجة الطبيعة وهدوئها، وبخاصة في موسمي الربيع والخريف، حيث يخضر العشب وتتفتح الزهور البرية ويعبق النسيم بعطورها. وفي الغالب فان الاسرة تحمل معها من أفانين الطعام ما يكفيها خلال ذلك النهار، بل وما يكفي للتصدق به على الفقراء فتضيف الى لذة الطعام – في وسط ساحر – متعة روحية خاصة ولا يخفى ان مجرد لقاء افراد الاسرة بأضرحة اسلافها يذكرهم بتاريخهم الاسري فيمنحهم ذلك شعوراً بالتضامن والتماسك الاجتماعي.

وثمة احتفالات شعبية عامة تجري في ربوع الريف المجاور للمدينة، وأغلب الذين يقومون بها هم من ابناء المدينة نفسها، وتتخذ هذه الاحتفالات من زيارة مقامات بعض الاولياء والصالحين محوراً لها، ولكن توقيت القيام بها في فصل الربيع غالباً، حيث تخضر الحقول، ويرق الطقس، يؤكد الجانب الترفيهي لها. فمن تلك المواسم العيد المسمى بالخضر ألياس، او جمعة الخضر، ويقع في اول جمعة من موسم الربيع «فيبيتون فيه أنواعاً من المأكول، ثم يرسل بعضهم لبعض منه على طريق الهدية»[١٠] ومنها ايضاً زيارة مقام الشيخ قضيب البان الموصلي خارج اسوار الموصل، ولهذا الشيخ كرامات يعتقد بها موصليو ذلك العهد، فعند «قبره الشريف يُجاب الدعاء، وتكشف الحوباء، وتغفر الذنوب، وتنور القلوب، وتشفى الاسقام، وتذهب الآلام ولا يزوره احد ويتوسل الى الله تعالى به في قضاء حاجته الاّ استجاب الله دعاءه»[١١].

فلا عجب ان أصبح هذا الموضع «أحد متنزهات الموصل»[١٢] اليه يخرج الناس في موسم الربيع، فينتشرون حوله في الأماسي، ويقضون وقتهم في الالعاب وركوب الخيل والمباريات الرياضية وغير ذلك، وكان للفروسية نصيب بالغ في هذا الاحتفال، اذ كانت تعرض مهارات الفرسان المختلفة، ويتبارى الجميع في اظهار فنونهم



في هذا المجال.[١٣] وكان أرباب الحرف يقيمون مهرجاناتهم ، في اثناء الاحتفال ، عارضين على الناس نماذج من اعمالهم ، وتدعى هذه المهرجانات «حريفانات» ، فيقولون : حريفانة العلماء وحريفانة القصابين... الخ ، ولكل حرفة يوم خاص تحتفل به[١٤].

ومن المواسم الشعبية التي اعتاد الموصليون احياءها والاحتفال بها زيارة الموضع المعروف بحمام العليل (حمام علي) وهي منطقة فيها عيون مياه كبريتية حارة ، تقع على شاطئ نهر دجلة ، على مسافة ٢٤ كيلومتر منها ، ويرحل اليها الاهالي على اختلاف فئاتهم لقضاء شطر من فصل الصيف فيها ، حيث كانوا ينشئون لسكناهم هناك ملاجئ مؤقتة من الخشب والاحطاب تسمى «العَرازيل» وهي تتكون – عادة – من قسمين : قسم مسقوف للاستقبال ، وآخر مكشوف ، يستخدم مطبخاً ومخزناً وساحة للجلوس والنوم ، ويلحق بالمصيفين كثير من اصحاب الحرف الضرورية ، مثل الاسكافي والحلاق وأرباب المقاهي وغيرهم ، فتقوم من هؤلاء فجأة اسواق عامرة ، سرعان ماتنقضي بانتهاء موسم الاصطياف نفسه.[١٥] كما يلحق بهم ايضاً كثير من القراء والمطربين والعازفين ، فتقام الولائم وحفلات الأنس والطرب ، ويتبادل الجميع الزيارات ، وتحيا الأماسي التي تدور فيها مختلف ألعاب التسلية والسمر ، حتى وكأن الناس في عيد لاينقطع ، فاذا ماحل فصل الخريف ، أسرعوا بالعودة الى الموصل ، فينتهي بذلك موسم الاصطياف.[١٦]

والى جانب هذه الاحتفالات والمواسم الشعبية الشائعة كانت ثمة احتفالات رسمية ، ذات تقاليد ثابتة ، ومراسم مرعية ، وأبهة ظاهرة ، اعتادت حكومة الولاية القيام بها بين حين وآخر ، مثل الاحتفال بورود الأثر السلطاني المنبيء بولادة أمير عثماني ، او جلوس سلطان ، ففي مثل تلك المناسبات تعلن عطلة رسمية مدتها سبعة أيام ، وتزين الاسواق والخانات ، «وكل يوم تضرب الطبول بالسراي صباحاً ومساءً ، ثم تضرب تفنكات (بنادق) والطوبات (المدافع)»[١٧].

ومن تلك الاحتفالات الرسمية ايضاً ماكان يقام بمناسبة تجديد فرمان الوالي كل عام. ولهذه المناسبة تقاليدها المرعية الطريفة ، فاذا وصل الوفد الذي يحمل معه الفرمان في ايام السبت او الاثنين او الخميس دخل المدينة فوراً ، واذا لم يتفق موعد وصوله مع هذه الايام الثلاثة كان عليه ان يتأخر – عندئذٍ – خارج المدينة ، عند مرقد الشيخ قضيب البان الموصلي ، ليبيت هناك ليلة او ليلتين ، يقوم بخدمته خلالها احد موظفي السراي ، مع ضابط من حملة البنادق (التفنكجية) برتبة (بيرقدار) ، وفي معيته عشرة رجال من الشرطة ، وعند حلول أحد الايام المذكورة يخرج لاستقبال الوفد كتخدا الوالي اي نائب الوالي مع عدد كبير من موظفي السراي والفرسان (السباهية) فضلاً عن خمسين رجلاً من أغوات السراي يتبعون موكبه طبقاً لنظام معين ، وتستغرق هذه المراسيم زهاء الساعتين والنصف. وفي العودة تضرب مدافع الابراج قذائفها كلما اقترب منها مقدم الموكب ، حتى اذا ماوصل الى سراي الحكم كان الوالي باستقبال الوفد جالساً في مدخل مكتبه (ويعرف بالاوطة) والاوطة كلمة تركية معناها الحجرة او الغرفة ويتقدم الكتخدا الى الوالي ليعلن عن وصول الفرمان ، ثم يتلوه حامل الفرمان نفسه ، فيأخذه الوالي منه ، ويدخل به الى الاعيان الذين يحفل بهم السراي يومذاك ، الى ان ينتهي به الى محله ، فينشر الفرمان ويلثم الطغراء ، ويعطيه الى كاتب الديوان ، الذي يلثمه ايضاً ، ثم يشرع في قراءته بصوت مرتفع ، ثم يتلوه بقراءة الفرمان الملحق ، وهو الذي يوجهه السلطان الى الناس عادة بشأن تجديد حكم واليهم ، وبعد الفراغ من القراءة يمنح الى حامل الفرمان «كرك» من الفراء ،



ومثله لكاتب الديوان ولساعي البريد «التاتار» المرافق، وتعزف فرقة الموسيقى الخاصة بالسراي (المهترخانة) الحانها ثلاثة ايام، صباحاً ومساءً، وتطلق مدافع أبراج المدينة، ومدافع السراي نفسه جميعاً، ثم يكتفى بثلاث اطلاقات في صباح اليوم الثاني والثالث، وبهذا تنتهي هذه المراسيم الشائعة. (١٨)

وفضلاً عن ذلك كانت هناك مراسيم خاصة سنوية او فصلية تأخذ شكل مناسبات عامة، لكنها – على اية حال – تقتصر على الوالي وطبقة الموظفين التابعين لسراي حكمه، فمن تلك المراسيم الاحتفال بانتقال الوالي السنوي من مكتبه (الاوطة) في السراي، الى المقر (الكوشك) ليمارس اعماله من هناك، وكان هذا الانتقال يتم عادة في شهر نيسان، اي في بداية فصل الربيع، اما عودته الى السراي فتكون خلال شهر تشرين الاول، اي في فصل الخريف من العام نفسه(١٩).

الملابس والأزياء

ظلت الملابس والأزياء بعيدة عن اهتمامات المؤرخين المحليين لذا فاننا لانملك اوصافاً كافية لما كان يرتديه الرجل والمرأة في الموصل، ابّان ذلك العصر، وباستثناء اشارات قليلة، ومبتسرة سجلها بعض السياح والرحالين الاوربيين لانجد بين ايدينا ما يعتد به في هذا المجال. على ان ثمة قرائن تدل على العناية الخاصة التي كان يوليها الفرد الموصلي لما يرتديه من ملابس مختلفة، اهمها ان الموصل كانت «مصنع الشرق» في صناعة انواع الأنسجة، وبخاصة القطنية منها، وانها اشتهرت – منذ العصور الوسطى – بانتاج أفضل الانواع وامتنها واكثرها جمالاً في العالم، ولقد حفظت لنا كتب التراجم جملة من اسماء المهن المتعلقة بالنسج والتطريز والحياكة والزركشة، ممن حفلت بدكاكينها و «وورشها» اسواق الموصل ابّان تلك العصور، ولطالما انبهر السياح الاوربيون بجودة النسيج الموصلي وجماله الأخاذ، وسجلت لنا المصادر الادبية شهرة هذا النسيج ورغبة التجار من بقاع العالم في الاتجار به حتى امتدت شهرته من اوربا الى الصين(٢٠).

ولاشك في ان قيام صناعة نسيج متطورة في الموصل، كان يستلزم وجود ذوق فني عام لدى المشتغلين بهذه الصناعة، من ملونين وطباعين ومزركشين ومطرزين، وهو مايقف دليلاً واضحاً على ارتفاع مستوى التذوق العام لهذه الفنون الجميلة، لذا فلم يكن مستغرباً ان يولي اهل الموصل عنايتهم لمظهرهم الخارجي، وهي عناية لم تقتصر على نوع القماش فحسب، وانما امتدت لتشمل تصميمات الملابس ايضاً وبرزت لنا فئة من المتخصصين بتصميم الأزياء المختلفة، حتى روي ان خياطاً موصلياً من اهل القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) كان يمتاز بما يبتكره من ازياء، وكان يقترح على الخياطين فنوناً يتكسب هو فيها. (٢١)

وتدل النماذج القليلة المتبقية من ملابس الموصليين التي ترقى الى اواسط عصر السيطرة العثمانية، على ان الفرد الموصلي ظل محافظاً على تراث مدينته المتقدم في مجال تنوع الازياء وجمال مظهرها وتناسق الوانها، وانسجام ماتتحلى به من زينات مختلفة صحيح ان معظم مايرتديه الموصلي رجلاً كان ام امرأة، يجد شبهاً له – من حيث مفردات اللباس الاساسية – في مدن العراق الاخرى، الا ان الملابس الموصلية كانت تتميز – بوجه عام – بجودة الخامة المصنعة محلياً او المستوردة، ووفرة المطرزات، ودقتها.

فالرداء الاساسي لدى الرجل الموصلي، والمرأة ايضاً، هو الزبون، أو الصاية، وهو ثوب طويل مفتوح من امامه، طويل الاردان، وبدون عنق (ياخة)، ويعمل في بعض الاحيان من الحرير، وربما اتخذت له الوان كثيرة يصل عددها الى



سبعة ، ويتميز هذا الثوب ، اذا كان نسائياً بوفرة زخارفه ، وتطريزه بانواع من الخيوط المذهبة والمفضضة ، على شكل ورود بارزة من (الكلبدون) وقد يحلى بنجوم ذهبية وأهله ، في حين تكون اكمامه محلاة بحياكات دقيقة الصنع (فستو) أشبه بـ (الدانتيلا) وتكون حوافيه وفتحة عنقه مشغولة بالقصب والكلبدون ، وترتدي المرأة تحت هذا الثوب اثواباً رقيقة (أتك) بينما تثبت جانبه ببعضها بـ (كلاب) يكون من ذهب او غيره ، بحسب المستوى الاجتماعي للمرأة نفسها.

ولا يختلف زبون الرجل ، من حيث الاساس ، عن زبون المرأة ، الاّ بسعته الظاهرة من وسطه ، فيطوى جانب منه على الآخر ، على طريقة (الصد والرد) وتقتصر الوانه على لونين فقط ، غالباً ، الفضي الغامق ، والفضي الفاتح ، وتزين حوافيه وفتحة رقبته أشرطة ملونه (قياطين).

ويحتل الدميري (او الصدبري) مكانة خاصة بين الأردية الموصلية ، فهو مما يرتديه الرجل والمرأة على حد سواء ، ويصنع من الصوف الناعم شتاءً ، ومن الحرير الطبيعي (الشعري) صيفاً ، وهو يشبه (سترة) قصيرة مفتوحة من الامام ، ولا رقبة لها ، يرتديها الرجل والمرأة فوق الزبون. ويتميز الدميري النسائي بتطريز حواشيه واطرافه واكمامه بزخارف متعددة ، في ذوق رفيع وتناسق تام ، وهي عادة زخارف مستمدة من اشكال نباتية ، كالزهور والاوراق المتكررة ، او حيوانية ، كالطيور والطواويس والفراشات ، او فلكية كالأهلة والنجوم. وتستعمل في تطريزها انواع من الخيوط الملونة المذهبة ، وقد تحلى – لدى الفئات الموسرة – بالاحجار الكريمة او الثمينة على الاقل ، وضمن حليات فنية جميلة. اما الدميري الرجلي فتغلب عليه الالوان (السادة) ويحلى عادة باشرطة ملونة (قياطين).

ويعد الحزام ، لدى الرجل الموصلي ، من مكملات اناقته ومستلزمات منزلته الاجتماعية. وقد تفنن الصناع الموصليون في اتقان تطريز نوع من الأحزمة يسمى (حياصة) ، وهو يتميز بعرضه ، وفخامة مظهره. وتستخدم خيوط الكتان والحرير الملونة في حياكته مكونة تشكيلات زخرفية هندسية ، ويزخرف – عادة – بقطع مختلفة الاحجام والاشكال من الفضة ، يتخذ بعضها احياناً شكلاً شبيهاً بالعقرب ، اعتقاداً بأن في ذلك مايدفع الحسد ، وتتوسطها قطعة كبيرة مقببة بحجم نصف برتقالة. مرصعة بأحجار كريمة ، على حسب المستوى والامكان.

ومن المفردات الرئيسة في لباس المرأة الموصلية مايعرف بالازار ، وهي عباءة قصيرة من قماش مقصب ، وكلبدون ، تعرف احياناً (ام كتف) لقصرها ، وفي حالة ارتدائها ، تُلبس تحتها تنورة طويلة. وفي الوقت الذي كان الرجل يرتدي فيه انواعاً من العمائم – ضاعت تفاصيل معظمها الآن – فإن المرأة الموصلية كانت ترتدي في رأسها غطاءً يعرف بـ (الفيس) ، وهو محلى – غالباً – بالقطع الذهبية ، وتنسدل منه ، على عنق صاحبته ، خصلة (بسكولة) تزيده جمالاً. وربما اكتفت بلبس (الهبرية)[٢٢] وهي غطاء من حرير اسود ، تضعه على رأسها لتغطي وجهها تحجباً ، وهي تبعد هذا الغطاء عن وجهها بوضع قطعة من نسيج غليظ مقوى ، مزينة من حوافيها ، على هيئة مظلة قصيرة ، تدعى (بيجة) عند جبينها.

الهوامش

(١) الروض النضر ، بتحقيق سليم النعيمي (بغداد ١٩٧٤) ١/٣٠
(٢) شمامة العنبر ، بتحقيق سليم النعيمي (بغداد ١٩٧٧) ١/٣٨
(٣) أمين العمري : منهل الاولياء ١/٢٦٦
(٤) المصدر نفسه ١/٢٥٢
(٥) المصدر نفسه ١/٢٥٣
(٦) ياسين العمري : قرة العين في تراجم الحسن والحسين الورقة ٢٦ (مخطوط)
(٧) منهل الاولياء ١/٢٥٨



(٨) محمد الغلامي : شمامة العنبر ص٣٣٩

(٩) ناقشنا اثر ظاهرة المجالس الادبية في حركة تطور الوعي القومي في بحثنا «الجمعيات العربية وفكرها القومي» المنشور في مجلة المستقبل العربي عدد ١١ السنة ١٩٨٥.

(١٠) محمد أمين العمري : منهل الاولياء ٧٢/٢

(١١) احمد بن الخياط الموصلي : ترجمة الاولياء في الموصل الحدباء ص٧٩

(١٢) امين العمري : منهل الاولياء ١١٦/٢

(١١٣) سعيد الديوه جي : جوامع الموصل في مختلف العصور ٢٦٣

(١٤) منهل الاولياء ١١٦/٢

(١٥) حازم البكري : دراسات في الالفاظ العامية الموصلية (بغداد ١٩٧٢) ص١٧٨

(١٦) للأديب الموصلي محمدامين بك آل ياسين المفتي قصيدة طويلة يمتدح فيها موسم الاصطياف، ويسجل من خلالها مختلف فعاليات النشاط الترويحي للموصليين في هذه المناسبة، جاء فيها مايأتي :

تسمع شخصاً بالغنا منشداً — وآخـر بـطـرب بـرد الجـواب

وذا يـعـرض بمـرام لـه — وذاك يـفـهـمه مـقـال العـتـاب

وكل شخص يغتنم لذة — منها ويأخذ حصة او نصاب

في كل فسطاط ترى ضجة — من ضرب سنطير ونرد او نصاب

مابين تصفيق ورقص بدا — هلاهل تسبي عقول الشباب

انظر القصيدة كاملة في محمد صديق الجليلي : الاصطياف في حمام العليل، (الموصل، ١٩٦٥)، ص ص١٣ – ١٧

(١٧) ياسين العمري : منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء ص١٨٤

(١٨) مجهول : القوانين السلفية الورقة، ٤ – ٥ و ٢٨ (مخطوط)

(١٩) القوانين السلفية الورقة ١٠ و ١٣

(٢٠) سعيد الديوه جي : اعلام الصناع المواصلة ص٤١

(٢١) المصدر نفسه ٦٦ نقلاً عن المقريزي : درر العقود الفريدة (مخطوط)

(٢٢) اصلها حبرة، وحبرية.

الحياة الثقافية

الحياة الفكرية في الموصل ابان العهد العثماني

(٩٢٢ – ١٣٣٦هـ ١٥١٦ – ١٩١٨م)

د. ابراهيم خليل احمد

مقدمة :

لم يحظَ الجانب الفكري للموصل خلال فترة السيطرة العثمانية بما يستحقه من اهتمام. ويبدو ان ذلك يرجع الى صعوبة تناول هذا الموضوع.. فمن جهة انصرف الباحثون الى وسم الحياة الفكرية في عموم الوطن العربي إبّان السيطرة العثمانية بسمات التدهور والانحطاط والرقود والسلبية.. وكانوا يميلون الى ربط ذلك بالانهيار الذي واجهه الكيان السياسي العربي اثر احتلال المغول لبغداد سنة ١٢٥٨م وابتعاد العرب عن حكم أنفسهم بأنفسهم، ومن جهة اخرى فان تناثر المعلومات في ثنايا المصادر فضلا عن قلتها كانت عاملاً آخر جعل الباحثين يعزفون عن خوض غمار هذا الموضوع.

وبقدر مايتعلق الامر بالموصل فانه على الرغم من المحن والنكبات التي مرت عليها خلال هذه الحقبة.. فقد استطاعت الحفاظ على شخصيتها الحضارية العربية. وفضلا عن ذلك فأنها شهدت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نهضة علمية ثقافية، فاتسعت حركة التأليف باللغة العربية، وتأكدت قدرة الموصليين على اثبات وجودهم الحضاري القومي ويرجع ذلك الى ان الموصليين نجحوا في ابعاد مدينتهم عن السيطرة المركزية العثمانية، وحكمها حكماً مباشراً فترة تزيد على المائة سنة استمرت من ١٧٢٦ حتى ١٨٣٤. ومن ناحية اخرى فان هذه النهضة جاءت لتملأ الفراغ الابداعي الذي خيم على الساحة الثقافية في الموصل خلال القرون الخمسة التالية لزوال السيادة العربية الاسلامية سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م[١].



وحين هبت رياح التغيير، وحدثت حركة الاصلاح العثماني، وظهرت بوادر النهضة العربية في القرن التاسع عشر، وجدنا ان الموصل كانت على اتصال وثيق بالحركة الفكرية العربية وخاصة في بلاد الشام ومصر. والملاحظة الجديرة بالاعتبار هنا أن هذا الوعي المتحفز في الموصل لم يكن إلا تناغماً وتواصلاً للوعي العربي العام في مختلف الولايات العربية، ويلحظ هذا في تجانس الاساليب والاتجاهات التي ظهرت في النتاجات الفكرية للعلماء والادباء وغيرهم في الوطن العربي.

يعالج البحث الحياة الفكرية في الموصل، في ثلاث مراحل، تتناول المرحلة الاولى منها: الحياة الفكرية في الموصل خلال الفترة العثمانية الاولى ١٥١٦ – ١٧٢٦. اما المرحلة الثانية فتشمل الحياة الفكرية إبّان فترة حكم الجليليين ١٧٢٦– ١٨٣٤. وتنصرف المرحلة الثالثة للنظر في اوضاع الحياة الفكرية في اواخر العهد العثماني ١٨٣٤– ١٩١٨.

الحياة الفكرية في الموصل في مطلع العهد العثماني ١٥١٦ – ١٧٢٦:

دخلت الموصل تحت السيطرة العثمانية سنة ١٥١٦ فهي بذلك من اولى المدن العربية التي سيطر عليها العثمانيون. وكان لموقع الموصل الجغرافي، ولاهميتها الاقتصادية، آثار واضحة في مجرى تاريخها السياسي والحضاري، ذلك انها تقع عند تقاطع الطرق التي تربط بين ايران والاناضول والشام.

وبعد استيلاء العثمانيين عليها دخلت مرحلة جديدة من تأريخها. اذ اصبحت مركزاً متقدماً لضرب النفوذ الايراني في العراق بأكمله. ولظروف الموصل المناخية المتميزة من حيث وفرة امطارها، وقرب الاراضي الزراعية من الادارة المركزية.. فقد اتبع العثمانيون في الموصل الاسلوب الاقطاعي العسكري في حين تفاوتت التطبيقات الاقطاعية العثمانية في المناطق الاخرى بين الالتزام في صورة «سالیانه» او الاقطاع غير العسكري، او الاعتراف بالكيانات الاقطاعية العشائرية المتوارثة بشرط دفع الاتاوة السنوية المقررة عليها[٢].

لقد عاشت الموصل حتى اواسط القرن الثامن عشر في حالة من الفوضى والاضطراب في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية.. ولم يجر فيها اي اصلاح ملحوظ وفشلت الحكومة العثمانية في توفير أسباب الرفاهية والعيش الرغيد لرعاياها سواء في المدن أم في القرى والارياف حيث عانى الفلاحون الأمرين من تصرفات اصحاب الاقطاعات.

واقتصرت جهودها على ارسال الحملات على العشائر وعانت الموصل خلال هذه الفترة من نكبات طبيعية قاسية.. اذ تفشى الطاعون فيها مرات عدة، وساهم الجراد في تدهور الحياة الاقتصادية في بعض السنين. وطغت النزاعات والفتن والصراع بين اهل المدينة والعشائر المحيطة بها على الفترة كلها[٣].

وكان من الطبيعي أن تنعكس هذه كلها على الحياة الفكرية انعكاساً سلبياً. اذ اقتصرت المؤسسات الثقافية التقليدية التي ترجع بجذورها الى العصور الوسطى الاسلامية على ممارسة نشاطها القديم الذي هو خلاصة الموروث العربي الاسلامي، دون أن تضيف اليه اضافة حقيقية سوى اعداد متزايدة من الشروح والحواشي والتعليقات[٤]. وفي هذا يقول سليمان صايغ[٥]: «لم ينشأ في الموصل في اوائل السيطرة العثمانية واوسطها فن جديد ولم تتسع نطق العلوم، واذا سلمنا بوجود طائفة حسنة من أهله صنفوا وألفوا فهم لم يستجدوا شيئاً، ولم يعملوا اكثر من ان يشتغلوا على مصنفات وآثار الاقدمين، ولم يتوسعوا في علم اكثر مما توسع فيه الاسلاف، فعنايتهم كانت مقتصرة على شرح ام تذييل، وربما اكثر من ذلك شي قليل».

لقد تميز تاريخ الموصل الثقافي في هذه الفترة بوجود بضع مدارس، لم تخرج مناهجها عن تدريس الدروس الفقهية، كالمدرسة البدرية

والمدرسة الخزامية والمدرسة الجرجسية التي كان يدرس فيها محمود بن عبد الله الحنفي الذي لم يشتهر احد من طلبته.. والمدرسة اليونسية التي كان يدرس فيها مراد بن عثمان بن علي العمري (ت ١٦٨٠)، وكما هو معروف فان المتعلمين آنذاك لم يتجاوزوا بعض المؤلفات التي خدمت التدريس «دون تمكن عظيم في التأليف والنبوغ». وقد أشار الى ذلك عباس العزاوي[٦]. حين ذكر ان العناية بالابداع قلت وفقدت الرغبة في العلوم الفلكية والرياضية وصارت المولفات السابقة صعبة الأخذ، ومال الكتاب الى مختصرات لاتختلف عن سابقاتها او منتقاة منها.

لكن ذلك لم يمنع من ازدهار حركة القراءات القرآنية في الموصل التي استمرت نشطة في هذه الفترة، وهذا يرجع الى انها متصلة بتلاوة القرآن الكريم، ولقد اتضح ذلك من الاجازات العلمية الكثيرة التي منحها العلماء لتلامذتهم واثبتتها مجموعة كتب التراجم، ولعل من أبرز العلماء الذين أسهموا في هذا المجال الشيخ خضر بن عطا الله الموصلي (ت ١٥٩٩) وذلك من خلال كتابه «الاسعاف». **«شرح ابيات القاضي والكشاف»** ويريد بالقاضي المفسر «البيضاوي». عبد الله بن عمر بن محمد بن علي (ت ٦٨٥هـ) وتفسيره هو: **انوار التنزيل واسرار التأويل»** المعروف بتفسير البيضاوي. واما الكشاف المقصود به **«تفسير الكشاف للزمخشري** ت ٥٣٨هـ[٧].

وشهدت الموصل كذلك اهتماماً خاصاً من لدن بعض الوجهاء بتشييد المدارس الدينية وتزويدها بما تحتاج اليه من الكتب والمال. ومن هذه المدارس تلك التي شيدها اسماعيل باشا واخواه ابراهيم اغا وخليل اغا ابناء عبد الجليل بن مَلْكة الحصفكي في فناء جامع الاغوات سنة ١٧٠٢، ومدرسة الحاج محمود بن علي النومة المشيدة سنة ١٧٠٨، ومدرسة محمد آغا السعرتي المشيدة سنة ١٧١٥ والمدرسة التي بناها اسماعيل باشا بن عبد الجليل في فناء جامع النبي جرجيس سنة ١٧١٦ ومدرسة ياسين افندي المفتي الموصلي المتوفي سنة ١٧٢٢[٨].

اما في حقل التاريخ فلم تشهد الموصل ظهور مؤرخين بارعين خلال هذه المرحلة.. ويَصعب العثور على أسماء مؤرخين أغنوا علم التاريخ بما هو جديد، وكل ما نعثر عليه مؤلفات اختلط فيها التاريخ بالدين. فعلى سبيل المثال جمع كل من جورجيوس الالقوشي (ت ١٧٠٠)، وعيسى بن اسحاق الموصلي (ت ١٧٤١)، اخبار عدد من الرسل والقديسين في كتب مستقلة، أُريد بها خدمة الكنيسة، ولكنها مع ذلك أُسهمت في رسم قواعد فن السيرة، كما برز في المراحل التالية. ومما يلحظ ان تلك الكتب جاءت بالعربية، وهي اللغة التي بقيت تمثل ثقافة الناس في الموصل، بما فيهم من علماء وطلبة[٩].

وفيما يتعلق بالشعر فان شعراء هذه المرحلة غالوا «في تنميق العبارة واستعمال كلمات غير مأنوسة، فعاد الكثيرون منهم الى ذكر الاطلال والعيس والقلوص والظبي والدموع والنار المتقدة طي الجوانح وذلك على اسلوب واحد تقريبا معنى ومبنى»[١٠].

لذلك لم يشتهر كثيراً أحدٌ من أدباء الموصل وشعرائها في النصف الثاني من القرن السادس عشر وفي القرن السابع عشر، أدرك الموصليون ان الحكام العثمانيين لم يكونوا يهتمون بتعليم ابناء العرب، لذلك بدأوا يسعون الى انشاء المدارس الملحقة بالمساجد او المستقلة عنها. ولقد أدت هذه الحركة الى خلق فئتين جديدتين هما: **«العلماء»** و **«الادباء»**. وأسهمت هاتان الفئتان على نحو واضح في صياغة الحياة الفكرية. ومما يلحظ ان نتاجاتها كانت عربية اللغة تماما، اذ لم تتأثر بأية مؤثرات اجنبية. ويبدو أن نمو قوة الأسر المالكة للاراضي في الموصل آنذاك، وسعيها الى ان يكون لها نفوذ سياسي تنافس به سلطة الوالي العثماني الرسمية أثر كبير في انتعاش الحركة الفكرية وخاصة منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر[١١]. وقد اشتهر في الموصل آنذاك عدة علماء وادباء منهم: الشيخ محمود بن عبد الوهاب الموصلي الحنفي مفتي



الموصل (ت ١٦٧١) الذي اشتغل بالتدريس واللغة وكانت له تصانيف فيها لم تصل الينا. وقد غلب عليه الفقه فارتقى إلى منصب الافتاء في الموصل، ويصعب تحديد منزلته في علوم اللغة، على الرغم من قول مترجميه بأنه كان عالما بالعربية ذلك لضياع مصنفاته[١٢].

كما برز بالتدريس مراد بن عثمان بن علي بن قاسم العمري (ت ١٦٨٠) وفتح الله بن موسى بن علي بن قاسم العمري (ت ١٦٩٧) وعبد الباقي بن مراد العمري (ت١٦٩٧) الذي «كان اديباً فاضلاً وشاعراً مجيداً جمع بين جودة المعنى وحسن السبك[١٣]»، قرأ العلم على شيوخ الموصل وسافر الى استانبول واجتمع بعلمائها وأخذ عنهم وبقي هناك فترة من الزمن، قام خلالها بالتدريس وتخرج عليه طلبة كثيرون، وعاد الى الموصل ليتولى التدريس في المدرسة اليونسية[١٤]. وقد قدمه صاحب الشمامة[١٥] على غيره من ادباء عصره.

وفي النصف الاول من القرن الثامن عشر ظهر كل من: عبد الرحمن الموصلي الشيباني (ت ١٧٠٦) ومراد بن علي العمري (ت ١٧١٦)، الذي قال عنه صاحب شُمامة العنبر: «اذا كان غيره للمعالي فريد، فهو للمعالي مراد. وفي النظم شاعر مجيد، في العلم فاضل مجاد، وفي الرأي صائب سديد، وللخطب حزمه سداد، وفي حلبة الكرم سابق جواد»[١٦]. وكذلك الشيخ مصطفى بن علي الغلامي (ت ١٧١٧) وياسيليوس اسحق جبير الموصلي (ت ١٧٢١) وعبد الباقي بن احمد التاجر الموصلي الشافعي (ت ١٧٢٤) والملا جرجيس بن درويش (ت ١٧٢٧) وكان شاعراً له شغف بالهزل. وقد اثنى المرادي في سلك الدرر على فصاحته وبلاغته ولطيف محاضراته ومناظراته[١٧]. اما محمد بن مصطفى الغلامي[١٨] فقد جعله أشعر اقرانه بعد الشاعر حسن بن عبد الباقي الموصلي (ت ١٧٤٤) وذكر أن له ديوان شعر، وقد سافر الى حلب واجتمع بادبائها وتطارح مع فضلائها[١٩]. وقد تحدث عنه أحد النقاد فقال «ان الرجل كان يغترف من بحر، ويأخذ منه صنوف المعاني فيعيدها بسلاسة الفاظه سبيكة تبر، ويأتي بتشابيه ليس لها شبيه... يجر ذيول البلاغة مع اربابها، ويأتي بيوت الفصاحة من ابوابها»[٢٠]. وكانت له اليد الطولى في نظم التواريخ الشعرية، فلما بنى اسماعيل باشا الجليلي واخواه خليل ابراهيم اغا المدرسة التي اشرنا اليها انفا وكانت في جامع الاغوات أرخها بسبعة أبيات كل شطر منها تاريخ كامل وهو سنة ١١١٤هـ (١٧٠٢م) ومطلعها:

لقد زانت الحدباء مدرسة حوت
لساير اهل العلم والزهد والتقوى
تفوق على كل البناء تفضلا
وكيف وقد أمسى الحديث بها يروى.
اقام (خليل) الخير والفضل والتقى
بهات عماد الدين جاءت كما يهوى[٢١]

اما الشيخ يوسف النايب الموصلي (ت ١٧٣٧م) فقد شغل منصب القضاء في الموصل مدة طويلة من الزمن، ثم اعتزل القضاء وانصرف للتدريس في المدرسة الجرجسية. وكان فوق ذلك شاعراً رقيقاً، وله وقوف تام على دقائق الفقه والفرائض والحساب. وقد اقبل على دروسه طلبة العلم ومنهم محمد بن مصطفى الغلامي صاحب شمامة العنبر[٢٢].

لقد بدأ الادب في الموصل خلال هذه المرحلة يبحث عن اشكال جديدة متميزة عن المفاهيم الادبية العثمانية التي كانت تسود العصر مثل الاستناد الى قدسية الخلافة العثمانية، وسيادة النزعة الدينية[٢٣]. ويمكن ان نعثر على مثل تلك الاشكال الجديدة في كثير من القصائد التي نظمت في الموصل آنذاك. فلقد اتخذ عبد الباقي بن مراد العمري الموصلي (ت ١٦٩٧) من قصائد الشكوى سبيلاً لأبراز فساد الحكم العثماني[٢٤]. إذ أفرغ كراهيته واحتقاره للمحتلين الغرباء، وصبها في قالب مرير من الحيرة والقلق، لكي يوجه الاذهان الى عبث الحكام[٢٥] لقد رسم لنا العمري صورة واضحة لما كان عليه العراق كله حينما قال:



قد استحال العراق مفسدة
ليس سوى ضرب السيف يصلحها
وأهله كالأغنام عاث بها
أذؤبة والكلاب تنبحها
هذا بساطور الشر يسلخها
وذا بسكين القهر يذبحها
وكم تيوس على العراق نزت
من ابن لي ذو قرنين ينطحها
جاست خلال ديارهم فئة
احسنها في الخلال اقبحها
في كل يوم من شر طائفة
تطوف من حولها يصبحها
صدورها كالاعجاز خاوية
على عروش قدساء مطرحها
لسكنها والاطماع مديتها
اشرهها في الاطماع اشرحها[٢٦]

اما الشيخ مصطفى بن علي الغلامي (ت ١٧١٧) وقد عمل مفتياً للموصل فترة من الزمن، فكان في شعره يربط بين تاخر الأمة العربية وسوء الادارة العثمانية مضمنا قصائده كلمات تركية للتهكم بالحكام الاتراك والاستخفاف بهم. وينعي في الوقت نفسه، على ما وصلت اليه علوم العرب في عهدهم من تاخر[٢٧]. وفي قصيدة مشهورة له يقول[٢٨].

يا قولكم يا علماء ادنه
في زمن لا يشبه الازمنه
قد دثر الارض بأزباده
واغمر الجدران والماذنه
ترعد عن انفاسه ركبتي
ويقشعر الجلد منه سنه
هذا وذو كركين اوثالث
يقول بوقيش صار جوق قدرلينه
والترك ان تدن لهم يبعدوا
يصيحوا في غلمانهم «قاوسنه»
كيد يدن جرار حزايتنور
وان تجاسرت يقل اول سنه
بك الوري ابناء يوزي بيس
الله بلا ويرسن وقد صنصنه
وان عزوك بالفاظهم
كانت ورب البيت مستهجنه
والعلم والفضل غدا كاسدا
ما نفع الا الدك والملعنة

ثم يختم قصيدته بمراره ويقول:

وما ابن سينا عنه ذي دولة
إلا حمار قام في المتبنه
يا ليتنا متنا قبيل الاذى
وقبل هذا الذل والمسكنه

لقد لاقت تلك القصيدة رواجاً كبيراً في الاوساط المثقفة في الموصل، لما تضمنته من حس قومي ونزعة عربية واضحة وتبرم ونفور من الحكم العثماني[٢٩].

كما تتجلى النزعة القومية العربية في قصائد عبد الله الفخري مفتي الحنفية (ت ١٧٧٤)[٣٠]. ويتضح هذا في قوله:

وانّا من العرب الكرام أُلي العلى
وفينا الهدى والمجد والعلم والشعرُ
وما ضم حب المال قط صدورنا
فأموالنا عبد وأعراضنا حر
ابن المجد الا ان نعيش بعزة
اذا لم يكن مجد فمختارنا القبر
وانا لفينا نخوة عربية
وانا لنا جد به ينتهي الفخر

الحياة الفكرية في فترة حكم الجليليين ١٧٢٦–١٨٣٤:

استأثرت بعض الزعامات المحلية في الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر بالحكم، وأقامت اسراً حاكمة. ومما ساعدها على ذلك طبيعة النظام العثماني الذي تميز بالسطحية، وعدم القدرة على التغلغل والغوص في حياة السكان. ولعل من ابرز القوى التي ظهرت في



الولايات العربية : الجليليين في الموصل. فلقد تقلدت هذه الأسرة العربية المعروفة بالنفوذ والثراء مقاليد الحكم في الموصل بعد ان قدمت للعثمانيين خدمات جلى ابان حروبهم المتعددة مع الفرس الايرانيين. وكان لنجاح الجليليين في دفع الخطر الفارسي عن الموصل سنة ١٧٤٣ أثر كبير في تقوية مركز الاسرة الجليلية لدى الباب العالي من جهة والتفاف الموصليين حولها من جهة اخرى[٣١].

لقد تميزت الموصل خلال فترة حكم الجليليين بشخصية محلية واضحة المعالم ثقافياً واجتماعياً وعمرانياً وسياسياً واقتصادياً[٣٢]. كما شهد عهد الجليليين نمواً كبيراً لطبقة جديدة فتية هي طبقة التجار التي انتهزت فرصة انشغال الادارة العثمانية بالصراع مع قوى الملاكين المحلية، وعجزها عن توفير الضمانات الكافية لحماية مصالح التجار، لتحتكر السلطة السياسية منذ سنة ١٧٢٦ مدة تزيد على القرن أظهرت فيها أنها الاقدر من غيرها على ادارة شؤون الولاية، وتمثيلها لمصالح السكان من تجار وحرفيين[٣٣].

لقد اشتهر الحكام الجليليون باهتمامهم الخاص باصلاح طرق التجارة وتأمينها من أخطار اللصوص وقطاع الطرق. كما عرف عنهم اهتمامهم بتشييد الدوائر والمباني الحكومية والمدارس والمستشفيات والمكتبات ودور العلم والمساجد والجوامع. كما احتضنوا الشعراء والادباء والمؤرخين. لذلك اصبحت الموصل، في عهدهم، تموج بحركة علمية واسعة وغدت المدارس ودور العلم والمساجد وخزائن الكتب، بؤراً علمية للنقاش والبحث والتطوير الفكري والثقافي. ولقد ساهمت الاسر العلمية المعروفة، ومنها آل العمري، وآل الفخري، وآل ياسين المفتي، وآل السعدي، وآل سليم بك وآل النقيب، وآل الصائغ، وآل الشماع، وآل البزاز، وآل النومة، وآل الجويجي، وآل شنشل، في هذا النشاط جنباً الى جنب مع آل الجليلي[٣٤]. وقد نبغ من هذه الاسر كثير من العلماء والفقهاء والادباء والشعراء خدموا الموصل خدمات جليلة. كما حظي العلماء والادباء والشعراء والاطباء برعاية خاصة وجو علمي اتاح لهم انجاز كثير من النشاطات العلمية والابداعية.

ولعل من ابرز ما تميز به حكم الجليليين في الموصل اهتمامهم باللغة العربية وتشجيعهم الكتاب والادباء على استخدامها وترجمة الكتب من اللغات الاخرى الى اللغة العربية. ولقد زادت اهمية «كاتب العربية» في ديوان الانشاء في هذا العهد حتى غدا اهم عضو فيه. وصار من شروط رئيس هذا الديوان ان يكون متمكناً من علوم اللغة العربية وآدابها، مجيداً للكتابة بعدة انواع من الخط العربي[٣٥].

لقد عد الاهتمام باللغة العربية علامة واضحة على النزوع القومي العربي الذي شهدته الموصل في القرن الثامن عشر. فدواوين الولاية تستخدم اللغة العربية.. وجميع المراسلات الرسمية بين الولاية والاقاليم تتم بالعربية ومدارس الموصل، التي ساهمت في رفد الثقافة العربية بالنتاجات العلمية والادبية، تدرس باللغة العربية على نحو مباشر. وكان من مظاهر هذا الاحياء دراسة الشعر العربي القديم ونسخ مصادره ونشرها وتذوقها. وسعى شعراء متعددون الى اقتضاب معان قديمة لشعراء سابقين والاستفادة منها في صياغة اشعارهم، بعد وضعها في قوالب جديدة مختلفة الاغراض[٣٦].

ولقد شهدت الموصل ولادة شعراء موصليين كثيرين شاركوا في احداث المدينة، وعبروا بشعرهم عن كوامن نفوسهم وخفايا افكارهم فعندما انتصر الموصليون في صد غزو نادر شاه سنة ١٧٤٣، لم يقل الشاعر ان الدولة العثمانية قد انتصرت، وانما اخذ يباهي ويفاخر بأن العرب هم الذين انتصروا، وأخذ يفاخر بالجيش الذي دافع عن الموصل ناسياً الرابطة التي كانت تربطه آنذاك بالدولة العثمانية.. وقد هزت اعتداءات الفرس، وغزوهم للمدينة وما كانت تخلفه من ذكريات الكفاح المشترك ضد الغزاة، وجدان المثقف الموصلي آنذاك، فسجل تلك الذكريات المجيدة في رسائل مستقلة رغبة في نشرها وتخليدها، بل لجأ احياناً الى نظمها بشكل

«اراجيز طوالاً تروي تفاصيل الحصار وتوثق جوانب البطولة، وتوشر ولوج الفن في دنيا السياسة»[٣٧].

وكان من ابرز المؤلفين الموصليين في هذا المجال الشيخ خليل بن علي البصير (ت ١٧٦٢) الذي نظم ارجوزة تاريخية مفصلة في وصف حصار نادر شاه للموصل سنة ١٧٤٣ ومقاومة اهل الموصل لهذا الحصار والتي تعد من الشعر السياسي الذي عرفته الموصل خلال هذه المرحلة[٣٨]. ومطلع ارجوزة البصير المؤلفة من تسعة وستين بيتاً:

الحمد لله السلام المؤمن
الملك المقتدر المهيمن
وهو الذي ايدنا بنصره
على العدو منقذا من حصره
ثم الصلاة والسلام الدائم
على الذي حلت له الغنائم
مؤيد الحق نبي الملحمة
(محمدٌ) الماحي ظلام المظلمة

اما ارجوزة عبد الله الفخري الحسيني فمطلعها[٣٩]:

الحمد لله العزيز الغالب
الناصر الممدّ ذي المواهب
المانح الجزل، العميم الطول
الدافع الضرّ الشديد الحول
تبارك الله تعالى شانه
وعزّ جارا وعلا سلطانه
سبحانه يفعل ما يشاء
هيهات ان يحصى له ثناء
هو اللطيف بالبرايا سرمدا
حاشاه ان يترك امرهم سدى
يخص بالرحمة من عباده
من شاء فضلا منه في اسعاده

وعدد ابياتها مئتان واربعة وعشرون بيتا.

ولفتح الله القادري الموصلي[٤٠]، ارجوزة تعد من اطول الاراجيز. فعدد ابياتها اربع مئة وثمانية وخمسون بيتا ومطلعها:

احمد ربي خالقي معيني
في كل وقت، بل وكل حين
والشكر في كل اوان ونفس
صبحاً مساءً وعشاءً وغلس
اثني عليه لزوال النعمه
اذ بدل العسر بيسر النعمه
ثم صلاة الله تغشى احمدا
محمد الهادي النبي الاوحدا

لقد سجل الشعر الموصلي الروح الوطنية المتأججة في النفوس، وساهم في شحن همم المدافعين عن المدينة. كما ايقظت المواقف البطولية قرائح الشعراء فهب حسن عبد الباقي العمري (ت ١٧٤٤) ينشد ممجداً بطولات الرجال، ويرسم صورتهم وهم ينازلون جيوش الفرس. وقد اجاد الشاعر في التصوير حين وصف بطولة الموصليين الذين تفانوا في الدفاع عن مدينتهم حبا وكرامة بقوله:

فأضحت نحور العجم غمد صوارم
وكل عنيف كالعمود الممدد
وقد علم العجم العرين محصناً
بأسد كرام لا بصخر وقرمد
فلم ينج منهم غير أمرد ناعم
يقاد أسيراً كالغزال المقيد[٤١]

ويقدم احد الشعراء الموصليين صورة قاتمة لذلك الحصار الظالم وكيف تصدى له اهالي الموصل فيقول:

ويوم له الحدباء شاب وليدها
فتلقي به الحبلى الجنين وتندب
هنالك بان السيد السند الذي
له الراية البيضاء اقوى واغلب[٤٢]

وتوغل كثير من شعراء الموصل خلال هذه الفترة في عالم الدين الاسلامي الفسيح، حباً في العقيدة السمحة وطلبا للمغفرة، ونفوراً من الاوضاع الاجتماعية المتخلفة. وسار الشعر الديني هذا في مسارات تصب في مسالك متعددة ابرزها المديح النبوي ومديح الانبياء وذوي المراقد في الموصل.. فضلاً عن شعر الزهد والتصوف[٤٣]. ويذكر عثمان بن يوسف الخطيب



الموصلي[٤٤] (ت ١٧٣١) بعض الصفات المعنوية والروحية الدينية التي دار في وسطها الشعراء في القرن الثامن عشر في نسق شعري متسلسل[٤٥]. اذ يقول[٤٦]:

درة المرسلين والانبياء
صفوة الكاملين والاصفياء
قبلة الواصلين خير البرايا
كعبة العارفين والاولياء
بغية السائلين بحر العطايا
منية العاشقين والبدلاء
رحمة العالمين والخلق طرا
نعمةُ العالمين والفضلاء

اما عبد الوهاب الموصلي بن حسين الامام (ت ١٧٥٩) فيقول[٤٧]:

نبي بشير شافع لعصاتنا
نصوح امين مشاهد ومجاهد
رسول له الخلق العظيم سجية
به جاءت الآيات وهو المؤيد[٤٨]

ويضفي ابو بكر بن ابراهيم الكاتب[٤٩] (ت ١٧٦٠) على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم صفات معنوية تتمثل بالكرم الروحي، والمجاهدة النفسية[٥٠]. ومن شعره قوله:

نبي كريم ناصح ومجاهد
رؤوف رحيم طائع كل طائع
فيا مصطفى اني بحبك واثق
وعلقت آمالي بكم ومطامعي
مدحتك يا أعلى النبيين رتبة
وان مديحي في جنابك نافعي
فخذ بيدي يوم حشري ومبعثي
وكن بي رؤوفاً حين تجري مدامعي[٥١]

ويؤكد قاسم الرامي (ت ١٧٧٢)[٥٢] على المعجزة التي اسرى بها (الرسول الكريم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى..) (ويعرج الشاعر على الصفة التي دار حولها الشعراء وهي الرحمة.. وان المكارم التي يتداولها الناس بينهم هي بعض من نداه[٥٣].

شمائله منها الشذى شامل الورى
هو الرحمة الكبرى فللّه مخلصُ

(ويتوسل به حسين الغلامي[٥٤] (ت ١٧٩١) ويوجه اليه مقاصده وغاياته[٥٥]:

اليك رسول الله وجهت مقصدي
فانك ذخري في معادي ومرجعي[٥٦]

ومال شعراء الموصل كذلك الى مديح الانبياء وذوي المراقد في الموصل.. فعثمان بك الحياني الجليلي (ت ١٨٢٩) مدح في قصيدة له النبي يونس عليه السلام، ذكرا ان الموصل قد شرفت به منذ ضمت بين اضلعها مرقده الطاهر. ومدح الشعراء الموصليون آل البيت انطلاقا من صلة القرابة والنسب بينهم وبين الرسول الكريم ولمكانتهم الرفيعة في ضمائر المؤمنين واستلهاماً لسيرتهم المحمودة[٥٧]. فهذا يحيي افندي المفتي (ت ١٧٧٣). يؤكد على طهارة آل البيت من كل دنس، فهم صفوة في الخلق الكريم.. والسلوك الحسن. ويلتفت محمد امين الطيب بن ياسين المفتي (ت ١٨٠١)[٥٨] الى الامام يحيي بن القاسم الذي تحتضن الموصل بين جنباتها مرقده، فيخصه بقصيدة يجمع له فيها بين النسب وصلة الرحم بالامام علي رضي الله عنه، وبين الصفات الخلقية والدينية التي خص الشعراء بها آل البيت[٥٩]

ويسلك شعراء الموصل، مسلك النابذ للحياة المترفة، ويعلن خليل البصير ان الدنيا ليست بدار مقام، بل دار فناء وذهاب.. وتفوح من بعض القصائد رائحة الزهد والتصوف.. بل ويدعو عدد من الشعراء الى الزهد والصلاح. فهذا علي بن الحاج يونس الجليلي (ت ١٧٣٤)[٦٠] يذكر الناس بهدوء حزين ان الاخير في المتع واللذات التي تجلب الندم وتولد الحسرة[٦١]

بادر الى صالح الاعمال مفتكراً
قبل الفوات فدنيانا هي العدمُ
دع التلذذ فيها انه سفه
لاخير في لذة من بعدها ندم[٦٢]

ويقترب الحاج محمد بن عون الدين (ت ١٧٥٧)[٦٣] من الصوفية الى الاستغراق بحب الذات القدسية[٦٤].

بذكر الله انسى كل شيء
كأني حين أذكره أراه
يمر الدهر حيناً بعد حين
ولم يخطر على قلبي سواه
وان في ليذكره وقلبي
يلاحظه وفي سري هواه[٦٥]

ورغب شعراء الموصل في نقد الظواهر الاجتماعية السيئة، ونقد عيوب المجتمع وتشخيصها، فارتفع صوت الشكوى من الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وقد ولد الكبت والقهر في المجتمع هجرة عدد من الشعراء تاركين الموصل، فتفجر شعر الغربة والحنين في نفوسهم، فراحوا يناجون الوطن عن بعد[٦٦]. فهذا علي الغلامي (ت ١٧٧٨)[٦٧] يتشوق الى وطنه شوقاً عارماً.. فهو في بلاد غريبة عنه، والعراق بعيد عن مرآه.. فبات يسال القوافل عن اهله وذويه ووطنه:

هات الحديث عن العراق فانني
اصبحت عن تلك البقاع بمعزل
اين العراق وساكنوه لمن غدا
بالروم يسأل كل ركب مقبل
ما حال هاتيك المعاهد بعدنا
ما حال تلك الربع بعد ترحل[٦٨]

وضم الشعر الموصلي في القرن الثامن عشر جملة أخرى من الفنون الشعرية.. وازداد ولع الشعراء بفن الغزل والمجاملات الاجتماعية[٦٩] وقد برز في هذا المجال مراد بن علي العمري (ت ١٧١٦) وعمر بن ابي بكر العمري (ت ١٧٤٧)[٧٠].

ان من يراجع نتاج الشعراء في الموصل خلال هذه المرحلة يلحظ بوضوح شيوع ظاهرة «التاريخ الشعري» واكثارهم منه وولعهم به.. ويعتمد هذا التاريخ على طريقة «حساب الجُمّلْ» التي تعتمد ترتيب الحروف الابجدية. ومن الشعراء الذين برزوا في هذا الميدان حسن عبد الباقي العمري (ت ١٧٦٣) وعثمان العمري (١٧٧٠) وقاسم الرامي (ت ١٧٧٢) الذي ارخ لصدور كتاب «**شمامة العنبر**» بقوله:

يا منطقي نحو معاني الثنا
صف بحر علم فاض بالجوهر
اخي الخفاجي بريحانة
ارخ (له شمامة العنبر)[٧١]

٣٥ + ٧٨١ + ٣٥٣ = ١١٦٨هـ

وشاع في الموصل شعر المناسبات الاجتماعية الذي يشكل عمود الاخوانيات الى جانب الالغاز والاحاجي التي امست مادة للتسلية اليومية، والرياضة العقلية ووسيلة من وسائل المراسلات بين الاصحاب من الادباء والشعراء[٧٢].

لقد نمت اثر ذلك كله حركة لفحص الاعمال الادبية الجديدة ومقارنتها بغيرها، واكتشاف صلتها بالتراث القديم.. فظهر عدد من النقاد البارعين امثال الشيخ محمد الغلامي (ت ١٧٧٢) والشيخ عثمان الجليلي (ت ١٨٢٩). وقد أثار النقاد جوانب من العثرات والهنات التي ظهرت في الاساليب الكتابية الموصلية سواء في مجالات النحو والصرف او اللغة.. كما ادرك النقاد أن العامية قد غزت بعض قصائد الشعراء وتسللت اليها بألفاظها واستخداماتها وتراكيبها الدارجة في الحياة اليومية. كما دخلت بعض المفردات الاعجمية من اللغة التركية في ابيات من الشعر الموصلي هنا وهناك، واقحم بعض الشعراء الفاظا ومفردات ليست بذات قيمة.. وظهر في لغة آخرين تقليد للأقدمين في لغتهم وتراكيبهم. ومع هذا فقد وصل كثير من شعراء الموصل الى درجة الملاءمة الفكرية بين الوحدة الموضوعية من جانب واللغة السليمة والجودة في الاداء من جانب اخر مما يدل دلالة واضحة على تميز الشاعر الموصلي وقدرته على التواصل الفكري مع الموروث ومواكبة العصر والتعبير عن ما برز فيه



من ظواهر سياسية واجتماعية وثقافية[٧٣] .

لقد شجع اهتمام الحكام الجليليين بالثقافة العربية ورعايتهم للشعراء والادباء والمؤرخين الى ظهور حركة واسعة للكتابة والتأليف في الحقول المختلفة . وأدى ذلك الى نمو الحركة العلمية ، ورفد المكتبة العربية بمؤلفات عدة في شتى الميادين ، كان اهمها في العلوم القرانية واللغوية والفقه والحديث والتاريخ والطب .

ففي الدراسات القرآنية برز محمد امين العمري (ت ١٧٨٨) على رأس قائمة المؤلفين في هذا الميدان حين كتب «**تيجان البيان في مشكلات القرآن**» و «**حدائق الزهر والريحان في البيان عن بلاغات القرآن**» . كما الف حسن باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي سنة ١٧٨٣ معجم الفاظ القرآن وسماه باسم «**ترتيب حسن**» . واهمية هذا الكتاب تتجلى في امرين اثنين : اولهما انه في طليعة المؤلفين في فهارس القرآن الكريم ، بالارقام العربية ، فهو بهذا اسبق في المستشرق الالماني (فلوجل) في كتابه : «**نجوم الفرقان في اطراف القرآن**» الذي طبع لاول مرة سنة ١٨٤٢ واسبق من كتاب المعجم المفهرس لمحمد فؤاد عبد الباقي . وثانيهما انه في طليعة المؤلفين في احصاء آيات القرآن الكريم وكلماته وحروفه في العصر الحديث[٧٤] .

كما شهد علم الفقه ، ظهور عدد من المولفين ابرزهم الشيخ عبد الله الربتكي (ت ١٧٤٦) الذي الف رسائل عديدة منها: «مختصر الزواجر» و «شرح المنهاج» «**المنهاج في بيان احكام العشر والخراج**» وهو رسالة في شوون الاراضي الاميرية واحكامها . وله كذلك «**هدى الحكم الى خير الحكم**» .. وألف مصطفى العزيز بن لطفي الموصلي (ت ١٧٧٤) مجموعة من الكتب الفقهية منها كتاب شرح فيه بعض مسائل الفقه الحنفي المتوفى سنة ١٦٧٧ . وقد سماه «**مسلك الابرار الى نكات الدر المختار**» ويقع في مجلدين[٧٥] .

والف الموصليون في علم الحديث كتبا شتى منها : «**ازهار المؤمنين من كلام سيد المرسلين**» و «**الجوهرة العمرية في الصلاة والسلام على الحضرة المصطفوية**» . و «**سعادة الدارين في الصلاة والسلام على سيد الكونين**» وجميعها لمحمد بن احمد بن علي العمري الموصلي المفتي المتوفي سنة ١٧٨٤م وكتاب «**الاستشفا باحاديث المصطفى**» ليوسف بن عبد الجليل الحنفي الموصلي المتوفي سنة ١٨٢٥[٧٦] .

وساعدت الطرق الصوفية التي عرفتها الموصل خلال هذه المرحلة على الاهتمام بتأليف كتب في العلوم الالهية والصوفية[٧٧] فكتب الشيخ محمد بن احمد العمري كتاب «**ازهار الاقدسية في العلوم الالهية**» وكتاب «**قوت العاشقين**» وشرح علي القادري الجفعتري (ت ١٧٨٧) قصائد عبد الغني النابلسي في التصوف في كتاب اسماه «**كشف المخدرات في خبا المعشرات**»[٧٨] .

وفي حقل التأليف اللغوية ، شهدت الموصل خلال هذه المرحلة عدداً من الباحثين الذين ألفوا رسائل في اللغة منهم صالح السعدي (ت ١٨٢٩) الذي ترك منظومة في النحو واخرى في الصرف وألف امين العمري (ت ١٧٨٨) شرحا على ألفية ابن مالك . وكتب الشيخ مصطفى الضرير كتابا في النحو. ونظم الشيخ خليل بن علي البصير (ت ١٧٦٢) ارجوزة في احوال حروف الجر تزيد على الثلاثمائة بيت اسماها «**الدرر المنظومة والصرر المختومة**»[٧٩] .

كما ظهر الاهتمام بعلوم المعاني والبيان. اذ نظم مصطفى الضرير ارجوزته «**تنقيح تلخيص النكت**» ونظم امين العمري رسالة في الاستعارة. وفي علوم القريض كتب العمري نفسه كتابه «**المناهل الصافية في علمي العروض والقافية**» وكتب ياسين العمري (ت ١٨١٦) «**العذب الصافي في تسهيل القوافي**»[٨٠] .

وحظيت الكتابة التاريخية باهتمام متميز في هذه المرحلة. وظهر عدد كبير نسبياً من المؤرخين

الموصليين، وتنوعت أساليب الكتابة التاريخية وتعددت طرائقها، ووجدت كتب التاريخ رواجاً لدى مثقفي ذلك العهد. واهتم الولاة الجليليون بتشجيع هذا اللون من التأليف، رغبةً منهم في تعزيز سلطتهم المحلية واضفاء الطابع الشرعي عليها وذلك بربط تاريخ الموصل بتاريخ العراق والامة العربية. وقد اتضح ذلك من خلال التركيز على تأريخ الموصل وابراز دورها والتعريف باديانها وشعرائها ومورخيها وفنانيها وحرفييها منذ تأسيسها[٨١] ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل شجع الولاة المؤرخين على كتابة التاريخ، ومن ذلك أن امين باشا الجليلي اقترح على الاديب يحيى ابن عبدو الجليلي (ت ١٧٨٣) ان يجمع له تاريخاً حاوياً لذكر الدول السابقة والملوك اللاحقة، فكلف الاخير بدوره المؤرخ محمد امين الخطيب العمري (ت ١٧٨٨) بهذه المهمة، فأتمَّ تأليف كتاب اسماه «**سراج الملوك ومنهاج السلوك**»[٨٢]. ثم ألف كتاباً شهيراً بعنوان «**منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء**»[٨٣]. وكتاب «**مجموع شجرات الانبياء والملوك**» وقد سجل فيه اسماء من حكم الموصل وبغداد وغيرهما من الولاة العثمانيين مع تواريخ تعيينهم[٨٤].

كما اشتهر اخوه ياسين بن خير الله الخطيب العمري (ت بعد ١٨١٦) بتنوع الميادين التي تناولها في مؤلفاته التاريخية الكثيرة. اذ زادت مؤلفاته في التاريخ والتراجم عن (١٤) كتابا.. ابرزها

«**الآثار الجلية في الحوادث الأرضية**»[٨٥]

«**غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر**»[٨٦]

«**غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام**»

«**عنوان الاعيان في ملوك الزمان**». و«**قرة العينين في تراجم الحسن والحسين**» و«**منهج الثقات في تاريخ القضاة**». **والدر المكنون في المآثر الماضية من القرون**»[٨٧].

كما اقتفى اثره ابنه علي بن ياسين الخطيب العمري، فألف «**روضة الاخبار في ذكر افراد الاخيار**»، وهو مختصر في تاريخ العالم والدول الاسلامية وفيه فصل في ادباء الموصل وشعرائها.

وازدهر كذلك فن التراجم.. ويأتي في المقدمة كتاب «**شمامة العنبر والزهر المعنبر**» لمحمد بن مصطفى الغلامي (ت ١٧٧٢)[٨٨] اذ سجل في كتابه تراجم خمسين اديباً وشاعراً من مشاهير الموصل. وكتب عصام الدين عثمان العمري (ت ١٧٧٢) كتاباً في التراجم اسماه «**الروض النضر في ترجمة ادباء العصر**»[٨٩].

واهتم بعض المثقفين في الموصل بتدوين اخبار رحلاتهم. ولعل من ابرز هؤلاء القس (الكاردنيال فيما بعد) الياس حنا الموصلي الذي يعد اول شرقي يزور القارة الاميركية في العصر الحديث. وقد دون رحلته التي استمرت من ١٦٦٨ وحتى ١٦٨٨ في كتاب نشره الاب انطوان رباط سنة ١٩٠٥ بعنوان «**رحلة اول سائح شرقي الى اميركا**». اما القس خضر الكلداني فقد ترك الموصل سنة ١٧٢٤ متوجهاً الى روما، ماراً بنصيبين فماردين فالاسكندرونة. وفي روما عكف على تدوين رحلته[٩٠].

ولم يقتصر اهتمام المثقفين الموصليين على التأليف في ميادين اللغة والادب والتاريخ، بل تعداه الى العلوم الطبية والطبيعية والفلكية والرياضية. وكان من اوائل الذين تخصصوا في علم الطب الحاج محمد العبدلي (ت ١٧٥٠) وقد عرف برحلاته وأسفاره الكثيرة واطلاعه الواسع على كتب الطب والتشريح. ومن تلاميذه نعمان بن عثمان الدفتري الموصلي ومحمد امين بن اسماعيل حفيد ياسين المفتي

وكان المؤرخ ياسين بن خير الله الخطيب العمري (ت ١٨١٧) من المهتمين بالطب ومن اثاره «الخريدة العربية في الطب». وترجم محمد الجلبي (ت ١٨٤٦) كتبا قيمة من اللغة اللاتينية الى اللغة العربية منها «**الطب الجديد الكيمياوي**» وبرز الطبيب اسماعيل الموصلي (ت ١٨٨٤) في العلوم النفسية والعقلية[٩١].



وظهر في الموصل بعض المهتمين بعلوم الفلك والرياضيات. ويمكن ان نشير في هذا الصدد الى الشيخ سليم الواعظ الموصلي (ت ٧٤٧)، وكانت له، كما يقول الدكتور داود الجلبي «يد طولى في الحساب والزيج والاسطرلاب» وقد اخذ عنه بعض علومه اساتذة اجلاء منهم ابو البركات جمال الدين عبد الله بن حسين السويدي البغدادي (ت ١٧٦١). واستلفت الظواهر الطبيعية محمد العبدلي الطبيب، فكتب كتابا في الاسطولاب اسماه **«تذكرة اولي الالباب في استيفاء العمل الاسطرلاب»**. كما كتب **«رسالة في ماورد في الثلج والجمد والبرد»**[٩٢] ليفسر فيها بعبارة علمية واضحة اسباب سقوط المطر وكيفية حدوث التبخر وعوامل سقوط البرد والثلج وعلاقة ذلك بالضباب.

ونقل محمد الجلبي الموصلي كتاب **«الروض العاطر في تلخيص زيج ابن الشاطر»** وهو من كتب الازياج وضعه ابن الشاطر الدمشقي، الفلكي المتوفى في أواخر القرن الثالث عشر، من خط طول دمشق الى خط طول الموصل، وأعاد تنظيمه على السنين الشمسية بعد ان كان يحسب على السنين القمرية[٩٣].

وألف عبد الله الفخري (ت ١٧٨٤) مجموعة من الكتب في علم الفلك منها كتاب **«تسريح الادراك في شرح الأفلاك»** وكتاب **«سوانح القريحة في شرح الصفيحة»**[٩٤] **«الاسطرلاب»** للعاملي ورسالته في كيفية العمل بالصفيحة فضلا عن حاشيته على شرح الجغميني في الهيئة. وفي علم الحساب الف امين العمري (ت ١٧٨٨) رسالة اسماها **«ذريعة الطلاب الى معرفة الحساب»**. وكتب الاديب صالح السعدي الموصلي (ت ١٨٢٩) حاشيته على شرح الجغميني في الهيئة[٩٥].

هذا وقد قام محمد امين العمري الخطيب بن محمد نجيب افندي بنسخ مخطوطة لوالده سنة ٨٧٢ بعنوان **«رسالة في علم الحساب»** تقع في ١٩ ورقة يورد فيها مؤلفها القواعد الحسابية نظما وشرحها شرحا مسهبا نثرا. ومن ذلك قوله:

زيادة البعض من الاعداد
جمع على الغير من الافراد
وان جمعنا من العدد
على نظيره فتضعيفاً يعد

ومهما يكن من امر، فان مساهمات الموصليين في مجال العلوم الرياضية، لم تقف عند حدود التاليف والشرح، وانما ظهرت عن طريق التعليم والتدريس حيث كان ثمة من يقوم بهذه المهمة.. فكان لهم اثر كبير في نشر هذه العلوم[٩٦].

الحياة الفكرية في اواخر العهد العثماني ١٨٣٤ - ١٩١٨:

قرر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨ - ١٨٣٩ تطبيق النظام المركزي المباشر في الولايات العثمانية، والقضاء على الأسر المحلية، ومنها الاسرة الجليلية. ويعد محمد اينجة بيرقدار أول وال عمل على تطبيق سياسة السلطان محمود الثاني.. وقد بذل هذا الوالي جهودا كبيرة من اجل تحديث الموصل، وادخال الاصلاحات السياسية والاقتصادية والادارية اليها[٩٧].. كما شهدت الموصل ابان حكم مدحت باشا لبغداد ١٨٦٩ - ١٨٧٢ دخول التعليم الحديث والطباعة الحديثة. وكان من نتائج سياسة مدحت باشا ظهور متغيرات اقتصادية واجتماعية.. وبدأت رؤوس الاموال الاجنبية تتدفق على الموصل.. واتسعت حركة الاستيراد والتصدير.. وارتبط اقتصاد الموصل بالاقتصاد العالمي.. وظهرت البنوك في الموصل لتسهل عملية التعامل المصرفي. فكان في الموصل فرع للبنك الامبراطوري العثماني، وهو مؤلف من رؤوس اموال انكليزية وهناك البنك الشرقي ورأسماله مؤلف من اسهم انكليزية وادارته المركزية في لندن.. وقد اصبح لتجار الموصل فعاليات مهمة في مجال الاستيراد والتصدير.. وكان لهذه النشاطات اثر كبير في انتعاش الطبقة الوسطى التي بدأت تسعى للتعبير عن نفسها والبحث عن مواقع ثابتة في الحياة

السياسية والاقتصادية [٩٨] ..

وكان المثقفون هم القطاع الحيوي داخل هذه الطبقة.. ومعظمهم من ابناء الاسر الكبيرة والبيوتات التجارية.. وقد رافق ظهور تلك التطورات في البنيان التحتي للمجتمع انعكاسات طبيعية في البناء الفوقي.. وتحددت الظروف الموضوعية الجديدة التي حتمت التغيير في تفكير المجتمع .. واخذ الناس يفكرون بأسلوب جديد.. وبدأوا ينتقلون الى احياء عصرية .. ويحرصون على الاحتكاك بالفكر الاوربي ومكتسبات الحضارة الغربية [٩٩] . وقد ظهر ذلك واضحاً في الأدب الذي حاول الخروج عن الصيغ التقليدية والبحث عن صيغ جديدة للتعبير.. ويظهر هذا في اعمال ومؤلفات عدد من الكتاب الموصليين الذين سعوا الى استخدام المسرح للتعبير عن احساسهم بالتذمر من فقدان الحرية والشعور بالتمايز الاجتماعي. ويمكن ان نجد مصداقا لذلك في اعمال كل من (حنا حبش) المتوفى سنة ١٨٨٢ ونعوم فتح الله سحار (ت ١٩٠٠) وحنا رسام (١٨٩٠-١٩٥٨). فحنا حبش قدم لنا عملاً ادبياً تمثل في تمثيلية (يوسف الحسن) في ١٨٨٠ وتدور حول الصراع بين الاغنياء والفقراء. اما سحار فقدم مسرحية «لطيف وخوشابا» قبل سنة ١٨٩٠ وموضوعها يدور حول علاقة الانسان بالارض. وسار حنا رسام على منواله حين قدم سنة ١٩١١ مسرحية (لوجه الله الكريم) التي عالجت التمييز الاجتماعي وكشفت عن تذمر الفئات المُستَغَلَة التي تمردت بحيث خرجت عن القوانين المرعية، مما دفعها الى امتهان اللصوصية لتقض مضاجع السلطة فتمنحها حقوقها المسلوبة [١٠٠] .

كما شهدت الموصل في اواخر العهد العثماني حركة طباعية وصحفية.. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأسست في الموصل اول مطبعة هي مطبعة الدومينكان سنة ١٨٥٨ .. وصدرت اول جريدة رسمية باسم «موصل» في ٢٥ حزيران ١٨٨٥ [١٠١] .

وكان لتأسيس المطابع اثر كبير في اغناء المكتبة التاريخية العربية في الموصل بعدد من المؤلفات وصيرورتها في متناول ايدي القراء، بعد ان كان الحصول عليها مخطوطة يعد امراً عسيراً. لذلك شهدت العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر تطوراً مهماً في مجال العناية بالتاريخ فهما وكتابة، وذلك بسبب ادخال مادة «التاريخ» لاول مرة في المناهج الدراسية للمدارس الحديثة [١٠٢] ومن ابرز مظاهر الاهتمام بالتاريخ العناية بتحقيق المخطوطات ونشرها. ولعل من ابرز الذين اقدموا على ذلك اقليمس يوسف داوُد الموصلي (ت ١٨٩٠) الذي حقق كتاب «**فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء**» لاحمد بن محمد بن عربشاه ونشرها بطبعتين في الموصل ١٨٦٩ و ١٨٧٦ [١٠٣] .

وشهد التاريخ للمدن اهتماما خاصا من لدن بعض المؤرخين. اذ وضع احمد بك العباسي تأريخاً للامارة العباسية في العمادية. كما ظهر الاهتمام بكتب الرحلات، اذ كتب قاضي الموصل حسن حسني الاعرجي الموصلي (ت ١٨٩٩) رحلته الى ديار بكر حدود سنة ١٨٦٧. وتطرق خورشيد باشا الموصلي (ت ١٨٧٩) من خلال رحلته «**سياحتنامه حدود**» الى بعض اوضاع السكان الاقتصادية وطبائعهم الاجتماعية لاماكن تجمعهم وما شاكل ذلك [١٠٤] .

كما شهدت الموصل تطوراً ملموساً في مجال التعليم الاهلي والاجنبي. وكان لهذه المدارس دور مهم في نشر الثقافة واللغات الاجنبية وبخاصة اللغة الفرنسية. لذلك عدت، بالرغم من ارتباطاتها السياسية الاوربية، حلقة لابأس بها من حلقات الوصل لبعض قيم الحضارة الغربية الحديثة ومنجزاتها [١٠٥] .

واذا كان للتعليم والطباعة والصحافة الاولوية في السلم الثقافي وتبصير الناس بعقولهم، فان القصة والرواية هي المرايا التي تعكس حياة الانسان وواقعه.

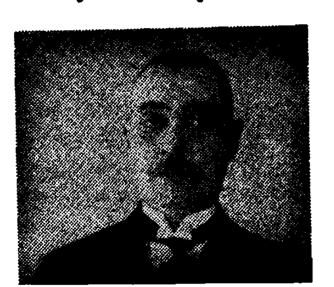


ولقد اسهمت القصة في الموصل في حركة النهضة الحديثة وبخاصة حينما لجأ القصاصون الى التاريخ القديم والتاريخ العربي ليستلهموا منه احداث قصصهم حيث وجدوا الروح القومية ، كما في رواية «**صفحة في زوايا النسيان**» لتاج الدين العمري و «**يزداندوخت**» لسليمان صايغ[١٠٦] .

اما الرواية فانها كانت متأخرة في العراق عنها في الاقطار الاخرى كسوريا ولبنان . فالبداية كانت على يد سليمان فيضي المحامي في «**الرواية الايقاظية**» سنة ١٩١٩ .

اما حركة الترجمة فقد ظهرت في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . واول من قام بعملية الترجمة من اللغات الاخرى اولئك الذين درسوا في المدارس التبشيرية امثال نعوم فتح الله سحار الذي ترجم مسرحية الامير الاسير سنة ١٨٩٥[١٠٧] .

ولقيت الاتجاهات الفكرية التي ظهرت في الوطن العربي في اواخر القرن التاسع عشر صدى واسعا في الموصل[١٠٨] . ولعل من ابرز هذه الاتجاهات : الاتجاه الديني – الاسلامي ، والاتجاه الاجتماعي – التقدمي ، والاتجاه القومي . ويظهر صدى **الاتجاه الديني – الاسلامي** واضحا في



سليمان فيضي ١٨٨٥ – ١٩٥١

افكار ونشاطات كل من الشيخ عبد الله جرجيس النعمة (١٨٧٤ – ١٩٥٠) والشيخ عثمان الديوه جي (١٨٦٨ – ١٩٤١) والشيخ صديق محمد خليل الملاح (١٨٨٦ – ١٩٤٦) والشيخ عبد الله الحسو (١٨٩٠ – ١٩٦٠) ومحمد رشيد الخطيب (١٨٨٦ – ١٩٧٩) وخير الدين العمري (١٨٩٠ – ١٩٥١) والشيخ محمد حبيب العبيدي (١٨٧٩ – ١٩٦٣).



خير الدين العمري ١٨٩٠ – ١٩٥١

اما **الاتجاه الاجتماعي – التقدمي** الذي يدعو الى الاهتمام بالقضية الاجتماعية والعناية بالمرأة والتأكيد على المساواة واقامة الحكم الديمقراطي ، فقد وجد واضحا في كتابات محمد سعيد الجليلي (١٨٩٦ – ١٩٦٣).

اما **الاتجاه القومي** فقد قوي وتطور بعد الانقلاب الدستوري العثماني في ٢٣ تموز ١٩٠٨ . اذ تأثر الوعي القومي في هذه الفترة بالذات . وشهدت السنوات من ١٩٠٨ – ١٩١٨ تنامي الحركة العربية القومية . ولم تشذ الموصل عن شقيقاتها المدن العربية ، فقد كانت على اتصال وثيق بالحركة الفكرية في سوريا ومصر . وكان تأثير المطبوعات السورية بدرجة اكبر من غيرها ، ولعل ذلك يرجع الى سهولة الاتصال بسوريا عبر البادية الشمالية . وانتهجت صحف الموصل مثل «**نينوى**» و «**النجاح**» ذات النهج القومي في الصحف العربية آنذاك وخاصة من حيث الاهتمام باللغة العربية والدعوة الى إحياء كيان العرب السياسي وبعثه .

كانت حركة الوعي القومي في سوريا اقدم عهدا ، واقوى تنظيماً ، واكثر انصاراً بالقياس الى الاقطار الاخرى[١٠٩] . ولقد سبقت ، كما هو معروف ، حركة الوعي هذه نهضة فكرية . ولما كان لكل حركة ان تضمن لنفسها واقعاً تعمل من خلاله فقد اثمرت تلك النهضة وبدا صداها يترك



اثره على الاوضاع السياسية[١١٠].

وإذا كانت حركة الوعي القومي قد اتخذت في سوريا شكلاً منظماً جلب انتباه المؤرخين فليس معنى هذا انه لم يكن هناك في الولايات الاخرى عوامل تعمل عملها في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية تفاعلت مع بعضها وادت الى ظهور الوعي القومي. وقد كان نصيب الموصل من هذا كله ان برزت فئة من مثقفيها اعتنقت الافكار القومية وعملت على إثارة الوعي القومي بدرجة لاتقل أهمية عما جرى في الولايات العثمانية العربية الأخرى، والوعي القومي في الموصل لم يكن الا جزءا من الوعي القومي العربي العام. كما اتبع نفس اساليب التوعية في الاقطار العربية واتجه باتجاهاتها، ومن هذه الاساليب الصحافة[١١١] وانشاء التنظيمات الحزبية، ومن ابرز هذه التنظيمات جمعية العلم السرية وفرع جمعية العهد العسكرية في الموصل. كما تمثل الاتجاه العربي في افكار ومواقف نخبة من الموصليين امثال ثابت عبد النور (١٨٩٠ - ١٩٥٨) وعبد المجيد شوقي البكري (١٨٩٧ - ١٩٦٨) ومحمد رؤوف الغلامي (١٨٨٩ - ١٩٦٨) ومحمد سعيد الجليلي (١٨٩٦ - ١٩٦٣) وسليمان فيضي (١٨٨٥ - ١٩٥١) وداود الجلبي (١٨٧٩ - ١٩٦٠) وداود الملاح آل زيادة (١٨٦٣ - ١٩١٦)[١١٢].

ومهما يكن من امر فان الفكر القومي العربي في هذه الفترة كان لايزال في الطور الجنيني، ولم يكن المحرك الاساس الا في التنظيمات السرية التي أشرنا الى بعضها. وقد وجد قادة تلك التنظيمات انفسهم بحاجة الى حماية المراتب الاجتماعية المتنفذة، ممّا اضعف من حركتهم. وبعد نشوب الحرب العالمية الاولى واعلان الثورة العربية دخلت الحركة العربية القومية مرحلة جديدة إذ واجهت مهام ذات طابع جديد تميز الصراع ضد السيطرة البريطانية المباشرة[١١٣].

الهوامش

(١). للتفاصيل انظر: عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي ١٧٢٦ - ١٨٣٤، (النجف، ١٩٧٥).

(٢). هاملتون كب وهارولد باوون، المجتمع الاسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، جـ ٢ (القاهرة ١٩٧٠)، ص ٦٠، ٧٤، ٨٠.

(٣). لتفاصيل ذلك انظر: ياسين بن خير الله العمري، غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر، عني بطبعه ونشره محمد صديق الجليلي، (الموصل، ١٩٤٠)، ص ص ١٣، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٦، ٢٨، ٣٩، ٤٠، ٤٨.

(٤). انظر: عماد عبد السلام رؤوف، التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني (بغداد، ١٩٨٣)، ص ص ٢٠، ٢١.

(٥). انظر كتابه: تاريخ الموصل، جـ ٢، (القاهرة، ١٩٢٨) ص ١٢٩.

(٦). انظر كتابه: تاريخ العراق بين احتلالين، جـ ٢، (بغداد، ١٩٥٤)، ص ٢٤١.

(٧). احمد نصيف الجنابي «العلوم الدينية» في نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، جـ ١١، (بغداد، ١٩٨٥)، ص ٣٥.

(٨). داود الجلبي، مخطوطات الموصل، (بغداد، ١٩٢٧)، ص ١٣ وكذلك انظر: صايغ، المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٣٤، رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ٤١٥، سعيد الديوه جي (مدارس الموصل في العهد العثماني) مجلة سومر، جـ ١٨، ١٩٦٢، ص ٧٨، نيقولا سيوفي، مجموع الكتابات المحررة على ابنية مدينة الموصل، عني بتحقيقها ونشرها والتذييل عليها سعيد الديوه جي، (بغداد، ١٩٥٦)، ص ص ٣٥-٤٦.

(٩). انظر: رؤوف، التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني، ص ٢١.

(١٠). صايغ، المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٣٠.

(١١). رؤوف، التاريخ والمؤرخون، ص ٢٠.

(١٢). انظر: الجلبي، المصدر السابق، ص ١٤ وكذلك علي احمد الزبيدي، علوم اللغة العربية، في نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، جـ ١١، (بغداد، ١٩٨٥) ص ١٣٠.

(١٣). صايغ، المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٤٥، الجلبي، المصدر السابق، ص ١٤.

(١٤). صايغ، المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٤٥.

(١٥). محمد بن مصطفى الغلامي، شمامة العنبر والزهر المعنبر، تحقيق سليم النعيمي، بغداد، ١٩٧٧، ص ٥٢.

(١٦). انظر: الغلامي، شمامة العنبر، ص ١٠.

(١٧). المصدر نفسه، ص ص ٢٧٢ - ٢٧٩.

(١٨). المصدر نفسه، ص ٢٧٣.



(١٩). صايغ، المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٤١.
(٢٠). انظر: الغلامي، شمامة العنبر، ص ٢٧٣.
(٢١). المصدر نفسه، ص ٢٧٢.
(٢٢). صايغ، المصدر السابق، جـ ٢، ص ص ١٣٩ – ١٤٠.
(٢٣). رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ٣٦٥.
(٢٤). انظر: يوسف عز الدين، الشعر العراقي، اهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر (القاهرة، ١٩٦٥)، ص ١٤٦.
(٢٥). المصدر نفسه، ص ١٤٧.
(٢٦). انظر نص القصيدة في: عبد الباقي العمري، الترياق الفاروقي، ديوان العمري، (القاهرة، ١٣١٦هـ)، ص ٢٨٨.
(٢٧). انظر: ابراهيم خليل احمد «الحركة العربية في الموصل قبيل الحرب العالمية الاولى» مجلة الخليج العربي، العدد (٧)، ١٩٧٥، ص ٨٠.
(٢٨). الغلامي، شمامة العنبر، ص ص ١٤٩ – ١٥٠.
(٢٩). رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ٣٦٧.
(٣٠). انظر: الغلامي، شمامة العنبر، ص ص ١١٨ – ١٢٣ وكذلك صايغ، المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٨٨.
(٣١). انظر: ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦ – ١٩١٦، (الموصل، ١٩٨٢)، ص ٩٥.
(٣٢). المصدر نفسه، ص ٩٥.
(٣٣). انظر، رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ٤٧.
(٣٤). للتفاصيل انظر: شريف بشير احمد امين، الشعر في الموصل في القرن الثاني عشر للهجرة (الثاني عشر الميلادي)، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الاداب – جامعة الموصل ١٩٨٩، ص ١٥.
(٣٥). على سبيل المثال، كان ملا احمد افندي بن بكر الموصلي كاتب العربية في ديوان بعض الولاة الجليليين، ومنهم سليمان باشا الجليلي، اديبا شاعرا مجيدا له معرفة بالطب (ت ١٧٩٢) انظر: الجلبي، المصدر السباق، ص ٢٢ وكذلك ذنون يونس حسين الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في اواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الاداب – جامعة الموصل ١٩٩٠، ص ٢٨.
(٣٦). الطائي، المصدر السابق، ص ص ٢٨ – ٢٩.
(٣٧). امين، المصدر السابق، ص ٢٠٢.
(٣٨). انظر: سعيد الديوه جي «ارجوزة خليل البصير»، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد (١٣)، بغداد ١٩٦٥، ص ٢٤٧.
(٣٩). انظر: عصام الدين عثمان بن علي العمري، الروض النظر في ترجمة ادباء العصر، تحقيق سليم النعيمي، جـ ١، (بغداد، ١٩٧٤)، ص ٣٠٢.
(٤٠). سعيد الديوه جي، ملحمة الموصل، (بغداد، ١٩٦٥).
(٤١). انظر نص القصيدة في: حسن عبد الباقي الموصلي، ديوان حسن عبد الباقي الموصلي، تحقيق محمد صديق الجليلي، (الموصل، ١٩٦٦)، ص ص ٤١ – ٤٢.
(٤٢). انظر: عثمان الحيائي الجليلي، الحجة على من زاد على ابن حجة، نشره محمد صديق الجليلي، (الموصل، ١٩٣٧)، ص ٤٩.
(٤٣). انظر: امين، المصدر السابق، ص ص ٣٩ و٤٣.
(٤٤). انظر ترجمة الغلامي، شمامة العنبر، ص ص ١٩٣ – ١٩٩.
(٤٥). امين، المصدر السابق، ص ص ٤٣ – ٤٤.
(٤٦). من ديوانه المخطوط المحفوظ في المجمع العلمي العراقي برقم ٩٤ شعر ودواوين.
انظر: امين، المصدر السابق، ص ٤٤.
(٤٧). انظر ترجمته في: عصام الدين عثمان بن علي العمري، الروض النضر، جـ ٢، ص ٤٢٩ (بغداد، ١٩٧٥)، ص ٤٢٦.
(٤٨). المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٤٢٩.
(٤٩). انظر ترجمته: العمري، الروض النضر، جـ ٢، ص ٣٧١.
(٥٠). امين، المصدر السابق، ص ٤٢.
(٥١). العمري، الروض النضر، جـ ٢، ص ٣٧٤.
(٥٢). انظر ترجمته في العمري، الروض النضر، جـ ٢، ص ٢٤٦.
(٥٣). امين، المصدر السابق، ص ص ٤٦ – ٤٧.
(٥٤). انظر ترجمته في: العمري، الروض النضر، جـ ١، ص ٤٩٦.
(٥٥): امين، المصدر السابق، ص ٤٧.
(٥٦). المصدر نفسه، ص ٤٧.
(٥٧). انظر: الغلامي، شمامة العنبر، ص ص ١١٣ – ١١٧.
(٥٨). العمري، الروض النظر، جـ ١، ص ٤٠٦.
(٥٩). انظر: امين، المصدر السابق، ص ص ٦٨ – ٦٩.
(٦٠). انظر ترجمته في العمري، الروض النضر، جـ ١، ص ٥٧٥.
(٦١). امين، المصدر السابق، ص ٧١.
(٦٢). العمري، الروض النضر، جـ ١، ص ٥٧٥.
(٦٣). انظر ترجمته في العمري، الروض النضر، جـ ٢، ص ٤٩.
(٦٤). امين، المصدر السابق، ص ص ٧٣ – ٧٤.
(٦٥). العمري، الروض النضر، جـ ٢، ص ٥٤.
(٦٦). للتفاصيل انظر: المصدر نفسه، ص ص ١٠٧ – ١٠٨.
(٦٧). انظر ترجمته في الغلامي، شمامة العنبر، ص ص ١٥١ – ١٥٩.
(٦٨). المصدر نفسه، ص ١٥٤.
(٦٩). امين، المصدر السابق، ص ١١٩.
(٧٠). للاطلاع على ترجمتها، انظر: صايغ، المصدر السابق، ص ص ١٤٩ – ١٥٠، ١٥٦ – ١٥٧.
(٧١). انظر: امين، المصدر السابق، ص ص ١٤٩ – ١٥١.
(٧٢). المصدر نفسه، ص ص ١٤٢ – ١٤٩.
(٧٣). انظر: المصدر نفسه، ص ص ١٦٧ – ١٨٦.
(٧٤). الجنابي، المصدر السابق، جـ ١١، ص ص ٥٠ – ٥٣، رؤوف، الموصل في العهد العثماني ص ص ٣٧٦ – ٣٨٠.
(٧٥). رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ص ٣٨١ – ٣٨٢.
(٧٦). انظر: قحطان عبد الرحمن الدوري، علوم الحديث النبوي الشريف، في نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، جـ ١١، (بغداد، ١٩٨٥)، ص ٧٤.
(٧٧). ابراهيم خليل احمد، الحياة الاجتماعية في ولاية الموصل، في: عبد الجليل التميمي (جمع وتقديم)، الحياة الاجتماعية في

الولايات العربية اثناء العهد العثماني، الجزء الاول والثاني، زغوان، تونس ١٩٨٨ ص ٥٢٨.

(٧٨). رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ٣٨٤.

(٧٩). المصدر نفسه، ص ص ٣٨٤- ٣٨٥.

(٨٠). المصدر نفسه، ص ص ٣٨٥- ٣٨٦.

(٨١). رؤوف، التاريخ والمؤرخون، ص ٣٢.

(٨٢). الصايغ، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣١ وكذلك، رؤوف، التاريخ والمؤرخون، ص ٣٣.

(٨٣). حققه سعيد الديوه جي ونشر في الموصل سنة ١٩٦٧.

(٨٤). رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ٣٨٩.

(٨٥). اختار داود الجلبي زبدته وحققه عماد عبد السلام رؤوف ونشر في النجف الاشرف سنة ١٩٧٤ بعنوان «زبدة الاثار الجلية في الحوادث الارضية».

(٨٦). حققه ونشره محمد صديق الجليلي ونشره في الموصل سنة ١٩٤٠.

(٨٧). حققه وترجمه الى الانكليزية مع دراسة نقدية، سيار كوكب علي الجميل ضمن رسالته التي حصل فيها على الدكتوراه من جامعة سانت اندروز باسكتلندة سنة ١٩٨٣. انظر:

Sayar k. AL– Jamil., A crtical Edition of al– Durr al Maknun fi al– Maathir al Madiyamin al– Qurun of Yasin al– Umari (920 – 1226 A.H = 1514– 1515 A.D. 1811– 1812 A.D– ph. D.Thesis 3vols. St. Andrews University, scotlond 1983.

(٨٨). حققه ونشره ببغداد سنة ١٩٧٧ سليم النعيمي.

(٨٩). حققه ونشره سليم النعيمي بثلاثة اجزاء صدرت ببغداد سنتي ١٩٧٤- ١٩٧٥.

(٩٠). للتفاصيل انظر: اغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج ٢، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، (القاهرة، ١٩٦٣)، ص ص ٧٦٢- ٧٦٣. وكذلك رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ص ٤٢٦- ٤٢٧، وقام الدكتور سامي سعيد الاحمد بترجمة رحلة الكاردينال الياس حنا الموصلي الى الانكليزية ونشرها اتحاد المورخين العرب ببغداد سنة ١٩٨٢ بعنوان:

Travels of the Iraqi cardinal Al– yas Hanna to the Americas (1668– 1688).

(٩١). للتفاصيل انظر: ابراهيم خليل احمد «العلوم الطبية والرياضية والطبيعية ١٢٥٨- ١٩١٤» في نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، ج ١، (بغداد ١٩٨٥)، ص ص ٢٠٠، ٢٠٤. وكذلك ابراهيم خليل احمد «محمد العبدلي الطبيب»، جريدة الحدباء ١٩ حزيران ١٩٨٤، ابراهيم خليل احمد «الطبيب محمد الجلبي الموصلي، جريدة الحدباء ١٧ تموز ١٩٨٤.

(٩٢). حققها هشام احمد الطالب ونشرها ببغداد سنة ١٩٨٤.

(٩٣). ابراهيم خليل احمد، العلوم الطبية والرياضية والطبيعية، ج ١١، ص ٢١١.

(٩٤). حققها ونشرها صباح محمود محمد ببغداد سنة ١٩٨٣.

(٩٥). انظر: ابراهيم خليل احمد، العلوم الطبية والرياضية والطبيعية، ج ١١، ص ٢١٣.

(٩٦). المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١٣.

(٩٧). للتفاصيل عن فترة حكم محمد اينجه بيرقدار (ت ١٨٤٣ ودفن في الموصل). انظر: احمد علي الصوفي، تاريخ المحاكم والنظم الادارية في الموصل، (الموصل، ١٩٤٩)، ص ص ١٤- ١٧.

(٩٨). للتفاصيل انظر: ابراهيم خليل احمد «اوضاع ولاية الموصل الاقتصادية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين»، مجلة اداب الرافدين، الموصل، العدد (٧)، ١٩٧٥.

(٩٩). انظر: ابراهيم خليل احمد «الحركة العربية في الموصل قبيل الحرب العالمية الاولى. وكذلك: كمال مظهر احمد «حول نشوء حركة التحرر الوطني العربي في دراسة سوفيتية جديدة»، مجلة افاق عربية، العدد (٢)، تشرين الاول ١٩٧٥، ص ص ١٤٠- ١٤١.

(١٠٠) للتفاصيل انظر: نوري احمد عبد القادر، الموصل والحركة القومية العربية ١٩٢٠- ١٩٤١، رسالة ماجستير لكلية الاداب- جامعة الموصل، ١٩٨٨ غير منشورة، ص ص ١٨، ١٩، ٥٣.

(١٠١) انظر: ابراهيم خليل، نشأة الصحافة العربية في الموصل، (الموصل، ١٩٨٥)، ص ص ٦، ٢٠.

(١٠٢) رؤوف، التاريخ والمؤرخون، ص ٥٢.

(١٠٣) انظر: بهنام فضيل عفاص، اقليمس يوسف داود، رائد من رواد الفكر في العراق ١٨٢٩- ١٨٨٩، (بغداد، ١٩٨٥) وكذلك رؤوف، التاريخ والمؤرخون، ص ٥٥.

(١٠٤) رؤوف، التاريخ والمؤرخون، ص ٦٢.

(١٠٥) للتفاصيل انظر: ابراهيم خليل احمد، تطور التعليم الوطني في الموصل ١٨٦٩- ١٩٣٢، (البصرة، ١٩٨٢)، ص ٤٤.

(١٠٦) انظر: عمر الطالب، الفن القصصي في الادب العراقي الحديث، (النجف، ١٩٧١).

(١٠٧) انظر: عمر الطالب «الترجمة وبدايات المسرحية في العراق»، مجلة افاق عربية، العدد (١)، ايلول ١٩٨٢.

(١٠٨) حول تفاصيل ذلك انظر: عبد القادر، المصدر السابق، ص ص ٢٣- ٥٣.

(١٠٩) انظر: عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، (بغداد، ١٩٦٣)، ص ٤١.

(١١٠) ابراهيم خليل احمد، الحركة العربية في الموصل، ص ٨١.

(١١١) انظر: ابراهيم خليل احمد، «اثر الصحافة في تنامي الوعي القومي العربي في الموصل» مجلة بين النهرين، الموصل، السنة (٣)، العدد (١٢)، ١٩٧٥، ص ص ٢٨٥- ٢٩٠.

(١١٢) انظر: ابراهيم خليل احمد، ولاية الموصل: دراسة في تطوراتها السياسية، ١٩٠٨- ١٩٢٢، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الاداب- جامعة بغداد ١٩٧٥، ص ص ١١٧، ١٥٢، ١٥٧.

(١١٣) انظر: غسان عطية «التنظيم الحزبي في العراق قبل الحرب العالمية الاولى»، مجلة دراسات عربية، بيروت، السنة (٢)، العدد (١٢)، تشرين الاول ١٩٧٢، ص ٤٥.



طبيعة الحياة الثقافية والعلمية في الموصل

د. سيّار كوكب علي الجميل

ملاحظات منهجية :

لن أكون سردياً في مبحثي هذا بقدر اتباعي محاولة معرفية (ايبستمولوجية) تكشف عن معطيات إرثية قوية في طبيعة ثقافة الموصل خلال العهد العثماني.. وصولا لاستلهام بعض الرؤى والنتائج المهمة. وسوف اتخذ من هذا الموضوع الحيوي مجال نقاش وتحليل بصورة مختزلة، متوقفاً عند بعض المحاور الاساسية.. نتساءل ونجيب من خلال المصادر الاصلية عن طبيعة الحياة الثقافية في الموصل، كي نستنتج مؤثراتها التاريخية كرواسب حية كان لها فعلها القوي في الثقافة العربية الحديثة. لابد لي ان أشير الى بعض المصادر المهمة التي كانت وستبقى علامات بارزة في حياة الموصل خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، واشهرها: كتاب **الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون**، للمؤرخ الشهير ياسين افندي الخطيب العمري[1]، وكتاب **منهل الأولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء**، للعالم الفقيه محمد امين الخطيب العمري[2]، وكتاب **الروض النضر في تراجم ادباء العصر** لعصام الدين عثمان افندي الدفتردار العمري[3]، وكتاب **شمامة العنبر والزهر المعنبر** لمحمد بن مصطفى الغلامي[4]، وغيرها من الكتب والدواوين والمجموعات، كأدبيات اصيلة تمثل حياة الثقافة الموصلية خلال العهد العثماني. كما وانها اضافة الى الكتاب الرصين الموسوم **مخطوطات الموصل** الذي ألفه الدكتور داود الجلبي في بداية القرن العشرين[5]، انما تشكل، علامات فارقة في تحديد رؤية معرفية عن طبيعة تلك الثقافة والعلوم ومجالاتها المتنوعة.

إن اية ثقافة، لا يمكن فصلها او تجريدها عن الواقع الذي كانت تعيشه، او تتنامى في خضمه: سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، لذا ساحدد بعض المؤشرات المنهجية المستخلصة في هذا المجال:

١- ان دراسة اية حياة ثقافية في التاريخ هي دراسة خطاب ما عبر عنه واقع ذلك التاريخ، وفحص سماته ونسيجه بحالة من الافصاح والنقد والمقاربة المعرفية. هكذا سنعلم أن الثقافة التي سنتحدث عنها انما تمثل خطابا عربياً يكاد الافق العثماني ان يغيب في تشكيله وتكوينه مقارنة بالاقاليم الاخرى. وقد قادنا الكشف والفحص الى الاعلان عن «الخصوصية الثقافية» التي تمتعت بها الموصل في ظل الهيمنة العثمانية. وعليه فان النتائج التي يطمح لتحقيقها الباحث والقارئ معا ستكون دون شك، غنية بالرؤى والتطلعات والمفاهيم الجديدة التي لم تزل ثوابتها في طي المخطوطات او التحفظ والكتمان والسؤال هو لماذا؟ وكيف؟

٢- في الحقيقة أننا مازلنا حتى يومنا هذا، لا نميز مصطلحياً في النظرة والممارسة بين ماهو «ظلامي» وما هو «سكوني» في تاريخنا... ناهيك عن قياس التصور الاقليمي او القطري المعاصر المفروض والمهيمن كثيرا عند بعض الاجيال العربية المثقفة الحالية، عنه لما كان عليه الحال قبل مائة سنة من اليوم. ان المصادر التاريخية الاصلية تكشف لنا بكل صراحة عن جغرافية تراثية عربية متكاملة، وتنوع «ثقافي» موحد في اطار الممكن التاريخي العربي لا الواقع العثماني المهيمن

سياسياً واداريا. وعلى هذا الاساس فان دراسة الحياة الثقافية العربية خلال التاريخ الحديث يجب اعادة تخطيطها، واستكشاف عوالمها، ونقد معطياتها من خلال «سيوسيولوجيا المعرفة» و «الديموغرافيا التاريخية» وعلى اسس بنيوية من المفاهيم التي تتقبل مسار التكامل التاريخي الذي عاشت عليه الثقافة العربية قروناً طويلة حتى في ظل الهيمنة الاجنبية. وهكذا، سنجد حواضر عربية تمثل اقطاباً تجارية (كوسموبوليتيكية) كبيروت والبصرة، او تجارية (اسروية) تحكم مسالك الشرق بالغرب كالموصل وحلب وديار بكر... او ذوات مركزيات تاريخية فاعلة كبغداد ودمشق والقاهرة... الخ وفيما عدا الحواضر، فهناك الارياف والدساكر والسهوب والتخوم من الصحارى والجبال كأراض محايدة كان لها مطلق المرونة امام الامتداد التجاري عبر المسالك، والتسرب الثقافي وهجرة العلماء، وانتقال الاخبار والافكار والاشعار[٦].

٣- يتميز التاريخ الثقافي بمفرداته وحيويته. وتكاد تخلو فيه الدراسات والجهود العلمية الرصينة حتى يومنا هذا، عدا بعض الدراسات الاجنبية[٧]. واذا كانت ثمة «دراسات» اكاديمية قد خطت خطوات مهمة في مجال الاستراتيجية السياسية والحربية للموصل «العثمانية»[٨]، فان النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بحاجة للمزيد من الاعمال المعرفية. ومن الجدير بالذكر أن المدرسة التاريخية الفرنسية لم تول عناية كبيرة بتاريخ العراق الحديث[٩]، في حين اهتمت كثيراً ببلاد الشام وبلدان المغرب العربي[١٠]. وكان المؤرخ الانكليزي لونكريك من اوائل الذين اهتموا بتاريخ العراق الحديث[١١].

اما في العراق نفسه فقد ظهر كثير من الاعمال التي اهتمت بسرد الحدث التاريخي بصدد الفترة المعنية، وابرزها كتاب **تاريخ العراق بين احتلالين**[١٢] اي الاحتلال العثماني والاحتلال البريطاني. وظهر كتاب **تاريخ الموصل** باجزائه الثلاثة منذ زمن بعيد[١٣]، فضلاً عن بعض التحقيقات والكتابات.

٤- ان المؤشر الآخر الذي يجب التذكير به منهجياً هو ذلك «**العرف**» أو «**التقليد**» الذي افترضه منذ زمن بعيد بعض الكتاب العرب، وسرى عند المثقفين والدارسين بعد ان تربت الاجيال المعاصرة عليه في المدارس والجامعات، انه «التقليد» الذي جرى مجرى **العرف المؤكد** بذهنية مركبة في مختلف الكتب والمناهج التربوية - العربية، والقائل بأن النهضة الادبية - العربية الحديثة قد ظهرت لاول مرة مع بروز الشاعر المصري محمود سامي البارودي والشعراء والادباء اللامعين الذين رافقوه او الذين أتوا من بعده في مصر او من خلال الهجرة اليها. اولئك الذين افترضهم جميع الكتاب والدارسين انهم من المجددين الاوائل في اسلوب الشعر العربي، والديباجة الادبية. لقد نشروا ذلك «الانبثاق» على عموم الساحة العربية، دون حصرهم لها بحياة مصر الادبية في القرن التاسع عشر، ودون ان يكشفوا ويطلعوا كفاية على انماط ادبية رصينة سابقة لاوان القرن المذكور، في اقاليم عربية اخرى من غير مصر. وبطبيعة الحال هناك اسباب عدة كفلت لمصر بروز البارودي مجدداً رصيناً في الشعر العربي مثلا، منها الطباعة والنشر، فضلاً عن ان التراثات الادبية لاقاليم اخرى لم تكتشف الا مؤخرا، ومن هذه الادبيات التراثية تلك التي كتبت في الموصل خلال



القرن الثامن عشر. وعليه فلابد من الدعوة هنا معرفياً ومنهجياً الى تغيير عدد من المفاهيم المتواترة خطأ، والعمل على دراسة المعطيات الادبية العربية التي سبقت عصر البارودي بمصر، تحقيقاً ونقداً ومقارنة، من اجل ان نثبت علميا الجذور الحقيقية للنهضة العربية، واعادة الاعتبار لنتاجات وتواريخ وشخوص وأمكنة مغبونة اشد انواع الغبن وادناه بعض الجوانب العريقة من المعطيات:

مؤشرات في تكوين ثقافة الموصل الحديثة:

كانت الموصل مدينة وحاضرة عربية أول من وقع في اطار الهيمنة العثمانية عام ١٥١٦م[١٤]، ومن المصادفات التاريخية انها كانت آخر مدينة عربية يجلو عنها الاتراك بعد هزيمتهم أمام الجيوش البريطانية التي احتلت الموصل عام ١٩١٨م، مما يعطينا انطباعاً عن المجال التاريخي - العثماني الذي كان اطول من بقية الحواضر والاقاليم العربية الاخرى على الرغم من انقطاعه لمدة ثلاث سنوات للفترة ١٦٢٣ - ١٦٢٦م ابان الهجمة الفارسية الشرسة على العراق بقيادة الشاه عباس خلال القرن السابع عشر[١٥]. وبرغم هذا التّشكل العثماني الطويل فان هيمنة النموذج العثماني الغريب لم يكن ذا شأن بالغ الخطورة على التكوين الثقافي - العربي الذي غدا يمثل خصوصية تاريخية للموصل خلال فترة الحكم المحلي (الجليلي) ١٧٢٦ - ١٨٣٤م. ان ذلك التكوين العربي هو الذي جسد الخطاب الثقافي وخصوصيته، ويعود السبب في ذلك، الى ان «الخطاب الثقافي» هو الذي عبر تعبيراً اصيلاً عن الحالات القاسية العديدة التي مثلها الواقع التاريخي عصر ذاك.. ذلك الواقع الذي مثلته قلعة الموصل في مواجهة الغزوات الفارسية وعوامل الهيمنة العثمانية الطويلة، ناهيك عن كثافة المآسي الاقتصادية والاهوال الاجتماعية نتيجة للاضطراب السياسي المرّ.. في حين اننا نعلم أن قلعة الموصل تمتعت باستراتيجية بالغة الاهمية من نواح متعددة ساعدتها كثيرا في دفع كثير من المخاطر الصعبة التي كان يتعرض لها المشرق العربي قاطبة، ومنها على سبيل المثال: هجمة نادرشاه الشرسة على الموصل عام ١١٥٦هـ / ١٧٤٣م، ودفاعها الذاتي البطولي الذي عبر تعبيراً بالغاً عن أهميتها التاريخية واصالتها العربية في التاريخ.

كانت المُوصل نقطة جذب حضرية عملت على كسب ولاء غير منقطع لاقليم متنوع يمتد بشكل دائري عبر شمال العراق شاسع الاطراف، والذي يمتد من ديار بكر شمالاً حتى تكريت جنوباً، ومن الرقة غرباً حتى السليمانية شرقاً. ان العلاقات تجاه مركزية الموصل وكعاصمة قديمة لاقليم بلاد الجزيرة وكانت تحددها بالذات شبكة كثيفة من الموروثات الثقافية المتنوعة بما فيها جملة التقاليد والعادات واللهجات المستعملة والكرنفالات وأساليب التعامل في الحياة الاجتماعية العريقة.. ناهيك عن الميزات الحيوية في العمل والحياة وهذا ما اشار اليه بعض من الباحثين الاجانب[١٦]، فليس من الغرابة اذن ان يزدحم مركز مدينة الموصل بعشرات المدارس والمساجد والمكتبات والمجالس الثقافية والشعبية، كما ويعج بحالات «الطرقية» المستولية عصر ذاك على روح التفكير العربي، هذا الى جانب الاساليب المتميزة في العمران والفنون والفولكلوريات المتنوعة والحياة البيتية من طعام وشراب. لقد ساعدت جملة من العوامل الاقتصادية والجغرافية في ان تكون الموصل نقطة جذب حضرية تستقطب العلاقات الثقافية مع الاطراف او الحواضر العربية في المشرق العربي، وكنتيجة من نتائج وجود الاسواق المحلية لتسويق منتجات الاطراف فيها، الى جانب وجود سوق



اقليمية عامرة بالبضائع التي تنقلها القوافل التجارية الاقليمية والدولية عبر الموصل من خلال المسالك البرية والنهرية[١٧]. وقد قضي على هذه المركزية الاقتصادية اثر فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ م، فتأثرت اقتصاديات الموصل كثيرا بالضد، وتأثرت ايضا العلاقات الثقافية على نحو لم يسبق له مثيل قبل هذا التاريخ، لتغدو بعده كأي مدينة تابعة، وبالذات نحو العاصمة اسطنبول[١٨].

ان النضال الاكبر للموصل امام الفرس مثلا، وانتصارها المجيد على نادرشاه عام ١٧٤٣ م، لم يكن من قبيل الصدفة، او من قبيل محددات طارئة في العوامل والعلل التاريخية او النتائج بعيدة المدى... سواء كانت اقتصادية مرحلية، ام سياسية آنية سريعة العطب، بل مثلت «الجغرافية» دوراً خطيراً في هذا المجال[١٩]، فضلاً عن التكوين الاجتماعي والانوغرافي في الطويل الامد لمدينة الموصل بالذات. **ان البنية الاجتماعية لمدينة الموصل «العثمانية» قد ائتلفت من قبل عناصر طبقية ثلاثة، هي: (١) النخبوية الاسروية والعسكرية. (٢) طبقة العلماء والادباء. (٣) الطرقية والشعبوية.** والملاحظ ان هذه البنية الاجتماعية قد تشبّعت كثيراً بـ «ايديولوجية» السلطنة العثمانية، اي بمذهبها الديني الذي غدا عقيدة سياسية للدولة، وقد عملت السلطات العثمانية على نشره وبثّه في الاماكن المهمة والحساسة من الامبراطورية، كما حصل في الموصل بعد فترة زمنية من دخولها في اطار السيطرة العثمانية.. والملاحظ ايضاً على بنية مجتمع الموصل خلال العهد العثماني أنها قد تجذّرت كثيراً وأفصحت عن المزيد من قيمها العربية خلال العهد الجليلي بفعل رسوخ نماذج سياسية جديدة ترافقت وانتصار الموصل على نادرشاه عام ١٧٤٣ م[٢٠]. ولكن لنتساءل: من الذي افرز تلك «القيم»، وصنع تلك «النماذج»؟ هل كانت تناقضات السلطة وعلاقاتها المتأزمة وراء كل ذلك؟ الجواب: انما ينحصر كل ذلك بالحالة الاندماجية التي خرج بها المجتمع الموصلي بانفجاره السكاني، وتنوعه الاثني الى حالة جديدة عما كان عليه. هكذا سنجد ائتلافاً وتلاحماً في القيم الاجتماعية والثقافية برغم الانقسامات السياسية التي ستتوالد فيما بعد وخاصة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. لقد توضحت تشكيلة المجتمع على نحو يتألف من خمس وحدات (اورطات) عسكر الانكشارية[٢١] واعيان الاسر المحلية القديمة منها والحديثة، ثم ارباب الصنائع والملتزمون ورجال الحكومة المحلية، ثم المشايخ في الطرقية التقليدية.. وهناك التجار الكبار والصغار وجماعات النواحي والدساكر والضواحي المجاورة، واغلبهم من اصحاب البساتين والفلاحين المرتبطين بالسوق المحلي[٢٢].. ويبقى العلماء والادباء كطبقة تتشكل عناصرها من مختلف الفئات التي تقدم ذكرها آنفاً. نتساءل الآن: اذا كان هناك ثمة انقسامات محلية قد حدثت في البنية الاجتماعية الموصلية خلال الفترات العثمانية بفعل عوامل سياسية، فان هؤلاء جميعهم كانوا يحضرون وقائع التاريخ المريرة والمتمثلة بالتحديات القاسية كالحرب والمجاعات وآفات الجراد ونكبات الطواعين، يلتحم الجميع ليصوغوا اشكالاً دقيقة من الوظائف والتقاليد الاجتماعية والمتميزة من خلال العلاقات الثقافية.

هكذا يمكن اعتبار مؤشرات الثقافة الموصلية أدلةً حقيقية لبروز فكرة وعي وطني بتحديد المعنى الضمني لا المصطلحي للمدينة او الحاضرة المركزية ذات الاستراتيجية الاقتصادية، والمستقطبة في حركتها الحواضر الاقتصادية والثقافية الاخرى التي تدور مواقعها حولها وعلى مدى جغرافي يتراوح بين ٣٠٠ - ٦٠٠ كم، فقد كانت كل من آمد وديار بكر شمالاً وبغداد والبصرة جنوباً، ويتم الاتصال عمودياً عبر الموصل نهراً من خلال دجلة ذي الجريان السريع. اما حلب فهي على الغرب تصل



الموصل بالبحر المتوسط براً ، في حين كانت العمادية وكركوك والسليمانية شرقاً تمتد نحوهم المسالك البرية من خلال الجبال[٢٣].

بعد تحليل اهم مؤشرات الثقافة في الموصل خلال الفترات العثمانية ، لنتوقف عند جوانب اساسية في دراسة طبيعة العلاقات الثقافية ، والتأكيد على بعض النماذج الفاعلة في تكوين الموصل الحديثة .. ولكي نتوصل الى اهم نتائج ذلك التكوين : بروز الموصل كبؤرة اشعاع في القومية والتحديث.

طبقة العلماء والادباء : التركيب والاسروية بين المركزية والاقليمية

مثلت طبقة العلماء والادباء في الموصل خلال الفترات العثمانية احدى البنى الاجتماعية المؤثرة في التكوين التاريخي. وقد شكلت تلك «الطبقة» بنية متشابكة العلاقات ، تفاوتت عناصرها المتنوعة بتفاوت مصالحها وبتوسطها بين طبقتين متناقضتين ومتصارعتين هما : فئة الاعيان والطبقة العامة ، أي تصادم التناقضات بين الفئة الارستقراطية التي يمثلها الحكام الاقطاعيون وكبار الملاك من الاسر القديمة او العثمانية المستحدثة ، وبين طبقة الصناع والعمال الذين كان الفقر والجوع يؤاكلهم ويحصد المئات منهم[٢٤]. لقد تشكلت طبقة العلماء والادباء في خضم هذه التناقضات ، ولتشارك ليس في الصراع السياسي فحسب ، بل لتعمل في جو مشحون بالامتيازات والمصالح المحلية والاقليمية.

لم تلد هذه «الطبقة» وحيدة في مجتمع كالموصل فحسب ، بل كان من الطبيعي ان تتبلور محلياً واقليمياً نتيجة لما تمخض عنه الوضع العثماني السائد في المجتمعين الاناضولي والعربي منذ القرن الخامس عشر، اذ عدّت طبقة العلماء والادباء من تشكيلات الحياة الاجتماعية – العثمانية على مدى قرون طويلة[٢٥]. وعليه فان الموصل لم تكن اشكالية منفردة في خصوصيتها ، ولكن سيختلف تطورها لا محالة عن الاوضاع التي نجدها في اقاليم اخرى ، بعيدة كانت ام مجاورة ، وعلى الاخص ، ما سيؤول اليه حالها خلال القرن الثامن عشر بشكل حيوي وناضج مقارنة باوضاع شبيهاتها في دمشق او بغداد او القاهرة مثلا ، ثمة تقارب واضح في السمات والمزايا لما كان عليه وضع الموصل من هذه الناحية في المشرق العربي ، ووضع مدينة فاس المغربية خلال القرن المذكور[٢٦].

ان الذي يهمنا في هذا المجال هو دور هذه «الطبقة» التي حملت على كاهلها حالة Status ثقافة الموصل بين ايجابياتها وسلبياتها بوساطة مختلف العناصر التي ساهمت بمعطياتها المشتركة ام الاحادية. السؤال الآن : ممّن تتركب هذه «الطبقة»؟ وهل من توضيح مختزل عن ماهية تفكيرها وطبيعة اعمالها؟؟ ان الباحث المؤرخ سيتوقف دون شك على جملة من المصطلحات والاعراف المتواترة والمتداولة عصر ذاك ، وخصوصاً في «ادبيات التراجم»[٢٧] .. فماذا سيجد؟ إنه سيجد «العالم» ، «العلامة» ، «الفقيه» ، «القاضي» ، «المفتي» ، «الاديب» ، «الشاعر» ، «المحقق» ، «المصنف» ، «المؤرخ» ، «الكاتب» ، «المدقق» ، «الحكيم» ، «المدرس» ، «الناظم» ، «شيخ القراء» ، «الورّاق» ، «المجّود» ، «الخطيب» ، «الشيخ» ، «المنشئ» ، «المتصوف» ، «الامام» ، المَلاّ (بفتح الميم وتشديد اللام)»[٢٨] ... الخ.

ان جميع هذه المصطلحات نجدها مستخدمة في ادبيات الموصل وموروثها الثقافي وبشكل كبير ، مما يدل على تنوع مجالات «الثقافة» برغم ضعف مستوياتها في احايين كثيرة كما هو معروف .. لكن الذي يهمنا هو تحديد علاقة كل «مصطلح» او «لقب» بالنمط المعاشي الذي يحياه صاحبه ، فمثلاً «المفتي» و «القاضي» و «كاتب الانشاء» سيختلف



اصحابها كليا عن النمط الذي يعيشه ويمارسه «الخطيب» و «الشيخ» و «المَلاّ» وهكذا، في حين ان كلا من الصنفين يجتمعان في تركيبة بنية طبقية واحدة تجمعها مصالح وغايات مشتركة.

ان تركيب طبقة العلماء والادباء في الموصل خلال الفترات العثمانية يمثل حالة اسروية في الأساس، تقوده وتتبناه طويلاً، وهي الحالة التي جانست على مدى زمني طويل يتجاوز قرنين من تاريخ الموصل الحديث، بين عروبتها وبين تبعيتها المباشرة للمؤسسة الدينية والسلطوية العثمانية - المركزية وهذا ما يتلمسه المؤرخ في «الحالة» التي تميزت بها الاسرة العمرية بالموصل، والمنتمية بجذورها الى مؤسسها الحاج قاسم العمري، وهو الجدّ الاكبر للاسرة، وقد استقدمه العثمانيون من الحِجاز، كي يعمل داعية للحكم العثماني بالموصل خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، اي في نهاية عهد السلطان سليمان القانوني وبداية عهد ولده السلطان سليم الثاني. لقد نجح الحاج قاسم العمري في مسعاه، وغرس جذوره في المدينة التي كانت تتنازعها الاهواء الدينية والفوضى السياسية. إذ بنى جامعاً له بجوار سكناه في منطقة «باب العراق» سنة ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ - ١٥٦٤ م، واوقف عليه اوقافاً كثيرة[٢٩] وستغدو الاسرة العمرية منذ ذلك الوقت بفروعها الثلاثة من صلب الحاج قاسم هي المسيطرة ثقافيا في الموصل الى جانب نفوذها الاقتصادي والاجتماعي المستمد من دعم السلطة العثمانية في العاصمة اسطنبول.. وكفئة يمثلها بعض الرؤوس الذين كانوا يعملون دوماً ضمن اطار مركزي - عثماني، بتكريس التوجّه العثماني باداة ومنظار عربيين، باعتبارها ذات جذور عربية في الانتماء والثقافة أُستفيدَ منها في تكريس ذلك التوجه والائتلاف العثمانيين. ويتوضح ذلك الارتباط المركزي من خلال حالات التصادم بين بعض رجال الاسرة مع بعض الحكام والولاة المحليين[٣٠] او الولاة الاتراك الذين كانوا يحكمون الموصل لفترات قليلة[٣١]، اذ قلما يتجاوز حكم او ولاية احدهم سنة كاملة. اضافة الى ذلك، فيتوضح امام المؤرخ في دراسته لأكثر من قرنين لحياة الموصل الحديثة، ان العمريين كانوا يسافرون دوماً الى اسطنبول بفعل انشدادهم الى المركزية العثمانية، ومنهم من مات فيها[٣٢].

لقد وجدت اسر اخرى بالموصل، ولكنها لم تتفوق ثقافياً على العمريين، في حين شغل صراع محتدم بين العمريين «والسادة» في جوانب فكرية كانت تشغل الرأي العام عصر ذاك[٣٣]. وفي بداية القرن الثامن عشر، ظهرت اسرة جديدة على الساحة بعد تفاعلها مع مختلف الاوساط بفعل انشطتها التجارية المكثفة، فسيطرت على السوق بفعل امتلاكها لكثير من رؤوس الاموال. وخلال فترة قصيرة تغدو «الاسرة الجليلية» المنتمية الى مؤسسها «عبد الجليل»[٣٤]، ذات نفوذ محلي واسع، ساهمت بمداخيلها في الاستحواذ على نفوذ اقليمي بتنصيب أول والٍ جليلي على الموصل هو اسماعيل باشا، وذلك سنة ١٧٢٦ م/ ١١٣٩ هـ، والذي قضى في منصبه سنة واحدة ليخلفه ولده الحاج حسين باشا بعد ثلاث سنوات من وفاته. اذ عين الحاج حسين باشا سنة ١٧٣٠ م/ ١١٤٣ هـ والياً على الموصل[٣٥]، وهو الزعيم المؤسس لسلالة حكم الولاة المحليين من الجليليين والتي رسخها من خلال جهوده العسكرية والادارية في حكمه للعديد من ولايات الاقاليم الشرقية للامبراطورية العثمانية.

تكاد تتفوق كثيرا طبقة العلماء والادباء خلال العهد الجليلي ليس فقط بامتيازاتها الجديدة، ولكن



بحالة توسعها الكبير من خلال قاعدتها وعدد المنتمين اليها، وكثرة نتاجاتها المختلفة. لقد كثرت المدارس الدينية الفقهية والعلمية خلال العهد المذكور ١٧٢٦ - ١٨٣٤م[٣٦]، ولكن روح المنافسة في المجال الثقافي قد ارتبطت ارتباطاً كبيراً بالمصالح السياسية والاحوال الاقتصادية. ويظهر الانقسام الاجتماعي بشكل مضطرد عندما نشخص ظواهر تشير الى مستوى معيشة اولئك الذين يشكلون طبقة العلماء والادباء، والتي تتراءى وهي تعيش ازمة داخلية بين «الاعيان» من اصحاب رؤوس الاموال والاملاك ومن ذوي الانتماء الاسروي، واغلبهم من القضاة والمفتين.. وبين «الفقراء» الذين يشكلهم الادباء الصغار والمتصوفة والخطباء. ولم تتوقف الازمة عند هذا الحد، بل ان هناك «الانقسام» داخل الاسر المتنفذة كالاسرة العمرية نتيجة عوامل اقتصادية ارثية كالحالة الوقفية المتأزمة التي عاشت اشكالياتها على مدى زمني طويل. فقد انقسمت هذه الاسرة الى ثلاثة فروع اساسية عن صلب الحاج قاسم العمري: فرع العلماء الاغنياء (فرع عثمان بن علي ابن الحاج قاسم) وفرع الوسط من الادباء (فرع محمود بن علي بن الحاج قاسم) وفرع الخطباء والملالي (فرع موسى بن علي بن الحاج قاسم)[٣٧]. هكذا يشكل الانقسام الاجتماعي ظاهرة اسروية مؤثرة في الحياة الثقافية. اما الانقسام الحاصل في الأسرية الجليلية الحاكمة فهو انقسام سياسي في الدرجة الاولى..[٣٨] والملاحظ من طرف آخر ان اغلب الادباء الصغار من الكادحين كانوا يشتغلون بـ «الصنائع» اي الاعمال المهنية كالحياكة والغزول والوراقة.. وقد عبر احدهم تعبيراً حياً عن حياته المعيشية وذاته المحموم، بقصيدة من الشعر وهو يخدم في الحياكة وذلك في اواخر القرن السابع عشر:

جار الزمان على الحدباء شتتنا
في عام خط به تاريخه الغبن[٣٩]
فصرت من بعد اخذ العلم متخذاً
أدنى الصنائع اخدم طاقة القطن[٤٠]

ومن السمات البارزة ايضا في طبيعة طبقة العلماء والادباء انها لم تنحصر بداخليتها الموصلية فقط، بمعنى انها توزعت في مناطق مختلفة من الاقليم واسع الاطراف، برغم ان الموصل كانت مركزاً حقيقياً لذلك الانتشار، وهذا عكس ما نجده في مصر «العثمانية» مثلاً[٤١]. فرغم وجود المدارس المتعددة سواء كانت القديمة منها، أم تلك التي انشئت خلال القرن الثامن عشر بالموصل فان الحركة الثقافية تكاد تكون معكوسة فيها عن مصر، اي من المدينة الى الاطراف، او من الداخل الى الخارج، وخاصة عندما يريد البعض ان يتعلم ويتثقف باللغة العربية في مدرسة رصينة كتلك التي تقع بمدينة ماوران الكردية مثلاً، والتي تخرَّج فيها عدد وافر من العلماء الاكراد.[٤٢].

من جانب اخر، لم نجد ثمة اختلافات جذرية تحكم طبيعة الذهنية في الثقافة ما خلا بعض الحركات المناوئة للنمط التقليدي الذي تعارف عليه المجتمع منذ زمن طويل، وكرسته المؤسسة العثمانية - الدينية تكريساً قوياً. وعلى الرغم من اعتناق اغلب العلماء والادباء للمذهب الحنفي وهو المذهب الرسمي للدولة العثمانية، وبرغم اشتراك «الشافعية» الى جانب «الحنفية» في الموصل فقد بقيت العربية سلوكاً واسلوباً وآداباً ومنهج حياة، سارية المفعول حالها كحال اي مكان عربي آخر من البيئة العربية المهيمن عليها عثمانياً، ولكن الفارق الاساسي هو ان العربية قد تفوقت بمعطياتها الادبية عند اصحابها المواصلة اكثر مما نجده في غيرها من الاماكن العربية وخاصة في القرن الثامن عشر، عندما تقوقعت العربية على نحو لم يشهد العرب بمثله

من قبل.

هكذا، فان طبقة العلماء والادباء في الموصل كان لها دورها المؤثر في طبيعة الحياة الثقافية ومجمل العلاقات التي حكمتها على نحو قد لانجده بوضوح في مواطن واقاليم عربية اخرى.. وسنفصل ادناه عما يكشف عن كثير من الطروحات التي تقدمنا بها:

الموصل مركز اشعاع ثقافي عربي:

١. النخبة: النزوع الانفصالي:

ان الميزة الأساسية التي يجب ان تختص بها دراسة طبيعة العلاقات الثقافية لمنطقة الموصل، انما تتمثل في بحث مزدوج: التحليل البنيوي ومعرفية «عراقة» الثقافة وشموليتها. اي بمعنى، ذلك البحث الذي يتعدى مستوى «الأقليمية» نحو مستوى الفكرة القومية والنزوع العروبي ذلك النزوع الذي صبغ احوال الموصل الثقافية عبر العهود العثمانية الطويلة من خلال مركزيتها.. والفكرة التي جسدها العشرات من الرجال المواصلة الذين كانوا يتحركون بديناميكية، وبالمستوى المعبر نفسه عن حالة التكوين الاجتماعي وتبلوره على مدى التأريخية الحديثة.. ناهيكم عن طبيعة المعطيات الثقافية التي عبرت عن روح المرحلة التأريخية، دون ان يمر اغلبها اساساً عن طريق القنوات العثمانية. وهذه ميزة خدمت الثقافة العربية كثيراً، فهناك نتاجات حرة عبرت عن نفسها بمعزل عن اية تأثيرات عثمانية فمنها ما عبر عن روح «المواطنة» ولكن دون وعي فاعل على مستوى الذهن ام الخطاب كما نجده عند خليل البصير وعثمان الخطيب، ومنها ما عبر عن روح عروبية صادقة بلا رتوش او مؤثرات خارجية، ولكنها من خلال وعي مفقود في خضم اشكالية الهيمنة العثمانية كما عند القاضي عبدالله الفخري، ومنها ما عبر عن حالة انفرادية استلهمت سيرة الامام الحسين بن علي رضي الله عنه نتيجة مجاورة ذاتية لضريحه في النجف الاشرف كما حدث عند الشاعر المبدع الغريب الاطوار حسن عبدالباقي الموصلي.. ومنها ما عبر عن حاله هجرة واغتراب عن القوالب التقليدية «الدينية» ليعبر عن مجموعة من الهواجس الذاتية والمركبات الذهنية المرتبطة اساساً بمصير الدين وسلفية الطريقة التصوفية كما حدث عند بعض «العلماء» وطلبة علوم الدين... الخ ان جميع مثل هذه المعطيات الثقافية كانت تعبر عن خطاب انفصالي. يخلو عما يجب ان يعبر عنه تعبيراً متكاملاً عن ذلك «الواقع» المتأزم لا «المتخلف» بالمعنى الاستدلالي للكلمة. هو خطاب انفصالي؟؟ نعم، لأنه لم يخرج عن طوق الاعتراف بـ «العثمانية» واطرها المؤدلجة دينياً، والمؤشكلة سياسياً معاً. ولو خدمته الظروف بصورة اكثر لحظي بتجاوز الحالة الانفصالية الى التبشير بـ «الانقلابية» كما وجدناه عند رواد اليقظة العربية في لبنان ابّان القرن التاسع عشر. ولكن وكرد فعل على انفصاليته تلك، وكان هناك الاغراق في التقليدية والتشبث بـ «العثمانية» على نحو سكوني متخلف قبل التحديث.

٢. روح المواطنة والنزوع العروبي:

لقد تجانست روح المواطنة – بالمعنى الاستدلالي للكلمة – واتتلفت بين الغني والفقير في المجتمع، وقد استمر هذا التوجه المتّقد على مدى العهود العثمانية الطويلة. وهناك اشارات عدة لهذا المنحى الذاتي والاستعداد الفطري منها تلك التي وجدناها في القرن ١٧م/ ١١هـ، عندما يذكر احمد بن جار الله الموصلي، وكان قد غلبه الفقر المدقع:

قد كنت في نعمة المغبوط في وطني
مع الاخلاء اهل العلم في زمني[٤٣]

ويأتي علي افندي الغلامي، مفتي الشافعية بالموصل، وكان يتمتع بمركز لائق وحظوة عن الحكام الجليليين في القرن الثامن عشر، ليقول وهو في العاصمة العثمانية استانبول متشوقاً:



بـرق تـألـق في الـظـلام المسـدل
فـأثـار في الاحـشـاء ذكـر المـوصـل
هات الحديث عن العراق فانني
اصبحت عن تلك البقاع بمعزل
ايـن الـعـراق وسـاكـنـوه لمن غـدا
بـالـروم يـسـأل كـل ركـب مـقـبـل
حيا الحيا تلك الرحاب وان نأت
عـني فـذكـراهـا حـلـيـف تخيلي
ما الروم داري يا بريق ولا انا
ممن تشد الى ذراها ارجلي[٤٤]

اما الشيخ عثمان الخطيب الذي توفي سنة ١١٤٥ هـ / سنة ١٧٣٢م ، فهو يقول :

اقـم بـبـلـدتـنـا الحـدبـاء واسـتـقـم
فـانـهـا مـوصـل الآلاء والـنـعـم
اكـرم بهـا مـوطـنـا لـلـقـاطـنـين بهـا
جزيل حظ من الاحسان والكرم[٤٥]

اما «العروبة» فتزيد من هذا التوجه الذاتي لتجعله ذروة في التطلع الجماعي الذي ينشد مفتخراً بمكارم العرب وسجاياهم منذ القرن الثامن عشر، فلا عجب ان تغدو الموصل فيما بعد وعند بداية القرن العشرين ، احدى مراكز الاشعاع القومي ، كنتيجة من نتائج ادوارها التأريخية التي اضطلعت بها على مستوى الخطاب والفعل في الحفاظ على عروبة المشرق العربي ضد الاخطار الفارسية التي كان قد توجها غزو نادرشاه العاتي وحصاره الرهيب للموصل سنة ١١٥٦ هـ/ ١٧٤٣م ، وفشله الذريع امام اسوارها ، بعد دفاع اهالي الموصل عن عرينهم . لقد استطاع الانتصار ان يجذّر عروبة المشرق العربي ، ويكفي ما صدر من ادبيات عروبية صادقة تفخر وتؤرخ تلك الحرب الضروس ، فهذا السيد خليل البصير الموصلي يقول :

كفى الله اهل الموصل الشر اذ اتى
عدوهم من جانب الشرق ناهض[٤٦]

وهذا كاتب الانشاء لولاة بغداد السيد عبدالله افندي الفخري يفخر بنزعته العروبية يؤكد بقوله :

وانا من العرب الكرام ذوي العلا
وفينا الهدى والمجد والعلم والشعر
وما ضم حب المال قط صدورنا
فـأمـوالـنـا عـبـد واعـراضـنـا حـر
أبى المجـد الا ان نـعـيـش بـعـزة
فان لم يكن عز فمختارنا القبر
وانـا لـفـيـنـا نخـوة عـربـيـة
وانا لنا جد به ينتهي الفخر[٤٧]

وذلك الشيخ عبدالرحمن السويدي الذي مدح الوالي الحاج حسين باشا الجليلي بطل حصار الموصل قائلاً :

لـلـه دركـم ودر رئـيـسـكـم
مـلـك تـولـى قـنـة العـلـيـاء
عربـي اصل فاتـك ذو خبـرة
ذو شيـمـة محـمـودة وسخـاء[٤٨]

انه خطاب عروبي يعبر عن شعور وايمان بمواصفات اصحابه وكثير من قيمهم الاصيلة في التأريخ ، ثم نهجهم الصارم في الحياة .. وهذا ما اكدت عليه اهم مبادىء القومية العربية عند فاتحة القرن العشرين .

لقد تميزت الآثار الادبية والنفسية التي ولدها كل من الحصار والانتصار على نادرشاه ، بعروبتها ونزعتها الوطنية ، اذ لم يقتصر الامر على مباراة الشعراء في قصائدهم ، بل ساهم الادباء بازجالهم واراجيزهم وكتاباتهم ، والمتصوفة في اغانيهم واناشيدهم . وكثرت الاوصاف والالقاب والنتاجات التي استمر فعلها مؤثراً في الحياة الثقافية – الموصلية على مدى قرنين من الزمن . ومن الآثار الأخرى التي تركها الحصار والانتصار معاً ، هو الاعتزاز بعروبة الولاية لفترة طويلة ، فرغم الانقسامات التي توالدت فيها سياسياً واجتماعياً بفعل عوامل داخلية بحتة فأن ذلك لم يمنعها من ان تنتفض او تثور في وجه اي وال تركي غريب عنها ، فيكون مصيره

القتل او السجن، او العزل او الهروب.[49]

لقد بقي النزوع العروبي مؤججاً في صدور ابناء الموصل على امتداد العصر السكوني – العثماني، فهو ان لم يتخذ له منحىً «ايديولوجياً» للتعبير عن فعله وخطابه بافصاح مطرد وانتشار كبير، فقد اتخذ من ميدان الادب ميدانه كي تؤلف خيرة الاعمال، وتنتج اقوى الاشعار، واغزر الكتابات.. وقد ساعد في ذلك طبيعة الحكم المحلي الاسروي الذي استمر على مدى قرن كامل من الحياة التأريخية العثمانية.

٣. العلاقات الثقافية: نماذج وصور

ان ارتباط الموصل سواء بالعاصمة العثمانية أم بغيرها من المدن والحواضر الاقليمية والعربية، انما تفرزه لنا اخبار اولئك الرجال المواصلة الذين تعاملوا ضمن هذا الاطار من العلاقات. ويعزز ذلك ما وجدناه من آثار تؤكد ظواهره، فهناك الهجرة والاغتراب والاسفار الوظيفية والمراسلات والمكاتبات.. كانت الموصل مركز دفع واستقطاب جاذب معاً، وكثيراً ما تواردت اسماء استنبول وبغداد والبصرة ودياربكر وحلب وكركوك والعمادية.. لتؤكد طبيعة تلك العلاقات سواء على المستوى الوظيفي كالقضاء والافتاء والمهام الرسمية الأخرى، او من خلال الاغتراب الادبي والعلمي والاقتصادي وحتى السياسي. ولدينا اشارات عدة لمن استوطن الموصل بالمقابل سواء من بغداد او حلب او تكريت او المغرب او جبال الاكراد، وهناك من البصرة او ديار بكر او دمشق. ويكاد الارتباط القوي يكون كبيراً مع استانبول عند بعض من ابناء الاسر المتنفذة تطلعاً لمنصب او وظيفة او شكوى. ويتوقف الباحث المؤرخ عند عدد من الاسماء التي كانت على اتصال بالمركزية العثمانية وخاصة تلك التي مثلها الصدر الاعظم. وكان العمريون في الموصل على اكبر علاقة بتلك المركزية، فالشاعر عبدالباقي ابن مراد بن عثمان العمري سافر الى استانبول وبنى له علاقة علمية مع وزراء آل كوبرلو، ويشيد بالوزير الاعظم فاضل احمد باشا ابن محمد باشا الكوبرلو ويمدحه، فيتولى العمري قضاء سبع مناطق عراقية منها: الموصل وكركوك والبصرة وعانة في اوقات مختلفة، وقد توفي سنة ١١٠٩هـ / ١٦٩٧م[50]. اما فتح الله بن الشيخ موسى الخطيب العمري فيتولى هو الآخر قضاء البصرة بعد سفرة له الى اسطنبول والذي يموت قبل سابقه بسنة واحدة.[51] اما الشاعر العالم مراد ابن المفتي علي العمري فيهاجر الى استانبول ويموت فيها سنة ١١٢٩هـ/ ١٧١٦م بعد خلاف مع ابيه[52]. كما وسيموت فيها ايضا غيره من العمريين بعد هجرتهم اليها[53]. وتوثقت عرى العلاقة بين الوزير الاعظم راغب باشا وكل من الاديبين الموصليين المشهورين: عصام الدين عثمان العمري والسيد خليل البصير [54] فقد اهداه الاول كتابه الشهير «الروض النضر» وجعله باسمه، فولاه دفترداريه بغداد بعد سفرات متعددة الى استانبول، ثم تنتهي حياته بمأساة تراجيدية بعد خلافه مع والي بغداد، وسجنه وتشرده ونفيه من قبل عمر باشا، ليموت في سنة ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م[55]. وهناك ايضا الحاج قاسم اغا الرونقي الجليلي الذي رافق الوالي الحاج حسين باشا في العديد من وقائعه واسفاره.[56] وهكذا بالنسبة للعديد من الرجال الآخرين الذين تحركوا هنا وهناك.

٤. جذور الافكار الاصلاحية الدينية:

يخبرنا التاريخ المحلي للموصل عن انبثاق بعض «الافكار» الاصلاحية الدينية التي كانت بنظر الاوساط الرسمية والشعبية انها افكار «إلحادية» مادامت قد خرجت عن التقاليد الاسطورية المتعارف عليها. هكذا نقف عند مصطلح جديد هو «الانكار» الذي يعد دليلاً على بروز بعض الافكار التي نادت بالخروج عن طوق التقليد المغلف باسم



«الدين» بصورة مؤشكلة. اي الدعوة للتوقف عن بعض حالات اسطورية مسيطرة على الذهن والممارسات.

لقد برزت بعض الافكار الاصلاحية خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر حتى بداية القرن التاسع عشر. وهي الافكار التي تعد – عندي –: الجذور الحية الحقيقية لمنشأ الحركة (الوهابية) كحركة اصلاحية – دينية في الفكر الاسلامي العربي الحديث، والتي انتشرت من خلالها بقية الاصلاحات الدينية الاخرى كالحركة السنوسية والحركة المهدية، ثم افكار التجديد الاسلامي عند جمال الدين الافغاني ومحمد عبده. دعيت افكار الموصل بـ «السلفية» التي لم تجد لها متنفساً للذيوع والانتشار فبقيت محصورة داخل اسوار الموصل بسبب نقصها لعدد من الادوات والوسائل، في حين نجحت الحركة (الوهابية) اثر الزيجة السياسية – الدينية، ونشرها بين القبائل.

تعود الافكار الاصلاحية الاولى الى الشيخ احمد بن الكولة الموصلي، ففي سنة ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م – يقول المؤرخ ياسين الخطيب العمري –: «ظهر من الشيخ منلا احمد بن الكولة الموصلي شيء مخالف لدعواه التي هو فيها من العلم والطريقة، وهي انكار نبوة نبي الله جرجيس، فبلغ والي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي فاحضره ووبخه وامره بالتوبة والاستغفار، ثم ان منلا احمد اطاع ظاهراً وانكر خفية وشاع عنه ذلك، فرجع عن انكاره وتاب. ووصلت الاخبار الى حلب فالف الاديب العلامة الشيخ علي المؤقت المعروف بالدباغ الحلبي رسالة اثبت فيها رسالة نبي الله جرجيس، والرد على من انكر رسالته وارسلها الى الموصل». [٥٧] وفي رواية اخرى للمؤرخ العمري ان الشيخ احمد بن الكولة كان «شديد الانكار» [٥٨]. وبعد اكثر من ستين سنة، اي بالتحديد سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م، – يكتب ياسين الخطيب العمري قائلاً: «في الموصل ظهر من احد طلبة العلم انكار على الشيخ عبدالقادر الكيلاني والشيخ محي الدين بن العربي وامثالها، فاحضره والي الموصل الوزير محمد باشا الجليلي وزجره وشتمه وأمر ان يضرب على رأسه ثم نفاه الى بغداد وابطل هذه البدعة بعد اعوام، ظهر منه في بغداد مثل هذا فنفاه والي بغداد الوزير سليمان باشا، فقدم الى الموصل ممقوتاً» [٥٩]. وفي رواية اخرى للمؤرخ: ان الانكار قد جرى ايضا على الشيخ عمر بن الفارض والشيخ عبدالكريم الجيلي. [٦٠] وفي النسخة الاخرى من كتاب المؤرخ العمري يذكر الناسخ: ان الانكار قد وقع من بعض العلماء بدل «احد طلبة العلم». [٦١]

المهم ان المؤرخ ياسين الخطيب العمري عندما يترجم لوفاة «الشيخ الوهابي» في اخبار سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤م، يذكر بأنه قدم الى الموصل وقرأ على بعض علمائها ثم سافر الى مكة ورافق الملحدين وصار منهم وامامهم... واقام مكانه ابن اخيه عبدالعزيز فمشى على سيرته. اما اصله فهو من نواحي بغداد. [٦٢] وفي رواية اخرى للمؤرخ، ان «اصله من نواحي العراق» [٦٣]، ويعني بذلك اقليم نجد.

لقد كانت الثقافة العربية في الموصل قد وصلت الى درجة تسمح لها في ان يفكر بعض ابنائها بحالة اصلاح لما كان قد استشرى في المجتمع العربي عصر ذاك من تصورات خرافية وتقاليد عقيمة في التفكير والذهنية والممارسات اليومية. ولم يفصح المؤرخ العمري اكثر من ذلك، ويعود السبب في ذلك اساسا لكونه هو نفسه كان يؤمن بكرامات الاولياء، ويضع نفسه في قائمة الشيوخ المتصوفة. ولكن نستنتج استنتاجات غاية في الأهمية، فرغم ان رد الفعل الحكومي والشعبي كان قوياً ضد تلك «الافكار» و «الدعوات» الجديدة على التفكير القديم والمخالفة له فانها غرست علائم واضحة على

طريق الاصلاحية الدينية الاولى، واعتبرت جذراً حقيقياً لها قبل عملية التفكير بالاصلاحية الدينية التي ولدت بعد ذلك على يد الافغاني ومحمد عبده، وقبل التفكير ايضا بالاصلاحية المدنية او التحديث، كما نلحظه عند الاجهزة الرسمية العثمانية أو مصر محمد علي.

ان الافكار الاولى في الاصلاحية الدينية قد سبقت طويلاً التوجهات نحو الاصلاحية المدنية. واذا كانت الاخيرة قد بدأها الاتراك في المركزية العثمانية وخصوصاً سليم الثالث ومحمود الثاني.. وايضا محمد علي بمصر فان الاصلاحية الدينية كانت عربية خالصة بجذورها او بالتطورات التي لحقت بها خلال القرن التاسع عشر، وقد أُستُغِلّت في نهاية عصر الدولة من قبل السلطان عبدالحميد الثاني في دعوته لـ «الجامعة الاسلامية» و «الخلافة» وذلك بعد دخول الدولة طريقها المسدود.

٥. الخصوصية في التقاليد الثقافية:

اتسمت حياة الموصل بتقاليدها الثقافية العريقة والمرتبطة اغلبها بطبيعة الموروثات الشعبية - الفولكلورية. اذ قد نجد بعضها ما يتجانس مع ما كان معروفاً في البيئات العربية الاخرى كبغداد او حلب او دمشق او بيروت.. ولكن منها ما اختصت به الموصل لوحدها كمدينة، او بعضها الآخر الذي نجده في بقية انحاء الاقليم المتنوع بتركيبه السكاني والجغرافي والديني واللغوي. ان المكونات الثقافية - التراثية التي لم تزل تحيا عليها مدينة الموصل انما تخبرنا عن طبيعة «الخصوصية»، وتتمثل عراقتها اذا ما قورنت بما كانت تمارسه الاجيال القديمة فيها على مدى احقاب طويلة لاتقتصر على الفترات العثمانية، بل تمتد الى العصور الوسطى، وعلى الاخص: العهود الزنكية - الأتابكية.. اذاً لنتوقف قليلاً عند بعض هذه التقاليد:

ظاهرة «الكرنفالات» الشعبية التي يخبرنا صاحب كتاب «الدر المكنون» بممارستها في المناسبات المهمة من قبل اهالي الموصل خلال القرن الثامن عشر. وتشترك في المهرجانات، مختلف القطاعات الشعبية والاصناف المهنية، ونقابات الشغيلة من العمال والصناع المهرة. وكان الوالي العثماني مع جهاز حكومته يحضرها بنفسه، لتمر من امام سرادقه مختلف تلك الاصناف بأدواتها ووسائلها وملابسها الخاصة.. ثم يوزع الهدايا عليهم(٦٤). ويعود السبب في تطور هذه الظاهرة الى سببين اساسيين:

١- التقليد التأريخي المنفرد لما كان عليه المجتمع منذ العهود الأتابكية في إقامة المهرجانات السنوية.

٢- تنامي الصناعات المتنوعة في الموصل سواء في النحاسيات ام الاخشاب ام في الغزول والنسيج وصناعة الموصلين.. الخ خلال القرن الثامن عشر، فضلاً عن مصنوعات اخرى استجدت خلال تواريخ مختلفة، ويخبرنا الرحالة جاكسون الذي زار الموصل سنة ١٧٦٧م/ ١١٨١هـ أن بعض المصنوعات الموصلية تتفوق على المصنوعات الاوربية مثل صناعة السروج والاحزمة والسجاد الحريري المطرز بالازهار، ثم مصانع الحديد والنحاسيات لمختلف المواد التي يتم شحنها الى الخارج عبر نهر دجلة نحو البصرة.(٦٥)

وهناك تقليد ثقافي آخر يمتاز بخصوصيته، فعلى الرغم من التقاليد المتشابهة في البيئات العربية والتي تجرى بمناسبة المولد النبوي الشريف، حيث تقام مظاهر الافراح. وتتعالى السرادقات ومعالم الزينة في البيوت والاسواق الشعبية، وتجرى المدائح النبوية فان الموصل قد اختصت فضلاً عن ذلك كله بممارسة فن تفّردت به الموصل ثقافياً واجتماعياً في



هذا المجال : انه شعر «التنزيلات» الذي يعود تأريخه الى عهد مظفر الدين كوكبوري حاكم اربل ، وهو ابن زين الدين علي كوجك والمعروف بابي الحسن علي بن بكتكين بن محمد ، ولي الموصل سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م ، وجعلت له امرة الجيش الأتابكي.[٦٦] لقد تطورت «التنزيلات» شكلاً من اشكال المديح الديني المكرس لذكرى الرسول العربي محمد ﷺ ، حتى لتغدو التنزيلات الموصلية تنشد في كل الافراح والمناسبات العادية خلال القرن التاسع عشر..[٦٧] تغنى وتنشد من قبل جماعات انشاد معينة ، تتميز بأصواتها الرخيمة وادواتها من الدفوف وطبلات الايقاع. وعلينا ان نبين في هذا الصدد أن «التنزيلات» هي غير «الموشحات» المعروفة او الاناشيد المتداولة ، فنظم التنزيلات تكنيك خاص[٦٨] .. وآخر من كان مشتهراً في هذا الفن هو الموسيقار الشيخ الملا عثمان الموصلي ١٢٨١-١٣٤١هـ/١٨٦٤- ١٩٢٢م[٦٩].

بقي هذا الفن التقليدي مستمراً حتى الحرب العالمية الثانية عندما خبا اثره ولم يعد احد ينظم فيه او يؤديه. ومنه على سبيل المثال هذه التنزيلة :

يانديمي هات خمرة الحان
واسقني صرفا وامل فنجاني
خمرة تجلو كل احزاني
وتزيل الهم حين تلقاني
قال فاشربها واغتنم شأني
واصطبح وانشد انني فاني
دارها المحبوب بين اخواني
وانثنى نحوي حين صافاني
صل يا امجد على محمد
كامل الأوحد نسل عدنان
وعلى الآل اهل الكمال
ما دمع سالي على الأجفان[٧٠]

هناك تقليد موصلي آخر هو المجالس الاسبوعية والدواوين (القوناغات) ، ويعود اصله الى ما كان يزاوله قادة الانكشارية ، حين تتوزع هذه المجالس على كل يوم من ايام الاسبوع عند رجالات البلد ، وله تقليد خاص تتم فيه مناقشة مختلف الامور او يكون بمثابة جلسات سمر.. وآخر «قوناغ» استمر حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية هو «قوناغ» قاسم اغا الديوه جي في محلة الامام ابراهيم بشارع النبي جرجيس. ومازالت «المجالس» الموصلية مستمرة تقليداً متوارثاً للبعض. وهناك تقاليد موصلية اخرى كانت منتعشة كثيراً في القرن الثامن عشر، ويشترك فيها عامة الناس ، منها مثلا : الاصطياف في حمام العليل ، وتقاليد تختص باساليب الحياة في البيوت والمدارس والمقاهي وغيرها.

٦. محاولة تقويم «نماذج» من المعطيات : ادب التراجم ، التاريخ ، الشعر:

يقف الباحث في دراسته لادبيات التراجم والاعمال التأريخية على عشرات الاسماء المواصلة التي ساهمت في اغناء الثقافة العربية بكثير من المعطيات في الأدب والتأريخ والتراجم والتفسير واللغة والطب والعلوم المتداولة خلال الفترات العثمانية. وتكاد الكتابات تطغىٰ في الشعر والتراجم والتأريخ على غيرها باحتوائها على مواد مهمة في تأريخية واصول الثقافة العربية والعلوم التي كانت تدرس في مدارس الموصل وانحائها ، وخاصة خلال العهد المحلي. ولعل ابرز من اطلعنا على تلك المواد والاصول هو المؤرخ ياسين افندي الخطيب العمري واخوه محمد امين الخطيب العمري في كتاباتها العامة التي وصفت المدارس القديمة والجوامع ، فضلاً عن المدارس المحدثة والمكتبات الوقفية التي وجدت من خلال المجهودات الخاصة لبعض الشخصيات المنتمية الى النخبة الحاكمة او المثقفة ، وارتبطت اسماؤها بها ، ناهيك عن تعداد عشرات المدرسين والعلماء والادباء الذين عملوا بين جدرانها خلال القرنين السابع



عشر والثامن عشر. ان المصادر الموصلية قد تضمنت تفاصيل واسعة للمواضيع التي كانت مدار نقاش وجدل فكريين في الاوساط المثقفة وبيئتها التي كانت تعمل من خلال اتصالات عدة مع حواضر اخرى.. فضلاً عن المصادر والكتب المتنوعة التي كانت تعد مجالات عمل للمدرسين كافة، وما استجد من كتابات جديدة. ولم يتوقف الامر فقط لما كان يطرح في الساحة من اعمال، فقد تضمنت ادبيات الموصل كثيراً من النشاطات التي كانت تجرى في بغداد وحلب والبصرة ودمشق ومكة.. وكذلك في المناطق التابعة للموصل من اطراف الاقليم وخاصة عند الاكراد. وهنا تجدر الاشارة الى ان اغلب المثقفين والعلماء الاكراد كانوا من المتفقهين الممتازين في علوم اللغة العربية وأدبياتها، فضلاً عن العلوم الدينية المختلفة.

يشكل ادب التراجم جزءاً مهماً من الكتابات التأريخية الثرية في الموصل، خاصة وهو احد اهم مصادر الدراسات الأدبية والتأريخية في الثقافة العربية. ولعل اشهر المصادر في هذا الباب هي الكتب الاربعة التي ورد ذكرها في مطلع البحث هذا. لكن الذي ميزها على نحو واضح: جانبان اساسيان لايمكن التغاضي عن معرفتها، ذلك ان كلا من كتاب «الروض» وكتاب «الشمامة» قد كتبا باسلوب ادبي ذي بيان بارع ولغة رصينة وبصنعة بديعية متكلفة.. واقتصرت «التراجم» فيها على عدد قليل من اشهر العلماء والادباء، فجاءت مطولة مسهبة نثراً، ومعتنية كثيراً بآثار الذين ترجمت لهم شعراً.. في حين يعد الكتاب الحولي «الدر المكنون» وكتاب التراجم «المنهل» للاخوين ياسين ومحمد امين الخطيب العمري لهما ميزتها المشتركة – فضلاً عن الكتب الاخرى لياسين في التراجم، في الاسلوب المبسط، والمعلومات التأريخية الواضحة عن ولادة المترجم له، ودراسته ومصنفاته واعماله ثم وفاته.. وقد لاتزيد بعض «الترجمات» عن سطور قليلة، فشملت بذلك جل الرجال والنساء الذين ظهروا في الموصل وغيرها. كما ولم تقتصر «التراجم» عندهم على طبقة العلماء والادباء، بل أزدحمت ايضا لتشمل حتى المتصّوفة والمغنّين واصحاب الصنائع والظرفاء، ناهيك عن رجال الدولة والحكومة والعسكريين.. الخ ويكفي ان نذكر أن «الدر المكنون» قد احتوى على حوالي (١٥٠) ترجمة لرجال مواصلة من ادباء وعلماء وشيوخ.. الخ توفوا خلال القرن الثامن عشر.

لقد خدم المؤرخ ياسين الخطيب العمري تاريخ العراق كثيراً فيما تركه من كتابات وتواريخ للاجيال من بعده، ولذا فهو المؤرخ العراقي الاول الذي اثرى تاريخ عراق القرن الثامن عشر بصفة خاصة، وذلك من خلال سرده للاحداث كبيرها وصغيرها، فضلاً عن حفظه لمئات التراجم. كما وتميز بطريقته التراتبية واسلوبه المفهرس في اعماله التأريخية التي تجاوزت على ١٧ كتاباً في حقول تأريخية شتى منها: التاريخ الحولي وادب التراجم والتاريخ السلالي والتاريخ المحلي. اما بالنسبة لهذا «الاخير»، فقد سجلت فيه محليات الموصل بامانة وصدق وشهادة عيان وسماع: قصة حصار نادرشاه للموصل، والانتصار المجيد الذي حققه اهالي الموصل على حوالي ربع مليون من القوات الايرانية الافشارية سنة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م، وكذلك تسجيل هجومات الفرس الاخرى على الموصل. لقد كان لكل من الاخوين المبرزين ياسين ومحمد امين الدور البارع في حفظ الرواية الكاملة لتلك الاحداث الدراماتيكية المريرة من حياة العراق والمشرق العربي قاطبة.[٧١]

اما ميدان الشعر فلم يكن هناك ادنى تغيير واضح في الاغراض الشعرية التي استخدمها شعراء الموصل، الا بالقدر الذي فرضته الحوادث التأريخية المريرة التي واجهتها الموصل في تكوينها التاريخي الحديث. لقد زاول الشعراء اغراض المديح والفخر



والتشبب والغزل والرثاء والهجاء... الخ كما وزاولوا ايضا الاغراض التقليدية كالتاريخ الشعري والاراجيز والمدائح النبوية والموشحات.

لقد برز كثير من الشعراء الممتازين في الموصل خلال القرن الثامن عشر، وجددوا في الاسلوب والعبارة والموضوع بنظمهم لعدد من القصائد الرصينة برغم عدم خلو بعضها من الصنعة والتكلف، ولكنني اجدها قد ابتعدت كثيراً عن مواصفات آلية الهزال اللغوي والفكري التي كانت مسيطرة سيطرة عمياء على الفكر العربي عصر ذاك.. وكما عرف ذلك عن ادبيات «الفترات المظلمة» - كما هي معروفة عن غالب الباحثين والنقاد والدارسين. ولنتوقف قليلاً عند بعض ابيات الشاعر حسن عبدالباقي الموصلي الذي كانت له خبرة بالعلوم العقلية والنقلية، وكان يدمن الخمر، فاذا سكر نظم الابيات الجيدة السبك، واذا صحا عجز عن نظم البيت الواحد، يقول:

قد فرشنا لوطء تلك النياق
ساهرات كليلة الآماق
وزجرنا الحداة ليلا فجدت
ثم ارخت أزمة الاعناق
حبذا السير يوم قطع الفيافي
ماحلى الوداع عند الفراق
وأمام الامام نجل علي
فخر آل البتول يوم السباق[٧٢]

وهذا الشاعر الأديب علي افندي العمري ابن المفتي علي افندي العمري الموصلي الذي توفي في استانبول، وكتب شعراً رقيقاً لم يزل يردده قراء المقام الموصلي على السنتهم، ومن غرره قوله:

طرّة النهر سرحتها النسائمْ
وعلت منبر الغصون الحمائمْ
ساجلتها بلابل الروض حتى
شقَّ ورد الربى جيوب الكمائمْ
ماترى الشرق سل مرهف فجر
قد تعرى براحة الأفق قائمْ
فاختلس فرصة الزمان بروض
ضحك الدهر عن بكاء الغمائمْ[٧٣]

وقد سجل كثير من شعراء الموصل قصائدهم الملحمية بعد الانتصار على نادرشاه، ومنهم: السيد خليل البصير والسيد عبدالله الفخري.. وغيرهما وكان حسن عبدالباقي قد كتب قصيدة عصماء عن انتصار جيش الموصل على الفرس الذين هاجموا الموصل بقيادة نركزخان سنة ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م، قال:

قفا نصطبح ما بالاناء المسجد
فاحياء اموات الغبوق على يدي
ورهط من الاعجام بين مدرع
على لاحق وافي وبين مزرد
فجاءوا صفوفاً والقنا يقرع القنا
كغيم كثيف او بناء مشيد
فثمنت السبع الطباق سرادقا
بناها قتام الخيل من غير اعمد
ولما دجى ليل الخطوب وقد بدت
بدور صدور من غلائل خرد
ومزقن امراطا وسجف هوادج
واصداغ خدّ كالحرير مورد
ونادت بنات الحي اين رعاتنا
واين الفتى المنعوت في كل مشهد[٧٤]

الموصل على أبواب التغيير:

١ - التغييرات العامة:

لقد ولدت فئة مصغرة في عددها، كبيرة وجريئة في أعمالها ومواقفها، فئة من المثقفين المواصلة خلال المراحل الأخيرة من الفترات العثمانية، وهي الفئة التي تخضرمت بين قرنين: التاسع عشر والعشرين. وقد شغلت عناصرها فترة دقيقة وخطيرة في ولادة الحياة العربية الحديثة والمعاصرة، من خلال النهضة العربية، وبروز الأفكار القومية، ثم



العمل على الأنحسار عن أطار السيطرة العثمانية. وقبل أن نحلل طبيعة ثقافة المخضرمين من فئة مثقفي (انتلجينسيا) الموصل التي وقعت عليها مهام الأنتقال من القديم الى الجديد، ومن الأساليب التقليدية نحو التحديث.. علينا بالوقوف قليلاً عند طبيعة القرن التاسع عشر، ومؤثراته على حياة ولاية الموصل من الناحية الثقافية.

كان الحكم المحلي للموصل من قبل الجليليين قد أنتهى سياسياً عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م، وأشغل الولاة الأتراك مكانهم. كان يحيي باشا، وهو آخر وال جليلي له علاقات سرية مع بعض القبائل العربية التي كانت لها أتصالات من طرفها بأبراهيم باشا والي الشام،[٧٥] ولكن مجمل التغييرات التي حصلت في الأجهزة الأدارية من خلال السياسة الاصلاحية التي بدأت الدولة العثمانية ممارستها في أرجاع نظام المركزية الى العديد من أقاليمها الأستراتيجية، غيرت كثيراً من المشاريع العربية التي كانت قد بدأت بالأنتعاش. هكذا أستعادت الدولة نشاطها المركزي، وجاء الولاة الأتراك ليقبضوا على حكم الموصل، وكان اشهرهم القائد التركي محمد باشا اينجه بيرقدار الذي حكم الموصل للفترة ١٢٥١-١٢٦٠هـ/ ١٨٣٥-١٨٤٤م. وقد أدخل هذا الوالي، وكان قوياً صارماً، عدداً من التغييرات والاصلاحات على وضعية الموصل، وقضى على حالة الفوضى التي استشرت فيها اثر السقوط الجليلي[٧٦]. أما الولاة الآخرون من الأتراك فلم يزد حكم اي واحد منهم على سنة واحدة[٧٧]. وعليه، فقد استشرى الفساد كثيراً بفعل السياسة التركية المتغطرسة وخصوصاً من الناحية الأقتصادية. وقد لحقت الموصل تغييرات أدارية اثر الترتيبات التي أجراها مدحت باشا والي بغداد المشهور الذي جاءت اصلاحاته المعروفة ضمن التبدلات في اطار النظام التحديثي في الحكومة العثمانية، والذي استطاع مدحت باشا أن يدخله على البلاد برمته[٧٨] ولكن الزمن لم يسعفه في أكمال مشروعه. لقد أحل محل الباشوات المستبدين طائفة كبيرة من الموظفين النظاميين، كفئة جديدة عرفت بـ "الأفندية" بعد أن كانت الساحة حكراً على الباشوات والبيكات والأغوات[٧٩]. واذا كانت حكومة بغداد قد حظيت برجل مثل مدحت باشا، فأن حكومة الموصل بقيت في حالة صراع مزمن مع بعض أطراف الأقليم، وخاصة مع العشائر اليزيدية من خلال ما شنّ من حملات عليهم بقيادة الولاة الأتراك للموصل، ومنهم: كريدي محمد باشا، وطيار باشا، والفريق عمر وهبي باشا. وكان هذا ضمن التقليد التأريخي للولاة العثمانيين للموصل، ويضمنهم ولاة الحكم المحلي من الجليليين[٨٠]، فضلاً عن أجتهادات مدحت باشا في سياسته الجديدة القاضية بأطاعة القوانين والأنظمة والأوامر الصادرة من قبل الحكومة[٨١].

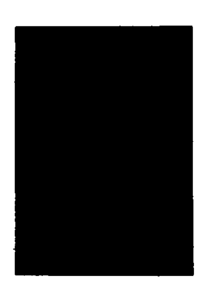
٢- التغيرات الثقافية في خضم التحديث وولادة فئة مثقفة (انتلجنسيا) جديدة من المخضرمين:

برزت أهمية الموصل خلال القرن التاسع عشر كثيراً بالنسبة للغرب، حالها في ذلك حال حلب وبيروت والقدس، وذلك للتنوع الثقافي والديني والأثنوغرافي في هذه الحواضر العربية الأربع في المشرق. وأزدادت قيمة الموصل ثقافياً لما كانت تكتنزه من آثار مهمة، وخاصة بقايا وأطلال كلاسيكية تعود تواريخها الى العهود الآشورية القديمة[٨٢]، لذا أزدادت حركة البعثات الآثارية اليها، وزارها كثير من رجالات أوربا ولاسيما من أنكلترا وفرنسا. واهتمت البعثات الأمريكية بالتبشير كثيراً، ونلحظ ذلك من خلال طموحات الغرب ودوله في توسيع مجالات النفوذ في هذه الولايات الأربع عن طريق تأسيس مدارس وكليات ومعاهد ومطابع للعمل على بث لغاتها وثقافاتها الجديدة التي تساعدها في مهامها

السياسية والاستراتيجية[٨٣].

لقد وفد الآباء الدومينيكان على الشرق، واسسوا في الموصل مطبعة عربية سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م[٨٤]، وقامت هذه المطبعة بطبع ونشر عدد من الكتب اللاهوتية التي خدمت اساساً أغراض الكنيسة. وقد طبعت هذه الكتب بلغات ثلاث: العربية والكلدانية والفرنسية[٨٥]. وكان الشماس روفائيل مازجي الآمدي قد أسس من أمواله الخاصة مطبعة مجهزة بكل لوازم الطبع سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م[٨٦]، ولكن هجرت هذه المطبعة فيما بعد. وكان أسمها "المطبعة الكلدانية"، وقد أرخها الشاعر شهاب الدين العلوي المليسي[٨٧]. أما الحكومة العثمانية، فقد أسست مطبعة حكومية في دار الحكومة سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م، واصدرت عنها جريدة رسمية اسبوعية ثقافية اخبارية باللسان التركي[٨٨]. كانت **"جريدة موصل"** هذه: لسان حال الأتراك. وقد كتب تأريخاً لها الشاعر التركي المعروف عبدالله صافي مرحباً بها، ومدح السلطان عبد الحميد الثاني على هذا العمل[٨٩].

أما التعليم فكان نشاطه محصوراً في جنبات المساجد ومدارسها الدينية. وهو تقليدي كما عرفته القرون الماضية. وبدت الموصل خلال القرن التاسع عشر غنية بهذا النوع من المؤسسات الأهلية والوقفية المتوارثة التي تعد بالعشرات، ومنها المدارس القديمة المشهورة كالمدرسة الأحمدية والخزامية والعبدالية...الخ لقد بلغ عدد المدارس الدينية والأهلية في الموصل خلال العهود العثمانية المتأخرة حوالي (٦٥) مدرسة،[٩٠] حفلت أغلبها بمكتبات عامرة بالمخطوطات الثمينة المتنوعة بعلومها وآدابها ومعارفها[٩١]. أما العلوم التي كانت تدرس في تلك المدارس، فهي: العلوم الدينية واللغوية كالفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف والمعاني والبديع.. ثم المنطق وآداب الوضع والمقابلة والمناظرة، والعقائد ثم العروض والشعر[٩٢]. أما المدارس الحكومية فقد دخل ضمن علومها: الحساب والهيئة والمناظرة والكلام وقواعد اللغتين العربية والتركية. لقد سعت الحكومة العثمانية في أنشاء المدارس عدا مدارس الجوامع، وقد شيدت أول مدرسة (=مكتب) عثماني بجوار باب لكش، وهي محلة مشهورة بالموصل، وأفتتحوا فيه صفوفاً رشدية في عهد ولاية كنعان باشا سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م. فكان في الموصل سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م "مكتب" رشدي واحد، و "مكتب" آخر ابتدائي. وفي سنة ١٣٣٠هـ/١٩١١م، أفتتح "مكتب" أعدادي، وهو يقابل بمناهجه التدريسية الصفوف الثانوية.. كما أفتتحت ست مدارس رسمية. ولم تزل الموصل محرومة من مدارس الأناث، حتى أقبلت الراهبات المعروفات بأخوات المحبة، وكان مجيئهن للموصل في شهر تشرين الثاني سنة ١٨٧٣م/ ١٢٩٠هـ، فأفتتحن مدارسهن للبنات المسلمات والمسيحيات على حد سواء! ثم أفتتحت الحكومة العثمانية مدرستين للبنات. أما المدرسة الرشدية الرسمية فهي المدرسة العثمانية الوحيدة التي تأسست في الموصل، اذ لم يكن ثمة غيرها حتى سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م ما عدا مدرسة أبتدائية اخرى.[٩٣]



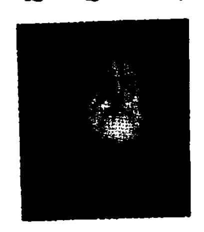
• عبدالله راقم أفندي

هنا يدعو الشاعر الموصلي عبدالله راقم افندي للأصلاح والقضاء على الجهل في نشيده الذي نظمه وصدحت به حناجر طلاب المدرسة الرشدية

الرسمية بمناسبة زيارة والي الموصل اليها، وهو مصطفى نجيب باشا الذي تعين وخدم واليا للفترة ١٢٩١-١٢٩٣هـ/١٨٧٤-١٨٧٥م، يقول الشاعر:

أشرقت شمس الفلاح
وظلام الجهل زاح
وانزوى ليل الرقاد
وضياء الجد لاح
فاصبنا من حميا
كرمة العلم أنشراح
(الى آخر النشيد)(٩٤)

وكان من أبرز علماء الموصل خلال القرن ١٩، أقليمس يوسف داود ١٨٢٩-١٨٩٠ الذي أتقن عدة لغات، وكان رجلاً متبحراً في علوم اللغة العربية، وكانت حصيلة حياته حوالي (٨٥) مؤلفاً في مختلف المعارف، وقد أنتخب عضواً عاملاً في الجمعية الأسيوية الملكية البريطانية سنة ١٨٩٠م وعدّ من رواد النهضة الفكرية العربية(٩٥).



• اقليمس يوسف داؤد آل زبوني (١٨٢٩-١٨٩٠م).

كان من أشهر المدرسين في المدرسة الرشدية رسول مستي افندي، مدرس الرياضيات والطبيعيات وعلم الهيئة، والذي ساح في بلدان متعددة، ثم عين مديراً لمعارف الموصل سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م. وعاد الى سياحته من جديد، فسافر الى مصر وأوربا، وألف بعد رجوعه كتاب "سبر زلزلة" سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م، في حين كان قد طبع في اسطنبول كتابه القيم "حوادث وعناصر" سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م.(٩٦)

وقد تتلمذ على يده الاستاذ الشاعر عبدالله راقم افندي الموصلي الذي عاش للفترة ١٢٧١-١٣٠٩هـ/١٨٥٣-١٨٩١م. وحمل فكراً أصلاحياً ومات في عز شبابه بعد أن أحرق ديوان شعره، ولم يتبق من شعره إلا القليل.(٩٧)

لقد كان هناك عدد من الرجال المواصلة الذين خدموا العلم والأدب خلال القرن التاسع عشر، ومن أشهرهم: الأستاذ عبدالله افندي الفيضي المتفقه بعلوم اللغة العربية،(٩٨) وهناك عثمان بيك الجليلي الذي الف كتاب "الحجة على من زاد على ابن الحجة"(٩٩)، والشعراء الذين لم يخرجوا عن طوق التقليد، وهم: عبد الباقي الفاروقي(١٠٠) وملا حسن البزاز ومحمد شيت الجومرد..(١٠١) وقد تجدد الشعر كثيراً في سبكه وعبارته وقوة معانيه عند سليمان بن مراد بيك الجليلي والسيد أحمد الفخري ثم الذين أخذوا عنهما من المخضرمين. أما أشهر العلماء فكان هناك عثمان افندي الديوه جي وأحمد افندي الديوه جي وداود بن سليم الصائغ وعثمان الخطيب وغيرهم(١٠٢).

لقد تعلم على أيدي هؤلاء الرجال نخبة من المثقفين الذين سيغدون من المخضرمين بين قرنين بعد أجتيازهم نهايات القرن التاسع عشر الى أعتاب القرن العشرين، واصطدامهم بعدد من الأشكاليات السياسية والحضارية وتعقيداتها، ومن أشهرهم: محمد حبيب العبيدي وعلي الجميل وحسن الأطراقجي المحامي واحمد عزت آل قاسم أغا السعرتي والدكتور داود الجلبي والموسيقار الملا عثمان الموصلي ومحمد رؤوف الغلامي والقس سليمان الصائغ والدكتور حنا خياط ومحمد امين العمري وتوفيق السمعاني وسليمان فيضي الموصلي والصحافي سليم حسون وداود الملاح آل زيادة... وغيرهم(١٠٣). وهناك بعض ممن شارك في الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦م. السؤال الآن: ماذا كانت أدوار هذه النخبة من المثقفين الذين وجدوا

أنفسهم لأول مرة بين ثقافتين، قديمة وحديثة؟؟

لقد تصادم فعلاً طابع النهضة والتحديث مع القوالب الجامدة وعناصرها من الخطباء ورجال الدين الذين آثروا البقاء على الأنماط السلفية المنبعثة عن المدارس الدينية والوقفيات القديمة، ولكن ستتغلب الأفكار الجديدة التي حملها العديد من الرجال على تلك القوالب والأنماط التي تجاوزها العصر، ثم القضاء على مصالحها وامتيازاتها من خلال تأسيس المدارس الجديدة، وستكون اشهرها "المدرسة الخضرية" (الأعدادية الشرقية حالياً)، ومن خلال الصحافة وتأسيس كثير من المطابع، ناهيك عن توافد الصحف والمجلات الأجنبية ثم العربية والمصرية بشكل خاص[١٠٤]. أن الحالة الثقافية التي ولدت على ايدي الرجال المخضرمين والمعاناة من الأشكاليات والتعقيدات التي خاضوها.. كانت جزءاً مهماً من عملية تغيير الواقع الثقافي عما كان عليه، وتلك من أصعب الأمور.. أي بمعنى: تبديل القوالب والأشكال والأنماط التقليدية التي كانت قد دامت قروناً طويلة بجملة رواسبها وبقاياها.. وكان ذلك جزءاً مهماً من حلقة التحديث والنهضة ضد كل ما هو سكوني جامد[١٠٥]، ولما لم تندرج عملية التحديث الفكري بالموصل في أطار المؤسسة العثمانية بشكل كبير وفعال، فأنها قد تمفصلت أجمالياً من روح البيئة التأريخية التي ولدت النخبة في أحضانها. أن تلك النخبة المثقفة بثقافة عالية لم تجد البديل إلا في العروبة التي بلغت ذروتها في الموصل وبيئتها التأريخية ذات الأصالة المعروفة.. كان أن ظهر رجال مواصلة التزموا هذا المسار سراً وجهراً، وغدوا بمثابة اشعاع قومي سيؤثر فيما بعد في الفكر القومي العربي الحديث، وخاصة في العراق ابان الثلاثينيات، وقبل ولادة الأيديولوجيا العربية المعاصرة. لقد عرفت الموصل بتأثيرها القومي الفعال من خلال الجمعيات العربية، كان اشهرها جمعية العهد الموصلية التي كان لها دور مؤثر من خلال الضباط المواصلة، فضلاً عن الأتصالات التي كانت عليها الموصل مع بؤر قومية اخرى في العراق وبلاد الشام واسطنبول.. لقد كان البلاط العثماني يتحسس ذلك النزوع في حاضرة مثل الموصل، فليس عبثاً أن يرسل السلطان عبد الحميد الثاني في السنوات الأخيرة من القرن ١٩ الى الموصل الشيخ ابو الهدى الصيادي.. وكان الهدف من زيارته: ترويج سياسة (الجامعة الاسلامية) التي تبناها السلطان عبد الحميد الثاني. ومن المعروف أن عبد الحميد الثاني كان قد فرض حظراً على النشاط القومي العربي.

وكان انقلاب تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ ومجئ الأتحاد والترقي الى الحكم.. وتمضي سنوات قليلة كي تنفجر الحرب العالمية الأولى، ومع نهايتها تكون الدولة العثمانية قد خسرت ممتلكاتها جميعاً في المشرق العربي عندما أحتل الأنكليز الموصل سنة ١٩١٨.. ولكي تبدأ صفحة جديدة من الثقافة والنضال ضد المحتل الجديد، وتبدأ حياة الموصل المعاصرة.

الهوامش:

(١) هناك كتابان حوليان كبيران للمؤلف نفسه تحت هذا العنوان، وبرغم الأختلافات الواسعة والأضافات التأريخية الكثيرة بينهما، فقد حققهما كاتب هذا البحث بثلاثة أجزاء، أنظر:
Sayyar K. AL-Jamil, *A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-Umari (920 - 1226 A. H. = 1514/1515 A. D. - 1811/1812 A. D.)*, Ph. D. thesis, 3 vols.: vol. I (=Introduction and Notes), vol. II (=Text), vol. III A&B (=Apparatus Criticus), St. Andrews Univ., Scotland, 1983.

(٢) حقق الأستاذ سعيد الديوه جي هذا الكتاب ونشره بجزئين في الموصل، سنة ١٩٦٧.

(٣) حقق د. سليم النعيمي هذا الكتاب ونشره بجزئين ببغداد، ١٩٧٥.

(٤) حققه أيضاً د. سليم النعيمي، وظهر بجزء واحد، بغداد، ١٩٧٧.

(٥) أنظر: د. داؤد الجلبي، **مخطوطات الموصل**، بغداد، ١٩٢٧.

(٦) للتوسع في هذه المفاهيم، أنظر:

Sayyar K. AL – Jamil, *op. cit.*, vol. I, pp. 142 – 5.

(٧) خصص د. برسي كيمب أطروحته حول موضوع "الموصل والمؤرخون الموصليون خلال العهد الجليلي" أنظر:

Percy Kemp, *Mosul and Mosuli Historians of the Jalili* Era 1726 – 1834, D. Phil. thesis, Oxford, Oxford Univ., 1980.

(٨) من أبرز هذه الدراسات، أنظر:

Robert Olson, *The Siege of Mosul and Ottoman-– Persian Relations* 1718 – 1743, Indiana Univ., Indiana, 1975.

(٩) عدا مقالة رصينة للمؤرخ روبرت منتران، أنظر:

Robert Mantran, "Baghdad a'epoque Ottoman", *Arabica*, Special vol., 1962.

(١٠) من أشهرهم: المؤرخ سوفاجييه الذي أشتهر بكتاباته التأريخية عن "بلاد الشام"، في حين أشتهر المؤرخ شارل أندريه جوليان في كتاباته عن "بلدان المغرب العربي".. وهناك غيرهما من الفرنسيين.

(١١) أنظر كتابه الشهير:

S. H. Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford, 1925.

لقد ترجم هذا الكتاب للعربية الأستاذ جعفر خياط تحت عنوان: **أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث**، وعلق عليه: د. مصطفى جواد، بغداد، ط ٣، ١٩٦٢.

(١٢) عباس العزاوي المحامي، **تأريخ العراق بين أحتلالين**، ٨ أجزاء، بغداد، ١٩٣٥–١٩٥٦.

(١٣) القس سليمان صائغ (المطران فيا بعد)، **تأريخ الموصل**، ٣ أجزاء، جـ ١، القاهرة، ١٩٢٨، جـ ٢، بيروت، ١٩٤٠،

(١٤) للتوسع في طبيعة التوسع العثماني للعراق، أنظر: د. سيار الجميل، " أستراتيجية العراق وأثرها في نشوء الصراع العثماني – الأيراني"، مجلة **آفاق عربية**، العدد ١٠، حزيران ١٩٨١.

(١٥) **المنهل**، سبق ذكره في ملاحظة ٢، جـ ١، ص١٣٦. وأنظر: عباس العزاوي، **المصدر السابق**، جـ ٤، ص١٨٣.

(١٦) للأستزادة عن طبيعة الجغرافية – التأريخية لولاية الموصل خلال العهد العثماني، أنظر: د. سيار الجميل، **"الحياة الأقتصادية والأجتماعية لولاية الموصل خلال العهد الجليلي ١٧٢٦ – ١٨٣٤"** ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني للدراسات العثمانية، تونس، اذار/مارس ١٩٨٦.

(١٧) المعطيات نفسها ضمن المرجع أعلاه، ملاحظة رقم ١٦.

(١٨) هذا ما توضحه دراسة الباحث المقارنة للمواصفات الأقتصادية أقليمياً واستراتيجياً للموصل، والتي سجلها عدد من الرحالة الأجانب عنها قبل وبعد فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م، ومن أشهرهم مثلاً ايفز ونيبور وجاكسون من قبل، ثم بيركنس وجبسني ولايارد من بعد.

(١٩) أنظر الفصل الأول من كتاب روبرت اولسن:

R. Olson, *op. cit., pp. 7 – 9.*

(٢٠) تحليل للعلل والمسببات ضمن المرجع المذكور في ملاحظة رقم ١٦ أعلاه.

(٢١) أنظر التفاصيل عند د. عماد عبد السلام رؤوف، **الموصل في العهد العثماني: فترة الحكم المحلي**، النجف، ١٩٧٥، ص٢٥٦.

(٢٢) د. سيار الجميل، **المرجع السابق**، ملاحظة رقم ١٦ أعلاه.

(٢٣) للأستزادة والأطلاع على مكانة الموصل وأقليمها في الجغرافية – التأريخية للأمبراطورية العثمانية، أنظر:

D. E. Pitcher, *An Historical Geography of the Ottoman Empire*, Leiden & Brill, 1972, map No. XXXII.

(٢٤) هناك معلومات تأريخية واسعة سجلها المؤرخ ياسين الخطيب العمري في أشهر حولياته، أنظر:

Sayyar K. Al – Jamil, *op. cit.*, vol. II, pp. 336 – 504; vol III, pp. 832 – 1232.

وأنظر أيضاً: ياسين الخطيب العمري **"زبدة" الاثار الجلية في الحوادث الأرضية**، أنتخب الزبدة: د. داؤد الجلبي، حققه ونشره: د. عماد عبد السلام رؤوف، النجف، ١٩٧٤.

(٢٥) لمعرفة طبيعة تركيب طبقة "العلماء" في الدولة العثمانية، أنظر:

Stanford J. Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. I, Cambridge, 1978, pp. 132 – 149.*

(٢٦) لمزيد من التوسع في هذا الطرح المقارن، أنظر: د. سيار الجميل، "تحليل كتاب نشر المثاني لمحمد القادري تحقيق نورمان سيكار"، **المجلة التأريخية المغربية**، العددان ٣٥–٣٦، تونس، ديسمبر ١٩٨٤، ص٢١٩–٢٢٩.

(٢٧) من أهم أدبيات التراجم، تلك التي ورد ذكرها أعلاه: **المنهل، الدر الكنون.. ، الشمامة، الروض، الزبدة**... الخ

(٢٨) أنتشرت هذه الكلمة (=المَلاّ) الى جميع أنحاء العراق، ويعود أصلها الى الموصل الزنكية – الأتابكية، وبالذات الى شخصية عمر الملاّ الذي بنى منارة الحدباء في الجامع النوري الكبير، ولفظها الموصلي هو الصحيح اي بفتح الميم وتشديد اللام، في حين تلفظ ببغداد بضم الميم. نسبت كلمة "المَلاّ" اليه لأنه كان مَلاًّ تنانير الآجر. أنظر: ابن الأثير، **الباهر في تأريخ الدولة الأتابكية بالموصل**، تحقيق: عبد القادر طليمات، مصر، ١٩٦٣، ص٢٣١، ٢٧٩، ٣٠٩.

(٢٩) راجع التفاصيل التأريخية عند:

Sayyar K. Al – Jamil, *op. cit.*, vol. I, p. 15, vol. II, p. 61, vol. III, p. 555.

(٣٠) هناك أشارات لدينا تدل على حدوث بعض المشاحنات والمصادمات الفردية لبعض الشخصيات من العمريين



والجليليين. التفاصيل في المصدر اعلاه، ملاحظة رقم ٢٩.

(٣١) التفاصيل في المصدر المشار اليه من ملاحظة رقم ٢٩.

(٣٢) أنظر لاحقاً موضوع: "العلاقات الثقافية: نماذج وصور".

(٣٣) عن تطور مثل هذه العلاقات وتكوين البنية الأجتماعية، أنظر:
Sayyar K. Al – Jamil, *op. cit.*, vol. I, pp. 15 – 24.

(٣٤) أنظر ما كتبه د. محمد صديق الجليلي في أوراقه التي ضمها ك "ملاحق" في تحقيقه: **ديوان حسن عبد الباقي الموصلي**، الموصل، ١٩٦٦.

(٣٥) ياسين الخطيب العمري، **منية الأدباء في تأريخ الموصل الحدباء**، حققه ونشره: سعيد الديوه جي، الموصل، ١٩٥٣.

(٣٦) أنظر بحث المؤرخ سعيد الديوه جي: "مدارس الموصل في العهد العثماني" مجلة **سومر**، المجلد ١٨، بغداد، ١٩٦٢.

(٣٧) لمزيد من المعلومات عن التشكيلة الأسرية أنظر نتائج دراسة الباحث المذكورة اعلاه، ملاحظة رقم ٣٣.

(٣٨) من المفيد مراجعة تحليلات المؤرخ برسي كيمب في أطروحته ايضاً:

Percy Kemp, *op. cit.*, pp. 133 – 168.

(٣٩) أن التأريخ الشعري لكلمة "الغبن" هو: ١٠٨٣ هـ الذي يقابل سنة ١٦٧٢ – ١٦٧٣ م.

(٤٠) والقصيدة طويلة مذكورة في **الدر المكنون**... و **الآثار الجلية**.

(٤١) أنظر التفصيلات التي كتبها المؤرخ ستانفورد شو عن أحوال مصر الثقافية في كتابه:

Stanford J. Shaw, *Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution*, Cambridge, 1964, pp. 67 – 113.

(٤٢) اشارات كثيرة عن هذه المدينة وغيرها من المدن الأقليمية، أوردها كتاب "**المنهل**" على وجه التحديد، وفي العديد من التراجم.

(٤٣) القصيدة نفسها اعلاه. أنظر هامش رقم (٤٠).

(٤٤) وردت في كتاب "**الشمامة**"، ص ١٥٤.

(٤٥) وردت في كتاب "**الدر المكنون**"، أنظر:

Sayyar K. Al – Jamil, *op. cit.*, vol. II, pp. 349 – 350.

(٤٦) المصدر نفسه اعلاه، أنظر:

Ibid., vol. II, p. 392.

(٤٧) **الشمامة**، ص ١٢٣.

(٤٨) أقتبست هذه الأبيات عن: د. عماد رؤوف، **المرجع السابق**، ص ٢٠٢.

(٤٩) التفاصيل التأريخية في "**الدر المكنون**"، أنظر:

Sayyar K. Al – Jamil, *op. cit.*, vol. I, p. 137.

(٥٠) *Ibid.*, vol. II, pp. 321 – 2; vol. III, pp. 816 – 819.

(٥١) *Ibid.*, vol. II, p. 320; vol. III, p. 815.

(٥٢) *Ibid.*, vol. II, p. 334; vol. III, p. 835.

(٥٣) *Ibid.*, vol. II, p. 432, p. 472.

(٥٤) *Ibid.*, vol. II, p. 393; vol. III, p. 956.

(٥٥) أنظر ترجمة عصام الدين عثمان الدفتري العمري في "المقدمة" التي كتبها د. سليم النعيمي لمحققه **الروض النضر**، الكتاب الذي تقدم ذكره: الملاحظة رقم ٣ اعلاه. أن الصفحة البطولية لهذا الرجل بحاجة للمزيد من الدراسات، فقد كان مناضلاً وأديباً ورجل أدارة من الطراز الاول.

(٥٦) هو أحد أدباء الموصل اللامعين، وكان أسماً على مسمى.. أنظر ماكتبه عنه د. محمد صديق الجليلي في ملحق به: **ديوان حسن عبد الباقي الموصلي**، سبق ذكره آنفاً

(٥٧) Sayyar K. Al – Jamil, *op. cit.*, vol. II, p. 346.

(٥٨) *Ibid.*, vol. III, p. 861.

(٥٩) *Ibid., vol. II, p. 465.*

(٦٠) *Ibid.*, vol. III, p. 1100.

(٦١) *Loc. cit.*

(٦٢) *Ibid.*, vol. II, p. 466.

(٦٣) *Ibid.*, vol. III, pp. 1101 – 2

(٦٤) *Ibid.*, vol. III, p. 939.

(٦٥) J. Jackson, *Journey from India*, London, 1799, p. 76.

وأنظر غيره من الرحالة الأجانب، وخصوصاً كريستيان نيبور وايفز

(٦٦) أنظر: ابن الأثير، **المصدر السابق**، ص ٢٤١ – ٢٤٤.

(٦٧) عرّف د. محمد صديق الجليلي هذا الفن بقوله: «هي منظومات على أسلوب الموشحات في المديح النبوي الشريف أو التوسلات أو الأبتهالات الصوفية المتنوعة، منها ما هو من تلحين ناظم ابيات الموشح نفسه (=التنزيلة)، ومنها ما نظم على الحان الأغاني التي كانت شائعة في عصر الناظم»، كراسه الموسوم: **التراث الموسيقي في الموصل**، الموصل، ١٩٦٥، ص ٥.

(٦٨) لقد جمع الباحث قبل سنوات عدة مئات من التنزيلات الموصلية في ديوان كبير أشتغل عليه طويلاً، ولم ينشر بعد. واشار اليه السيد محمد نايف الدليمي في مقدمة كتابه: **ديوان الموشحات الموصلية**، الموصل، ١٩٧٥، ص ٤ – ٧.

(٦٩) افرد د. عادل البكري كتاباً عن الموسيقار الملا عثمان المولوي الموصلي، ونشاطاته وسفرياته وابداعاته في الفن والأدب. أنظر: د. عادل البكري، **عثمان الموصلي: الموسيقار الشاعر المتصوف**، بغداد، ١٩٦٦.

(٧٠) تنزيلة نادرة للشاعر الموصلي عبدالله راقم افندي أنتخبها الباحث من ضمن ارشيفه الأدبي الذي يحتفظ به.

(٧١) قارن تأريخياً رواية حصار الموصل سنة ١٧٤٣ م كما جاءت عند محمد أمين الخطيب العمري في "المنهل" وكما ترجمها د. برسي كيمب في أطروحته (سبق ذكرها: ملاحظة رقم ٧) مع رواية الحصار نفسه كما أوردها ياسين الخطيب العمري في "الدر المكنون" وكما حققها وعلق عليها د. سيار الجميل في أطروحته (سبق ذكرها: ملاحظة رقم ١).

(٧٢) أنظر: **ديوان حسن عبد الباقي الموصلي**، سبق ذكره، ص ٥٦.

(٧٣) لم يزل ابناء الموصل من المثقفين القدامى يتناقلون هذا القصيد

على السنتهم، وقد وردت في أكثر من مصدر كالشمامة والدر...

(٧٤) **ديوان**، سبق ذكره، ص ٦١.

(٧٥) هذه المعلومات التي وجدت في السنين الأخيرة عن "وثائق الكولونيل (العقيد) تيلر" قد حللها كل من د.عبدالعزيز سليمان نوار ود. عماد عبد السلام رؤوف.

(٧٦) أنظر: القس سليمان صائغ، **المصدر السابق**، جـ١، ص ٢٤١، وأنظر ايضاً ما كتبه المؤرخ لونكريك في كتابه المذكور سلفاً.

(٧٧) من المفيد في هذا المجال: مراجعة "سالنامة الموصل" لسنة ١٣١١ هـ.

(٧٨) احيل القارئ الى ما كتبه الاستاذ صديق الدملوجي في كتابه عن: **مدحت باشا**، بغداد، ١٩٥٣.

(٧٩) هكذا يمكن أن نقارن وضع كل من الموصل وبغداد مع تغييرات عدة جرت في بعض الهياكل التي كان عليها المجتمع الدمشقي في بداية القرن التاسع عشر، فنجد أن الوضع كان يتساوق وخطط المؤسسة العثمانية الحاكمة في أقاليم العراق وبلاد الشام. فكانت بغداد هي السباقة في تطبيق تلك الخطط، إلا أنها لا تتساوق مع الخطط التحديثية الكبرى التي كان محمد علي باشا قد بدأ بتطبيقها في مصر.

(٨٠) أنظر: سليمان صائغ، **المصدر السابق**، جـ١، ص ٣١٧–٣٢٠.
وراجع مقدمة المستر هنري لايارد في كتابه الشهير:
H. Layard, *Niniveh and its Remains*, Vol.2, London, 1849, pp. 213 – 4.

(٨١) أنظر: عباس العزاوي، **المصدر السابق**، جـ٧ (= **العهد العثماني الثالث**)، بغداد، ١٩٥٥، ص ١٦٠.

(٨٢) أنظر: سليمان الصائغ، **المصدر السابق**، (غرائب الآثار)، ص ٢٠–٥٥. أيضاً من الأهمية فحص ما كتبه هرمزد رسام رجل التنقيبات الشهير وهو موصلي الأصل أوربي الثقافة:

Hormuzd Rassam, *Ashur and the Land of Nimrod*, New York, 1897, p. 307.

(٨٣) أنظر: ساطع الحصري، **البلاد العربية والدولة العثمانية**، بيروت، ١٩٦٠، ص ٩٥. ومن المفيد في هذا الصدد أن أذكر ما كنت قد سمعته قبل سنوات عن الاستاذ محمد علي السلمان – رحمه الله – اذ حدثني قائلاً: إن الأمريكيين كانوا قد أجروا أتصالات عدة في نهاية القرن ١٩ لأنشاء جامعة أمريكية بالموصل، وفعلاً اختاروا المنطقة الواقعة قرب محطة قطار الموصل الحالية والمجاورة لبناية القنصلية البريطانية. وذلك على غرار الجامعة الامريكية ببيروت. وقد قوبل هذا المقترح برفض عارم من أهالي الموصل، في حين نجحت البعثات الأمريكية في الشرق من تأسيس عدد من المدارس والكليات في حواضر عربية أخرى.

(٨٤) نجيب العقيقي، **المستشرقون**، جـ٣، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٠٥٢.

(٨٥) سليمان صائغ، **المصدر السابق**، جـ٢، ص ٣٢٣.

(٨٦) **المصدر نفسه**، جـ٢، ص ٣٢٤.

(٨٧) **المصدر نفسه**، جـ٢، ص ٢٦٦.

(٨٨) **المصدر نفسه**، جـ٢، ص ٣٢٤.

(٨٩) عباس العزاوي، **المصدر السابق**، جـ٨، "حوادث سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٢ م"، ص ٦٩–٧٠.

(٩٠) سعيد الديوه جي، **المرجع السابق**، "المقالة كاملة".

(٩١) د. داؤد الجلبي، **المصدر السابق** (نفس المعطيات السابقة)، وأنظر: سالم عبد الرزاق احمد، **فهرس مكتبة الأوقاف العامة في الموصل**، ٦ أجزاء، بغداد–الموصل، ١٩٧٦–١٩٧٧.

(٩٢) أستنتاجات عن معطيات أدبيات التراجم المذكورة سلفاً، أنظر: الملاحظة رقم ٢٧ أعلاه.

(٩٣) سليمان صائغ، **المصدر السابق**، جـ٢، ص ٣٢٢–٣٢٥.

(٩٤) عن الارشيف الأدبي للشاعر عبدالله راقم افندي، الملاحظة رقم ٧٠ اعلاه.

(٩٥) أنظر عنه: بهنام فضيل عباس، **أقليمس يوسف داؤد: رائد من روّاد الفكر في العراق**، بغداد، ١٩٨٥.

(٩٦) الأرشيف نفسه، ومعلومات أفادني بها د. محمد صديق الجليلي – رحمه الله – قبل سنوات عديدة.

(٩٧) عن الأرشيف نفسه اعلاه.

(٩٨) له ديوان شعر وكتاب مطبوع تحت عنوان: "**نور القمر في سيرة أمير المؤمنين**"، طبعه حفيده: محمود نشأت الفيضي، الموصل، ١٩٣٨.

(٩٩) عثمان بيك الجليلي، **الحجة على من زاد على ابن الحجة**، نشره د. محمد صديق الجليلي في الموصل، ١٩٣٧.

(١٠٠) له ديوان مطبوع تحت عنوان "**الترياق الفاروقي أو ديوان عبد الباقي العمري**"، طبع في النجف، ط٢، ١٩٦٤.

(١٠١) قام الشاعر محمد شيت الجومرد بنشر ديوان الملا حسن البزاز الى جانب ديوانه في نسخة واحدة: المطبعة العامرة الشرقية بمصر في محرم ١٣٠٥ هـ / سبتمبر–أكتوبر ١٨٨٧ م. ويقع الديوان في ١٣٩ صفحة، وتحت عنوان **ديوان ملا حسن البزاز**. وأنظر عن الشاعرين عند سليمان صائغ، **المصدر السابق**، جـ٢، ص ٢٥٨.

(١٠٢) التفاصيل في: احمد محمد المختار، **تأريخ علماء الموصل** (جزءان)، د. ت. (أرخت مقدمته في ١٩٦١).

(١٠٣) التفاصيل في: ذنون يونس الطائي، **الأتجاهات الأصلاحية في الموصل في أواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني**. (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الأداب / جامعة الموصل، ١٩٩٠، ص ١٩٦–٢٦٩.

(١٠٤) من المهم جداً مراجعة كتابات الدكتور ابراهيم خليل احمد عن الموصل والمنشورة في **مجلة بين النهرين الموصلية**.

(١٠٥) أنظر: د. سيار الجميل، "انتلجينسيا العراق: التكوين والأستنارة القومية"، **مجلة آفاق عربية**، العدد (٩)، السنة (١٦)، ايلول، ١٩٩١. ص ٣٥.



حركة التربية والتعليم

د. ابراهيم خليل أحمد

مقدمة :

أبقى السلطان العثماني سليم الاول (١٥١٢ – ١٥٢٠) بعد انتصاره على الفرس في موقعة جالديران سنة ١٥١٤ ، فرهاد باشا أحد قواده ، لأكمال احتلال الولايات المتاخمة للحدود العثمانية – الفارسية . وقد أمر فرهاد باشا بيقلي محمد باشا بالسيطرة على الموصل واربيل وكركوك ، وقد تم احتلالها في ٤ أيار ١٥١٦ . غير ان الحكم العثماني في هذه المناطق ظل قلقاً بسبب الموقف السلبي الذي اتخذه السكان من العثمانيين آنذاك[١] .

وبعددخول السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦) ، بغداد في ٣٠ كانون الاول سنة ١٥٣٤ ، وطرد الحامية الفارسية منها ، ارسل محمد باشا الى الموصل لتثبيت الحكم العثماني المباشر عليها . كما وافق على تعيين الشيخ راشدبن مغامس امير البصرة العربي والياً على البصرة شريطة ان يكون تابعاً لباشا بغداد . واصبح العراق في عهد السلطان سليمان القانوني مقسماً الى اربع ولايات كانت الموصل واحدة منها[٢] .

ولم تكن الموصل حين سيطر عليها العثمانيون غير بلدة صغيرة مسورة قليلة العمران ، ولا تحتفظ الا ببقية من شهرتها التجارية القديمة ولم يعرف عن احوالها غير عدم الاستقرار[٣] . ولقد اورد المؤرخون قوائم باسماء الولاة الذين حكموا الموصل في مطلع العهد العثماني ، ولعل علي باشا الربيعي (١٦٨٣ – ١٦٨٥) ، وكان عربياً من الموصل ، يعد من أشهرهم إذ عرف بعدله وحزمه فأصلح الولاية ، وتلافى الخلل الذي إنتاب المدينة قبل ولايته ، وعمل على إستتباب الأمن وقطع دابر اللصوص .

لذلك سجل القرن السابع عشر البدايات الاولى لتغييرات سياسية وادارية واقتصادية وعسكرية وثقافية في الموصل ، منها ازدياد ارتباطها ببغداد[٤] .

وضع التعليم في الموصل قبل نشأة المدارس الحديثة :

ظلت المؤسسات التعليمية الشعبية ، المتمثلة بالكتاتيب والمدارس الدينية تقوم بدور كبير في تشكيل شخصية الأنسان الموصلي حتى في اعقاب وقوعها بيد المغول سنة ١٢٦٠م (٦٦٠هـ) . فقد احجم الغزاة المغول ، ومن بعدهم الفرس ثم العثمانيين عن التعرض لهذه المؤسسات خوفاً من ردود الفعل الشعبية[٥] . وكان من نتائج ذلك ، كما يقول المؤرخ عباس العزاوي[٦] « الاحتفاظ بالمعارف والعلوم ، فكانت خير واسطة للم الشعث ، واستيفاء الحضارة » .

أ– الكتاتيب :

انتشرت الكتاتيب في أنحاء مختلفة من الموصل انتشاراً كبيراً . ومما ساعد على ذلك أن الدولة العثمانية لم تكن ، في البداية ، تعد الخدمات التعليمية من اختصاصها ، وانما من اختصاص الافراد والجماعات[٧] . وكان التعليم في هذه المؤسسات مجاناً ، إلا ان الآباء عادة كانوا يسهمون في تقديم بعض الأموال الى المعلمين (الملالي) الذين يعلمون الاطفال : القرآن الكريم ، والكتابة والحساب[٨] . ولم تقدم الحكومة اية مساعدات مالية الى هذه



الكتاتيب التي ظلت تعمل وفق اساليب تعليمية متخلفة[٩]. وكان للأقليات المسيحية واليهودية مؤسسات تعليمية تشبه في الغرض الذي من أجله انشئت كتاتيب المسلمين ومدارسهم. فقد نهضت مدارس المسيحيين الدينية المنتشرة في الكنائس والاديرة بدور كبير في التعليم، ومعظم معلمي هذه المدارس من القسس والرهبان والشماسة ويتلقى التلاميذ دروسهم باللغتين العربية والكلدانية[١٠]. اما اليهود فكان لديهم مايسمى بـ (المدراش) وفيه يدرس التلميذ الدروس الدينية واللغة العبرية[١١].

كان الكتاب يديره معلم (الملاّ)، ولا يشترط في هذا المعلم سوى ان يكون من حفظة القرآن الكريم، وما يتطلب ذلك من معرفة القراءة والكتابة. ويتم التدريس في حجرة صغيرة في مسجد او في دار الملا أو في دكانه، حيث يجلس الاطفال على الحصى واضعين بين ايديهم القرآن الكريم، أو أحد اجزائه، ويحمل كل طفل معه الى الكتاب ريشة أو قلماً، وحبراً ولوحاً يستعمله في كتابة (الالفباء) أو العمليات الحسابية البسيطة. وكان هناك نوع من التعاون بين المعلم ووالد الطفل، فكان القول المشهور اذا أودع الوالد ولده عند المعلم ان يقول له: «لك اللحم ولي العظم». ويقصد بذلك ان للملا صلاحية واسعة في تربية الولد. وقد يستعمل القسوة في معاملة الولد الذي يشذ في سلوكه او يقصر في دراسته. ومن هنا فقد كان بعض الاطفال ينفرون من الكتّاب[١٢].

كان التعليم في هذه المؤسسات حراً، لايخضع لنظم او قوانين. فالملا لايلتزم بعدد السنوات في تربية الاولاد، لانهم يومئذ يتقدمون حسب قابلياتهم، فكانوا يختمون القرآن الكريم في فرص متفاوتة، كلٌّ حسب ذكائه واجتهاده. وعملية التعليم تتم بتحفيظ القرآن واصول الدين بتكرار مطرد، وطريقة التعليم فردية. إذ يُعد كل طفل صفاً قائماً بنفسه. وهنا يمكن القول بأن مبدأ مراعاة الفروق الفردية في عملية التعلم والتعليم هو من المبادئ التي تنادي بها التربية الحديثة في يومنا هذا[١٣].

وعلى الرغم من ان معظم المعلمين كانوا يعدون عملهم جزءاً من واجباتهم الدينية، فانهم كانوا يتسلمون اجوراً من اولياء امور الاطفال. وتسمى تلك الاجور (الخميسية) لانها تعطى كل يوم خميس. ولم تكن الأجور محددة بل يقدم ذوو التلميذ ماتجود به انفسهم. وقد يدفعون للمعلم اشياء عينية. ويمكث الطفل في الكتاب من مطلع الشمس حتى غروبها، باستثناء فترة الغداء الذي كان يتناوله في بيته. وللملا مساعد يسمى (خلفة)، واجبه الاشراف على الاطفال الجدد وحملهم على انجاز واجباتهم واخبار الملا بذلك ليعطيهم درساً جديداً وهكذا يستوعب الطفل القسم المطلوب منه لينتقل الى القسم الآخر[١٤].

ذلك بالنسبة الى البنين الذين ينصرفون بعد اكمالهم التعليم في الكُتّاب الى الحياة العملية لاكتساب حرفة من الحرف. وقد يتجه قليل منهم الى المدارس الدينية ليكمل تعليمه. اما البنات فكن يرسلن الى (الملاية) وتعنى المعلمة هذه بتعليمهن القرآن الكريم وواجبات الدين الحنيف. وقد يكون الكتاب الذي تديره (الملاية) مختلطاً[١٥].

ليس ثمة احصائية دقيقة عن عدد الكتاتيب في الموصل خلال هذه المرحلة من تاريخها الحديث. إلا انه يمكن القول بانه لم يكن يخلو مسجد او جامع سواء في مدينة الموصل أو الاقضية والنواحي والقرى المرتبطة بها من كُتّاب.. ومعنى هذا ان العدد قد يتجاوز البضع مئات.. ويتحدث بعض ممن درسوا في هذه الكتاتيب، فيشيرون الى اهميتها في تعلمهم القرآن الكريم ومبادئ الاسلام الحنيف.. وشعائره الدينية.. وفوق هذا وذاك دورها في ماعرفوا به فيما بعد من استقامة وسلوك حسن في التعامل مع الناس والحياة بكل مفرداتها التفصيلية. وكان من ابرز كتاتيب الموصل، الكتاب الذي اشار اليه المؤرخ الموصلي سعيد الديوه جي وهو كتّاب الملا صالح (١٩١٦) في مسجد منصور الحلاج بباب المسجد في الموصل. وكان الملا صالح شيخاً

جليلاً، يمتاز بهدوئه وشفقته، وقدرته على إفادة الاولاد[١٦].

ومن التقاليد التي ارتبطت بالكتاتيب تلك الاحتفالات التي تتم لمناسبة انجاز الاولاد ختمه القرآن الكريم.. اذ تقام للخاتم حفلة تنويهاً لفترة حاسمة من حياة التلميذ، وطبيعي ان يؤذن ختام القرآن، بانتهاء مهمة الكتاب وفتح صفحة جديدة لاتقل من ناحيتها المعنوية عن شهادة الجامعة في الوقت الحاضر[١٧].

ب- المدارس الدينية:

اما المدارس الدينية التي وجدت في الموصل خلال العهد العثماني فلم تكن سوى امتداد للمدارس العربية في العصور الوسطى الاسلامية. وقد تنافس الولاة والتجار وابناء الأسر الثرية في انشاء المدارس الدينية بدافع الاخلاص للدين والوجاهة[١٨] فكانوا يوقفون لها مايلزمها، ويسهلون للناس تلقي العلوم النقلية منها، وجعلوا فيها خزانة كتب. كما كانوا يقدمون التسهيلات للطلاب[١٩].

وكانت الدراسة في تلك المدارس خلواً من العلوم العملية التي تفيد صاحبها في مواجهة الحياة[٢٠]. ولم تستطع ان تساير روح العصر، بل بعكس ذلك تقهقرت الى الوراء خلال العهود الأخيرة من الحكم العثماني لانها تجردت، بالتدريج، عن جميع العلوم العقلية وصارت تكاد لاتهتم بشيء غير العلوم النقلية[٢١]. ولم تكن هناك مؤهلات ومتطلبات علمية تؤهل صاحبها للالتحاق بهذه المدارس، وليس لها مديرون ولا اساتذة دائمون، ولا اجور دراسية، كما انه ليس للمدرسة موازنة، ولا مدة معينة من السنوات للتخرج. لكن التعليم في هذه المدارس يمتاز بالحرية الواسعة النطاق، فالطالب حُر في اختيار الاستاذ الذي يريد ان يتلقى عليه موضوعا من المواضيع والدراسة فيها تستمر طول السنة[٢٢]. وهدفها لم يكن اكتساب معرفة جديدة بقدر ماكان التمكن الى أقصى حد ممكن من المادة التي انتجتها الاجيال السالفة. ومع هذا فقد كان للمدارس الدينية في الموصل دورٌ مهم في الحفاظ على اللغة العربية والتراث العربي الاسلامي[٢٣]. كما انها استطاعت ان تلبي احتياجات المجتمع العراقي حتى نشوء المدارس الحديثة في القرن التاسع عشر[٢٤].

كانت اهداف المؤسسات الدينية التقليدية منسجمة مع اهداف الدولة العثمانية في اعداد وتربية ابناء البلاد. فالهدف الذي انصرفت جهود العثمانيين قروناً طويلة الى بلوغه هو ان يحملوا العراقيين على التوجه بولائهم للدولة وللسلطان- الخليفة العثماني. لهذا اهتمت الدولة بالتعليم الديني بحكم طبيعتها كدولة ثيوقراطية يحتل فيها علماء الدين مركزاً اجتماعياً مرموقاً وتأثيراً في توجيه الحكم[٢٥] وقد استمر ذلك حتى قيام الحكومة العثمانية بتأسيس مدارس حديثة على النمط الاوربي، تجهز الدولة بما تحتاجه من الموظفين والكتبة. لذلك فقدت المؤسسات التعليمية الدينية اهميتها، وقل اقبال الطلاب عليها، وصار عددها يتناقص وتأثيرها يضعف في المجتمع ومع هذا فقد ظلت تعمل جنباً الى جنب مع مؤسسات التعليم الرسمي الحديثة[٢٦].

ان من اقدم المدارس الدينية التي اشتهرت في الموصل في مطلع العهد العثماني، المدرسة اليونسية وكان يدرس فيها مراد بن عثمان العمري (ت ١٦٨٠) ثم المدرسة الجرجسية وكان المدرس فيها محمود بن عبد الله الحنفي (ت ١٦٧١) وكان يختلف اليها الطلبة الذين لم يشتهر احد منهم ودروسهم لاتتعدى الدروس الفقهية فقط. اما في مطلع القرن الثامن عشر فنرى الاقبال على المدارس الدينية، اكثر مما كان في القرن السابق له. واشتهر يومئذ في التدريس الشيخ عبد الله الرتكي المعروف بالمدرس (ت ١٧٤٦) والشيخ يوسف النائب (ت بعد ١٧٦٢م) والشيخ جرجس بن درويش (ت ١٧٢٧) وكانوا يدرسون زيادة في علوم الفقه واللغة شيئاً في علم الحساب وعلى النحو الذي لاتتعدى المعلومات فيه مايقتضيه درس

الفرائض [٢٧] .

وقد تاسست في الربع الاول من القرن الثامن عشر، مدارس دينية مهمة، كان من أبرزها، مدرسة جامع الاغوات التي شيدها خليل أغا بن عبدالجليل سنة ١٧٠٢م، ومدرسة الحاج محمود بن علي النومة المشيدة سنة ١٧٠٨ ومدرسة محمد أغا السعرتي المشيدة سنة ١٧١٥ ومدرسة ياسين افندي العمري (ت ١٧٢٢) ومدرسة جامع النبي جرجيس التي فتحها اسماعيل أغا بن عبدالجليل لتدريس القراءات والعلوم القرآنية [٢٨] .

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدت الحركة الثقافية في الموصل نمواً ملحوظاً. وكان لتولي الجليليين الحكم فيها بين سنتي ١٧٢٦ – ١٨٣٤ اثر كبير في تشجيع حركة التعليم، وانشاء المدارس الدينية. مما ادى الى ان تصبح الموصل من المدن التي تشد اليها الرحال، يؤخذ من علمائها وادبائها ويستعان بهم للتدريس في الولايات المجاورة [٢٩] . وكان من اهم المدارس الدينية التي انشأها الجليليون مدرسة جامع الباشا سنة ١٧٥٥ والتي عرفت كذلك بالمدرسة الامينية نسبة الى محمد امين باشا الجليلي والي الموصل انذاك. وفي سنة ١٧٦٦ انشأت رابعة خاتون بنت اسماعيل باشا الجليلي داراً لتدريس القرآن الكريم في جامعها الذي بنته، فكان اول من درس فيها شيخ القراء في المدرسة، على ان دروسه لم تقتصر على العلوم القرآنية فحسب، بل اتسعت لتشمل علوماً اخرى. وانشأ عثمان بك بن سليمان باشا الجليلي (١٧٦٤ – ١٨٢٩) في الجامع نفسه مدرسة أخرى سميت بالمدرسة العثمانية نسبة اليه، وكان هو اول من درس فيها، واوقف عليها كتباً كثيرة [٣٠] وثمة مدارس اخرى انشأها الجليليون منها المدرسة الحسينية التي شيدها حسن باشا بن الحاج حسن باشا الجليلي سنة ١٨١٦ ومدرسة يحيي باشا الجليلي التي شيدت سنة ١٨٢٥ ومدرسة الحجيات، التي قامت على بنائها الحاجة عادلة والحاجة فتحية ابنتا عبد الفتاح باشا الجليلي [٣١] .

واسهمت أُسر موصلية اخرى في حركة تشييد المدارس. ففي سنة ١٧٨٦ انشأ الحاج زكريا التاجر مدرسته، اوقف عليها مائتي مجلد من الكتب. وفي السنة ذاتها قام احمد افندي بن بكر بن علوان كاتب العربية ببناء مدرسته وانتهى منها سنة ١٧٨٧ . وبنيت في الفترة ذاتها مدارس اخرى منها مدرسة عثمان الخطيب ومدرسة ابن الحبار ومدرسة جامع التوكندي [٣٢] . ومدرسة جامع باب الطوب، ومدرسة الاحمدية، ومدرسة الشيخ ابي العلا، ومدرسة الجلبي ومدرسة الخزندار. ومما يلحظ أن الأسر الموصلية كانت تتسابق فيما بينها لانشاء المدارس وتقديم ماتحتاج اليه من عون مادي. ومن يراجع قوائم المخطوطات التي دونها داؤد الجلبي في كتابه «مخطوطات الموصل» والمخطوطات التي تضمها مكتبة الاوقاف في الموصل او مكتبات الاسر الموصلية ذاتها يقف على المدى البعيد الذي نهضت به تلك الاسماء في مجال العلم والمعرفة.. وقد وصل الامر ببعض الباحثين الى القول بان كل جامع او مسجد في الموصل، وكل بيت معروف، كان مدرسة يؤمها طلاب العلم.. ومن هنا فان العشرات من هذه المدارس كانت تنتشر في رحاب الموصل، وكأن هذه الرحاب جامعة كبيرة او مؤسسة علمية واسعة تلفت النظر.. وبعض هذه المدارس لايزال، حتى يومنا هذا، ماثلاً أمام العيان بخطوطه ومحاريبه وجدرانه. إلا ان اغلب هذه المدارس أصبح في عداد الدوارس [٣٣] .

اما مناهج الدراسة في تلك المدارس، فقد تطورت واتسعت عما كانت عليه في مطلع العهد العثماني.. اذ لم تقتصر المواد على علوم القرآن واللغة العربية، وانما درست كذلك علوم المنطق والفلسفة والعلوم الرياضية والفلك والطب والموسيقى [٣٤] وكانت اهم كتب التدريس المعول عليها يومئذ بعض الشروح كشرح الشمسية المطول، وشرح الهداية وبعض شروح الدواوين الادبية وشروح

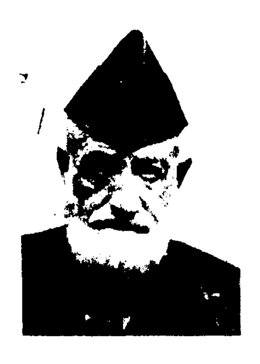


الفرائض وعلم الحساب في رسالة الحساب للبهائي. اما في الطب فكانت مؤلفات الاغريق المعرفة وكتب ابن سينا وابن داود وغيرهما من الاطباء والكحالين العرب تعد المرجع الاساسي لكل معرفة طبية. كما ترجم محمد الجلبي الطبيب الموصلي (ت ١٨٤٦) كتباً طبية قيمة من اللغة اللاتينية. وقام بعض العلماء والادباء بتأليف كتب للتدريس في المدارس الدينية، وكانت تدور حول العلوم القرآنية، والفقه واللغة والمنطق والفلك والحساب والطب وغيرها من العلوم. وقد اخذ المدرسون، كلما اقتربوا من نهاية القرن الثامن عشر، وبسبب الاحتكاك بالغرب الاوربي يتوسعون في الدروس. وسمقت الهمة بالكثيرين الى ان يرحلوا الى المناطق المجاورة كبلاد الشام واسطنبول، والقاهرة وبلاد المغرب العربي لاغراض الدراسة والتدريس.. وقد اشتهر يومئذ في التدريس الحاج محمد العبدلي (ت ١٧٥٠) والسيد موسى الحدادي (ت ١٧٧٢) والشيخ حمد الجميلي (ت ١٧٥٦) والشيخ سليم الواعظ (ت بعد ١٧٤٧) والشيخ اسماعيل بن ابي جحش (ت ١٧٢٧) والشيخ يونس النائب (ت ١٧٣٧). والشيخ مصطفى الصباغ (كان حياً حوالي ١٧٨٥) والشيخ علي الوهبي الجفعتري (ت ١٧٨٧) والشيخ جرجيس الاربلي (كان حيا سنة ١٧٨٧) والملا احمد بن الكولة الموصلي (ت ١٧٥٩م) والملا ابراهيم الجحيش (ت ١٧٧٦) والسيد خليل البصير (ت ١٧٦٢) وخير الله بن محمود العمري (ت ١٧٦٨) والشيخ علاء الدين الموصلي (ت ١٧٦٨) والشيخ عبد الله باشعالم (ت ١٨٧٩) وعبدالله بن مصطفى الفيضي (ت ١٨٩١) وسليمان بك بن مراد بك الجليلي (ت ١٩٠٨) وغيرهم[٣٥].

وكان الطالب، بعد ان يجتاز بنجاح قراءة وتفهم مواد الدراسة العقلية فيها والنقلية، ينال (الاجازة) في الفرع الذي أتقنه وبرز فيه. وهذه الاجازة تتيح له التدريس مستقبلاً بما أجيز به. ولا تمنح الاجازة الا لمن قضى في رحاب العلم سنوات، وخضع لاختبارات استاذه، وحل محله في تدريسه، واجتاز ماهو مكلف به من كتب ومواد وموضوعات[٣٦].

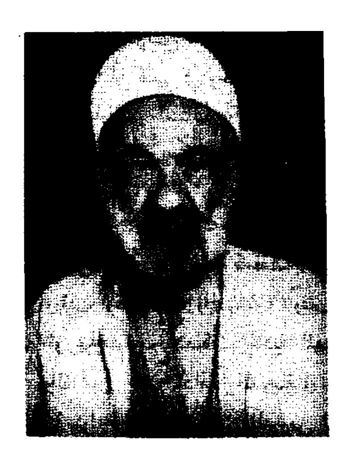
وقد وجدت مستلزمات الدراسة والتعليم والثقافة في الموصل أرضاً خصبة، ففضلاً عن بناء المدارس ووقف المخطوطات والمصادر، أوقف البناة انفسهم او غيرهم مخصصات مادية للمدرسين والطلبة والقائمين على ادامة المدرسة، ورعاية شؤونها. كما بنوا غرفاً في عدد من المدارس لسكنى الطلبة الغرباء وذوي الاماكن البعيدة، وسكنى المدرس نفسه، ان لزم الأمر. وكان بعض الواقفين يشترط عدم خروج المصادر خارج المدرسة، بل الافادة منها داخلياً فقط وعندئذٍ يضطر الطلبة الى نسخ مايرغبون فيه من المعلومات[٣٧].

لقد بقيت حركة التعليم الديني في الموصل، تمارس دورها حتى بعد انشاء المدارس الحديثة.. وبرز شيوخ وأساتذة وعلماء ذاع صيتهم ليس في الموصل وحدها، بل وفي بقية انحاء العراق واجزاء من الوطن العربي.. ومن هؤلاء الشيخ محمد الرضواني (١٨٥٣-١٩٤٢) والشيخ أحمد الجوادي (١٨٦٧-١٩٥٨) والشيخ فائق الدبوني (١٨٨٩-١٩٦١) والشيخ عبدالله النعمة



• الشيخ فائق الدبوني.



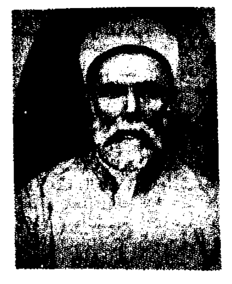


• الشيخ عبدالله الحسو (١٨٩٠-١٩٦٠)

(١٨٧٤- ١٩٥٠) والشيخ عثمان الديوه‌جي (١٨٦٨- ١٩٤١) والشيخ عبدالله الحسو (١٨٩٠- ١٩٦٠) والسيد محمد حبيب العبيدي (١٨٨٠- ١٩٦٠) والشيخ عثمان بن محمد عبيد الجبوري (١٩٠٩- ١٩٨٤) وغيرهم من الذين كان لهم دور كبير في الحفاظ على التوجه الديني لمدينة الموصل، والتأكيد على استمرار تقاليد التعليم المتوارثة والتمكن من الثقافة الدينية مع الحرص على ادخال أساليب حديثة في التدريسات. وقد اتضح ذلك من خلال المشاريع التعليمية التي تعهدها هؤلاء وأحاطوها بالرعاية وفي ذلك المدرسة الاسلامية التي تأسست في الموصل سنة ١٩١٩ (٣٨).

نشأة المدارس الحديثة:

ظهرت في الدولة العثمانية منذ النصف الثاني في القرن الثامن عشر محاولات اصلاحية عدة، تناولت اجهزة الحكم والمؤسسات المختلفة. وكان الجيش هو الميدان الاول الذي اتجهت اليه الاصلاحات، وذلك لما كان يعانيه من تخلف ظاهر في التدريب والتسليح أخذ يظهر واضحاً في تكرر الهزائم العسكرية واستمرار الثورات في مختلف الولايات (٣٩). لذلك فإن أقدم المدارس الحديثة التي تأسست كانت المدارس العسكرية. ثم تأسست المدارس المدنية. وتؤرخ بدايات التعليم الرسمي الحديث في الدولة العثمانية بالفترة الواقعة بين سنتي ١٧٩٣- ١٧٩٥ حين أنشأ السلطان سليم الثالث (١٨٧٩- ١٨٠٧) عدداً من المدارس العسكرية. وفي عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨- ١٨٣٩) تأسست مجموعة من المدارس المدنية (الابتدائية والثانوية) (٤٠) وكانت مهمة تحديث التعليم واجراء تغيير في بنيان التعليم العثماني من اختصاص (مجلس الامور النافعة) الذي نشر



• الشيخ عبدالله النعمة ١٨٧٣-١٩٤٩م.

سنة ١٨٣٨ تقريراً دعا فيه الى الاهتمام بالتعليم الابتدائي اساساً صلباً لتقدم التعليم (٤١) وقد نال التعليم قسطاً وافراً من اهتمام المصلحين العثمانيين خاصة بعد صدور المرسومين الاصلاحيين (خطي. شريف كلخانة ١٨٣٩) و (خطي شريف همايون ١٨٥٦). وفي آب ١٨٤٦ صدر قانون اصلاح النظام التعليمي، وفي ٢٠ ايلول ١٨٦٩ صدر نظام المعارف العمومي (معارف عمومية نظامنامه سي) والذي بموجبه نشأ نظام مدني كامل للتعليم الرسمي التابع للدولة مباشرة (٤٢).

لقد نص القانون على تقسيم التعليم الى درجات ثلاث: وهي المرحلة الابتدائية (مكاتب الصبيان) ومدتها اربع سنوات والمرحلة المتوسطة (المكاتب الرشدية) ومدتها ثلاث سنوات والمرحلة الثانوية



(المكاتب الاعدادية) ومدتها أربع سنوات. ويضاف الى ذلك المدارس السلطانية ومدة الدراسة فيها (١٢) سنة الخمس الاولى منها ابتدائية. والى جانب ذلك مدارس الصنائع ودور المعلمين وبعض المعاهد العالية[٤٣]. وكانت موضوعات الدراسة في المدارس الابتدائية تتألف من عدد من المواد اهمها: الف باء، القرآن الكريم، مبادئ الحساب، مختصر التاريخ العثماني، مختصر الجغرافية، معلومات نافعة (اشياء وصحة). اما منهج المدارس الرشدية فيتضمن: قواعد اللغة التركية، وعلم الحساب، ومبادئ الهندسة، والتاريخ العام، والجغرافية، والجمناستك، والرسم. ويحتوي منهج المدارس الاعدادية على الاقتصاد والحساب واللغة الفرنسية والجغرافية، والهندسة، والتاريخ العام، والمنطق، وعلم المواليد (علوم الحياة) والكيمياء، والجبر، والرسم[٤٤].

ومع ان تأثير حركة الاصلاحات العثمانية في مجال التعليم لم يظهر في بغداد الا بعد تعيين مدحت باشا والياً عليها سنة ١٨٦٩، فإن الموصل كانت السبّاقة في إنشاء المدارس الحديثة. إذ أن أول مدرسة حديثة أسست فيها يرجع تاريخها الى عهد حكم كنعان باشا ١٨٦١م - ١٢٧٨هـ. فقد فتح هذا مدرسة حديثة سنة ١٨٦١ وكانت تضم صفوفاً ابتدائية ورشدية (متوسطة)[٤٥] ويتحدث سليمان صايغ[٤٦]. عن حركة انشاء المدارس الحديثة في الموصل فيقول: «ثم إتسع نطاق المعارف تدريجياً، حتى تعددت هذه المكاتب (المدارس) الابتدائية في الموصل وفي قراها المجاورة، مع بقية المدارس الوطنية (الاهلية) الاسلامية والمسيحية. ثم أنشأت الحكومة العثمانية مكاتب رسمية أرقى درجة من الابتدائية. فكان في الموصل حوالي سنة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م) مكتب اعدادي .. وست مدارس أولية رسمية عدا مدارس الجوامع ومدارس الطوائف للذكور والاناث. ثم أنشأت الحكومة العثمانية دار المعلمين ومدرسة للصنائع[٤٧]. وقد احدثت هذه المدارس حركة علمية بين الاهالي، إلا ان هذه الحركة كانت دون ماتستحقه الموصل، بالنظر الى مركزها التاريخي والاقتصادي.

ومنذ مطلع سنة ١٨٨٠ اهتمت الحكومة اهتماماً ملحوظاً بالتعليم، وظهر ذلك واضحاً في الموافقة على تأسيس مجالس للمعارف في كل ولايات الدولة. وقد تأسس مجلس معارف الموصل سنة ١٨٨٤. وكان في الموصل مديرية للمعارف تضم مدير المعارف، وبضعة موظفين بينهم المحاسب والكاتب وأمين الصندوق. وقد ارتبطت مجالس المعارف في الولايات بديوان وزارة المعارف في استانبول العاصمة[٤٨] وتعد السنة ١٨٨٩ بداية اهتمام الحكومة العثمانية بتوسيع نطاق المدارس في ولاية الموصل. ولم يكد ينتهي القرن التاسع عشر حتى أخذ عدد المدارس الابتدائية يزداد ليصل سنة ١٩٠٥ الى (٣٠) مدرسة[٤٩].

لقد شهدت هذه الفترة نمواً ملحوظاً في المدارس الخاصة (الأهلية والاجنبية) وذلك بعد أن أدخلت هذه المدارس اللغة العربية والعلوم الحديثة ضمن مناهجها الدراسية المقررة. في الموصل غدا نشاط الآباء الدومنيكان التعليمي اكثر اتساعاً من ذي قبل. وكانت هذه الارسالية التبشيرية تتلقى مساعدات مالية من بعض الحكومات الاوربية وخاصة فرنسا[٥٠]. ومن المدارس التي فتحوها مدرسة الراهبات المعروفة بـ (اخوات المحبة) سنة ١٨٧٣. وقامت هذه المدرسة بنصيب وافر في تعليم البنات الموصليات وتدريبهن على الاشغال البيتية كالخياطة والتطريز[٥١].

كما ازداد الاقبال على مدرسة الدومنيكان الابتدائية التي تأسست منذ سنة ١٨٥٤ واصبح عدد طلابها سنة ١٨٧٥ (١٢٢) طالباً يدرسهم (٤) معلمين[٥٢].

إن أبرز ما كان يميز السياسة التعليمية العثمانية



خلال العقد الذي يبدأ بسنة ١٨٩٠ هو حرصها الشديد على تطوير المدارس الرشدية، وخاصة بعد ظهور الحاجة الى خريجيها في الوظائف الحكومية[٥٣]. وقد نجحت هذه السياسة كثيراً حتى ان معظم العاملين في الدوائر الحكومية في العراق منذ نهاية القرن التاسع عشر لم يكونوا من الاتراك، وانما كانوا من المواطنين العراقيين الذين تلقوا تعليمهم في المدارس الحديثة. ولقد اظهرت احصائيات سنة ١٩٠٠ ان هناك (١٧) مدرسة رشدية موزعة في العراق مجموع طلابها (١٢١٨) طالباً يعلمهم (٥٠) مدرساً ولم يكن هناك في السنة ذاتها سوى مدرستين اعداديتين الاولى في بغداد والثانية في الموصل. وكان عدد طلاب الاولى سنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩(١٠٧) طالباً في حين كان عدد طلاب الثانية (٣٤١) طالباً[٥٤] اما بالنسبة للمدارس الرشدية للبنات فقد تأسست في الموصل بعد سنة ١٨٩٩ مدرسة رشدية حديثة[٥٥].

قررت السلطات العثمانية فتح دور للمعلمين، وذلك بعد التوسع الذي حدث في التعليم الابتدائي وظهور مؤسسات تقوم باعداد المعلمين، فافتتحت حوالي سنة ١٩٠٠ دار للمعلمين في الموصل[٥٦]. وكانت مدة الدراسة في هذه الدار ثلاث سنوت بعد المرحلة الرشدية. ثم زيدت الى أربع سنوات. أما أبرز الدروس التي كان يتلقاها الطالب فيها فهي اصول التدريس واللغة التركية والرياضيات والعلوم الطبيعية والتاريخ[٥٧].

أرتفع عدد المدارس الرشدية بعد سنة ١٩٠٠. في ولاية الموصل اصبح عددها بين سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠٥ (١٤) مدرسة بعد ان كانت (٦) مدارس. اما في ولاية بغداد فقد اصبحت للفترة ذاتها (١٩) مدرسة سنة ١٩٠٥ بعد ان كانت سنة ١٩٠٠ (٥) مدارس فقط[٥٨].

أوضاع التعليم في الموصل ١٩٠٨ - ١٩١٨ :

شهدت الحركة التعليمية في العراق بعد الانقلاب العثماني الدستوري في ٢٣ تموز ١٩٠٨ احداثاً بارزة لعل في مقدمتها ان الاتحاديين حرصوا على استخدام المدارس لنشر أفكارهم ومبادئهم السياسية المستندة الى شعارات الحرية والعدالة والمساواة. ولم يكتفوا بذلك، بل أسسوا مدارس ابتدائية ملحقة بجمعية الاتحاد والترقي، وحاولوا جعلها مدارس نموذجية وعينوا لها معلمين من بين اعضاء الجمعية يلقنون الطلاب اهداف الجمعية ومبادئها السياسية. وكانت الموصل واحدة من الولايات التي تأسست فيها مدرسة من مثل هذا النمط[٥٩].

خلق الانقلاب العثماني، وعودة الحياة الدستورية ثانية[٦٠]، ظروفاً جديدة ملائمة ومشجعة للنشاط الثقافي، وللتوسع في الخدمات التعليمية. فقد شهدت الموصل في أعقاب ذلك حركة محدودة النطاق على الصعيدين الرسمي والشعبي لانشاء المدارس الحديثة. فعلى الصعيد الرسمي تم فتح مدارس ابتدائية جديدة. وحظيت قضايا التفتيش (الاشراف التربوي) بالاهتمام. كما دخل النشاط غير الصفي الى المدارس الرسمية في العراق لأول مرة. وبعد ١٩٠٨ ادخلت مادة الرياضة البدنية وعرف العراقيون الكشافة سنة ١٩٠٩[٦١].

اما على الصعيد الشعبي فقد اتسعت حركة المطالبة بتأسيس المزيد من المدارس، وجعل لغة التدريس فيها باللغة العربية. وقد اتخذت هذه الحركة من الصحافة والمجالس العمومية للولايات ومجلس المبعوثان (النواب) ميادين لاثارة هذه المطالب الحيوية. وقد أشرنا فيما سبق الى موقف الصحافة.. ونشير هنا الى ان نواب ولاية الموصل



أثاروا قضايا تعليمية كثيرة في مجلس المبعوثان، ومن ذلك دعوتهم للاهتمام بالتعليم الزراعي والمدارس الصناعية [٦٢].

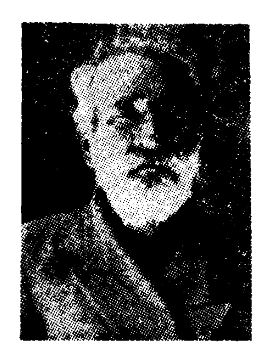
كما التفتت سلطات التعليم الى الكتاتيب، فأمرت بإغلاق معظمها، لأن اماكنها مغايرة لقواعد حفظ الصحة والتعليم فيها ليس على اصول مرعية. ويبدو ان لشكاوي الاهالي المتكررة في أوضاعها أثر كبير في قيام الحكومة بوضع قانون لمراقبة الكتاتيب والتأكد من صلاحيتها مكاناً للتدريس [٦٣]



• اسماعيل حقي فرج.

وفي عهد ناظم باشا الذي عين والياً على بغداد في نيسان ١٩١٠، ومنح صلاحيات واسعة شملت ولايتي الموصل وبغداد تنامت الدعوة الى نشر التعليم وجعله في المدارس الابتدائية باللغة العربية. فقد أشارت جريدة (نينوى) مثلاً الى أن التعليم هو اساس كل نهضة قد تنمو وتزدهر [٦٤]. وازدادت حدة المعارضة لجمعية الاتحاد والترقي ولفلسفتها المركزية في الحكم. وكان حزب الحرية والائتلاف الذي تأسس في استانبول في ٨ تشرين الثاني ١٩١١ من أبرز قوى المعارضة [٦٥]. وقد فتح هذا الحزب فرعاً له في الموصل منذ أواخر سنة ١٩١١. كما سعى الى ترويج أفكاره ومبادئه السياسية وأبرزها الايمان باللامركزية بين الاهالي ومنهم الطلاب [٦٦].

استجاب الاتحاديون لبعض مطالب الاهالي، والمؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس بين ١٨ - ٢٣ حزيران ١٩١٣. اذ أصدر الباب العالي في آب ١٩١٣ قراراً يقضي بأن يكون التدريس في دور المعلمين أو المدارس الاعدادية باللغة العربية. أما دروس التاريخ والجغرافية فتدرس باللغة التركية. ولكن السلطات المحلية لم تكن جادة في تطبيق القرار. وكانت تعلل ذلك الأمر بقلة



• توفيق آل حسين افغان (أغوان).

المعلمين الذين يستطيعون التدريس باللغة العربية [٦٧] وقد أغتنم بعض المثقفين الموصليين وخاصة من العاملين في الحركة القومية العربية والذين شكلوا فيما بعد جمعية العلم السرية سنة ١٩١٤ للنضال ضد الحكم العثماني، الفرصة لوضع كتاب يتضمن أناشيد عربية حماسية وتسهيل شرحها بين طلبة المدارس. ومما يلحظ ان هذه الأناشيد قد غلبت عليها الصبغة القومية التي تتغنى بمجد العرب التأريخي واذكاء نار الثورة في أفئدة النشئ العربي. ولعل من أبرز الأدباء والشعراء الذين اسهموا في وضع الأناشيد التي جمعها ونشرها محمد سعيد الجليلي بعنوان «الاناشيد الموصلية للمدارس العربية» وطبعت سنة ١٩١٥، اسماعيل حقي فرج، وتوفيق آل حسين



اغوان، وداود الملاح آل زيادة، والشيخ قاسم الشعار، ومحمد حبيب العبيدي. وكان معظمهم يدرسون في دار المعلمين او مدرسة النجاح في الموصل[(٦٨)]

وبعد اندلاع الحرب العالمية الاولى، ووقوف الدولة العثمانية الى جانب المانيا وحليفاتها ضد بريطانيا وحليفاتها، أقدمت بريطانيا على احتلال البصرة سنة ١٩١٤ ثم بغداد ١٩١٧. وقد واصلت مدارس الموصل نشاطها التعليمي وسط ظروف الحرب القاسية بعد احتلال ولايتي البصرة وبغداد.

وكانت الظاهرة المميزة في مدارس الموصل، هي تنامي النشاط القومي العربي وخاصة في دار المعلمين ومدرسة دار العرفان الابتدائية. فلقد اتخذ المعلمون القوميون من هاتين المؤسستين مكاناً لنشر الفكرة العربية وبث الشعور المعادي للاتحاديين. وقد استمرت هذه النشاطات السياسية حتى احتلال الانكليز للموصل في تشرين الثاني ١٩١٨[(٦٩)].

الهوامش

(١) للتفاصيل انظر: ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦- ١٩١٦، (الموصل، ١٩٨٢)، ص٤٢.

(٢) اما الولايات الاخرى فهي: بغداد، البصرة، شهرزور انظر المصدر نفسه، ص٤٤.

(٣) للتفاصيل انظر: عبدالكريم غرايبة، مقدمة في تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠- ١٩١٨، (دمشق، ١٩٦٠).

(٤) انظر: ابراهيم خليل احمد، الموصل في العصور الحديثة، في عامر سليمان وآخرون، محافظة نينوى بين الماضي والحاضر، (الموصل، ١٩٨٦)، ص٩١.

(٥) ابراهيم خليل احمد، حركة التربية والتعليم والنشر، في نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، جـ١١ (بغداد، ١٩٨٥)، ص ٢٨٩.

(٦) انظر كتابه: تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٤، (بغداد، ١٩٤٩)

(٧) عبدالعزيز سليمان نوار، الشعوب الاسلامية، (بيروت، ١٩٧٣)، ص١٥٧.

(٨) Falih A.Al – Shaikhly, Education and Development in Iraq, with Emphasis on Higher Education, Ph. D. thesis Submitted to th Graduate school at the University of Massachuestts, 1974, Unpublished p. 119.

(٩) ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، جـ١، ١٩٢١- ١٩٢٧، (بيروت، ١٩٦٧)، ص٤٣٧.

(١٠) سليمان صايغ، تاريخ الموصل، جـ١، (القاهرة، ١٩٢٣) ص ص٣٢٥- ٣٢٧.

(١١) خلدون ناجي معروف، الاقلية اليهودية في العراق بين ١٩٢١- ١٩٥٢، جـ١، (بغداد، ١٩٧٥)، ص ص٧٧، ١٣٦.

(١٢) انظر: ابراهيم خليل احمد، حركة التربية والتعليم والنشر، ص٢٩١.

(١٣) المصدر والصفحة نفسها.

(١٤) للتفاصيل انظر: سعيد الديوه جي «المكاتب في العصر المظلم» مجلة المعلم الجديد، السنة (١٠)، العدد (٦)، كانون الاول ١٩٤٦، ص٢٢

(١٥) صبيحة الشيخ داود، أول الطريق الى النهضة النسوية في العراق، (بغداد، ١٩٥٨)، ص٤٤.

(١٦) سعيد الديوه جي يتحدث عن حياته ومؤلفاته ونشاطاته وجهوده العلمية، مطبوع على الآلة الكاتبة، توجد نسخة منه لدى الباحث، ص١.

(١٧) داود، المصدر السابق، ص٤٤.

(١٨) انظر: غانم سعيد العبيدي، التعليم الاهلي في العراق، (بغداد، ١٩٧٠)، ص٣٦.

(١٩) سعيد الديوه جي، مدارس الموصل في العهد العثماني، (الموصل، ١٩٦٢)، ص٢

(٢٠) عبدالرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني ١٦٣٨- ١٩١٧، (بغداد، ١٩٥٩)، ص١١٧

(٢١) ساطع الحصري، حولية الثقافة العربية، جـ١، (القاهرة، ١٩٤٩)، ص ص٣-٤.

(٢٢) عبدالله فهد النفيسي، في تطور العراق السياسي الحديث، (بيروت، ١٩٧٣)، ص ص٥١- ٥٣.

(٢٣) انظر: يوسف عزالدين، الشعر العراقي: أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر، (القاهرة، ١٩٦٥) ص٢١؛ وابراهيم الوائلي، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، (بغداد، ١٩٦١)، ص١٠٢.

(٢٤) الهلالي، المصدر السابق، ص ص٩٣- ٩٦

(٢٥) خالد الهاشمي، تجديد مناهج اعداد المعلمين في العراق، ترجمة عبدالعزيز البسام، (بيروت، ١٩٤٦)، ص ص٦٦- ٦٧.

(٢٦) العبيدي، المصدر السابق، ص٣٦.

(٢٧) انظر: سليمان صايغ، تاريخ الموصل، جـ٢، (القاهرة،



١٩٢٤) ص١٣٤.

(٢٨) انظر: عماد عبدالسلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي ١٧٢٦- ١٨٣٤، (النجف، ١٩٧٥)، ص٤١٥.

(٢٩) العبيدي، المصدر السابق، ص٣٧.

(٣٠) رؤوف، المصدر السابق، ص٤١٧

(٣١) المصدر نفسه، ص ص٤١٨- ٤٢٠

(٣٢) المصدر نفسه، ص ص٤٢٠- ٤٢١

(٣٣) سالم الحمداني «التعليم في الموصل في القرن التاسع عشر»، مجلة اداب الرافدين، العدد (١٠)، آذار ١٩٧٩، ص٤١٥.

(٣٤) انظر: رؤوف، المصدر السابق، ص٤٢٢.

(٣٥) انظر: الصايغ، المصدر السابق، ج٢، ص١٣٤ وكذلك: داؤد الجلبي، مخطوطات الموصل، (بغداد، ١٩٢٧)، ص١٤

(٣٦) انظر: شريف بشير أحمد امين، الشعر في الموصل في القرن الثاني عشر للهجرة (١٨م)، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لكلية الآداب- جامعة الموصل ١٩٨٩. ص ص٣١- ٣٢.

(٣٧) امين، المصدر السابق، ص٣٢

(٣٨) للتفاصيل انظر: ذنون يونس حسين الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في اواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٩٠، ص ص١٩٧- ٢٠٠

(٣٩) أنظر: إبراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ص ص ١٧٧- ١٨٠.

(٤٠) انظر: ابراهيم خليل احمد، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩- ١٩٣٢، (البصرة،١٩٨٢)، ص ص ٢٩- ٣٠.

(٤١) عبدالوهاب القيسي، حركة الاصلاح في الدولة العثمانية وتأثيرها في العراق ١٨٣٩- ١٨٧٧، (بغداد، ١٩٦١) ص ص٢- ٣

(٤٢) للتفاصيل انظر: مجموعة التنظيمات المنشورة بإسم (الدستور) ترجمها عن التركية نوفل عبدالله نوفل ج٢، (بيروت ١٣٠١- ١٨٨٤)، ص٢١١ وكذلك احمد، تطور التعليم الوطني في العراق، ص ص٣٢- ٣٣.

(٤٣) ابراهيم خليل احمد «اوضاع التعليم في العراق بين سنتي ١٨٦٩- ١٩١٤» مجلة التربية والعلم، العدد (٣)، شباط ١٩٨١، ص٤٥.

(٤٤) المصدر نفسه، ص٤٥

(٤٥) للتفاصيل انظر: الهلالي، المصدر السابق، ص١٧٧؛ الصائغ، المصدر السابق، ج١، ص٣٢٣؛ الحمداني، المصدر السابق، ص٤١٨.

(٤٦) انظر كتابه: تاريخ الموصل، ج١، ص٣٢٣.

(٤٧) تأسست مدرسة للصنائع في الموصل سنة ١٨٧١ انظر: جريدة الزوراء ٢٨ شعبان ١٢٨٨هـ (١٨٧١).

(٤٨) احمد، أوضاع التعليم في العراق بين سنتي ١٨٦٩- ١٩١٤، ص٥٢.

(٤٩) انظر: سليمان فيضي، في غمرة النضال، (بغداد، ١٩٥٢)، ص ص٥٨- ٥٩.

(٥٠) ابراهيم خليل احمد، حركة التربية والتعليم والنشر، ص٢٩٩.

(٥١) صايغ، المصدر السابق، ج١، ص٣٢٣.

(٥٢) ابراهيم خليل احمد، أوضاع التعليم في العراق بين سنتي ١٨٦٩- ١٩١٤، ص٥٣

(٥٣) John J. Diskin, The Genesis of the Government Educational System in Iraq. ph.D thesis Submitted to Graduate faculty in the School of Education, University of pittsburgh, 1971, Unpublished, p. 127.

(٥٤) احمد، اوضاع التعليم في العراق بين سنتي ١٨٦٩- ١٩١٤ ص٥٥

(٥٥) الهلالي، المصدر السابق، ص ص١٥٨- ١٦٠

(٥٦) المصدر نفسه، ص١٨٢.

(٥٧) حنان عيسى الجبوري، مشكلات ادارة المدارس الثانوية في العراق، (بغداد، ١٩٧٠)، ص١٨٢

(٥٨) جاسم محمد حسن، العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦- ١٩٠٩، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لكلية الاداب- جامعة بغداد سنة ١٩٧٥، ص١٢٠

(٥٩) للتفاصيل انظر: عبدالمنعم الغلامي، أسرار الكفاح الوطني في الموصل ١٩٠٨- ١٩٢٥، ج١، (بغداد، ١٩٥٨)، ص٢٢.

(٦٠) كان السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩) قد أوقف العمل بدستور سنة ١٨٧٦ بعد أشهر قليلة من توليه السلطة.

(٦١) الهلالي، المصدر السابق، ص ص٢٢٨، ٢٣٦- ٢٣٧

(٦٢) مجلس مبعوثان ضبط جريدة سي (محاضر مجلس المبعوثان) جلسة ١ أيار ١٩١٢.

(٦٣) العبيدي، المصدر السابق، ص٣٢

(٦٤) انظر: جريدة نينوى ٢٧ تشرين الاول ١٩١٠

(٦٥) توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، (القاهرة، ١٩٦٠)، ص ص٣٠٢- ٣٠٤.

(٦٦) Ghassan R. Atiyyah, Iraq, 1908 1921, Apolitical Study, (Beirut, 1973), pp. 57 — 58.

(٦٧) مجلة لغة العرب، السنة (٣)، ج٥، تشرين الثاني ١٩١٣، ص٢٧٦.

(٦٨) انظر: محمد سعيد الجليلي، الاناشيد الموصلية للمدارس العربية، ط٢، (الموصل، ١٩٥١) وكذلك ابراهيم خليل احمد «اناشيد عربية موصلية» جريدة الحدباء٢ تشرين الاول ١٩٨٤.

(٦٩) انظر: عبدالمنعم الغلامي، السوانح (الموصل، ١٩٣٢)، ص ص٩- ١٠.

فن تجليد الكتب

أ. د. عادل نجم عبو

تمهيد :

يعد تجليد الكتب جزءاً من فن الكتاب المتضمن الخط والتذهيب والتجليد. كما يشكل فن الكتاب بدوره جانباً من الفنون العربية الاسلامية فماذا يقصد بالتجليد؟ اننا لانعني بالتجليد عملية جمع أوراق الكتاب وربطها وقصها وتغليفها بقدر ما نقصد به شكل الغلاف ونقوشه والجوانب الفنية فيه. إن فن التجليد إذن يرتبط بالشكل الحالي للكتاب، كما يرتبط الكتاب بالكتابة والتدوين وجمع المدونات وحفظها، فمتى ظهر الشكل الحالي للكتاب؟. من المعروف ان هناك مادتين رئيستين للكتابة قبل شيوع استخدام الورق وهما : ألواح الطين في العراق، والبردي في مصر فضلاً عن المواد الأخرى مثل الجلد والعظام والخشب، وأن المادتين بعيدتان عن الشكل الحالي للكتاب، فأوراق البردي كانت تنظم بشكل أدراج تُلَف على نفسها، وكانت ألواح الطين ذات أشكال مختلفة ومنفردة، فان أراد المرء جمع نصوص ذات موضوع واحد وضعها في اناء خاص، ومع ذلك، فكلا الشكلين من اشكال التدوين كانَ يغَلّف، فالقسم الأخير من ملف البردي كانَ يعد عادة بشكل اكثر سمكاً من بقية الأجزاء ليحفظها، وكان للرقم الطينية المهمة غلاف طيني[١] قليل السمك يحميها، ويحفظ أسرارها. وفضلاً عن هاتين المادتين استخدم الجلد والرق[٢] من أحشاء الحيوان. ويبدو أن الشكل الاول للكتاب الحالي Codex قد ظهر مَعَ الاستخدام الكثير للجلد والرق، فبدلاً من لصق الصفحات الواحدة بالأخرى لتشكل الملف أو الدرج، صارت ترتب بعضها فوق بعض على شكل رزمة تربط من أحد جانبيها الأيسر أو الأيمن. كما كانت في بعض الاحيان تربط من جانبها العلوي[٣]. ويبدو أن هذا التحول قد حصل في مطلع التاريخ الميلادي، وكانَ لابد للكتاب من غلاف يمسك بين دفتيه صفحات الرق المتعددة وبذلك ظهر فن تغليف الكتاب[٤] وكانَ هذا الفن من الفنون التي ازدهرت في مصر قبل الاسلام[٥].

يبدو ان فكرة صحائف الكتاب المرتبطة بعضها مع بعض من إحدى نهاياتها، والمغلفة بغلاف أي الشكل الحالي للكتاب كانت معروفة في العراق القديم ايضاً على الرغم من أن المادة الأساسية كانت العاج والخشب فقد كشف في كالخو (النمرود) عن نموذج من هذا النوع من العاج عدّه بعضهم أقدم أشكال الكتاب القديم في مادته وتجليده[٦]. ويؤرخ ذلك الكتاب من حوالي ٧٠٧ - ٧٠٥ ق. م، حيث أعِدّ نسخة متميزة من كتاب مقدم بنحو خاص لقصر سرجون الثاني في خورساباد[٧] إلا أن هذا النموذج كانَ فريداً وليس ثمة تواصل لأستخدامه في العراق في حين كانَ هناك تواصل لهذا الفن في مصر قبل الاسلام ووصل الينا منها عدد من جلود الكتب بمختلف مراحل تطورها. فهناك اغلفة من ألواح خشبية عثر عليها في مصر[٨].

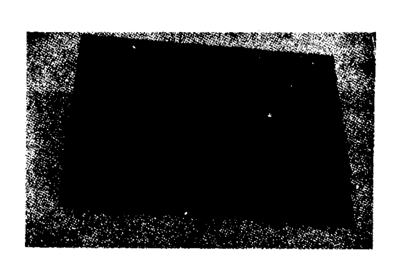
تجليد الكتب في العصر الاسلامي :

على الرغم مما قيل عن تأثير الفنون القديمة على تجليد الكتب العربية الاسلامية، فان الخصائص التي اكتسبها هذا الفن خلال العصر الاسلامي في مختلف الاقاليم قد جعلت منه فناً متميزاً بخصائصه.



ويُعد المصحف الشريف أول كتاب عربي ظهر على النحو الذي نعرفه اليوم على الرغم من الاعتقاد بمعرفة العرب له في جنوب الجزيرة العربية قبل الاسلام[٩] خاصة وان مناطق معينة في الجزيرة قد اشتهرت بدباغة وصناعة الجلود، وهو من الأمور المساعدة في اتقان صناعة التجليد، فقد كانَ في منطقة صعدة في جنوب الجزيرة العربية صناعة متطورة للجلود ودباغتها والتي كانت من ضروريات تجليد الكتب، وقد عرفت منطقة الطائف بجلود كتبها الفاخرة[١٠]. إن ارتباط عملية التجليد بالمصحف الشريف، حباها مكانة متميزة لدى المسلمين، فيذكر عنها احد المعنيين[١١] بهذه الصناعة في المغرب فيقول: «فهذه الصنعة الشريفة والبعيدة الظريفة التي بوأها الله تعالى أعلى الرتب وحظها بأن تكون حجاباً لكتابه المنتخب. ومعَ شرفها فلا يحملها إلا حامل لكتابه الكريم أو من يشارك في شيء من التعاليم».

وهناك الكثير من الاشارات والقرائن على وجود التجليد والاهتمام به في صدر العصر العباسي، فلدينا ما يشير الى وجود جلود كتب فاخرة والى وجود مجلدين متميزين عن غيرهم من أقرانهم ومنهم من كانَ يعمل في خزانة الحكمة للمأمون[١٢]. مَعَ ذلك فان أقدم جلود الكتب الاسلامية التي وصلت الينا ترجع الى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ومن ابرزها غلاف كتاب محفوظ في متحف برلين معمول من الخشب المطعم بقطع من عاج وعظم وخشب بألوان مختلفة قوام الزخرفة فيه باتكة من عقود زينت خلفيتها وتفاصيلها بأشكال هندسية من مثلثات ومربعات ومعينات وبأشكال نباتية مثل الأوراق النخيلية[١٣]، ووزعت هذه العناصر الزخرفية جميعها ضمن حقول ناتجة عن تقاطعات هندسية (الشكل ١) واختلف الباحثون في تحديد تاريخ هذا الجلد. إذ يؤرخه بعضهم بين القرنين التاسع والعاشر الميلادي[١٤] ويؤرخه آخرون



الشكل (١)
جلد كتاب اسلامي من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)

في القرن العاشر الميلادي[١٥].

لقي فن تجليد الكتب في المغرب رعاية خاصة، وقد عرف لديهم «بالتسفير». ووصلت الينا مخطوطات توضح أساليبه وفنونه، ولعل أبلغ مايصور الاهتمام بهذه الصناعة في المغرب ما قام به الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (٥٢٤- ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ - ١١٦٣ م) من تحلية المصحف العثماني الذي كانَ قد وصل اليه هدية من أهل قرطبة فاحتفل لقبوله في مراكش احتفالاً عظيماً وصنع له خزانة وأغشية محلاة بالذهب والفضة. فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والرسّامين والمُجلدين»[١٦]. وعثر على اعداد كبيرة من جلود الكتب في القيروان وغيرها من مدن المغرب[١٧] ترجع الى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ومَعَ التنوع في الأساليب وفي استخدام العناصر الفنية فقد سادت في المغرب الزخارف المكونة من تقاطعات الأشرطة[١٨] لتكون حشوات نجمية أو مثلثات ومعينات.

ووصلت العناية بفن الكتاب بالمغرب أوجها في عصر الموحدين، اذ يذكر أن السلطان أبا حفص عمر المرتضىٰ كانَ يكتب المصاحف بخط يده[١٩]، واذا ما انتقلنا الى الشرق فانه على الرغم



مما قيل عن دور ايران ومساهماتها في تطوير الفنون[20] فان اقدم مانعرفه من جلود الكتب الايرانية يرجع الى نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[21]، حيث ظل المصريون والسوريون اسياد هذه الصناعة حتى أيام تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي حيث نقل الصناع والفنانون من الاقطار المغلوبة الى تركستان وفتح لهم ورشات خاصة بهم وبفنونهم ويبدو أن المجلدين المصرين والسوريين حملوا صناعتهم بهذه الطريقة الى ايران والشرق[22]. فبدأت منذ ذلك التاريخ فنون التجليد بالتطور والتنوع في حين كانت الخصائص العربية هي السائدة في هذا الفن قبل القرن الرابع عشر[23] فتطورت وتنوعت أساليب وعناصر فن التجليد منذ القرن الرابع عشر ومابعده.

وظهر في القرن الخامس عشر الميلادي المِكبس المعدني المكون من قطعة واحدة، وقد استخدم لضغط الجلد فأصبح متمماً للطريقة التقليدية القديمة الشائعة والتي كانت تستخدم عدة قوالب أو اختام صغيرة يختم بها الجلد عدة ختمات، فتتكون نتيجتها زخارف متنوعة اما هندسية او نباتية. فأصبحت جلود الكتب بمساعدة المكبس الكبير هذا ذات تصاميم متقنة[24]. ونشأت بعد هذه الفترة في ايران أو في غيرها من الأقاليم الاسلامية طريقة الزخرفة برسم اللاكيه وذلك منذ منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[25].

أما من ناحية العناصر الزخرفية فقد ظهر على جلود الكتب ظاهرة عامة حيث زينت الكثير منها بصرة مركزية تتوسط المتن وفي الأعلى والأسفل منها دلايتان صغيرتان ومقاطع تمثل ارباع هذه الصرة تزين الزوايا الأربع للمتن أو يقوم مقامها زوايا مثلثة مشظوفة. ومن المعتقد أن عنصر الصرة هذا نشأ في مصر ووصل الى ايران لأن ظهوره على جلود الكتب العربية كانَ أقدم من ظهوره على جلود الكتب الفارسية[26].

فن التجليد في الموصل :

اما في العراق قاعدة الخلافة والمركز العلمي والفكري للدولة العربية الاسلامية وميدان انتشار المدرسة الفنية في تزويد الكتب المعروفة بمدرسة بغداد أو المدرسة العراقية لابد ان انتجت اعداداً كبيرة جداً من الكتب، ولابد أن يكون هناك اهتمامٌ بتجليدها يوازي الاهتمام بتزويقها وخطها وتذهيبها، الا ان الاختلافات الكبيرة في المناخ، وتفاوت الجو بين حار جاف وبارد رطب، فضلاً عن تعرض البلاد للكثير من الغزوات واعمال التخريب فقد أدت جميع هذه الامور الى فقدان وتلف اعداد كبيرة من الكتب وجلودها، لذلك فان النماذج القليلة التي وصلت الينا من الفترة التي سبقت الغزو المغولي، عند مقارنتها بما وصل الينا من جلود كتب بعد الغزو المغولي، تدل على أن العراق كانَ المركز الذي انتشرت منه الطرز والاساليب الفنية الى بقية الاقاليم الاسلامية، فنلاحظ فيه عنصر الصرة والتوريق الذي إنتشر استخدامه في المشرق، في تركيا وايران، كما نلاحظ عنصر الأشرطة المتقاطعة الذي انتشر في مصر والمغرب. وفضلاً عن ذلك اظهرت النماذج القليلة التي وصلت الينا من العراق استخدام عنصر زخرفي لم يسبق مشاهدته من قبل في زخرفة جلود الكتب ذلك هو عنصر الخطوط الدقيقة المرتبة بحيث تكون اربعة مربعات[27].

وكانت الموصل، باعتبارها جزءً من العراق، مركزا من مراكز تطور الكتاب وفنونه من خط وتذهيب وتزويق وتجليد، فكانت الساحة التي انتشرت فيها مدرسة الموصل في التصوير، مَعَ ذلك فان ما وصل الينا من جلود الكتب بعامة كانَ قليلاً، ويرجع في الغالب الى فترات متأخرة. كما تشير الجلود التي وصلت الينا الى استخدام الفنان

الموصلي لجميع العناصر والأساليب الفنية لتجليد الكتب والتي انتشرت في بقية الأقاليم العربية الاسلامية.

ومن اقدم جلود الكتب ذات المسحة الفنية والتي وصلت الينا هي جلدة مخطوطة كانت محفوظة في جامع الباشا بالموصل لكتاب السياسة لأرسطوطاليس. طول الجلد (٢٥)سم وعرضة (١٨) سم ولاتحمل المخطوطة تاريخ نسخها ولكن الصفحة الأخيرة منها تتضمن عبارة يستدل منها علىٰ تاريخها وتقرأ العبارة: «هذا كتاب السياسة وقد كتب لخزانة السلطان المعظم والمولى المفخم ملك ملوك الترك والعرب والعجم مولانا ومخدومنا السلطان مسعود بن مودود السلجوقي». ومن المعروف أن مسعود بن مودود[٢٨] قد حكم الموصل بين سـنتي ٥٧٦ – ٥٨٩ هـ / ١١٨٠ – ١١٩٣ م غلفت دفتا الكتاب واللسان بجلد أحمر داكن عليه نقوش معمولة بالقالب، وقوام الزخرفة فيه: إطار من سلسلة من الدوائر يحيط بالمتن ويتوسط المتن صرة لوزية في الاعلى والاسفل منها دلايتان صغيرتان وملئت الزوايا الأربع للمتن بقطع زخرفية مستمدة من الصرة الوسطية، إذ ملئت الصرة والدلايات والزوايا بزخرفة التوريق على أرضية غائرة جداً (الشكل ٢). ونلاحظ الزخرفة ذاتها في تزيين لسان الجلد الذي تزين زاويتيه العناصر المزينة لزوايا متن الواجهة فضلاً عن صرة محوّرة تتوسط نهاية اللسان. وتكمن أهمية هذا الجلد بقدمه اكثر من اهمية عناصره الزخرفية، ففيه الكثير مما يدل على أن الموصل كانت جزءاً مهماً أسهم في استخدام وتطوير العناصر الزخرفية للتجليد في العالم الاسلامي، اذ نلاحظ في هذا الجلد استخداماً مبكراً لعنصر الصرة والدلايات المتصلة بها والاطار المحيط بالمتن كما نلاحظ فيه اللسان الذي يعزى الى العرب استخدامه في فن التجليد[٢٩]. وهذه العناصر جميعها كانت من الخصائص العامة التي



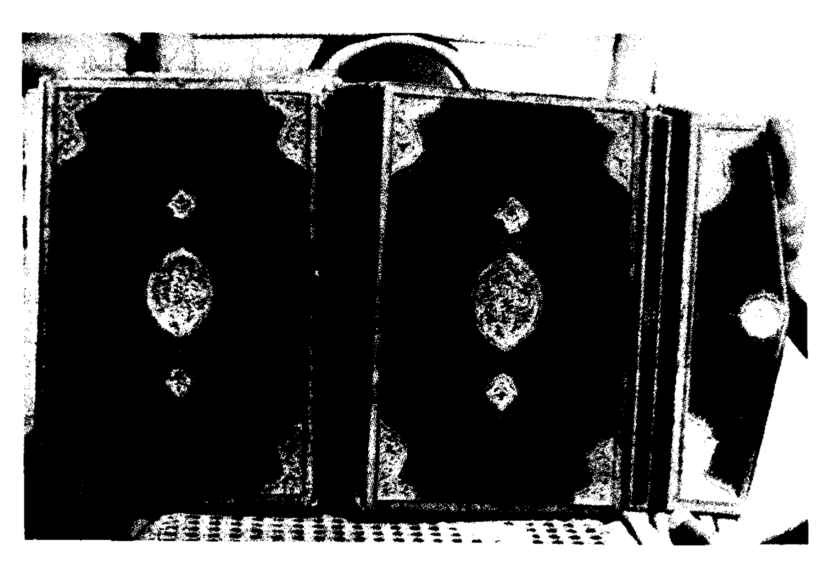
الشكل (٢)
جلد كتاب من الموصل من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)

استخدمت في فن التجليد، فأستخدام الصرة اصبح من الامور الشائعة في تجليد الكتب منذ القرن السادس عشر الميلادي ومابعده[٣٠].

وتشير المراجع الى وجود جلود كتب زاهية في الموصل، فقد ذكر أنه كانَ في بيت قاضي الموصل سنة ٦٦٠ هـ / (١٢٦٠ م) مصحف شريف بخط الخليفة عثمان رضي الله عنه وقد طبقوا جلده بالذهب وزوق بعناية فائقة وفي سنة ٦٦٠ هـ غزا التتر مدينة الموصل وانتهبوا خزائنها وانتهب المصحف المذكور وأخذ ماكانَ طبق على جلده من الذهب[٣١].

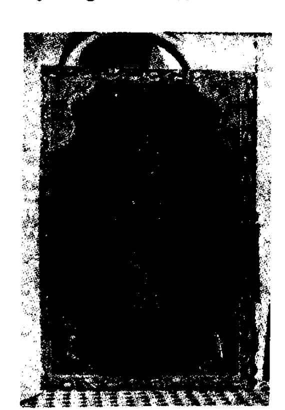
ونلاحظ في معظم جلود الكتب في الموصل، الأسلوب التقليدي في زخرفتها وذلك بوجود عنصر الصـرة. فالشـكل (٣) الموجود في الصفحة التـاليـة يمثل جـلـد مـخـطـوطـة لـكـتـاب جامع الاصول لإبن الأثير، إستنسخها محمد ملا خليل الملقب «حمو الكردي» في الموصل في شعبان عام ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م. وكانت المخطوطة محفوظة في مكتبة مدرسة يحيىٰ باشا الجليلي في الموصل. وقوام زخرفة هذا الجلد إطار مجدول وبارز يدور حول المتن الذي تتوسطه صرة بيضوية مسننة يتصل بها





الشكل (٣)
جلد كتاب جامع الاصول لابن الاثير

دلايتان وفي زوايا المتن اربع قطع زخرفية واحتوت الصرة والزوايا على زخارف من التوريق العربي تكسوه برادة الذهب مدموغة بمكبس ساخن. أما اللسان فقد زخرف بالاسلوب نفسه مع وجود صرة دائرية مسننة في نهايته. اما الجزء الداخلي من الجلد فنلاحظ فيه الاسلوب نفسه من الصرة والدلايات



الشكل (٤)
الجزاء الداخلي من جلد كتاب جامع الاصول لابن الاثير

والزوايا المسننة (الشكل ٤) إلا أن ارضيتها محببة، في حين أن ارضية المتن حمراء. ويحيط بالمتن اطار عريض نسبياً تشغله زخرفة من غصن ملتوٍ تنتظم في التواءاته اوراق نباتية بالشكل المعروف بـ (scroll).

ويمثل (الشكل ٥) جلد الجزء الثاني من كتاب جامع الأصول لابن الأثير وقد كانَ محفوظاً في مكتبة مدرسة يحيىٰ باشا الجليلي وهو مشابه تقريباً لجلد كتاب الجزء الأول فيما عدا أن الاطار هنا رسم بماء الذهب بشكل مستوٍ في حين رسم اطار الجزء الأول بشكل حبل مجدول، كما أن كعب جلد الجزء الثاني زين بإطار محدد بشكل حبل مجدول ويحتوي على زخارف بسيطة قوامها نقاط أو دوائر صغيرة ذهبية، فضلاً عن أن الجزء الثاني لايحتوي على لسان.

ويمكن مقارنة جلدي كتاب جامع الأصول بجلد كتاب تركي من آسيا الصغرى يؤرخ من القرن الخامس عشر أو السادس عشر[٣٢] واحتوت مكتبة



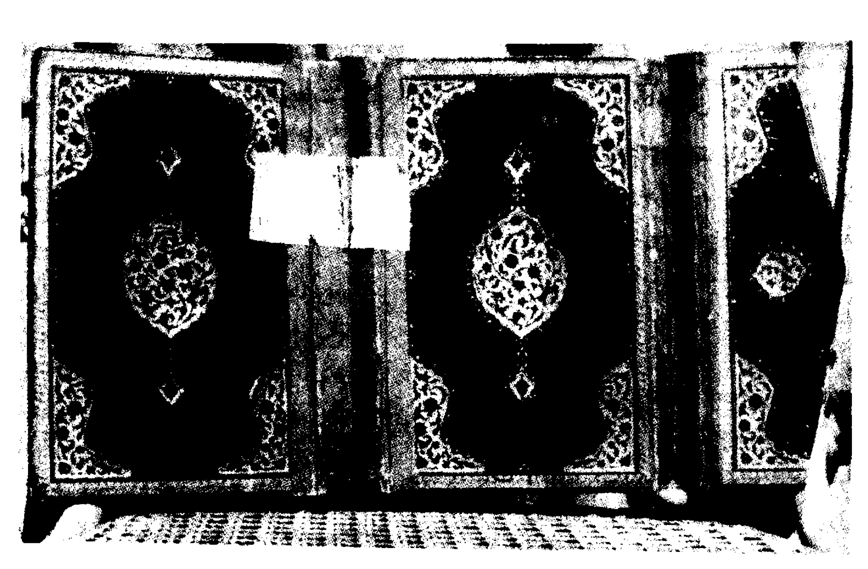


الشكل (٥)
جلد كتاب جامع الاصول الجزء الثاني.

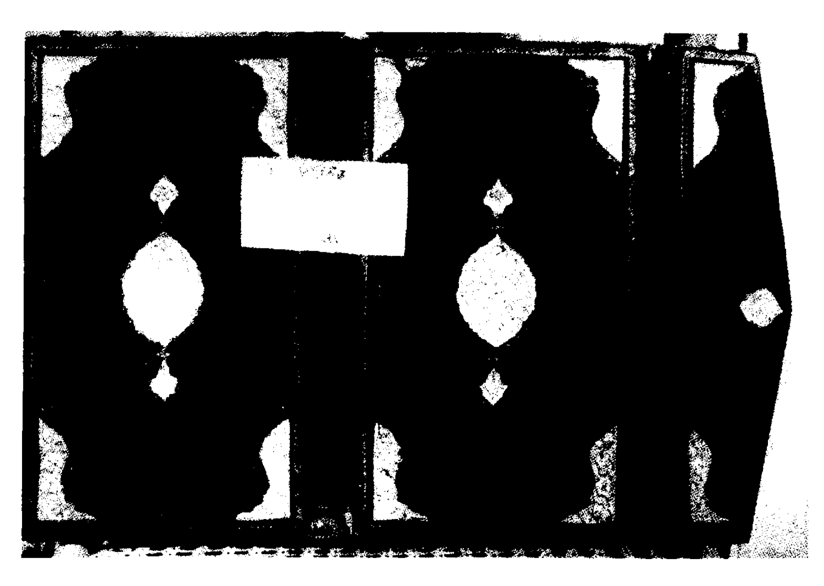
مدرسة يحيى باشا الجليلي كذلك مخطوطة لكتاب التفسير المنسوب لابن عباس، إستنسخه محمد امين الشهري المعروف بحافظ القرآن سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م وقوام الزخرفة على كل من دفتيه اطار مجدول يحيط بمتن أحمر داكن تتوسطه صرة بيضية الشكل تتصل بها دلايتان من الأعلى والاسفل ويشغل الزوايا الأربع للمتن وحدات زخرفية كل منها بشكل نصف ورقة نخيلية محورة Palmet ويحيط بالحافات الخارجية لهذه العناصر شريط من بروزات خيطية تتناوب مع دوائر (الشكل ٦) ويشغل ارضيات عناصر الصرة والزوايا توريقات مذهبة ناتجة عن كبس برادة الذهب بمكبس ساخن مع استخدام اللون الأحمر الداكن في تلوين عناصر التوريق، كما نلاحظ العناصر والأساليب ذاتها في زخرفة اللسان.

وهناك جلدةُ مخطوطة أخرى كانت محفوظة في مكتبة يحيى باشا بالموصل لجزء من كتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي يبدأ الجزء في السنة الثامنة عشر للهجرة وينتهي بحديث محمد بن الحنفية بخط (يحيي بن عبدي اغا) إستنسخه في رجب سنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م (الشكل ٧).

ويمكن مقارنة جلود الكتب الموصلية المعروضة في اللوحات ٣ - ٧ بجلد كتاب تركي يرجع الى القرن السادس عشر أو السابع عشر وهو المعروض في (الشكل ٨). إذ أن الجلد يتكون من متن محاط بإطار مجدول ويتوسط المتن ذا اللون الأحمر

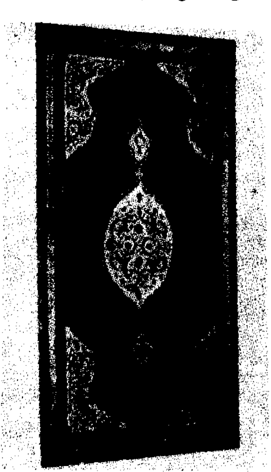


الشكل (٦)
جلد كتاب التفسير



الشكل (٧)
جلد كتاب مرآة الزمان

الداكن صرة بيضية يتصل بها من الأعلى والأسفل دلايتان وتشغل زوايا المتن عناصر زخرفية كل منها بشكل نصف ورقة نخيلية Palmet . ونُفذت زخارف هذه العناصر بكبس برادة الذهب بمكبس ساخن ثم تلوين بعض التوريقات والتفريعات بلون

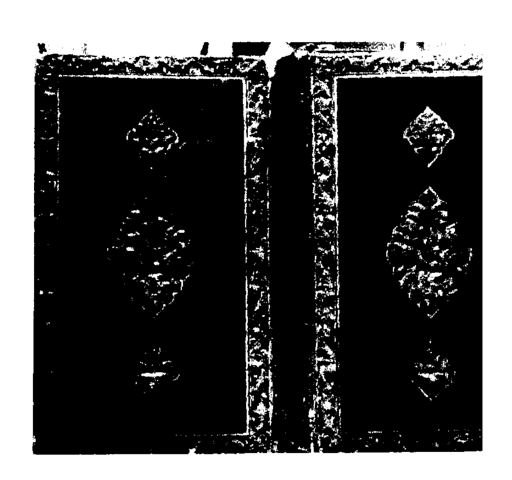


الشكل (٨)
جلد كتاب تركي يوضح التأثيرات المتبادلة في فن التجليد.

أحمر داكن[٣٣] . ويحيط بحافات هذه العناصر جميعها من صرة ودلايات وزوايا شريط من بروزات خيطية تتناوب مع دوائر، وان من يشاهد هذه النماذج لايعتقد انها ترجع الى مدرسة فنية واحدة فقط بل تبدو وكأنها من عمل فنان واحد.

وكانت مكتبة يحيي باشا تضم نسخة من ديوان الشاعر المتنبي تختلف زخرفة الجلد فيه عن زخارف الجلود المذكورة سابقاً، فقد عمل جلد هذه المخطوطة من الورق المقوى السميك المطلي بدهان لماع شبيه بدهان اللاكية، ومن المعروف أن الفنان المسلم قد عرف هذه الطريقة من تزيين جلود الكتب في نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)[٣٤] . وتتكون زخرفة جلد هذا الكتاب والممثلة في (الشكل ٩) من اطار قوام الزخرفة فيه ازهار وأوراق صيغت بشكل بارز، ويحيط الاطار بمتن ذي لون أحمر داكن تتوسطه صرة معينية الشكل، في الأعلى والأسفل منها دلايتان أو صرتان صغيرتان كل منها ذات شكل

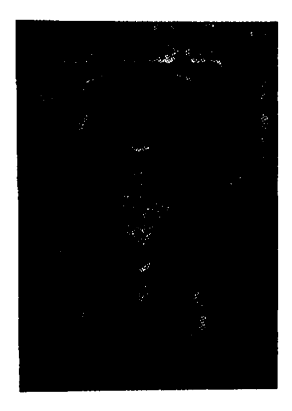




الشكل (٩)
جلد كتاب ديوان المتنبي.

معيني والصرر المعينية هذه زينت بزخارف من اوراق وازهار على غرار زخارف الاطار صيغت بدهان اللاكية البارز.

وكانَ في جامع النبي يونس مصحف ذو جلد محلى ومنقوش أوقفه سليمان باشا بن خالد باشا سنة ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م ولا يحمل المصحف تاريخ نسخه. ويعد جلد هذا المصحف من أجمل جلود الكتب الموصلية زين بطريقة الكبس والتذهيب والتلوين والتخريم ويمثل (الشكل ١٠) واجهة الدقة



الشكل (١٠)
جلد مصحف محفوظ في جامع النبي يونس في الموصل

اليسرى ويتصل بها اللسان وقوام الزخرفة فيه اطار ذو حشوات مختلفة الأشكال يحيط بمتن مركزي تتوسطه صرة بيضية يتصل بها من الأعلى والأسفل دلايتان وتتوزع على الزوايا الأربع عناصر زخرفية كل منها بشكل نصف ورقة نخيلية Palmet وتشغل ارضية الصرة والدلايات وعناصر الزوايا زخارف التوريق التي صيغت على أرضية غائرة ومذهبة واستخدمت الألوان المختلفة الى جانب التذهيب في تلوين الحافات والأزهار والتفرعات النباتية ونلاحظ اعمال التخريم الدقيقة في تزيين الجزء الداخلي من الجلد.

ومن الجدير بالذكر أن جلود الكتب المعروضة في هذا البحث لاتمثل إلا نسبة صغيرة جداً من مجموع المخطوطات المصحفة وقد حفظت مؤخراً في مكتبة الأوقاف بالموصل، وقد تم اختيار النماذج التي تمثل أبرز الاساليب الزخرفية واكثرها انتشاراً وأن مكتبة الأوقاف في الموصل تزخر بإعداد كبيرة من جلود المخطوطات ذات المسحة الفنية.

خاتمة:

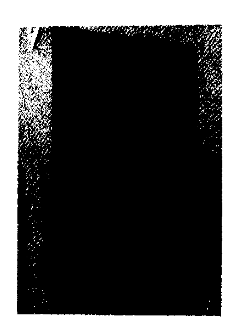
وأخيراً يجدر بنا أن نذكر أن لفن تجليد الكتب في الدولة العربية الاسلامية، الذي كانَ ذا طابع وميزات وخصائص تطورية موحدة، تأثيره الواضح على فن تجليد الكتب في اوربا. فعن طريق الاندلس انتقلت الى اوربا اساليب تجليد الكتب المغربية ومنها الزخارف المتشابكة على مهاد زخرفية [٣٥].

ومن المعروف أنه قد استخدمت في الأندلس الزخارف المضغوطة المذهبة بإستخدام المكبس الحديدي الساخن، حيث ظهر هذا الاسلوب في الأندلس قبل اوربا بمائتي عام [٣٦]. وقد أخذ الاوربيون عن المغرب اسلوب تزيين الكتب بنجمتين في اعلى الجلد وأسفله وكل منها في حقلها الخاص بها. وقُلّد فن تجليد الكتب الاسلامية تماماً في ايطاليا وخاصة في البندقية في أواخر القرن



الخامس عشر والقرن السادس عشر[٣٧].

ومن العناصر الزخرفية الاسلامية التي استعملت في اوربا عنصر الصرة والزوايا المزينة للمتن حيث استخدمه مجلدو الكتب الانكليز والفرنسيون خلال القرن السادس عشر، وانتشر هذا العنصر على نطاق واسع في ايطاليا[٣٨]. ويمثل (الشكل ١١) جلد كتاب ايطالي من القرن السابع



الشكل (١١)

جلد كتاب ايطالي يوضح المؤثرات العربية الاسلامية في فن التجليد في اوربا

عشر يزين واجهته متن محدد بإطار من التوريق ويتوسط المتن صرة دائرية يتصل بها من الأعلى والأسفل دلايتان، ويزين الزوايا عناصر من ارباع دائرة. ويوضح جلد الكتاب هذا مدى تأثير الفن الاسلامي عامة على الفنون الاوربية وفن تجليد الكتب بخاصة.

الهوامش

(١) هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة د. عامر سليمان (الموصل ١٩٧٩) ص ٢٤٧.

(٢) عن اصول استخدام الرق راجع: محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الاسلامي، تاريخه وخصائصه، (بغداد، ١٩٦٥)، ص ١٠٨.

(٣) اعتماد القصيري، فن التجليد عند المسلمين (بغداد، ١٩٧٩) ص ٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤.

(٥) F. Sarre, Islamic Bookbinding, (Berlin, 1923) P. 18

(٦) M. E. L. Mallowan, The Excavation at Nimrud 1953, IRAQ, vol. XVI, (1954), P. 99.

(٧) D. J. Wiseman, Assyrian Writing – Boards IRAQ vol. XVII, P. 3

(٨) Berthe van Regemorter, Some Early Bindings from Egypt in the Chester Beatty Library, (Dublin, 1958) PP. 13 – 14.

(٩) القصيري، المرجع السابق ص ١٢.

(١٠) Martin Levey, Medieaval Arabic Bookmaking and its Relation to Early Chemistry and Pharmocology PP. 5 – 6.

(١١) بكر بن ابراهيم الاشبيلي، التيسير في صناعة التسفير، تحقيق عبد الله كنون، ص ١٠.

(١٢) ابن النديم، الفهرست، (القاهرة، د. ت) ص ٢٠.

(١٣) القصيري، المرجع السابق، ص ١٣ – ١٤.

(١٤) F. Sarre, Islamic Bookbinding (London, 1923) P. 11.

(١٥) انظر: زكي محمد حسن، الفن الاسلامي في مصر من الفتح العربي الى نهاية العصر الطولوني، (القاهرة، ١٩٣٥)، جـ ١ ص ١١٤.

(١٦) الاشبيلي، التيسير، ص ١٢.

(١٧) القصيري، المرجع السابق، ص ١٧ – ٢٠.

(١٨) المرجع نفسه، ص ٣٥.

(١٩) J. Harthan, Bookbinding (London, 1961), P. 10.

(٢٠) زكي محمد حسن، الفنون الايرانية في العصر الاسلامي (القاهرة، ١٩٤٦) ص ١١.

(٢١) المرجع نفسه، ص ١٤٣.

(٢٢) F. Sarre Islamic Bookbinding. P. 14

(٢٣) Aga Oglu, Persian Bookbinding of the Fifteenth century (Michigan, 1935), P. 2.

(٢٤) Ago Oglu, Op. cit. P. 2.

(٢٥) زكي محمد حسن، الفنون الايرانية ص ٥٥٩ الشكل ٩٤٤.

(٢٦) Ago Oglu, Op. cit. P. 11.

(٢٧) القصيري، المرجع السابق، ص ٤٠ وراجع كذلك الشكل (٢٩) واللوحة (٩ب) في المرجع نفسه.

(٢٨) عز الدين بن الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، (القاهرة، ١٩٦٣) ص ١٨١ – ١٨٩.

(٢٩) عبد العزيز مرزوق، الفن الاسلامي، ص ١٦٣.

(٣٠) Gratzl, Op. Cit., III, P. 1985.

(٣١) سعيد الديوه جي، الموصل في العهد الأتابكي، ص٦٧.

(٣٢) زكي محمد حسن، اطلس الفنون، ص ٥٥٩، الشكل (٩٤٧).

(٣٣) عن هذا الجلد راجع: Sarre, Islamic Bookbinding, p.18

(٣٤) Aga Ogla, Persian Bookbinding. p.13

(٣٥) Ettinghousen, OP. cit. Ars Orientatis III, p.119

(٣٦) Ibid, p.122.

(٣٧) ديماند، الفنون الاسلامية، ص٨٩.

(٣٨) Ettinghousen, OP. cit, Ars Orientalis. III, p. 130.



الخط العربي في الموصل

إدهام محمد حنش

مقدمة :

تزامن دخول الموصل في النظام الأداري العثماني عقب السيطرة عليها سنة ١٥١٦م/ ٩٢٢هـ ، مع فورة الأهتمام العثماني بفن الخط الذي أتخذه العثمانيون وسيلة مهمة من وسائل تثبيت سلطتهم على العالم الأسلامي ، من خلال أستخدام الخط في الأعلام الداخلي والخارجي لهم تعبيراً عن قوة السلطة العثمانية وهيبتها وثرائها وتفوقها . وقد عمدوا الى أستقدام الخطاطين من شتى الولايات الى العاصمة ، وصار الخط شرطاً من شروط الوظائف الأساسية في الدولة ، وأمسى الخطاط رجلاً من رجالها البارزين .

ونتيجة لهذا الأهتمام،الذي أسهم في ظهور خطاطين عثمانيين كبار مثل حمدالله الأماسي (١٤٢٩ - ١٥١٩م/٨٣٣-٩٢٦هـ) ، نشأ لهم ماسمّي بـ «المدرسة العثمانية أو التركية» في الخط . وتتصل جذور هذه المدرسة بالمصادر اللغوية والفنية والحضارية العربية الخالصة للخط ، والمتمثلة بنتاج «المدرسة العراقية أو البغدادية» ، وجهود أقطابها وهـم : أبـو علي محـمـد بـن مـقـلـة الـوزيـر (٨٨٦ - ٩٤٠م/٢٧٢ - ٣٢٨هـ) وأخـوه ابـو عبدالله الحسن بن مقلة (٨٩١-٩٤٩م/ ٢٧٨ - ٣٣٨هـ) ، وعلي بن هلال المعروف بأبن البـواب (ت-١٠٢٢م/٤١٣هـ) ، ويـاقـوت المستعصمي (ت١٢٩٨م/٦٩٨هـ) ، وعبدالله الصيرفي البغدادي (ت بعد ١٣٤٣م/٧٤٤هـ) .

ولاشك في ما قد يكون للأهتمام العثماني من أثر في أهتمام الموصل بفن الخط ، وذلك لأن التأثير العثماني الشامل ، المباشر وغير المباشر ، في البيئات الاجتماعية المجاورة ، وبخاصة تلك الخاضعة للسيطرة العثمانية كان واضحاً وملموساً بفعل الدور الحضاري العثماني وتقادمه الزمني الممتد ستة قرون ، فضلاً عن أن موقع الموصل الجغرافي القريب من العاصمة العثمانية سهّل وصول المؤثرات الحضارية والثقافية اليها أسرع وأعمق من وصولها الى الولايات الأكثر بعداً .

ولكن علاقة التأثر والتأثير الناشئة بين العثمانيين والموصل في مجال الأهتمام بفن الخط العربي لم تبدُ واضحة الى حد جعل الاهتمام العثماني عاملَ التأثير الحاسم والأكبر في تحفيز النخبة المثقفة الموصلية على الأهتمام بالخط : ثقافةً وأداءً وفناً . ولعل السبب في ذلك هو أن هذا الأهتمام العثماني كان موجهاً بالدرجة الأساس الى العاصمة ، ولم يمتد أفقياً الى الولايات التابعة ، كما إنَّ إستقدام الخطاطين من هذه الولايات الى العاصمة ادى الى أمتصاص قدراتها وأمكاناتها الأبداعية لتعزيز مركز العاصمة في هذا المجال .

وكان للاهتمام العثماني بالخط أنعكاس سلبي على مستوى فن الخط في الموصل ، وبخاصة في بدايات السيطرة العثمانية ، إذْ لانكاد نعثر على أية إرهاصة فنية وأبداعية قيّمة في هذا المجال خلال القرنين الميلاديين : السادس عشر والسابع عشر (العاشر والحادي عشر الهجريين) . وقد يكون هذا عاملاً مباشراً من عوامل أنحسار أهتمام الموصل بفن الخط ، لكنه لايتحمل وحده عبء هذا الأنحسار ، فهناك عوامل أخرى ، غير مباشرة ، تتمثل في الأحداث العسكرية والسياسية والكوارث الطبيعية[1] التي مرت بها الموصل قبيل السيطرة العثمانية ومارافقها وماتلاها ، والتي أدت

الى تردي الأوضاع الأجتماعية والثقافية عامةً، وتعطيل أي نشاط ثقافي وفني، خاصة، يمكن أن يتواصل مع ماكان سائداً من أهتمام واضح بالخط ومن نهضة فنية بارزة في تأريخ الموصل الحضاري قبل السيطرة العثمانية، وأخيراً، الى تأخير عودة الأهتمام الموصلي بهذا الفن خلال هذه الحقبة حتى القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري).

رواد الخط العربي في الموصل خلال القرن الثامن عشر:

منذ أن أستقر حكم العثمانيين للموصل في بداية هذا القرن، ثم من خلال إحدى الأسر الموصلية (الجليليين) سنة ١٧٢٦م/١١٣٩هـ، أنتعشت الحياة العمرانية والتجارية والأجتماعية والعلمية والثقافية في الموصل. وتمثل هذا الأنتعاش في بناء الكثير من الجوامع والمدارس ودور العلم، وفي حركة التبادل الثقافي والعلمي بين الموصل وبلاد الشام التي نشطت في ظل العلاقات التجارية القائمة بينهما.. وفي ظل الأهتمام بالثقافة العربية الأسلامية وخاصة في مدياتها القومية التي تحركت في بلاد الشام ومصر بتأثير السياسة العربية لمحمد علي باشا وأبنه ابراهيم باشا. وضمن هذا السياق عاد الاهتمام بعلوم الكتابة وفنون الأستنساخ الى ربوع المجتمع الموصلي وبخاصة مؤسساته الدينية والعلمية والإدارية. ومع هذا الأهتمام أنتعش فن الخط العربي بين الفئات الأجتماعية المتباينة في وظيفتها الأدارية وثقافتها الدينية ومكانتها العلمية، فبرز عدد كبير من الخطاطين المتفاوتين في جودة الخط، ولكنهم أسهموا في أنتعاش حركة الخط الفنية والثقافية في الموصل آنذاك، وتركوا آثاراً مهمّة في هذا الفن، ومن أشهرهم:

خليل خدّادة:

هو الشيخ خليل بن عمر خدّادة الموصلي. لم يصل أحد من مترجميه الى سنة ولادته ولكنّهم رجّحوا سنة وفاته بعام (١٧٤٩م/١١٦٣هـ). عرف بكونه واحداً من أبرز الخطاطين المجيدين في زمانه، فصار المثلَ في جودة الخط وحسنه ونفاسته بهذا الرجل الذي أجمع مترجموه على تلقيبه بلقب «ياقوت زمانه وأبن مقلة أوانه» وأنه «آتاه الله من حسن الخط وجودة الكتابة وتصوير الحروف مالايدرك ولايلحق ولايأتي الزمان بمثله»[٢] لأنّه «الكاتب الماهر والخطاط الشاعر الذي تنتهي اليه الكتابة والخط في زمانه»[٣]. برع في الخطوط المنسوبة كالثلث والنسخ والريحاني.

قد تمّ كل هذا الحصن الحصين المبارك كتابة على يد الفقير المعترف بالذنب والتقصير الراجي عفو مولاه الجليل ابن المرحوم عمر خدادة الموصلي الحاج خليل حامداً ومصلياً ومسلماً على نبيه النبيل للأعز الأكرم محمد آغا ابن المرحوم الحاج صالح آغا عبد الجليل زاده في شهر جمادى الآخر سنة ١١٥١

صفحة من مخطوط «الحصن الحصين» الذي كتبه خليل خدادة بخط النسخ سنة ١١٥١هـ.

وكان خليل خدادة، فضلاً عن كونه خطاطاً مجيداً، أديباً بارعاً وشاعراً موهوباً، له «أدب جميل وأنشاء بديع»[٤] تجلّى في قصائده المطوّلة والقصيرة، سواء تلك التي نظمها في ظل تجربة الحصار الفارسي المقيت الذي فرضه نادر شاه على الموصل سنة ١٧٤٣م/١١٥٦هـ، وخصوصاً في مدح والي الموصل حسين باشا الجليلي



(١٦٩٦–١٧٥٧م/١١٠٨–١١٧١هـ) لوقفته الشجاعة في التصدي للحصار[٥] . . أم تلك القصائد القصيرة التي تبادلها مع صديقه الحميم الشيخ خليل البصير (١٧٠٠–١٧٦٢م/١١١٢–١١٧٦هـ)، وخاصة بعد فراقهما، إذْ كان خليل خدادة قد «رحل الى الهند في سنة أحدى وستين ومائة وألف»[٦] . وقد أورد صاحب (شمامة العنبر) أمثلة ليست قليلة من شعره هذا[٧] .

نعمان الذكائي[٨] :

هو الخطاط الشهير درويش نعمان الذكائي بن محمد أفندي ابن المتصرف القادري الحنفي البغدادي . أصله من الموصل ولكنه نشأ ببغداد ودرس على علمائها . وقد أخذ فنون الخط العربي عن الخطاط محمد أمين الأنسي (ت ١٧٦٨م/١١٨٢هـ) ونال الإجازة منه سنة (١٧٦٥م/١١٧٩هـ) . كما نال الإجازة بفنون الخط من السيد أحمد رسمي سنة (١٧٨٤م/١١٩٩هـ)، وكذلك من السيد محمد داشنجي زادة في السنة نفسها، وأخيراً من السيد محمد النوري[٩] .

له آثار خطية كثيرة منها ابيات شعرية على باب مصلى جامع مرجان كتبها سنة (١٧٨٥م/١٢٠٠هـ)، وله مجموعة كبيرة لدى أحد أحفاد أسرته . وقد أخذ الخطَّ عنه وتخرج على يديه في بغداد خطاطون كثيرون ابرزهم الخطاط الكبير سفيان الوهبي (ت ١٨٤٩م/١٢٦٧هـ) ودرويش الفيضي (ت بعد ١٨١٧م/١٢٣٣هـ) وخلف أغا المصرف دار (ت ١٨٦٠م/١٢٧٨هـ) وغيرهم هذا وقد توفي الخطاط نعمان الذكائي سنة (١٨١٢م/١٢٢٧هـ) .

خطاطون آخرون :

وبرز خلال هذا القرن خطاطون آخرون عرفوا

اداء متقن وتشكيل حسن لخطي الثلث والنسخ في لوحة نعمان الذكائي .



الخط وتعاملوا معه وأجادوه بناءً على مقتضيات أهتماماتهم العلمية والأدارية والفنية ، ولكنهم لم يرتقوا في أدائهم الخطي الى درجة الخطاطين المجيدين الأفذاذ الذين أنتسبوا في موهبتهم الى هذا الفن .

ولعل من أبرزهم : محمد سعيد الموصلي وهو «من الخطاطين والمزوقين الذين نبغوا في القرن الثاني عشر للهجرة . ومن آثاره نسخة من القرآن الكريم ، زوق فيها أوائل السور والأحزاب بنقوش مختلفة وحلاّها بماء الذهب ، وأنتهى منها سنة ١٧٠٢ م/١١١٤ هـ»[١٠] . والعلاّمة الشيخ سلطان بن احمد الجبوري (١٦٦١ – ١٧٢٥ م/١٠٧٢ – ١١٣٨ هـ) الموصلي الذي رحل الى بغداد وصار شيخ القراء فيها إذ «كان من أفاضل العلماء في اللغة والقراءات ، وأشتهر بحسن الخط ، وكان ينسخ لنفسه وللعلماء ، وخطه مرغوب فيه لحسنه وضبطه وأتقانه»[١١] . وأبو بكر الكاتب بن أبراهيم (ت ١٧٥٠ م/١١٦٤ هـ) وهو «كاتب جرى له القلم في خدمة نبي الله جرجيس عليه السلام»[١٢] بمرقده في الموصل . وقاسم بن محمد حسن البزاز الموصلي (ت ١٧٥٦ م/١١٧٠ هـ) الذي كان تاجراً ورث تجارة القماش عن ابيه ، وعرف بحصوله على معارف عصره اللغوية وفنونها الأدبية ، وأتجه الى الأدب مبكراً وله شعر كثير[١٣] ، وكان «حسن الخط ، جيد التصوير»[١٤] . والخطاط محمد بن خليل الملقب حمّو الكردي الذي يثير الدهشة بكثرة نسخهِ للكتب بخط النسخ الجميل في السنوات (١٧٥٣ – ١٧٧٠ م/١١٦٧ – ١١٨٤ هـ) . وكان من أشهر ما كتب وزوق كتاب «جامع الاصول في أحاديث الرسول» في مجلدين بخطٍ هو غاية في الجودة والأتقان ، على ورق حريري ، وجلد الكتاب محلّى ومزخرف ، وحواشيه مرتبة بفنية خاصة[١٥] . والسيد عبدالله بن فخر الدين الأعرجي الحسيني ، ولد في الموصل ونشأ فيها وأخذ العلم عن شيوخها ، وأتصل بخدمة ولاة الموصل وبغداد ، فصادف قبولاً لديهم فقربوه ، فشغل منصب كاتب ديوان الأنشاء ببغداد وبقي في منصبه هذا حتى توفي سنة (١٧٧٤ م/١١٨٨ هـ) . ومع أنصرافه الى العلم والأدب والأدارة والسياسة كان عبدالله الأعرجي الحسيني خطاطاً بارعاً ومجيداً[١٦] . ويضاف الى هذه الجمهرة كاتبان من كتاب ديوان الأنشاء هما : يونس الكاتب الموصلي (يونس أفندي بن يحيى بك : ١٧٠٧ – ١٧٧٨ م/١١١٩ – ١١٩٢ هـ) نائب الشرع وكاتب الديوان في عهد الوزير حسن باشا الجليلي . لقب بذي الرئاستين . وهو جد الخطاط الكبير صالح السعدي[١٧] . وملا يونس الكاتب (يونس بن ملا حسن بن الحاج شعبان بن عبد الدائم الراوي : ت ١٧٩٢ م/١٢٠٧ هـ) ، تولى كتابة الأنشاء للوزير محمد أمين باشا الجليلي ثم لولده سليمان باشا .[١٨]

الخط العربي في الموصل خلال القرن التاسع عشر ورواده :

ظلَّ الأهتمام بفن الخط منذ بدايات هذا القرن منتعشاً لدى الأوساط الثقافية والتعليمية الموصلية . وكان هذا الأهتمام مدفوعاً بتأثير عوامل ذاتية تتصل بتأثير أعلام الخط البارزين كالخطاط صالح السعدي الذي تلمذ له عدد غير قليل من خطاطي الموصل في هذا القرن ، كما تتصل بالأقبال الذاتي لبعض طلبة العلم في المدارس والجوامع ودور العلم الأخرى على تعلّمه . . وعوامل موضوعية تتصل بواقع الموصل الحضاري وخاصة على الصعيد العلمي والثقافي والوعي القومي المتأثر بالنهضة العربية في مصر وبلاد الشام وآفاقها الثقافية في تحقيق الكتب والمخطوطات التراثية ، التأريخية والأدبية ، العربية على أثر ظهور الطباعة في المشرق العربي . وقد لقيت هذه الآفاق استجابة طيبة لدى النخبة المثقفة الموصلية وهو ما دفع الى أنتعاش



الواقع الثقافي عموماً ، وفي ظلّه أنتعش أستنساخ الكتب والعناية بالخط فناً وأداةً ووسيلةً للرزق مالبثت أن أنحسرت على أثر ظهور الطباعة في الموصل في منتصف القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من التأثير المزدوج لظهور الطباعة في الموصل على يد الآباء الدومينيكان : الايجابي الثقافي والعلمي العام ، والسلبي الفني المتمثل في تراجع الخط من خلال تضاؤل الحاجة اليه أداةً وظيفية وجمالية معاً ، ظهر خطاطون بارزون خلال هذا القرن ، تركوا آثاراً واضحة في مسيرة الخط الفنية والثقافية بفضل مستوياتهم الأبداعية العالية في هذا الفن ، لتتواصل سلسلة الخطاطين المواصلة ، بظهور أبرز خطاطي الموصل في هذا القرن :

صالح السعدي :

يمكن القول إن أنتعاش الحركة الفنية للخط وظهور طبقة واسعة نسبياً من الخطاطين المواصلة في هذه الحقبة قد مهّدا لظهور خطّاط موصلي كان واحداً من أنبغ الخطاطين العرب والمسلمين في عصره ، اذا لم نقل أنه كان «أعظم خطاط عرفته الموصل في عصورها المتأخرة ، لا بل العراق والأقطار العربية جميعها ، وليس ثمّة من يضاهيه سوى الخطاطين العثمانيين العظام... أنه صالح السعدي الموصلي الذي كان يجيد جميع أنواع الخطوط اليدوية من ثلث ونسخ وتعليق وغيرها بأسلوب متميز»[١٩] ، بل ذكر أنه كان يخط بأثني عشر قلماً خطاً رائعاً وله موهبة فذة في تقليد خط ابن الشيخ (حمدالله الأماسي) والحافظ عثمان[٢٠] . وكانت له مكانة مؤثرة في الخط والعلم والأدب والشعر ليس بين علماء الموصل حسب ، بل في بغداد أيضاً.

هو صالح تقي الدين أفندي بن يحيى أفندي بن يونس أفندي بن يحيى بك الشهير بسعدي الموصلي[٢١] . وقد لحقه لقب «السعدي» جرياً على عادة الالقاب الشائعة في الموصل ، وخاصة في تلقيب التلاميذ الذين يكملون دروسهم الدينية ويجازون فيها بألقاب مثل سعدالدين وحمدالدين ونورالدين وغير ذلك . ولايزال الأمر جارياً على هذا المنوال حتى الوقت الحاضر في الموصل ولاسيما لدى القراء . وأصل لقب «السعدي» قد لحقه من لقبه الديني «سعدالدين» الذي منحه اياه أستاذه بعد أنْ أجازه .

ولد صالح السعدي في الموصل قبل سنة (١٧٧٨م/١١٩٢هـ) ، وتوفي فيها مقتولاً خلال فتنة سياسية وقعت سنة (١٨٢٩م/١٢٤٥هـ) ، وربّما لأنه كان متقدماً في مراتب الحكومة ، إذْ كانت له رئاسة ديوان الأنشاء في الموصل.

أخذ السعدي العلم عن شيوخ الموصل وعلمائها ، ثمّ رحل طالباً العلم في بغداد على يد ابي الثناء الآلوسيّ سنة (١٨٥٣م/١٢٧٠هـ) . كان ذا قدم راسخة في الآداب العربية والتركية والفارسية ، ولذلك أستطاع أن يقدّم الكثير من الرسائل والتعليقات والشروح والحواشي بالأضافة الى ديوان شعري ذي قصائد بليغة نظمت باللغات الثلاث[٢٢] . وفي هذا السياق يقول الدكتور عبدالله الجبوري[٢٣] : أشتغل السعدي في كثير من المعارف والعلوم المألوفة في وقته ، وألّف فيها جميعاً ، وقد ترك لنا ثروة جليلة من هذه الآثار النفيسة ، صانت لنا الايام بعضها وأتلفت الرزايا بعضها الآخر. ويشير الجبوري الى مايقرب من ثلاثين أثراً علمياً وصلت اليها يده في مجالات اللغة وعلومها والمنطق والكلام والموسيقى والفلك والخط والأدب والفرائض وعلوم الحديث فضلاً عن مجاميعه الشعرية والنثرية والخطية .

والى جانب كون السعدي نابغةً من نوابغ الموصل في الخط خلال هذا القرن ، فهو يتمتع بالمهارة في رسم الخط وبشدة ضبطه ودقة حروفه مع حسن خطه ، فقد كان أيضاً ملماً بثقافة الخط



لوحة جامعة لخطوط (المحقق والثلث والنسخ والتعليق والشكستة وجلي الديواني والديواني والسياقة والرقاع والاجازة والنسخ المقرمط). أبدعها الخطاط الكبير صالح السعدي سنة ١٢٣١هـ.



وآدابه اللغوية والفنية. وليس أدل على ذلك من أرجوزته في «علم رسم الخط» التي تناول فيها السعدي موضوعات عدة منها مايتصل بأصلاح الخط ومنها مايتصل بأصلاح اللسان ومنها مايتصل بأدوات الكتابة وأنواعها وأسمائها.

قاسم الحمدي[٢٤] :

هو قاسم الحمدي بن يحيي بن يونس بن يحيي أغا من آل (محضر باشي) من أسرة معروفة بالفضل والعلم في الموصل، فقد كان جده كاتباً لديوان الأنشاء فيها، وهو اخو الخطاط الكبير صالح السعدي الذي ولي رئاسة هذا الديوان ايضاً. وقد ولي هو أيضاً بعد وفاة أخيه كتابة ديوان الأنشاء في الموصل الى أيام الوالي محمد باشا اينجة بيرقدار.

نموذج من خط (قاسم الحمدي) مؤرخ بسنة ١٢٢٣هـ.

أخذ قاسم الحمدي الثقافة عن أخيه هذا فنبغ فكان أديباً وكاتباً وشاعراً لامعاً في تأريخ الأدب العربي في العراق[٢٥]. كان يتقن اللغتين التركية والفارسية، وله فيهما نظم بليغ - كما يقول المؤرخ سليمان صائغ في الصفحة (٢٤٧) من الجزء الثاني من كتابه الموسوم «تاريخ الموصل». ويضيف: أما نظمه العربي ففي منتهى الرصانة والرقة والعذوبة، وله ديوان شعر معروف، منه نسخ كثيرة كتبها الحمدي بخطه الجميل النفيس، كما هي عادته في خط أعماله الشعرية والنثرية لأن قاسماً الحمدي كان خطّاطاً مشهوداً له بجودة الخط وأتقانه وحسنه وضبطه، جعله ذلك كله واحداً من مبدعي هذا الفن المواصلة في هذه الحقبة، لأنّه - كما يقول معاصره وصديقه عبد الباقي العمري (ت ١٨٦٠/١٢٧٨هـ) قد أخذ «من الكمال نصيباً وساعده خطّه فصار لكل غرض مصيباً، فخطّه كالعذار المزرد، اذا تسلسل فوق الخد أورد».

كانت لقاسم الحمدي علاقات أدبية وثقافية حية وبالغة الأهمية مع أدباء ومثقفي زمانه في الموصل وبغداد، فأتصل بالعلامة أبي الثناء الآلوسي والشيخ عبد الفتاح الشواف والشيخ عبدالله أفندي العمري وعبد الباقي العمري وغيرهم.

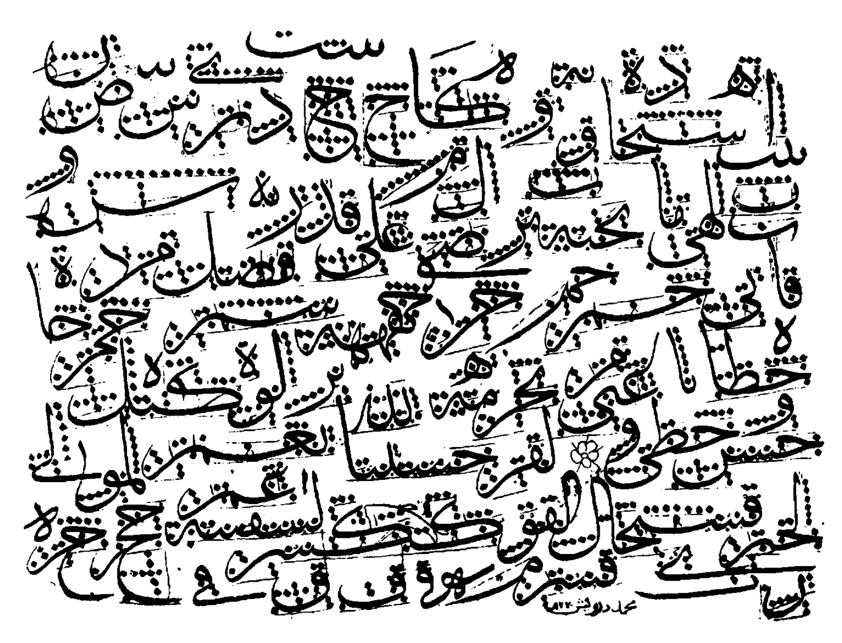
توفي قاسم الحمدي مقتولاً سنة ١٨٣٩م/ ١٢٥٥هـ.

محمد درويش البروشكي[٢٦] :

لايعرف تأريخ مولده، ولكن المعروف عنه أنه كان رجلاً مشهوراً بالورع والتقوى، وكان لشدة ورعه لايأخذ ثمناً عن كتاباته وأعماله الخطية، لأنه يراها عملاً دائماً في سبيل الله.

كان خطاطاً مجيداً ومتمكناً من دقائق الخط الفنية والتشكيلية. وتشير أعماله الخطية، وخاصة في مجال خط الثلث، الى أنه كان واحداً من أبرز خطاطي الموصل في العصر الحديث، وقد تلمذ للخطاط الكبير عباس الصبري الآمدي (ت بعد ١٨٦٩م / ١٢٨٦هـ) وقد تلمذ له كثير من الناس في الموصل منهم أمين أفندي الخطاط (ت بعد ١٨٧٩م/ ١٢٩٨هـ) وقد كان يكتب على المرمر، والخطاط الموصلي المعروف محمد صالح الشيخ علي، والخطاط محيي الدين (ت ١٩٣٢م/١٣٥١هـ).





نموذج لميزان الحروف بخط الثلث، كتبه البروشكي سنة ١٢٧٠هـ، وهو يعكس قوة ادائه وجودة خطه النادرة.

خطّاطون آخرون :

ولم تنقطع سلسلة الخطاطين الموصليين خلال هذا القرن بهذه النخبة، ولم تنقطع أيضاً عما كانت عليه قبل هذه الفترة من الخطاطين المتمكنين، وتواصل الأهتمام بالخط. فقد تواصل بروز خطاطين آخرين لايقلّون جودة وأتقاناً عمن سبقوهم، ولكن حظهم في تحقيق مستوى أبداع فني ناضج يرقى الى درجة أداء أفذاذ الخط المواصلة كالسعدي مثلاً كان قليلاً. وربما يعود ذلك الى ماقد يلاحظ على مسار الخط في تلك الحقبة من غلبة صورة أداء تقليدية متشابهة فقيرة غالباً في ضبط قواعد الخط وأصوله العلمية والفنية، وأن كان فيها شيء من الفن والابداع.

وقد رصد لنا الباحث والخطاط يوسف ذنون(٢٧) جمهرة ليست قليلة من هؤلاء الخطاطين الآخرين، بينهم : محمد أمين العمري(٢٨) (محمد أمين بن يوسف بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن موسى الخطيب العمري) المولود في الموصل سنة ١٨٠٨م/١٢٢٣هـ. رحل الى بغداد وآلت اليه كتابة ديوان الأنشاء وخدم في مناصب رسمية أخرى. توفي ببغداد سنة ١٨٧١م/١٢٨٨هـ. وكان خطاطاً مجيداً فضلاً عن كونه شاعراً. والشاعر الخطاط عبد الغفار الأخرس(٢٩) (١٨٠٥–١٨٧٤م/١٢٢٠–١٢٩١هـ) الذي عرف بجودة خطه وحسنه الذي «لم يشاركه فيه أحد من أدباء ذلك الزمان» على حد قول محمود شكري الألوسي. ومحمد الفهمي (١٧٨٠–١٨٣٤م/ ١١٩٥–١٢٥٠هـ)(٣٠)، والخطاط عبد الغفور الجلبي الذي أجيز في الخط سنة (١٨١٠م/ ١٢٢٥هـ)، ثم أعقب هؤلاء طبقة واسعة من الخطاطين يأتي في مقدمتهم تلاميذ الشيخ الخطاط صالح السعدي من أمثال عبد الرحمن فهمي وحسين الجدي. وكذلك الخطاطون : أمين أفندي الخطاط ومحمد صديق الجليلي



(١٨١٥-١٨٧٣م/١٢٣١-١٢٩٠هـ) ومحمد سعيد الجليلي (١٨٤٢-١٨٦٥م/ ١٢٥٨-١٢٨٢هـ) وعبد الرحمن جلمي الصائغ (ت ١٨٧٧م/١٢٩٤هـ) وأخيراً مصطفى الشرنيجي في النصف الثاني من هذا القرن.

الهوامش

(١) علي شاكر علي: تأريخ العراق في العهد العثماني. منشورات مكتبة ٣٠ تموز. نينوى. ط ١/١٩٨٥. ص١٥٣-١٥٧.

(٢) محمد امين بن خيرالله الخطيب العمري: منهل الأولياء ومشرب الأصفياء من سادات الموصل الحدباء (جزءان). حققه ونشره: سعيد الديوه جي. مطبعة الجمهورية ١٩٦٧، ج ١. ص٣٠١.

(٣) محمد خليل المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. مصر ١٣٠١هـ، ٢: ١٩٤.

(٤) محمد رؤوف الغلامي: العلم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي. الموصل ١٣٦٢هـ. ص٢٨٢.

(٥) عصام الدين عثمان بن علي بن مراد العمري: الروض النضر في ترجمة أدباء العصر (٣أجزاء). تحقيق: الدكتور سليم النعيمي. مطبعة المجمع العلمي العراقي. ٢: ٣٥٠-٣٧٠.

(٦) محمد خليل المرادي: (مصدر سابق) ٢: ١٩٤.

(٧) محمد بن مصطفى الغلامي: شمّامة العنبر والزهر المعنبر. تحقيق: الدكتور سليم النعيمي. مطبعة المجمع العلمي العراقي: ١٩٧٧، ص٣٣٠-٣٣٤.

(٨) وليد الأعظمي: جمهرة الخطاطين العراقيين (جزءان). دار الشؤون الثقافية. بغداد: ١٩٨٩، الطبعة الأولى، ٢: ٦١٥؛ ناجي زين الدين المصرف: مصوّر الخط العربي. منشورات مكتبة النهضة. بغداد. الطبعة الثانية. بيروت: ١٩٧٤، ص٣٥٧.

(٩) جميع هذه الأجازات محفوظة في مكتبة المتحف العراقي.

(١٠) سعيد الديوه جي: أعلام الصناع المواصلة. مطبعة الجمهور. الموصل. ١٩٧٠ ص٢١٥.

(١١) وليد الأعظمي: (مصدر سابق) ٢: ٥٨٠.

(١٢) الغلامي: (مصدر سابق) ص٣١٩.

(١٣) شعره في: الروض النضر ٢: ٤٢٠؛ شمامة العنبر: ٢٦٧-٢٧١.

(١٤) محمد أمين العمري: (مصدر سابق) ١: ٣٠٨.

(١٥) الديوه جي: (مصدر سابق) ص٢١٤.

(١٦) سليمان الصائغ: تأريخ الموصل (٣ أجزاء)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٢٨، ٢: ١٨٧؛ محمد أمين العمري: (مصدر سابق) ١: ٢٤١؛ عصام الدين العمري: (مصدر سابق) ١: ٢٦٢؛ عباس العزاوي: تأريخ الأدب العربي في العراق (جزءان)، مطبوعات المجمع العلمي العراقي: ١٩٦٢، ٢: ٣٨، ٢١٥، ٢٨١.

(١٧) الغلامي: (مصدر سابق) ص٢٩٦.

(١٨) سعيد الديوه جي: جوامع الموصل في مختلف العصور. مطبعة شفيق. بغداد ١٩٦٣، ص٢٠٨-٢١٠. وينظر: الغلامي: (مصدر سابق) ص٢٩٦.

(١٩) ينظر: يوسف ذنون: «الموصل والخط العربي: عرض وتمهيد»، مجلة الربيع، الموصل، عدد خاص صدر لمناسبة مهرجان الربيع القطري الثاني-الرابع عشر بالموصل ١٩٨٢، ص٦٦.

(٢٠) ينظر: د. زهير زاهد وهلال ناجي: أرجوزة في علم رسم الخط (تحقيق). المورد (مجلة تراثية فصلية. العراق)، المجلد الخامس عشر، العدد الرابع ١٩٨٦م، ص٣٤٦ أما بالنسبة لابن الشيخ (١٤٢٩-١٥١٩م/ ٨٣٣-٩٢٦هـ) فهو حمدالله ابن الشيخ مصطفى دده. اصله من بخارى وهاجر الى أماسيا ولقب بها. اخذ الخط عن خير الدين المرعشي (ت ٨٩٦هـ). سميّ بقبلة الكتاب لما اشتهر به من الاتقان والجودة في الخط وبخاصة في الاقلام الستة. وبالنسبة للحافظ عثمان (ت١٦٩٨م/١١١٠هـ) فهو حافظ القرآن عثمان أفندي بن علي. يمتاز بأسلوب رشيق في خطي الثلث والنسخ. تعلم الخط على شيوخ الخطاطين في زمانه. أشتهر بكتابته البديعة للمصحف.

(٢١) سليمان الصائغ: (مصدر سابق) ٢: ٢٤٩. وينظر: د. عبدالله الجبوري: صالح السعدي الموصلي. مجلة الاقلام (وزارة الأعلام. بغداد) عدد حزيران ١٩٦٨.

(٢٢) سليمان الصائغ: المصدر نفسه.

(٢٣) الأقلام. عدد حزيران ١٩٦٨، (مصدر سابق).

(٢٤) ينظر: عباس العزاوي: الاستاذ قاسم الحمدي الموصلي. مجلة الاقلام. الجزء السابع. السنة الثالثة، آذار ١٩٦٧؛ سليمان الصائغ (مصدر سابق) ٢: ٢٧٣.

(٢٥) ينظر أيضاً: عباس العزاوي: تاريخ الأدب العربي في العراق (مصدر سابق) ج ٢.

(٢٦) الدكتور داؤد الجلبي: مخطوطات الموصل. مطبعة الفرات. بغداد ١٩٢٧، ص٢٦٨ وناجي المصرف: مصور الخط (مصدر سابق) ص ٣٤٩.

(٢٧) يوسف ذنون: (مصدر سابق)، ص ٦٤-٦٨.

(٢٨) وليد الأعظمي: (مصدر سابق) ٢: ٦٧٠، سليمان الصائغ: (مصدر سابق) ٢: ٢٣٠.

(٢٩) وليد الأعظمي: (مصدر سابق) ٢: ٦٧٤، سليمان الصائغ: (مصدر سابق) ٢: ٢٣٧.

(٣٠) وهوكا يبدوليس الحاج محمد فهمي أفندي بن مصطفى العمري (١٨٢٨-١٨٧٣م/١٢٤٥-١٢٩٠هـ) الذي تقلب في المناصب في ولاية الموصل على عهد يحيىٰ باشا الجليلي، ثم سافر الى بغداد فتقلد فيها رئاسة ديوان الأنشاء، وبعدها خوّل الأمارة والسفارة في كثير من البلاد الخاضعة للسيطرة العثمانية، وعينه مدحت باشا كاتباً خاصاً به. (ينظر: سليمان الصائغ: تأريخ الموصل، ٢: ٢٣٢-٢٣٣).



النشر والصحافة في الموصل

(١٢٧٤ - ١٣٣٦هـ ١٨٥٨ - ١٩١٨م)

د. أبراهيم خليل أحمد

مقدمة :

شهد العراق منذ أواخر العهد العثماني ما يعرف بالصحافة المحلية. وقد أدت الصحافة المحلية وظيفتها الأعلامية على نحو لايقل أهمية عما أحرزته صحافة العاصمة. ومن ذلك أنها أسهمت في أيقاظ الفكر وتنوير الأذهان. وتعد جريدة «موصل» التي صدرت في ٢٥ حزيران سنة ١٨٨٥ أول جريدة في تأريخ هذه المدينة، وثاني جريدة تصدر في العراق، حيث أن أول جريدة كانت «زوراء» قد صدرت ببغداد في ١٥ حزيران سنة ١٨٦٩. وارتبط تأريخ صحافة الموصل بنشأة الطباعة وتطورها. وكما هو معروف فأن ثمة علاقة قوية بين الطباعة والصحافة وكلاهما من مظاهر النهضة الفكرية.[١]

الطباعة في الموصل :

شهدت مدينة الموصل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأسيس عدد من المطابع، أهمها مطبعة (الدومنيكان)، والمطبعة (الكلدانية)، ومطبعة (نينوى)، ومطبعة (الولاية). وقد أصدرت هذه المطابع عدداً وافراً من الكتب والمجلات والصحف التي كان لها اثر في تنامي الوعي الفكري، وتنمية الثقافة آنذاك.[٢]

ومما يلحظ أن تأسيس أول مطبعة في الموصل ارتبط بنشاط ارسالية الدومنيكان التبشيرية التي قدمت الموصل سنة ١٧٥٠.[٣] وكان من أهدافها جلب مطبعة الى الموصل لنشر الفكر التبشيري. وفي سنة ١٨٥٨ تم تأسيس مطبعة (الدومنيكان) في محلة الجولاق بالجانب الأيمن من المدينة وكانت مطبعة حجرية في بداية أمرها. ويعد كتاب «رياضة درب الصليب» والذي طبع سنة (١٨٦١) أول كتاب يطبع فيها[٤]. وفي سنة ١٨٦٣ وجد الدومنيكان أن مطبعتهم لاتفي بالغرض لذلك عملوا على توسيعها بشراء معدات طباعية كاملة خصصوا لها مبلغاً كبيراً من المال، أسهمت فيه جمعية مدارس الشرق بباريس بستة آلاف فرنك، هذا فضلاً عن تبرع المطبعة الأهلية بباريس بمجاميع من الحروف العربية والسريانية والفرنسية. وقد ألحق بالمطبعة مسبك لصب الحروف وقسم لتجليد الكتب وتذهيبها بالطرق الحديثة.[٥]

أنجزت مطبعة الدومنيكان نشر قرابة (٢٩٣) كتاباً في مختلف المعارف[٦]. كما طبعت فيها الكتب السنوية العثمانية التي أصدرتها ولاية الموصل بعنوان «**السالنامات**»، لكن معظم الكتب التي تولت طبعها كانت تدور حول «الطقوس الدينية» وبلغات كنائس المشرق كافة. وتبنت المطبعة نشر الكتب المدرسية باللغة العربية منها كتاب مختصر صغير في الجغرافية لأقليمس يوسف داؤد طبع سنة ١٨٦١ وكذلك كتاب في تعليم اللغة العربية عنوانه: «التهجئة ومبادئ القراءة لتدريس الصبيان». الذي طبع سنة ١٨٦٢ باللغة العربية. وأسهمت المطبعة في توجيه النشء الى التأريخ، وخاصة الديني منه، بما نشرته من الكتب التي تتناول موضوعات من التأريخ القديم والوسيط والحديث. ومن هذه الكتب «مختصر في التواريخ القديمة» للقس لويس رحماني والمطبوع سنة ١٨٧٦ و «مختصر في تواريخ القرون الوسطى» للمؤلف نفسه والمطبوع سنة ١٨٧٧



وكتاب «جنى الثمار من لطائف الأخبار لتمرين الصبيان في المدارس مجموع من أحسن كتب العرب» لمؤلفه أقليمس يوسف داؤد، وقد طبع سنة ١٨٦٣ وكتاب «الذهب لتهذيب أحداث العرب» المطبوع سنة ١٩١١ لسليم حسون[٧].

وكتاب «**أبهى القلائد في تلخيص أنفس الفوائد**» لأحمد فائز بن السيد محمود أفندي البرزنجي المطبوع سنة ١٨٩٧ وهو دراسة في العقائد الاسلامية وعلم الكلام وكتاب «**ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة والسريان**» للقس بطرس نصري الكلداني الذي طبع الجزء الأول منه سنة ١٩٠٥ والجزء الثاني بعد ذلك بثمان سنوات[٨].

وقد استمرت مطبعة الدومنيكان في النشر وبدون أنقطاع أربعاً وخمسين سنة حتى توقفت عن العمل اثر مصادرة السلطات العثمانية لمكائنها بدعوى تبعيتها لدولة أجنبية معادية[٩]. وقد نقلت مجموعة من أدواتها وآلاتها وحروفها الى مطبعة الولاية. وبعد الأحتلال البريطاني للموصل في تشرين الثاني ١٩١٨ عادت الى العمل لتواصل نشاطها، فطبعت الكثير من الكتب والكراريس والمنشورات الحكومية. ولعل من ابرز ماطبعته خلال هذه الفترة «**منهج التعليم الابتدائي**» سنة ١٩١٩ و «**نظام بلدية الموصل**» سنة ١٩٢٠ و «**ايضاحات في تدريس اللغة العربية في المدارس**» سنة ١٩٢١.[١٠]

قامت مطبعة الدومنيكان بدور مهم في نشر الثقافة العربية في الموصل. وعلى الرغم من الارتباطات الأوربية لمؤسسيها، فأنها كانت عاملاً من عوامل النهضة الفكرية في الموصل. هذا فضلاً عن أنها كانت بمثابة المعهد الذي تدرب فيه عدد من شباب الموصل، على فن التنضيد وسبك الحروف وطبعها.[١١]

وفي سنة ١٨٦٥ تأسست المطبعة الكلدانية لتسهم في نشر الوعي الثقافي وذلك بجهود روفائيل بطرس المازجي وبتشجيع بطريرك الكلدان يوسف أودو، وقد نصبت المطبعة في محلة حوش الخان مقابل كنيسة شمعون الصفا[١٢]. وقد زودت المطبعة التي جلبت من باريس بمسبك للحروف العربية والكلدانية والفرنسية. وقد عمل فيها عمال تدربوا في مطبعة الدومنيكان، ويعد كتاب «**مزامير داؤد النبي**» لعبد يشوع الخياط الذي نشر سنة ١٨٦٦ أول ماطبع فيها. وقد طبع بالكلدانية مع مقدمة باللغة العربية. كما نشرت في المطبعة عدد من الكتب المدرسية والتأريخية. وفي سنة ١٨٩٨ توقفت المطبعة عن العمل وبيعت بعض مكائنها لمطبعة الولاية في الموصل.[١٣]

لقد تأسست مطبعة الولاية في عهد متصرف الموصل تحسين باشا سنة ١٨٧٥. وكانت المطبعة يديرها مكتوبجي الولاية (مدير التحريرات) ونصبت مكائنها التي جلبت من العاصمة أستانبول في سراي الحكومة. وقد طبعت بمطبعة الولاية الدفاتر والأوراق الرسمية، والكتب السنوية (السالنامات). هذا فضلاً عن قيامها بطبع عدد من الكتب الثقافية وخاصة التأريخية. كما كانت تطبع مايقدمه اليها الأهالي من مطبوعات، وتولت كذلك طبع جريدة «**موصل**» التي أصدرتها الولاية في ٢٥ حزيران ١٨٨٥ ومن الذين تولوا أدارة المطبعة رؤوف أفندي الشربتي، وعلي بك كاتب مجلس الأدارة والمكتوبجي طاهر بك، وأحمد أفندي رئيس كتاب المحاسبة الخصوصية ورئيس بلدية الموصل للسنوات ١٨٨٧ - ١٨٩٢، حسن زيور العمري وفي سنة ١٨٩٣ الحقت بالمطبعة تسع مطابع، واحدة تدور بالبخار وأثنتان تدوران باليد، وأربع حجرية وآلة لعمل الأغلفة[١٤]. وأختصت أحدى هذه المطابع بالجيش وسميت مطبعة (الفيلق)، وكان من مهامها طبع ما يحتاج اليه الجيش من المنشورات والكتب الفنية العسكرية.[١٥]

وقد استمرت مطبعة الولاية بالعمل خلال



الحرب العالمية الأولى وخاصة بعد أن نقلت اليها بعض المكائن والحروف الطباعية المصادرة في مطبعة الدومنيكان. وبعد الأحتلال البريطاني.. تم تجديد بعض مكائنها وزودت بحروف حديثة واستمرت بالطباعة حتى بعد قيام الدولة العراقية سنة ١٩٢١ وصارت تعرف بـ (مطبعة الحكومة).[١٦]

لم تتحمل مطبعة الدومنيكان والمطبعة الكلدانية ومطبعة الولاية وحدها عبء النهضة الفكرية، بل شاركتها في ذلك مطبعة تعد أولى المطابع الأهلية في الموصل وهي مطبعة «نينوى» التي أسسها عيسى محفوظ بمشاركة فتح الله سرسم سنة ١٩١٠ وذلك في بناية تقع فوق الكرك القديم مقابل (قهوة) الثوب على شاطئ دجلة ورافق تأسيس هذه المطبعة، بداية انتشار الأفكار القومية العربية لذا كانت مساهمتها في النهضة الفكرية، ونشر الوعي القومي أكثر من غيرها. اذ لجأ اليها عدد من المثقفين، ومنهم من كان يعمل في الحركة القومية، لتسهم في طبع مؤلفاتهم وكان كتاب «الأناشيد الموصلية للمدارس العربية» الذي ألفه محمد سعيد الجليلي سنة ١٩١٤ من أكثر تلك الكتب أهمية وانتشاراً. ويضم الكتاب أناشيد عربية حماسية لها صبغة قومية تتغنى بمجد العرب التأريخي وتذكي روح الحماسة في أفئدة النشء العربي.[١٧]

أقدمت سلطات الولاية خلال الحرب العالمية الأولى على مصادرة مطبعة نينوى وأستخدامها في نشر جريدة «حقه طوغرو» أي دعوة الحق.. وهي جريدة مكرسة صفحاتها للدعاية للحكومة العثمانية وحلفائها.[١٨] كما طبعت في المطبعة أهم الرسائل الدعائية.. وهي «خطبة نادي الشرق» لمحمد حبيب العبيدي وهو أحد رجال الدين الموصليين الذين كرسوا جهودهم آنذاك لنصرة العثمانيين في حربهم ضد الدول الاستعمارية. ويتضمن الكتاب دعوة الى الجهاد والوقوف ضد أطماع الغرب الذي كان يشن على الدولة العثمانية، وخاصة في البلقان «حرباً دينية».[١٩]

وبعد الاحتلال البريطاني للموصل تأسست مطبعة دار السلام.. وتعد ثاني مطبعة أهلية.. وكان صاحبها اسطيفان فتح الله عزيزة.. قد أسسها سنة ١٩١٩ بمشاركة عبو الياس شعيا.. وكانت مطبعة يدوية استقرت في محلة شهر سوق.. ثم نقلت الى مقابل الكرك القديم واستمرت بالعمل حتى سنة ١٩٢٩ حين انفرد اسطيفان فتح الله عزيزة بها وسماها «المطبعة الشرقية الحديثة»[٢٠].

اصدار جريدة «موصل» ومجلة «أكليل الورود»:

شهد العراق في ١٥ حزيران ١٨٦٩ صدور أول جريدة في تأريخه بأسم «زوراء»[٢١]. وبعد (١٦) سنة صدر في الموصل في ٢٥ حزيران ١٨٨٥ العدد الأول من جريدة مماثلة لجريدة زوراء الرسمية.. بأسم جريدة «موصل». وكان صدورها بأربع صفحات بالحجم المتوسط مقاس (٤٣×٢٧ سم). وكانت كل صفحة تتألف من ثلاثة اعمدة، وكانت الصفحتان الأولى والثانية بالتركية، أما الثالثة والرابعة فكانت باللغة العربية. وقد شغلت أدارة الجريدة شقة خاصة في سراي الحكومة بمدينة الموصل. وجاء في ترويسة الجريدة: أنها «الجريدة الرسمية للولاية تنشر مرة كل أسبوع». واحتوت الصفحة الأولى من الأعلى معلومات تتعلق بالعدد وأدارة المطبعة وعبارة هي «بخصوص الاشتراك يراجع مباشرة تحريرات الولاية»، وتأريخ الصدور وأجرة النشر عن كل سطر يتكون من خمس كلمات قرش واحد. ولم يشاهد في الجريدة اي صور أو عمل فني زنكغرافي غير كلمة الـ «موصل» كتبت بخط النسخ.[٢٢]

تعد جريدة «موصل»، من الصحف الرسمية.. وكان يوم الخميس موعداً لصدورها.. وقد أستمرت على الصدور حتى سنة ١٩٣٤.

ويمكن تمييز أربع مراحل في تأريخها.. تبدأ المرحلة الأولى منذ صدورها في ٢٥ حزيران ١٨٨٥ وحتى أعادة العمل بالدستور العثماني في ٢٣ تموز ١٩٠٨. وتمتد المرحلة الثانية منذ ١٩٠٨ حتى قيام الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤. وبعد الأحتلال البريطاني في الموصل سنة ١٩١٨ أستمر صدور الجريدة حتى سنة ١٩٣٤.. وهذه هي المرحلة الثالثة في تأريخ الجريدة.. أما المرحلة الرابعة فتبدأ من سنة ١٩٤٧ حين أصدرها مرة أخرى بعد انقطاع طويل يونان عبو اليونان، وأستمرت في الصدور حتى ١٩٤٩. (٢٣)

لم تكن جريدة الموصل في مرحلتها الأولى سوى جريدة رسمية. لذلك تميزت مثل نظيرتها البغدادية «زوراء» بأنها صحيفة تعبر عن وجهة نظر الحكومة العثمانية.. فلم تكن تنشر إلا ما توافق عليه السلطات.. وكثيراً ما كانت تذكر محاولات المعارضة على أنها تمرد وعصيان على السلطان العثماني. وقد حرصت على ذكر أخبار السلطان وولاته بعبارات التفخم والتعظم.. أما آمال الشعب وطموحاته فليس لها نصيب من اهتمامها. (٢٤)

وكانت الجريدة تنقل أخبار أولئك الذين يتهمون بأنهم يحملون أفكاراً مضادة لسياسة الدولة. فقد نشرت على سبيل المثال في عددها الصادر في ٢٦ ربيع الآخر ١٣٢٣ هـ / ٧ حزيران ١٩٠٥ خبراً يتعلق بنفي عدد من الأشخاص الى بعض الولايات فقالت «غادر مدينتنا (الموصل) قبل بضعة أيام متوجهين الى بغداد كل من أصحاب الفضيلة الأفندية ثابت وشاكر آل الالوسي والحاج أحمد آل العسافي وذلك بعد صدور الأرادة السنية... بالمرحمة، وصرف النظر عن أبعادهم. وكانوا قد أرسلوا من ولاية بغداد متوجهين الى أماكن نفيهم من ديار بكر وسيواس وخربوط» (٢٥). كما أشارت في عددها الصادر في ٢٦ ذي الحجة ١٣٢٢ هـ / شباط ١٩٠٥ الى أعتقال عاصي بن فرحان باشا وأبنه الهادي من رؤساء عشيرة شمر الجربا في الموصل بتهمة يرجح أنها تتعلق بممارستهم نشاطاً معادياً للسلطة. (٢٦)

لكن هذا لايعني أن الجريدة أهملت نشر أخبار الولاية. وذلك أنها خصصت باباً بعنوان «أحداث الولاية» تناولت فيه أخبار ولاية الموصل السياسية والأقتصادية والعسكرية (٢٧) كما نشرت على صفحاتها كل مامن شأنه تشجيع الناس علىٰ الزراعة ومن ذلك نشرها طلب مديرية الديوان العمومية في ولاية الموصل سنة ١٩٠٥ الى السلطات المحلية بوجوب حث السكان على زراعة أشجار التوت وتشجيعهم على تربية دودة القز عليها لما لذلك من أهمية اقتصادية (٢٨). ولم تهمل الجريدة الأخبار الخارجية. كما اعتادت على نشر بعض مضامين خطب الجمعة التي تلقى في جوامع الموصل وخاصة تلك التي تنطوي على الدعم والتأييد والدعاء بالخير للسلطان.. ففي عددها الصادر في ٢٧ آب سنة ١٩٠٥ نشرت، على سبيل المثال، الدعاء الذي ألقاه السيد محمد الشعار من علماء الموصل المشهورين في جامع نبي الله يونس لمناسبة نجاة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) (٢٩). من حادث الاغتيال الذي تعرض اليه في ٢٤ آب ١٩٠٥.

هذا وقد نقلت الجريدة على صفحاتها مايتعلق بحياة الناس اليومية، وما يطرأ عليها. فهاهي ذي تنشر خبر انخفاض درجة الحرارة، وتجمد مياه دجلة بصورة لم يسبق لها مثيل في تأريخ مدينة الموصل مما تسبب في الحاق الضرر بالأهالي نتيجة لاشتداد البرد وقلة وسائل التدفئة لديهم. (٣٠)

ونشرت الجريدة كذلك أخباراً تتعلق بالشؤون العامة للولاية.. ففي عددها الصادر في ١٨ ذي القعدة ١٣٢٣ هـ /١٨ كانون الثاني سنة ١٩٠٦ نشرت خبراً يتضمن وصول وفد من أستانبول يتألف



من عدد من المسؤولين العثمانيين وذلك لبحث مشكلة الحدود العثمانية – الأيرانية [٣١] وفي عددها الصادر في ٢٣ شباط ١٩٠٦ نشرت خبراً يتعلق بتبرع والي الموصل مصطفى يمني بك براتبه لصالح إنجاز مشروع سكة حديد الحجاز. [٣٢]

تميزت جريدة «موصل» عن جريدة «زوراء» في أن اسلوبها أدبي جزل واضح ليس فيه شيء من آثار العجمة والغموض والركاكة التي حفلت بها صفحات جريدة الزوراء. ولم يخل هذا الأسلوب مما كان يخضع له النثر في تلك الفترة من محسنات بديعية كالسجع والطباق والجناس. ويقارن المرحوم الدكتور عباس الزبيدي [٣٣] بين جريدتي الموصل والزوراء من حيث الأسلوب واللغة فيقول أن هناك بوناً شاسعاً بينها من هذه الناحية، فقد أستمرت جريدة الزوراء تصدر حتى آخر عدد منها بأسلوب تغلب عليه الركاكة على حين بدأت جريدة الموصل منذ أعدادها الأُول متينة الأسلوب نسبياً. ويمكن أن نعزو ذلك الى أن معظم المشرفين عليها كانوا من الأدباء والكتاب الموصليين العرب، وليسوا من الأتراك.

على الرغم من قول روفائيل بطي [٣٤] أن جريدة الموصل لم يكن لها أثر يذكر على الحياة الفكرية في المدينة وذلك لانتشار الجهل بين الناس في الموصل وقلة من يعرف القراءة والكتابة بينهم، يمكن القول بأن جريدة الموصل أدت دورها في توعية الاهالي صحياً واجتماعياً، وذلك بما كانت تنشره من المقالات الصحية والأجتماعية وماتنقله من توجيهات الدوائر المحلية للاهالي حول قضايا الزراعة والحفاظ على الصحة العامة وغير ذلك ويتوضح دورها على نحو أكبر في العهد الدستوري العثماني كما سنرى.

كما صدرت في الأول من كانون الأول ١٩٠٢ مجلة في الموصل بإسم «اكليل الورود». وتعد اكليل الورد اول مجلة تصدر في العراق. اذ صدرت بعدها بثلاث سنوات مجلة «زهيرة بغداد» [٣٥]. وكان صدور عددها الأول في ٢٥ آذار سنة ١٩٠٥. وقد اتسمت المجلة بصبغة دينية تبشيرية.. اذ أن الآباء الدومنيكان هم الذين اصدروها. وقد جاء في ترويستها انها «مجلة دينية ادبية علمية شهرية، اصحاب الامتياز الآباء الدومنيكان» [٣٦].


السنة الاولى ١ كانون الاول سنة ١٩٠٢

اكليل الورود

نعلن اننا معلقون
احسن آمالنا
بالوردة المقدسة

لاون الثالث عشر ١٨٩٤

• مجلة اكليل الورود أول مجلة تصدر في العراق كانون الاول ١٩٠٢ – كانون الاول ١٩٠٩م

وقد بلغ عدد صفحاتها عند بداية صدورها (٢٠) صفحة، ولكنه كان يتغير في بعض الأحيان اذ يزداد ليتراوح بين (٢٤ – ٢٨) صفحة، علماً بأن الواجهتين الداخليتين للغلاف كانتا تستعملان لكتابة المقالات كذلك. وفي بعض الأحيان تستعمل الواجهة الأخيرة من الغلاف في تكملة [٣٧] المقال. أما بالنسبة لمقاس المجلة فهو (١٨ ×

١١,٥ سم).

صدرت مجلة اكليل الورود بثلاث لغات، هي العربية وصدر منها (٦٥٠) عدداً، والفرنسية وصدر منها (٤٠٠) عدد والكلدانية وصدر منها (٣٠٠) عدد. وفي جميع هذه اللغات كانت الموضوعات متشابهة تقريباً حيث كانت تترجم من لغة الى اخرى فقط[٣٨].

اشتغل في تحرير المجلة عدد من المحررين، منهم الأب عبدالأحد جرجي السرياني البغدادي، والأب هياسنت وهو فرنسي الأصل، والقس باسيل بشوري البغدادي والأديب فرج الله كسبو. وتتسم كتابات هؤلاء جميعاً بالطابع الديني الكنسي[٣٩] لكن هذا لم يكن يعني خلو المجلة من مقالات ذات طابع صحي وسياسي واجتماعي وثقافي.. فالمجلة مثلاً اهتمت بتزويد القارئ بالمعلومات العامة المفيدة، فقد كتبت عن «السكر» و «التبغ» و «القهوة» وما شاكل ذلك[٤٠] وهكذا مارست المجلة وظيفتها الصحفية في العناية بمواد التهذيب والتوجيه والارشاد والتثقيف وبوسائل متعددة منها نشر القصص القصيرة ذات الطابع الانساني، أو نشر الاقوال الحكيمة. وخصصت المجلة بعض صفحاتها لعرض ونقد الكتب الجديدة[٤١].

كما عنيت المجلة بتزويد القارئ بأخبار العلم واكتشافاته الحديثة. وكان للمجلة ابواب ثابتة اهمها باب بعنوان «نصائح صحية» اوردت فيه مقالات تعالج بعض المسائل الصحية، وتدعو الى وجوب الالتزام بالقواعد الصحية.. ومن ذلك مقالات عن «الهواء»، «في الرياضة البدنية»، «الاستحمام بالماء البارد»، «الأشربة الكحولية»، «مضار البرد والرطوبة». كما أفردت باباً بعنوان: «أخبار حالية» تذكر فيه بعض الأخبار السياسية والاقتصادية والعمرانية. وفي بعض فهارس المجلة تشير الى العناوين التالية: (الطواف حول الأرض)، (معاشات بعض رؤساء الحكومات)، (مدفع فرنسي جديد)، (أول سلك تلغرافي بحري)، (أكبر ساعة في العالم)، (حريقان هائلان في باريس)، (الوفد العثماني في الفاتيكان)، (احوال الزلازل في جنوبي ايطاليا)[٤٢].

واهتمت المجلة بالموضوعات الاجتماعية، ومنها تلك التي تؤكد قيمة العمل واهميته وضرورته ومن ذلك مانشرته تحت عنوان «لاتستح من صناعتك وان بانت حقيرة» قالت فيه: «الشرف معلق بأهداب الشغل المحلل ومن احتسب الشغل عاراً او نظر اليه بعين الاحتقار فقد تعدى وظلم... انما العار وكل العار على من كان عبد البطالة المهلكة أو من طلب الربح في طرق «محظورة» يترفع عن قصدها ذو الذمة الصادقة والشرف الحقيقي... فأنت شريف في شغلك يامحب الشغل اياً كانت صناعتك... فلا تستح منها بل فليستح من ليس له شغل حلال...»[٤٣].

وعنيت المجلة بنشر احصائيات عن انتاج النفط وأهميته. ففي عددها الصادر في كانون الأول ١٩٠٧ قال بعنوان: «البترول: كم طناً من البترول كان يستخرج كل سنة منذ نصف قرن؟». «في سنة ١٨٥٧ بلغت الكمية المستخرجة (٢٥٧) طناً. وبعد ذلك بعشر سنوات اي في ١٨٦٧ بلغ البترول المستخرج في العالم (٤٣٥٦٧٦) طناً... وفي سنة ١٨٧٧ استخرج مقدار (١٧٨٨١١٩) طناً وفي ١٩٠٦ استخرج (٢٨٠٧٦٢٩٧) طناً، ولولا حوادث روسيا (ثورة ١٩٠٥)... لبلغ مجموع البترول المستخرج من الأرض مايربو على ٣٠ ألف الف طن»[٤٤].

وتابعت المجلة اخبار الصحافة العالمية وذكرت احصائيات مفيدة وفريدة عن صحافة فرنسا وقالت في مقال بعنوان «الصحف السيارة في فرنسا»: «في منتصف القرن التاسع عشر لم تكن باريس تنشر من الجرائد اليومية إلا (٢٦) نشرة لها... وفي

سنة ١٩٠٠ صار لباريس (٢٧٠٩) جريدة و (١٨٥) مجلة ...» وقد علقت على هذه الصحف والمجلات بقولها: «لكن الكثير منها لايفيد التقوى وتحسين الأخلاق»[٤٥].

وفي عددها الصادر في آب ١٩٠٥ اشارت الى انه يوجد في الولايات المتحدة الاميريكية لكل (٣٤٠٠) من اهاليها جريدة. وفي المانيا يوجد لكل (٧٥٠٠) من أهاليها جريدة»[٤٦].

ان مجلة اكليل الورود، وان «كانت غايتها الاولى تهذيب الاخلاق بالطرق الدينية، فقد نشر اصحابها، كما يقول رزوق عيسى[٤٧] وهو احد مؤرخي الصحافة العراقية، طائفة صالحة من المقالات الأدبية والاجتماعية. واثبتوا على اعمدتها اخباراً متنوعة». كما عنيت المجلة بنشر اخبار المجتمع الموصلي. وقد استمرت تصدر بإنتظام نحو سبعة اعوام حتى بعد اعلان العودة الى الدستور في ٢٣ تموز ١٩٠٨. وكثرة الصحف والمجلات في العراق.. عند ذلك توقفت عن الصدور من تلقاء نفسها لتفسح مجال الخدمة الى غيرها من الصحف والمجلات. وقد صدر آخر عدد منها في كانون الأول سنة ١٩٠٩.

الدستور والصحافة الموصلية:

دخلت الصحافة الموصلية، شأنها شأن الصحافة في مختلف انحاء الدولة العثمانية دوراً مهماً بإعلان عودة العمل بدستور ١٨٧٦ وذلك اثر الانقلاب العثماني الذي حدث في ٢٣ تموز ١٩٠٨. وهكذا شهدت الدولة العثمانية نهضة صحافية حقيقية[٤٨].. فقد صدرت بين سنتي ١٩١٠ و ١٩١١ على سبيل المثال (٣٦) جريدة عربية وذلك مايعادل ٦٠٪ من (٦١) جريدة كانت قد صدرت في الفترة الواقعة بين ١٩٠٤ – ١٩١٤. وقد بلغ مجموع الصحف التي اجيزت في العراق بعد اعلان الدستور خمساً وعشرين صحيفة ومجلة منها (١٩) جريدة ومجلة في بغداد وحدها[٤٩] أما في الموصل فقد صدرت جرائد النجاح ونينوى وجكة باز.. فضلاً عن استمرار جريدة الموصل ومجلة اكليل الورود في الصدور.

فبالنسبة لجريدة الموصل فقد طفقت تنشر أخبار السلطة الجديدة. كما اوقفت صفحاتها لنشر اهداف جمعية الاتحاد والترقي ورجالاتها الذين قاموا بالانقلاب الدستوري في ٢٣ تموز ١٩٠٨ وأصبحت اللسان الناطق بإسمهم، الى ان أحتجبت في أواخر تشرين الأول ١٩١٨[٥٠].

أما مجلة اكليل الورود فقد تابعت كذلك اخبار الاحداث الجديدة في العاصمة استانبول. ففي عددها الصادر في ايلول ١٩٠٩ نشرت المجلة خبراً يتعلق بزيارة وفد المبعوثين العثمانيين الى باريس ولندن.. وركزت على قول نعوم باشا سفير الدولة العثمانية في باريس لمجموعة من النواب الفرنسيين.. بأن شعار الثورة العثمانية كان الحرية والمساواة والاخاء.. وهي نفس شعارات الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩[٥١].

كما كتبت عن مقابلة بطريرك السريان أغناطيوس أفرام رحماني للسلطان الجديد محمد الخامس وقالت بأن البطريرك «فاه بخطاب عربي بليغ أفصح فيه عن تهانيه وأمانيه وشواعر تعلقه المتين وعن أخلاص طائفته لعرش جلالته. ولما كان جلالة السلطان يفهم اللغة العربية حق الفهم، (فقد) أعجب ببلاغة الخطاب وكرر الشكر بعظمته مراراً...». وفي عدد تشرين الأول ١٩٠٩ نشرت اكليل الورود نص خطاب البطريرك. ومما جاء فيه: «ماطارت الى بلاد سورية وما بين النهرين وكردستان، البشرى المأثورة باستئصال دابر الاستبداد... الا وطربت لها فرحاً وحبوراً...» وقد عكس الخطاب تحمس الموصليين للحريات التي أطلقها الدستور العثماني وخاصة في مجال «تعميم العدالة والأمن والمساواة بغض النظر عن



المذهب والدين». [٥٢]

لقد كان لأعلان الدستور أثر كبير في ايقاظ المثقفين الموصليين، ورغبتهم في التخلص من شتى صنوف الظلم والاستبداد والكبت، ورغبتهم في الافصاح عن آمالهم وأمانيهم. وكان لشعارات الحرية والعدالة والمساواة التي رفعها الأنقلابيون صداها السريع في الموصل.. وقد أتضح ذلك من خلال الصحف التي صدرت. ومن هذه الصحف: نينوى والنجاح وجكه باز.

صدرت جريدة نينوى في ١٥ تموز ١٩٠٩. وكان صاحب أمتيازها فتح الله سرسم ومديرها المسؤول محمد أمين الفخري ثم أصبح بعد ذلك محمد شكري أفندي. وتعد أول جريدة أهلية في الموصل[٥٣]. وكانت تصدر مرتين في الاسبوع، وأخذت منذ صدور عددها الأول تعبر عن أهداف جمعية الأتحاد والترقي «حتى حسب بعض مؤرخي الصحافة أنها «لسان حال الجمعية في الموصل»[٥٤] والصحيح أن فرع الجمعية في الموصل إستعان بها بهدف نشر أهدافها السياسية. وقد تألفت الجريدة من أربع صفحات.. صفحتان باللغة العربية وصفحتان باللغة التركية.. وكان لها محرران احدهما للقسم العربي وهو محمد فخري والثاني للقسم التركي وهو علي حكمت[٥٥].

تضمن المقال الأفتتاحي للعدد الأول من الجريدة سياستها وأتجاهاتها.. ومما جاء فيه: «... أحكمت في كثير من الأماكن أحكام الدستور فأنقذت لذلك البلاد من مساوئ الأستبداد وأرتاحت من العناء سوى الموصل الحدباء فأنها قد أحدبت عليها المهالك من جميع المسالك، وعمت المحن جميع أهل الوطن، ولم تجد من يروح نفوسها، ويزيل بؤسها. ولذلك نراها كاسدة البضائع خامدة الصنائع، لم ترق أسبابها، ولم يتم أكتسابها ولم تنشط المعارف، ولم تهتد أن تلتقط في رياض الأداب أزهار اللطائف فتحركت لذلك دواعي الحمية من رجال الجمعية وأرادوا نشر جريدة في بابها فريدة، خادمة للوطن، دافعة للمحن، ترجمان الملة باحثة عن المعلول والعلة، منبهة لذوي الأسباب على أكتساب الأداب، محرضة للعموم على تحصيل العلوم، داعية في كل ناد على الأئتلاف والأتحاد...». [٥٦]

وعلى الرغم من سيطرة الاتحاديين على الجريدة وتوجيهها لخدمة السلطة الجديدة فقد أتخذ بعض المثقفين الموصليين في صفحاتها وسيلة لنشر مايعبر عن طموحاتهم وأمانيهم. ومن ذلك أنها أسهمت في معالجة قضية حيوية شغلت أذهان الناس في تلك المرحلة، ألا وهي جعل اللغة العربية لغة التدريس في المدارس[٥٧]. كما اثار بعض الكتاب على صفحاتها كثيراً من القضايا السياسية والأجتماعية. ولم تسكت عن بعض السلبيات التي كانت تحدث في دوائر الدولة آنذاك. وقد بينت من خلال بعض مقالاتها للرأي العام الموصلي مواضع النقص وأرشدته الى طريق النهضة والأصلاح. ومن أبرز الكتاب الذين ساهموا في تحريرها أحمد الفخري وداؤد الملاح آل زيادة وحبيب العبيدي وأحمد سعد الدين زيادة وفتح الله سرسم. [٥٨]

بحثت جريدة نينوى في الأمور السياسية والأقتصادية والثقافية والادبية وغيرها. وكان لها دورها البارز في ترسيخ النزوع الوطني، والفكرة القومية والمطالبة بالأصلاح السياسي والأجتماعي ونشر المفاهيم السياسية الحديثة[٥٩] وضمن هذا التوجه عالجت الجريدة في مقال أفتتاحي بعنوان «المدينة والحكومة الدستورية» مسألة دور المثقف في تنوير الأذهان[٦٠]. ولم تغفل الأهتمام بالأحوال الصحية، ومن ذلك دعوتها الدولة الى رعاية «صحة ومنافع التبعة العمومية، ولاجل تكثير النفوس... ومحافظة الصحة والمقصد العالي لمعافاتهم من الأمراض السارية»[٦١].

وتابعت الجريدة أخبار تمردات العشائر وجهود



الحكومة في مجال المحافظة على الأمن العام والأستقرار. وأنتقدت بشدة ظاهرة أنتشار أستقدام الفرق الفنية ، وأستلفتت أنظار الحكومة والآباء لمنع أبنائهم من أرتياد الأماكن التي تعمل فيها هذه الفرق «الراقصة» ، والسعي لتربيتهم وتعليمهم الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن.[٦٢]

كما أنبرت الجريدة ، لمعالجة ظاهرة (الخمر) وحذرت من مخاطره الصحية والأجتماعية : «... فضاره لم تخف على أحد... فهذا الداء الذي يميت الضمائر الحية ، ويضعف القوى الأدبية... ويسلط عليها الشهوات الجسدية ، ويميل لها الى أيثار الملذات ومخالطة السفهاء والتلفظ بالفحشاء...».[٦٣]

وأكدت الجريدة في كثير من مقالاتها أهمية الوحدة العثمانية.. والوقوف ضد أية محاولات لتمزيق الدولة.. ففي أحد أعدادها ، كتب أحمد سعدالدين زيادة مقالة بعنوان «الأتحاد والأخاء» جاء فيه : «أن سعادتنا نحن أبناء الوطن إنما هي الوحدة العثمانية التي تتوقف عليها الجامعة الوطنية»[٦٤] وكرست الجريدة صفحاتها لنشر البيانات الصادرة من المركز العام لجمعية الأتحاد والترقي العثماني. وكانت الجريدة ترد على ماتنشره الصحف الأخرى في هذا المجال ، فعلى سبيل المثال نشرت في عددها الصادر في ١٩ رجب ١٣٢٧ (١٩٠٩) مقالاً ردت فيه على جريدة «نهضة العرب» وذلك لنشرها أخباراً مفادها «ايثار الأتراك على العرب» وقالت أن زعماء الأتحاد «أنهضتهم الحمية الدينية ، والخدمة الوطنية لكشف الغمة عن سائر الأمة».[٦٥]

وهاجمت جريدة نينوى جريدة النجاح الناطقة بلسان جمعية الحرية والأئتلاف وأتهمتها بأنها حادت عن خطتها الأصلية التي أعلنتها منذ عددها الأول.. وهي أنها تدور مع الحق.. وقالت : أنها «في عددها الأخير قد عدلت عن ذلك ، ولاحظت بعض الأفكار أن الدعوى التي أدعتها في الأمان والأطمئنان لاتوافق دور الحكومة الدستورية ، بل توافق دور الحكومة المطلقة الحميدية لأن النهب والنصب سواء قل أو كثر لايلائم أعلان الدستور»[٦٦] .

وفي عددها الصادر في ١٤ تموز ١٣٢٧ (١٩٠٩) نشرت مقالاً تهجمت فيه على المعارضة المتمثلة بالحزب الحر المعتدل. وعندما أبتدأت أنتخابات مجلس المبعوثان في أواخر كانون الثاني ١٩١٢ ، شاركت جريدة نينوى في الصراع الحزبي بين جمعية الأتحاد والترقي وجمعية الحرية والأئتلاف ودعت أهالي الموصل الى أعطاء أصواتهم «لمرشحي جمعية الأتحاد والترقي التي خلصت الوطن العثماني من مخالب الأنقراض وجاهدت حق الجهاد بعزم قاطع وقاموس ساطع». وحددت الجريدة في مقالها الصادر في ١٠ شباط ١٩١٢ صفات المبعوث الجيد.. ومن ذلك قولها : «... المبعوث من أي ملة كان وعلى أي مذهب كان ، لينظر الى اثاره الخيرية ومنافعه العمومية... لسكان مملكته خاصة وللأمم العثمانية عامة. ولينظر ثانية الى غيرته ونخوته وحميته على أهل وطنه وسكان بلدته... (وأن يكون) محافظاً على حقوق الجامعة الملية ،.. والحقوق الوطنية».[٦٧]

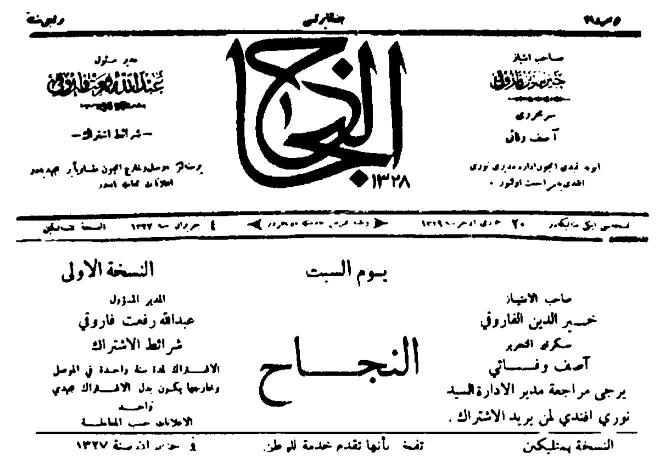
حقاً ، كانت جريدة نينوى ، مرآة صادقة أنعكست في صفحاتها أوضاع الموصل السياسية والاقتصادية والأجتماعية والثقافية.. كما كان لها دورها البارز في شحذ الأذهان وترسيخ مفاهيم الحرية والعدالة والمساواة.. ولم تمنع سيطرة الأتحاديين عليها ، من أن يتخذها بعض مثقفي الموصل انذاك وسيلة لنشر مقالات أنتقادية توضح تراخي السلطات الحكومية وتوانيها عن أتخاذ الأجراءات المناسبة لتحقيق التقدم ومقارعة الأستبداد والظلم.. ففي عددها الصادر في ٢ كانون الأول ١٩٠٩ نشرت مقالاً لداوُد الملاح آل زيادة



بعنوان «فتور الهمة من الحكومة والأمة». خاطب فيه الحكومة بقوله: «أيها الحكومة الدستورية قد كنا صامتين في دور الأستبداد... أما اليوم فالأمة حرة لاتغض جفنها على الضيم ولاترضى لنفسها الأهمال عن حقوقها... ويراع قلمها يرشح مداداً فاغراً فاه نذيراً لمن لم يراع جانب الأمة لينفث سم مداده... فاذا كان الحال على مانراه والأمة تتأفف من هذا الدور وتخش عقباه فأي دور ننتظر وبأي حكومة ننتصر وعلى من نعتمد وممن نستمد. أجل لايقال أن... بواعث الترقي وما يلزم بعمران الممالك هو منوط بالحكومة فقط بل بأشتراك الأمة معها...». ثم وجه اللوم الى الأهالي وأتهمهم بالركون الى «الخمول والتواني» ودعاهم الى العمل الجاد وفهم الحقوق والواجبات حق فهمها والأتصال بالنواب ومعرفة مايجرى «فهلا كان من الواجب عليكم بالأقل أن تكاتبوهم بما فيه صلاحكم وصلاح أوطانكم».(٦٨)

صاحب أمتيازها أحمد مدحت، وبعد صدور خمسة أعداد منها أصبح صاحب الأمتياز خيرالدين الفاروقي العمري والمدير المسؤول عبدالله رفعت العمري. وكانت جريدة أسبوعية تصدر باللغتين العربية والتركية(٦٩) وفي عددها الأول وضحت سياستها وأسباب صدورها وقالت «أن السبب الداعي لأصدار هذه الجريدة خدمة الوطن... ونشر الحقائق... وأعلاء شأن الدستور...»(٧٠) لذلك تعد من أبرز الصحف التي أسهمت في خلق طبقة مثقفة في الموصل وتكوين وعي دستوري بين قرائها.(٧١)

كان آصف وفائي محرر القسم التركي. أما عبد المجيد متولي فكان محرر القسم العربي. وكانت الجريدة تصدر يوم السبت من كل أسبوع، وبمقياس (٤٠×٢٨ سم) وبأربع صفحات وكل صفحة تحتوي (٤) أعمدة كتب في ترويستها عبارة «تفخر بأنها تقدم خدمة للوطن».(٧٢) ويروي


النجاح

يوم السبت — النسخة الاولى

صاحب الامتياز خير الدين الفاروقي
سكرتير التحرير آصف وفائي
يرجى مراجعة مدير الادارة السيد نوري افندي لمن يريد الاشتراك.

المدير المسؤول عبدالله رفعت فاروقي
شرائط الاشتراك

تفخر بأنها تقدم خدمة للوطن

• جريدة النجاح صدر عددها الاول في الموصل بتاريخ ١٢ تشرين الثاني ١٩١٠م.

أما جريدة النجاح، فقد صدرت بتأريخ ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٠. وقد عرفت الجريدة بأتجاهها للدعوة الى اللامركزية وتأييد الحزب الحر المعتدل، ثم جمعية الحرية والائتلاف. وكان

خيرالدين العمري، قصة صدور الأعداد الأولى من الجريدة، وفزع بعض العاملين من نهجها فيقول: «راجت الجريدة لمهاجمتها الحكومة وجرأتها في الكلام. فبعد صدور العدد الأول



أنسحب نصف المحررين. وفي العدد الثاني لم يبق إلا أسمي وأسم صديق الدملوجي. ولما حضر العدد الرابع وأعد للطبع أنسحب المدير المسؤول وصاحب الأمتياز وبقيت الجريدة بدون صاحب، فوقعنا على النسخة أنا وآصف أفندي وصديق الدملوجي ومحرر (القسم) العربي الشاعر مجيد متولي» (٧٣).

حرصت جريدة النجاح على اللغة العربية وآدابها.. فدعت الى أحيائها ولم تنفك عن دعوة الشبيبة العربية الموصلية الى الأهتمام بلغتها. فعلى سبيل المثال نشر خيرالدين العمري سلسلة مقالات بتوقيع (عربي) حث فيها على ضرورة دراسة اللغة العربية، ووجهت الأنظار الى التأريخ العربي، ودعت الشباب الى قراءته والنظر فيه نظرة تدقيق وأمعان.. وأخذت تشير أشارات صريحة الى ماشهدته مصر وسوريا من نهضة فكرية ودعت الى الأقتداء بها(٧٤).

كما حاولت الجريدة أن تلفت أنظار السلطات الأتحادية الى أهمية التربية والتعليم.. ووجهت نقداً قاسياً الى حملة الأقلام من الموصليين الذين يكتبون مقالاتهم باللغة التركية على صفحات الجرائد.. وحملت الحكومة مسؤولية عدم الأهتمام باللغة العربية (٧٥).

وأخذت الجريدة على عاتقها، منذ صدور أعدادها الأولى مناقشة موضوع «الخوة» التي تأخذها عشيرة شمر من العشائر الأخرى.. ومن تجار الأغنام فطالبت الحكومة بوضع حد لهذه الأعمال(٧٦) ونقلت الجريدة على صفحاتها مايتعلق بحياة الناس اليومية ومشكلاتهم ومطالبهم ودعت الى حل مشكلة «النزاع حول الأراضي». ونشرت مقالاً بعنوان «مزايا الصناعة» دعت فيه الى تأسيس مدرسة للصنائع(٧٧) وأكدت الجريدة أهمية مواكبة العصر وشجعت الأهالي على الحاق أبنائهم بالمدارس فالعصر «عصر العلم، عصر النور والكهرباء، عصر تنقرض فيه الأمة العاطلة وتحيي فيه الأمة العاملة». وذكرت الجريدة بمكانة الموصل التأريخية وماضيها العلمي «فالأقدام الأقدام يابني الحدباء لارتشاف رحيق العلم وأجتناء أثمار المعارف فلا أمة إلا برجالها ولارجال الا بالعلوم ولاعلوم إلا (بالمدارس)» (٧٨).

ونشرت الجريدة مقالات عن أهمية الزراعة وسيلة من وسائل تقدم الدولة وتطورها. وأكدت على ضرورة الأهتمام بالأرض. ودافعت الجريدة عن حقوق الفلاح وطالبت برفع الظلم عنه. (٧٩)

وأهتمت جريدة النجاح بالقضايا الأجتماعية ومنها قضية المرأة ودورها في تنشئة الجيل. ففي عددها الصادر في ١٠ جمادي الأولى ١٣٣٠هـ (٢٧ نيسان ١٩١٢) قالت: «أن مصدر مجد البيت هو الأم وأخلاقها إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً. اذ هي المؤثر الكبير على الزوج والأبن والبنت، فأن كانت من ذوات العقل النيّر والهمة الناهضة والأخلاق الحسنة، اشعلت فؤاد زوجها سراجاً منيراً لايطفأ مدى الأزمان... وجاءت ببنين وبنات ترضعهم حليباً صافياً ممزوجاً بذكاء ونجابة وحمية وشهامة وعقل ورزانة وتعودهم على العفة ومكارم الاخلاق»(٨٠)

ولما كانت جريدة النجاح تعبر عن وجهة نظر المعارضة المتمثلة آنذاك بجمعية الحرية والائتلاف.. فقد أهتمت بنشر منهاج هذه الجمعية وقراراتها وتعليماتها ودخلت في صراع صحفي مع جريدة نينوى مما أدى الى ظهور تيارين سياسيين في الموصل، أحدهما مؤيد لسياسة الأتحاديين والآخر معارض لهم(٨١) وحين بدأت أنتخابات مجلس المبعوثان.. حرصت الجريدة على نشر المقالات العديدة حول ضرورة قيام أنتخابات حرة، وضمان الحرية للمنتخبين ودعت الأهالي الى ضرورة أنتخاب الشخص الذي ينفع البلد ويعمل على رقيه وتقدمه. كما طالبت في أحد أعدادها بضرورة زيادة عدد النواب الممثلين لولاية الموصل على نحو ينسجم

مع عدد نفوس الولاية . ونبهت الى أهمية « التوقي في الأنتخاب » ووجهت الأنظار الى أنتخاب الرجال القادرين على النهوض بالمسؤولية وخدمة البلد والأمة .(٨٢)

وكانت جريدة النجاح ، بحق اداة مهمة في هذه الفترة للتعبير عن الشعور القومي العربي لدى الموصليين. فعندما وقع الاعتداء الايطالي على طرابلس الغرب في ليبيا سنة ١٩١١ كتبت مقالات دعت فيها ابناء الموصل الى الجهاد واعانة أخوانهم العرب . كما نشرت القصائد التي تعبر عن النزعة القومية وتحذر من مخططات الدول الأوربية في ابتلاع الاقطار العربية(٨٣) . وقالت في عددها الصادر في ٢٨ شوال ١٣٢٩ (١٩١١) : « أن أوربا متفقة على أقتسام بلادكم ومحو حياتكم من عالم الوجود . . فالآن أوان الأنفاق والأجتماع »(٨٤)

اللتين صدرتا بعد أعلان الدستور كانت هناك جريدة هزلية سياسية (تركية – عربية) بأسم جكه باز (أي المهذار) ظهر عددها الأول في ٢٧ حزيران ١٩١١ . وكانت جريدة أسبوعية صاحب أمتيازها ومديرها المسؤول عبد المجيد خيالي(٨٦) وقد جاء في ترويستها أنها « جريدة سياسية ، علمية ، فنية ، أدبية ، فكاهية » . صدرت بمقاس (٤١×٢٨ سم) وبأربع صفحات ، وباللغتين العربية والتركية وأحتوت الصفحة الواحدة على ثلاث أعمدة طولية(٨٧) . وحينما أصدر كاتب هذه السطور كتاب « نشأة الصحافة العربية في الموصل سنة ١٩٨٢ ذكر أنه لم يعثر على نسخة من الجريدة . . إلا أن السيد وائل النحاس أستطاع حين الأعداد لرسالته للماجستير عن « تأريخ الصحافة الموصلية ١٩٢٦ – ١٩٥٨ » وبأشراف كاتب هذه السطور . .



• جريدة جكه باز (المهذار) صدر عددها الاول في ٢٧ حزيران ١٩١١ م.

حقاً كانت جريدة النجاح أداة مهمة من أدوات التعبير عن الرأي العام للمجتمع الموصلي ، ووسيلة من وسائل التثقيف والتوجيه والأرشاد . ومما ساعدها على ذلك اسلوبها الصحفي الواضح وطريقة أظهار الحقائق ومخاطبة القارئ مباشرة . . بما ينعكس على توسيع مداركه المعرفية والعقلية وبما يجعله يلم بما يدور حوله من أحداث وتطورات .(٨٥)

والى جانب هاتين الصحيفتين السياسيتين

من العثور على العدد (١٣) منها والصادر في ٢٥ رمضان ١٣٢٩ هـ (٦ أيلول ١٩١١) . وقد أتضح له أن الجريدة سياسية علمية ، فنية ، ادبية ، هزلية أكثر منها هزلية . . ووجد بأن الجريدة تضم عدة أبواب منها باب « حوادث » وباب « مقتطفات » وباب « أنتقاد » .(٨٨)

وفي القسم التركي ، من الجريدة ثمة أخبار عن الحدود ، والأكراد ، وتجريد حملة ضد عشيرة



شمر. أما القسم العربي، فهناك مقال عن مرض التيفوئيد في الموصل بقلم كاتب أسمه (فرج الله). وتحت عنوان مقتطفات نشرت الجريدة أخباراً عن اليمن.. والأناضول وقالت بأن جمعية لتعميم اللغة العربية تشكلت في مصر وتطرقت الى أخبار حريق هائل أندلع في أستانبول كما نقلت الجريدة أنباء عن نشاط جمعية الأتحاد والترقي.. ومهما يكن من أمر فأن جريدة (جكه باز) أهتمت كزميلتيها نينوى والنجاح بدرج الأخبار السياسية والثقافية، لكنها عالجت هذه الأخبار بنوع من الأنتقاد والسخرية.. الأمر الذي يضفي عليها طابع الصحف السياسية الهزلية (٨٩).

الصحافة الموصلية خلال الحرب العالمية الأولى:

صدرت خلال الحرب العالمية الأولى جريدة يومية سياسية تساند الحكومة العثمانية بأسم «حق طوغرو» (٩٠) أي «دعوة الحق» لصاحبها محمد رشيد الصفار وذلك في ٧ نيسان سنة ١٩١٥.

ويقول روفائيل بطي أن الصفار هذا كان يصدر ببغداد جريدة «الزهور» إلا أنه بعد أحتلال الأنكليز لبغداد، التحق بالعثمانيين وأستأنف عمله الصحفي في الموصل.. وكانت جريدته موالية للعثمانيين.. وقد طبعت بمطبعة نينوى وأخذت تنشر أخبار معارك الحرب العالمية الأولى بأربع لغات هي العربية والتركية والفارسية والكردية.. وكانت أقرب الى النشرة الدعائية الحربية منها الى الجريدة السياسية.. (٩١)

كما صدر في الموصل نوع آخر من الصحف بأسم «عثمانلي أژانسي افنامه لري» أي برقيات أخبارية عثمانية (٩٢) وأژانسي هذه تلفظ (اجانسي) وهي كلمة فرنسية الأصل تعني (وكالة أنباء). وتلك النشريات عبارة عن أوراق مطبوعة تتضمن أخباراً داخلية وخارجية تصدر على شكل بلاغات حربية باللغة التركية وأحياناً باللغة العربية عن الحرب

- برقيات الاژانس الملي -

تروى جريدة المانيا: بان بلغاريه اجرت تحكيمات في حدود اليونان وان كثيراً من الاركان العسكريه توجهوا لتفتيش التحكيمات التي في الحدود وان حكومة بلغاريه اطلقت سراح العملة المشتغلين في المعادن من الاروام والارمن والايتاليين. تكتب جريدة (موتينغ پوست) ان الائتلاف الذي بين دول الائتلاف ودول البلقان بقي عقيماً. ارسلت الصربيون فرقة عسكرية الى دراج بوسيلة محافظة على قنصليتها. وصلت الى سيواس الاربعمائة الاسير التي اخذت في الدفعة الاخيرة. من مخابرنا في ارضروم: ان العدو الذي في شمالي آراس اراد المباغتة ليلاً الا انه بهجوم قطعاتنا بالحربات تمزق كل ممزق وتكبد الروسيون تلفات كثيره.

اصابت احدى المرميات التي رمتها مدفعيتنا معاون الطراد الانكليزي المتقرب الى ديكيلي في ١٨ آب فانهزم الطراد مشتعلا. جمعت اهالي سامسون الف ليرة هدية شتائية ويداومون الآن على درج الاعانة ايضا. جاء في الاخبار الواردة من وبانه ان روماتيا اعطت الجواب لتكليف الائتلاف وابانت بانه لما كانت حدود آوستريا قد رصنت باستحكامات قوية فان التعرض عليها غير ممكن والحال ان روماتيا التي جميع اطرافها غير حصينة ستمحى اذا تعرضت آوستريا عليها

نظراً لتبليغ الانكليز الرسمي: ان الانكليزيين قد خسروا في جناق قلعه في ظرف اربعة عشر يوماً ١٣٠٧٥ نفراً و ٤٧٥ ضابطاً. اغرقت غواصة بيدي الانكليزيه في جناق قلعه في ٢٢ آب امرت مرتباتها التي هي ثلاثة ضباط وخمسة وعشرين نفراً باجمعها. اجرت سرايانا الكشافة مباغتات ليلية في منطقة انافورطه وعادت بغنائم كثيرة من العدو. احدثت مدفعيتنا احتراقاً في سفينة نقالة للعدو كانت واقفة في جوار ديكيلي في ٢٢ آب. دام رمي المدافع والمواد الانفلاقية فقط في آري بورنو. اطلقت مدفعية العدو نيران مدافعها المتقطعة الغير المؤثرة على الجهات المجاورة. اطلقت بطارياتنا المدخلية الاناطولية قنابلها المتواليه بموفقية على معابر العدو التي في الياس بورني وعلى الخطوط في جوار مورتولي وبطارياته ومعسكره الكائن في سد البحر واسكتت بطاريات العدو المنتشرة بالمقابلة تحت هذا التأثير واجبر الى الاخلاء وتبديل مواقع المعسكر اجبرت بطارياتنا طوربيدات العدو التي ارادت التقرب الى المدخل مساءً على الرجوع الى الوراء وسحب اخيراً مراكب العدو الذي بقي تحت نيران مدافعنا تحت جنح الظلام الى البعيد من طرف روموكوربن. لايوجد تبدل في الجهات السائرة. انشئ هذا الغواص في سنة ١٩١٢ جسامته ٨١٠٠ طناً قوة ماكنته ١٧٥٠ حصاناً سرعته في الساعة ١٦ ميلا يحتوي على اربعة أوانات طوربيل.

سحب ايمپراطور اوستريا برقية تبريك صميمي جداً لحضرة سلطاننا بمناسبة الولادة الشهانيه. اعطى حضرة سلطاننا جواباً يعين المخالصة. تداوم الالمانيون على التعقيبات في قسم روسيه الشمالي وتداوم الروسيون على التقهقر. يوجد محاربات شديدة في الجنوب. يعلن تبليغ الانكليز الرسمي: انهم لم يتوفقوا في تعرضهم في انافورطه وانهم تكبدوا ضايعات كليه.

٢٥ اغستوس سنه ٣٣١

٦ أيلول سنة ١٩١٥

نموذج من نشرة «عثمانلي اژانسي» بلغته العربية»

• نشرة اژانسي صدرت في الموصل خلال الحرب العالمية الاولى.

«مجموعة الحاج أحمد النيلة».

العالمية الأولى من مقر الولاية يحملها الباعة، ويتجولون بها في الأسواق وهم ينادون «اجانس – اجانس». (٩٣)

ومما نشرته «عثمانلي اژانسي» خبراً يتعلق بجمعية «مدافعة ملية جمعيتي» أي «جمعية الدفاع الوطني» التي تأسست في الموصل لجمع الأعانات النقدية والعينية للجيش. وكان من أعضائها: رشيد



الخطيب. وقيل أن السائح الصحفي التركي «عبد الرشيد أبراهيم» الذي كان يدعو للجامعة الأسلامية هو الذي أسس هذه الجمعية بعد وصوله الموصل في أيلول ١٩١٤ [٩٤]. وقالت «عثمانلي ازانسي» الصادرة في ٢٧ ايلول ١٩١٤: «أن جمعية مدافعة ملية» ناشدت كل عائلة وكل شخص التبرع بالملابس لأفراد الجيش العثماني كل حسب طاقته. [٩٥]

أما في عددها الصادر في ١٣ أيلول ١٣٣٠ (٢٦ ايلول ١٩١٤) فقد نشرت أخبار أعلان الحكومة اليابانية التعبئة العامة لأسطولها. وكذلك أخبار الأضرار الكبيرة التي تكبدتها المدمرة الألمانية درهدن للسفن البخارية الأنكليزية في مياه أميركا الجنوبية [٩٦]. وقد قامت جمعية العلم السرية التي تشكلت في الموصل سنة ١٩١٤، بالتصدي لنشاط الدعاية العثمانية في الموصل الذي تضمنته النشرات التركية (عثمانلي ازانسي)، وكشفت كثيراً من أكاذيب هذه النشرات.. كما سعت الى تنفير الأهالي من الأتراك وأشهار ظلمهم وتنبيه الأذهان اليه. [٩٧]

لم تلبث صحف نينوى والنجاح وجكه باز أن توارت عن الأنظار. وقد أشارت جريدة صدى بابل البغدادية بخبر نشرته بعنوان: «من يضع يده على المهاز لايلتفت وراءه» قالت فيه: «وقفنا على خبر تعطيل جرائد الموصل لأسباب واهية يرفضها العقل السليم ويمجها الذوق السليم». وأضافت تقول: «قاتل الله الغايات وبخ بخ لها من جرائد حرة أوقفت نفسها خدمة للأمة والوطن!!».ويبدو أن وراء أحتجاب تلك الصحف عوامل سياسية ومادية وشخصية.. [٩٨]

ولئن كانت صحافة الموصل هي تلك التي تناولها البحث وصدرت خلال المرحلة الواقعة بين نشأتها سنة ١٨٨٥ والأحتلال البريطاني للموصل سنة ١٩١٨، فأننا نقول بأن تلك الصحف أدت دورها على خير مايرام وخاصة في مجال التعبير عن طموحات الموصليين وأفكارهم. كما أسهمت في بلورة الأتجاهات الفكرية، داخل المدينة.. وليس من شك في أن وراء ذلك الجهد كله يقف رواد مخلصون.. كان لهم دورهم الوطني والقومي ابان تلك المرحلة الصعبة من تأريخ الموصل الحديث.. ويدون شك فأنهم بنشاطهم ذلك.. أرسوا الأسس الراسخة لنهضة صحفية شهدتها الموصل في المراحل التالية كما سنرى. [٩٩]

الهوامش

(١) لم تحظ الصحافة الموصلية بما تستحقه من أهتمام الباحثين والمؤرخين العراقيين الذين ركزوا جهودهم على التأريخ لصحافة بغداد. وفي السنوات العشر الماضية ظهر أهتمام في جامعة الموصل بتأريخ الصحافة الموصلية ومن ذلك على سبيل المثال، كتاب د. ابراهيم خليل أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، (الموصل، ١٩٨٢) والرسالة التي قدمها وائل علي النحاس لكلية الأداب بجامعة الموصل سنة ١٩٨٨ بعنوان «تأريخ الصحافة الموصلية ١٩٢٦-١٩٥٨».

(٢) أنظر: أبراهيم خليل أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، (الموصل، ١٩٨٢)، ص ص ٥-١١.

(٣) أقبل الأباء الدومنيكان الى الموصل سنة ١٧٥٠ وعين هنري أمانتون قاصداً رسوليا على بلاد مابين النهرين وفارس وارمينيا وفي ٩ تموز ١٨٥٨ وصل أمانتون الموصل ومعه شاب ماردينى اسمه (يوسف) ساعده في نصب المطبعة.
أنظر: احمد، نشأة الصحافة، ص٥.

(٤) أنظر: يوسف حبي، «النشر المسيحي العربي في العراق ١٨٥٦-١٩٨٠» مجلة بين النهرين، العددان ٤٩-٥٠، ١٩٨٥.

(٥) عباس ياسر الزيدي، تأريخ الصحافة العراقية منذ نشأتها وحتى ١٩٣٦، رسالة دكتوراه قدمت لجامعة عين شمس، سنة ١٩٧٥، ص١١.

(٦) اعيد طبع بعض الكتب مرات عدة حتى وصل بعضها الى الخمس عشرة مرة، فضلاً عن كون القسم الاكبر منها متكوناً من عدة أجزاء مما يدل على نشاط هذه المطبعة الكبيرة في نشر الثقافة والأدب في العراق. أنظر: ابراهيم خليل أحمد «الطباعة في العراق» في نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، ج ١١، (بغداد، ١٩٨٥)، ص٣١٦.

(٧) للتفاصيل انظر: سهيل قاشا، مطبعة الاباء الدومنيكان بالموصل وتراثها الثقافي» مجلة بين النهرين، الموصل، السنة (٥)، العدد (١٧).

(٨) أنظر: ابراهيم خليل أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص ص ٥-٦.
(٩) التكريتي، المصدر السابق، ص ٤٧.
(١٠) بطي، الصحافة في العراق، ص ١٧.
(١١) النحاس، المصدر السابق، ص ٧.
(١٢) المصدر والصفحة نفسها.
(١٣) أبراهيم خليل أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل ص ٧.
(١٤) أنظر: خليل صابات، تأريخ الطباعة في الشرق العربي، (القاهرة، ١٩٥٨) ص ٣٠١.
(١٥) بطي، الصحافة في العراق، ص ١٢.
(١٦) للتفاصيل أنظر: بهنام فضيل عفاص، تأريخ الطباعة والمطبوعات العراقية، (بغداد، ١٩٨٥)، ص ١١٨.
(١٧) للتفاصيل أنظر: أبراهيم خليل أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص ٨.
(١٨) مجلة لغة العرب، السنة (٥)، الجزء (٥)، ١٩٢٧، ص ٥٣٢.
(١٩) للتفاصيل أنظر: محمد حبيب العبيدي، خطبة نادي الشرق، (الموصل ١٣٣١)، ص ص ٨-٣٤.
(٢٠) النحاس، المصدر السابق، ص ١٢.
(٢١) لدينا بحث غير منشور بعنوان «جريدة الزوراء مصدراً لتأريخ العراق الحديث» قدم الى ندوة بغداد الأولى التي نظمتها كلية التربية بجامعة بغداد للفترة من ٥-٧ أيار ١٩٩٠.
(٢٢) أنظر: أبراهيم خليل أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص ٢٠.
(٢٣) النحاس، المصدر السابق، ص ٢٥.
(٢٤) التكريتي، المصدر السابق، ص ٥٦.
(٢٥) أنظر: سليمان فيضي، في غمرة النضال، نشره عبد الحميد فيضي، بغداد، ١٩٥٢ م، ص ٥٦.
(٢٦) جريدة موصل ٢٦ ربيع الآخر ١٣٢٣ (١٩٠٥).
(٢٧) جريدة موصل ٢٨ كانون الأول ١٩٠٥ كما وردت في الزبيدي، المصدر السابق، ص ٣٣.
(٢٨) جريدة موصل ١٦ ذي القعدة ١٣٣٢ (أذار ١٩٠٥)
(٢٩) جريدة موصل ٢٧ أب ١٩٠٥.
(٣٠) أنظر: أبراهيم خليل أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص ٢٢.
(٣١) جريدة موصل ١٨ كانون الثاني ١٩٠٦.
(٣٢) جريدة موصل ٢٢ شباط ١٩٠٦.
(٣٣) أنظر رسالته مارة الذكر، ص ص ٣٢-٣٣.
(٣٤) الصحافة في العراق، ص ١٨.
(٣٥) انظر: ابراهيم خليل احمد «الصحافة في العراق»، في نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، ج ١١، (بغداد، ١٩٨٥)، ص ٣٣٥.
(٣٦) مجلة اكليل الورود، السنة (١)، العدد (١)، كانون الثاني ١٩٠٢.
(٣٧) انظر: ابراهيم خليل احمد «اكليل الورود، أول مجلة تصدر في العراق»، مجلة الجامعة، الموصل، السنة (٧)، العدد (٨)، ايار ١٩٧٧، ص ٧٤.
(٣٨) الزبيدي، المصدر السابق، ص ٤٥.
(٣٩) انظر على سبيل المثال مقالات الأب عبدالأحد جرجي السرياني البغدادي عن «حبل العذراء»، ومقالات القس باسيل عن «العطور الزكية في عبارة المسبحة الوردية»، مجلة اكليل الورود، كانون الثاني ١٩٠٥، ص ١٥.
(٤٠) انظر: مجلة اكليل الورود، تموز ١٩٠٧، حزيران ١٩٠٨ ايار ١٩٠٧.
(٤١) انظر: مجلة اكليل الورود، آذار ١٩٠٣، ص ٢، شباط ١٩٠٧، ص ٤٨.
(٤٢) ابراهيم خليل احمد، اكليل الورود، ص ٧٦.
(٤٣) مجلة اكليل الورود آب ١٩٠٧، ص ١٨٦.
(٤٤) مجلة اكليل الورود، كانون الأول ١٩٠٧، ص ص ٢٧٧-٢٧٨.
(٤٥) مجلة اكليل الورود، كانون الأول ١٩٠٧، ص ٢٧٨.
(٤٦) مجلة اكليل الورود، آب ١٩٠٥، ص ٢.
(٤٧) انظر مقالة «الصحافة في العراق»، مجلة الحرية، السنة (٢)، الجزء (٢)، بغداد ١٩٢٥، ص ٥٤٣.
(٤٨) ابراهيم خليل احمد، نشأة الصحافة في الموصل وتطورها ١٨٨٥-١٩٨٥، (الموصل، ١٩٨٥)، ص ١١.
(٤٩) انظر: Philip W. Ireland, Iraq, A study in Political Development, (New York, 1938),p.230
(٥٠) ابراهيم خليل احمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص ٣٧.
(٥١) مجلة اكليل الورود، ايلول ١٩٠٩، ص ٢١٥.
(٥٢) مجلة اكليل الورود، ايلول ١٩٠٩ ص ص ٢١٤-٢١٥، تشرين الأول ١٩٠٩، ص ٢٤٠.
(٥٣) انظر: ابراهيم خليل احمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص ٣٨.
(٥٤) النحاس، المصدر السابق، ص ٢٨.
(٥٥) احمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص ٣٨.
(٥٦) جريدة نينوى ٢ تموز ١٣٢٥ (١٥ تموز ١٩٠٩).
(٥٧) جريدة نينوى ١٤ تشرين الأول ١٣٢٦ (٢٧ تشرين الأول ١٩١٠).
(٥٨) انظر: جريدة نينوى، ٢ تموز ١٣٢٥ (١٥ تموز ١٩٠٩)، ٥ رجب ١٣٢٧ (١٩٠٩)، ١٩ رجب ١٣٢٧ (١٩٠٩).
(٥٩) انظر: ذنون يونس حسين الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في أواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني، رسالة ماجستير، غير منشورة، قدمت الى كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٩٠، ص ١٤٥.
(٦٠) جريدة نينوى، ٢٣ محرم ١٣٢٨ (١٩١٠).
(٦١) جريدة نينوى ١٠ ربيع الأول ١٣٢٨ (١٩١٠).
(٦٢) الطائي، المصدر السابق، ص ١٤٧.
(٦٣) جريدة نينوى ١٩ ذي القعدة ١٣٢٧ (١٩٠٩) وكذلك الطائي، المصدر السابق، ص ١٤٧.
(٦٤) جريدة نينوى ٥ رجب ١٣٢٧ (٩ تموز ١٣٢٥).



(٦٥) جريدة نينوى ١٩ رجب ١٣٢٧ (١٩٠٩).
(٦٦) جريدة نينوى ١٤ نيسان ١٣٢٧ (٢٧ نيسان ١٩١١).
(٦٧) جريدة نينوى، ١٢ كانون الأول ١٩٠٩ وكذلك أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص٤٣.
(٦٨) جريدة نينوى ١٩ تشرين الثاني ١٣٢٥ (٢ كانون الأول ١٩٠٩)
(٦٩) للتفاصيل أنظر: أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص٤٧.
(٧٠) جريدة النجاح ١٢ تشرين الثاني ١٩١٠.
(٧١) أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص٤٧.
(٧٢) النحاس، المصدر السابق، ص٣٠.
(٧٣) الطائي، المصدر السابق، ص١٤٨.
(٧٤) أبراهيم خليل أحمد، الصحافة، في نخبة من الباحثين العراقيين، جـ ١١، ص٣٤٤.
(٧٥) جريدة النجاح ٢ صفر ١٣٣٠ (كانون الثاني ١٩١١).
(٧٦) جريدة النجاح ٢٢ ذي الحجة ١٣٢٨ (كانون الأول ١٩١٠).
(٧٧) جريدة النجاح ١٠ ذي القعدة ١٣٢٨ (١٩١٠).
(٧٨) النحاس، المصدر السابق، ص٣٦.
(٧٩) الطائي، المصدر السابق، ص١٥١.
(٨٠) جريدة النجاح ١٠ جمادي الأولى ١٣٣٠هـ (٢٧ نيسان ١٩١٢).
(٨١) الطائي، المصدر السابق، ص١٤٩.
(٨٢) أنظر: جريدة النجاح ١٠، ١٧، ٢٤ جمادي الأولى ١٣٣٠ (أذار ١٩١٢)، ٦ ربيع الأول ١٣٣٠ (١٩١٢).
(٨٣) الطائي، المصدر السابق، ص١٥٢.
(٨٤) جريدة النجاح ٢٨ شوال ١٣٢٩ (١٩١١).
(٨٥) أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل ص٥٣ وكذلك الطائي، المصدر السابق، ص١٥٣.
(٨٦) أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص٥٤.
(٨٧) النحاس، المصدر السابق، ص٣٧.
(٨٨) جريدة جكه باز، ٢٥ رمضان ١٣٢٩هـ (٦ أيلول ١٩١١).
(٨٩) النحاس، المصدر السابق، ص٣٨؛ الطائي، المصدر السابق، ص١٥٣.
(٩٠) لم نعثر على أي عدد منها. أنظر: روفائيل بطي «تأريخ الطباعة» مجلة لغة العرب، السنة (٥)، جـ (٩)، ص٥٣٢.
(٩١) للتفاصيل أنظر كتابنا نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص٥٥.
(٩٢) أعارني السيد أحمد النيلة أمين المكتبة المركزية العامة في الموصل سابقاً، مجموعة من هذه النشريات، وتعد من المجموعات النادرة.
(٩٣) أنظر: علي الوردي، لمحات أجتماعية من تأريخ العراق الحديث، جـ ٤، (بغداد، ١٩٧٤)، ص٩٧.
(٩٤) أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص٥٥.
(٩٥) عثمانلي آزانسي، ٢٧ أيلول ١٩١٤.
(٩٦) عثمانلي آزانسي، ١٣ أيلول ١٣٣٠ (٢٦ ايلول ١٩١٤).
(٩٧) أنظر رسالتنا للماجستير الموسومة «ولاية الموصل: دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨-١٩٢٢» قدمت لكلية الأداب بجامعة بغداد سنة ١٩٧٥ وهي غير منشورة.
(٩٨) أنظر: جريدة صدى بابل ٥ تموز ١٩١٢.
(٩٩) أحمد، نشأة الصحافة العربية في الموصل، ص٤٥؛ الطائي، المصدر السابق، ص١٥٤.

الطِّبُّ

د. محمود الحاج قاسم محمد

مقدمة:

في القرون الثلاثة التالية لسقوط بغداد بيد المغول ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، تردت الاحوال الصحية في الموصل شأنها شأن المدن العراقية الاخرى نتيجة لتصارع القوى السياسية الاجنبية على السلطة ومانجم عن ذلك من انتشار الفوضى والاضطراب فضلاً عن عدم وجود اهتمام من قبل هذه القوى السياسية المتصارعة باحوال الناس الصحية، لذا ليس غريبا ان نجد المصادر المتيسرة [1] لدينا تفيض في الاشارة الى سنوات محددة كسنوات انتشار الطاعون او حدوث فيضانات او سنوات مجاعة، فضلاً ان الجراد النجدى كان يأخذ احيانا حصته من المدينة في تدني المستوى المعيشي للسكان.

ومما يؤسف له في هذا المجال سكوت المصادر عن ايراد معلومات دقيقة عن الاطباء في الموصل خلال الفترات الاولى من السيطرة العثمانية، فالاشارات الواردة في هذا المجال تتعلق بالطب الشعبي فقط، غير انه يمكننا القول ازاء الصورة التي رسمناها في السطور السابقة بوجود اطباء كانوا يمارسون هذه المهمة. لان كثرة الامراض والاوبئة كفيلة بخلق شريحة متخصصة في وصف العلاج لتلك الامراض



وتجدر الاشارة هنا الى ان شحة المعلومات في الفترات الاولى من السنوات العثمانية قابلها كم هائل من المعلومات في الحوليات والوثائق العثمانية في مطلع القرن الحالي(القرن العشرين) . من ذلك اشارة واضحة في السالنامة الخاصة بولاية الموصل لسنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م الى جملة اسباب ساهمت في توطن الامراض والاوبئة ولاهمية التشخيص الوارد في السالنامة لهذه المسالة ، نورد أبرز ماذكره طبيب بلدية الموصل فيها[٢] :

١ - اختلاف الجو اختلافاً كبيراً خلال الفصول الاربعة للسنة مما ادى الى تسبب امراض مختلفة.
٢ - تخلف المدينة من ناحية التعليم بصورة عامة ، و قد ادى ذلك الى ان كثيراً من التدابير الصحية لاتراعى فيها.
٣ - أثر الفقر على الصحة العامة من حيث السكن غير الصحي الذي يساعد على انتشار وتوطن الامراض ، ونوعية الاكل غير الجيد الذي يؤدي الى امراض مختلفة.
٤ - تكاثر مضار نهر دجلة عند مدينة الموصل خلال الصيف وذلك لسوء استعمالات المياه واساليب جلبها منه الى البيوت. ومما زاد سوء استخداماته وقوع المدابغ قرب النهر والتي ترمي بفضلاتها داخله فتسبب مظاهر صحية غير سليمة تؤدي الى انتشار الامراض.
٥ - كثرة المقاهي والمطاعم القذرة والتي كانت تفتقر الى الشروط الصحية هي الاخرى احد العوامل في انتشار بعض الامراض.

وفي ضوء ماسبق ، نستطيع القول بان السلطات العثمانية كانت تشعر او تتحسس بوطأة الامراض والاوبئة في ولاية الموصل بدليل تشخيص سالنامة الموصل لمسببات الامراض ، غير ان ظروف الدولة العثمانية وخاصة صراعها مع الدول الاوربية اضافة الى ضعف الوعي الصحي ، وقلة الكادر المتخصص كانت كلها عوامل ساهمت في انتشار الامراض والاوبئة.

تناولنا لموضوع الطب في الموصل خلال الفترة العثمانية سيكون ضمن خمسة مباحث هي :

اولا - الطب الشعبي

لم تكن ممارسة الطب في الموصل خلال الفترة العثمانية من اختصاص الاطباء وحدهم ، وانما كان يقوم به اصناف مختلفة فضلاً عن الاطباء ، وهؤلاء هم :

١ - طب يقوم به بعض الرجال والنساء (كبار السن عادة) في الارياف والمدينة ، يتوارثونه من الآباء والأُمهات عن طريق التجربة فكانوا يستعملون الكي وبعض الادوية المستخلصة من النباتات.

٢ - الطب العطاري ، وكان ذلك على شكل :
أ - وصفات عطارية يصفها العطار (تعلمها اما بالوراثة او من بعض الكتب القديمة) للمريض الذي يعرض له حالته.
ب - وصفات شائعة بين الناس نتيجة خبراتهم السابقة ، واحيانا دون استشارة احد. وما زال البعض القليل -حتى يومنا هذا يذهبون الى العطار لشراء وصفات جاهزة مثل (السفوف والسقوي والزريقون).
ج - وصفات عطارية يصفها بعض الاطباء ويروي الكثير من الناس ان المرحوم الدكتور داؤد الجلبي (١٨٧٩ - ١٩٦٠م) كان يصف احيانا لمرضاه ادوية عطارية ويبعث بالمريض الى العطارين مع تعليماته للعطار بشأن الوصفة.

٣ - الطب الروحي :يعتمد هذا النوع من الطب على فلسفة (الايمان والاعتقاد) ، ايمان الطرف الذي يمارس الطب الروحي انه قادر، باذن الله ، على شفاء او تخفيف الم المرضى ، واعتقاد الناس الى حد اليقين بان الرقية والتعاويذ والعزامة وكرامة الاولياء



تشفيهم من الامراض واشتهرت في الموصل اسر بالقيام بالعزامة مثل بيت سيد توحي والرضواني والحبار والرشيدلي وال سليم بك وآل عبد الله بك... الخ وهناك بعض هذه الاسر لديها تخصصات، فمثلا اسرة سيد توحي متخصصة بالعزامة على المخبث واسرة عبد الله بك بالقراءة على الفالول... الخ. وبجانب هؤلاء كان هناك اناس مثل فتاحي الفال يقومون بمعالجة المرضى بالخزعبلات ووصف وصفات خرافية.

٤- الجراحة كان يقوم بها اصناف هم:

أ- الحلاّقون حيث كانوا يقومون بممارسة الحجامة والفصد والكي وفتح الخراجات وقلع الاسنان. واحيانا كانوا يعالجون المرضى بوصف بعض الوصفات العطارية. وبقي حتى الربع الاول من قرننا هذا بعض الحلاقين مثل المرحوم الحاج مصطفى والمرحوم ابن الساري يمارسون ذلك.

ب- الختانون ويقومون باجراء عملية الختان على الاولاد، وكان على الاغلب هؤلاء من الازعرتية (وهم مهاجرون من مدن تركية مثل مدينتي (سعرد، وبدليس) ويأتي هؤلاء الى الموصل وبقية انحاء العراق في مواسم الختان التي تصادف في اواخر الصيف.

ج- جوالون يمارسون قلع الاسنان واجراء عملية الحصو والساد (الكاتاراكت) والبواسير. اضافة لمعالجة بعض الامراض بالوصفات العطارية. والى فترة قصيرة كان يدور في ازقة الموصل من ينادي (طبيب حكيم) وبعض هؤلاء كانوا ممن يسمون (الصلبة) وهؤلاء جماعة يسكنون في الصحراء في بيوت شعر يعيشون على الصيد ومعالجة المرضى وتركيب الاسنان الذهبية للنساء والرجال في المدن والقرى ويقال انهم من بقايا الصليبيين.

٥- الولادة والأمراض النسائية: كان ذلك من اختصاص القابلات والعجائز اللاتي يتوارثن المهنة ويقمن بالاشراف على الولادة ومعالجة بعض الأمراض النسائية وأمراض الاطفال.

ثانيا- مؤسسات دراسة الطب التقليدي:

كان الطب التقليدي مبنياً على قواعد علمية ومعارف طبية جاءت في مؤلفات الاطباء اليونان والعرب والمسلمين في العهود السابقة من امثال (ابقراط وجالينوس وابن سينا والرازي، وغيرهم) او على بعض المؤلفات الجديدة لبعض المتأخرين والتي كانت هي الاخرى لاتخرج عن دائرة الطب القديم، علما بأن مستوى الطب لم يكن يختلف عن الطب في اوربا او اي مكان في العالم في حينه.

وحتى بالنسبة لهذا الطب التقليدي لم نجد مايشير الى وجود مدارس متخصصة بتدريس وتخريج الاطباء في الموصل طيلة ذلك العهد. وان دراسة الطب كان يجري في المدارس التي كان يدرس فيها علوم اخرى، وهذه المدارس كان اغلبها مبنياً منذ عهد بعيد وبعضها مبنى حديثاً، ومن بين المدارس التي بنيت في هذه الفترة (مدرسة احمد ابن علوان) حيث عمرها لطلبة العلم واوقف عليها كتبا واوقافا[٣]. اما اشهر من تخصص باعطاء دروس في الطب وتدريب الاطباء على ممارسة الامور الجراحية فكان محمد بن القاسم العبدلي الحكيم والذي سوف يأتي الحديث عنه فيما بعد.

ثالثا- بدايات الطب الحديث:

بقي الطب في العالم متخلفا حتى اكتشاف المجهر (المكروسكوب) والاشعة واللقاحات، وتم ذلك بصعوبة بالغة وعلى نحو بطيءٍ جدا ابتداء من القرنين السادس والسابع عشر. وكان اول اتصال بالتقدم العلمي في اوربا عن طريق مؤلفات ابن سلوم صالح افندي بن نصر الله الحلبي رئيس الاطباء في الدولة العثمانية (ت ١٦٢٠ - ١٠٨١هـ) وكان هذا

قد ادرك اوائل الحركة الطبية عند الاوربيين واقتبس من مؤلفاتهم، ومن مؤلفاته بالعربية والمتوفرة في اغلب خزائن الكتب في الموصل «برء الساعة» «وغاية الاتقان في تدبير بدن الانسان» واللذان كانا من الكتب المعتمدة لدى اطباء الموصل المتأخرين[٤].

لقد كان الطبيب الموصلي محمد الجلبي من ابرز الاطباء واكثرهم شهرة وتأثيرا في مجال تطوير العلوم الطبية، فقام بترجمة بعض الكتب من اللاتينية للعربية كما سيأتي تفصيله فيما بعد. وكان لوجود الارسالية الدومنيكية دور خاص في ادخال الخدمات الطبية الحديثة في الموصل.

شهدت الموصل في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حركة ثقافية متميزة في مجال الطب، حيث تحفز عدد من الشباب الموصلي للتخصص بدراسة الطب والبروز فيه خلال الفترات اللاحقة. وهكذا اصبحت الموصل تقدم الخدمات الطبية ليس لسكانها فحسب بل ولسكان المناطق المجاورة الذين توافدوا عليها للاستفادة من خبرة اطبائها المشهورين في تلك المرحلة التي سبقت ظهور المؤسسات الصحية الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٥].

رابعا – الاطباء :

ان ابرز اطباء الموصل الذين حفظت لنا كتب التاريخ والسيرة اخبارهم في الفترة العثمانية عاشوا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، نذكرهم فيما يلي حسب تسلسلهم التاريخي :

محمد بن قاسم العبدلي الحكيم

ولد ١٦٧٠ وتوفى ١٧٥٠ ونشأ من آل العبدلي علماء ومدرسون واطباء الا ان محمد بن القاسم العبدلي[٦] كان اشهر فرد في هذه الاسرة الموصلية. ولد في الموصل ودرس فيها. قرأ الطب والتشريح على المهرة والحذاق من الاطباء وهاجر الى مصر، ودخل حلب مرارا وتضلع بالكثير من العلوم العقلية والنقلية، الا انه اشتهر في الطب وغدا رئيسا للاطباء وطبيبا للطبقة الثرية في الموصل طيلة النصف الاول من القرن الثامن عشر، واخذ عنه الطب غالب اطباء الموصل في زمانه وقصده المرضى من البلدان المجاورة وبعد معركة دجيل سنة ١١٤٦هـ (١٧٣٣م) قرب نهر العظيم والتي انتهت بهزيمة نادر شاه برز مشرفاً على الاطباء والجراحين في معالجة الالاف الذين ارسلوا الى الموصل. وعندما مرض والي بغداد علي باشا عام ١٧٠٨م/١١٢٠هـ) استدعي من الموصل ليعالجه وشفي على يديه، لذا فان الوالي خلع عليه خلعة القبول والرضى. وكان من نتائج السمعة العلمية التي حصل عليها الحاج محمد العبدلي ان تحفز عدد من الشباب الموصلي للتخصص بدراسة الطب والبروز فيه. وممن تتلمذ عليه ولده احمد، ونعمان بن عثمان الدفتري الموصلي. ومحمد امين بن اسماعيل حفيد ياسين المفتي وكذلك امين العمري وخير الله العمري الخطيب. توفي في الموصل وقام مقامه ولده احمد في الطب والعلاج.

احمد بن محمد العبدلي

درس الطب على والده وقام مقامه في الطب والعلاج بعد وفاته. وعلى اكثر من ستين سنة وكانت وفاته سنة ١١٨٩هـ – ١٧٧٥م[٧].

نعمان بن عثمان العمري

درس الطب علي محمد العبدلي. كان له معرفة بالطب وخبرة بالمعالجات. الف كتاب «الرياض النعمانية في فوائد الطب من الحكمة الطبيعية» وكانت وفاته سنة ١٢٠٠هـ – ١٧٨٥م[٨].

احمد بن علي المفتي العمري[٩]

كان له اليد الطولى بالطب ومعالجات الامراض وله معرفة بالاجزاء والحشائش وتركيب الادوية والحبوب والمعاجين. توفي سنة ١١٩٠هـ – ١٧٧٦م.



محمد بن محمود الجليلي الموصلي

هو احد الفضلاء المتأدبين له معرفة بالطب والتواريخ وله شعر.. رحل الى بغداد لعلمه انها دار المراد سنة ١١٨٥هـ - ١٧٧١م واقام فيها اياماً وليالي الى أن صلح منه الحال فقدم الى الموصل[١٠] واشتهر بالتجبير ومعالجة الكسور.

محمد امين بن خير الله الخطيب العمري[١١]

ولد في الموصل سنة ١١٥١هـ - ١٧٣٨م. درس على علمائها وعلماء بغداد. واتصل بالشيخ اسماعيل بن فتوحي سنة ١١٨٦هـ - ١٧٧٢م واجازه في كتابة الدائرة المجربة لدفع الطاعون المنسوبة للامام علي رضي الله عنه ودرس ايضا على محمد بن قاسم العبدلي.

تقلد الوظائف الدينية من خطابة ووعظ وتدريس. ولم نجد مايشير الى ممارسته الطب سوى قوله هو عندما ترجم لمحمد امين بن ابراهيم بن ياسين المفتي «وبالجملة فلا قرين له في علمي الطب والتشريح. وقد استفدنا منه فوائد جمة في العلمين» وهذا يعني انه كان عارفا بالطب وكانت وفاته سنة ١٢٠٣هـ - ١٧٨٨م.

احمد بن علوان[١٢]

ملا احمد بن ملا بكر كاتب العربية لوزراء الموصل من الجليليين. كان عارفا بالطب ومعالجة الامراض. عمّر له بالموصل مدرسة لطلب العلم، واوقف عليها كتبا واوقافا. وله شعر جيد. وقد توفي سنة ١٢٠٧هـ - ١٧٩٢م.

قاسم بن فلح المولوى الموصلي[١٣]

نصبه سليمان باشا محافظا وقيما على دار الكتب في جامع ابيه الذي بناه سنة ١١٩٢هـ - ١٧٧٨م، ثم سافر الى حلب فاعطي التكية المولوية هناك ثم عاد الى الموصل. وتعلم الطب ومعالجات الامراض وقد فرغ من تاليف كتابه الشهير (مفردات الطب) سنة ١٢٠٧هـ - ١٧٩٢م.

محمد امين بن ابراهيم بن يونس بن ياسين المفتي[١٤]

درس الطب على الحاج محمد العبدلي. ومهر في علم الطب ومعالجة الامراض. له مصنفات مفيدة منها اوراق الذهب، والشفاء العاجل والدواء الكامل. ويقول معاصره محمد امين العمري: وبالجملة فلا قرين له في علمي الطب والتشريح، وقد استفدنا منه فوائد جمة في العلمين. سافر الى بغداد مرارا. كان آخرها سنة ١١٨٤هـ - ١٧٧٠م ولما قدم الموصل الوزير علي باشا والي بغداد سنة ١٢٢٠هـ - ١٨٠٥م عالجه من مرض الّم به فاكرمه وقربه.

عبد الله بن امين بن ياسين المفتي[١٥]

ورث الطب عن ابيه واشتهر به كان له معرفة بالامور الصيدلانية مثل تركيب الادوية والحبوب والترياقات والمعاجين. وكانت وفاته سنة ١٢٢٦هـ - ١٨١١م او بعدها بقليل.

ياسين بن خير الله الخطيب العمري[١٦]

مولده سنة ١١٥٧هـ = ١٧٤٤م ووفاته ١٢٣٢هـ = ١٨١٧م. من اساتذته محمد بن قاسم العبدلي. له ادب ومعرفة بالنظم، ويد طولى في سرعة نظم التواريخ، وله اطلاع على عدة فوائد من علوم شتى، وله خبرة بفن الطب ومن آثاره «الخريدة العربية في الطب».

محمد جلبي بن يوحنا الموصلي[١٧]

اسمه القس عبد الاحد بن يوحنا الموصلي. ولد في الموصل سنة ١١٩٠هـ = ١٧٧٦م واسلم سنة ١٢٣١هـ = ١٨١٥م وتسمى محمد امين درس الطب على والده. وكان يتقن التركية والسريانية واللاتينية مما ساعده ذلك على ترجمة بعض الكتب القيمة من اللاتينية الى العربية مثل «الطب الجديد الكيميائي» لمؤلفه براكليسوس المتوفي ٩٤٨هـ - ١٥٤١م «صناعة الطب الكيميائي» تاليف

فروليوس. وبذلك يعزى له فضل ادخال العلوم الطبية الحديثة في الموصل بعد صالح بن نصر الله الحلبي (ت ١٠٨١هـ = ١٦٧٠م) وكان له عدد من التلاميذ منهم شماس عبد الكريم بن نعمو. وله مؤلفات مخطوطة منها شرح ارجوزة ابن سينا في الطب والطب المختار. جاء في كتابه هذا شرح لكيفية استعمال لقاح الجدري السليم الذي اكتشفه جنر سنة ١٧٩٨م. وكتاب مفردات الطب المختار وقد اعتمد في تأليفه على كتب الطب العربية والاوربية الحديثة ورسالة في النبض وحفظ الصحة واقرباذين الطب المختار وكتاب في الفلك اسمه «الروض العاطر في تلخيص زيج ابن الشاطر» الدمشقي الفلكي. وكانت وفاته سنة ١٢٦٣هـ = ١٨٤٦م.

احمد بن محمد الجلبي (ت ١٢٨٢هـ = ١٨٦٥م) [١٨]

ورث الطب عن والده واشتهر به. له كتاب جمع فيه مجرباته في الطب.

شماس بن عبد الكريم بن نعمو

من طلاب محمد الجلبي. كلفه محمد الجلبي باستنساخ بعض المصادر منها كتاب «نهاية القصد في صناعة الفصد» [١٩] لانعرف بالتحديد تاريخ ولادته ووفاته.

محمد سليم احمد الجلبي (ت ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م) [٢٠]

ورث الطب عن والده وبرز فيه، ترك مجموعة مشاهدات ومنقولات ومجريات طبية مؤلفة على غرار الكتب الطبية القديمة. عاش حوالي خمسة وسبعون سنة. وهو اخر السلسلة من الاطباء على الاساليب القديمة. وبعده بدات دراسة الطب من اهل الموصل في الكليات الطبية في استنبول واوربا ومنهم ابنه داؤد الجلبي.

عبد الله احمد الجلبي

لانعرف شيئا عنه سوى انه كان كاخيه محمد سليم مقصد المرضى بالموصل [٢١].

سليمان جرجس غزالة

ولد في الموصل سنة ١٢٧٠هـ = ١٨٥٣م وتوفي في بغداد سنة ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م. درس على الاباء الدومنيكان في الموصل ثم عند الاباء اليسوعيين في بيروت. دخل جامعة باريس سنة ١٨٨٠ ودرس الطب على شانتس وبوتزى وباستور ثم حصل على الدكتوراه في الطب عام ١٨٨٦م وفي سنة ١٨٨٧ وصل استنبول. وخلال الفترة من ١٨٩٥ - ١٩٠٥ عمل في العراق وسوريا. وبين ١٩٠٥ - ١٩١١ عمل في ليبيا. وانتخب عضوا في المجلس التأسيسي العراقي سنة ١٩٢٥ وفي عام ١٩٢٧ اصبح استاذا في الكلية الطبية العراقية بعد تأسيسها مباشرة [٢٢] له مؤلفات في الاقتصاد السياسي والاجتماع والفلسفة [٢٣].

حسن عبد القادر الموصلي

لانعرف بالتحديد تاريخ ولادته او وفاته. له رسالة في المرض الفرنجي. منه نسخة خطية في مكتبة جراح باشا - قسم تاريخ الطب - استنبول (تاريخ استنساخها ١٢٣١هـ = ١٨١٥م) [٢٤].

حنا خياط

ولد في الموصل سنة ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م. حصل على بكالوريوس في العلوم والاداب من كلية الطب الفرنسية في بيروت عام ١٩٠٣ وعلى دبلوم الطب من جامعتي باريس وأستنبول سنة ١٩٠٨. وخلال الحرب العالمية الاولى عمل طبيبا ونائبا لرئيس جمعية الهلال الاحمر بالموصل ورئيسا للمستشفيات فيها من ١٩١٤ - ١٩١٩. [٢٥] وانتمى الى النادي العلمي فيها وشارك بنشاطات فعالة. وخلال سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ ترأس مديرية مصلحة الصحة العراقية. وفي الوزارة النقيبية الثانية





• الدكتور حنا خياط.

١٢ ايلول ١٩٢١ تولى مسؤولية اول وزارة صحة في الدولة العراقية[٢٦].

وهو طبيب ماهر وكاتب ومؤرخ له اثار طبية وكتابات في علم الاجتماع. وقد كان لتخصصه في الطب وثقافته الواسعة في احوال المجتمع الدور البالغ في تطور الامور الطبية بمدينة الموصل في اثناء توليه منصب رئاسة المستشفيات الملكية، ويتضح ذلك فيا اعده من خطط اصلاحية لرفع كفاءة الجهاز الطبي فيها[٢٧].

اسماعيل الموصلي

ولد في الموصل ودرس في مدرسة الصناعة ببغداد في اوائل سنة ١٢٨٨هـ = ١٨٨١م وبرز في العلوم النفسية والعقلية. وتوفي ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م[٢٨].

الحكيم الاعور[٢٩]

متطبب من اهل الموصل، كان يسكن في محلة الميدان، وكان يعالج اكثر الامراض بالادوية العشبية وكانت زوجته تعاونه. وقد توفي في حدود ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م.

عدلة الحكيمة[٣٠]

اسمها عدلة محمود جرجيس اغا، ولدت في الموصل سنة (١٢٥١هـ = ١٨٢٥م) وتوفيت سنة (١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م). كانت تعالج امراض العيون ومرض (الاخت = حبة بغداد) بالدواء العطاري الذي كانت تقوم بتركيبه بنفسها. وكانت تتقاضى اجورا بسيطة وكانت تعالج الفقراء مجانا. وقد ذاع اسمها في الموصل وخارجها، وعند وفاتها قامت ابنتها (مريم يحيي اغا) بمعالجة امراض العين، واصبح هذا العمل وراثيا عند هذه العائلة، حيث قامت بذلك بعدها ابنتها عزيزة فقد اعطيت الاخيرة اجازة لمعالجة امراض العين من قبل رئاسة صحة الموصل انذاك.

عبد الله الشلشي (او الشنشلي)

طبيب موصلي كان يطب على اصول الطب العربي القديم، هناك ارجوزة في الحميات منسوبة اليه. تبين مؤخرا انها لابي موسى بن عذرون المغربي وليست له[٣١].

متي جرجيس فرنكول[٣٢]

ولد سنة ١٨٨٨، وهو من خريجي كلية الطب في جامعة بيروت الامريكية. وافاه الاجل في الموصل في ٥ آب سنة ١٩٥٩م.

السيد حسن بن السيد حسين[٣٣]

١١٩٢هـ = ١٧٧٨م، كان يعالج الامراض الجلدية بدهن الكبريت.

محمد طاهر بن عبد الله بن محمد الصائغ

درس في مدرسة الجلبي (او مدرسة الصائغ نسبة لبانيها عمه عبد الرحمن بن محمد جلبي الصائغ) حتى ادركته المنية سنة ١٣٣٧هـ = ١٩١٨م) «ودرس الطب على الطائي»[٣٤].

داؤد الجلبي[٣٥]

ولد داؤد بن محمد سليم بن احمد بن محمد الجلبي الموصلي سنة ١٢٩٧هـ = ١٨٧٩م. بدأ حياته الدراسية في كتاتيب الموصل وفقا للعادة فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وقرأ القران الكريم، ثم درس في مدرسة الآباء الدومنيكان، وبعدها دخل



الدكتور داؤد الجلبي (١٨٧٩ - ١٩٦٠ م).

المدرسة الاعدادية الملكية في الموصل، وبعد تخرجه سافر الى استنبول وتخرج من الكلية العسكرية عام ١٩٠٩ طبيبا برتبة (يوزباشي = نقيب) عمل طبيبا في الجيش العثماني حتى ١٩١٥م حيث وقع في اسر القوات البريطانية واستمر أسره حتى سنة ١٩١٨م حيث عاد الى الموصل ليساهم مع نخبة من المثقفين الموصليين في تأسيس النادي العلمي سنة ١٩١٨م كواجهة للعمل السياسي ضد السلطات البريطانية وانتخب رئيسا لهذا النادي وبعد تأسيس الحكم الوطني عام ١٩٢١ عين طبيبا اولا للمنطقة الشمالية، كما انتخب سنة ١٩٢٤ عضوا في المجلس التأسيسي كنائب عن الموصل ويبدو انه عمل طبيبا للملك فيصل الاول (١٩٢١ - ١٩٣٣)، وفي سنة ١٩٣٠م اصبح مديرا للامور الطبية للجيش العراقي واحيل على التقاعد سنة ١٩٣٣. وفي سنة ١٩٣٧ عين عضو في مجلس الاعيان في البرلمان.

عرف الجلبي في الاوساط الموصلية بعلمه الجم في مجال الطب ودقة التشخيص وكان يفضل الاستعانة بالاعشاب على الادوية الجاهزة. وفي معالجة امراض محددة، ولعل من المناسب الاشارة هنا الى ان الجلبي كان بحق موسوعياً في علمه اذ لم تكن دائرة اهتماماته تنحصر في الطب بل في مجال التاريخ والتراث والادب، لذا اختارته المجاميع العلمية العربية في كل من دمشق وبغداد والقاهرة عضوا مراسلا لها.

عاش الجلبي حياة علمية في السنوات الاخيرة وتوفي سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠، وبقدر تعلق الامر بمؤلفاته الطبية فقد الف ١ - مخطوطات الموصل، ٢ - تحقيق كتاب الطبيخ لمحمد بن الحسن بن محمد ابن النديم الكاتب، ٣- رسالة محمد بن زكريا الرازي.

الدكتور يحيي نزهت عبد الله[٣٦]

ولد في مدينة الموصل ١٣٠١هـ = ١٨٨٣م وبعد ان انهى دراسته الابتدائية والاعدادية في الموصل غادر الى مدينة استنبول لدراسة الطب



الدكتور يحيي نزهت علي ١٨٨٣ - ١٩٥٥

وتخرج من كلية طب استنبول عام ١٩١٤م. خدم في الجيش التركي حتى عام ١٩٢٦ عاد بعدها للعراق ليعمل في وزارة الصحة - المستشفى الملكي - في الموصل. نقلت خدماته الى الجيش العراقي عام ١٩٣٦. توفي عام ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م وقد ساهم خلال حياته بالقاء العديد من المحاضرات الطبية في المواسم الثقافية التي كانت تقام في مدينة الموصل.

الاباء الدومنيكان[٣٧]

اما الاباء الدومنيكان الذين اسسوا ارساليتهم في الموصل سنة ١١٦٤هـ - ١٧٥٠م فقد كان





• الاطباء الموصليون وقت دراستهم في المدرسة الطبية باستانبول قبيل الحرب العالمية الاولى وهم الدكتور داؤد الدبوني (الجالس من اليمين) والدكتور عبدالله الدملوجي (الواقف الثاني من اليمين) والدكتور يحيى نزهت علي (الواقف من اليسار).

يتقدمهم طبيبان ايطاليان مبشران هما الاب فرنسيسكو توورياني Touriane والاب دمينكو كود ايلنشيني Codelin chieni واشتهر الدومنيكان بصناعة الطب. وكان الاب اوغسطين ميرسي Merciai من انشط المبشرين الناجحين خلال الفترة بين ١٨٤٠ – ١٨٥٦ الذي عالج في الموصل وفي دير ماريعقوب .

ولكي تحصل الرسالة الدومنيكية على الحماية الضرورية ولخوف البابوية من وجود البروتستانت في العراق فقد سارع الباب بيوس التاسع سنة ١٨٥٦ فاصدر قرارا بنقل قيادة البعثة التبشيرية الدومنيكية في الموصل الى دومنيكان فرنسيين.

وقد برز من هؤلاء في مجال الطب الاب هياسانت بيسون Besson والاب لويس ليون Lion والاب الرئيس كالان Calland والدكتور دنيس كوليه Collet الذي كان يدير اعمال المستوصف الذي افتتحوه سنة ١٨٧٦ [٣٨] . وقد توالى عدد اخر من الاطباء للعمل في المستوصف سوف نذكرهم عند التحدث عن مستوصف الاباء الدومنيكان.

خامسا – المؤسسات الصحية :

لم يذكر لنا المؤرخون الذين ارخوا لمدينة الموصل شيئا عن استحداث اية مؤسسة صحية في الموصل حتى نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر، كما اننا لم نجد لديهم مايشير الى تحديد الفترة التي استمرت فيها البيمارستانات(المستشفيات)المبنية قبل الحكم العثماني في مواصلة اعمالها.

والمؤسسات الصحية في الموصل هي :

أ – المستشفيات العسكرية

١ – مستشفى القشلة (الثكنة) العسكرية

خلال تولي محمد باشا اينجة بيرقدار للموصل قام ببناء ثكنة واسعة للجيش كانت تعرف بالقشلة العسكرية والقسم المطل منها على دجلة بنى فيه مستشفى عسكري[٣٩] وتم بناؤه في حدود سنة ١٢٥٨هـ =١٨٤٣م. ويمكن اعتبار هذا المستشفى اول مستشفى حديث بني في العراق ومن ثم لتأمين الخدمات الصحية للفرقة ١٢ (١٢ قول اوردوسي) المرتبطة بالجيش السادس العثماني والتي كان مقرها الموصل جعل بناء الثكنة العسكرية ومستشفاها كمستشفى مركزي. ولم يحصل اي تطور في هذا المستشفى فيما بعد سوى فتح غرفة عمليات صغيرة سنة ١٩١٠ وفي سنة ١٩١٤ وخلال الحرب العالمية ازداد عمله واهميته الستراتيجية[٤٠] .

٢ – مستشفى البلدية (الغرباء) والمدرسة الاعدادية :

في سنة ١٩١٤ وخلال الحرب العالمية الاولى جعلت بعض الابنية مثل مستشفى البلدية (الغرباء) وردهات المدرسة الاعدادية تحت إمرة الجيش وادخل في هذه الاماكن مرضى القوة الخفيفة[٤١] .

٣ – المستشفى المركزي الذي افتتح في المنازل :

خلال الحرب العالمية الاولى عندما عادت الموصل من جديد مقراً للفيلق ، ولعدم وجود أماكن كافية في المستشفيات اتخذت بعض من دور الجنود من اهل الموصل كمستشفيات ينام فيها الجنود الجرحى والمرضى ويعالجون فيها.

لقد كانت العناية والنظافة مفقودة في هذه

المستشفيات نتيجة الازدحام وكثرة الاوساخ مما ادى الى انتشار القمل انتشاراً شديداً ثم الى انتشار مرض التيفوس حتى ان الاطباء المعالجين اصيبوا بهذا المرض.

ونتيجة لمتطلبات الحرب اضيف ٥٠ سريراً لهذه المؤسسة الصحية غير النظامية والمتكونة من ٢٥٠ سريراً واطلق عليها اسم «المستشفى المركزي»[٤٢].

في الوقت الذي كانت فيه المستشفيات قائمة على علاج الجرحى من الجنود ابتدأت حملات مكافحة الامراض التي انتشرت بين المدنيين والجنود. ونتيجة لزيادة الاهتمام بصحة الاهالي، جعلت بعض الكنائس والبيوت المتواجدة في باب سنجار على شكل مستشفيات وبسعة ١٠٠ سرير لمعالجة هذه الامراض والامراض المعدية الاخرى. وفي هذا المجال افتتح الالمان مختبرا للقيام باجراء الفحوصات.

ان اعمال وخدمات الاطباء في مستشفيات الموصل خلال تلك الفترة (١٩١٤، ١٩١٥) تعد نموذجا رائعا للتضحية والفداء وهؤلاء هم[٤٣].

رئيس الاطباء عزت سليمان، والجراح البكباشي كمال (سونش) والجراح خليل سيزاني (سيزر) والجراح مصطفى تحسين (كوركان) والجراح الاحتياط يوزباشي الموصلي داؤد[٤٤] ود. كاني (كومكابي) و د. مراد ود. ضياء (كباكلي اوغلو) واخصائي الجلدية احمد بلال ود. راشد (تايكن).

٤- مستشفيات المقرات (٣، ٤) (الوحدات الطبية):

خلال الحرب العالمية ايضا وعند انسحاب القوات العثمانية الى الموصل اضيف للمرضى الذين ادخلوا اليها مستشفيان في مقرات القطعات وتحت رقم (٤،٣) سعة كل منها (٣٠٠) سرير وبذلك ومع المستشفيات المفتوحة سابقا ارتفع عدد الأسرّة الى (٣٥٠٠) سرير[٤٥].

٥- دار النقاهة:

افتتحت هذه الدار في باب سنجار خلال فترة الحرب سنة ١٩١٤ وبسعة ٥٠٠ سرير[٤٦].

٦- مستشفى الهلال الاحمر العثماني في الموصل ومستشفى الصليب الاحمر الالماني في الموصل:

لانعلم على وجه التحديد موقع هذين المستشفيين، وعلى الاغلب كانا ضمن تشكيلات القطعات الثابتة في الموصل. وممن عملوا في مستشفى الهلال الاحمر بالموصل الدكتور عبدالله جميل[٤٧].

ب- المستشفيات المدنية:

١- مستشفى البلدية (الغرباء):

من بين المشاريع العمرانية والصحية والاجتماعية التي قام بها سعيد افندي بن قاسم اغا سعرتي في اثناء رئاسته الاولى (١٨٩٨-١٩٠٤) والثانية (١٩٠٨- ١٩١٢) لبلدية الموصل هو انشاء بناية للمستشفى قرب باب سنجار[٤٨] فوق تل الكناسة (تل كناس)وقد عهد للخدمة فيها عدد من الاطباء المواصلة وهم من الرعيل الاول الحاصلين على شهادات التخصص الطبي من جامعات استنبول وبيروت وباريس، ومنهم د. عبد الاحد عبد النور ود. فتح الله غنيمة ود. عبد الكريم قليان ود. يحيي سميكة[٤٩]. داؤد الجلبي ود. احمد وجدي.

٢- مستشفى مدرسة الصناعة او (الاعدادية):

شيدت البلدية خلال رئاسة سعيد افندي ايضا بناية ضخمة لمدرسة الصناعة في الموصل [٥٠] واستمرت هذه المدرسة بتعليم ابنائها حتى اعلان الحرب العالمية الاولى حيث جعلت قاعاتها وكذلك مستشفى البلدية تحت امرة الجيش وادخل فيها مرضى القوة العثمانية الخفيفة من الجيش العثماني كما ذكرنا سابقاً[٥١].



وبعد الاحتلال البريطاني للموصل اتخذت مستشفى حكومياً ومكث فيها حتى تم انشاء بناية المستشفى الجمهوري الحالي(٥٢) سنة ١٩٣٧ ومن ثم خصصت بنايتها القديمة لاقامة اخواننا الفلسطينيين.

٣ – مستشفى الهلال الاحمر العثماني :

قامت السلطات البريطانية بعد احتلال الموصل بتوسيع مستشفى الهلال الاحمر العثماني في الموصل وجعله مستشفى مدنيا فيه قاعات للنساء والرجال. وكان يساعد الجراح المدني فيه معاون طبيب انكليزي ورئيسة ممرضات مع ممرضتين انكليزيتين وعدد من الممرضات الارمنيات وطبيبان او ثلاثة من العراقيين(٥٣).

وقبل ان ننهي موضوع المستشفيات المدنية لابد من الاشارة الى نقطتين الاولى انه في الوقت الذي كانت فيه المستشفيات العسكرية تقوم بمعالجة المرضى والجرحى العسكريين الخطرين كانت ايضا تقوم بمعالجة المرضى المدنيين وخاصة عند انتشار الاوبئة(٥٤). والثانية ان هذه المعلومات التي اوردناها نقلا عن الدكتور اوزباى تكشف حقائق تاريخية عن الامور الصحية في العراق بشكل عام والموصل بشكل خاص على عكس مااوردته اغلب المصادر(٥٥). بان العراق في اواخر العهد العثماني كان خاليا من اي اثر لمستوصف او مختبر صحي وان ذلك ان دل على شيء فانما يدل على انه كان هناك قدر لابأس به من الاهتمام بالاحوال الصحية لكنه لايتناسب ومتطلبات العراق وحاجته لتطوير اوضاعه الصحية بشكل مرضي.

ج – المستوصفات :

١ – طبابة البلدية :

حسب ماجاء في قانون البلديات لسنة ١٢٨٥هـ = ١٨٨٩م؛ طبابة البلدية يدير شؤونها طبيب قانوني يعاونه في اداء واجباته جراح وصيدلي وملقح للجدري ومولدة. ومن اهم واجبات طبابة البلديةمراقبة المرافق العامة كالمطاعم والمقاهي وغيرها وكذلك مراقبة النظافة .. وتعقيم مياه الشرب وكان لطبابة البلدية في الموصل صيدلية ومستوصف لمعالجة الفقراء وتوزيع العقاقير التي يحتاجونها(٥٦).

٢ – مستوصف الآباء الدومنيكان :

في سنة ١٨٧٦ تم افتتاح مايسمى مستشفى ليجون،لكنه في الحقيقة لم يكن مستشفى متكامل وانما كان مستوصفا لعلاج المرضى اي كعيادة خارجية. وقد انضم الى الخدمة في هذا المستشفى راهبات التقدمة. وبعد سفر الاب كوليه سنة ١٨٧٧ كان يدير المستوصف طبيب بولوني هو الدكتور الكسندر كوستاف Gustave الذي توفي في الموصل سنة ١٩٠٣. ومن بعده تولى ادارة المستوصف وللسنوات ١٩٠٣ – ١٩٠٥ طبيب لبناني. وفي ١٩٠٧ استطاع المستوصف الاستفادة من خدمات طبيب موصلي تخرج حديثا من كلية الطب الفرنسية ببيروت وهو الدكتور حنا خياط الذي سبقت ترجمته وعلى اثر نشوب الحرب العالمية الاولى غادر الاباء الموصل لكنهم عادوا سنة ١٩٢٠ لينصرفوا الى عملهم التبشيري ويتخلوا عن نشاطاتهم الطبية بعد ان تحملت الحكومة العراقية مسؤولية تنظيم الخدمات الصحية(٥٧).

الهوامش

(١) للوقوف على اخبار الامراض والاوبئة انظر: ياسين العمري،منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء – تحقيق سعيد الديوجي – الموصل ١٩٥٥ ص ١٧٣، ١٧٥. وانظر كذلك: عماد عبد السلام رؤوف/ الموصل في العهد العثماني – فترة الحكم المحلي ١١٣٩ – ١٢٤٩هـ/ ١٧٢٦ – ١٨٣٤م – مطبعة الاداب،النجف ١٣٩٥/ ١٩٧٥ ص ٢٦.

(٢) سالنامة ولاية الموصل لسنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م ص ١٠٩ – ١١١٢.

(٣) محمد امين بن خير الله العمري الخطيب، «منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء»، تحقيق سعيد الديوجي مطبعة الجمهورية – ١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م ج ١ ص ٢٩٠.

(٤) عماد عبد السلام رؤوف الموصل في العهد العثماني، ص ٢٩٥.

(٥) ابراهيم خليل احمد، «النشاطات الطبية والخدمات الصحية في العراق ١٢٥٨هـ - ١٩٢١م»، مجلة اداب الرافدين، كلية الاداب جامعة الموصل (١٦) - ١٩٨٦ ص ٢٥٤.

(٦) انظر المصادر التالية:
١ - ياسين العمري/ غاية المرام في تايخ محاسن بغداد دار السلام - بغداد ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م ص ٣٦٢.
٢ - محمد امين بن خير الله العمري الخطيب/ منهل الاولياء - ص ٢٦٧ - ص ٢٦٩.
٣ - داؤد الجلبي، مخطوطات الموصل، (بغداد ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م) ص ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١١٨.
٤ - محمد بن مصطفى الغلامي، شمامة العنبر والزهر المعنبر، تحقيق سليم النعيمي، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٧.
٥ - ابراهيم خليل احمد - النشاطات الطبية والخدمات الصحية في العراق - المصدر السابق.
٦ - عماد عبد السلام رؤوف/ الموصل في العهد العثماني ص ٣٩٨.

(٧) داؤد الجلبي/ مخطوطات الموصل ص ٢١٣.

(٨) انظر/ ياسين بن خير الله العمري/ غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ص ٣٤٧ وكذلك داؤد الجلبي مخطوطات الموصل ص ٢١٧.

(٩) غاية المرام ص ٣٤٢.

(١٠) غاية المرام ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

(١١) أنظر منهل الاولياء ج ١ ص ١٤ - ٢١.

(١٢) انظر منهل الاولياء ج ١ ص ٢٩٠. غاية المرام ص ٣٦٧.

(١٣) انظر المصادر التالية ١ - غاية المرام ص ٣٨٠
٢ - عبد الله الجبوري، فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الاوقاف العامة في بغداد. مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٧٤) ج ٤ ص ١٨٣.

(١٤) انظر غاية المرام ص ٣٦١ - ٣٦٢، منهل الاولياء ص ٢٤٧، ٢٦٨، مخطوطات الموصل، ص ص ١٣٧، ٢٢٣، ٢٤٥.

(١٥) انظر غاية المرام ص ٣٦٢ - ٣٦٣، منهل الاولياء ١/ ٢٤٨.

(١٦) منهل الاولياء ج ١ ص ٢٠٨.

(١٧) انظر سليمان صائغ، تاريخ الموصل ج ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٣، مخطوطات الموصل، الجلبي ص ٢٦٦ - ٢٧٢، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٩٣، عماد عبد السلام ص ٣٩٦. وكذلك سالم عبد الرزاق احمد، مخطوطات الاوقاف العامة في الموصل ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م ج ٦ ص ١٧٣، ١٨٧، ١٨٣. الجبوري ص ١٧٥.

(١٨) الجلبي، مخطوطات الموصل ص ٢٧٢، سالم عبد الرزاق، فهرس مكتبة الاوقاف في الموصل ٦/ ١٨٠.

(١٩) ابراهيم خليل احمد «الطبيب محمد الجلبي»، جريدة الحدباء ١٧/ تموز/ ١٩٨٤.

(٢٠) الجلبي - مخطوطات الموصل ص ٣، ٢٨، سالم عبد الرزاق، فهرس مكتبة الاوقاف في الموصل ٦ ص ١٨٠.

(٢١) فيصل دبدوب، الدكتور داؤد الجلبي حياته ومخطوطاته ص ٣.

(٢٢) بعض هذه المعلومات اخذت من قريبه الدكتور وليد غزالة في رسالة خاصة.

(٢٣) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار احياء التراث العربي، بيروت ص ٢٥٧.

(٢٤) اكمل الدين احسان اوغلو، مخطوطات الطب الاسلامي في مكتبات تركيا، ١٩٨٤ ص ١٩٩.

(٢٥) الياهو دنكور ومحمود فهمي درويش، الدليل العراقي الرسمي سنة ١٩٣٦.

(٢٦) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية ط ٥ ج ١ ص ١٣، ٦٩.

(٢٧) ذنون يونس الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في اواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني - رسالة ماجستير غير منشورة) - كلية الاداب - جامعة الموصل ١٤١١هـ = ١٩٩٠م ص ٢٥٧.

(٢٨) عبد الحميد العلوجي، تاريخ الطب العراقي، مطبعة اسعد، (بغداد ١٩٦٧) ص ٣٦٩.

(٢٩) العلوجي، المصدر نفسه ص ٣٨٧.

(٣٠) معلومات مستقاة من احد اقربائها.

(٣١) محمود الحاج قاسم «عود على بدء - حول ارجوزة في الحميات»، مجلة المورد المجلد (١٦) العدد (٢) السنة ١٩٨٧.

(٣٢) مجلة المهن الطبية، المجلد (٧) العدد (٢).

(٣٣) سعيد الديوجي رواية شخصية، نقلا عن (قرة العين فيمن اسمه الحسن والحسين لياسين العمري - مخطوط).

(٣٤) سعيد الديوجي، مدارس الموصل في العهد العثماني، مجلة سومر، المجلد (١٨) السنة ١٩٦٢، حاشية ص ٥٥. الا اننا لم نعرف من هو الطائي الذي قصده الاستاذ الديوه جي فاذا كان المقصود به «الشيخ محمد الحديثي الطائي» فذلك مشكوك فيه حيث لم يذكر صاحب منهل الاولياء في ترجمة حياته انه كان ملما بالطب وتدريسه.

(٣٥) انظر فيصل دبدوب، الدكتور داؤد الجلبي ص ٣ - ٥، العلوجي، الطب العراقي ص ٣٩١، ذنون يونس الطائي المصدر نفسه ص ٢٤٤.

(٣٦) مقابلة مع نجل المرحوم الدكتور يحيي نزهت، الدكتور نزار يحيي نزهت.

(٣٧) جون فييه، الاباء الدومنيكان وخدماتهم الطبية في الموصل (بحث مطبوع على الالة الكاتبة) في خزانة الاستاذ سعيد الديوه جي ص ١ - ٢.

(٣٨) ابراهيم خليل احمد/ المصدر السابق.

(٣٩) احمد علي الصوفي/ تاريخ المحاكم والنظم الادارية في الموصل ص ١٨.

(٤٠) كمال اوزباى/ تاريخ الطبابة العسكرية والمستشفيات العسكرية
Turk Asker Hekimligi Tarihi Ve Asker Hastanalari
Dr. Kemal Ozbay

(٤١) كمال اوزباى/ المصدر نفسه ص ١٥٩.

(٤٢) كمال اوزباى/ المصدر نفسه ص ١٥٩.



(٤٣) كمال اوزباى/ المصدر نفسه ص ١٦٠ .
(٤٤) على ماعتقد المقصود به هو الدكتور داؤد الجلبي .
(٤٥) كمال اوزباى/ المصدر نفسه ص ١٥٩ .
(٤٦) كمال اوزباى/ المصدر نفسه ص ١٥٩ .
(٤٧) كمال اوزباى/ المصدر نفسه ص ١٨٦ .
(٤٨) احمد علي الصوفي ، تاريخ بلدية مدينة الموصل ص ٣٠ .
(٤٩) يوسف ذنون ، «اضواء من رواد الاثار والتراث في الموصل ١٨٩٣–١٩٨١» ، مجلة الجامعة – العدد (٦) اذار/ ١٩٨٢ ص ١١ .
(٥٠) الصوفي ، المصدر السابق ص ٣٠ .
(٥١) كمال اوزباى ، المصدر السابق ص ١٥٩ .
(٥٢) الصوفي ، المصدر السابق ص ٣١ .
(٥٣) المس بل ، فصول من تاريخ العراق القريب ، ترجمة جعفر خياط ط ٢ ، بغداد ١٩٧١ ص ١٧٨ – ١٧٩ .
(٥٤) كمال اوزباى ، المصدر نفسه ص ١٥٩ – ١٦٠ .
(٥٥) على سبيل المثال جاء في مقدمة الدكتور حنا خياط لكتاب حالة العراق الصحية في ربع قرن تاليف الدكتور موسيس ديرها كوبيان – مطبعة الاتحاد – الموصل ١٩٤٨ ص ٨ مايلي : انتهت الحرب عام ١٩١٨ ... والاطباء لا يتجاوزون عدد الاصابع ، ودور التمريض اقتصرت على سبعين سريراً في الحواضر الثلاثة الكبيرة (بغداد ، والموصل ، والبصرة) ولا اثر لمستوصف او مختبر .
(٥٦) الصوفي ، المصدر السابق ص ٢٤ .
(٥٧) هذه الفقرة مأخوذة بتصرف عن الدكتور ابراهيم خليل احمد ، مجلة اداب الرافدين العدد (١٦) ، ١٩٨٦ انظر كذلك : مذكرات لانزا ص ١٤ (مخطوط ، ترجمة الدكتور داؤد الجلبي) .

الموسيقى

د. عادل البكري

لم تكن الموسيقى في الموصل في اوائل الحكم العثماني ذات طابع متميز[١] . فقد كانت مزيجاً من أصول عديدة : عربية وغير عربية ، فالاصول العربية هي الموسيقى العباسية القديمة التي أخذت شكلها النهائي على يد الموسيقار البغدادي صفي الدين الأرموي ، فهو الذي جدد قواعدها واساليبها ورسم حدودها الفنية ، إضافة الى أنواع اخرى من الفنون المحلية في الموصل كالالحان الدينية والاغاني العشائرية ومنها الاهازيج والركباني .

إن من أبرز مايجب ان نذكره في هذا المجال أن الموسيقى العباسية تركت في كل من بغداد والموصل لوناً غنائياً ذا أسلوب خاص بقي خلال فترة السيطرة العثمانية وما بعدها وهو غناء المقام الذي يطلق عليه الآن (المقام العراقي) فهو وليد تلك الحركة الموسيقية العريقة التي تتصل جذورها بموسيقى العباسيين منذ أيام إبراهيم الموصلي وابراهيم ابن المهدي وغيرهما. وهو وان طرأ عليه التطوير والتغيير ودخول المصطلحات الاعجمية عليه زمن التسلط الاجنبي من مغول وغيرهم الاّ ان ملامحه بقيت عربية ترتبط بالماضي العريق. ولا يستند الى أدلة مقنعة الرأي القائل بأن المقام العراقي يرجع تاريخه الى حوالي الثلاثمائة سنة بحجة انه لم يرد له ذكر في المصادر القديمة. فهذا الرأي لايصح لان عدم تسميته بالمقام لاينفي وجوده ، وليس كل ما لااسم له آنذاك (كبعض الامراض مثلاً) لم يكن موجوداً.

اما الادلة التي تنهض لاثبات صلة المقام العراقي بالغناء العباسي فهي كثيرة منها انسجامه مع التطريب الذي يألفه الطبع العربي والذي يتم بالغناء المسترسل غير الصاخب ، وهو شائع في العصر العباسي ، ويغنى بأبيات قليلة من الشعر قد لاتزيد على البيت الواحد كما فعل (مخارق) أمام الرشيد فقد غناه بيتاً واحداً فبكى الرشيد لغنائه ومنح مخارق خمسة آلاف دينار[٢] . فلا يكون هذا الغناء الا المقام او مايشبه المقام ومنها ان غناء المقام هو الفن الكلاسيكي بالنسبة للاجيال الماضية

ويتمتع بالاحترام المتوارث من المجتمع ، بل كان الغناء الرسمي الذي يغنى امام الملوك والامراء فهو الغناء الذي يناسب (المقام) اي مقام الملوك والامراء ، وكان قبل ذلك يغني امام الخلفاء العباسيين ولم يكن يسمى بالمقام ومنها ورود كلمات في المصادر القديمة تستعمل حتى الآن في فنون المقام العراقي كالصنعة[٣] والتفرعات[٤]. وكذلك الابتداء ببعض الألفاظ وهو مايشبه ابتداء المقام العراقي ، فقد جاء في كتاب الاغاني إن عمرو بن ابي الكنّات حضر يوماً عند الرشيد وكان عنده كبار المغنين مثل ابراهيم الموصلي وزلزل وابن جامع وغيرهم فغنى أمامهم اغنية أولها «ألا لا» فطربوا جميعاً لصوته وطرب الرشيد وأجزل له العطاء ، وخرج المغنون وكل منهم يسأل صاحبه عن الغناء الذي أوله «ألا لا»[٥]. وربما كان هذا الابتداء «ألا لا» في الغناء العباسي هو الابتداء المتوارث الذي نسمعه الآن في المقام العراقي مثل (آلال بالال) في مقام الطاهر، او (ألي للي) في مقام السيكاه او غير ذلك.

وقد اصبح للمقام العراقي مدرستان : المقام الموصلي والمقام البغدادي. وما يهمنا هنا هو المقام الموصلي الذي أخذ اتجاهاً خاصاً له يختلف عن المقام البغدادي أو غيره (مقام كركوك) مما يدل على مكانة الموصل في فنون الموسيقى والغناء وانتهاجها نهجاً فنياً يختلف عما هو في المناطق الاخرى. ووجه الاختلاف في غناء المقام العراقي هو انه ببغداد يلتزم المغني بعد الابتداء بقيود نغمية يحفظها حسب تسلسلها ولا يخرج عنها. اما في المقام الموصلي فان المغني بعد أن يبدأ الابتداء نفسه كما في المقام البغدادي يأخذ بالتصرف الحّر في الغناء ، ولا يتقيد بتلك القيود ، بل يتنقل بين النغمات كما يشاء مرتجلاً الألحان حسب براعته وتمكنه من الأداء ، ثم يرجع الى النهاية التي يختم بها المقام. ولاشك أن في ذلك مجالاً للاجادة والابداع الذي لايقدر عليه الاّ كبار المغنين.

ومن أول المواصلة الذين اشتغلوا بتوثيق غناء المقام والكتابة عن اصوله وفنونه : احمد بن عبدالرحمن الموصلي القادري الرفاعي ، المعروف بالمسلّم الموصلي ، المتوفى في حدود سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٦م) ، وهو شاعر له شعر رقيق وموشحات بديعة منها موشح (في هوى شمس الملاح) وموشح (ياعذولي ليك عني). ومن أهم اعماله ترجمة رسالة (الدر النقي في علم الموسيقى) الى اللغة العربية وهي رسالة تبحث في المقامات الغنائية وتتكون كما يقول الموصلي من مقدمة وثلاثة ابواب وخاتمة.

اما المقدمة فهي تتناول بيان أصل هذه المقامات وكيفية نشوئها وسبب تسميتها والباب الاول : يبحث في أن كل مقام كان لحن نبي من الأنبياء وان اصلها سبعة ثم تشعبت. والباب الثاني : في ذكر دائرتها وتعلقها بالبروج والافلاك على التفصيل. والباب الثالث : في ذكر طبائعها وما يوافقها من الأحرف حالة القراءة. والخاتمة : في ذكر المجالس وما يوافق كل مجلس منها على حسب طبائع المستمعين ، وذكر كيفية قراءتها والتنقل من مقام الى مقام ، وبأي منها يكون الابتداء والاختتام[٦].

ويذكر في هذه الرسالة اسطورة عن نشوء الموسيقى خلاصتها ان النبي موسى ناجى ربه في التيه وكان يشكو العطش فجاءه جبرائيل وقال له : ياموسى ان الله يقرئك السلام ويقول : إضرب بعصاك الحجر. فضرب موسى بعصاه الحجر (فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً) فبان من كل عين صوت حسن يختلف عن الصوت الآخر. فهذه الاصوات هي اصل المقامات الاثنتي عشرة ، وعندها قال جبرائيل (ياموسى إسقِ) فاندمجت هاتان الكلمتان واصبحتا (موسقِي) او موسيقى.

ويقول ان هذه المقامات الاثنتي عشرة مركبة من الطبائع الاربع وهي النارية والمائية والترابية

والهوائية. فبعض المقامات طبعها ناري كالراست والبوسليك، وبعضها مائي كالمخالف وبعضها ترابي كالحسيني والمقابل والنوى، وبعضها هوائي كالحجازي والزنكولة[٧]. ويضيف الى ذلك ان الناس على طبائع شتى في اللطافة والكثافة وانه لكل مقام (مقامٌ) ومقال فاذا كنت بمجلس المشايخ والصوفية فلتكن قراءتك بمقام المقابل والعربيون لأن قلوبهم رقيقة من الطاعات وأطباعهم سليمة لطيفة من المجاهدات فلو سمعوا من المقامات النارية لتمزقت قلوبهم.

واذا كنت بمجلس العلماء فلتكن قراءتك بمقام العشاق والحجازي لانهم في غاية الحرارة بعلومهم وهذه مقامات باردة .

واذا كنت بمجلس العوام فاقرأ المقامات النارية لان طباع هؤلاء كثيفة قوية[٨].

وكانت قد بدأت في الموصل في اواخر القرن السابع عشر الميلادي حركة فنية موسيقية واضحة المعالم، ربما كان سببها الاستقرار السياسي الذي صارت المدينة تشعر به حيث كانت الدولة الحاكمة (الدولة العثمانية) قد بلغت أوج عظمتها، وتوغلت جيوشها الى قلب اوربا، وهو الاستقرار السياسي الذي اعقبه استقرار اقتصادي واجتماعي. وكان من رواد هذه الحركة الشيخ عثمان الخطيب.

كان الشيخ عثمان الخطيب بن يوسف بن عز الدين الخلوتي القادري الموصلي، المتوفى سنة ١١٤٥هـ (١٧٣٢م) من اشهر الملحنين من اهل الموصل في اواخر القرن السابع عشر الميلادي، وقد اشتهر بتلحين الموشحات وله مايزيد على الخمسين موشحاً من مختلف المقامات واشهرها الموشح المسمى بسلسلة الرست ويتألف من اربع قطع ومطلعه (ياباهي الجمال جُدْ لي بالوصال)، وكذا الموشح المسمى بسلسلة الصبا ويتألف ايضاً من اربع قطع ومطلعه (صلوا على طه حبيب الرحمن) كما له ايضاً موشح (دمعي جري كالانهار) من نغم الابراهيمي، وموشح (يامليح الحي صلني) من نغم الحسيني، وموشح (مَنْ مجيري من غرام قد توالى في الفؤاد) من نغم المنصوري، وموشح (صلاة من الله رحمة) من نغم الحسيني، وموشح (صلاة من الله تغشى دائماً) وهو من نغم الجهاركاه ولا يزال ينشد حتى الآن في الموالد والحفلات. وكذلك موشح (ياالهي قد رجا منك الهوى) من نغم الجهاركاه ايضاً، وموشح (صلاتي وتسليمي وأزكى تحياتي) من نغم السيكاه، وغيرها من الموشحات الجميلة (وقد ذكرها العالم الدكتور المرحوم محمد صديق الجليلي: نقلاً عن كتيبه «التراث الموسيقي في الموصل».

اما أشهر من اهتم بالشعر والموسيقى من اهل الموصل في القرن الثامن عشر[٩] فهو الموسيقار الشاعر الشيخ قاسم الرامي: وكان اديباً شاعراً، عارفاً بالموسيقى وخبيراً بالايقاع والنغمات والنقرات، لا يشذّ عنه شيء منها. وكان يعاشر شيوخ الصوفية ويحضر معهم السماع، ويحدو لهم فيسكرهم طيب حَدْوه وغرابة شَدْوه. وكان مشهوراً بسرعة نظم التاريخ الشعري وله قصائد جميلة في المديح والنقد والالغاز وتحتوي على كثير من الفنون البلاغية من تورية وجناس. وكان ينظم الموشحات ويلحنها ومنها الموشح المعروف (يارب صلِّ على من للمعالي علا)، وقد لحنه من مقام (سلمك). وكانت وفاته في الموصل سنة ١١٨٦هـ (١٧٧٢م)[١٠].

واشهر من ظهر من الموسيقيين والمغنيين من أهل الموصل في القرن التاسع عشر: الاديب المقرئ الموسيقار الشيخ سعدي بن محمد امين بن سعدالدين ال شيخ القراء الموصلي، وكانت له اليد الطولى في الالحان والموشحات. وقد سافر الى بغداد واقام فيها ونقل اليها الشيء الكثير من التواشيح والتنزيلات الموصلية. وكانت اقامته في بغداد في زمن ولاية سليمان باشا الكبير ثم رجع الى الموصل



عام ١٢١٧هـ (١٨٠٢م) لحدوث الطاعون فيها، وبعد ذلك عاد الى بغداد في ولاية داود باشا. وكان ينظم الشعر على وزن الموشحات ويُعْزى اليه نظم كثير من الموشحات التي تقرأ في الموالد في بغداد. وذكر مؤلف كتاب مطالع السعود انه التقى به في بغداد عام ١٢٣٤هـ وقد اخبره ان له مؤلفاً في علم الموسيقى ولكنه لم يطلع عليه، غير أن المعروف عنه عنايته بغناء المقام وقد ضمّن اسماء عدد من المقامات في احد موشحاته وهو:

قلبي اليك قد صبا
مولّع من الصبا
نار الحجاز في الجوى
قد احرقتني في النوى
الركب من نجد سرى
مقابلاً خير الورى
ذخري مخالف العجم
ليس مخالف الكرم
ياأبا طاهر أجر
من بحماك ينتصر

فقد ذكر مقام (الصبا) و (الحجاز) و (النوى) و (المقابل) و (المخالف) و (العجم) و (الطاهر).

وقد توفي سعدي بن محمد امين ببغداد ودفن في جامع الفضل، وهو جد عائلة (السعدي) المعروفة في بغداد الآن[11]

ومن هؤلاء ايضاً: صالح السعدي بن يحيي افندي آل محضر باشي، وكان عالماً بالموسيقى وقد حل رموز كتاب الاغاني الكبير للاصفهاني، وكانت وفاته عام ١٢٤٤هـ (١٨٢٩م).

ومنهم ايضاً حسن الشكرجي بن محمد بن احمد البياتي: وهو لم يكن موصلياً وانما سكن الموصل وتوفي فيها سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) ودفن في مقبرة عمر المولى. وكان مشهوراً بغناء مقامات معينة منها مقام الحويزاوي. وهو أول من أدخل نغمة (المقابل) الموصلية في الغناء البغدادي. وممن اخذ عنه الحاج محمود بن طيبة الحائك البغدادي الذي سكن البصرة. وكان حسن الشكرجي ممجداً في جامع المرادية ببغداد، وكان يقرأ في الذكر الرفاعي بجامع السيد سلطان علي[12].

اما المغنون والموسيقيون من أهل الموصل الذين ادركوا القرن العشرين، منذ ابتدائه وحتى سقوط الدولة العثمانية فهم:

١- عبدالله الكركوكي ثم الموصلي: أصله من كركوك ثم سكن الموصل وتعلم الغناء فيها، وكان من مشاهير قراء المقام وقد تتلمذ عليه عثمان الموصلي الموسيقار المشهور واخذ عنه المقامات، وكانت وفاته سنة ١٩٠٢.

٢- اسكندر الموصلي آل يوسف زغبي: كان استاذاً للموسيقى في مدرسة الدومينيكان في الموصل. وهو اشهر من نظم الازجال الانتقادية والاجتماعية باللهجة الموصلية على الالحان التي كانت شائعة آنذاك والتي تسمى الان (المونولوجات). نزح جده يوسف زغبي من حلب الى الموصل سنة ١٧٥٨ وكان صرافاً لولاية الموصل. وقد توفي في حدود سنة ١٩٠٥.[13]

٣- احمد علي الصفو: اشتهر بغناء شعب المقامات وقد سجل بعض الاسطوانات الفوتوغرافية، وكانت وفاته في حدود سنة ١٩٠٨، وهو ابن علي الصفو الذي يعد من اشهر قراء ومنشدي التكية القادرية في الموصل.

٤- شكر الموصلي، المتوفي سنة ١٩٠٨، وكان من يهود الموصل ويعد من أشهر عازفي القانون في عصره.

٥- ابراهيم بن حمادي العزاوي، المتوفي سنة ١٩١٠، وكان من مغني المقام المعروفين وله بعض الاسطوانات الفوتوغرافية.



٦- حسين الاعرج، المتوفى سنة ١٩١٠، وهو من مطربي الموصل المشهورين وقد اشتهر بغناء مقام المقابل بشكل خاص.

٧- حسين علي الصفو، المتوفى سنة ١٩١١، احد قراء المقام المشهورين وكانت له الرئاسة في الغناء الموصلي. سافر الى بغداد واجتمع بالمطرب البغدادي المشهور أحمد زيدان وغنى معه وكانت محفوظاته من الشعر الراقي وله تسجيلات صوتية على الاسطوانات الشمعية القديمة المنقولة على الاشرطة.

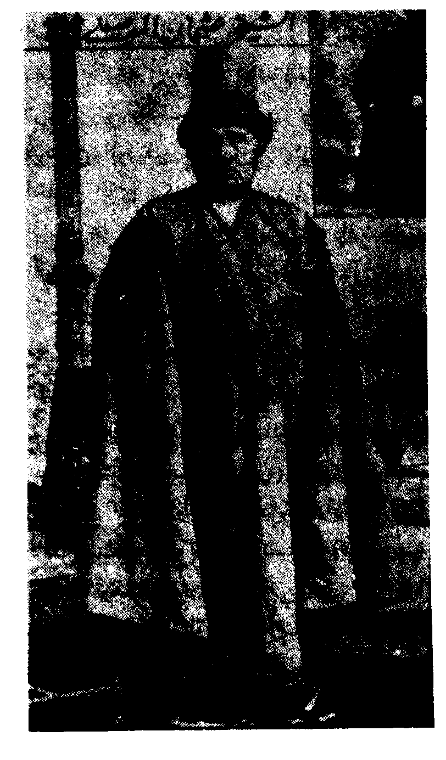
٨- عزيز القصاب، المتوفى سنة ١٩١٢، كان من تجار الاغنام ومن هواة الغناء، وقد اشتهر بغناء القدود الحلبية والموشحات والادوار المصرية وله بعض الاسطوانات الفوتوغرافية.

٩- محمد حسكة الموصلي، المتوفى سنة ١٩١٢، كان من مشاهير قراء المقامات في عصره في الموصل.

١٠- حسن الوتار بن السيد محمود النوري الموصلي، المتوفى سنة ١٩١٦، من المغنين المشهورين في الموصل في اواخر الحكم العثماني.

وعندما اضطرت الدولة العثمانية في اواخر الحرب العالمية الاولى الى تجنيد الاطفال والشيوخ المتقدمين بالعمر للدفاع عن الامبراطورية كان حسن الوتار مع هؤلاء، فسيقوا في طابور خاص لايزال الموصليون يتندرون به ويطلقون عليه (طابور ابو شخاطة) الى مدينة حلب، وفيها بَهَر حَسَن الوتار أهل حلب بصوته وغنائه واخذوا يقيمون له الحفلات التكريمية، ثم توجه بعد ذلك الى جبهة القتال وهناك انقطع خبره حيث لقي مصيره الابدي[١٤].

الملا عثمان الموصلي: الموسيقار الشاعر المتصوف هو عثمان بن الحاج عبدالله الموصلي، عبقري زمانه ونادرة عصره في الموسيقى والالحان والغناء، ويعد من ألمع النوابغ الذين أنجبتهم الموصل الحدباء. ولد عام ١٨٥٤ في الموصل، وتوفي والده وهو في السابعة من عمره ثم لم يلبث ان اصيب بفقد بصره على أثر اصابته بمرض الجدري فأصبح يتيماً كفيفاً لامعيل له، فعطف عليه احد الوجهاء من جيرانه وهو محمود افندي العمري فأخذه الى بيته وضمه الى اولاده وجعله موضع عنايته، وهناك حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلبه فقد عرف بشدة الذكاء وسرعة الحفظ، كما حفظ الأشعار والموشحات وتهيأت له



• الملا عثمان الموصلي.

دراسة الادب واللغة والموسيقى منذ صغره على علماء الموصل وشيوخها. وعندما بلغ أشده سافر الى بغداد ليكمل دراسته فيها ثم رجع ليواصل طريقه الى



استانبول عاصمة الخلافة العثمانية وهناك درس القراءات العشر على مفتي لواء أزمير وتعرف على شيخ مشايخ الطرق الصوفية السيد محمد ابي الهدى الصيادي الذي قربه اليه وألحقه بمريديه، ثم اوصله الى السلطان العثماني عبدالحميد حيث اصبح الرجل المقرب الى السلطان والموسيقار الخاص له، وكان موضع عناية من البلاط الى درجة انه كان يمثل الخليفة العثماني في بعض البلاد الاسلامية. وزار مصر فبقي فيها خمس سنوات. وقد اعجب المصريون بعبقريته الموسيقية ونبوغه في الألحان والمقامات والموشحات فالتفوا حوله وأحاطوه باحترامهم وتقديرهم، حتى ان مؤلفي تاريخ الموسيقى المصرية ذكروه في مقدمة الاساتذة الذين خدموا فنون الموسيقى والموشحات في مصر وقد درس عليه عدد من الموسيقيين المشهورين مثل محمد كامل الخلعي الذي ذكره في كتابه (الموسيقى الشرقي) والشيخ علي محمود الذي درس عليه الموشحات والمقامات، والشيخ احمد ابو خليل القباني الذي درس عليه الألحان. كما درس عليه الشيخ محمد رفعة شيخ قراء مصر وهو أشهر طلابه في قراءة القرآن.

وفي مصر تعرف عثمان الموصلي على المغني المصري المشهور (عبده الحمولي) الذي كان يتربع على عرش الشهرة والمجد فيها، وكان الالتقاء بينهما حافلاً حيث اعجب كل منها بصاحبه وكانت بينهما صلات توثقت على ارهاف فني حتى انهما كانا يجتمعان الليالي الطويلة في حفلات غنائية موسيقية يتناوبان فيها ضروب الغناء والعزف الى أن يدركهما الصباح.

لقد كانت إقامة عثمان الموصلي في مصر خصبة كثيرة العطاء ليس من الناحية الموسيقية فحسب بل من نواح اخرى. فقد طبع عدداً من كتبه الادبية والشعرية، ومارس الصحافة إذ أصدر مجلة في القاهرة اسمها (المعارف) بين عامي ١٨٩٥- ١٩٠٠. كما اتصل باقطاب الطريقة المولوية في مصر وكان يحضر جلسات الذكر معهم، ثم إنتسب الى هذه الطريقة لانها لقيت هوىً في نفسه فهي تجمع بين التصوف والموسيقى. ومنذ ذلك الوقت ارتدى زي المولوية المكون من الرداء الفضفاض والقلنسوة الطويلة ذات العمامة، حتى قبيل وفاته.

وفي مطلع عام ١٩٠٩ كان الموصلي في بلاد الشام، وإبان وجوده فيها قدمت فرقة غنائية من مصر برئاسة أمين عطا الله وأخيه سليم عطا الله. وكان بين اعضاء الفرقة فنان موهوب هو سيد درويش وكان لايزال في طور نشوئه وقد تعرف عليه أمين عطا الله في القاهرة ولمس موهبته الفنية فقرر الحاقه بهذه الفرقة. وقد مكثت الفرقة في الشام عشرة أشهر اتصل سيد درويش خلالها بالشيخ الموصلي وظل ملازماً له طوال تلك المدة. وقد كان نجاح الفرقة ضئيلاً فرجعت الى مصر لتجند مواهب جديدة وتهيئ نفسها لمرحلة ثانية بعد ثلاث سنوات. ورجع سيد درويش الى استاذه عثمان الموصلي ليواصل دراسته عليه في الالحان والمقامات والموشحات التركية ويستمع الى انغام شرقية جديدة. وقد استطاع النابغة المصري خلال دراسته على عثمان الموصلي لمدة عامين (١٩١٢ - ١٩١٣) ان يأخذ الكثير من فنون الموسيقى وقد حفظ عن استاذه كل ممتع رائع من الغناء والالحان مما جعله قادراً على التصرف بالنغم الشرقي وادخاله في الاغاني المبتكرة [١٥].

وقد أشاد المؤلفون المصريون بالدور الذي قام به عثمان الموصلي في تدريس الموسيقار المصري سيد درويش وتزويده بالالحان التي اقتبس منها اغانيه، ومن هؤلاء الاستاذ محمد البحر ابن الموسيقار سيد درويش، فهو يقول عن هذه الالحان انها «الحجر الاول في بناء مجد أبيه سيد درويش، وأنه رجع بعدها الى الاسكندرية بعد أن امتلأت جعبته الفنية من فن الاستاذ عثمان الموصلي.. وقد حفظ الكثير



من الاغاني والموشحات)[١٦].

ورجع عثمان الموصلي الى بلدته الموصل عام ١٩١٣ فأقام فيها فترة افتتح خلالها تكية مولوية في مسجد شمس الدين فكانت تقام فيها جلسات ذكر موسيقية. ولم تلبث الحال اذ قامت الحرب العالمية الاولى بين الامبراطورية العثمانية وخصومها وذلك عام ١٩١٤ واكتوت الاقطار العربية بلهيبها ووجد العراق نفسه مشتركاً فيها فساءت الظروف المعاشية في البلاد وعندئذٍ ترك الشيخ عثمان بلدته الموصل متوجهاً الى بغداد ليقيم في دار ولده فتحي. واغلقت التكية المولوية ابوابها وانصرف الناس عن الموسيقى والغناء الى متابعة انباء المعارك الشرسة، حتى كانت نهاية الحرب وتشكيل الحكم الوطني في العراق.

لقد استطاع عثمان الموصلي ان يترك في الموسيقى العربية آثاراً عميقة يتلمسها من جاء بعده من الموسيقيين، بل ترك الأثر العميق في الموسيقى التركية ايضاً. فمنذ سفره الى عاصمة الخلافة العثمانية استانبول اصبح قبلة أنظار الموسيقيين الاتراك يقصدونه لدراسة فن الموشحات والمقامات النغمية عليه وكان منهم الموسيقار المعروف (سامي بك) والمغنية نصيب، في الوقت الذي كان يمارس الغناء التركي الذي اخذه عن اساتذة اتراك امثال (حسين فخر الدين دده) شيخ الطريقة المولوية (وذكائي دده) وغيرهما.

واشتهر عثمان الموصلي في اول أمره باحياء الحفلات الموسيقية الخاصة مع بعض الموسيقيين الهواة الاتراك ومنهم محمد امين باشا والحافظ شوقي وبسته نكار ضياء بك، فيجتمعون في قصر شيخ الاسلام لاقامة حفلة غنائية فيه كل اسبوع، وكان الشيخ الموصلي يعزف على آلة القانون[١٧]. ثم صار بعد ذلك يحضر في ليالي رمضان في احد المقاهي المشهورة بمنطقة شهرزادة باشي، وكانت تقام في هذا المقهى حفلات الغناء المعروف في تركيا باسم (فصل هيثتي) اي جالغي المقام، فيشترك في الغناء مع عدد من الموسيقيين الاتراك المشهورين كعازف القانون شمسي بك وعازف الكمان ممدوح، والمغني المعروف قره قاش افندي وغيرهم الذين يشكلون جوقاً موسيقياً كاملاً يصاحبه (كورس) من المغنين والمغنيات فيؤدون الاغاني الثقيلة والخفيفة والقطع الموسيقية من بشارف وسماعيات، وكان عثمان الموصلي يقدم الحانه الشجية الخالدة ويقوم بالغناء وبالعزف[١٨].

ومن الموسيقيين الاتراك الذين تأثروا بعثمان الموصلي: الموسيقار كاظم اوز (ويسمى ايضاً المعلم كاظم بك)، وهو احد الموسيقيين والمؤلفين الاتراك الذين لمع اسمهم في اوائل هذا القرن والذين كتبوا في فنون الموسيقى ومصطلحاتها، وكان قد لازم الموصلي قبل سفره الى مصر وأخذ عنه المقامات العراقية، كما استفاد منه في تحديد بعض المصطلحات الموسيقية التي جمعها في كتابه المسمى (موسيقى اصطلاحاتي) الذي طبع في استانبول عام ١٩٨٤، ويبدو أثر الموصلي واضحاً في هذا الكتاب[١٩]، ولا عجب في ذلك فان الشيخ عثمان كان استاذاً للموسيقى في مدارس العاصمة استانبول فترة من الزمن.

وقد أوجد هذا العبقري الموصلي في تركيا اسلوباً من الغناء لايزال الاتراك يعترفون به ويطلقون عليه اسم (اسلوب الحافظ عثمان الموصلي) ويذيعون أغاني تركية على نمطه من اذاعاتهم، وقد سجلوا بعضه على اسطوانات تباع في الاسواق. وسمع بعض الفضلاء مرة في دار الاذاعة التركية بأنقرة تسجيلاً غنّى فيه عثمان الموصلي على اسطوانة قديمة اغنية من نوع (غزل) وهو شكل غنائي يشبه المقام العراقي ويغنّى فيه شعر غزلي. ومما يدل على قيمة الالحان التي وضعها عثمان الموصلي اهتمام الاتراك بها وتسجيلها بأصوات المطربين الجدد على اسطوانات موجودة في حوانيت الموسيقى. كما ان لهذا الموسيقار

معزوفات موسيقية كثيرة وضعها في اثناء وجوده في تركيا وهي مسجلة الآن في دار الاذاعة التركية في استانبول وقد اطلع عليها بعض الموسيقيين نذكر منها قطعة موسيقية من نغم (شرقي نهاوند) اطلع عليها الموسيقار المرحوم جميل بشير في احدى سفراته الى تركيا فنقلها كما هي واثبتها في كتابه المسمى (العود وطريقة تدريسه).

ومن المعروف ان عثمان الموصلي كان يجيد الغناء التركي اجادة تامة ويؤديه بمصاحبة كبار الموسيقيين الاتراك ومنهم الموسيقار المشهور جميل بك طنبوري (توفي سنة ١٩١٦)، وقد سجلا معاً بعض الاسطوانات، وكنت قد اطلعت على اثنتين منها واستمعت اليها، الاولى يغني فيها الملا عثمان مقام اصفهان ومقام عشاق، والثانية يغني فيها مقام حجازكار شرقي ومقام هزام ويصاحبه فيها جميل بك بالعزف على الطنبور، وقد كتب على كل من الاسطوانتين باللغتين: التركية بالحروف العربية والفرنسية اسم (الحافظ عثمان افندي)، وهذا هو اسمه الذي يعرف به في تركيا.

اما في مصر فان عثمان الموصلي اول من ادخل نغمات الحجازكار والنهاوند وفروعها حيث كانت غير معروفة فيها. وقد عُرف عنه انه كان له أسلوبه الخاص في غناء الأدوار المصرية. فمثلاً كان الدور المشهور (سلمت روحك يافؤادي للغرام من غير ماتعلم) وهو من مقام البيات ومن الحان داود حسني، كان يغنيه ثم يصعد بميانة المخالف الموصلي (شرقي دوكاه) مردداً (الأمر أمرك) الى ان يستقر على هذا المقام ثم يأخذ بالعودة الى لحن الدور نفسه وهذا من فنون الغناء التي لم يسبقه فيها أحد.

وقد ترك عثمان الموصلي في مصر الحاناً رائعة اقتبسها منه تلميذه سيد درويش وغناها باسلوبه الخاص مثل (طلعت ياملى نورها) و (زوروني بالسنة مرة)، وكانت في الأصل الحاناً لموشحات دينية لايزال ينشدها قراء الموشحات في الموصل.

وفي سوريا كانت له مواقف موسيقية وغنائية مشهودة، منها نظمه وتلحينه وغناؤه لقصائد شعرية في حفلة ختان اولاد عبدالرحمن باشا اليوسف وهي قصائد طويلة نذكر المطلع من كل منها:

القصيدة الاولى، مطلعها:

خليلي أدر لي كؤوس الطلا
وزمزم بما يطرب البلبلا

والقصيدة الثانية، مطلعها:

ظبي كحيل ذو حور
بدا فأخجل القمر

والقصيدة الثالثة، مطلعها:

دارت بنا الاكواب كالكواكب
وزفها الساقي لخير شارب

والقصيدة الرابعة، مطلعها:

طائر الاقبال بالافراح بشر
حين غنى بلبل البشر وصفّر

وقصيدة أخرى هنأ فيها عبدالرحمن باشا اليوسف، كان بيت التاريخ فيها قوله:

وتغنى بأطيب اللحن أرخ
(مجد عبدالرحمن خير لبالا)

وفي هذه الحفلة طلب منه وجهاء القوم ان يغني فأخذ القانون وعزف عليه فتجاوز بعزفه الساحر حد الابداع ثم غنى موشح ابن سهل وهو:

ياليالي الوصل في نادي الصفا
هل لك اليوم الينا من رجوع

فأجاد وأطرب ونال اعجاب الحاضرين [٢٠].

وقد ترك عثمان الموصلي في العراق، بعد رجوعه من استانبول، تراثاً غنائياً موسيقياً ثرّاً. ففي الموصل درس عليه عدد من المشتغلين بالالحان والمقامات والموشحات منهم الحاج سلو الجزجي المتوفى سنة ١٩٣٣، والسيد احمد عبدالقادر الموصلي المتوفى سنة ١٩٤١، ومحمد بن سرحان المتوفى سنة ١٩٤٩، والحاج محمد بن الحاج حسين الملاح المتوفى سنة ١٩٤٩. اما في بغداد فقد درس عليه



كل من عبدالرزاق القبانجي المتوفى سنة ١٩٣١ ، والحاج احمد بن دبيس المتوفى سنة ١٩١٧ ، والحاج محيي الدين مكي المتوفى سنة ١٩٤٣ ، وعبدالفتاح معروف المتوفى سنة ١٩٨٩ وغيرهم.

وللملا عثمان كثير من الألحان التي اندثرت مع الاسطوانات الشمعية التي كان يسجلها عليها بصوته ويرسلها من استانبول الى اصدقائه في العراق والتي لم يبق منها شيء الآن ، ومن ذلك اغنية من نغم الراست هي :

عرف الغرام بمهجتي فتمنعا
وراه قلبي لايرق فودعا
يومي اقلب راحتي وليلتي
ارعى النجوم وليته في ذا وعى

واغنية اخرى من نغم السيكاه في بيتين من الشعر مع كلمات رقيقة تتضمن تحية الى أهل بلدته الحدباء ، والبيتان هما :

أقول لصحب ضمت الكأس شملهم
وداعي صبابات الهوى يترنم
خذوا بنصيب من نعيم ولذة
فكل وان طال المدى يتصرم

وكذلك اغنيته المشهورة وهي من نظمه وتلحينه وغنائه ومطلعها :

للعاشق في الهوى دلائل
لايسمع من كلام عاذل
يامن رحلوا وخلفوني
ابكي اسفاً على المنازل

ومن لحن هذه الاغنية وضع النشيد المدرسي (اطلال بني العرب الاوائل) الذي كان ينشد في عهد حكومة فيصل الاول في المدارس الابتدائية العراقية.

وللملا عثمان الموصلي ألحان رائعة لاتزال تتداولها الحناجر ويغنيها المطربون الشباب في العراق منها :

١ - اغنية (فوق النخل فوق) الشهيرة والتي هي من أقدم الحان عثمان الموصلي وكانت في الاصل موشحاً دينياً اوله (فوق العرش فوق).

٢ - اغنية (ربيتك صغيرون حسن) وهي في الاصل موشح أوله : (ياصفوة الرحمن سكن - فيكم غرامي) من نغم البيات.

٣ - اغنية (ياخشوف على المكرية) من نغم السيكاه وقد أخذتها عنه (صديقة الملاية) وغنتها في الاذاعة. وتغنيها الآن فرقة الموشحات..

٤ - اغنية (يابنت المعيدي خلخالج دوى) التي من نغم البيات.

٥ - اغنية (ياأم العيون السود) التي اخذها عنه المرحوم ناظم الغزالي.

٦ - اغنية (اسمر ابو شامة) من نغم النهوند ، ويغنيها احد المطربين المعروفين في العراق ، وهي مأخوذة من موشح لعثمان الموصلي اوله : (احمر أتانا بحسنه سبانا).

واقتباس الحان الموشحات وتحويلها الى اغانٍ خفيفة بوساطة بعض صغار المغنين كان شائعاً في العراق بعد الحرب العالمية الاولى. فكانت توضع كلمات عامية بدلاً من كلمات الموشح الاصلية ، وتغنى الاغنية من دون ان يعرف صاحبها. وكانت الموشحات والقصائد الدينية في اواخر العهد العثماني منتشرة وشائعة في البلاد الاسلامية لسيادة الجو الديني آنذاك.

وكان الملا عثمان الموصلي قطباً من اقطاب تلحين الموشحات ورئيساً روحياً لفرق الاذكار والموالد في الموصل وبغداد لم يزاحمه في ذلك احد ، فكان ينظم الموشحات ويلحنها وينشدها في الحفلات والمجتمعات مع عدد من مريديه وطلابه.

ولم ينضب عطاء الموصلي حتى في ايامه الاخيرة التي قضاها في بغداد فقد كان شاعراً وملحناً ومعلماً للموسيقى ووطنياً مشاركاً في ثورة العشرين ضد الانكليز حتى ادركته الشيخوخة ثم وافاه الأجل في ٣٠ كانون الثاني من عام ١٩٢٣ [٢١].



الفنون الايقاعية والفولكلورية :

وفي العهد العثماني اسهمت الطرق الصوفية في نشر الموسيقى والالحان الدينية والموشحات وكان من أبرزها الطريقة القادرية التي تقوم بعقد جلسات الذكر في التكية القادرية التي بناها السيد محمد النوري القادري ابن السيد جرجيس الموصلي المتوفى سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧م) داخل الجامع الكبير. وقلما يوجد من سكان محلة الجامع الكبير في الموصل من ابناء الجيل الماضي من ليس له المام ولو قليلاً بالالحان والموشحات[٢٢]. وكان من أشهر قراء ومنشدي التكية القادرية علي الصفو الموصلي (المتوفى حوالي سنة ١٨٩٥) وكان ايضاً ينظم المواليا الزهيريات.

وكانت الموسيقى العسكرية لها مكانتها في الموصل طوال سني الحكم العثماني، وكانت تدعى (الطبلخانة) و (المهترخانة) وتتكون من ضاربي الطبول والصنوج ونافخي الابواق وعازفين على الآلات الوترية وتقدم الحاناً جميلة لاسيما في الاعياد والمناسبات السعيدة كارتقاء السلاطين للعرش وولادة ولي للعهد كما حدث عند ولادة سليم ابن السلطان مصطفى، فزينت اسواق الموصل ومحلاتها وسمع الناس الموسيقى تنبعث من سراي الوالي صباحاً ومساءً لمدة سبعة ايام بلياليها.[٢٣]

اما فن الرقص في الموصل فلم تذكر المصادر التاريخية رقصاً متميزاً في هذه المدينة إبان العصر العباسي وما بعده. غير ان انواعاً من الرقص عرف منذ زمن الامويين وانتشر في البلاد العربية كالمشي بالدف، وهو رقص خفيف لايزيد عن التمايل اثناء المشي والتحرك على ايقاع الدف، ورقص الجواري وكن يمارسنه كما هو في بلادهن، وكذلك رقص الهنود والاحباش. وتطور المشي بالدف بشكل خاص الى رقص جميل هو رقص (المثلثة).

ورقص المثلثة (او الرقصة المثلثة) مارسها ابناء الموصل في اواخر العهد العثماني وادركنا بقية منها في الثلث الاول من هذا القرن، وكانت تؤدى في الافراح والموالد ويقوم بها بعض النساء الوقورات والمتقدمات في السن و (الملآيات) وهن متتابعات وراء بعضهن يؤدين حركات ايقاعية جميلة بأقدامهن، ذات نظام خاص يعتمد على عدد الخطوات الكاملة وانصاف الخطوات، والتمايل مع ايقاع الدف والنقارة وانغام الموسيقى. الا ان هذه الرقصة زالت في الوقت الحاضر ولم يبق لها اثر، وهي اشبه ماتكون برقصة السماح المعروفة في سوريا واظنها من أصل واحد نشأ مع دعاء (اسقِ العطاش) وهو دعاء الاستسقاء المأثور لشيخ مشايخ الطرق الصوفية السيد محمد ابو الوفا المصري. وسميت بالسماح لانها تؤدى في فترات الاستراحة التي تتوسط جلسات الذكر فيسمح الشيخ للمريدين بادائها بعد أن يطلبوا منه الاذن بقولهم : السماح... السماح. وقد جددت هذه الرقصة في سوريا لتأخذ شكلها الحالي في مطلع عام ١٩٤٧ في حلب على يد شيخ الموشحات والسماح المرحوم عمر البطش والمرحوم عبداللطيف النبكي.

وعرفت الدبكة في القرى والارياف القريبة من الموصل وعند ابناء العشائر، وهي رقصة جماعية تعتمد على حركات الأرجل غالباً وتؤدى على انغام المزمار بمختلف أنواعه وايقاع الطبل. وعرفت رقصات اخرى عند البدو وغيرهم لاأهمية لها في المنطقة.

الموسيقى والغناء في الموصل في عهد الحكم الوطني :

تشكل الحكم الوطني في العراق بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى. وقد ارتبط تطور الموسيقى والغناء في الموصل، بنشاط الحركة الوطنية والمتتبع كان يلاحظ انتشار انواع من الغناء في الموصل واطرافها كغناء الركباني وهو غناء محبب اكثر من غيره يغنى في اطراف المدينة نظراً لسهولته وملاءمته للمواقف الحماسية والفروسية، وهو من بحر الرجز



الذي يسهل التعبير به ومن نغم الاوج. وغناء السويحلي الذي ينتشر في المدينة والقرى المحيطة بها لاسيما القرى القريبة من الموصل[٢٤] كما ان الاهازيج والعتابة تنتشر في القرى والارياف والمناطق التي تكثر فيها العشائر العربية حول المدينة. اما داخل الموصل، ففضلاً عما ذكرنا هناك انواع اخرى من الغناء كالليالي واغاني الزفة والاغاني الاجتماعية التي تغنى غالباً باللهجة الموصلية المحلية وكذلك اغاني الاطفال في العيد ورمضان، فضلاً عن المقامات الموصلية واخصها مقام الناري والمنصوري والمخالف، والموشحات والتنزيلات.

وهناك ضرب من الغناء يدعى بالمصلاوية، معروف في بغداد، ويعتقد انه نشأ في الموصل وانتقل منها الى بغداد، يغنيه مطربو المقامات العراقية بعد قراءتهم لمقام الحجاز والمدمي، وتكون كلماته منظومة بأبيات رباعية من الشعر الشعبي ويغنى بنغم الحجاز[٢٥].

اما الاغاني الخفيفة التي تسمى في بغداد (البستات) فهي قليلة في الموصل ومع ذلك فقد انتشر بعضها انتشاراً كبيراً في البلاد العربية كأغنية (الروزنة) وهي اغنية موصلية معروفة[٢٦].

ولأهل الموصل تذوق خاص للغناء والموسيقى ولايفوتون فرصة التمتع بالمناسبات المختلفة فيقيمون حفلات الغناء والطرب. وكانت ايام الربيع مناسبات جيدة لظهور اغانٍ والحان جديدة وظهور مغنين وموسيقيين جدد. وقد اشتهرت الموصل بغناء النزهات في الربيع، فهناك في السهول والروابي المحيطة بالمدينة تضرب الخيام للنزهة والمبيت فيها، ويقضي المتنزهون الليل في الغناء والطرب.[٢٧] ومثل ذلك الغناء في اثناء الاصطياف في حمام العليل وهي بلدة صغيرة جنوب الموصل تشتهر بمياهها المعدنية ويقصدها اهل الموصل للاستحمام والاصطياف في مواسم معينة ويزدحم في تلك المواسم أهل الموسيقى والطرب، وتقام الولائم وحفلات الانس وترتفع اصوات الموسيقى والمغنين من كل جانب، كان ذلك في الماضي القريب. اما الآن فلم يبق شيء من ذلك. وكان لأصحاب الحرف من بنائين وكوازين وحاكة وقزازين وغيرهم اغانيهم الخاصة بهم حتى ان بعض المقامات الغنائية اخذت اسمها من هذه المهن كمقام القزازي. كما ان مقام الناري اشتهر بأنه مقام الحاكة وذلك لكثرة غنائهم له ويظهر انه يتفق مع حركة الدفة والدواسات في آلة الحياكة القديمة في اثناء العمل.[٢٨]

ومنذ السنوات مابعد الحرب بدأت فرق موسيقية وغنائية وتمثيلية تصل من بعض الاقطار العربية الى بغداد والموصل وتقيم حفلاتها في المقاهي بمصاحبة الآلات الموسيقية. وصار للمقاهي دور مهم في نشر الاغنية واللحن. وقد عُرف كثير من المغنين الموصليين والبغداديين المشهورين عن طريق غناء المقهى.

وعندما تشكلت الدولة العراقية وأولت عنايتها بتربية الجيل الجديد عن طريق التوسع في فتح المدارس اهتمت بالنشيد المدرسي وصار الناس يسمعون ألحاناً جديدة وجميلة وتتضمن كثيراً من المعاني القومية والوطنية وتناسب واقع تشكيل الدولة ونيل الاستقلال وتأسيس المملكة مثل نشيد (التاج ضفرناه والعرش أقمناه) وقد أنشد بمناسبة تشكيل اول حكومة ملكية في العراق وتتويج الملك فيصل الاول ملكاً عليها. ونشيد (ياظلام السجن خيم) ونشيد (اوربا لاتغالي فتقولي الفتح طاب) وتتجلى فيها الروح النضالية العربية والتحدي العنيف للاستعمار الاوربي . ونشيد (فزتَ ياقطرنا ظافراً بالمنى) بمناسبة استقلال العراق ودخوله عصبة الأمم.

ولم تبق الايام كما هي فقد تطورت فنون الموسيقى والغناء وظهر المذياع والتلفزيون والتسجيلات الصوتية الحديثة، واصبحت الاغنية العربية في



النصف الثاني من هذا القرن مشاعة في جميع المدن العربية ومنها الموصل التي ظهر فيها نشاط فنّي ملحوظ كتشكيل فرق غنائية ومنها فرقة عثمان الموصلي ، وأسس فيها نادي الفنون ، وبرز موسيقيون ومغنون وملحنون من الشباب الذين درجوا على طريق الفن الاصيل.

فنانو الموصل في القرن العشرين :

ونذكر في مايأتي اسماء المغنين والموسيقيين والملحنين من اهل الموصل الذين ادركوا القرن العشرين منذ قيام الدولة العراقية الحديثة وحتى وقت قريب :

١ - الحاج محمد ملا ايجون الموصلي ، المتوفى سنة ١٩٢٤ : وكان من مشاهير قراء المقام في الموصل وقد اخذ ذلك عن ملا ولي الشهير وله بعض الاسطوانات الفونغرافية .

٢ - محمد بن ذنون الكواز، المتوفى سنة ١٩٢٥ : من قراء المقام المعروفين وله بعض الاسطوانات الفونغرافية .

٣ - السيد عبد القادر الموصلي ، المتوفى سنة ١٩٢٦ : كان من اشهر قراء الموشحات ومنشدي التكية القادرية بالموصل ، وهو والد مطرب الموصل الكبير السيد احمد الموصلي.

٤ - سعيد بن محمد صالح آل شيخ القراء ، المتوفى سنة ١٩٢٧ وكان من منشدي حفلات المولد ومن مطربي الحفلات الغنائية الخاصة .

٥ - عزيز خدّوج ، المتوفى سنة ١٩٢٧ : وكان اشهر عازف سنطور في الموصل .

٦ - السيدة منيرة الهوزوز: عاشت في الموصل خلال الثلاثينيات من سني هذا القرن ، وكانت من مشاهير المطربات المعروفات في العراق والاقطار العربية ولها اسطوانات فونغرافية .

٧ - الحاج سلّو بن صالح الجزجحي ، المتوفى سنة ١٩٣٣ : كان يمتهن بيع التبوغ والسكاير ويعمل ممجداً في جامع نعمان باشا الجليلي ومن منشدي حفلات المولد النبوي كما له اسطوانات فونغرافية .

٨ - محمد بن نعمان ، المتوفى سنة ١٩٣٥ : ضابط ايقاع شهير في وقته في الموصل.

٩ - السيد احمد السيد عبد القادر الموصلي ، المتوفى سنة ١٩٤١ : اشهر مطربي الموصل على الاطلاق واقدرهم على اداء الالحان العراقية والشامية والمصرية وكانت له الرئاسة بالغناء دون منازع. درس على عثمان الموصلي وكان يرافقه ويقصده الى بغداد عند اقامة الملا عثمان فيها . وقد اخذ عنه اغنية (للعاشق في الهوى دلائل) وسجلها بصوته على احدى الاسطوانات ، وهي من الالحان الجميلة والشائعة في الموصل . وقد سافر الى بيروت سنة ١٩٢٣ لتسجيل بعض اغانيه فسجل لشركة بيضافون ٢٨ اسطوانة. ثم سافر اليها ثانية سنة ١٩٢٤ فسجل لشركة اوديون ٣٠ اسطوانة. وسجل في بغداد لشركة پوليفون ٧ اسطوانات. وكانت بعض اغانيه تذاع من اذاعة بغداد. وقد اخذ جميع مطربي الموصل الذين جاءوا بعده اسلوبه في الغناء ، منه مباشرة او من اسطواناته .

١٠ - الحاج محمد بن سرحان الموصلي ، المتوفى سنة ١٩٤٩ : كان سابقاً من قراء قصة عنتر في المقاهي ، ومن منشدي التكية القادرية ومن ملازمي الملا عثمان الموصلي وقد اخذ عنه الشيء الكثير. وكان قد سافر الى بغداد للاجتماع بمطربها الشهير احمد زيدان وغنى معه .

١١ - السيد سلمان بن السيد يحيى الموصلي ، المتوفى سنة ١٩٤٩ : مطرب موصلي مشهور درس الغناء على حسين علي الصفو وكان يتبع اسلوبه في الغناء. وقد سافر الى بغداد لتسجيل ١٥ اسطوانة غنائية في شركة بيضافون بقيت فترة طويلة في التداول .

١٢ - فيض الله امين الموصلي ، المتوفى سنة ١٩٥٠ كان مشهوراً بغناء المقامات وخاصة مقام الابراهيمي والمخالف.

١٣ - علي بن محمد صالح آل شيخ القراء ، المتوفى سنة ١٩٥١ : كان من مشاهير قراء الموصل





مقهى الخضراء في ساحة بلدية الموصل، حيث قام بدور مهم في ازدهار فن التلحين والغناء في الموصل.
عن أزهر العبيدي، الموصل أيام زمان (الموصل، ١٩٨٩) ص ٣١٥

ومطربيها. احترف الغناء في المقاهي وانشاد الموشحات في حفلات المولد.

١٤- السيد ابراهيم بن السيد ياسين الموصلي، المتوفى سنة ١٩٥٤: وهو ابن اخت السيد احمد الموصلي. وكان من منشدي حفلات المولد وقد سجل بعض الاسطوانات لدى شركة اوديون لاتزال متداولة في الموصل.

١٥- اسّي بن عطّو (عطا الله)، المتوفى ببغداد سنة ١٩٥٥: كان بزازاً في سوق الموصل ومن هواة الغناء. وكان ذا صوت جهوري ومشهوراً بغناء مقام الابراهيمي والجبوري والمخالف.

١٦- فضيلة المصلاوية، وتسمى ايضاً (جليلة ام سامي): وهي صاحبة الاغنية المشهورة (دللوي) التي تُغنّى للطفل عند نومه. وهي تمتاز بصوت عاطفي جميل وقد انتجت عدة اغانٍ سجلتها في شركة بيضافون، وقد توفيت في الخمسينيات من سني هذا القرن.

١٧- حنا بطرس وكان معلماً للموسيقى في المدارس الرسمية وملحناً للأناشيد المدرسية. وعمل معاوناً لمدير المعهد الموسيقي العراقي الذي تأسس في بغداد سنة ١٩٣٦. توفي سنة ١٩٥٨.

١٨- صالح جلبي بن الحاج قدّو بن شاهين اغا، المتوفى سنة ١٩٦٥: كان من هواة الغناء يجيد غناء الادوار والقدود الحلبية وله بعض الاشرطة المسجلة.

١٩- جميل الاعظمي بن اسماعيل الموصلي، المتوفى سنة ١٩٦٧: أصله من الموصل، وكان من مشاهير قراء المقام في بغداد.

٢٠- صبحي بن احمد الكمنجاتي وكان من عازفي الكمنجة المعروفين في الموصل. اشتغل في فرق الملاهي الغنائية ثم سافر الى الكويت واشترك في تسجيلات المطرب ناظم الغزالي التلفزيونية هناك. وتوفي في حادثة سقوط الطائرة المصرية في البحر المتوسط وهي في طريقها من القاهرة الى بيروت في ١٨ آب ١٩٦٨.

٢١- ذنون بن احمد بن عبدالله الكواز درس القراءات السبع على شيخ القراء محمد صالح الجوادي. وكان من منشدي حفلات المولد. سجل للاذاعة العراقية مقام النوى في تموز ١٩٦٦



بمصاحبة الجوق البغدادي وله بعض التسجيلات على الاشرطة. توفي سنة ١٩٦٩.

٢٢ – السيد أمين بن السيد عبدالقادر الموصلي : من المطربين المجيدين في الموصل ولكنه لايلحق بشهرة اخيه السيد احمد الموصلي. وقد سافر معه الى بيروت وسجل بعض الاسطوانات الغنائية في شركة اوديون. واشهر اسطوانة له هي مقام الناري فهو احسن من غنى مقام الناري في الموصل على الاطلاق سكن في بغداد في أواخر عمره ، وكان حياً في اوائل السبعينات.

٢٣ – عبدالستار العاصي عواد ماهر وملحن موهوب تخرج في معهد الفنون الجميلة ببغداد. اشترك في بعض الفرق الموسيقية وله تسجيلات كثيرة. توفي سنة ١٩٧١ بمرض توقف الكلى وهو في اوج شبابه.

٢٤ – جميل بشير وهو موسيقار كبير وملحن مشهور في الاقطار العربية. له عدة مقطوعات موسيقية. عاش في بغداد وتوفي في لندن سنة ١٩٧٧.

٢٥ – سلطانة يوسف وهي مطربة كبيرة كانت تسمى (سلطانة الطرب). وقد انتقلت شهرتها الى مصر والاقطار العربية الاخرى. ولها تسجيلات غنائية عديدة كانت تذاع من الاذاعة العراقية. توفيت سنة ١٩٨٠

٢٦ – حسين عبدالله : وهو اشهر ضابط ايقاع في العراق. درس الايقاع على عثمان الموصلي وعمل في الاذاعة العراقية والتلفزيون منذ تأسيسها. وكان احد افراد خماسي الفنون الجميلة حتى وفاته سنة ١٩٨٢.

٢٧ – السيد اسماعيل السيد خليل الفحام ولد سنة ١٩١٠ ودرس المقامات والالحان في مقتبل عمره واصبح اشهر من يغني المقام في الموصل بعد السيد احمد عبدالقادر الموصلي الذي كان استاذه

اسماعيل السيد خليل الفحام ·
١٩١٠ – ١٩٩٠

في الغناء ، فقد درس عليه وتأثر به. كما درس على سلو الجزمجي والسيد امين عبدالقادر والسيد سلمان ، واتقن في عام ١٩٣٠ اداء جميع المقامات المعروفة. ويعد في الوقت الحاضر مدرسة في غناء المقام الموصلي. وقد وصلت شهرته الى بغداد حيث غنى عام ١٩٧٠ في تلفزيون العراق فسمعه العراقيون واعجبوا بغنائه. وهو يتمتع بصوت قوي عذب. ومن انجازاته إدخاله بعض الاضافات في المقام ، كاضافة النقلة في مقام الرست مع المثنوي. وله في المجمع الاذاعي والتلفزيوني في الموصل تسجيلات تزيد مدتها على المائة ساعة. توفي في ٦ شباط سنة ١٩٩٠.

الهوامش

(١) حول الحكم العثماني في الاقطار العربية انظر: ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، (القاهرة ، ١٩٥٧) ، ص١٣٣

(٢) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، جـ٢ ، (بيروت ، ١٩٥٦) ، ص٣٥٦.

(٣) المصدر نفسه ، جـ١٩ ، ص١٩١

(٤) علي بن الحسين بن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ٤ ، ص٢٢٣

(٥) الاصفهاني ، الاغاني ، جـ١٨ ، ص٢٩٧

(٦) الشيخ احمد بن عبدالرحمن القادري الرفاعي الشهير بالمسلم



الموصلي، تحقيق الشيخ جلال الحنفي، (بغداد، ١٩٦٤)، ص١٢.

(٧) البوسليك والزنكولة من أسماء المقامات الدخيلة على اللغة العربية.

(٨) الدر النقي في علم الموسيقى، ص٢٥ وكذلك محمد بك مصطفى الغلامي، شمامة العنبر، (بغدد ١٩٧٧)، ص١٢٥

(٩) محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوه چي، جـ١، ص٢٤٢ وكذلك: سليمان صايغ، تاريخ الموصل، جـ٢، ص١٧١، انظر: عصام الدين عثمان بن علي العمري، تحقيق سليم النعيمي، جـ١، (بغداد، ١٩٧٤) ص ٣٤٧، الغلامي، شمامة العنبر، ص١٢٥

(١٠) منهل الاولياء، ص٣٠٤، صايغ، تاريخ الموصل ص١٧٩، الغلامي، شمامة العنبر، ص٢٥٩، العمري، الروض النضر، جـ٢، ص٢٤٦.

(١١) الشيخ عثمان بن سند البصري، مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داؤد، (القاهرة، ١٣٧١هـ) ص٢٤٤ وكذلك: المغنون البغداديون والمقام العراقي، ص٥٩

(١٢) المغنون البغداديون والمقام العراقي، ص٥١

(١٣) انظر: محمد صديق الجليلي، التراث الموسيقي في الموصل، (الموصل، ١٩٦٤)، ص ص٦، ٨.

(١٤) المعلومات الواردة عن المغنين المذكورين اعلاه مأخوذة عن مذكرات كاتب هذه السطور نقلاً عن بعض المعمرين من أهل الموصل.

(١٥) محمود احمد الحنفي، سيد درويش واثار عبقريته، (القاهرة، لا.ت)

(١٦) محمد علي حماد، سيد درويش حياة ونغم، (القاهرة، ١٩٧٠)، ص ص٣٣، ٣٤، ٤٥، ٤٧

(١٧) عطا ترزي باشي المحامي «الملا عثمان الموصلي في اثاره التركية» مجلة قارد أشلق، العددان ١٤٥ – ١٤٦، حزيران ١٩٧٣.

(١٨) المصدر نفسه، ص٣

(١٩) قام الدكتور ابراهيم الداقوقي بترجمة هذا الكتاب الى العربية. وقد طبعه بمناسبة انعقاد المؤتمر الدولي للموسيقى العربية ببغداد واتبعه بمستدرك، وقد اشار فيه الى العلاقة بين الموسيقار كاظم اوز والموصلي.

(٢٠) المعلومات الواردة عن عثمان الموصلي في هذا البحث مأخوذة من الكتابين اللذين اصدرهما كاتب هذه السطور عن هذا الموسيقار وهما: (عثمان الموصلي الموسيقار الشاعر المتصوف، بغداد ١٩٦٦) و (مع عثمان الموصلي في فنه وعبقريته، بغداد، ١٩٧٣) وكذلك الوثائق والمذكرات الشخصية المتوفرة لديه.

(٢١) راجع (عثمان الموصلي الموسيقار الشاعر المتصوف) و (مع عثمان الموصلي في فنه وعبقريته) للدكتور عادل البكري ففيها معلومات مفصلة.

(٢٢) صديق الجليلي، التراث الموسيقي في الموصل، ص٢.

(٢٣) ياسين بن خير الله الخطيب العمري، منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوه چي، (الموصل ١٩٥٥)، ص١٨٤.

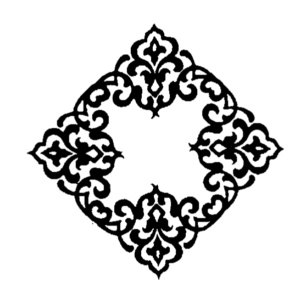
(٢٤) حمودي الوردي، الغناء العراقي، (بغداد، ١٩٦٤)، ص٦٢.

(٢٥) المصدر نفسه، ص٤٨

(٢٦) عبدالكريم العلاف، بغداد القديمة، (بغداد، ١٩٦٠)، ص١١٦.

(٢٧) سعيد الديوه چي، تاريخ الموصل، ص٢٣٦

(٢٨) صديق الجليلي، التراث الموسيقي في الموصل، ص٣.



رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٧٣٠ لسنة ١٩٩١



دار الكتب للطباعة والنشر
جامعة الموصل

